

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والجم والبربر ومن غاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

تأليف

ولي الدين عبد الرحمن بن محمد رابن خلدون

الكتاب الأول : المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قرأه وعارضة بأصول المؤلف، وأعد معارضة وفهارة

إبراهيم شيوخ إحصان عباس

توزيع 2006

كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبير

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

تأليف

ولي الدين عبد الرحمن بن محمد رابن خلدون

الكتاب الأول : المقدمة

الجزء الأول

قرأه وعارضة بأصول المؤلف، وأعد معاجمه وفهارسه

إبراهيم شيوخ
إحسان عباس

تونس 2006

نشرة تكميلية محدودة، أُعدت بمناسبة احتفالات تونسية بالملوية السادسة لوفاة

ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن جلدون

القبروا للنشر

اشترك في نشرها :

ص . ب 115 - المنار الثاني - تونس 2092 الجمهورية التونسية

الترقيم الدولي :

ردمك : 978 - 9973 - 861 - 001

الدار العربية للكتاب

الفرع الرئيسي : 4 شارع محيي الدين القليبي ص . ب 32

2092 - المنار الثاني - تونس - الجمهورية التونسية

ردمك : 978 - 9973 - 10 - 232 - 4

المقر الرئيسي : شارع غومة الحمودي - ص . ب 3185 - طرابلس

الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جميع الحقوق محفوظة، تنفرد بها "دار القيروان للنشر"

الطبعة الأولى

تونس 2006

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أُولَى سِيَادَةِ الرَّئِيسِ زَيْنُ الْعَبْدِ بِالْبَيْتِ عَلِيٌّ رَئِيسُ الْجُمْهُورِيَّةِ
التُّونِسِيَّةِ، نَابِغَةُ تُونِسَ، الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَحَلِّي، زَيْنُ خَلْدُونِ،
جَلِيلُ الْإِعْتِبَارِ وَكَرِيمُ الْإِنْصَافِ، فَأَذِنَ سَيَادَتُهُ
بِالْإِحْتِفَالِ بِذِكْرِهِ الْمِئْوَةِ السَّادِسَةِ، تَقْدِيرًا
لِإِسْهَامِهِ الْمُبْتَدِئِ فِي إِسْكَاءِ أُسُسِ عِلْمِ الْعُمَرَاءِ
الْبَشَرِيِّ، وَإِثْرَاءِ الْفِكْرِ الْمُسْتَنْبَرِ.

ابنُ خلدون

هذا الرَّجُلُ الْفَاضِلُ حَسَنُ الْخُلُقِ، جَمَدُ الْفَضَائِلِ، بَاهِرُ الْخَصْلِ، مَرْفِيعُ الْقَدْرِ، ظَاهِرُ الْحَيَاءِ، أَصِيلُ الْمَجْدِ، وَقُورُ الْمَجْلِسِ، خَاصِّي النَّزِي، عَالِي الْهَيْئَةِ، عَزُوفٌ عَنِ الضَّمِيمِ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ، قَوِي الْجَأَشِ، طَامِحٌ لِقَنَنِ الرِّئَاسَةِ، خَاطِبٌ لِلْحَظِّ، مُتَقَدِّمٌ فِي فُنُونِ عَقْلِيَّةٍ وَتَقْلِيَّةٍ، مُتَعَدِّدُ الْمَرَايَا، سَدِيدُ الْبَحْثِ، كَثِيرُ الْحِفْظِ، صَحِيحُ التَّصَوُّرِ، بَارِعُ الْخَطِّ، مُفَرِّغٌ بِالتَّجَلُّةِ، جَوَادُ الْكَفِّ، حَسَنُ الْعِشْرَةِ، مُبْذُولُ الْمُشَارَكَةِ، مُقِيمٌ لِرُسُومِ التَّعْيِينِ، عَاكِفٌ عَلَى مَرْعِي خِلَالِ الْأَصَالَةِ، مَفْخَرَةٌ مِنْ مَفَاخِرِ التُّخُومِ الْمَغْرِبِيَّةِ .

كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبير

تَمْهِيدٌ

أَبْقَى ابْنُ خَلْدُون قَبْلَ رِحْلَتِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ نُسخَتَهُ الْأَوَّلَى الْمُكْتَمَلَةَ مِنْ كِتَابِ تُزْجَمَانَ الْعَبْرَ، آثَرَ بِهَا خَزَانَةُ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَفْصِيِّ، بَعْدَ مَغَامَرَةِ فِكْرِيَّةٍ طَوِيلَةٍ بَدَأَتْ سَنَةَ 776هـ / 1347م فِي قَلْعَةِ تَاوَعَزَوْتْ، أَوْ ابْنِ سَلَامَةَ⁽¹⁾ فِي مَقَاطَعَةِ وَهْرَانَ مِنَ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَزَائِرِيَّةِ، وَانْتَهَتْ فِي تُونِسَ نَحْوَ سَنَةِ 782هـ / 1380.

وَتَبَّى الْكِتَابَ، كَمَا يَقُولُ فِي مُسْتَهْلَ الْمَقْدَمَةِ، عَلَى أَخْبَارِ الْجِيلَيْنِ اللَّذَيْنِ عَمَّرَا الْمَغْرِبَ فِي عَصْرِهِ، وَمَا كَانَ لهما مِنَ التَّوَلُّ، وَمِنْ سَلَفٍ لهما مِنَ الْمُلُوكِ، وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْبُرُجُ: "الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ بِالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا، وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَخْقَابِ مَثْوَاهُمَا، حَتَّى لَا يَكَادُ يُتَصَوَّرُ عَنْهُ مُنْتَوَاهُمَا، وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الْآدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا".

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مَضَرَ سَنَةَ 784هـ / 1382م، فَأَفَادَ - كَمَا يَذْكُرُ - "مَا نَقَصَهُ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَالتَّرِكِ وَمَمَالِكِهِمْ، وَمِنْ عَاصِرِهِمْ مِنَ الْأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ التَّوَّاحِي"، وَبَدَأَ فِي الْإِضَافَةِ وَالْمَرَاجَعَةِ الشَّامِلَةِ وَالتَّهْذِيبِ.

وَكَانَتْ سَنَوَاتُ إِقَامَتِهِ الْأَوَّلَى مَوْزَعَةً بَيْنَ سَفَرِهِ إِلَى الْحَجِّ، وَتَوْفِيرِهِ وَسَائِلِ اسْتِقْرَارِهِ، وَالْجَدِّ فِي التَّدْرِيسِ، وَتَقْمِيتِ رِوَابِطِهِ بِرِجَالِ الدَّوْلَةِ؛ وَكَانَتْ دُرُوسُهُ الَّتِي

(1) كَانَتْ رِبَاطًا لِبَعْضِ الْمُنْقَطِعِينَ مِنْ سُوَيْدٍ، وَسَلَامَةُ الَّذِي تَنْسَبُ إِلَيْهِ، هُوَ سَلَامَةُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ نَصْرِ بْنِ سُلْطَانِ رَيْسَ بَنِي يَنْدَلْتَنَ مِنْ بَطُونِ تَوْجِينَ، سَكَنَ تَاوَعَزَوْتْ، وَاخْتَطَّ بِهَا الْقَلْعَةَ فَانْسَبَتْ إِلَيْهِ، انْظُرْ: الْعَبْرُ 7: 130.

عَرَفَ فيها بِمَنْزِلَتِهِ مُنْصَبَةً عَلَى تَدْرِيسِ الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ وَتَدْرِيسِ مُقَدِّمَةِ الْعِبَرِ⁽¹⁾. وَلَمْ يَفْرَغَ لِلْكِتَابِ وَاسْتِكْمَالِهِ إِلَّا بَعْدَ فِتْنَةِ النَّاصِرِيِّ الَّتِي امْتَحِنَ فِيهَا⁽²⁾ وَأَلْزَمَتْهُ الْعُزْلَةُ، فَانْكَبَتْ عَلَى مَرَاجَعَةِ عَمَلِهِ فِي الْعِبَرِ، وَاسْتِكْمَالَ مَوَادِّهِ وَتَخْرِيرِهَا، وَأَخْرَجَ نُسخَتَهُ الْأُولَى فِي مِصْرَ سَنَةِ 797هـ / 1394م بَنِيَّةً إِهْدَائًا لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ، بَعْدَ أَنْ غَيَّرَ تَسْمِيَةَ الْكِتَابِ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ فَضْلَ التَّعْرِيفِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ النُّسخَةَ لَمْ تَصِلْ إِلَى مَسْتَقَرِّهَا، وَلِأَسْبَابٍ مَا بَقِيََتْ عِنْدَهُ، وَبَدِئَ فِي انْتِسَاخِ النُّسخِ الْكَامِلَةِ بَعْدَهَا. وَلَعَلَّ مِنْ أَشْهُرِ مَا عَرَفْنَا مِنْهَا وَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَهَا - وَهِيَ مِنَ النُّسخِ الْخَزَائِنِيَّةِ - أَجْزَاءٌ مِنْ بَقِيَّةِ نُسخَةِ الْقُرَوِيِّينَ (الْفَارَسِيَّةِ)، مُؤَرَّخَةً فِي سَنَةِ 799هـ / 1396م، وَأَجْزَاءٌ مِنْ نُسخَةِ الْخَزَانَةِ الْمَقْرِيَّةِ السَّعْدِيَّةِ الصَّاحِبِيَّةِ، وَأَجْزَاءٌ مِنْ وَقْفِ عَبْدِ الْبَاسِطِ بْنِ خَلِيلٍ الشَّافِعِيِّ؛ وَأَحْدَثَ هَذِهِ النُّسخُ تَارِيخًا فِي حَيَاةِ الْمُؤَلَّفِ هِيَ الْمُؤَرَّخَةُ عَلَى الْيَقِينِ بِآخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ، وَأَمَّا الْمَقَدِّمَةُ فَكَانَتْ بِوَجْهِ خَاصٍّ مُلَازِمَةً لَهُ، يُضِيفُ عَلَيْهَا بِلَا انْقِطَاعٍ مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ تَعْدِيلٍ وَتَهْذِيبٍ وَإِلْحَاقٍ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي تَطَوُّرِهَا إِلَى آخِرِ حَيَاتِهِ.

وَعِنْدَمَا رَحَلَ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا سَنَةَ 808هـ / 1406م، كَانَتْ تُونِسُ تَحْتَفِظُ بِالنُّسخَةِ الْأُولَى فِي خَزَائِنِ وَرَثَةِ السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ، وَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ النُّسخَةِ ذِكْرٌ ضَعِيفٌ يَبْدُو فِي نُذْرَةِ نُسخِهَا. وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ نَصْرُ الْهُورِينِيِّ⁽³⁾ مُصَحَّحَ مَطْبَعَةِ بُولَاقِ أَنَّهُ اعْتَمَدَ فِي طَبْعَتِهِ لِلْمَقَدِّمَةِ سَنَةَ 1274 عَلَى الْمَخْطُوطِ 612⁽⁴⁾ (تَارِيخُ تِمُورِ

(1) السخاوي : الضوء اللامع 8 : 233 .

(2) يأتي في التعريف بمخطوط الظاهري .

(3) الإعلام .

(4) عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون 62 .

(١) قوله أتخفت بهذه السبعة منه الخ وجد
 في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قل
 قوله أتخفت وبعد قوله وأدرت سياجه ونسها
 التمس له الكفو الذي يلج بعض الاعتبار
 قنونه • ويلفظ بداركة الشريعة بمعناه
 المصحح وقانونه • ويميز منه في المعارف عما
 دونه • فسرحت فكري في فضاء الوجود
 وأجلت نظري ليل التمام والهجود • بين
 التهاشم والهجود • في العلماء الركن الصمود •
 والخلفاء أهل الكرم والجود • حتى وقف
 الاختيار باحثة الكمال • وطافت الأفكار
 بموقف الآمال • وظفرت أيدي المسامى
 والاعتمال • بمنشدي المعارف في شرفة نسيه
 ضرر الجبال • وحدائق العلوم الواقعة الطلال
 من العين والسمال • فأنخت على الأفكار
 في عرصاتها • وجلوت بحاسن الانكسار على
 منصاتنا • وأنخت بدبراتها مناصبها
 رأطلعته كوكبا وفادا إلى أفق خزايتها وصوانها
 ليكون آية للعقلاء • يتدون بناره • ويعرفون
 فضل المدارك الانسانية في آمانه • وهي خزانة
 مولانا السلطان الامام الجاهد التناخ الماهد
 ال آخر النعوت المذكورة هنا ثم قال ان خليفة
 أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبو
 العباس أحمد ابن مولانا الأمير الطاهر
 المقدس أبي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة
 المقدس أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ابن
 الخلفاء الراشدين من أئمة الموحدين الذين
 جسدوا الدين ونهجوا السبل للهدين
 ومحروا آثار البقاة المفسدين من النجاسة
 والمغدين سلالة أبي حفص والفاروق والسبعة
 النامية على تلك المغارس اراكبة والبروق
 والنور المتلال من تلك الاشعة والبروق فاوردته
 من مودعها العلى بحيث مقر الهدى ورياض
 المصارف خلة الندى الى آخر ما ذكر غضا
 اذ انه لم يقيد الامامة بالقائمة لكن النسخة
 المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المتفولة
 من خزانة المكتبة القاسية ولم يتل فيها
 ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ

• نص الإهداء لأبي العباس الحفصي من حاشية طبعة نصر الهوريني للمقدمة

ومظهر الألبان الربانية • في فصل المدارسة الإنسانية • بخصه التائب السعد • ورأيه الصحيح
 المعاهد • التبر المذاهب والعقائد • نور الله الواضع المرشد • وضعه العنبة المواردة • ولفظه
 الكلمين المرامد للشدائد • ورجته الكريمة المقالدة • التي وصفت حلال الزمان القاسدة • وانه تنامة
 المائد من الاحوال والعوائد • وزجت بالخطوب الاوابدة • وخلخت على الزمان دوق التشايب المصائد •
 وجهته التي لا يخلها انكار الجاحد ولا شبهات المائد • (أمير المؤمنين) أبو فارس عبد العزيز بن مولانا
 السلطان الكبير شيخنا هذا المقدس أمير المؤمنين • أبي الحسن ابن السادة الاعلام من بني حمرين • الذين
 بددوا الدين • ونهبوا الديار للمهتدين • وعمر آملوا بغاة القسدين • أقام الله على الأئمة خلافة •
 ولفظه في نصر دعوة الاسلام آمله • وجهته الى خزائنه الموقدة لطيفة العلم بصالح القرويين من مدينة قاس
 حضرة مطكهم • وكرسى سلطانهم • حيث مقر الهدى • ورياض المعارف خلد المدي • وضياء الاسرار
 الربانية فسيح المدي • والامانة الكريمة الفارسية العزيرة ان شاء الله ينظرها الشريف • وفذاهها
 القتي عن التعريف • تبطله من العناية مهادا • وتخصه في جانب القبول آمادا • فتخرج من مادة
 على رسوخه واشهادا • فقي موقعا تنق بضائع الكلاب • وعلى خضرته انعكس ركائب العلوم والآداب •
 ومن مدبصاتها الميرة نتائج القرائح والالباب • وانه يوزعنا شكره منها • ويوفر لنا حظوظ المواهب
 من رجبها • ويصفنا على حقوق خدمتها • ويحيطان من الابتن في ميدانها • اهلين في حومتها •
 ويضفي على أهل البتيا • وطأوى من الاسلام الى حرم عمالتها • لبوس حايه ملبوسها • وهو سبحانه
 المستور • يجعل عماله خاصة في وجهها • ربة من شوائب الغفلة وشبهتها • وهو سبحانه ربه •
 المولود فاس غليزر

﴿النسبة﴾

في فصل علم وقاريج وتحقيق ما حسب والامام لما مر من نبذ زعيم من نبذ لواءه ودام وذكر شئ من أسبابا
 (اعلم) أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جيم القوائد شريف الغاية اذ هو يوفقنا على أحوان الماضين
 من الامم في أخلاقهم • والانبياء في سيرهم • والملوك في دولهم وسياسهم • حتى تتم الفائدة الاقتدا في ذلك
 ان يروى في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى ما أخذ متعذدة ومعارف متنوعة وحسن نظرويت
 بضمان صاحبها الى الحق ويكفي به عن المزلات والمغالطات لان الاخبار اذا اعتمدت على مجرد النقل
 ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا في انقياس الغائب
 منها بالاشاهد والحاضر بالذهاب فربما لم يؤمن فيها من انفسور ومرة انفسد والجهد من جهة الصدق وكثيرا
 ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالطة في الحكايات والوقائع لا اعتمادهم فيها على مجرد النقل غشا
 أو سبوتا لم يرضوها على اصولها ولا قاسوها بأبائها ولا يبروها بما يبرها بالحق والوقوف على طبائع
 الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والظلمة سعا في اصحاء
 الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذ هي مثقلة بالكذب ومطية الهذو ولا بد من ودعا
 الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما فضل المسعودي وكثير من المؤرخين في جبهوش بن اسرائيل
 وأن موسى عليه السلام أحصاه في اليه بعد أن أجاز من يطبق حل السلاح خاصة من ابن عشرين فخافوها
 فكانوا استقامة ألف أو يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام وانساعها مثل هذا العدد من الجوش
 لكي يملكه من المعالك حصة من الحامية تتبع لها وتقوم بوظائفها وقضيق عمافوها انهم بدلتهم ورائد
 المعروفة وان احوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد بعد أن يتبع منها رغب أو قال
 يضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا انطلقت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثا أو يزيد فكيف يقتل هذا
 القربان أو تكون غلبة أحد الصفيين وشئ من جوانبه لا يشعرا بالجانب الآخر والحاضر ينهض في كالمناهي
 تشبه بالآتي من الماء بالماء • وتقدص كل من القوس ودولتهم أعظم من ملك بن اسرائيل بكثير بنهد
 من ملك ما كان من طلبه تحت نصر لهد واتهامه بلادهم واختلافه على أمرهم وتخرب بيت المقدس قاعدة ملتهم
 وسنماهم وهو من عصر عمال مملكة فارس يقال انه كان من زعمان المقرب من تخومها وكانت محالكمهم

قوله اغارسة أي المسوية
 الى الامم أي فارس المتقدم
 ذكره وانظر مع هذا القول خزائنه
 الادب في الصنعة ٢٠
 صاحب قوس وهو التوسيل
 على انه أبو فارس عبد العزيز
 ٨١ مع أن بن حمرين هم
 المولود فاس غليزر

بدار الكتب المصرية)، وقابله على نسختين لم يحدد مَوقِعهما، الأولى مُهداة لأبي فارس عبد العزيز المريني، والثانية نسخة مهداة للخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي العباس أحمد الحفصي⁽¹⁾.

ولا ندري هل هي نسخة كُتبت في تونس عن أصل، أم هي تما قَدِمَ به ابن خَلْدُون عند حُضوره إلى القاهرة، ونُسِخت عنه هناك. ونُسخة أخرى تحمل الإهداء نَفْسَه، محفوظة بالمكتبة البريطانية

BL. Additional Mss 9574

فهل يرجع تقلص انتشار النسخة الحفصية الأولى إلى الانصراف عن انتساخها بعد أن ظهرت النسخة الكاملة الموسعة والمستوفية للأحداث، والممتدة إلى الحَقَب والوقائع القريبة، حتَّى أصبح الكتاب في مصر رائجاً ومُنْتَسخاً في أكثر المكتبات العامة.

فلما جاء العُثمانيون وبدأت تعمر مكتبات إستانبول، بما انتقل إليها من خزائن الشَّام ومِصر، وظَّهر التَّسابقُ لالتقاط التوارد والأصول المهمة، تحوَّلت إلى هناك ذخائر المكتبات الخاصة والعامة بوقفيَّاتها المُسجَّلة عَلَيْها نحو خَزائن السُّلاطين والوزراء وكبار الرُّجال ؛ بما في ذلك النُّسخ والأجزاء المُختلفة المهمة من كتاب العِبَر، وكان للمقدمة حُضورٌ بعد ذلك في الفكر التُّركي⁽²⁾، بدءاً بالقرن الحادي

(1) انظر نص الإهداء على حاشية طبعة الهوريني .

(2) انظر الترجمات التركية وابن خَلْدُون عند المؤرخين الأتراك، عند عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خَلْدُون 169 -

عشر للهجرة (17م)، فقد ترجمها محمد صاحب المعروف ببيري زاده سنة 1138هـ / 1725م وطبعت سنة 1860، وأصبح اسم ابن خلدون معروفاً تفخر المكتبات بوجود أصوله المهمة فيها، كما نرى في العناية التي لحقت أضله المباشر الذي استقر في مكتبة عاطف مصطفى.

لقد احتجبت المخطوطات المهمة في تركيا داخل مستقرها الجديد، ولم تُعرف في العالم العربي، ولم يرَ لها ذكر فيما أعلم، عدا بعض النسخ الحديثة المنقولة عنها، فإنها عُرِفَت طريقها إلى مِصر خاصة بفضل عناية العلامة أحمد تيمور باشا وأحمد طلعت باشا وغيرهما من العلماء الذين كانوا يترددون على دار الخلافة، ويرتادون مكباتها ويستنسخون نقائسها.

وأصبحت النسخة الفارسية في القرويين بعد انقطاع أثر النسخة الحفصية التونسية واحتجاب الأصول المهمة من نسخ المؤلف المصححة في مكبات إستانبول وبعض الآفاق الأخرى، أصبحت هي المصدر الأوثق والمهم والأكثر ترويحاً لكتاب العبر، وذلك منذ دخلت المغرب إلى أن أدركها التلاشي. فأقبل عليها النساخ إقبالاً شديداً، يدلّ عليه هذا الكم الوافر من النسخ الخاصة والعامة التي يتصدرها الإهداء لخزانة أبي فارس عبد العزيز؛ وتوالدت النسخ من بعضها، وأكثرها إن لم أقل كلها كُتبت بالخط المغربي المتلاحق المقور المعروف.

وآفة هذه النسخ المتصلة بالفارسية أن أضلها الذي كتبه ابن الفخار سنة 799 هـ (1396م) كان قد أعدّه - فيما يبدو - متعجلاً ليُرسل إلى المغرب الأقصى مع

وسار في قومه واسه عيونه بان محمد بن زيد بن حاتم قد توجه من قبل الامس في
 جند الحمي الا هو ازمن اصحاب طاهر فبعث من اصحابه محمد بن طالوت ومحمد بن
 الخلا والقياس بن بخارا حذاء مدد اللرسى مرادهم بفرش من شيل سم
 سار سفه حتى كان في بيوتهم واسروا على محمد بن زيد بعسكر متلزم وقد
 اشار عليه اصحابه بالرجوع الى الاهواز والحصن بها حتى يسه قومه الارز
 من النصر فرفع وامر طاهر فرش من شيل باتباعه قبل ان يحسن بالاهواز
 فخرج لذلك وفاته محمد بن زيد الى الاهواز وجا على امره فاضلوا فبالسند
 وقر اصحاب محمد استنات هو ومواله حتى قتلوا وملك طاهر الاهواز
 وولى على الهامة والبحرين وعمان سار الى واسط وبها السندى بن يحيى
 الحرثي والهم بن شعبه حليفه حربه من خاتمهم باعنها وبكها طاهر وبعث
 فادار من قواده الى الكوفة وبها العباس بن المهدي فجمع الامس وابع للمامول
 19 سوكب بذلك الى طاهر وكذلك جعل المصنوع من المهدى بالصوم والمطلب
 73 عن الله بن محمد الملك بالموصل وافر طاهر على اعماله وبعث الهرث بن هشام
 وداود بن موسى الى قصر همدان واقام هو بجرجانا ولما بلغ الخبر بذلك كله
 الى الامس بعث محمد بن سليمان العابد بن محمد بن حماد البربري الى قصران همدان
 فضا طاهر للثريت وداود فبالسندى وهو يومه الى بغداد وبعث الحسن ايضا
 الفضل بن موسى بن عيسى على الكوفة فبعث اليه طاهر محمد بن العلاء بن عيسى
 فلقنه في طريقه فاراد مسالمة بطاعة المامول كاد اسرا بلمه فانهزم الى
 بغداد ثم سار طاهر الى المدائن وعلها البركي والمدن فوصل اليه كل يوم فقدم
 فرش من صيل فلما اشرف عليهم واخذ البرمكي في المعية فكانت الامم له فاطم
 سئل الناس وكتب بعضهم بعضا نحو بغداد وملك طاهر المدائن وبها اصحابه
 نزل قصر وعقد بها جسرا فبعث الى الجواز للمامول ولما اذن له
 كتب العهد من قاهر داود بن عيسى فكان على مكة والمدن فجمع المامول قاهر
 في القاس ونكر بعض العهد وكرهم ما اضر السيد عليهم من المسك والانس
 في المسجد الحرام ان يكونوا على الطاهر وان محمد بن ابي الطاهر والتمكت وجمع
 عيونه وابع لطفل صغير وضع واحدا الكاين من الدية فخره صاحبها
 ثم دعاه الى حلقه والسعة المامول فاجابته ونادى بذلك في شجابه فمكة

بعثة الملك الظاهر، فكان خطّه فيها أقلّ أناقةً وتحقيقاً للحروف، وأكثر تداخلاً وإهمالاً للنقط. ولغرابة أسماء الممالك وبعض البلدان والوقائع وأسماء أهل الأمم القديمة، فقد وردت - فيما خطّوه عنها - محرّفة أو مصحّفة أو يُترك لها فراغ، وهذا شمل أقساماً شتّى من الكتاب وامتدّ إلى ممالك التّرك والعجم بخاصة. ثم ترهّل مع الزّمن ذلك الأصل الفارسيّ وأخذت بعض أوراقه تتساقط وتختفي، فيُنقل النّاسخ ما بقي منه. وندرت النّسخ الصّحيحة من الكتاب.

يذكر المؤرخ أحمد بن أبي الضيّاف⁽¹⁾ أنّ عليّ بن تاج القفصيّ الآجريّ (المتوفى سنة 1225هـ / 1810م) وهو من أهل العلم، أمره باي تونس "أن ينسخ له تاريخ ابن خلدون، وجمع له نسخاً جميعها محرّفة، وهو الذي أصلح تحريفه"⁽²⁾، وقد عمّد بعض النّسّاخ إلى استكمال الفراغات التي تُصادفهم من مصادر أخرى⁽³⁾ ممّا أدخل الإرباك والخلل على وحدة النصّ.

وعندما بدأت الطّباعة العربيّة في الشرق في القرن 19م كان كتاب العبر من بين ما شملته العناية ليُنشر ويُنشر، تجاوباً مع صيت مؤلّفه. فظهر الكتاب الأول (المقدّمة) أولاً في قطع كبير بتصحیح الشيخ نصر الهوريني⁽⁴⁾ سنة 1274هـ / 1858م ،

(1) إتحاف أهل الزّمان 7: 59 .

(2) يوجد من آثاره في مكتبة طلعت رقم 2106 (تاريخ طلعت، بدار الكتب المصرية) الجزء الثاني من العبر كتبه للباي حموده باشا سنة 1211هـ / 1797م، ورأيت المقدمة بخطه في مكتبة شيخنا محمد الشاذلي التيفر.

(3) النسخة التي كتبها محمد الصغير الباجي رقم 6128 بدار الكتب التونسيّة، وكان الباجي ناسخها يعبر في حواشي الكتاب عن استنقاله للتكرار، وتساؤله عن الفائدة من إعادة التذكير والربط التي درج عليها ابن خلدون .

(4) الأعلام 8 : 29 .

معتمداً على النسخة الحديثة التي كان الإهداء فيها موجّهاً إلى أبي فارس عبد العزيز المريني.

ثم نُشر كتاب العبر كاملاً للمرة الأولى في سبعة أجزاء، وأعيد معه طبع المقدمة، وذكر تاريخ طبعه على الجزء السابع وهو سنة 1284هـ / 1867م مع كلمة من مصحح المطبعة محمد الصباغ.

ويجدر التنبيه أنّ الجزء الثاني طُبع على مرحلتين، فقد وُجد قسمٌ يمثل نصف الجزء تقريباً (190 صفحة) ولم يعثر على تكمّله، وبعد البحث أمدهم صبحي بيك (?) ببقية الجزء من مجموعته (338 صفحة) لندرة وجوده في المكتبات، وصَحّح القسمين نصرُ الهوريني معتمداً في عمله على كامل ابن الأثير وبداية ونهاية ابن كثير، وعلى شرح المواهب اللدنية.

وواقع هذه الطبعة الأولى لكامل الكتاب، يؤكّد حقيقةً فساد الأصول المخطوطة والجهولة التي اعتمدت في نشرها، ويُشير الإهداء الذي يتصدرها أنّها استندت على المخطوطات المنقولة عن النسخة الفارسية، وهذا الفرع من النسخ يصبح أكثر تشوّهاً كلّما كان أحدث نسخاً.

وقد عارضتُ - للتدليل على ذلك - صحائف من طبعة بولاق هذه، على ما يُقابلها من نسخة الظاهري، في جملة من المواضع، وأقدم هنا أحدها مثلاً:

في الجزء الثالث صفحة 22 (طبعة بولاق) ينتهي فصل "سير الحسن إلى الكوفة ومقتله" بقوله: فأشار عليه سرجون، [ثم يياض بقدر خمسة أسطر].

وفي مخطوط الظاهري، يوجد بقية الفصل تاماً، وبعده الفصول التالية
الساقطة من المطبوع:

- [ولاية سلم بن زياد خراسان وسجستان
- ولاية الوليد بن عتبة على الحجاز، وعزل عمرو بن سعيد
- خلع أهل المدينة يزيد، ووقعة الحرة، وحصار مكة
- وفاة يزيد وبيعة معاوية ابنه ومهلكه
- انتقاض أمر ابن زياد ورُجوعه إلى الشام
- بيعة مروان ووقعة مَرَح رَاهِط
- انتقاض خراسان على سلم بن زياد، واستقرارها لابن حازم
- مفارقة الخوارج لابن الزبير
- خروج سليمان بن صرد في التوابين من السبعة
- وفاة مروان وبيعة عبد الملك
- فتنة خراسان]
- فتنة المختار بالكوفة وأخباره

ويعود ارتباط النص المطبوع أثناء هذا الفصل.

وتتكرر مثل هذه الفجوات التي تبلغ العشرة والعشرين من الصفحات،
ويترك في المطبوع مكان سطرٍ أو سطرين، وفيه إشارة تقول: بياض بالأضل.

هذا إلى جانب الأخطاء القبيحة في تحريف الأسماء، وسوء القراءة، كأن يقول: استخلاف زياد، بدل استلحاق زياد، وخلافة أهل الكوفة، بدل: خلاف أهل الكوفة، والجراح، بدل الخراج. والمطالع للكتاب تصادفه البقع البيضاء المنتشرة في كل أجزائه بدون انقطاع.

وتناسلت من نسخة بولاق هذه طبعات أخرى لم تُضف غير زيادة الأخطاء، وليس فيها للتحقق جُهد ولا للعلم أثر، فابتعد النص الخللوني عن البحث التاريخي، ولم يأخذ موقعه اللائق به. وربما كان الكتاب الأول أكثر خطأ وأقل تعرضاً للاختلال، لما لحقه من العناية والتصحيح، ولكنه يفتقر غير سالم من النقص والتحريف بنسبة أقل، مع أن أكثر الطبعات نقلت من بعضها بدون جُهد تصحيح على الأصول، وفي حالة واحدة حاول الدكتور عبد الواحد وافي يرحمه الله، أن يستشير بعض مخطوطات دار الكتب المصرية ولم يتجاوزها، واهتدى إلى النسخة التيمورية المنقولة عن الأم نسخة عاطف مصطفى؛ فصوب الكثير مما شاع من الخطأ. ولو أن المستوى الفني لطبعته كان ضعيفاً للغاية، وأنه وجه جُده إلى التعليق على ما يتصل باختصاصه في علم الاجتماع، وربط مادة المقدمة ببعضها ما استطاع، وشرح الكلمات من القاموس؛ ولما في عمله من ضعف، فقد نقده الدكتور عبد الرحمن بدوي⁽¹⁾، واعتبر نشرته غير علمية، لأنها لم تقم على قواعد منهج التحقيق النقدي للنصوص. ومع كل هذا، فقد استُغلت طبعته، ونُهب نصّها. واختصر ما به الحاجة من تعاليقه، تعميةً وتمويهاً لا يخفى. أما عن متابعتها حياة ابن خلدون فقد كانت وافية.

(1) مؤلفات ابن خلدون 222 .

وفي أوربا وفي غير البلاد العربية ظهرت ترجمات⁽¹⁾ ونشرات نقدية جزئية من المقدمة والتاريخ؛ من أهمها، عمل Etienne Quatremère الذي نشر المقدمة⁽²⁾ في السنة التي ظهرت فيها بمصر نشرة الشيخ نصر الهوريني سنة 1858م ، وهي نشرة مهمة لم يُستفد منها في كل ما ظهر من نشرات في المشرق العربي، ويبدو أن السبب ندرة هذه النشرة واحتجاجها عن أغين الدارسين قبل أن تنتشر أخيراً بالتصوير. وميزة عمل كاترمير أنه اعتمد أنوع مخطوطات اتجه لانتقائها لأول مرة من بعض الأصول المهمة في مكتبات إستانبول ، ولم يتعامل معها مباشرة وإنما انسخت من هناك عن نسخة الظاهريّ بأجزائها الأربعة عشرة ، ثم المخطوط الذي اشترى من تركيا وحُفظ بعد ذلك مع النسخة المنقولة عن الظاهريّ في المكتبة الوطنية برقم 1733 .

واستعمل في نشرته المنهج "اللائشمانى" في النقد النصي، وحرص على إثبات فروق النسخ في الحاشية، وإلى جانب بعض المآخذ التي حُسيبت عليه، ومنها إسقاط نص إهداء النسخة التي اعتمدها للملك الظاهر برقوق، فإن نشرته ظهرت متسلسلة لا وقف فيها ولا ابتداء، فلم يستعمل أي شكل من أشكال الترقيم التي تساعد على فهم النص، وإبراز قواصله، وإيضاح جملة الطويلة، ولم

(1) انظر تفاصيل ذلك عند عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون 169 ، وما بعدها، وموسوعة المستشرقين 311-314 .

(2) لعلّه أول من أفرد وروج للكتاب الأول من العبر ، باسم: مقدمة ابن خلدون - PROLEGOMENES D'EBN-KHALDOUN ، على حين ظهرت طبعة الشيخ نصر الهوريني على أنها الجزء الأول من كتاب العبر.

يَضْبُطُ أَيَّ كَلِمَةٍ كَانَتْ عِلْمًا لِشَخْصٍ أَوْ لِبَلَدٍ أَوْ قَبِيلَةٍ، وَهَذَا يُجْعَلُ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْهَا مُحَدَدَةً، وَتَحْتَاجُ إِلَى تَبْذُلِ جُحْدٍ إِضَافِيٍّ لِلتَّحْقِيقِ وَمُتَابَعَةِ الْمَعْنَى.

ونُشِرَ Le Baron de Slane القسم الرابع من الكتاب الثاني ، ثم الكتاب الثالث بأكمله ، وهو الذي فيه " الخبرُ عن زَنَاته من قبائل البربر وما كان بين أجيالهم من العزّ والظهور ، وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة " ، وظهر هذا العمل في الجزائر في جزأين كبيرين سنتي 1847 و 1851 بعنوان : " كتاب تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب ⁽¹⁾ ". وهو أسبق ظهوراً من طبعة بولاق التي لم تستفد منه في تصحيح الأجزاء المتطابقة والمختلفة الأصول.

إن ترادف نشرات المقدمة في نصّها العربيّ، وتوالي التركيز على البحوث الاجتماعية والعمرانية التي تضمّنتها، بالإضافة لما يُنشر في أوربا عنها بالغاً أقصى حدود الكثرة التي تعدّ بالمئات ما بين كُتب ودراسات، كلّ هذا، فصلّ المقدمة أو الكتاب الأول عن جسده، وأضحى وكأنّه عملٌ مُستقلّ حجبَ كتاب العبر وقُلِّلَ من ذكره، ولم يُقبل الباحثون على ابن خلدون المؤرّخ، وعلى جوانبه التي يتفرد بها في تاريخ البربر والمغرب الإسلامي، لما عليه طبعة بولاق الوحيدة من أخطاء وأنقص وسوء طباعة.

وأدرك هذا الخلل في هذا المصدر المهمّ، نخبّة من مفكّري الثلاثينيات، فعملوا على إصدار طبعة جديدة محقّقة من الكتاب، وابتدر الناشر محمد المهدي

(1) انظر تفاصيل ذلك عند عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون 195 ، وما بعدها .

الحبابي لتبني المشروع، وازتاد إلى العمل فيه الأستاذان علاّ الفاسي وعبد العزيز ابن إدريس - رحمهم الله - فتوليا مراجعة الكتاب وضبط أعلامه، وشرح ما احتاج إلى شرح وتغليق من عبارات المؤلف، والكشف عن مادة الكتاب بوضع عناوين جانبية صغيرة، وإعداد فهرس مفصلة جيدة في الآخر. فصدر سنة 1936م⁽¹⁾ جزآن، اشتمل على الجزء الثاني بقسميه من طبعة بولاق، يتدآن من أول الكتاب الثاني "في أخبار العرب وأجياهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد" إلى "بيعة الحسن وتسليمه الأمر لمعاوية".

وأثنى الناشر على الذين لاقى منهم المساندة والعون، واعتذر المحققان أو المصححان، بأنّ أملهما في النسخة الفارسية التي كانت بالقرويين قد تلاشى، لضياح سفرها الأول (كذا)، وبذلك اضطرّا للمراجعة على المصادر التي اختصر منها ابن خلدون نصّه. وبذلا الجهد في ضبط الأسماء، واستفادًا من نسخة الشنقيطي المحفوظة بدرا الكتب المصرية (رقم 1 ش تاريخ)، والتي كتبت لخزانة الخليفة الشريف ابن مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف ابن أبي الحسن العلوي⁽²⁾.

وردّد الأستاذ أحمد أمين ما ذكره الناشر من أن وزارة السلطان محمد الخامس قد أذنت له بالمراجعة على نسخة ابن خلدون الموقوفة على القرويين، عدا الجزء الأول، وذلك تعميماً للفائدة. وإذا كان هذا صحيحاً فلماذا لم يعتمد الجزء الثاني في نشر القسمين الذين اضطلع بهما؟

(1) طبع الجزآن في مطبعة النهضة بمصر، وطبع معها جزء منقرد من التعليقات والحواشي المطوّلة على بعض موضوعات الكتاب، حرّرها الأمير شكيب أرسلان.

(2) انظر عن وصف هذه النسخة، بدوي: المرجع السابق 84- واعتبرها من النسخ الرديئة، ص 235.

وقد قَرَّ هذا المشروعُ الَّذي انطلق بحماسٍ سرَّعان ما حَفَّتْ، ولم يَعْرِفْ القائمون عليه كيف يَبْدَأُون البدايةَ الصَّحيحة. وتحوَّل إلى اجتِهَادٍ في التَّصحيح المُطلق من غير استنادٍ إلى أصولٍ صحيحة للكتاب نفسه.

ولكنَّ أهمَّ ما قدَّمه هذا المشروع وَقْتُها من رَمَزٍ متَّسع الدلالة، هو أنَّ تلك النخبة⁽¹⁾ التي آزرت النَّاشِر والتَّفَّت حوله، وتعهَّدت بإعداد أجزاء الكتاب، كانت عميقة الإيمان بأن عبد الرَّحمن بن خُلْدون، الحضرميَّ الأصول، التُّونسيَّ المولد والنَّشأة، الأندلسيَّ المغاربيَّ في تجرِبته وتطوُّر وعِيه، المصريَّ الَّذي أنهى حياته في رحاب القاهرة، بعد تقلُّب الزَّمان عليه بالحَقْض والرَّفْع، أنَّ هذا التُّونسيَّ الضَّارب في الآفاق الباحث عن مستقرٍّ، قيمةً إنسانيةً كُبرى، ورمزٌ بارز ومتفرد من رموز التَّنوير، وحصيلةُ ثقافة عظيمة. وبذلك تمدَّد وطنه في الشرق والغرب، وملأ الدُّنيا وشغل النَّاس، وأصبح تراثاً إنسانياً.

ولا أشكُّ في أن ظهورَ مشروع الحبابيَّ سنة 1936 واختفاءه فجأة، كان له أثرٌ في عقل الوافد الجديد من طَنْجة على القاهرة سنة 1938، فقد وطَّد الشَّاب العالم محمد بن تاويت الطَّنْجِي صِلَتَه الحميمة التي لم تنقطع بائِن خلدون، بعد أن تشبَّع بالثقافة العربية الإسلامية في رحاب القرويين بفاس، وأخذ عن كبار شيوخ عصره، وعندما التحق بجامعة القاهرة، كان تميِّزه لافتاً لأساتذته الَّذين استنَّجبهوه، وأحاطوا

⁽¹⁾ هم كما في الوثائق: لعل الفاسي، عبد العزيز بن إدريس (المغرب)، الحضرميَّ (تونس)، أحمد أمين، عبد الحميد العبادي، عبد الوهاب عزَّام (مصر)، محمد كرد علي، خير الدين الزركلي (سورية)، شكيب أرسلان (لبنان).

بتكوينه العلمي، وتعميق نظره، وتثبيت مناهج البحث عنده. فتقدم للميدان بخطى ثابتة.

درس على الدكتور طه حسين وأحمد أمين وأستاذه أمين الخولي وغيرهم من علماء تلك الحقبة الحافلة، وأثر هؤلاء بَيِّن في فكره وعمله، وفيما كتبه من أبحاث جديدة النتائج، وما قدّمه من نصوص مختارة محققة أمثل تحقيق.

وسعدت بمعرفته وهو في أوج تألق ذهنه في إستانبول، مستقره الأثير الذي بدأ فيه مُغامرة هجرته، وفارقه ثم عاد إليه العود الأخير عندما نبت به الأوطان. وامتدت الصُحبة بيننا عند ترددي على عاصمة بني عُثمان، وعند زيارته المتكررة إلى دمشق التي كت أقيم فيها وقتها خبيراً في المديرية العامة للآثار والمتاحف، وحفظت عنه صورة لعلمه وتواضعه وإخلاصه في بحث مقدمة ابن خلدون، بعد أن نشر "التعريف"، وذلك على منهج تناول به عمله على مدى امتد أكثر من عقدين؛ فلا يَمُرّ بدلالة اصطلاحية إلا شرحها وحدّد مفهومها، أو بإشارة لحديث من التاريخ أورده المؤلف للمُقايَسة والتذكير برِبط أسبابه وما يترتب عليها، إلا توسّع في عرضه وبيّن منه ما كان غائماً، ولم يُذكر كتاب صُنّف في علم من العلوم إلا لاحقه ووصل بك إلى الرّف الذي يُشبع فيه مخطوطاً، مع رقم الوصول إليه محدداً.

وقد قام بهذا الجُهد المديد مستمتعاً به، متحرراً من وهم سبق النشر، وبذل فيه طاقة من العلم والفهم والصبر لا تُتاح لغيره.

ثم فارق دُنيانا سنة 1975، واختفى معه جهمه وأثره⁽¹⁾.

وقد اغتمل في نقسي هذا المصير المأساوي الذي انتهى إليه ما أعدّه هذا العالم المغربي المغترب، في تراث المفكر التونسي الذي بددته الغربة، وأخذ هذا الشعور عندي يتحوّل إلى خُطة تهدف إلى تحقيق وحدة كتاب العبر بكتبه الثلاث، ومحاولة التّوصّل إلى إعادة تركيب نصّه، ليكون أقرب إلى الأصل الذي صنعه عليه مؤلّفه، متخلّصاً من الأخطاء التي تراكبت عليه مع الزّمن. وأداة هذا المنهج وضع شجرة نسب للنسخ المخطوطة، وتمييز النسخ الكثيرة التي لا قيمة لها في بناء النصّ وإسقاطها، وتغليب القراءة الأضعب على القراءة البسيطة، وهو ما يحقّق النّقد النصّي، على أسلوب العالم الألماني كارل لاتشمان Karl Lachman (1793-1851م)⁽²⁾.

فقمّت على مدى سنوات متلاحقة، بزيارة المكتبات الكبرى التي ضمت أجزاء من تراث ابن خلدون، وفحصها فحصاً أثرياً وإعياً شمل الجانب الكوديكولوجي للتأكد من غرضها، ولتبيين ما سكّث عنه الحروف المكتوبة؛ وتصفّحتُ المجلّدات المختلفة بحثاً عن أثر أهتدي به، أو تغليق في الحاشية بخط مُغاير يُنبئ عن صاحبه، ويوثّق النسخة ويُضفي عليها قيمة لم تُحتسب لها؛ وألممتُ بأكبر عدد من فهارس المخطوطات، ممّا تجمع خاصّة في مكتبة مؤسسة آل البيت

(1) كان قد حقق كتاب الفهرست لابن النديم على الثّمط الصعب من العمل، وأثراه بالبيانات التي تجعل منه بحق مصدراً لا يُداني في التعريف بأصول الثقافة العربية. وقد أطلعني عليه بدمشق، وذثّر فيما ذثّر بعده.

(2) من نقدي لكتاب أ.د. بشار عوّاد: في تحقيق النصّ. (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005).

للفكر الإسلامي في عمان (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - سابقاً)، وعددها تجاوز الألفين والثلاثمائة فهرساً. وفتحت لي الصداقات - التي أغتر بها - مغالِق المكتبات الخاصة، وكان كل ذلك على زمن طال، وتيسر لي فيه بعد كل ما رأيته ومزته واستوعبته، أن أعدّل خطة العمل في ضوء واقع ثراث الرجل ومستوى الأصول الباقية من أعماله والمتصلة به مباشرة، بما خطه عليها من إضافة وتعديل. وكان بعض هذه الأصول معروفاً في مواقعه، وبعضها ممّا وُفقت لاكتشافه وتحديد نسبته وعصره. وأصبح بالإمكان أن يُنشر كل الكتاب موثقاً بأصول المؤلف وليس غيرها، إلا في حالات نادرة وجزئية يمكن فيها استشارة بعض الأجزاء ذات المرتبة الثانية من التوثيق.

وكانت مخطوطة الظاهري - ويرد وصفها وتحليلها - هي النسخة الوحيدة التي وصلتنا من هذا المستوى الموثق في نسبته، كاملة، ومجزأة إلى أربعة عشر جزءاً، وتعرف تاريخ نسخها على التحديد. وأمّا بقية الأصول المعتمدة الأخرى فتفاوتت أجزاؤها الباقية من واحد إلى أربعة حسب التقسيم السباعي للكتاب.

واعتباراً لأن هذا المخطوط "الظاهري" يكونُ العمود الفقري لكل العبر، ويستمر استعماله في معارضة كل الكتاب مع الأجزاء المعتمدة الأخرى، فقد اتخذناه بدءاً بالكتاب الأول (المقدمة) أساساً للنص، ثبت سياقته كما ورد، ونُضيف إليه بين حاصرتين ما تضيفه النسخ المقابلة من إيضاح أو تفديد لجُملة أو إلحاق لفائدة. وفي حالة خطأ ناسخ الظاهري نعوض قراءته أو ما أخطأ فيه بالقراءة الصحيحة، وننبّه على ذلك في الفروق.

واستفادة من ضبط تاريخ هذه المخطوطة وهو سنة 797هـ / 1394م، فقد استطعنا أن نورّخ الكثير من الأجزاء التي لا تحمل تاريخ كتابتها، وأمكن الاستدلال على ذلك بما نقص منها أو طرأ عليها من زيادات تجاوزت بها نص الظاهري أو نقصت عنه.

وقد تجمّع لنا من الكتاب الأول (المقدمة) خمس مخطوطات، فكان بذلك أكثر حظاً في التأريخ لنصّه والتوثيق لمحتواه، خاصّة بما تميّز به من وجود مسوّد المؤلف (مخطوطة عاطف مصطفى، ويرد الحديث عنها) التي صاحبته حياته بمصر، رغم ضياع الكرّاس الأخير منها⁽¹⁾.

فقد تمكّنا بعد المقابلة والمقارنة بين هذا الأصل الأمّ، وبقية الأصول التي عليها أثر المؤلف، أن نرتّبها ترتيباً تاريخياً لتفاوتها في نقل أقسام من الحواشي والإلحاقات المضافة عليها بحسب ما وصل إليه تسجيل ابن خلدون وقت نقل كل نسخة، بما في ذلك نسخة الظاهري.

ونحدد هذه الأصول المخطوطة المعتمدة في نشر الكتاب الأول، حسب المنهج الذي التزمناه في اعتماد خمس نسخ لا سادس لها - فيما علّمناه - وهي:

1 • مخطوط عاطف مصطفى (وهو مسوّد المؤلف)، ورمزنا له بالحرف (ع)

2 • مخطوط مكتبة السلطان أحمد الثالث ، ورمزنا له بالحرف (ي)

⁽¹⁾ وهذا له شأن كبير فيما يعرف بالنسخة الأمّ ، لأن بعد الخاتمة تُسجّل القراءات والسماعات ومن نقل منه ومن حضر مجالس قراءته درايةً، إلى غير ذلك من الإفادات .

3 • مخطوط الظاهري ، ورمزنا له بالحرف (ظ)

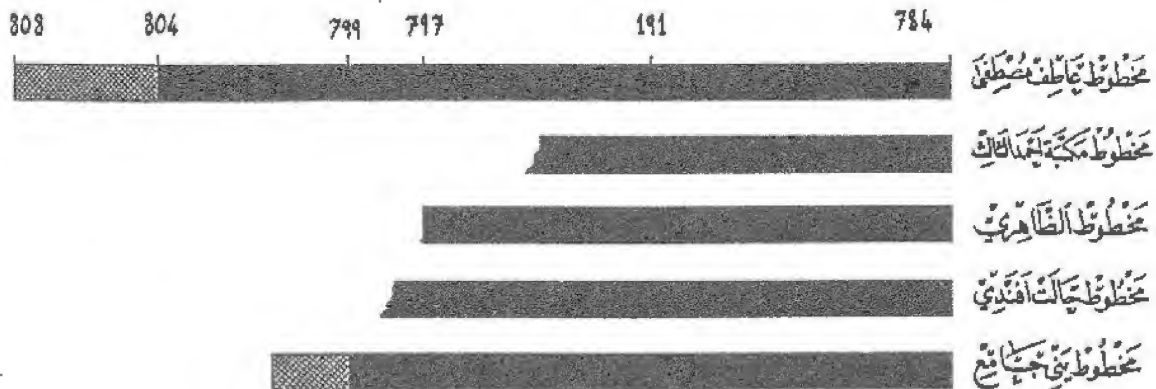
4 • مخطوط حالت أفندي ، ورمزنا له بالحرف (ل)

5 • مخطوط بني جامع ، ورمزنا له بالحرف (ج)

وقد رتبناها هذا الترتيب كما ذكرنا استناداً إلى المفاصل الزمنية المضبوطة من حياة النسخة الأم التي تمتد من وصول المؤلف إلى القاهرة إلى وفاته، والتواريخ المثبتة على بعض النسخ الأخرى (ظ، ج) والمدى الذي وصلته النسختان الباقيتان (ي، ل) في نقل الحواشي.

وهذا بيان تحليلي بالمخطوطات الخمس المعتمدة ، والمشار إليها :

المخطوطات المعتمدة في تحقيق هذه الجزء من الكتاب الأول (المقدمة)
وحضورها الزمني



1* مخطوط عاطف مصطفى (ع)

مكتبة عاطف - رقم 1936

إن نسخة مكتبة عاطف مصطفى⁽¹⁾ رقم 1936 في إستانبول ، هي أهم النسخ الباقية من نص المقدمة [الجزء الأول من العبر] ، وأكثرها اتِّحافاً واتِّصالاً بحياة مؤلفها ، وهي سجلٌ واضح موثق بخطه ، للإضافة والتَّعديل والتَّصويب والتَّنقيح والتَّهذيب ، الذي أدخله على هذا القسم من الكتاب ، على مدى مُتَّصل ، يبدأ من تاريخ استِقراره بمصر - باعتبار خط مَثْن النسخة المشرقي - إلى أواخر حياته ، كما تدل الإضافات التي بقيت ، أو التي كانت مُثبتة عليها قبل أن تُفقد ، وقَبْل ضياع الكراس الأخير من هذا الأصل .

وأبعاد هذه النسخة 26.5 X 18.5 سم ومساحة المكتوب في صفحاتها 13 x 20 سم ، ومسنطرتها 25 سطراً ، وتجليدها مفلوكي معاصر لكتابتها ، وهي مغشاة بجلد بُني قائم ، تتوسط دُزفتيه زخرفة على هيئة (شكل ليموني مُدبب الأطراف) تطوّقه خيوط مضفّرة ، وينتهي طرفاها بعمودين مضفّرين ، ينتهيان قريباً من أعلاهما بضفيرة رباعية .

(1) كان عاطف مصطفى بن مصطفى الإستانبولي الدقري ، - رئيس الدفتردارية - في عهد السلطان عبد الحميد الأول ؛ وقد بنى مكتبته سنة 1741م وبها 2406 مخطوطاً عربياً .

وورقُ المخطوط سميكَ جَيِّد الصَّقل، يميل إلى صُفْرة فائِرة، وورقتا الخَريطة المتقابلَتين هي من أصل النُّسخة ومادَّتها، وليستا مُضافَتين.

وتتصدَّر النُّسخة أوراقُ بَيضاء، أُقحمت عليها أثناء التَّجليد، سُجِّلَت فيها إفاداتٌ لغويَّة، وإحالاتٌ على ما اشتمل عليه الكتاب من نُصوص مُهمَّة، كرسالة عبد الحميد الكاتب للكتاب، ووَصِيَّة طاهر بن الحسين لابنه عبد الله، وذكر الحالومة، مع الإشارة إلى رَقْم الصَّحائف.

ثم يليها فهرسٌ مُفَصَّل في صَفحتين، كُتِب بخطَّ التعليق، بِحِبر أسود، ورَقْم الصَّفحة تحت كل موضوع بالِخبر الأخر، ولم يَلتزم واضِعه بذكر فُصول الكتاب كما وَرَدَت، وإنَّما عمد إلى إجمال مَغناها ومُحتواها؛ ويُفهرس لمُوضوعات داخِلِيَّة وَرَدَت فيمَن الفُصل، وأبرزَ كتابةً بعض العناوين الَّتِي تَغْنِيه بِالخبر الأخر، وبأدَل أرقام صَفحاتها بِالخبر الأسود.

وأرقامُ الصَّفحات في هذا الفهرس غيرُ مُتطابقة على أيِّ اعتِبارٍ، سواءً بِحسَاب ما يَتقدَّم النُّسخة من أوراقٍ أو بدونها.

ثم يلي ما تقدَّم ترجمةٌ قصيرة للمؤلف مَنقولة عن السَّخاوي . وفي صَفحة تامَّة تُقْرِظُ كُتِبَ بِخطِّه مُحَمَّد بن يوسف بن محمد الإسفيجاني⁽¹⁾ - ولا نَعْرِفه - يوم السَّبْت 24 شعبان سنة 804هـ / 29 مارس 1402م، بعد أن: "اتَّفَقَ لَهُ مُطالعة هذا السِّفَرِ الأوَّل من كتاب العِبر، في أخبار العرب والعجم والبربر، فوجده - كما يَذكر -

(1) نسبة إلى إسفيجاب، بفتح الهمزة كما ضبطها ياقوت، من بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان، وكانت واسعة العماره، ثم نكبت على يد خوارزم شاه، ثم بالتَّار سنة 616هـ / 1219م، انظر معجم البلدان 1: 179، ابن سبهي زاده: أوضاع المسالك 151 .

مشحوناً بالفوائد الكثيرة، والعوائد الجمّة الغزيرة، لم يُسبق بمثله في الإحاطة
باللطائف، والاكتناز بكنوز الفوائد الطرائف، دلّ بحسن تركيبه، وغرابة نظمه وتزئيبه،
على كمال مُصنّفه في الدراية، وسبقه على الأقران في الحفظ والرواية، وكتب هذه
الأسطر بعد الوقوف على مآثر هذا الكتاب، تذكرة لصاحبه مُتّع به وبأمثاله."

وبعد هذا يتبدأ نصّ الكتاب بالصفحة الخارجية المخصصة عادة للعنوان، والتي
حفظت قصّته وصيروته ورخلته الطويلة من القاهرة إلى مكة إلى خزائن دار
الخلافة في إستانبول. فعلى الزاوية اليسرى من هذا الصفح، مُرتّع مَحْصور بإطار
أحمر، كتب فيه ابنُ خلدون بخطّه الأندلسي الواضح الشّبه بخطّ "العلامة التي كان
يكتبها" شهادة تُوثّق أهميّة هذه النسخة الأمّ من مقدّمة العبر، بعد أن صاحبتّه حِقْبة
مديّة من الزمن، أُجْزى عليها وعلى الكتاب ما أُجْزى من مراجعات وإضافات،
وألحق بمجموعه كلّ من الإلغاء والتعديل والإلحاق والإكمال الذي من أوسعّه
استكمال أكثر مواد الجزء الخامس الخاصّ بالعجم. وفي هذه الشهادة يقول:

هذه مسودة المقدمة من كتاب
العبر في أخبار العرب والعجم والبربر
ومع علمية كلها لا لبس فيها ولا
الدارج فالحمد لله وحده
وليس يوجد نسخها أصح منها
وكتب مولانا عبد الرحمن خلدون
وفقه الله تعالى وعفا عنه بمنه

"هذه مُسوّدة المقدّمة من
كتاب العبر، في أخبار العرب
والعجم والبربر. وهي علميّة
كلّها كالديباجة لكتاب التاريخ،
قابلتها تخّدي وصحّحتها،
وليس يوجد في نسخها
أصحّ منها. وكتب مؤلّفها عبد
الرحمن ابن خلدون وفقه الله
تعالى، وعفا عنه بمنه."

وينتشر على بقية الصفحة مجموعة من التملكات المتزاحمة، والأختام، أكثرها مؤرخ، نعرض لها ونقدمها مرتبة بحسب تلك التواريخ، الأقدم فما يليه، وهي تظهر رحلة الكتاب منذ خرج من يد ورثة صاحبه الطنين به، إلى مُستقرّة الأخير:

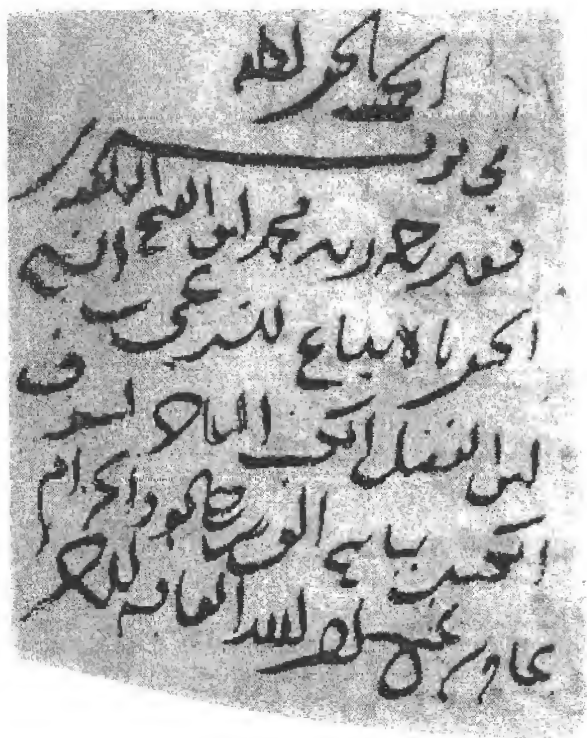
1. البايع الشيخ ناصر دين الغمري للشيخ الصالح بذر الدين حسن الطنّندائي⁽¹⁾ ... مع ثمن الكتاب خمسة أشرفيّة وسبعة أنصاف، في يوم السبت المبارك ثامن شهر رجب سنة تسع وستين وثمانمائة / وله على أنعمه

البايع الشيخ ناصر دين الغمري للشيخ الصالح بذر الدين حسن الطنّندائي مع ثمن الكتاب خمسة أشرفيّة وسبعة أنصاف في يوم السبت المبارك ثامن شهر رجب سنة تسع وستين وثمانمائة وله على أنعمه

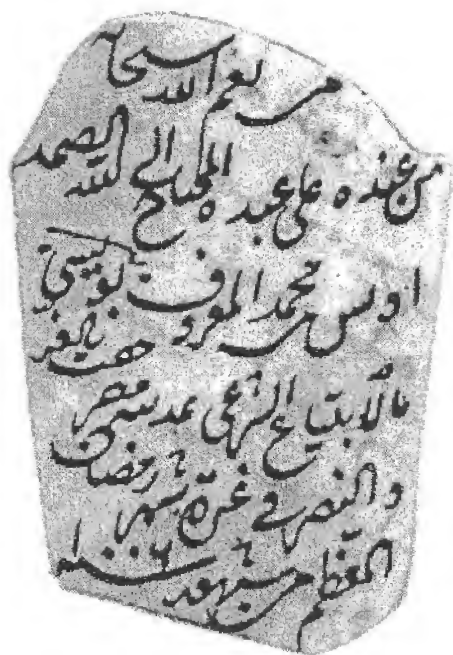
2. انتقل هذا الجزء / بالابتيع الشرعي من ملك الشهابي أحمد وأخيه / الرقي (كذا) يحيى أولاد الشيخ حسن الطنّندائي المذكور / أغلاه، إلى ملك أخيه الفقير إلى الله تعالى [محيي] الدين / محمد في حادي وعشرين صفر سنة أربع وثمانين وثمانمائة

انتقل هذا الجزء بالابتيع الشرعي من ملك الشهابي أحمد وأخيه الرقي يحيى أولاد الشيخ حسن الطنّندائي المذكور أغلاه، إلى ملك أخيه الفقير إلى الله تعالى محمد في حادي وعشرين صفر سنة أربع وثمانين وثمانمائة

(1) هو حسن بن أحمد، المقرئ الضريف، ولادته سنة 802هـ / 1399م، ووفاته سنة 888هـ / 1483م . (السخاوي: الضوء اللامع 3: 94).



•3 الحمد لله الخفي لطفه / في
توبة / فقير رحمة ربه، محمد أبي الفتح
[الرا ...] / الخفي، بالاتباع الشرعي
من الشيخ / أبي الفضل المكي
التاجر بسوق / الكبير⁽¹⁾، بتاريخ
ألف من رجب الفرد الحرام /
تمام.... أحسن الله العاقبة لل...
[خير]



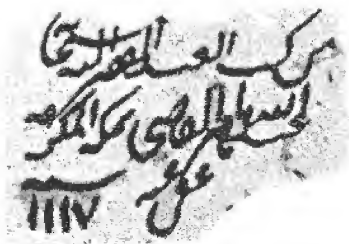
•4 من نعم الله سبحانه / من
عنده، على عبده المحتاج إلى الله
الصمد، / أويس بن محمد⁽²⁾،
المعروف بويسي، / بالاتباع
الشرعي بمدينة مضر، خُصت بالعز
/ والنصر، في غرة شهر رمضان
/ المعظم، من شهور سنة 1006
(إبريل 1598م).

(1) ربما تُقرأ : الكتب .

(2) ويُعرف أيضاً باسم ويسى أفندي، شاعر وكاتب تركي (1561-1628م) درس في المدارس العثمانية، وعُين قاضياً في مصر والأناضول والرويلي وأسكوب، اشتهر بكتابة النثر المسجع، وينظم شعر الغزل. انظر Meydan Larousse 19، ص 137 (إستانبول 1992).



- 5 ثم أنعم الله سبحانه وتعالى
به / على عبده الحقير سُليمان / بن
يوسف الحين (كذا) رمضان سنة
1076هـ (مارس 1666م).



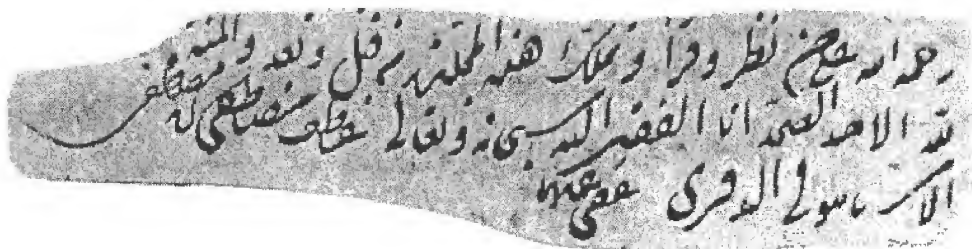
- 6 من كُتِبَ العبد الفقير إليه
سُبْحانه، / عَبْدُ اللَّهِ باهر،
القاضي بمكة المكرمة، غُفِيَ عنه،
سنة 1117هـ / (1705م).



• ختم مُستدير به :

- 7 وَقَفَ هذا الكتاب / الحاج
مُصطفى / عاطف، بشرط أن / لا
يُخرج من خزانته / 1154هـ (1741م).

وفي الصفحة بخط المملوك الأخير الواقف، بعد كلام:
رحمة الله على من نظرَ وقرأ، وتملك هذه المجلدة من قَبْلَ وتَعُدُّ، والمِنَّةُ لِلَّهِ
الأخْدُ الصَّمَد. أنا الفقيرُ إليه سُبْحانه وتعالى عاطفُ مُصطفى بن مُصطفى /
الإستانبولي الدفترَي غُفِيَ عنها.



• تملكات غير مؤرخة:



•8 من نعم الله تعالى على علي بن
غانم الحزرجي المقدسي



•9 مزحوم شيخ الإسلام علي
قدسي حضرتلر خط شريفلر ...



• ختم صغيره:

•10 وبالشكر / تدوم النعم كلها

• تملك غير واضح:



•11 لم نتمكن من قراءته لتشظي
حروفه ، ويقراً في السطر الأخير:
عبد الله بن أحمد المولوي عفي
عنه.

وفي ظهر صفحة الشهادة والتملكات والأختام، يبدأ الفهرس الذي صنعه واعتمده المؤلف نفسه للكتاب الأول، قبل أن يضيف عليه ما أضاف، وهو فهرس مُتابع لفصول هذا الكتاب الأول واحداً واحداً، وفي بعض حواشيه بعض التعديلات المهمة بعد إلغاء النص من سياقه، وإضافة البديل في الحاشية، بخط ابن خلدون، وهي إصلاحات نجدها مُعتمدة ومُنقولة فيما كُتِب بعد من النسخ المُعاصرة الأخرى. من ذلك ما ورد في نص الفهرس: "في أن الأعجام من علماء الملة قاصرون عن ملكات العلوم من علماء العرب". وأُدرج في الحاشية بعد إلغاء هذا، بخطه: "في أن العُجمة إذا سبقت إلى اللسان، قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي"، وسنورده بنصه الكامل آخر هذا التعريف لما له من أهمية - ولو جزئياً - في المساعدة على تأريخ تطور المقدمة. وبأعلى سطور هذه الفهرسة، كتب مصطفى عاطف صاحب النسخة: "إتمام تأليف الكتاب 804هـ (1402م)؛ وقد أزيك هذا النص بعض من درسوا هذا المخطوط وأوقع الكثير في الخطأ، وتابعوه عليه واعتبروه في تاريخ التأليف؛ وربما استند ذلك عنده إلى تاريخ تخریط الإسفيجاني المتقدم ذكره.

وفي أسفل صفحة منفردة يتقدم نص الكتاب، أعاد صاحب التملك رقم (3) المتقدم إثبات ملكيته بالخط المتقدم نفسه، توضح بعض كلماته متطابقة مع ما سبق، وتغلق الأخرى بسبب التداخل وتفتي الخبر حول الحروف.

ويبدأ نص الكتاب الأول من العبر (المقدمة)، في ظهر صفحة العنوان، بعد البسملة مباشرة، بما استهل ابن خلدون هذه النسخة به، فقد كتب بخطه المتأني القائم الزوايا:

يقول العبدُ الفقيرُ إلى رَحمةِ رَبِّهِ، الغنيُّ بَلْفَظِهِ / عبدُ الرَّحْمَنِ بنِ مُحَمَّد بنِ خَلْدُونِ الحَضْرَمِيِّ، وفقه الله /

يَعْمَلُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ الْغَنِيِّ بِلَفْظِهِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنِ مُحَمَّد بنِ خَلْدُونِ الحَضْرَمِيِّ وفقه الله

ثمَّ تَرَكَ لِلنَّاسِخِ كِتَابَةً نَصَّ الْكِتَابِ . وهذه الحالة نفسها في تَسْجِيلِ مُسْتَهْلٍ
هذه النسخة بخطه، أعادها في نُسخة (ج) التي كتبها ابنُ الْفَخَّارِ سنة 799 هـ (1397م)،
وَيَرِدُ وَصْفُهَا وَالْحَدِيثُ عَنْهَا فِي مَوْقِعِهَا. ويتَّضح من مقارنة الصفحة الأولى لهذه
النسخة بمائلتها من نسخة (ج)، ما يدعو إلى التأكيد أن هذه النسخة كتبها ابن
الْفَخَّارِ أيضاً في بداية أيام ابن خلدون في مصر، ولم تكن يَدُهُ قد ثَبَتَتْ وَقَوِيَتْ
بِالصُّورَةِ التي نَجَدَها في خطه لنسخة (ج) وغيرها.

وقد كتبت بخط نسخ معتاد، غير موحد، يَنْفَرِحُ أحياناً وَيَنْقَبِضُ أخرى،
وبأقلام غير مُتَقَارِبَةِ الْقَطْعِ، تدقُّ مَرَّاتٍ، وتغلظ أحياناً. هذا ولعلَّ أَضْلَ النَّصِّ
متخلياً عن الإضافاتِ والحواشي والتعديلات وعن البطائق المُضَافَةِ، هو النَّصُّ
الذي قَدِمَ به من تونس، أو الأقرب إلى الأضل التونسي⁽¹⁾، وحَوَّلَهُ النَّاسِخُ (ابن
الْفَخَّارِ) في مصر إلى هذه النسخة التي التزم بها أبو زَيْدٍ واتَّخَذَهَا مَجَالاً مُبَاشِراً
وَمُسْتَمِراً لِلتَّطْوِيرِ إلى آخر حياته⁽²⁾، وعنها نُسخَتِ النُّسخُ المباشرة الأخرى،
واستودعت ما عليها من أَلْحَاقٍ وإضافة بكلِّ أمانةٍ والتزام.

(1) كتب الناسخ اسم الكتاب في مَدْخَلِ المَقْدَمَةِ: في أيام العرب والبربر. وأضاف المؤلف بخطه في الحاشية، لفظ: والعجم.

وهو موضوع الجزء الخامس الذي أضافه بعد الرحلة إلى الشرق .

(2) ترد مناقشة صلة هذه النسخة بابن خلدون ، وتحقيق خطه فيما يلي .

وقد عَلم بالأحمر الأرجواني فواصل الفقر المسجّعة في مُقدّمة المقدّمة،
وكلمات الانتقال مثل : أمّا بعد ، وهذا ، ولَمّا ، ومنها ؛ وكذلك تسميات الكتاب،
وعناوين الفصول والكلمات التي يبدأ بها إفادة جديدة، واكتفى في حالات عدّة بوضع
خطّ أحمر حيث ينبغي التنبيه ، أو فوق الكلمات المهمة ، لتيسير الرجوع إليها.

ولا تخلو صفحات هذه النسخة بدرجات متفاوتة في الكثافة، من تعديل
كلمات، وإقحام تكملة، وتعويض مُلغى، وإضافة جُملة، واستكمال بيان، وإلحاق
صفحة أو بطاقة تشتمل على تكملة فصل أو إنشاء فصول كاملة، وكلّها بخطّ
صاحب الكتاب، عدا تدخّلات محدودة بتسجيل شُروح لغوية كُتبت بخطّ فارسيّ
متأخّر من مالكي النسخة. ولعلّ أكثرهم تعليقاً عليها هو عاطف مصطفى الدفتريّ،
كما يتّضح من المقارنة مع خطّه على صدر الجزء.

ويلاحظ أنّ الإضافات على هذه النسخة على مُستويين:

● إضافات مطوّلة استغرقت الصفحة والصفحتين - وكتبها المؤلّف بخطّ
دقيق في أسطر مُتقاربة، وكتب بعضها مائلة تبدأ من إحدى زوايا الصّفح، وتُتّجه
من أسفل إلى أعلى - كان يُعدّها في مُسودّة تُستكمل مادّتها وتفاصيلها ، ثم ينقلها
مُواجهّة لعلامة المُخرج التي يَضَعُها في مَوقِعها من النصّ، مُوجّهة إلى اليمين أو إلى
اليسار □ □ ، أو يُخرجها بخطّ أحمر ينتهي بسهم يربط بين المكان والإضافة،
ويُسجّل بأعلى الصفحة المضافة نصّ تأكيد لمَوقِعها، بأن يقول: "يتّصلُ بآخر الصّفح
الأيسر قبل الترجمة التي نصّها ... "، أو: "يتّصل في الصّفح المُقابل بعد قوله..."،

أو: "يَتَّصِلُ التَّخْرِيجُ فِي الصَّفْحِ الْأَيْمَنِ فِي السَّطْرِ الْخَامِسِ عَشَرَ بَعْدَ قَوْلِهِ..." وقد أعدّ هذه المخرجات المطوّلة في الجزء الأول من المقدّمة وكتبها بعناية فائقة، تدلّ على ثبات اليد وتمكّنها واسترسالها بدون تَعَثُّرٍ ولا إلغاء لخطأ يطرأ. وتدلّ أيضاً أنّه بدأ يفكر في مادّة هذا الجزء [المقدّمة] ويطوّره بانتظام يتفق مع تجدد تجربته واتّساع مدى رؤيته وما يتكشف له أثناء تدريسها.

وقد افتقدت هذه النسخة عدداً من هذه الإضافات المطوّلة وسقطت منها، بعضها لم يصل إلينا ودلت عليها علامة الإخراج المفقّمة في مكان الإضافة، وبعضها نقلته - قبل ضياعها - الأصول الأربعة الأخرى المعاصرة لها أو بعضها، كما هو الشأن في "فصل أنّ آثار الدولة كلّها على نسبة قوّتها في أضلّها" وهي الوثيقة المنقولة عن الكتاب المسّعى "جرباب الدولة" لأبي طالب الحسن بن عمار الكتّامي، والمتعلّقة بما كان يحمل إلى بيت المال بتعداد أيام المأمون، فقد نقلتها عنها بعض الأصول كما أشرنا في موضعه.

ومن هذه الإضافات الضائعة، الفضل الذي جاء في نشرة الدكتور عبد الواحد وافي [المقدمة: 2: 760] وعنوانه: "فصل في اتّساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته، ثم تضايقه طوراً بعد طوّر، إلى فناء الدولة وضمحلّاتها". وأورده كاترمير Quatremère في نشرة باريس [2: 114] وموقعه في نسخة عاطف مصطفى آخر فصل "كيفية طروق الحلال للدول"، فقد وضع علامة المخرج ملتفتة إلى اليمين، وجعلها تتجّثم على ثلاث دوائر صغيرة، ولا يوجد عنوان هذا الفضل الضائع في الفهرس الذي تحدّثنا عنه، وأنّه في صدر الجزء، والذي يمثّل موادّ المقدّمة عندما

نُسخَت وقبل أن يضاف إليها أيُّ إلحاق. هذا ولم يرد هذا الفضل الضائع في أيِّ نسخة من النسخ الأربع المعتمدة التي عليها خط المؤلف. فما معنى ذلك؟ يبدو لي أن هذه الزيادة ألحقها المؤلف بنسخته بعد انقضاء القرن الثامن الهجري، لذلك لم ترد في الأصول التي اعتمدناها لوثاقتها، وأحدثها تاريخاً نسخة (ج) المؤرخة في سنة 799هـ (1397م). وقد نقلتها بعد هذا التاريخ نسخ أخرى، منها نسخة أحمد تيمور باشا. [355 تاريخ، دار الكتب المصرية].

وحسب ما اعتمدناه في إخراج هذا العمل، فإننا لم ندرج في صلب النص ما لم يرد في الأصول التي اتخذناها أساساً للتحقق والنشر، والتي توفرت فيها المعايير المقدرة. وإننا نثبتها آخر الكتاب ضمن ملحق مُفرد لذلك، مع توثيقها وتأكيد نسبتها جهد الطاقة.

❁ وثمة إضافات متوسطة في حجمها ومحتواها، ومُتفاوتة في الامتداد على كامل حواشي الصفحة أو على جزء منها، ولم يكن خطها موحداً من حيث ثباته ووضوحه، فإن من بينها ما هو على درجة قصوى من التداخل والغموض على غير ما اتسم به خط ابن خلدون في أكثر ما كتب، وقد احتاجت إلى تدقيق وتأمل طويل وتأول أحياناً، وذلك لطابع العجلة البين الذي كُتبت به، وبعضها لم يُخرجه التصوير مقروءاً، فاضطررنا إلى العكوف على الأصل التقيس في مكتبة عاطف مصطفى في أكثر من زيارة، لاستخراج ما وقفنا إلى استخراجه منها بالقراءة المباشرة.

وكان عمل المؤلف يتداخل أحياناً مع عمل الناسخ، فيكتب بخطه في متن الكتاب ما لا يتفق في أدائه من الكاتب، ففي فصل "حدثان الدول والأمم، والكلام على الملاجم" تولى كتابة الشجر العامي، وأضاف في آخر الفصل نفسه إفادات على صفحات المساحة المكتوبة من الكتاب ذاته، وهذه سمة بارزة عند ابن خلدون الذي حرص في أغلب أجزاء التاريخ أن يضع بنفسه شجرات النسب، ويرمز بترتيب الحروف ودلالاتها العددية إلى الذين تداولوا الحكم منها.

هذا وينفرد هذا الجزء الأول من العبر (المقدمة)، على عكس النسخ الأخرى التي نقلت عنه، باشماله على خريطة لصورة الأرض، أشبه بما قدمه الإذريسي لخريطة العالم؛ ومشاكلة لها في رموزها وتقسيماتها إلى أقاليم سبعة، مع ذكر التسميات من البلدان والشعوب؛ وهي خريطة دائرية كروية، استعمل في رسمها التلوين المتعدد، من الأخضر والأزرق والأخضر والبنفسجي. ورسمت البحار باللون الأزرق الداكن، تغطي سطحها خطوط منكسرة يتضاء. وتدل الاتجاهات إلى الجنوب من أعلى والشمال من أسفل، والغرب إلى اليمين والشرق إلى اليسار.

وكتب ابن خلدون بخطه المائل المؤلف لدينا وبحبر أحمر، كل الأسماء الداخلية لهذه الخريطة النادرة.

فقد أثبت في أغلاها ما ذكره في موضوع الجغرافيا، قوله: "خال وراء خط الاستواء لشدة الحر"، ومن جهة الشمال من تحت، ما يقيد الخلاء من شدة البرد. وقسم ما تحت خط الاستواء إلى خطوط عرضية قوسية دقيقة، يَحصر كل خطين منها إقليماً من الأقاليم السبعة، وزع في كل إقليم بعض ما اشتمل عليه من البلاد

والشعوب، وقد قرأنا مُحتواها الداخلي وأثبتناه في ظَهر الخريطة. وهي - كما أشرت - نسخة مطابقة لخريطة الإدريسي، لا تُضيف جديداً⁽¹⁾. وإِنما ترجع أهميتها وأهمية فصل⁽²⁾ الجغرافيا الذي يليها، إلى تصوّر ابن خلدون في أنّ العُمران أساسه الأرض والإنسان، وما يَنشأُ بهما على الزّمان المتمدّد، من رَوابط ونُظم ودُول ومعارف وصنائع.

وتنتهي هذه النّسخة أثناء الفصل 59 الخاصّ "بأشعار العرب وأهل الأنصار لهذا العهد"، عند قوله في بدايته: "ويأتون منها بالمطوّلات مُشتملة على مذاهب الشّعْر وأغراضه".

وأضيف في آخر الصفحة سِطرٌ بخطّ ناسخ مُحدث، كلمة: "والله وليّ التوفيق، آخر الكتاب" وأزدّفه بسِطر آخر مَشطوب، فيه: "تمّت مقدمة (كذا) تاريخ ابن خلدون، يليه الجلد الأوّل من التّاريخ المذكور المسَمّى بالعبر". وبعده في الزاوية اليمنى للصفحة تعليقٌ بخطّ فارسيّ هو خطّ عاطف مصطفى: "السّطر المَشطوب مُدّلس من دسائس الصّحّافين". وخطّ هذا المدّلس مألوفٌ لدينا لوجوده على أكثر الأجزاء المتناثرة والأصيلة من العِبر، كما تيسّر لي رؤيتها في مكّبات متفرّقة، وكأنيّ به كان له إشرافٌ ما بالملك أو الاستعارة لما في ثِركة ابن خلدون من أصولٍ كانت بين يديه.

(1) (انظر خريطة الإدريسي عند الدكتور فؤاد سركين: مختارات من الجغرافيا الرياضيّة والكرتوغرافيا عند العرب والمسلمين، معهد تاريخ العلوم - فرنكفورت 2000م)

(2) نَظر كراتشكوفسكي إلى هذا الفصل نظرةً جغرافيّةً نَحْتةً، وأثبت انعدام أصله (تاريخ الأدب الجغرافي العربي 1: 439)

وفي الصّحّح التالي نصّ مختلط كتب بخطّ مُغاير عن أشعار العرب، ويتوقّف عند البيت الثالث من قصيدة الشّريف ابن هاشم العاميّة، ثم يُختم الكتاب بالنّص الذي التزم به المؤلّف منذ النسخة الأولى " آخر الجزء الثاني من العبر: المقدّمة". وهو إثبات تاريخ الكتاب بالوضع والتّأليف، ثم التّقيح والتهذيب، في خمسة أشهر آخرها منتصف عام 779هـ / 1377م.

وهكذا يتأكّد نقص كراسة ثانية من هذه النسخة بعد خطّ عاطف مصطفى، ومعناه أنّ النقص كان موجوداً عند انجرار الملكية إليه سنة 1154هـ / 1741م، وكان ضياعها في المدّة الواقعة بين خروجهما من ملكية ويسى أفندي ودخولها في ملكيته، بما دعاه إلى التّنبية على التزييف الواضح والمغالطة بانتهاء الكتاب. وقد أدرك عاطف مصطفى أهميّة هذه النسخة التي تملكها وأصبحت مصدر اعتزازه، ولكن ربّما كانت مُغلقة عليه بما ظهر على جوانبها من إضافات وبيانات وُشّروا تدخل في سياق النصّ وتزيده وضوحاً، وتراجع صياغة بعض المعاني وتضيف إليها دقّة في الدّلالة لم تكن لها في السّياق الأول.

فعهد إلى أحد نسخي عصره وهو حسن بن أحمد الذي عانى استخراج نسخة تامّة مُتساوقة، حيث دمج كلّ محتوى النسخة في سياق واحد كما أرادها المؤلّف، وأتمّ نقلها في شهر جمادى الآخرة سنة 1140هـ (مايو 1728م) وتولّى عباس ابن مصطفى بتكليف من عاطف مصطفى مقابلة النسخة بعد عقْد من استنساخها، وأنهى ذلك آخر ربيع الأول سنة 1155هـ / 1742م .

وآل هذا المخطوط المنتسخ عن أصل عاطف مصطفى بعد ذلك إلى ملكية أحمد تيمور باشا في مصر، وأصبح منتسباً إليه. ولكن لم يرد في نسخة التيمورية هذه ما يشير إلى ذلك الانقطاع في الأصل، بل واصل كاتبها النسخ على نسخة أخرى من غير أن يهتم بتوثيق النقل الذي استمدّه من مصدر آخر [التيمورية من الورقة 312 إلى 322].

وبذلك لم تكن نسخة التيمورية شاهداً أميناً على نسخة عاطف مصطفى الدفترى في نقل كل تفاصيلها وتوثيق زياداتها، والتنبيه على ورود الزيادات المهمة ومن أين أُخذت، بل كانت نسخة استندت في الأصل إلى نسخة عاطف، ثم اعتمدت إكمال النص من حيثما اتفق، بدون إدراك لدرجات الوثاقة والسند المتصل بصاحبها مؤلفها.

فقد أشرنا أثناء وصف هذه النسخة إلى الكراسة الضائعة من موضوع "الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها"، إلى "فضل انقسام الدولة الواحدة بدولتين". وكيف نَبّه مالك النسخة ويسى أفندي عند شرائها على ذلك الخزم، ودعى الله أن يعيدها بعينها، وربّما قام هذا المالك بعد تعقب الكتاب، بانتساخ هذه الكراسة الضائعة من مصدر آخر، أو انسخته بعده، ولكن نسخة التيمورية تتماهى مواصلة نقل نص الكتاب، من غير إشعار بتبدل مستوى النسخة أو تخصيص في الحاشية على تغيير الأصل.

وبالإضافة لما يتخللها من تصحيف وتحريف، فإنَّ هذه المآخذ تحدّد مستواها في اعتبار منازل نُسخ الكتاب؛ وهي على الإجمال نسخة تأليفية جمّعت مادّتها من نسخ شتّى لم تذكرها .

ولقد ضاعت الكراسة الأخيرة من مخطوط عاطف، وكانت صفحاتها ولا شك تحتفظ بإفادات مهمّة، عن اسم الناسخ في آخرها، وعن التواريخ التي سُجلت عليها بعد سنة 804هـ / 1402م المستفاد من أول المقدمة. وربّما عن أسماء الذين نقلوا عن هذا الأصل، كما هو الشأن في تقاليد النقل عن نسخة المؤلف.

وربّما كانت مجموعة الأشعار البدويّة العاميّة قد ضُبطت بالحركات، فتيسّر النطق بها، وفهم مفرداتها، كما رأينا فعله في الأبيات التي كتبها بخطّه في "فصل حدثان الدّول والأمم والكلام على الملاحم والكشف عن مُسمّى الجُفر". وبذلك فإنّ الافتراض بأنّ ابن خلدون قد أنهى علاقته بهذه النسخة سنة 804هـ / 1402م هو افتراض قسريّ خاطيء لا يقوم على حُجّة؛ بدأ هذا الافتراض من شبهة في فكر عاطف مصطفى، وأسيء فهم تقرّيب الاسفيجابيّ الذي اعتبره فرانز روزنتال أول من ملّك هذه النسخة.

وقد عوملت نسخة عاطف أفندي عند بعض الباحثين بشيء من التردد في شأنها، هل هي على مُستوى الشهادة التي تتصدّرها بخطّ المؤلف، بأنّها أصحّ النسخ وأجدرها بالثقة، وبالتساؤل عمّا ألجأ إلى هذا الاعتبار ما دامت حواشيها حافلة باستكمال النقص الذي ظهر فيها؛ والتساؤل عمّا إذا كان توقيع المؤلف عليها صحيح أم مزيف، بل دعت إلى مجموعة من الافتراضات التي لا تقوم على برهنة صحيحة.

فعندما تناول فرانز روزنتال بحث هذه النسخة ضمن تقديمه للمخطوطات التي اعتمدها لنشرته للمقدمة⁽¹⁾. لاحظ ما بدا له من "أن أكثر التفسيرات احتمالاً، والتي تظلّ مع ذلك قائمة على التخمين، هو أن هذا المخطوط نُسخ سنة 804هـ (1401-1402م) عن أصل قديم، يُفترض أن يكون نسخة ابن خلدون الخاصة، وقد نُقلت الإضافات والتصحيحات الموجودة على هذه النسخة بنصّها دون زيادة أو نقصان، على يد الناسخ نفسه، وكان ابن خلدون قد حدّد في نسخته بأن سنة 804هـ هي التاريخ الذي توقف فيه عن العمل في المقدمة (مؤقتاً على الأقلّ) (!!)) وفيما بعد وفي العام ذاته، قام الأسفيجايّ - وهو على الأرجح المالك الأوّل لهذه النسخة - بوضع ملاحظته المعبرة عن إعجابه بالكتاب بعد قراءته"⁽²⁾.

ويمضي الدكتور عبد الرحمن بدوي⁽³⁾ بعيداً في هذه الاتجاه، عندما ختم عرضه لهذه النسخة "بأن أمرها يُثير العجب، لكثرة ما فيها من نقص واستدراك بقلم آخر، فما الذي يحمل ابن خلدون على اعتماد هذه النسخة [يشير إلى شهادته التي تصدّرها] وفيها كل هذا النقص، ثم استدراكه في أوراق مستقلة أو في الهامش، خصوصاً، وأنّ هذا النقص يشمل أحياناً ما ورد في نسخة تونس الأصلية"⁽⁴⁾.

(1) Rosenthal, F. Ibn Khaldun, The Muqaddimah, an introduction to history. Translated from the Arabic, New York, 1958.

(2) ذكر هذا في الفصل الذي تحدث فيه عن التاريخ النصّي للمقدمة 1 المخطوطات ص 47. The Textual History of The Muqaddimah 1 Manuscripts, p. XCvII.

(3) عبد الرحمن بدوي : مؤلفات ابن خلدون 108 .

(4) لا نعرف حدود نسخة تونس الأصلية، وكيف وصل أستاذنا بدوي لهذا الاستنتاج الذي يفترض أن يقوم على المقابلة بنص موجود وثابت النسبة.

وعندي أن سبب هذا الإشكال والشك المُثار، هو وجود حلقة مفقودة في سيرة هذه النسخة ونحشها، تتمثل في المغرفة بخط ابن خلدون؛ الذي ينبغي أن يكون من أوليات ما يجب معرفته للمُتعامل مع ثراث الرجل.

إن الاستقصاء الواسع لمخلفات أبي زيد التي تحمل ما يُشير إلى مُعاصرتها له، بل وإلى الصلة به، توقُّفنا على نموذجين مُتمايزين من خطّه، ومُتَّحِدَين في أصولهما.

النموذج الأول، يتمثل في الأمثلة المحدودة العدد، ويحمل بعضها توقيعَه صريحاً بكامل اسمه، من ذلك :

توقيعه على الوقفية التي تنصّر أجزاء نسخة العبر، الموقفة على طلبة العلم بمدينة فاس، ومقرّها مكتبة جامع القرويين، وقد نشر النموذج الذي على الجزء الخامس منها ليفي بروفنسال⁽¹⁾ سنة 1923؛ ثم الإجازة التي حرّرها ووقعها بخطّه لابن حَجَر ورفاقه، في شُعبان سنة سَبْع وتسعين وسبعمائة (يونيو 1395م)، ونشرها هلموت ريتز⁽²⁾ سنة 1953.

وكان خطّه فيها على القاعدة الأندلسيّة، ذات الحروف المحققة المبيّنة والزوايا القائمة، صلباً كثير التقوير لما تحّت السّطور، يعتمد النّقط على الطّريقة

(1) E. Lévi-Provençal. "Note sur L'exemplaire du Kitab al-Ibar offert par Ibn Khaldun à La Bibliothèque d'al Qarawiyyin à Fes *Journal Asiatique*, CCIII 161-168. (Paris, 1923).

وتفضل عليّ بنسخة عنها صديقي الدكتور أحمد شوقي بنين، مدير المكتبة الحسينيّة بالرباط.

(2) Hellmut Ritter, *Autographs in Turkish Libraries*, in *Oriens*, VI 83 and pl XII, (1953).

الإفريقية القديمة، متأثراً بالنمط الذي اعتاد عليه في كتابة "العلامة"، وظلّ مرتبطاً بالتمّودج الذي كتبه وهو ابنُ تسعة عشر عاماً سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة (1351م)، وهو كتابُ لُباب المحضّل⁽¹⁾ في أصول الدين، لابن خطيب الرّبيّ فخر الدّين الرّازي.

ثمّ الشهادة الموقّعة على نُسخة عاطف مصطفى واشتهلأله لها بخطّه، واشتهلأله للنسخة يّتي جامع (ج)، وهما الاثنتان بخطّ ابن الفخّار، وعندما استفتح بكتابة اسمه في صدر النّسخة إيذاناً بابتداء النّص، عمّد في كتابة القاف والفاء إلى طريقة أهل المغرب بنقّط القاف بواحدة فوقيّة والفاء بواحدة تحتيّة، وهي الطريقة التي دخلت بها الكتابة إلى إفريقية والأندلس، واستمرّت عليها إلى وقت قريب. على حين جاءت كلّ تعليقاته واستدراكاته المذروجة في الحواشي وفي البطائق على عكس ذلك، فقد أجرى كتابته فيها على طريقة المشاركة بالنقّط من فوق، بواحدة واثنتين.

والتمّودج الثاني، تتلّسه فيما كتبه بمصر - وقد كان كثيراً - فقد اضطرّ بحكم وظيفة القضاء ومُتطلّباتها، والاستجابة لداعي الإسراع في الكتابة، خاصّة بعد إنجازه العبر بأجزائه المتعددة، وضرورة النّظر في النّسخ التي تصدر عنه ومراجعتها حتى لا يتفشّى الغلطُ عنه، اضطرّ إلى أن يأخذ أولاً بالرّسم المشرقيّ للحروف ونقّطها حتى لا يُربك قارئه، ثمّ نراه عمّد إلى الكتابة باستلقاء خفيف، مع الارتباط

⁽¹⁾ نشرة الاب لوسيانو رويو Fr. Luciano Rubio - مطبوعات معهد مولاي الحسن، النص العربي - تطوان - دار

الطباعة المغربية، 1952م، ونشر في دار المشرق - بيروت، 1995م.

بما التصق به من تقاليد الخط، وبما أخذت به يده من عادة لا تتعداها في الانقباض والتوتر، وهذا الاسترخاء المنافي للأناقة والواضح في إسراره أحياناً، جعل كتابته تبدو في تلاخُطها متداخلة ولكن لا تبعد به عن تشكيل الحرف الذي يُضطلع عليه بالأندلسي الذي درج عليه .

ثم أصبح مع الزمن هذا الخط المائل المستلقي أكثر أناقة ورشاقة وتناسباً في تركيبه وسُطوره، خاصة إذا كتب به الصفحة الكاملة والأكثر، وكان ينقل من مُسودة أعدها وأبقى على ما به الحاجة، بحيث لا يظهر في المبيضة شطب ولا إلغاء.

وهذه الخطوط التي احتفظت بها نُسخة عاطف، والأجزاء المختلفة التي وقَّفتنا على حُضرها من التاريخ، مما هو معروف ومما وقَّفتنا إلى الكشف عنه للمرة الأولى، والمعبّرة عن التدخّل في النصّ بالإضافة والتنقيح والتهذيب والإلغاء، تُفصّح عن أنّ هذا العمل لا يجزأ عليه غير صاحب النصّ الأصلي الذي لا يتقطع عن المراجعة لما أعده النساخون من نسخ الكتاب.

إنّ موقف فرانز روزنتال وعبد الرحمن بدوي وغيرهما جاء من أنّهم لم يتعرّفوا على هذا الخط الخلدوني الذي يُوشّح كلّ أعماله الباقية، لذلك كانت استنتاجاتهم غريبة، ولم تقم على تحليل ومقارنة واسعة لنماذج خطّه على مختلف المخطوطات، ولم يتساءلوا عن طبيعة التدخّل أمام كل حالة تُشير بإفصاح أنّه تدخّل صاحب النصّ وبخطّه الذي لا يتغيّر على كلّ الأجزاء المتباعدة في المكان والزمان.

إنَّ الكشف عن حقيقة خطِّ ابن خلدون غير الموقع والمتكرر على حواشي كُتبه ليس جديداً ، فقد حلَّل Rieu⁽¹⁾ الجزء المهم من العبر الذي تحتفظ به مكتبة المتحف البريطاني رقم 272، Add 23 وتتبع حواشيه الكثيرة بدقّة وتفصيل، وتُمثّل النموذج الثاني للخطِّ الذي سجّلت به حواشي نسخة عاطف مصطفى للأوّل من العبر (المقدمة) وكان المهرس على يقين من أنّها من عمل المؤلّف نفسه. لتدخلها المباشر في سياق النصّ تدخل الوثائق من شرعية فعله.

وأكد أستاذنا عبد الرحمن بدوي⁽²⁾ هذه الحقيقة في تقديمه لمخطوط المتحف البريطاني، دون أن يطلع على صورة النسخة ، ولعلّه لو باشر رؤيتها وقارنها بما شكك فيه سابقاً ، لما وقع فيما وقع فيه.

وكان الأستاذ الطنجي من الأوائل بعد Rieu الذي تعرّف على خطِّ ابن خلدون المسجّل على حواشي كُتبه التي اطلع عليها في تركيا، وخاصة نسخة عاطف مصطفى، ولم يكن قد اطلع على جزء التاريخ المحفوظ بالمتحف البريطاني وغيره، لأنّه لم يكن وقتها يعنيه مباشرة. وقد بقي من آثاره نصّ رسالة كتبها إلى صهره الأستاذ عبد الله كتون، رحمهما الله، تاريخها 1947/9/8م يذكر فيها أن من بين ما اعتمده لإعداد النصّ الخلدوني للمقدمة "نسخة المؤلّف التي كان يملكها، والتي كانت تتعرّض

(1) Catalogus Codicum Manuscriptorum orientalium qui in Museo Britannico , p. 565-565, (1)

(London 1846)

(2) مؤلفات ابن خلدون 129 .

لكلّ ما يطرأ على فكره من جديد، بهامشها - بخطّه - إضافات وتعديلات في مُنتهى الخطورة⁽¹⁾.

إن خطّ المؤلف يُوشّح هذه النُسخة في أكثر صفحاتها. فلا حاجة إلى حصره في قائمة، ولكنّ التّماذج التي أرفقناها تُشير إلى الكثير ممّا أردنا التعبير عنه، وهو ما يَسمح بالمُقارنة مع ما تُثبتته من شواهد هذا الخطّ المسجّلة على النّسخ التّالية.

ومن خلال هذه الشّواهد العديدة المتكرّرة المثبتة على الأجزاء المتفرّقة والمتباعدة من المُقدمة والتّاريخ، نقفُ على تدخّل كاتبٍ واثقٍ من نفسه في سياق النّص، يتكرّر عمله بالطّريقة نفسها وبالخط نفسه، ومهما اختلف حاله وسببه أثناء التّسجيل والكتابة، فإنّ ذلك لا يُفقدّه الارتباط الدائم بما اعتادت يده أن تسجّل به الحروف. مما يؤكّد صلة النّسب والقربة الوثيقة بين صاحب هذه الخطوط والكتاب، ولا يكون غير مؤلّفه.

(1) محمد كنون الحسني: العلامة ابن تاويت الطنجي، جوانب من حياته ونماذج من رسائله (الكتاب التذكاري عن محمد ابن تاويت الطنجي - منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة - طنبجة 1997)

(٥) فهرست ما تَضَمَّنَهُ سَفَرُ هذه المقدمة من الأبواب والفصول

الخطبة وفيها تقسيم الكتاب إلى مُقَدِّمة، وثلاثة كُتُب:

المُقَدِّمة : في فضل علم التاريخ

والكتاب الأول: في العُمران وما يَغْرِض فيه من المُلْك والمعاش والصَّنائع والعلوم، وهذا الكتاب الأول ذَهَبَ بِاسْمِ المقدمة حتَّى صارَ علماً عليها، وهو الَّذي تَضَمَّنَهُ هذا السَّفَر.

والكتاب الثاني: في أخبار العرب منذ مَبْدَأِ الخَلِيقَةِ ولهذا العَهْد في أربع طبقات: العاربة، والمستغربة، والتابعة للعرب، والمستفجعة المتأخرة، ودُول المعاصرين⁽¹⁾ لهم في كل طبقة، من: النُّبَط والسَّريانيِّين والفُرس وبني إسرائيل والقِبط ويونان والروم، ثمَّ في الدَّولة الإسلاميَّة: دول الكُرد والترك والترَّكمان والفرنج.

والكتاب الثالث: في أخبار البَرِّير وزَنَاعة بديار المغرب.



المقدمة: في فضل التاريخ وشيء من أغلاط المؤرخين.

(٥) هذا ما صُدِّرت به مخطوطة (ع) وقابلناها على نسخ ط ل ج ، ولم يرد في مخطوطة ي .

(1) ل: التابعين.

- الكتاب الأول: في طبيعة العُمران وما يتّرض فيها من البدو والحضر والتغلب والمعاش والعلوم والصنائع، وعِلل ذلك وأسبابه. وانحصر الكلام في ذلك في ستّة فصول:
- الأول: في العُمران البشريّ على الجُملة وأصنافه وقسّطه من الأرض.
 - الثاني: في العُمران البدويّ⁽¹⁾ والأُمّ المتوحّشة.
 - الثالث: في الدول والخلافة والملوك ومرايئها.
 - الرابع: في العُمران الحضريّ والبُلدان والأنصار.
 - الخامس: في الصنائع والمعاش والكسب.
 - السادس: في العلوم واكتسابها.

الفصل الأول في العُمران البشريّ على الجُملة، وفيه مقدّمات:

- الأولى: في أنّ الاجتماع للبشر ضروريّ.
- الثانية: في قسّط العُمران من الأرض، وفيها شرح الجغرافيا.
- الثالثة: في المعتدل من الأقاليم والمنحرف.... وتأثير الهواء في ألوان البشر وأحوالهم.
- الرابعة: في تأثير الهواء في أخلاق البشر.
- الخامسة: في اختلاف أحوال العُمران في الخصب والجوع، وتأثير ذلك في أبدان البشر وأخلاقهم.
- السادسة: في أصناف المذركين للغيب من البشر، وفيه الكلام في: النبوة وحقيقتها، والكهانة، والرؤيا، والكلام في العرافين والتأطرين في الأجسام الشفافة وفي قلوب الحيوان وعظامها، وأهل الزّجر، وأهل الطرق بالحصى والحُبوب. وحال الإدراك عند التّباس النّقطة بالتّوم، وحال الكشف والرياضة السّحرية وآثارها، ومدارك البهاليل من المتصوّفة، ومدارك المنجمين

⁽¹⁾ كذا في ع، وفي ظ ل: الحضريّ.

وأصحاب خط الزمل ⁽¹⁾، وأصحاب حساب التيم، والكلام في زائجة العالم والكشف عن حقيقتها.

الفصل الثاني في الغمران البدوي، وفيه فصول:

- في أن أجيال البدو والحضر طبيعية.
- في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر.
- في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مذهبة للبأس منهم.
- في أن سكنى البدو إنما تكون ⁽²⁾ للقبائل أهل القصية.
- في أن القصية إنما تكون من الالتحام بنسب أو ولأ.
- في أن صريح النسب إنما يوجد للمتوحشين في البدو من القرب والتترك ومن في معنائهم.
- في كيف تختلط الأنساب.
- في أن الرئاسة على أهل القصية لا تكون في غير نسبهم.
- في أن البيت والشرف بالأصالة لأهل القصية، وبالحجاز والنسبة ⁽³⁾ لغيرهم.
- في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاضطناع ⁽⁴⁾ إنما هو بمواليهم لا بأباؤهم.
- في أن نهاية الحسب في الققب الواحد أربعة آباء.
- في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها.
- في أن الغاية التي تجري إليها القصية هي الملك.
- في أن من عوائق الملك حصول الترف والتعم للقبيلة.

⁽¹⁾ سقط ما بين النجمين من ل.

⁽²⁾ ظ ل: يكون.

⁽³⁾ ظ: الشبه.

⁽⁴⁾ ل: القصية.

- في أن من عوائق الملك حصول المذلة لهم، وإشياؤهم لغيرهم، وقرض المغارم عليهم.
- في أن من علامات الملك التناقص في الجلال الحميدة والعكس.
- في أن الأمة الوحشية يكون ملكها واسع.
- في أن الملك إذا ذهب من أمة فقد يعود في شعب آخر منها إن بقي، ويكونون أولى به بذلك الترتيب.

- في أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر تحله وعوائده.
- في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملكة غيرها أسرع إليها الفناء.
- في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط.
- في أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب.
- في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية، من نبوة أو ولاية أو ما في معنى الدين.
- في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك.
- في أن البادية من القبائل والقصائب مغلبون لأهل الأمصار.

الفصل الثالث في الدول والخلافة والملك، ومرايئها:

- في أن الملك والدول العامة إنما يحصل بالقصبة والشوكة.
- في أن الدولة إذا استقرت وتمهدت فقد تستغني عن القصبة.
- في أنه قد يحدث لأهل النصاب الملكي دولة بغير عصبية وتستغني عنهم.
- في أن الدول العامة البعيدة الاستيلاء، أصلها الدين ودعوة الحق.
- في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة القصبة التي لها في الأصل.
- في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تنم.
- في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها.
- في أن عظم الدولة على نسبة القائمين بها في عددهم.

- في أَنَّ الأوطان الكثيرة السبائل لا تستحكم فيها دولة.
- في أَنَّ من طبيعة الملك الإشراف بالمجد.
- في أَنَّ من طبيعة الملك الترف.
- في أَنَّ من طبيعة الملك الدعة والسكون.
- في أَنَّهُ إذا استحكمت طبيعة الملك من هذه أقبلت الدولة على الهرم.
- في أَنَّ الدول لها أعمار طبيعية كما للأشخاص.
- في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة.
- في أَنَّ الترف يزيد الدولة قوة.
- في أطوار الدولة من البداوة وما بعدها.
- في أَنَّ آثار الدولة على نسبة قوتها في الأضل.
- في استظهار صاحب الدولة بالموالي و⁽¹⁾المصطنعين على قومه.
- في أخوال الموالي والمصطنعين في الدول.
- في ما يغرّض في الدول من حجب السلطان والاشتداد عليه.
- في أَنَّ المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك.
- في حقيقة الملك وأصنافه.
- في أَنَّ إرهاب الحدّ مضرّ بالملك مُفسد له.
- في معنى الخلافة والإمامة.
- في اختلاف الأئمة في حكم هذا المنصب وشروطه.
- في مذاهب الشيعة في الإمامة.
- في انقلاب الخلافة إلى الملك.
- في معنى البيعة.

⁽¹⁾ سقط حرف العطف من ل.

- في ولاية العهد، وفيها الكلام في شأن يزيد ووصية النبي صلى الله عليه وسلم لعلي، وإيضاح⁽¹⁾ الحق في الحروب الإسلامية، ونزبه الصحابة والتابعين عما يُظن بهم فيها.
- في الخطط الدينية الخلافية، من الإمامة والفُتيا والقضاء والفتالة والحسبة والبيكة.
- في اللقب بأمر المؤمنين.
- في شرح اسم البابا والبترك عند التصارى، والكوهن عند اليهود.
- في مراتب الملك والسُلطان وألقابها، من الوزارة والحجابه والحباية والكتابة والشرطة وقيادة الأساطيل.
- في التفاوت بين مراتب السيف والقلم.
- في شارات الملك الخاصة به من الآلة والسير والسكة والخاتم والطراز والفساطيط والسباج والمقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة.
- في الحروب وترتيبها عند الأمم.
- في الحباية وسبب وفورها ونقصها.
- في ضرب المكوس وأخير الدول.
- في أن تجارة السُلطان مُضرة بالرعايا مُفسدة للحباية.
- في أن ثروة السُلطان وحاشيته إنما تكون وسط الدولة.
- في أن نقص العطاء من السُلطان نقص في الحباية.
- في أن الظلم مؤذن بخراب العمران.
- في الحجاب كيف يقع في الدول، وأنه ينظم عند الهرم.
- في انقسام الدولة بدولتين.
- في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع.

⁽¹⁾ ل: إظهار.

- في كيفية طُروق الحُلل للثَّول.
- في أنَّ الثَّولة المُستَحْدَّة إِنَّمَا تَسْتَوِي عَلَى الثَّولة المُسْتَقَرَّة بِالمُطَاوَلَة لَا بِالمُنَاجَزَة.
- في وَفُور العُفْرَان أَوَاخِر الثَّول وَكَثْرَة المَوْتَان وَالمَجَاعَات.
- في أَنَّ العُفْرَان البَشَرِيَّ لَا يَدَّ لَهُ مِنْ سِيَّاسَة يَنْتَظِم بِهَا أَمْرُهُ.
- في أَمْر الفَاطِمِي وَاختِلَاف النَّاس فِي شَأْنِهِ.
- فِي حَدَثَانِ الثَّول وَالمَلَّاحِم وَالجُفَر.

الفصل الرَّابِع فِي العُفْرَانِ الحَضَرِيِّ مِنَ البُلْدَانِ وَالأَمْصَارِ وَالمُدُنِ:

- فِي أَنَّ الثَّولَ أَقْدَمُ مِنَ الأَمْصَارِ.
- فِي أَنَّ المَلِكَ يَدْعُو إِلَى ⁽¹⁾ الأَمْصَارِ.
- فِي أَنَّ المَدْنَ العَظِيمَةَ وَالهَيَاكِلَ إِنَّمَا يُشِيدُ بِهَا المَلِكُ الكَبِيرُ.
- فِي أَنَّ الهَيَاكِلَ العَظِيمَةَ وَالمَبَانِي لَا تَسْتَقِلُّ الثَّولَةَ الوَاحِدَةَ بِهَا.
- فِي مَا يَجِبُ مُرَاعَاتِهِ فِي أَوَاضَاعِ المَدْنِ.
- فِي المَسَاجِدِ وَالبُيُوتِ المُعَظَّمَةِ فِي العَالَمِ.
- فِي أَنَّ الأَمْصَارَ وَالمَدْنَ بِإَفْرِيقَتِهِ وَالمَغْرِبَ قَلِيلَةً.
- فِي أَنَّ المَبَانِيَّ وَالمَصَانِعَ فِي المِلَّةِ قَلِيلَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَنْ قَبْلُهَا.
- فِي أَنَّ المَبَانِيَّ الَّتِي تَخْتَطُّهَا العَرَبُ يُسْرِعُ إِلَيْهَا الخِرَابُ.
- فِي مَبَادِيءِ الخِرَابِ فِي الأَمْصَارِ.
- فِي أَنَّ تَقَاضِلَ الأَمْصَارِ فِي الرِّفَّةِ بِتَقَاضِلِ العُفْرَانِ.
- فِي القِلَاءِ وَالرِّخَصِ فِي أَسْعَارِ المَدْنِ.
- فِي قُصُورِ أَهْلِ البَدْوِ عَنْ سُكْنَى الأَمْصَارِ.

⁽¹⁾ كُنَّا فِي النِّسْخِ، وَبَعْنِي: إِلَى نَزُولِ الأَمْصَارِ.

- في أنَّ الأقطارَ تختلف في الرِّفَّة كالأمصار.
- في تأثُّل الفقار في الأمصار ونُموِّ قيمته.
- في حاجة المتمدِّلين من أهل الأمصار إلى الجاه.
- في أنَّ الحضارة في الأمصار من قِبَل الدُّول، وأنها تُرسخُ باتِّصالها.
- في أنَّ الحضارة غايةٌ للغمران ونهايةٌ لغمره ومؤذنةٌ بفساده.
- في أنَّ الأمصار التي هي كراسي الملوك تخرب بخراب الدولة.
- في اختصاص بغض الأمصار يتغض الصنائع.
- في وجود العصبيَّة لأهل الأمصار.
- في لغاب أهل الأمصار.

الفصل الخامس في [ال] معاش ووجوهه من الكسب والصنائع:

- في حقيقة الرزق والكسب، وأنَّ الكسب هو قِمة الأعمال البشريَّة.
- في وجوه المعاش وأصنافه.
- في أنَّ الخدمة للناس ليست من المعاش الطبيعيِّ.
- في أنَّ ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعيِّ.
- في أنَّ الجاه مفيدٌ للمال.
- في أنَّ السعادة والكسب لأهل الخُضوع والملق، وأنَّهما من أسباب السعادة.
- في أنَّ القائمين بوظائف الدين لا تروء لهم.
- في أنَّ الفلاحه من معاش المستضعفين وأهل الخير.
- في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها.
- في أيِّ أصناف الناس ينتفع بالتجارة، وأيمهم ينبغي له تركها.
- في أنَّ خلق التجار نازلةٌ عن خلق الأشراف.

- في ثقل التاجر للسلع في الاختكار.
- في أنّ رخص الأسعار مُضَرّ بالمُحترفين بالرّخيص.
- في أنّ الصنائع لا بدّ لها من المُعلّم.
- في أنّ الصنائع إنّما تكمل في العُمران الحضريّ.
- في أنّ رُسوخ الصنائع في الأمصار برُسوخ الحضارة وقديمها.
- في أنّ الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع.
- في أنّ العرب أبعد الناس عن الصنائع.
- الفلاحة.
- البناء.
- التّجارة.
- الحياكة.
- الخياطة.
- التّوليد.
- صناعة الطّب، وأنّها ضروريّة في الأمصار دون البُدو.
- في أنّ الخطّ والكتاب من عِداد الصنائع.
- صناعة الوراقة.
- صناعة الغناء.
- في أنّ الصنائع تُكسب صاحبها عقلاً، وخصوصاً الكتابة والحِساب.

الفصل السّادس في العلوم وأصنافها، والتّعليم وطُرّقه:

- في أنّ العِلْمَ والتّعلِيمَ طَبِيعِيّ لِلبَشَرِ.
- في أنّ تَعْلِيمَ العِلْمِ من جَمَلَةِ الصنَائِعِ.

- في آن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران والحضارة.

- في أصناف العلوم الواقعة في العمران.

علوم القرآن: القراءات، الرسم، التفسير.

علوم الحديث

الفقه وما يتبعه من الفرائض

أصول الفقه، وما يتعلق به من الجدل والخلافات

علم الكلام

علم التصوف

علم التعبير

العلوم العقلية

علوم القدد

صناعة الحساب: الجبر، والمقابلة

المعاملات

الفرائض الحسابية

علوم الهندسة

أوقليدس

المخروطات

المساحة

المنظير

علم الهيئة، الأزياج

علم المنطق

الطبيعيات

الطَّبِّ

عِلْمُ الإِلَهِيَّاتِ

عُلُومُ السَّحَرِ وَالطَّلْسِمَاتِ

عِلْمُ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ، وَالْكَلَامُ عَلَى زَايِرَةِ الْعَالَمِ لِلشُّبْتِي

عِلْمُ الْكِيمْيَاءِ

- فِي إِنْطَالِ صِنَاعَةِ النُّجُومِ وَضَعْفِ مَدَارِكِهَا.
- فِي إِنْكَارِ ثَمَرَةِ الْكِيمْيَاءِ وَاسْتِحَالَةِ وُجُودِهَا وَالْمَفَاسِدِ النَّاشِئَةِ عَنْهَا.
- فِي أَنَّ كَثْرَةَ التَّوَالِيفِ عَائِقَةٌ عَنِ التَّحْصِيلِ فِي الْعُلُومِ.
- الْاِخْتِصَارَاتُ فِي الْعُلُومِ مُخِطَّةٌ بِالتَّعْلِيمِ.
- فِي وَجْهِ تَعْلِيمِ الْعُلُومِ وَافَادَتِهِ.
- فِي أَنَّ الْعُلُومَ الْآلِيَّةَ لَا تُوسِّعُ فِي الْمَسَائِلِ وَالْأَنْظَارِ.
- فِي تَعْلِيمِ الْوُلْدَانِ وَاخْتِلَافِ طُرُقِهِ فِي الْأَمْصَارِ.
- فِي أَنَّ الشَّدَّةَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ مُضِرَّةٌ بِهِمْ.
- فِي أَنَّ الرِّخْلَةَ وَلِقَاءَ الْمَشِيخَةِ مُفِيدَةٌ فِي التَّعْلِيمِ.
- فِي أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ أَبْعَدُ عَنِ السِّيَاسَةِ.
- فِي أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ.
- فِي أَنَّ الْعُجْمَةَ إِذَا سَبَقَتْ اللَّسَانَ قَصُرَتْ بِصَاحِبِهَا عَنِ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ عَنْ أَهْلِ اللَّسَانِ الْعَرَبِيِّ⁽¹⁾.

⁽¹⁾ كتب المؤلف هذا العنوان بخطه في الحاشية، بدلاً من العنوان المشطوب المدرج في متن هذا الفهرس، وهو: فِي أَنَّ الْأَعْجَامَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمِلَّةِ قَاصِرُونَ فِي مِلَكَاتِ الْعُلُومِ عَنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِ.

- في علوم اللسان الغربي: النحو، اللغة، البيان، الآداب.
- في أن اللغة ملكة صناعية.
- في أن لغة العرب لهذا العهد لغة بنفسها، مغايرة للغة مضر وحمير.
- في أن لغة أهل الحضر والأنصار لغة بنفسها كذلك.
- في تعلم اللسان المصري.
- في أن ملكة اللسان المصري غير صناعة العربية، ومستغنية عنها في التعليم.
- في تفسير لفظة الذوق عند أهل البيان، وأنه لا يحصل لمن سبقت له عجمة.
- في أن أهل الأنصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل الملكة اللسانية المستفادة بالتعليم.
- في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر.
- في أنه لا تنفيق الإجابة في النظم والنثر إلا قليلاً.
- في صناعة الشعر ووجه تعلّمه.
- في أن صناعة النظم والنثر في الألفاظ لا في المعاني.
- في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ، وجودتها بجودة المفظوظ.
- في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع، وكيف جودة المصنوع أو قصوره⁽¹⁾.
- في ترفع أهل المراتب عن اتّيحال الشعر.
- في أشعار العرب وأهل الأنصار لهذا العهد.
- شعر الجبل الغربي: الموشحات والأزجال للأندلسيين.

عروض البلد للمغاربة

الموالي ودوبيت لأهل المشرق

⁽¹⁾ عنوان مضاف بخطه في الحاشية.

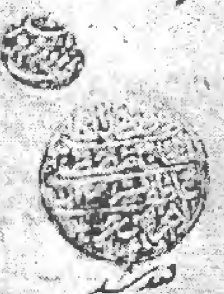
منه مسودة المفرد من كتاب
العبرية في اخبار العرب والعجم والبربر
ومن علمية كلها كما لا يحتاج الى
الشرح فالحمد لله وحده
وليس يوجد في نسخة الشيخ
وكتب مولانا عبد العزيز خلدون
وقد لله نعم وكما علمه بجمته

خط المؤلف
ابن خلدون رحمه الله

مقدمة تاريخ ابن خلدون المسمى
بالعبرية وشيخه
بن علي بن خلدون الكوفي
القطري الحنبلي
المتوفى سنة ٨٠٦ هـ
رحمه الله تعالى
في سنة ٨٠٦ هـ
الكتاب المسمى
بالعبرية

ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة

كتاب
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة



كتاب
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة

1946
National Library
Majma Library

كتاب
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة
ابن خلدون
في تاريخه
مقدمة

• المخطوط "ع"، صدر النسخة وعليها خط المؤلف ومجموعة التملكات

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

يعمل العبد البعير إلى رحمة ربه الغني بقلبه
غير الحزين من محزون حذر من الحزن من ربه لله

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي لا اله الا هو
الغني بقلبه

الحمد لله الذي له الغنى والجبروت وبه الملك والملكوت . وله الاسماء
الحسنى والنعوت . العالم فلا يرب عنه ما يظهر القوي او يخفيه السكوت .
القادير فلا يعجزه شئ في السموات والارض ولا يفوت . انشأنا من الارض سمما .
واستعمرنا فيها اجيالا واسما . ونشرنا منها ارزاقا وقسما . نكفنا الارحام واليون
ويكفلنا الرزق والقوت . وتبلينا الايام والوقوت . وتقورنا الأجل التي خط
علينا كايها الموقوت . وله البقا والشبوت . وهو الخالق الذي لا يموت .
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكتوب في التور
والانجيل المعنوت . الذي تحضر لفضله الكون قبل ان تتعاقب الاحاد
والسبوت . ويتبين رجل الميثوت . وشهد بصدقه الحام والعنكوت .
وعلى آله واصحابه الذين هم في محبته واساعه الاثر البعيد والصيت . والشمل
الجميع في مظاهرته ولعد وهم الشمل الشيت . صلى الله عليه وعليهم ما
انصل للاسلام جده الميثوت . وانقطع بالكرم حله الميثوت . وسلم كثيرا
أما بعد فان من النارج من القبول التي تبدأ اولها الامم والاحمال
وتشده اليه الركائب والرجال . وتسمو الى معرفة السوقة والأغفال . وتتأخر
فيه الملوك والاقبال . وتساوي في فهمه العلماء والجهال . ياد هو في ظاهره لا يزد على
لجأه عن الايام والدول . والسوابق من القرون الاول . تنمق لها الأقوال .
وتعرف فيها الامثال . وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتقال . وتؤدي لنا شان
الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال . واسع للذول النطاق فيها والجمال .
ومغروا الارض حتى تأتيهم الارحال . وحيال منهم الزوال . وفي باطنه نظره وتحقيق
وتعليل للكيانات ومبا ديهها دقيق . وعلم بكفيات الوقايح واسبابها عجيبة
هو

* المخطوط "ع" مستهل النسخة ، السطران 2 ، 3 بخطه والنص بخط ابن الفخار

في بدايات عمله

في ذكر المعاصر للملك الاجيال من أمم النواحي، وملوك الامصار منهم
 والفواحي، سالك سبيل الاختصار والتلخيص، مفتدياً بالمرام السهل من
 العويص، داخل من باب الانساب على العموم الى الاخبار على الخصوص،
 فاستوعب اخبار الخليفة استيعاباً، واذل من الحكم النافع صغاباً، واعطى
 لحوادث الدول عللاً واسباباً، وأصبح للحكمة حيواناً وللتاريخ جراً،
 ولما كان مشتملاً على اخبار العرب والبربر، من اهل المذار والوبر، والامام
 بمن عاصروهم من الدول الكبر، وافصح بالذكرى والعبارة في مبادئ الاحوال
 وما بعدها من الجز، تسميته كتاب العبر، ودبوان البنا والجز، في ايام
 العرب والبربر، ومن عاصروهم من ذوي السلطان الاكبر، ولم يترك شيئاً في
 اولية الاجيال والدول، ونعام الامم الاول، واسباب النقص واللؤلؤ،
 في القرون الخالية والملل، وما يتعرض في العمان مرد ولف وملة، ومد بينة
 وحلة، وعنق وكلة، وكثرة وقلة، وعلم وصناعة، وكسب واضاعه،
 واحوال ثقيلة مشاعة، وبد وحضر، وواقع وتظنر، الا واستوعب
 جملة، واوضح براهينه وعلله، فجاء هذا الكتاب قد افاضته من العلوم
 الغريبة، والمحكم المنجوبة القريبة، وانا من بعد ها موقن بالقصور من اهل
 العصور، نعرف بالبحر عن المصا، في مثل هذا القضا، راعى من اهل اليد
 البيضاء، والمعارف الشعة القضا، في النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضا،
 والتعمد لما يثرون عليه بالاصلاح، والانعاض، فالبهاة بمر اهل العلم منجاة
 والاعتراف من اللوم منجاة، وللحسني من الاخوان منجاة، والله اسئل
 ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه، وهو حسبي ونعم الوكيل.

مبتدأ
 زجيرة

وان كان بقي في الدلالات على اصله وسمى لساناً حضرياً في جميع اصناف الاسلاف
فاكثر اهل الامصار في الملة لهذا العهد من اعقاب العرب المالكين لها المالكين
في ترفها بما كنوا العجم الذين كانوا ابهار وروثوا ارضهم وديارهم واللغات
متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على جبال لغة الاباء وان فسدت احكامها بخالطة
الاعجم شيئاً فشيئاً وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى اهل الحواضر والامصار
بخلاف لغة البدو ومن العرب فانها كانت اعترق في العروبة وللتفكك للعجم
من العرب والترك اختصوا بلسانهم ولغتهم في ارجاءهم وفي لسان الامصار
كل حاله وزمانا يغلب عليهم مخالطة اهله بالعجم وولعهم بوجوههم
لغة اخر ليسهم وبلغنا لهذا العهد عن اهل المشرق الاقصى مثل اهل خوار
وتورانهم لا يكلمون باللغة العربية ولا في مجالس تعليم العلم الا ما كان من فوة
القرآن والحديث خاصة وما سوي ذلك فحجة كلها وهذا والله اعلم لما صح
فيهم من ملكة العجم وان الدولة الاسلاميه لم يطل امتها ففهم ولم يطل عبادهم
العرب فبقوا في عجمهم فلما تقلص عنهم قال العرب بعض السبي يستقلص الدولة
فلما دهم في لغاتهم وادعوا عهد اللسان للعرب والله مقيد اللسان والخطاب
ولما تملك العجم من الديار السجلية بعزمهم بالمشرق وزيادته والبربر بالمغرب وحارلم
الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلاميه بعد الدمار العربي لذلك وكاد
يزيم لو كان ما حفظه من عنابة المسلمين بالكتاب والسنة القدر بها حفظ الدين
وصار ذلك مرجحاً لبقاء اللغة الحضرية بحسب عظماء ملك الططر واللغة بالمشرق
ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المخرج وفسدت اللغة العربية على الاطلاق
ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلاميه بالعراق وما وراء النهر وبلاد الشام وبلاد الهند
ودعيت اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلاً يقع تعليمه ضاعياً
بالقوانين المقدارسة من علوم العرب وحفظ كلامهم لم يبق لله الملك وبقيت
اللغة العربية بالحضرة بصر والشام والابرار والمغرب لبقا الذين طالبا لها فاعثقت
بعض الشيء واما في ممالك العراق وما وراء النهر فلم يبق له اثر ولا عين حتى ان كتب العلوم
حارت بكتب باللسان العجمي وكذا في ريس في المجالس والله مقدر البلاء والنار

بالمصار

في لسان بلاد فارس
والدور الهند والهند

تقينا بالشارع اعلم بطابع الشريعة

يكون الوازع لكل احد من نفسه **ولما** تناهى الدين عن الناس واخذوا بالاحكام الوازع
 شرع الشرع علما وصناعا يؤخذ بالتعليم والتاديب ورجع الناس الى الحضرة وخلق
 لهم تقيدا الى الاحكام فقامت بذلك سوية الناس فهم **فقد** تميزت الاحكام السلطانية والتعليمية
 منفصلة للناس لان الوازع لها اخبري واما الشرعية فتعبر بمصلحة لان الوازع فيها ذاتي
 ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما يؤخذ من اهل المواضع ضعيف
 نفوسهم وحفظ الشئ منهم بمعاينة في وليهم وكهولهم والبدو وعزيب عن هذه
 المنزلة يعلم عن احكام السلطان والتعليم والاداب ولهذا كان السجود في
 رتبة كابد في احكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب ان يضرب احدا من الصبيان
 في التعليم فوق ثلاثة اسيوط نقله عن شيخ القاضى واجتهد بعضهم بما وقع في حديث
 بدو الوحي من شأن الغيط وأنه كان ثلاث مرات وموضعت

في التعليم

لا يصلح شأن الخط ان يكون في
 اليد اعلم ذلك بعدد من التعليم
 المتعارفين والله اعلم بالصواب

فصل في ان سكنى الدولة يكون الا لتأهيل اهل العصبة

اعلم ان الله سبحانه ركب طباع البشر الخبيث والشركا قال تعالى ومدينه الجور وقال
 فالتهمها لجورها وتفرقاها والشر اقرب الخلال اليه اذا عمل في سر عيوبه ولم يندب
 الله تعالى بالذين وعلى ذلك الجور القبيح لا من وقفه الله ومن خلا في الشر لم يظلم
 والعدوان بعض على بعض فمن استندت عينه الى مناع اخرجته امتدت يده الى اخذه
 فلما ان يصده وازع كما قال

بيت من البيت المشبه

والظلم من شيم النفوس فان تجدد اعقبة فليحذر لا ينطلم
فاما المند والمصاب فليحذر ان بعضهم على بعض بدفع الحكام والدولة بما يتفوقوا على
 ايدي عن تختم من الكافة ان يمتد بعضهم الى بعض او تعدد عليه فهم مكروهون بحكم القهر
 والسلطان عن التكلم الا اذا كان من الحاكم بنفسه واما العدوان الذي يخرج المدينه
 فيدفعه سياج السوار عند الغنلة او الغنقة ليلا والعجز عن المعاودة بها لا يرد
 زيادة الحامية من عنوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة واما احماء البدو فيزع
 بعضهم عن بعض مشايخهم وكبارهم بما دفن نفوس الكافة لم من الوقار والتجلة واما
 حكامهم فاما يزداد عنها من خارج حامية الحي من الجاهلهم وبنيانهم المعروفين بالشجاعة

المرء من كذا انه واه
 في كذا ما يفسد على كذا
 لا

في حيزان راتين في حيزان راتين
من الوحدة من الوحدة

في صبح ذي الازر لشرفه خيارا فاقموا ايا قوم مدي الاشارة
تج زحل اخبرني ان الاملا وبذل الشكلا وهي لانا شايبة زرقا في العماما وطاش الزرور في العماما
يقول في آخره قد تم هذا التحشير لاننا لم نرى بصلنا على اذ فاس يوم عييد حتى نجه النسر والبردى
وابانة نحو الحسابة وهي احكام القرائات التي دلت على دولة الموحدين فمن لاجل
المغرب ايضا نصبة من بعض المتقارب على دقالبه المنوبة لابن البار وقال
لي قاض قسطنطين وكان بصيرا بما يقول وله قلمة علم الجرم قال لي ان هذا ابن
البار ليس هو الحافظ الكاتب مقتول المستنصر دائما هذا رجل خياط من اهل
تونس ذات طاش شهرة مع شهرة الحافظ وكان الذي رحمه الله ينشد في الايات
من هذه الملحمة وفي بعضا في حفظي نطقها عذيري من رزق قلب تعزيبا رة الاشيب
ومنها ذكر الحيا في تابع لكر الرولة فيبعث من حيشه قاهرا وينفي هناك على مرقبه
فتاتي الشيب اخباره فيقبل كالحمل الاخر وبظهور من عذله سيرة وتلك سياسة شجيب
ومنها في ذكر احوال تونس على العموم فاما ايت الرسوم اتحت ولم يزع حق له من نصيب
فخذ في الترحل عن تونس وودع معالمها ولا يعب فسوف تكون بها غنة تصفب البري الى المغرب
ورفت بالمغرب على ملحة اخرى في دولة بني الحفص هذه تدر فيها بعد السلطان
البرقي الشهير فاشركهم ذكر اخيه محمد بن عبد
وبعد ان عملا لاله منبند ويغرف بالكتاب في نسخة اصل
الا ان هذا الرجل لم يملك بعد اقليم وكان بين ذلك نقلة الى ان هلك ومن تلاحم
الغرب ايضا الملحمة المشربة الى القوش في لغة العامة في عر دوا البلاد ولها
دعني ياد معي الهجان فترت الامطار ولم تفت
واشقق كلها الويدان وانتى لم تبالا وتغدر
كلما تروى فاقا تاشرا تروى راتير الصيد والشتا والفاك والريح تجر فاحر صحتا تروا
ايما دبر في ذي الازمان ذرا القوز اشتر وتسر من
وهو طرقة ومحمدة بين عامة المغرب الاقصى والغالب عليها الوضع لانه لم يصح منها قول
الا على تاويل بحرفه العائنه او تحريف فيه من يخلها من الخاصة وتفت بالمشق
على ملحمة منسوبة لابن العتيق الحاشي في كلام طويل شبه الامعان لا يعلم تاويله الا الله

دعني ياد معي الهجان

فصل في التواري من القبايل والعصائب مغلوب

لاهل الامصار قد نقلتم لنا ان عمر بن الخطاب قد حضر عن عمر بن الخطاب
لان الامور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة في البلد وانما يوجد لهم في
نواطعهم امور الفلح وميراث عام في روضة وعظمها الصناعة فلا يوجد لهم الكلب
مخار وخباط وحديد وامثال ذلك مما يقيم لهم ضرورات معايشهم في الفلح وغيره
وكذا الراس والبرام مفقودة لديهم وانما ما يملكون اعواضا من مثل الزراعة واعيان
الحيوان وفضلاته الثباتا وازهارا واسعارا ولها ما يحتاج اليه اهل الامصار فيحتاجون
عنه بالراس والبرام الا ان حاجتهم الى الامصار الضرورية وحاجه اهل الامصار اليهم
في الحاجي والكمالي فيهم مختلفا فجوز الى الامصار الضرورية بطبيعته وجودهم فاما ما كان
البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فيمحتاجون الى اهلها ومقتضون
في مصالحهم وطاعهم متى دعوا الى ذلك وطالبهم به فان كان في المصر ملك تاز
خضوعهم وطاعتهم الغلب الملك وان لم يكن في المصر ملك فلا بد في مصر راسنة
وتوقع استيلاذ من بعض اهلها على الباقيين والا انتقض عمرانه وذلك ان الراس يحكم على
طاعته والسعي مصالح اما طوعا بسد السالكين ثم يبيع لهم ما يحتاجون اليه من الضرورات
في مصر فيستقيم عمرانهم واما كونهما من امت قدرته على ذلك ولو بالنصر منهم حتى

* المخطوط "ع" إضافة بخط ابن خلدون

وغير جاعلهم المستر
ففيها ما لا يحسن
واما ما لا يحسن
والشأن من بعضه

وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين طريقة اهل الرأي والقياس وهم اهل العراق
وطريقة اهل الحديث وهم اهل الحجاز ومنازل الحديث قليل لا في اهل العراق لما قد ذكرناه
فاستكثر اهل القياس وممن رافيه فلذلك قيل لهم اهل الرأي ثم انكر القياس طائفة
من العلماء وابطلوا العمليه وممن الظاهريه وجعلوا مدارك الشرع كلها متحصلة
في التصور والاجماع ورد والقياس الجلي والعله المنصوصة الى التصور لا النص
على العلة نص على الحكم بجميع محالها وكان امامنا من الزيد داود بن علي وابنه
واصحابها فكانت هذه النزاع الثلاثة في منازعهم الجمهور المستندة بين الامة
وشذ اهل البيت بنزيب ابتدعوه وفقه انفسه وابنه وبنوه على مذاهبهم
في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعضه الآية ووقع الخلاف عن اقوالهم
وسببها اصول رامية وشذ بشذ ذلك الخواص ولم يخفوا الجمهور من اعيانهم
بل اوسعوا جانب الانكار والقدح فلا يعرف شي من مذاهبهم ولا اثر في كتبهم
ولا اثر في مسنها الا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت
دولهم قائمة في المغرب والمشرق والمشرق والخواص كذلك وكل من كتب في المؤلف
وه اهل الفقه غريبة ثم درس مذهب اهل الظاهر اليوم بدروس ائمتهم
وانكار الجمهور على منتهى ولم يبق الا في الكتب المجلدة وربما كثير من
الطالين من يكلف بالتحال منهم على ذلك الكتب يرد اخذ فقههم منها
ومن مذهبهم فلا يخلو بطايل ويصير الى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه
وربما عُد بهذه التخلية في اهل البدع بتلقيه العلم من الكتب من غير
مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حنوم بالانكسار على علمه في حفظ
الحديث وصار الى مذهب اهل الظاهر وممن رافيه باجتهادهم في اقولهم
وخالف امامهم دارد وبغرض للكثير من ائمة المسلمين فنقم الناس ذلك عليه
واوسعوا من مذهبهم استنجانا وانكارا وتلقوا الكتب بالاعتقال والترك حتى انها
ليحظر بيعها بالاشواق وربما تنزق بعض الاحيان ولم يبق الا مذاهب
اهل الرأي من العراق واهل الحديث من الحجاز فاما اهل العراق فاما مذهبهم الذي
استقرت عنده مذاهبهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت في مقامه

يعكف

في اهل العراق
ابن حنيفة

• المخطوط "ع" إضافة بخط ابن خلدون

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي احاط علمه بمكنونات القلوب
 وكشف بفضله العلم بحجب الاستتار عن اذهان اهل البصائر
 نور قلوب عباده المخلصين بحقائق المعارف الدينية ووقائق
 المسائل الباقية ووقفهم للنظام بوظائف الطاعات والمواعظ
 على التزود من روائب العبادات والصلوة والسلام على
 سيد المرسلين وامام المتقين وقائد الغر المحجلين محمد وآله
 الطاهرين الابرار وصحبه الاخيار من المهاجرين والانصار
 والتابعين هم في سلوك مسالكهم وانتهاج ما ينبوع من مناهجهم
 وسلم تسليما كثيرا وبعد فقد اتفق على مطالعة هذا السفر
 وهو السفر الاول من كتاب العبر في اخبار العرب والعجم والبربر
 فوجدته كتابا مشحونا بالفوائد الكثيرة والعوائد الجميلة الغريبة
 لم يسبق مثله في مراعاة اللطائف والاقتناء بكنوز الفوائد
 الطرائف دل بحسن تراكيبه وحرارة نظمه وترتبه على
 كل مصنفه في الدراية وسبقه على الاقران في الحفظ
 والرواية وكنت هذه الاسطر بعد الوقوف على ما تراه هذا
 الكتاب تذكره لصاحبه مشعرا وبامناه بالنعى وآله عز
 هذه الاسطر العبد الصغيف محمد يوسف بن محمد اسفيجاني

محمد يوسف بن محمد اسفيجاني
 في سنة ١٢٨٥ هـ
 في داره في القاهرة

7/2/00

تَقَامِبُ

انما ملكا عليه
 توفي سنة ثمان
 وبعث بالهدية
 صلح مصر
 ابن علي بن ابي
 واخوه وبنو
 بالهدية
 ثم
 ملك
 رك في سيد القطر
 الفرس من
 فصد به
 من
 فلك سنة ثمان

وهمي على صاحب القرائه المصطفى

وعدا سيدي القوي دولة سي مرس من زاتة المانيه وملكهم ولقي علينا
حبر القزاة المشرقة المشرقة العبد المكو عيسى المعاصي منهم الذين
الى ان لم يسلم الجهاد وكيف كانت اما بهم هياكل على الغزاة المعاصي من زاتة
وساير اهل العزوة وذكركم واحدا بعد اخر الى ان ارض امهم وركب سفرة
الكلم في احبار سي مرس ود ولتم ولله وار الاخر من علمها

الخبر عن افتتاح بلاد بني

توجين وما يخلل ذلك

لما نزل السلطان يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها وتغلب
على بلاد بني عبد الواد وسمى إلى ملك بلاد بني توجين وكان عثمان
ابن محمد ابن قنبل مصر على مواطنهم وملك جبل واندرين
وتصرف في بني عهد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأثارة
سنة إحدى وسبعماية وأوقع إليه السلطان بناء الطما التي يقدمها
محمد بن عبد القوي فبناها وتوغل في فاصبه الشرق ثم انكها راجعا
إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني توجين سنة ثنتين
وتمشوا عبد القوي إلى ضواحيهم بالقدر ودخل جبل واشربين
ومدم حصونهم به ورجع إلى الحضرة ثم نادى أهل تافرا كنيست
سنة ثلاث بارتباطهم ونقضوا بقدارها ثم بعث أهل
المدينة بطاعهم للسلطان فقبلكم وأوعز بمسألة نصبهم
وأجمع من عبد القوي بعد ذلك بمبارهم طاعة السلطان وقدوا
عليه مكانه من المنصور مدته المهيمنة على تلمسان سنة
ثلاث فقبلكم طاعتهم ورعي سابقهم وأعادهم إلى بلادهم
وأقطعهم وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي
وأوعز بمسألة قضية المدينة سنة أربع وثلث سنة خمسين
وهلك علي بن الناصر خلال ذلك فمقد عليهم لمحمد بن عطية
الاصم كمداد كبراه فاستمر على الطاعة ثم انتقض سنة
سب وجم قومه على الخلاف واستمدوا من الوطن إلى أن هلك
يوسف بن يعقوب كما ذكر

الخبر عن بلاد بني توجين
وما يخلل ذلك
لما نزل السلطان يوسف بن يعقوب تلمسان وأحاط بها وتغلب على بلاد بني عبد الواد وسمى إلى ملك بلاد بني توجين وكان عثمان ابن محمد ابن قنبل مصر على مواطنهم وملك جبل واندرين وتصرف في بني عهد القوي بالولاية والعزل وأخذ الأثارة سنة إحدى وسبعماية وأوقع إليه السلطان بناء الطما التي يقدمها محمد بن عبد القوي فبناها وتوغل في فاصبه الشرق ثم انكها راجعا إلى حضرة أخيه وعطف على بلاد بني توجين سنة ثنتين وتمشوا عبد القوي إلى ضواحيهم بالقدر ودخل جبل واشربين ومدم حصونهم به ورجع إلى الحضرة ثم نادى أهل تافرا كنيست سنة ثلاث بارتباطهم ونقضوا بقدارها ثم بعث أهل المدينة بطاعهم للسلطان فقبلكم وأوعز بمسألة نصبهم وأجمع من عبد القوي بعد ذلك بمبارهم طاعة السلطان وقدوا عليه مكانه من المنصور مدته المهيمنة على تلمسان سنة ثلاث فقبلكم طاعتهم ورعي سابقهم وأعادهم إلى بلادهم وأقطعهم وولى عليهم علي بن الناصر بن عبد القوي وأوعز بمسألة قضية المدينة سنة أربع وثلث سنة خمسين وهلك علي بن الناصر خلال ذلك فمقد عليهم لمحمد بن عطية الاصم كمداد كبراه فاستمر على الطاعة ثم انتقض سنة سب وجم قومه على الخلاف واستمدوا من الوطن إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما ذكر

وبلغ سيف الدولة
 النجاشي في سنة ١٠١٠
 من سنة ١٠١٠
 ورايت النجاشي

واصل بن جردان فاجاب ثورون الى ذلك وعقد الصلح لناصر الدولة على
 ما يده من البلاد لبلاد سمر كل سنة ثلاثة الاف الف وستمائة العودم
 وعاد ثورون الى بغداد واقام المقي بالرقه ثم احسن من بن جردان فاجاب به
 فكتب الى ثورون يستصلحه وكتب الى الاخشيدي محمد بن طغج صاحب مصر
 يستقدمه فسار اليه الاخشيدي ولما وصل الى حلب وعلمها من قبل سيف الدولة
 ابن عمهم ابو عبد الله بن سعيد بن جردان فرحل عنها وتخلف عنه ابن مقابل
 الذي كان بد مشق عز بن نايق ولما وصل الاخشيدي الى حلب لقيه ابن مقابل
 فآخيه واستعمله على خراج مصر ثم سار الى المقي بالرقه فلقبه مشص
 ثلاث وثلاثين الف المقي في اكرامه وبالع هو في الادب معه وحمل اليه الهدايا
 والى وزيره وحاشيته وساله المشر الى مصر والشام فاني فاشار عليه ان لا
 يرجع الى ثورون فاني واشار على ابن مقله ان يسير معه الى مصر لحكمة في دولة
 وخوفه من ثورون فلم يفعل وجاء بهم رسل ثورون في الصلح وانهم
 استخلفوا للخليفة والوزير فاعذر المقي الى بغداد وعاد الاخشيدي الى
 مصر ولما وصل المقي الى هبت لقيه ثورون فقبل الارض وراى انه تخطل
 من ميمه سلك الطاعه ثم وكل بهم وشمل المقي ورجع الى بغداد فباع
 المستكفي استيلاء سيف الدولة على حلب وحصص
 ولما رحل المقي من الرقة وانصرف الاخشيدي الى الشام بقي مائس الموني حلب
 فقصده سيف الدولة وملكها من يد ثم سار الى حصص فلقبه بها كافور مولد الاخشيدي
 فزعمه سيف الدولة وسار الى دمشق فاستقوا عليه فرجع وجاء الاخشيدي
 من مصر الى الشام وسار في اتباع سيف الدولة فاصطفا بقتلهم ثم خرجوا
 ورجع سيف الدولة الى الحزن والاخشيدي الى دمشق ثم سار سيف الدولة
 الى حلب وملكها وسارت عساكر الروم اليها فعاكهم وظفروهم ثم بلغ ناصر الدولة
 ابن حمدان ما فعله ثورون من حمل المقي وسعه المستكفي فامنع من حمل المال
 وهرب اليه غلمان ثورون فاستخدمهم ونقص الشرط في ذلك وخرج ثورون
 بالمستكفي فاصدا الموصل وزادت الرسل منهم في الصلح فم ذلك اخر سنة

اخرا المحرم
 الى النجاشي في سنة ١٠١٠
 ورايت النجاشي في سنة ١٠١٠
 من سنة ١٠١٠
 ورايت النجاشي

هذا هو الحق
في تاريخ
السلطنة
العثمانية

الحبر عن القبايلي كان يلد السلطان ابي العباس والقيام بذكر السلطنة منهم
بعده الى ان كانت تليقته دولة الاخيرة منهم

كان هذا الرجل ومولاه محمد علي القبايلي وسلفه ترطانة بني عبد المؤمن خلفاء اليوز
بوالشخرج جلد مع فلان الواحد من عشقته قتل ابي يوسف اخيرهم سنة ست وستين
وسمائه وانقرض ملكهم وخرج هذا الفل من مر الكثر فمحقوا الجبل فمحقوا الجبل فمحقوا
الحجامة وموت الامام محمد بن تومرت وقربايعوا الاسخو اخي السرقي ونصبيوه
واقاموا هناك وحيث بنى من بنى شعاعهم الى الر غلبوا على جبل تيمم كل
سنة اربع وسبعين وتعب من على السخو اخي السرقي واري سعيد بن عمه
ابي الربيع وكانهم القبايلي اولاده وسبقوا الى السلطان تومرت بن عبد المؤمن فقتلوا
جميعا وانقرضوا من عبد المؤمن وتنازل اعقاب القبايلي بقاسه اباه من بنى ونشوا
في طرد ولهم سحر موز دواوير الحجامة وارزاق الحنك ومهاجرات الحسابة
لهم ذلك من الكفاية والاضطلال في سائر ايام الدولة حتى طهر منهم المر بستر
ابو الحسن علي والد هذا الرئيس وبرز على امر صاعته كفايته واضطلاله
وبانته خدمته السلطان ابي الحسن في دولته فكشف عن غوره وخبر صا دق
نحبه وضبطه فاصطنعه وقرينه وردف به كبير الحجاز والاولاد ببابه
اما الفضل بن ابي مدين فكان مساميا له عند السلطان وموفيا بما يعين من حاجات
الاعمال وبرز ما كان يمشق عليه في كثر ما بكفاته واضطلاله وقيامه على تلك
الصناعة من اول امره وركب البصر من تزيينه حمله السلطان ابي الحسن واصحابه
من الغزو ما مر ذكره في دولته وخلصوا الى الحجاز واستكفاه السلطان في
حمل تلك الوظيفة وزاده الدماء وطبقة العلامة الرسم المكتوب او اخر الامور
والمراسلات فقام بالوظيفة احسن قيام ثم جمع نحو محمد الواد لما نعت
السلطان ابي الحسن محمد بن ادم واسموا الله ابا عنان ملك المغرب فاصدعهم
بعساكرهم من رزق حقيق الفقيه بمشرب يومه من وطن مغاوة ما به من السلطان
في ذلك اللقاء وقيل ولده الناصر والكا سر حباله وهو اخر حلاله كان منهم هذا
الرئيس ومشاينوه في طرد الدولة وممنها سحر موزة مناديه الاسكال السلطانية
كان كاسلهم ثم شئت احمد هذا الرئيس الثاني منهم قاريا كالتبا عارفا بالحساب
وصناعة الدبر اراخدا عن كبير مشيخهم ابي الحسن بن سعد العام في الحكم
السلطان بعد من من القبايلي فنبج فيها واضططلع وبرز على طبقاتها
وبانته خدمته السلطان فمحق فيها زعماءها فمحقا سابقا بقاءهم منها الى ان اختصه

قائل الدولة اسم موسى بن السلطان ابن عثمان الوردى مسعود بن عباسى فليخذه بعناية
 وقربه من بنى السلطان وصبره وصايرة الامور عليه فقام بذلك فصار اعز ساعد
 الجند والنصيحة ووقع من السلطان اعلى موقع وعظم به السلام اعلى طبقة فشكلهم
 وردهم على اعقابهم ثم ظهر السلطان ليو العبد من وادى الملك من ابيهم من ملك الورد
 ابن عباسى كما سره لاجاره فجزت ملك الملك على عبد الله بن عباسى اذما الجفوة
 والصلابة ودخله جلود الورد وادى الملك من السلطان وقطعه سائر اقاليم
 فقام بها نصيبا مونا من التراب كما فيها مصارف الورد الى ارض السلطان حرم
 وكان من خبر ذلك ان السلطان اعظم على الحركة الى اوطار الشرق فقامت
 وراها وليا اسدى الى ارضي قديم الله الامور انا فادى من العسكرو ومعه الورد من حرم
 واقام هناك كشارف اخوانهم فادركه حامية هناك فقام على الورد بالامر
 احسن قيام جميع الناس على بيعة الله ولي عهده الامور من عسكرو ومعه الورد
 الى اوطار حامية مع عسكرو الى ارضيهم فارقوا القياس واصعد السلطان اوطار
 ارضه ملكه وروى ان عبد الله بن عباسى اورد وكنه فقام به الحشمام واحسن
 كعانه اسلحار والورد في كل عام الى ارض السلطان سنة ما رزقهم فقد
 الامر الحية الى عسكر وقام بامره وكاله دله وبعث اربعة الف شخص الى
 السرو الى ارض السلطان ابن عباسى لم ولم ير الامر على ذلك الى ارض ملك الحشمام سنة
 سبع وسبع مائة البصائر وبنى سلطان الفرس وبنى عسكر الفرس فجمع به من جشوه
 وصدى بحره من عادات الامصار سقطت كما سره من حيث ما خذ البيعة في وكنه
 لاحد الاصغر من عسكر وقام بركه كما كان مع الحشوم الى ارضه عسكر السعاب
 من الطمانه بهاد الويسر وطبع حمل الورد الى ارضه عن ملك الورد فوئى السلطان
 واعلى الكفالة الخاصة من اهل الحجاب الى اهل العمار من اهل منتهى والله يرفع الاله
 من السلطان بعض اخوة الحشوم من القصب واورده الله ذلك في غفلة رقت بعض
 الناس على عسكر القصب عسكره لثقة السباب الاله وشعر به ذلك فاستنك
 ودام الخلق عسكر السعاب والخروج الى ارضه لجد من اهل ورجه السعاب من ملوه
 الى اوطار بهم من الاشفاق من الحشوم وبعث السلطان ورجه السعاب من ملوه
 فارجح فجاو ابيه بعدار سوار الورد بانه عسكر الحشوم واعسقل الحشوم من اربعه وبنى الورد
 به عسكر اعلمها المصادرة لطلب المال فاحضر واعسقل ولم يسمو له لقطر
 الى ارضه من عسكرهم في اموال الحشوم انها تورد بخزائن السلطان فوئى الورد
 عليها واصفاد بحره من حشومها والسر وارث الارض ومن عليها من الحشوم

هذا هو
 الذي
 في
 هذا
 الكتاب
 من
 الحشوم

۲۰۰

لھو ضلے تا شہین بے سار کر ہی مرے و قتل السلطان نے جو

المعروف

✻ 83

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل في خلقه
البرهان على وحدانيته
والنموذج على عظمته
والدليل على قوته
والبرهان على حكمته
والنموذج على جلاله
والدليل على كبره
والبرهان على عظمته
والنموذج على جلاله
والدليل على كبره

المكرمه وامثال الماسم ثم سار بقصد السلطان فقدم عليه سنة ثلاث
وسبعين بمقامه من لسان فاهتزت له الدولة واركب السلطان خاصه
لتلقيه واحده مجلسه محل الامن والعبطه ومن دولته مكال الشوبه
والعرة واخرج لوقه كاتبه اباحي بن ابي مدين سفير الى صاحب
الاندلس في طلب اهله وولده فحاجهم على اكل حالات الامن والمكرمه
ثم لخط المناقبون له في شأنه واعروا سلطانه بتتبع عثرته وابداه
ما كان كما من في نفسه من سقطات داليله واحصاء معايبه وبتناع
على السنه اعدابه كلمات منسوبه الى الزنديقه اخصوها عليه ونسبها
ورفت الى قاضي الحمصه الى الحسن بن الحسن فاستزعاها وجعل عليه بالزنديقه
وراجع صاحب الاندلس رايه فيه وبعث القاضي ابن الحسن الى السلطان
عبد العزيز بكتك السجلات وامضاء حكم الله فيه فضم عن ذلك
وايف لذمنه ان تحفر ولحواله ان يرد وقال لهم هلا انتقمتم منه
وهو عندكم وانتم عالمون بما كان عليه واما انا فلا غلص اليه بذلك
احد ما كان في حوارى قهر وقول لرايه والاقطاع له ولبنه ومن حجاب
من فرسان الاندلس في جملته فكذا هلك السلطان عبد العزيز
سنة اربع وسبعين ورجع بنو مرز الى المغرب وركوا لسان سار
هو في ركاب الوزر اي بكر بن عازي القبايم بالدولة قهر بن عباس واستكر
من شرهم الضياع ومانق في ماء لسان واعمر اس المجنات وحفظ عليه
الخطير بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان الموقفي وانضلت حاله
على ذلك الى ان كان ما ذكر

بسم الله

في الانتقام منه

وقام بالزواني المسمى
المنغاري وزير السلطان
وقام بالاندية المسمى
ملككم ما سيجد في
الخطب وروعه في ربه

2* مخطوط مكتبة السلطان أحمد الثالث (ي)

طوب قبوسراي، رقم 1 A / 3042

سُجِّل اسم الكتاب على صدر النسخة بخط حديث، فيه: "المجلد الأول من تاريخ ابن خلدون المسمّى بالمقدمة"، وعليه تملكان: الأول كتب بخط جليّ بموازاة عرض الصفحة: "لمحمد عبد الرحمن الضارب عفا الله عنها سنة 818هـ" (1415م). والثاني ختم السلطان أحمد بطغرائه في نموذجين متفاوتين في قطر دائرتيها، في الأول: "وقف السلطان أحمد خان بن غازي سلطان محمد خان". وفي الثاني الآية: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ [الأعراف، من الآية 43].

وهو نسخة تامة من تجزئة سبعة، تشمل كامل الكتاب الأول من العبر (المقدمة)، في 297 ورقة، مقاس 26,5x18 سم، المساحة المكتوبة 20x13 سم، مسطرة 25، خطها متفرد قليل الأشباه فيما رأيت، لم تتغير قاعدة أدائه على امتداد النص، ولم يختلف قلمه ولم تضعف يده الثابتة القويّة في كل ما كتبه. ولم أتمكن من تصنيفه ضمن الأسماء المعروفة لمدارس الخط، ويمكن القول إنه بين خطي النسخ والتعليق.

والكاتب قليل الإعجام قليل الخطأ، كتب عناوين الفصول بخط أكبر من خط النص وشكله بالحركات شكلاً تاماً صحيحاً ، وخطها أقرب إلى خط الثلث.

ومع أنّ هذه النسخة قد ضمت الكتاب الأول من العبر (المقدمة) بدون نقص، وجاءت خاتمتها مُستوفية لتاريخ إتمام الجزء بالوضع والتأليف والتنقيح والتهذيب، إلا أنّ الناسخ المتميّز لم يذكر اسمه وتاريخ الكتابة؛ وقد بحثت عنه لعلّي أوفق لما يساعد على تأريخ النسخة؛ وسعرفة كاتبها، ومع الجهد المبذول، ظل اسمه وتاريخه على ما هو عليه من الغموض، وكلّ ما خرجتُ به، أنّي عثرتُ على أثر مهمّ قد يكون بخطّه، لأنّه كتب⁽¹⁾ على الطريقة نفسها. وهي طريقة مُفصّحة عن كفاية نساخ مُتمرّس يُباشر نسخ الكتب الكبيرة ذات الأجزاء العديدة لثبات يده.

وقد خَصَّ فرانز روزنتال هذه النسخة بتعريف قصير⁽²⁾، وبني على تملك محمد الضارب سنة 818هـ (1415م) بأنّ المخطوط لا بدّ أن يكون قد دُوّن في تلك السنة أو قبلها (!) (كذا) "وأنّه هو المخطوط الوحيد الموجود الذي يحتوي على صورة مبكّرة من نصّ المقدمة".

وقد عَرَضَ الدكتور بدوي⁽³⁾ لرأي روزنتال هذا، وتداخل حديثه بموضوع كتاب التعريف الذي أُلْمِحَ إليه روزنتال من غير تفصيل، وأشار إلى قول الطنجي الذي عَنَى به التعريف، وهو أنّ المخطوط رواية حديثة لكتاب العبر.

(1) انظر: القطعة المنتقاة من الجزء 17 من كتاب ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (من صفحة 2 إلى 350) نشره مصوراً الدكتور فؤاد سزكين - معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية - فرنكفورت 1989، وأصل المخطوط في مكتبة آيا صوفيا رقم 3439 - السلجانية - إستانبول .

(2) F. Rosenthal , 1: x cv111 (6)

(3) مؤلفات ابن خلدون 111 .

وحقيقةً أمر هذا المخطوط، أنه بالنسبة لمجموعة المخطوطات الموثقة التي اعتمدناها لهذه النشرة، هو النسخة الأولى التي نُقلت عن نسخة عاطف بقدر ما بلغته الزيادات عليها في تلك المرحلة؛ وفي ذكر فروق النسخ في نشرتنا يتبين ما أدركه عليها فأثبتته، وما طرأ بعده ففاته.

والمؤكد أنه كتب في المرحلة المصرية لابن خلدون، بعد استقراره والأخذ في مراجعة عمله في العبر، وقبل تاريخ سنة 797 هـ (1395م) تاريخ كتابة نسخة الظاهري التي أوردت إضافات مطوّلة وقصيرة لم تُذكر فيه، مثل الصفحة التي ألحقت بنسخة (ع) والمتضمنة للنص المنقول عن جراب الدولة الذي كتبه الحسن بن عمار وتقدّمت الإشارة إليه.

أما عن افتراض روزنتال حول تاريخه فغير صحيح، فالنسخة راجعها ابن خلدون بنفسه وقوبلت عليه على نسخة (ع)، فأصلح وأكمل بيده ما فات نسخته أو ما استدركه وقتها، ويوجد خطّه الذي يمكن مُقارنته - بما قدّمنا الحديث عنه - في نسخة عاطف، على حواشي الصحائف التالية:

8 أ - صفحتان بين الورقتين 43، 44، 65، 66، 86، 95، 105، 106، 107، 112، 182، 195، 206 .

وإذا ذكرنا بأن نسخة (ع)، هي الأصل الذي تعهده المؤلف بالمراجعة والإضافة إلى آخر حياته، وهي نسخته التي لا يتخلّى عنها. فتكون هذه النسخة (ي) هي النسخة الباقية من الأصول التي سبقت غيرها بالنقل عنها - فيما بلغنا - واستنوعت ما سجّله في حينه قبل سنة 797 هـ (1395م) .



• المخطوط "ي" صدر الكتاب والأختام والتملك

بسم الله الرحمن الرحيم
 نقول سيدنا العبد المذنب
 عبد الرحمن بن محمد
 الحمد لله الذي له العزة والجلال
 والتعوت في العالم فلا يعرفه ما
 القادر فلا يعجزه شيء في السوا
 واسعها فيها احيالا وامثالا
 والسوت موكفنا الرزق والموت
 والصلاة والسلام على سيدنا
 السعوت الذي يخص لمصالحه
 وسائر زحل والهموت وشهد
 واصحابه الذين لهم في محبته
 وبعد وهم السبل الشنت
 المصوت، واقطع، لكفر حيلة
 من الرابع من المون التي
 والرجال، وسبوا الى فخر
 وساموي في منه العلهما
 والسواثن من المرون الاول
 بها الاندبه اذا عصها
 الاحوال، واسع للذول
 وحال منهم الزوال، وفي
 دسني وعم كنفات الوقاع
 وحديثان تعد نوعا
 احار الاليم وجمعوها
 مداسر من الباطل

حوسنا الامم والرزق
 ولعمري الاحال
 التي خط عليها
 الموت

النطاق

• الصفحة الأولى من المخطوط "ي"

[illegible]

91

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
 سَنَةِ أَحَدِي وَارْبَعِينَ إِلَى سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِينَ
 ذَكَرَ اسْتِئْذَانُ الْفَرَجِ عَلَى طَرِيقِ الْبَيْسِ
 وَبَسْتُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ نَزَلُوا عَلَيْهَا وَحَاصَرُوهَا فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ
 مِنْهُمْ وَلَهُمْ سَمْعُ الْفَرَجِ فِي الدِّينَةِ ضَجَّةٌ عَظِيمَةٌ وَخَلَّتِ الْأَسْوَارُ
 مِنَ الْقِتَالَةِ وَسَبَّيْهُ أَنْ أَهْلَ طَرِيقِ الْبَيْسِ اخْتَلَفُوا فَأَرَادَتْ طَائِفَةٌ
 مِنْهُمْ تَقْدِيمَ بَعْضِ مَطْرُوحٍ فَوْقَ الْحُكْبِ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ وَخَلَّتِ
 الْأَسْوَارُ فَاتَّخَذَ الْفَرَجُ الْفُرْصَةَ وَطَلَعُوا بِالسَّلَامِ وَمَلَكُواهَا
 بِالسَّيْفِ فِي مَحْرَمِ هَذِهِ السَّنَةِ وَسَفَلُوا دِمَاءَ أَهْلِهَا وَبَعْدَ أَنْ
 اسْتَقَرَّ الْفَرَجُ فِي طَرِيقِ الْبَيْسِ نَزَلُوا الْأَمَانَ لِمَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ طَرِيقِ الْبَيْسِ
 وَتَرَأَّجَتْ إِلَيْهَا النَّاسُ وَحَسَرُ حَالُهَا وَبَيْنَ سَارِزِ نَجْحٍ وَنَزَلَتْ
 عَلَى قَلْعَةٍ جَعْبَرٍ وَحَصَرَهَا وَصَاحِبُهَا عَلَى بْنِ مَالِكٍ بْنِ سَالِمٍ
 بْنِ مَالِكٍ بْنِ بَدْرَانَ بْنِ الْمَلَدِ الْعَقِيلِيِّ وَارْسَلْ عَسَاكِرًا إِلَى قَلْعِهِ
 فَنَكَدَ وَهِيَ تَجَاوِرُ جُزْرَهُ أَنْ عَمَرَ فَحَصَرَهَا أَيْضًا وَصَاحِبُهَا حَسَامُ بْنُ
 الْحَرْدِيِّ الْبُسْنَوِيُّ وَلَمَّا طَالَ عَلَى زَكْحٍ مَنَازِلُهُ قَلْعَهُ جَعْبَرٍ
 ارْسَلْ مَعَ حَسَانِ بْنِ الْبَعْلَبَكِيِّ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ مَنَاجِيحٍ يَقُولُ لَصَاحِبِ
 قَلْعَةِ جَعْبَرٍ قُلْ لِي مِنْ خُلَاصِكَ مَنِي فَقَالَ صَاحِبُ جَعْبَرٍ خَلَصَنِي

مَد

٢

عا ولا لطف ولد أصغرأولما حضر الموت سلم ولده إلى أوسفر
 الأحمد حتى قالت أله أعلم أنه العساكر لا تطعنه لأنه طفل فهو ودعه
 عنده فأرسله إلى ملاذك فدخله أوسفر إلى بلد مراعه ولما مات
 السلطان محمد حصلت الامرا وطائفه طلبت لكساه اخاه وطائفة
 طلبوا سليمان ساه ثم محمد بك كساه من السلطان البارسلا
 الذي كان اعتقل في الموصل وهم الاكثر ومنهم من طلب
 ارساله من طغتل الذي مع الدكر وبعد موت محمد سار اخوه لكساه
 إلى اصفهان وبلغها ومنها مرض بورالدن محمود بن علي مرقا
 لرحلته بمويرة سلعة حلب فجمع اخوه امرمران بن زكي جمعا
 وحصر ولفته حلب وكان سره لوه بمصر وهو من ابرار بورالدن
 وسار إلى دمشق لستولي عليها وكما اخوه حكم الدن ايوب والمرة عليه
 ايوب ذلك وقال اهلكتنا المصلحة ان يعود إلى حلب فان كان
 بورالدن حيا خذ منه في هذا الوقت وان كان مائا فانا في دمشق
 اكفيكم بها فعاذ شر لوه إلى حلب مجدا وحل بس بورالدن في شاك
 مرأه الناس فلما راه حنا بعد فواعر اخيه امرمران واستقامت
 الاحوال واستقر في ملكا المنز على مهدي وازال ملك بني بجاج على ما
 ورضا ذكره في سنة اثنى عشرة واربعمائة وعلى بن مهدي المذكور

• نموذج من خط الجزء 17 من مسالك الأبصار ، المضاهي لخط كاتب المخطوط "ي"

3 • مخطوط الظاهري (ظ) مكتبة الدّاماد إبراهيم باشا، رقم 863

هذه النسخة الوحيدة التي وصلتنا كاملة من عصر المؤلف، ومحفوظة في حالة جيّدة، وقد اهتم ابن خلدون بها كل الاهتمام، فاستكتب في إعداده أكثر من ناسخ، اقتصر الأول منهم - ولا نعرف اسمه - على نسخ الكتاب الأول [نصف المقدمة]، وخطّه بارع غاية في التّناسق والتّناسب والجمال، وكتب بقيّة الكتاب بأجزائه المتعدّدة بمخطوط نسخ جيّدة مُتقاربة في أشكالها.

وجلّدت النسخة في سبع مجلّدات، يضمّ كل واحد منها جزأين مُتتابعين، ويتقدّم كل جزء غرّة من الإذهاب الكبير⁽¹⁾، مُقسّمة إلى ثلاث مناطق أفقيّة، في المستطيل الأعلى زخارف نباتية مُترابطة، رُسمت بحبر لازوردّي على أرضيّة زرقاء، وكتب فيها بخطّ نسخ جميل مُذهب: "الأول من الظاهري في العبر"، وفي المنطقة المُستطيلة السُفلى وبالأسلوب الأول نفسه، بقية الاسم: "بأخبار العرب والعجم

(1) ورد هذا المصطلح في السجل القديم لمكتبة جامع القيروان، الذي نشرناه في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثاني، الجزء 2 - القاهرة 1956.

والْبَزِير"، وبالمُنطقة الوُسْطى المحصورة بَيْنَها دائِرَةٌ طَوْقُها مَفْصَص ثَمانيّ، تحيط به أَوْرَاق ثلاثِيّة مُذهّبة على أرضِيّة زَرْقَاء، كُتِبَ فيها: "يَرسُمُ الخِزائَةَ الشَّرِيفَةَ المَلِكِيّةَ الظَّاهِرِيّةَ أَعزَّ اللهُ أَنْصارَها"، وهكْذا تَتَصَدَّرُ هذه الصَّفْحَةُ كُلُّ جزءٍ من الأجزاء الأربعة عشر، مع تَغْيِيرِ عَدَدِ الأجزاء بالتَّتابع.

يذكر ابنُ حَجَرٍ وغيره⁽¹⁾ أَنَّ ابنَ خَلْدُونٍ صَنَّفَ التَّارِيخَ الكَبِيرَ في سَبْعِ مَجْلَدَاتٍ صَخْمَةٍ، والأجزاء المختلفة الباقية تُؤَكِّدُ أَنَّ الكِتابَ سُبْعائيّ التَّقْسِيمِ، ولا يُنْذِرُ لِمَاذا أوقف الكِتابَ على هذا الرُّقْمِ، وهل هو تَعَلُّقٌ بخصُوصِيّاتِ العَدَدِ، أم يُشيرُ به إلى الاختِواءِ الشَّامِلِ لأخبارِ المَاضِيينَ واستِيعابه، كَأَنَّهُ الأقاليمُ السَّبْعَةُ الَّتِي هي مُسْتَقَرُّ العُمُرانِ الإنسانيّ.

وَنُسخَةُ الظَّاهِرِيّ هي الأولى الَّتِي قَسَمَها إلى أربعة عَشَرَ جُزْءاً، تيسيراً لاسْتِعمالِها، وَصَدَّرَ كُلَّ جُزْءٍ بِفهرسٍ، وَسَتَحَدَّثُ عن كُلِّ جزءٍ في مَوْقعِهِ عندَ نَشْرِ أجزاءِ الكِتابِ، ثُمَّ نُسخَةُ حَالَتِ (خالد) أَفندي، الَّتِي يَبْدُو أَنَّ لها التَّقْسِيمَ نَفْسَهُ حسبما يَأْتِي.

(1) بدوي: مخطوطات ابن خلدون 286، نقلاً عن إنباء النمر (مخطوط أحمد الثالث رقم 2941، 1: لوحة 172)، إستانبول. السخاوي: الإعلان بالتويخ 312، ولكن المقرئ في النسخ (6: 191) يقول إنه رآه بفاس في ثماني مجلدات كبار جداً، وقد عرّف في آخره بنفسه. فهل وَهَمَ في ذلك، ولا أحسب أن كتاب التعريف تجاوزَ في ذلك الزمان بخط ابن النخّار خمسين ورقة حتى يُفرد في جُزْءٍ مُستَقِلٍّ، ويذكر العدد نفسه وهو يتحدّث عن وقعة طريف (النسخ 5: 15) إذ يشير إلى أن ابن خلدون قد ألّم بها في العبر في الجزء الثامن؛ وموقعة طريف هذه جاءت في طبعة بولاق في الجزء 7: 261، فأكدت أن الثامن لم يكن "التعريف"، وربما الأقرب للإقناع أن يكون أحد الأجزاء قد قُسم إلى قسمين.

ولهذه النسخة تاريخ يَرتبط بمرحلة مُهمّة من حياة المؤلّف، ذلك أنّ ابن خلدون دخل القاهرة التي بهرته بعُمرانها ومؤسّساتها أوّل ذي القعدة سنة 784هـ/ (يناير 1383م)، وانتال عليه طلبه العلم يَلتمسون منه الإفادّة، فجلس لهم للتّدريس بالجامع الأزهر⁽¹⁾؛ وأقبل الناس عليه وراقهم كلامه وأعجبوا به كما يقول المقرئ⁽²⁾، واشتهر بحُسن مُحاضرتِه ودِقّة تَرْسلِه وتَحليلِه في تدريس الفقه وأصوله، فقد "كان يَسلك في إقراء الأصول مَسلك الأقدمين، كالغزالي وفخر الدين الرازي، مع الغَضّ والإنكار على الطّريقة التي أحدثها طلبه العَجَم ومن تَبِعهم في تَوَعُّل المشاحّة اللفظيّة"⁽³⁾.

وأصبح له موقعٌ مهمٌّ عند المماليك الجراكسة، فقد انجذب إليه أحدُ كبار وجوه الدّولة ورعاه كلّ الرّعاية، وعبّد له في الحياة العامّة أرحب المسالك، وهو علاء الدّين الطُّنْبُغا الجوباني⁽⁴⁾، الأثير لدى السُّلطان الملك الظّاهر بَزْقوق، لِمَا جَمَعَ بينهما من قديم الصّحبة التي انتهت به أن يكون في رُتبة "أمير مَجْلِس"، وهو صاحب الشّورى في الدّولة. فكان سبيلَه للاتّصال بالسُّلطان الذي يَذكر ابن خلدون أنّه "أبرّ لِقَاءه وأنس عُزَّتِه" ووسّع عليه في إقامته، ويبدو أثر هذه الرّعاية فيما تولّاه من مناصب علميّة للتّدريس في المؤسّسات المُختلفة: المَدْرسة القَمَحِيّة، والمدرسة

(1) التعريف 255 .

(2) السلوك 2/3 : 480

(3) السخاوي: الصّوّ اللّامع 3: 148، وترجمة ابن عَمّار في الصّوّ اللّامع 8: 233 وقد أخذ عن ابن خلدون أصول الفقه، وسمع قطعة من مقدّمة تاريخه.

(4) أخباره في العبر 5: 476 - والمنهل الصافي 1: 8

الظاهرية، ومدرسة صَلْغَمَش، وولاية خَاقاه يَبْرَس التي كان رزق النظر فيها
والْمَشِيخَة واسِعاً لمن يَتَوَلَّاهُ⁽¹⁾، ثم ولاية الْقَضَاء، والشفاعة له عند السلطان أبي
العبّاس أحمد الحَفْصِي سُلْطَان تُونِس، لِيُوجِّهَ له بِأُسْرَتِهِ وَكُتُبِهِ، فكان ذلك، لولا
جَدُّه العائِر الَّذِي حَوَّلَ فَرْحَتَهُ إِلَى مَأْتَمٍ. وفي هذه الحِقْبَة من حَيَاتِهِ كان مُنْكَبّاً على
تَجْدِيدِ مَعَارِفِهِ الْإِسْلَامِيَةِ لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ مَنَاصِبٍ شَرْعِيَّةٍ، وَلِيُحَسِّنَ
عَرَضُهَا وَتَدْرِيسَهَا فِي التَّرْحَابِ الَّتِي يَتَحَرَّكُ فِيهَا؛ وَحَدَثَ فِجَاءٌ حَادِثٌ هَدَّدَ الدَّوْلَةَ
الْجُرْكَسِيَّةَ الَّتِي ابْتَدَأَتْ بِالْمَلِكِ الظَّاهِر؛ فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ مَنَافَسَةٌ حَقِيقَةٌ لِمُلْكِهِ مِنْ
الْيَلْبَغَاوِيَّةِ: يَلْبَغَا النَّاصِرِيِّ نَائِبُ حَلَبَ، وَمَنْطَاشُ، وَمَنْ يَقِفُ وَرَاءَهُمَا، فَاعْتَقَلُوا
الظَّاهِرَ بَرْقُوقَ فِي الْكَرْكِ، وَجَمَعُوا الْقَضَاةَ لِلْإِفْتَاءِ فِي أَمْرِهِ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَوَّالِ
سَنَةِ 791 هـ (سبتمبر 1389م)، وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ خَلْدُونِ إِلَى هَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي أَثَّرَتْ فِي
حَيَاتِهِ وَخَافَ عَوَاقِبَهَا، إِشَارَةً مَرِيئَةً عَابِرَةً تَكْظُمُ وَرَاءَهَا تَفَاصِيلَ كَثِيرَةً تَجَاوَزُهَا
عَامِداً، مُلْتَمِساً لِلتَّسْيَانِ. وَتَبَدَّأَ مِخْنُتُهُ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَ عَشْرَةِ أَعْوَاماً بِالْمَجْلِسِ الَّذِي
عَقَدَهُ مَنْطَاشُ فِي الْقَصْرِ الْأَبْلَقِ بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ، وَأَخْضَرَ فِيهِ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ مُحَمَّدُ
الْمُتَوَكَّلُ، وَالْقَضَاةُ الْأَرْبَعَةُ وَهُوَ أَحَدُهُمْ، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ سِرَاجُ الدِّينِ عَمْرُ الْبَلْقِينِيِّ،
وَسَأَلَهُمْ⁽²⁾ عَنْ رَأْيِهِمْ فِي :

• رَجُلٍ خَلَعَ الْخَلِيفَةَ وَسَجَنَهُ وَقَيَّدَهُ مِنْ غَيْرِ مُوجِبٍ لَذَلِكَ .

• قَتَلَ شَرِيفاً فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ .

(1) التعريف 322 .

(2) حَادِثُ تَفَاصِيلِ هَذَا الْمَجْلِسِ عِنْدَ ابْنِ إِيَّاسَ : بَدَائِعُ الزُّهُورِ 1 : 282 .

• استحلّ أخذ أموال الناس بغير حق .

• استعان بالكفار على قتال المسلمين .

فطلب القضاة أن يكتب شيخ الإسلام رأيته قبلهم، فكتب: إذا قامت عليه
البينة بذلك وجب قتاله ومُحاربتُه، فهو خارجي. فوضع القضاة خطوطهم على
الفتوى بجواز قتاله.

ويذكر ابن خلدون⁽¹⁾ أن الظاهر "كان ينتقم علينا - معشر الفقهاء - فتاوى
استدعاه منا منطاش وأكرهنا على كتابتها فكتبناها، وورّينا فيها بما قدرنا عليه،
ولم يقبل السلطان ذلك وعتب عليهم، وخصوصاً عليّ".

ولم يخف ابن خلدون دُغره ، فقد كان يخشى النهاية التي لقيها أخوه أبو
زكرياء يحيى⁽²⁾ على يدي أبي تاشفين بن أبي زيّان سنة 780 هـ (1378م) ، لذلك كتب
مُسْتَشْفَعاً ومُعْتَذِراً إلى صاحبه القديم الطنبغا الجوبانيّ، فأعرض عنه، ثم مات ،
فافتقد نصيره الزاعي ، ولكنّ السلطان فيما يبدو لم يقطع أسبابه، فأبقى على بعض
ما كان يخصّه به ، يقول في التعريف⁽³⁾ ، إنّه "أعاد له ما كان أجراه من نِعْمته،
فلزم كسر البيت ممتّعاً بالعافية، لابساً بزد الغزلة ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه
لهذا العهد، فاتح سنة 797 هـ (1394م)".

(1) التعريف 341 .

(2) خبر مقتله في العبر 7 : 140

(3) نص آخر "التعريف" في نسخة الظاهري، ويطابق ما في طبعة بولاق 7 : 462 .

وفي هذه العُزلة وَجَّهَ عنايةً لإخراج كتاب العبر كاملاً، فأضاف إليه من أخبار المشرق ما فاتته، ولعلّه أضاف الجزء الخامس الذي أصبح الكتابُ به يمتدُّ إلى أخبار العرب والعجم والبربر؛ وفي هذه المرحلة كتب التعريف لأول مرة وألحقه بالكتاب. وأعدّ نسخة خزائنية تامة أنْهَها سنة 797هـ (1395م)، تأتق في زُخرفة فوائجها وتذهيبها، وراجعها بنفسه جهدَ الطّاقة، وأصلح في طُرُها ما رأى إضلاخه، وغيّر اسم الكتاب ليكونَ هديّته للسلطان، إقراراً بفضله عليه، وتأكيداً لولائه ووفائه، وسمّاه "الظاهريّ في العبر" أسوة ببغض التقاليد السابقة عليه، مثل⁽¹⁾ القانون المسعوديّ للبيرونيّ، والصّاحبيّ لابن فارس، والطّب المنصوريّ للرازيّ. وهذه التسمية حسب النّصّ الموضح لها في هذه النسخة، هي اسمٌ جديدٌ أطلقه على الكتاب؛ يقول في صيغة الإهداء: "ودعوته بالظاهريّ... اقتداءً بمن سلف قبلي في نسب الكتاب إلى صاحب عصره من الملوك فصار اسمه الظاهريّ في العبر ..". بينما كان النّصّ الذي على نسخة تونس الأولى، والنّصّ الذي أرسله لأبي فارس عند العزيز نصّي إهداء نسخة لمكتبة كلّ من الرّجلين.

ومع وُضوح هذه التسمية الجديدة، فإنّ النّسخ التي كتبت بعد سنة 797هـ (1365م) لم تلتزم بها في أيام ابن خلدون نفسه، وفي حياة الملك الظاهر، كما نرى ذلك على نسخة الكتاب الأول (المقدمة) الذي كُتب سنة 799هـ (1397م) بخط ابن الفخّار، وعلى النسخة التي أُهديت إلى المغرب مع بغثة قطلوبغا الخليلي، فما معنى

(1) يُذكر من ذلك أيضاً: الزيج المأموني، الخوارزم مشاهير للثعالبي، التاريخ المنصوري للحموي، الزيج الحاكي لابن يونس، العزيزي (كتاب المسالك والممالك) للمهلي، والنسبة للعزيز الفاطمي.

هذا؟ هل يمكن أن نفترض أن ابن خلدون أعدّ هذه النسخة الخزائنية بتسميتها الجديدة "الظاهري في العبر"، ثم عدّل عن تقديمها لسبب ما، وغارت النية في نفسه، ولم يُخرج الكتاب على تلك الهيئة، ثم نراه لم يُشر إلى هذا الحدث المهم في حياته الفكرية والسياسية في "التعريف"، مع أنه حام حول تلك الحجة بحديث مُقتضبٍ مُحاذِر، يُنطن أكثر ممّا يُعلن، وفي أعماقه حديثُ نفسٍ مكلومة متوجّسة، فلم يُسجّل حدث تقديم الكتاب كما حفل بذلك في تقديم النسخة الأولى التي أهداها لخزانة أبي العباس أحمد الحفصي في يوم مشهود؛ ولم يذكر معاصروه من المؤرّخين شيئاً عن هذا الموضوع.

لهذا فقد تكون فكرة إغداد "الظاهري" مجرد مشروع لصاحبه لم يتمّض به إلى مراحلهِ الأخيرة بعد الإغداد. وبعد أن راجع كتابه واستكمّله وجمّع أوّصاله في وحدةٍ شكّلت صورة النسخة الحديثة؛ ويرجح هذا التّصوّر عندي أنّ المؤلّف ترك في هذا المخطوط فراغين مهمّين كان عليه أن تكتمل بهما هديته للسلطان، وهما خريطة الجغرافيا، ودائرة أرسطو الحكمة. وتداول النّسخ بعد ذلك نسخ الكتاب مُتكاملاً مستوفى، وتوّ المؤرّخون بأجزائه السبعة الضخمة، على حين كان في أول إقامته بالقاهرة موجّهاً اهتمامه إلى تدريس الفقه والأصول ومُقدّمة العبر.

وبالإضافة للطابع الرّسمي الذي أعدّت به هذه النسخة وأخذت شكلها الخزائني باسم سلطان مصر، وهذا وخده كافٍ لتأكيد نسبتها إلى مؤلّفها، فإنّ تدخلات المؤلّف بقلمه جاءت - كالعادة - مُورّعة على بعض هوامش صفحاتها،

لثَوِّقَ نَسَبَتَهَا لصاحبها، وتسمح بالمقارنة مع الخطوط المشابهة على حواشي نُسخ أجزاء العِبر التي باشر ابن خلدون مُراجعتها.

وقد دخلت نسخة الظاهري - في تاريخ نجهله - في ملكية رجل يبدو من خلال أناقة توقيعه أنه من أهل العلم وجامعي نوادر الكتب، فقد كتب على صدر النسخة قبل الفهرس الذي يتقدم النص، اسمه، ثم مرة أخرى بأعلى الصفحة الخزانيتية للجزء الأول، يقول: "الله حسبي، من كُتِب أبي بكر بن رستم بن أحمد ابن محمود الشرواني⁽¹⁾"، ولم يتكرر ذلك على بقية مجلدات الكتاب؛ فهل اكتفى بهذا التوقيع المهذب لإثبات ملكيته لكامل النسخة، أم أن الكتاب الأول [المقدمة] بجزأيه هو كل ما وَقَعَ له منها.

ونجد النسخة كاملةً بأجزائها الأربعة عشر قد أصبحت في إستانبول، موزعة بين مكتبتين: الكتاب الأول [المقدمة] بجزأيه في خزانة الداماد⁽²⁾ إبراهيم باشا، بالمكتبة السليمانية، ورقمها 863. والمجلدات الست التالية وتشتمل على اثني عشر جزءاً، محفوظة في مكتبة السلطان أحمد الثالث بطوبقبو سراي، ورقمها المشترك 2924 (3-4) (5-6) (7-8) (9-10) (11-12) (13-14 + التعريف).

⁽¹⁾ أديب من رجال البوالة العثمانية، لعله أقام أو تَرَدَّدَ على مصر. له شرح على المجلد الأول من "تجزية الأمصار وتجزية الأعصار" لوصاف الحضرة، سَمَّاه: "ما لا بد منه للأديب من المشهور والغريب" توفي سنة 1135هـ/ 1722م. (البغدادي: هدية العارفين 1: 241، إسماعيل باشا: إيضاح المكنون 2: 420، حاجي خليفة: كشف الظنون 1: 309) ونسبته إلى شروان، من نواحي باب الأبواب "الترتند" كما يسميه الفرس. (معجم البلدان 3: 339) وعلى نسخة "آيا صوفيا" للتعريف "خطه بالتملك".

⁽²⁾ الصدر الأعظم (1660-1730م) عمل مبكراً في الإدارة العثمانية، فاشتغل في محاسبة الحرمين، وتحرير أراضي جزيرة المورة، وقائمقام الصدارة برتبة وزير، وصاهر السلطان فأصبح داماد، ثم قتل في 30 أيلول 1730م، وكان شاعراً وخطاطاً، وله أعمال خيرية ومؤسّسات ثقافية مهمّة. Meydan Larousse, V, p.3 Istanbul, 1993

فهل دخلت النُّسخة مجموعةً كاملةً لمكتبة السلطان أحمد الثالث، ثمّ استعار صهْرُه إبراهيم باشا الكتاب الأول (المقدّمة) وبقيت في كُتُبِه بعد موته. وخُتِمَ عليه ختم الوَقْفِ على مكتبته⁽¹⁾.

هذا وبآخر الجزء الأول من الكتاب الأول (الورقة 235):

"كُلُّ النِّصْفِ الأوَّلِ مِنَ المَقْدَمَةِ ، وبِكَمَالِهِ كُمُلُ السُّفَرِ الأوَّلِ مِنْ كِتَابِ الظَّاهِرِيِّ فِي الْعِبَرِ ، بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَزِيرِ ، يَتْلُوهُ الْجُزْءُ الثَّانِي ، الْفَصْلُ الرَّابِعُ مِنَ الْكِتَابِ الأوَّلِ ، فِي الْبِلَادِ وَالْأَنْصَارِ وَالْمَدُنِ وَسَائِرِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ ، إِلَى آخِرِ الْمَقْدَمَةِ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْإِمْدَادِ وَالْعَوْنِ".

ويبدأ الجزء الثاني بالورقة 238 ، يتقدمها فهرسها في ثلاث صحائف ، وينتهي بظهر الورقة 435 ، وفيه بعد خاتمة المؤلف التي احتفظ بها في جميع النسخ :

"كُلُّ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ الظَّاهِرِيِّ فِي الْعِبَرِ ، بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَزِيرِ ، وبِكَمَالِهِ كُمُلْتُ الْمَقْدَمَةَ الْعِلْمِيَّةَ الْمَذْكُورَةَ فِي أَوَّلِهِ ، يَتْلُوهُ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ الْكِتَابُ الثَّانِي فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مِنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ ، وَأَخْبَارِ مُعَاصِرِهِمْ مِنْ أُمَمِ الْعَجَمِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَقُّ حَمْدِهِ ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَعَبْدِهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَامُهُ".

⁽¹⁾ ختم دائري كبير به : "هذا تمّ وقفه بأخلص النيات ، صاحب الخيرات والحسنات ، الصدر الأعظم ، والصهر الأتم ، إبراهيم باشا ، يسّر الله له بالخير ما يشاء ، وزير الحضرت السلطان الغازي أحمد خان ، خلّدت خلافته إلى اقراض الدوران".

ونشير إلى أنَّ النسخة المشهورة بالنسخة الفارسيّة التي كتبها ابنُ الفخّار
التّاسخ الخاصّ لابن خلدون سنة 799هـ (1396م) وأُتخف بها - كما عبّر - خزانةُ
السُّلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن⁽¹⁾ المرينيّ، هي نسخةٌ طبقَ الأُصل
عن مخطوط الظّاهري، كما تُؤكّد المقارَنة بيّنه وبين طَبعة بولاق التي اعتمدت أصلاً
منتسخاً عنها .

(1) تذكر النسخ المطبوعة من التاريخ [الكتاب الأول] نص الإهداء في مقدّمتها إلى خزانة أمير المؤمنين أبي فارس
عبد العزيز ابن السُّلطان أبي الحسن المرينيّ، وهذا الأمير توفي سنة 774هـ قبل أن يبدأ ابن خلدون كتابة
العَبْر. والصواب أن الإهداء كان باسم أبي فارس عبد العزيز بن أبي العبّاس أحمد ابن أبي سالم إبراهيم، ابن أبي
الحسن. وانجَزَ هذا الخطأ من فساد النسخة المعتمدة في الطبع ، التي أسقطت آباء أبي فارس إلى أبي الحسن.
وقد وقع في هذا السّلاوي في الاستقصا، وشيخنا الجليل خير الدين الزركلي في الأعلام 4: 23 .



ويعجز شكاهم عن ان يسموا الى مشاركتهم في الحكم وتفرع عصاه
عن ذلك وسفره به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم في الامور
ناقة ولا جلا فينفرد بذلك المجد بطيته ويدفعهم عن مساكنه فيه
وقد تسم ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يسم الا للثاني او الثالث
على وجه مناعة العصبية وقوتها الا انه امر لا بد منه في الدول
سنة الله في عباده م **صل**

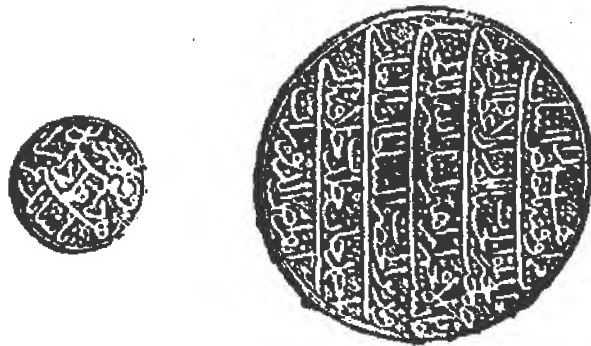
في ان من طبيعة الملك الترف

وذلك ان الامة اذا تغلبت وملك ما يايدي اهل الملك قبلها
كثرت رايشتها ونعمتها فنكر عوايدهم وتجاوزوا عن ضرورات العيش
وخشونته الى نوافله ورقته وزينته ويدهبون الى اتباع رقبهم
في عوايدهم واحوالهم وتصبر لتلك النوافل عوايد ضرورية في تحصيلها
ونزعون مع ذلك الى رقة الاجوال في المطاعم والملابس والفرش
والاينة ويتفخخون في ذلك ويتفخخون فيه غيرهم من الامم في اهل
الطيب وليس الا ببق وركوب الفان وساغ خلفهم في ذلك
سلفهم الى اخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفعهم
فيه الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة ان تبلغها بحسب قوتها
وعوايد من قبلها سنة الله في خلقه **صل**

في ان من طبيعة الملك الذعة والسلوك

وذلك ان الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايته
الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعي اليها
عجت لسعي يفتي ويبتها فلما انقضا ما يبتها سكن الدهر
فاذا حصل الملك اقصر واعز الى انوا يتلفونها في طلبه

به مراتب السيف والقلم ٥ في آشارات الملك الخاصة به من الإله
 والسرور والسكة والخاتم والطراز والقساطيط والسيج
 والمقصوع للصلوة والدعا في الخطبة ٥ في الحروب ورتبها
 عند الامم ٥ في الجباية وسبب وفورها ونقصها ٥ في ضرب
 المكوس واخراج الدول ٥ في ان تجارة السلطان مضر بالربا
 مفسد للجباية ٥ في ان شروق السلطان وحاشيته انما
 يكون وسط الدولة ٥ في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية
 في ان الظلم مؤذن بخراب العمران ٥ في الحجاب كيف يقع
 الدول وانه تعظم عند الهزم ٥ في انقسام الدولة بدولتين
 في ان الهزم اذا نزل بالدولة لا يرتفع ٥ في كيفية طروق الخلل للدول
 في ان الدولة المستقرة انما تستولى على الدولة المستقرة
 بالمطاوله لا بالمناجزة ٥ في وفور العمران واخراج الدول وكن
 الموتان والمجاعات ٥ في ان العمران البشري لا بد لها من سياسة
 ينتظم بها امره ٥ في امر الفاضل واختلاف الناس في شأنه
 في حدثان الدول والملاحم والجفر ٥



• آخر الفهرس الذي يتقدم الجزء الأول من مخطوط "الظاهري"،
 وختم الداماد إبراهيم باشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ

الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخلقة
وما عرض فيها من البدو والحضر والتغلب
والكسب والمعاش والعلوم والصنائع
ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

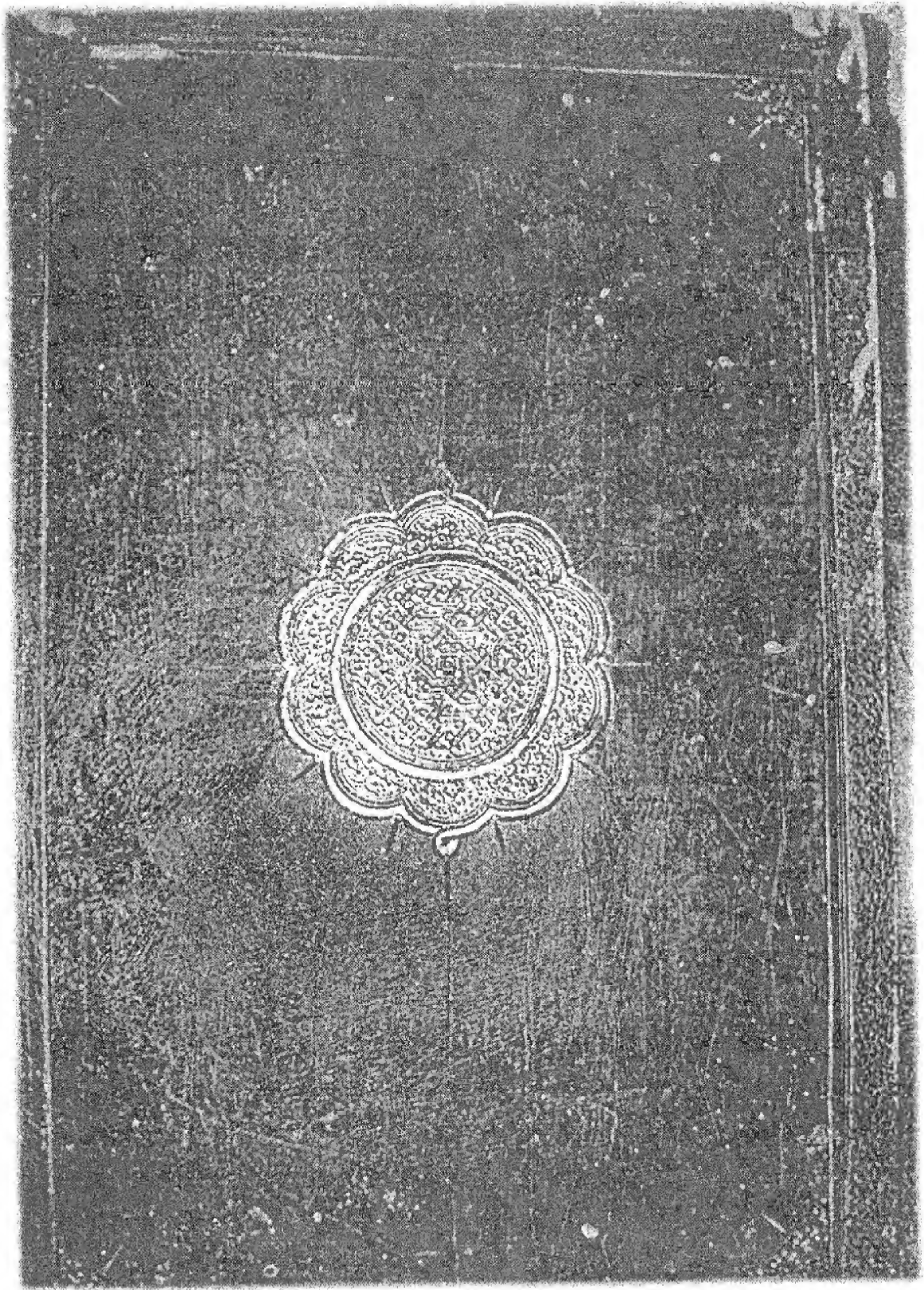
اعلم انما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو
عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل النوش
والناس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما يشا
عن ذلك من الملك والدول ومرايتها وما يتجمله البشر باعمالهم ومساعدتهم من
الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما حدث في ذلك العمران
بطبيعته من الاحوال ولمسا كان الكذب متطيرة فالخبر بطبيعته وله
اسباب تقتضيه فمنها التشيعات للاراء والمذاهب فان النفس اذا
كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التخييل والظن
حتى يتبين صدقه من كذبه واذا خاها تشيع لرأي او تحلة قبلت ما يوافقها
من الاخبار لا أول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عيوبها
عن الانتقاد والتحصيل فنقع في قبول الكذب ونقله ومن الاسباب
المقتضية للكذب في الاخبار ايضا الثقة بالناقلين ويحيض ذلك
يرجع الى التدليل والجرع ومنها الذهول عن المقاصد فكثير من الناس
لا يعرف القصد مما عاين او سمع وينقل الخبر على ما في ظنه ويحجبه فيقع
في الكذب ومنها توهم الصدق وهو كثير وانما يحيض في الكذب
الثقة بالناقلين ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع لاجل ما يداخلها
من التلبس والتضع فينقلها الخبر كما راها وهي بالتضع على غير الحكي في

المخطوط "ظ" نموذج خط القسم الأول

وأما مثل هذه الحروف فدلائلها على المراد منها مخصوصة
بهذا الناظم فإبتدأ بكلام هذا الرجل الفاضل شفاءً
لما كان في النفس من هذه الملحة ومما كنا نتهدى لولا أن هدانا الله
كامل النصف الأول من المقدمة وبكمله كمل السفر الأول
من كتاب الظاهري في العبر باخبار العرب والعجم والبربر
يشلوه في الجزء الثاني الفصل الرابع من الكتاب الأول
في البلدان والأمصار والمدن وسائر العرآن
الحضري إلى آخر المقدمة والله ولي الإهداد والعون

من التفرع في علم السحر
في السحر السامع

حَقِيقٌ ونكته علم السمياء كما تحتو ذلك انها ضرب من
السحر يحصل بالرياضات شرعية خاصة وذلك اما قدسنا لك ان التصرف في
عالم الطبيعة لتصنيف من البشر مما الا نبيا بالقوة الالهية التي فطروهم الله
عليها والسحر بالقوة النفسانية التي تجلو عليها وقد حصل للاوليات تصرف
بالكلمة الامانية وهو من نجاح التجريد والتمسك به ولا يقصدون تحصيله وانما
يأتينهم عفواً والمنكئون منهم اذا عرض لهم لغرضوا عنه واستعادوا بالله منه
كما في عزاء برندانة واما شاطي دجلة عشاء منصرفا فالتقاطه فالوادي
فاستعاد بالله وقال لا بيع حظي من الله بدائق وركب السفينة مع الملاحين
واما السحر فلا بد في الجبلي منه من الرياضة لئلا يخرج من القوة الى الفعل وقد
يحصل ضرب منه ما لا كساب وهو دور الاول فتعانا فيه الرياضة كما تعانينا في
الاول وهذه الرياضة السحرية معروفة وقد ذكرنا انواعها مسجلة في الجربط في
كتاب الغاية وحاسر رحيان في بعض رسائله وغيرهما وقد استعملها كثير من
لقطد ككتاب السحر تعلمه على قوانينها وشروطها وكثير من الناس يتصرفون
على السحر ويتخرج من ملازمة السحر فيتحذرو لذلك رياضة خاصة شرعية
من سمجات واذا كان مناسبة للرياضة السحرية بنوع التوجه وجنس الكلمات
وتخييل الطوالع وتجاها عن قصد الغرر في جسمته لسبب ذلك عن السحر
ومهمات له ذلك ونفس الوجبة لقصد التصرف في عين السحر مع ان رياضة
هؤلاء اذا ما ملكتها تبعث رياضة السحر من سمجاتها كما في اعطاء البويط وفي
سائر كتبه واما ان كان غالطا في مشروعية ذلك كحصول التصرف فليحذر
ذلك وليعلم ان التصرف من اصله غير مشروع وان كان من الاولياء مجانبون
له ومن انكبه منهم فانما ينكبه باذن من الهام او حديث بعضا وغير ذلك
على ما عليه عادتهم في الاستئذان من قلوبهم المنورة مع ان تصرف الاولياء
بالكلمة الامانية لا بالقوة النفسانية عزاء هو حقيق علم السمياء وهذا
كما تراه من قنون السحر وضروريه والله الهادي الى الحق بسنة



• العنصر الزخرفي المضغوط على تجليد مخطوط الظاهري "ظ"

4 • مخطوط حَالْتُ أفندي (ل)

المكتبة السلیمانیة، رقم 617

توجد هذه النسخة في المكتبة السلیمانیة بإستانبول، ضمن مجموعة حَالْتُ أفندي⁽¹⁾، وتُمثّل نصف المقدّمة، والبقیة المتّصلة بها حديثة الخطّ لا قيمة لها. ورقّها قُطنيّ سميك جيّد السّفي (شاميّ). وأبعاد النسخة 5 و18 x 7 و26 سم، مسطرة 21 سطرًا، والمساحة المكتوبة 5 و13 x 5 و18، وبها 235 ورقة

والكراس الأخير من الورقة 228 إلى الآخر نالت منه رطوبة متفشية.

آخر هذا الجزء الأول: "وأما مثل هذه الحروف فدلائها على المراد منها مخصوصة بهذا التّأظم. فرأيتُ من كلام هذا الرّجل الفاضل شفاء لما كان في التّفس من أمر هذه الملّحة. ﴿وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ [سورة الأعراف، الآية 43].

(1) هو محمد سعيد الذي اشتهر باسم حَالْتُ أفندي، من رجال الدّولة العثمانية (1760-1822م) تخرّس في وظائف شتى، وسفر للدّولة في باريس سنة 1803، وأصبح رئيس مستشاري السلطان، وكان مولويًا ومناصرًا للإنكشارية. ومات مقتولاً.

أسس مكتبته سنة 1820م، وفيها من المخطوطات العربية 451 مخطوطاً. ترجمته في Islam Ansiklopedisi

XV, 247, Istanbul, 1997.

وهذا مُتطابق مع الوُقف الذي انتهى إليه تَقْسيم الجزء الأول من الظَّاهري، وهو آخر فَصل "حَدِثان الدَّول والأُمَم، وفيه الكلام على الملاجيم والكشف عن مُسمَّى الجُفَر".

وعلى الصَّفحة الأولى - وليست من وَرَق الأَصْل - كُتِب بخطّ التعليق اسم المُقدِّمة، وتحتها: صُحَّح بيد المُؤلف، ثم ترجمة ابن خَلْدون مُقتطعة من نَفْح الطيب⁽¹⁾، وأُخرى من حُسْن المُحاضرة، ثم تَمَلُّكان، الأول: "من كُتب الفقير إليه تعالى أحمد عفا الله عنه وعن أسلافه وأُخلافه سنة 1127هـ" (1715م).

والثَّاني: "الله حَسْبِي وبه تَقْي، من كتب العبد الفقير عليمير عزّت عفى الله عنه وعن أسلافه".

وفي الصَّفحة التالية: "مَلَكه مُحَمَّد بن محمد القوصوني⁽²⁾ سنة 953هـ" (1546م).

يليه الفهرس الملخّص لمحتوى الكتاب في ورقَتين، ويتوقّف بحسب ما يَشتمل عليه الجزء كما وَرَد في الظَّاهري، ولا يتعدّاه إلى ما في الجزء الثَّاني كما جاء في نُسخة عاطف مصطفى.

وخطّ النُّسخة نُسخي جميل، متأنّي، وجاءت فيه أكثرُ الأَسْماء والكَلِمات الملتبسة مشكولةً بالحركات، التي رُبما جاءت من ضَبْط ابن خَلْدون نفسه.

(1) نَفْح الطيب 7 : 106 .

(2) وهو من العلماء، يذكر المقرئ أنّه رأى خطّه على نُسخة الإحاطة لابن الخطيب التي أوقفها على أهل العلم بمصر وجعل مقرها خاتمه سعيد السعداء، رآه إلى جانب خُطوط المقرئ والمسيوطي وعلي الحموي، وقد كُتب: "انقضى منه داعياً لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني سنة أربع وخمسين وتسعمائة".

وسقطت بعض الورقات، واستُدركت بخط تغليق مضبوط، وذلك في الورقتين 6، 7 ونصف صفحة الورقة 8.

وقد ترك بياض لدائرة أرسطو الحكيمية (26 أ) وللجغرافيا (35 ب). والنسخة مكرسة كراريس عشرية الورقات، وكتب في الزاوية العليا للصّحة الأولى من كلّ كراسة رقمها بالحروف وتلخيص محتواها.

وبأعلى الصفحة الأخير ختم بينضاي كبير بالتركية، يظهر فيه اسم حالت وتاريخ هجري غير واضح (لعله 1227هـ).

وآخر النسخة: "تم الجزء الأول من كتاب العبر، في أخبار العرب والعجم والبربر، يتلوه الجزء الثاني، الفصل الرابع من الكتاب الأول".

وتتميّز هذه القطعة من العبر [نصف الكتاب الأول] إلى جانب ضبط الأسماء، بأنها نقلت من مخطوط عاطف زيادات وتصحّيات زيدت بعد نقل نسخة الظاهريّ فدلت على أنها أخذت منها تاريخاً كما تبيننا على ذلك في مواقعه من فروق النسخ. والتزمّت طريقة رسم الحروف التي ليس لها مقابل في الحرف العربيّ على ما قرره ابن خلدون في أول المقدمة.

وناسخ هذه النسخة غير معروف، لكننا وجدنا بخطّه بعض أجزاء العبر، من ذلك قطعة الجزء المحفوظ في المتحف البريطاني رقم Add 23272، ومسطرتها 25 سطرًا، على غير ما عليه هذا الجزء ممّا يعني أنّ الناسخ كتب لابن خلدون أكثر من نسخة.

افرقيده وبه سميت وقتل ملكها جرجير و سمي البربر بعد الاسم كاد كراه
 فقال واقام في البربر من جرجير صناعته وكتابه فهم فيهم الى اليوم اسى
 وتجنوا في المغرب وابشوا في نواحيه الا ان جمهورهم كانوا اول الله بعد
 الزده وطحة تلك الفتى موطنين يارباف قسنطينه الى تخوم بجايه غربا الى
 جبل اوراس من ناحية القبلة وكانت تلك المواطن بلاد مدكون اكثرها لهم ومن
 ديارهم ومجالات قلوبهم مثل الكجان وسطيف وباغايه ونفوس ولزقه
 ويتجسنت وملة وقسنطينه واليتيكنة والقفل وجبل من حدود
 جبل اوراس الى سيف البحر ما بين بجايه وبوتة وكانت بطونهم كثيره مجتمعا كلها غرس
 ويسودة ابناءكم بن ريس فمن يسودة فلاسه ودنهاجه وثوسه
 ووريس كلهم يتو يسوده بن كيم والى دنهاجه ينسب قصر كاهه بالمغرب
 لهذا العهد ومن غرس مصاله وقلدن وما وطن وتعاذ بنو غرس بن كيم
 ولهم صه وجيملة ومسالته يتو بناوة ابن غرس ولطايته
 واجتاته وعثمان واولاش يتو يتطاسن ابن غرس وملوسه من
 ايتان ابن غرس ومن ملوسه هولاء يتو زلداوي اهل الجبل المطل على
 قسنطينه لهذا العهد وبعد البربر من كتابه بنى يثيتن وهشيتوق ه
 ومسالته وبنى قنيسلة وعد ابن حزم منهم زواوة جميع بطونهم وهو
 الحق على ما تقدم وكان من هذه البطون بالغرب الاقصى كثير متبذرون عن
 مواطنهم وهم بها الى اليوم ولم يزالوا بهذه المواطن وعلى هذه احواله من لدن ظهور
 الله وملك العرب الى دوله الاغالبه ولم تكن الدول تسوهم بهضبه ولا تهاهم
 بعسف لا عزازيم عليها كثر جموعهم كاد كرم ابن الرقيق في تاريخه الى ان كان
 من قيامهم بدعوى الشيعة ما ذكرناه في دولتهم عند ذكر دول الفاطميين اثر
 دولة بنى العباس فانظر هناك وتفصيحه تجد تفصيله ولما صالهم الملك
 بالمغرب زحفوا الى المشرق فملكوا الاسكندرية ومصر والشام واحتفظوا
 القاهرة اعطوا الامصار مصر وارحل المعز رابع خلفهم فنزلها وارحل معه كتابه
 على قبائلهم واستفحل لدوله هناك وهدكوا في ترها وبندخها ونفى في مواطنهم الاول

* المخطوط "ل" - صفحة يبدو فيها ضبط الأسماء البربرية بالشكل

وكتبه الشريف
 في سنة ١٢٠٦
 في شهر ربيع الأول
 في مدينة القاهرة

١٧٦

المنشد يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الأبطال
 بما فيها ويتسارعون إلى مجال الحروب ويتبعث كل قرن إلى قرنه وكذلك
 زائد من أمر العرب يتقدم الشاعر عند هر أمام الصفوف
 ويتغنى فتجرك بغنايه الجبال الرواسي ويتبعث على الاستمارة من لا يظن بها
 ويسمون ذلك الثعلبة تارة هو كائن وأصله كله في ححدث في
 النفس فتبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث
 عنها من الفرح والله أعلم وأما كثير الرايات وتلوينها وإطالتها
 فالقصد به التحويل لاكثر وربما يحدث في النفوس من التحويل زيادة
 في الأقدام وأحوال النفوس وتلويناتها غريبة والله الخلاق العليم
 ثم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات
 فمن أكثر ومثل بحسب اتساع الدولة وعظمتها فأما الرايات
 فلها شعار الحروب منذ عهد الخليفة ولم تزل الأمر تعقد لها
 في مواطن الحروب والغزوات ولمهد النبي صلى الله عليه وسلم
 وبمن معه من الخلفاء وأما قزع الطبول والتغني في الأبواق فكان
 المسلمون لأول الملوك متحاضين عنه تنزهاً عن غلظة الملك ورفضا
 لأحواله واحتقاراً لآبائهم التي ليست من الحق في شيء حتى إذا انقلب
 الخلافة ملكاً وتبعوا زهرة الدنيا ونعيمها ولا يسهم الموال
 من الفرس والروم وأهل الدول السالفة وأرضهم ما كان أولئك
 يتخلونهم من مفاهب البذخ والترف فكان مما استعجبوا به
 اتخاذ الآلهة فأخذوها وأخذوا القمار لهم في اتخاذها تنويعاً بالملك
 وأهله فكثيراً ما كان العامل صاحب الثغرا أو قائد الجيش يعقده

• المخطوط "ل"



ولا حرم من هذا النوع مما وقع وبما لم يقع ولست بجميعه
 الى احوال عليه السلف فاعجب به من علمه ووفقه عليه المقصد
 فانه يهدي من تلك الرموز والعلامات الى ان وهب لظهورها وكان
 ذلك سبب نوازتها مثل هذه الخيل العريضة في الدرب والمجمل مثل
 هذه النصارى والطاهستان هذه الملحمة التي تليق بها في الجاهلية
 من هذا النوع واحد سران اكل الدين سبع الحنفية من الجهر
 بالديار المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الجمل الذي نسب له
 من الصوفية وهو الباجد بقى وكان عالما بطريق الفهم فقال
 كان من المعروفين بالقرن ليه المند عن بعض الملحمة وكان يميز
 عن يكون من الملوك ليعظم بطريق الكشف ويومى الى رجال
 معينين عند ذلك عنهم يجرؤ في بعضها في ضمير لمن يراة منهم
 وربما ظلم ذلك في ابيات قليلة كان يسمونها فاشبهت
 سببه وولى الناس بها وجعلوها ملحمة من رموز وزاد
 فيها الخرافات من ذلك الخس في كل عصر وشغل العامة
 بتلك رموزها وهو امر ممتنع اذ الرمز لا يحصى انما يهدي الى كشفه
 فان يرمز قبلة او بوضوحه وانما مثل هذه الحروف
 قد لالت على الماد منها مخصوصة بهذا الناطق في ايت من كلام
 هذا الرجل الفاصل شفاء لما كان في النفس من امر هذه
 الملحمة وما كالمهدي لولا ان هذا انا الله
 ثم اخبر الاول من كتاب العبر في اخبار العرب والحج قال يرب
 بتلوه في الحيز الثاني الفصل الرابع من الكتاب الا ولست

في البدان والاول

55. مخطوط نبي جامع⁽¹⁾ (ج)

المكتبة السلمانية رقم 888

هذه أحدث نسخة خرجت عن نسخة عاطف مصطفى تحمل تاريخ نسخها سنة 799 هـ / (1397م) . أوراقها 273 ورقة، وأبعادها 31 x 21 سم ، والمساحة المكتوبة 16 x 24 سم - مسطرة 29 سطرًا

على صدر⁽²⁾ النسخة بخط فارسي جميل حديث اسم الكتاب كاملاً، وذكر المؤلف محلياً باللقاب فحمة، منها: أنه "المتقدم في الفنون العقلية والنقلية".

(1) أو يكي جامع كما يكتب بالعثمانية ، ومعناه الجامع الجديد، ويسمى أيضاً والده جامعي، ويقع في إستانبول في حي Eminonu، تمتاز بناؤه بين سنوات 1597م، و 1663م لتبديل الظروف السياسية، وقد أنجز حسب المخطط الذي صممه المعماري داود آغا من تلاميذ المعمار سنان، بدأت بنيانه صفية سلطان، زوجة السلطان مراد الثالث، وأتم محمد الثالث، وأكمله خديجة سلطان والدة السلطان محمد الخامس. (Meydan Larousse, xx, 327)

(2) يقابلها في الوجه الآخر نص مبثور، يسجل كيف تحولت بعض سيرة ابن خلدون إلى أدب شعبي فيه مجال للتخييل والتركيب الحكيم. يقول: [المصنف كان قاضياً على مذهب مالِك بجلب المحروسة زمن فتنة تيمور، وحصل في قبضته أسيراً سميّاً، فكان يُصاحبه، إلى أن سافر معه قافلاً نحو سمرقند وقرارة ملكه، فقال له: يا سلطان العالم، لي تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها ، خلّفته بمصر، وسيظفر به الجنون، يشير إلى الملك الناصر بن بريق، فقال له: هل يمكن تلافي هذا الأمر واستخلاص الكتاب؟ فقال له: يمكن إذا قبل مني السلطان ما أقوله. فقال له: قل، فقال: يتغافل عني السلطان] [كذا ينتهي النص].

ثم ترجمة لمؤلف الكتاب تمتد إلى آخر الصفحة، منقولة باختصار من إنباء الغمر وتحتها: "خَرَّره الفقير إسماعيل". وفُسخ بقيّة الاسم.

وبجانب اسم الكتاب: "ثم سبقت به يد القضاء والتقدير، ونظّمته في سلك ملك العبد الفقير، المذنب، محمد إمام زاده"، يليه تملك (مُجَيِّ اسم صاحبه)، تاريخه أواخر ذي القعدة من سنة 984هـ (فبراير 1577م).

ثم ختم كبير مستدير [38 ملم] به: وقف سلطان / أحمد خان بن غازي سلطان / محمد خان (ثم طغراء) 1115هـ (1703م).

وهذه النسخة تامة، تشتمل الكتاب الأول [المقدمة] في مجلد واحد، كتبه بخط نسخ محقق أنيق عبد الله بن حسن، ابن الفخّار، وهو ناسخ ارتبط به مبكراً وبفضل توقيعه على هذه النسخة خاصة عرفنا بالتحليل والمقارنة أنه ناسخ نسخة عاطف أفندي في زمن مبكر، وقد كتب أكثر نسخ كُتِبَ فيها وصلنا.

فهو الذي كتب نسخة القرويين في سبع مجلدات، وكان خطّه فيها أكثر تلاخُطاً وتداخُلاً وتقويراً والتزام بإهمال الحروف المنقوطة، وكتب نسخة التعريف⁽¹⁾ المحفوظة في خزانة السلطان أحمد الثالث بطوبقبو سراي رقم 3042-، وبعض نسخة آيا صوفيا رقم 3200-

وقد خصص ابن الفخّار خمس صفحات لكتابة فهرس الكتاب، مُدْخِلاً التغييرات التي سجّلها المؤلف على نسخة عاطف مصطفى، (1ب - 3ب).

(1) "التعريف"، من تقديم الأستاذ محمد بن ناوي الطنجي.

وفي بداية النص الخلدوني كتب البسملة والتّصليّة في سطرٍ واحد، وأفسح
بعده للمؤلّف، كما فعل في نسخة عاطف، ليكتب بخطّه الأندلسي الرّشيق.

"يقول العبد الفقيرُ إلى رحمة ربّه، الغنيّ بلطفه وفضله، عبد الرحمن بن محمد
ابن خلدون الحضرميّ وفقه الله تعالى وغفر له".

ويبدأ ابنُ الفخّار بعد هذا الاستهلال كتابة الكتاب الأول بخطّ قويّ موحد
النّسق، لم يتغيّر فيه أسلوب استرساله إلى آخر الجزء، وعندما أتى في مقدمة
الكتاب على تسميته أقحم بعد قوله: وسميته كتاب [عنوان] العبر، مع أنّه في هذه
المرحلة التي نسخ فيها هذا الجزء سنة 799 هـ (1395م) كان المؤلّف قد عدّل هذا
الطباقيّ اللفظي في التّسمية التي جاءت في أوّل تاريخ التّصنيف في المرحلة
التّونسيّة.

وجاء تدخّل المؤلّف بخطّه في تسجيل إضافة تتعلّق بالوزارة، في صفحة
104 ب. لكن خاتمة النّسخة تضمّنت إفادات مهمّة سجلّها كاتبها في أربعة أسطر،
يقول⁽¹⁾: "وكتب بيده الفانيّة أحوجّ النّاس لرحمة ربّه، عبد الله بن حسن الشهير
بابن الفخّار، حامداً الله على نعمه ومصلياً ومسلماً ومُحسّناً، ونقلته من أضله
المتوجّ بخطّ مؤلّفه في بعض هامشه ومُلحقه وتخاريجه، وكتبها جميعها وأحاط بما
كتبْتُ، وقرأ في غالبه، والله المسؤولُ أن يبقّيه ويمتّع ببقائه آمين، وكتب في

(1) الورقة 273 أ .

العاشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وسبعمائة [9 فبراير 1397م] اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم".

فقد تضمنت: اسم النسخ، وأنه نقله من أصله المشتغل على الهوامش والملحقات والتخارج، ولعله يُشير إلى نسخة عاطف مصطفى نفسه. وأن ابن خلدون أحاط بما كُتب في هذه النسخة وقرأ في غالبه. ثم تاريخ النسخ.

وتفيدنا هذه النسخة بفضل وضوح مراحل صناعتها، أن ابن الفخار هذا هو الذي نسخ النسخة الأولى من المقدمة إثر حضور ابن خلدون إلى مصر، وأعد هذه النسخة سنة 799هـ، وظلّ متابعا لعمل المؤلف، ومُضيفاً للزيادات المهمة التي تطرأ على الكتاب.

فأمام الورقة 181 توجد بطاقة كبيرة بخط ابن الفخار تحدّث فيها ابن خلدون عن مصادرات الملوك، ومنها مصادرة الملك الظاهر برقوق لأستاذاره الأمير محمود ابن علي بن أصفر عينه، ومبلغ ما استضى منه، وكان ذلك في 20 جمادى الأولى سنة⁽¹⁾ 798هـ (1 مارس 1396م)، ولا يبدو ما في هذه البطاقة أنه سقط مُستدرك، ولكنه إضافة بلغته بعد نسخ الكتاب، ولا توجد في الأصول الأخرى، وتوجد ملحقات أخرى غفل عن نسخها من مثن الأصل، ثم استدركها مُنفصلة، مثل إضافة "علامات الرؤيا الصادقة" من فصل علم تعبير الرؤيا.

(1) ذكر ذلك المقرئ: السلوك 856/3/3 .

وفيه ورقة منفصلة بين الورقتين 85 - 86 عن عدم جواز عقد منصب
الخلافة لاثنين معاً، كان ابن خلدون قد أضافها في حاشية أصله بعد تاريخ نسخ
الجزء سنة 799، فأضافه ابن الفخار لنسخته نقلاً عنه.

وتخلو هذه النسخة من خريطة الجغرافيا ومن الزايرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

نَزَلَ الْعِصْرُ الْمَغْمُورُ إِلَى حِمَّةِ رَبِّهِ الْغَنِيِّ بِالْمَغْنَى وَبِضْلِهِ
عَبَّرَ الْفَضْلُ عَنْ مَحْدُودِ الْحَضَرِيِّ وَفَقْدَ لِسَانِهِ وَغَمْرَهُ

المجد لله الذي له العزم والجبروت . وبيده الملك والمملوك . وله الاسماء
المسيحة والمنعوت . العالم فلا يغيب عنه ما نظمهم الجوي او يحجبهم السكوت .
العادر فلا يعجز شيء في السموات والارض ولا يقوت . اسنانهم الارض نسأ
واستعمرنا فيها الجسيمات الاوامام . وسرنا منها ارزاقا وقسما . تكفينا الارحام
والبيوت . وتكفلنا الرزق والقوت . وسبلنا الايام والوقوت . وتعتونا
الآجال التي خط علينا كتابها الموقوت . وله البقا والثبوت . وهو الحي الذي
لا يموت . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكشوف في
التوراة والابجيل المنعوت . الذي تخضر لفضاله الكون قبل ان تعاين الاحكام
والثبوت . ويتباين زحل والبهوت . وشهد بصلته الحمام والعنكوت .
وعلى له واصحابه الذين لهم في صحته الاثر البعيد والقيت . والشمل للجميع في
مظاهرة ولعدوهم الشمل الشيت . صلى الله عليه وعليهم ما اتفق للاسلام جسد
المحوت . وانقطع الكفر جيله المبثوث . سلم كبراه اما بعد
فان من التاريخ من الغون التي تتداوله الامم والاجيال . وتشداله الركائب
والرجال . وتسمو الى معرفة السوقة والاعفقال . وتنافر فيه الملوك
والاقيال . وتساوي في فهمه العلماء والجهال . اذ هو في ظاهره لا يزيد
على اخبار عن الايام والدول . والسوابق من القدر والاول . نتموها الاقوال
وتصرف فيها الانسال . وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال . وتؤدي
لناسا الخليفة كيف تقلبت بها الاحوال . واسع للدول النطاق فيها والجمال .
وعمرها الارض حتى نأدى بهم الارحام . وحان منهم الزوال . وفي باطنه
نظرو وتحقق . وتعليل للكانات ومبايد هاديق . وعلم بكيفيات الوقايع
واسبابها عميق . فهو لذلك اصل الحكمة عميق . وجذر بيان يمد في علومها
فما زل نحول المورخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها . وسطرها
في صفحات الدفاتر وادعوها . وخطها المتفلون يدبها من الباطل وهو
فيها او استدعوها . وزخر في الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها .
واقترع في تلك الآثار الكثير من رعبهم واتبعوها . وادوها اليانا كما سمعوها
ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها . ولا رفضوا زورها

بسم الله الرحمن الرحيم

الاجاد

• المخطوط "ج" المستهل ، والسطران 2، 3 بخط المؤلف

والكاف الصريح عندنا والجيم او القاف مثل اسم بلدين فاضعها كافا وانقطها
 نقطة الجيم واحدة من اسفل او سقطه القاف واحدة من فوق او نبتين من ذلك
 ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم او القاف وهذا الحرف اكثر ما يحى
 في لغة العرب وملجاء من غيره فعلى هذا القياس اضع الحرف المتوسط بين
 حرفين من لغتنا بالحرفين معا للعلم القاري انه متوسط فنطويه كذا لك فتكون
 قد دلتنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكافا قد صرفناه
 من محرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا غيرت اللغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق
 بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى اله

الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من
 البكاد والحضر والغلب والكسب والمعاشر والعلوم والصنائع
 ونحوها وما لذلك من العاقل والاسباب
 اعلم انه لما كان حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران
 العالم وما تعرض لطبيعته ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والانس والعصيان
 واصناف الغلبات للبشر بعضهم على بعض وما تشاعن ذلك من الملك والدول
 ومرايتها وما تتخلله البشر باعمالهم ومساعيمهم من الكسب والمعاشر والعلوم والصنائع
 وما يروا يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ولما كان الكذب منطوقا
 للحبر بطبيعته وله اسباب بعضها منها التشيعات للاراء والمذاهب فان
 النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قول الحبر اعطته حقه من المحض والسطر
 حتى يبين صدقه من كذبه واذا حارها تشيع لراي او تحلة قبلت ما يوافقها
 من الاخبار الاول وهله وكان ذلك الميل والتشيع عطاء على غير بصيرتها عن
 الاستقادة والمحصن يقع في قول الكذب ونقله ومن الاسباب المعضه
 للكذب في الاخبار ايضا الثقة بالناقل والمحصن ذلك يرجع الى المقدبل والجرم
 ومنها الدهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع ونقل
 الخبر على ما في ظنه ونحوه يقع في الكذب ومنها توهير الصدق وهو كثير
 وانما يحى في الاكثر من جهة الثقة بالناقل ومنها الجهل بتطبيقات الاحوال على
 الواقع لاجل ما بداخلها من التلبس والتصنع فتقلها الخبر كراها وهي بالتصنع
 على غير الحق في نفسه ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب الخلة والمراتب
 ثباتا والملاح وتخير الاحوال واشاعة الذكر بذلك فتستفيض الاخبار بها على
 غير حكمة فالسوء من مولعة بحب الشارة والناس منطلعون الى الدنيا واسماءها
 من

• من المخطوط "ج" ، بخط ابن الفخار

بامر وصالو لا طفال المجتاع
 كمن نوح الدلب المحرر اذ
 اردت قلبي جوهر النضر
 كل الوري كح في عيني وشمك
 نادتها وشيبي فطواني
 جودي عليا قبله في الهوى
 قالت وقد تركت دلتل نوادك
 ما طرد العطر بقسي مر مر
 راني شتم سفت سجد سبي
 ما ط اللتام تند ابدي شرفو
 اسيل دجا الشعراء القلبي
 رجع هذا ما يحبط الصبر من
 واحدي العسر بنجر المطا
 افعلى منزل الحيا في قلبي
 وصبح في جهم بامر بد الاجر
 ينهض يصلي على ميت قبل الجهر
 ومن الذي يسموه دوسن
 قد استمر من احبة بالدار
 ان سعت طيعة مع الاشجار
 بانار شوقيه فانقاري
 لسلامه يندى النار
 وعني اليك نظر كرمها بابت
 نزع العوم والسهر اقات
 واحسن اليك صابتي لافان
 وسلوى اعط الله اجرهم
 ولعنه هوس في انظر تكم باملاح
 عزال سلى الاسود الصار بالكم
 عصر اذا انشأ سبي النكر
 واذا تمل في اللبد عند
 واعلم ان الادوان في معرفة السلاعة منها كلها
 اما يحصل المرخاط ملك
 اللغه وكثر استعماله لها ومخاطبته من اجالها حتى حصل ملكها كما قلناه في اللغه
 العربيه فلا شعر الا بدلي بالسلاعه اليه في شعر اهل المغرب ولا المعنى بالسلاعه
 اليه في شعر اهل المشرق والاندلس ولا الشرقي بالسلاعه اليه في شعر اهل الهند
 والمغرب لان اللسان الحضري وراكه محلفه فمهم وكل احد منهم مدرك للسلاعه
 لغته ودان معاسن الشعر من اهل جلده وفي جلوس السحاب والارض واحلاف
 المستكم والواكر امانات للعالمين وفي كذا ان يخرج عن العزم وعرضا
 ان بعض اليونان عن العرب في هذا الكتاب الاول الذي هو طبعه اليونان وما
 يعرض فيه من اسوقنا من مسائل ما حيسناه كقراء له واعلم من ياتي من بعدنا
 من توبه الله بفكر جميع وعلم بين بعض من مسائله على اكثر مما كناه فليس على
 بسط العلم احصا مساله وانما عليه تعيين موضع العلم وتنوع فضوله وما
 شكروه والمناخرون بلخون المسائل من بعدك شيئا منها الى ان يكمل
 والله يعلم وانتم لا تعلمون قال الك مولانا الجايب عفا الله عنه اتممت
 هذا الجزء الاول بالرفع والالف قبل السفع والهند في هذه حبه اشهد
 لغزا

آخرها مئصاف عام سبعة وسبعين وسبع مائة من تقيته بعد ذلك وهديته والحق
به نوارخ الامر كما ذكرته في اوله وشرطته وما العلم الامر عبد الله العزيز الحكيم

وكتبه يده الفانية، أحوج الناس لرحمة ربه، عبد الله بن حسن الشهير بابن الفخار حامداً
على نعمه ومصلياً ومُسْلِماً ومُحْسِبِلاً، ونقلته من أصله المتوج بخط مؤلفه في بعض هامشه وملحقه
وتخاريجها وكتبها جميعها وأحاط بما كتبتُ وقرأ في غالبه، واللّه المسؤول أن يقيه ويمتّع ببقائه آمين، وكتب
في العاشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وسبع مائة اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم

"وكتبه يده الفانية، أحوج الناس لرحمة ربه، عبد الله بن حسن الشهير بابن الفخار، حامداً الله
على نعمه ومصلياً ومُسْلِماً ومُحْسِبِلاً، ونقلته من أصله المتوج بخط مؤلفه في بعض هامشه وملحقه
وتخاريجها وكتبها جميعها وأحاط بما كتبتُ وقرأ في غالبه، واللّه المسؤول أن يقيه ويمتّع ببقائه آمين، وكتب
في العاشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وسبع مائة، اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم"

• خاتمة المخطوط "ج" التي كتبها ابن الفخار سنة 799هـ، وأحاط بها ابن خَلَوْن

أَنْظَارٌ

لقد أمدّتي قراءاتي المتكررة لثراث ابن خلدون بإيضاحات وتساؤلات عن جوانب متعددة حول فكره في التاريخ وفي الرجال، وفي تفسيره لإشكالات بعض مواقف التاريخ الإسلامي، وعن هويّته، وصورته في عصره، وعلاقاته، وأسلوب بيانه، ولغته، ومصطلحه، ومصادره، والمواقع الحقيقية الأثرية التي أقام فيها وتردّد عليها ولا تزال باقية على حالها، وما إلى ذلك مما نرجو أن نفرده في عمل مستقل، مركّز على الشواهد والأدلة في قادم الأيام.

وأقتصرُ هنا على ذكر بعض الأنظار المتّصلة بالكتاب خاصّة، لعلّ فيها بعض ما يُفيد.

1 • تُشارُ إشكاليّةُ بأيّ الكتب الثلاثة من العبر بدأ ابنُ خلدون بكتابتها، ويغلبُ عند بعضهم أنّ المقدّمة كانت المُستهلّ، وهو المشهور عنه. وهذا لم يُقَمْ على وثاقّة بحث، لأن الأمر يقتضي الاعتماد على وجود نسخة مطبوعة من الكتاب، صحيحة القراءة، واضحة في تفاصيلها، مفكّكة بالكشافات والفهارس، تسمح متابعتها من أن نعرف كيف استغلّ ابنُ خلدون الفقيه المفكر جمد ابن خلدون المؤرّخ، وما هي علاقة نصّ التاريخ بتلك الإشارات التي يُلَمَع لها في المقدّمة بين حين وآخر،

وكيف كان سياق الأحداث المنظّمة في العبر وقيام الدّول وحاجتها إلى العصبية والمنعة، وغير ذلك، كيف كان كلّ هذا مجالاً للتفكير والاستنتاج والمقايسة، والوصول إلى حقائق يَنْتَبَهُ لها بذكائه ودُرْبته على استخدام المنطق في استخراج ما يصحّ استخراجه، لأن كتاب العبر وحدةٌ قامتْ أوّل ما قامتْ على تصوّر أوليّ واضح، تطوّر في إطار التّصوّر الأوّل ولم يُلغَ، وتمدّد في عَرْضه للأُمم والدّول إلى مناطق كانت مجهولةً لديه، ثم تعرّف عليها ونظّمها في منظومة عمّله. وكانت فصوله عن الدّول المتعاصرة والمتعاقبة متوازنة في حجمها، وقد بُنِيتُ فيها بين حين وآخر ما ضَبَطَه من نواة القوانين التي فصلها في المقدّمة؛ وهذه العلاقة بين المقدّمة (الكتاب الأوّل) وكتابي التاريخ التاليين، لا يتاح البتّ فيها - كما ذكرت - قبل نشر كامل الكتاب على نهج أمينٍ ملتزم بتوثيق نصّ المؤلّف كما كتبه.

ونلاحظ أن ابن خلدون يُفاجئنا بإشاراتٍ تصنّع إرباكاً لدارسي نشأة نُصوصه وتطوُّرها، كتبها في أحيان مختلفة وتصرّف فيها بالإضافة والإلغاء في النصّ الواحد فزادها غموضاً.

يقول في "التعريف"⁽¹⁾:

1- "لحقّت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل گزول، فتلقّوني بالتحقي والكرامة وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين، التي صارت لهم بإقطاع السلطان، فأقامت بها أربعة أعوام متخلّياً عن الشّواغل كلّها،

(1) التعريف 236 ، مخطوط الظاهري (ط) 68 ب .

وشرعتُ في تأليف هذا الكتاب وأنا مُقيمٌ بها، وأُكملتُ⁽¹⁾ المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في⁽²⁾ الخلوة، فسألت فيها شايب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتحضت زبدتها وتألّفت نتائجها".
ويقول⁽³⁾ :

2- "ولما نزلت قلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف ثم طال مُقامي هنالك وأنا *مستوحشٌ من دولة المغرب وتلمسان*⁽⁴⁾، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته⁽⁵⁾ إلى أخبار العرب والبربر وزناته، وتشوّفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أمليتُ الكثير من حِفظي، وأردتُ التنقيح والتصحيح".

وكتب عند الأوبة إلى تونس ومُقابلة السلطان أبي العباس أحمد الحفصي :

مخطوط الظاهري	النص الحديث، المعتمد للنشر
797هـ / 1394 م	وقد أنهاه المؤلف سنة 807هـ / 1404م

"وقد كلّفتني [أبو العباس] بتلخيص	"وقد كلّفتني بالإكباب على تأليف
كتاب في الأخبار، فاقتضيت له من	هذا الكتاب لتشوّقه إلى المعارف

(1) ظ: وأُتيت في المقدمة منهم بذلك .

(2) ظ : في تلك .

(3) التعريف 237، الظاهري 69 ب .

(4) ما بين النجمين ساقط من ظ .

(5) ظ : من مقدمته ولم تكمل أغراضها بعد .

هذا الكتاب ملخصاً استوعبت فيه
أخبار البربر وزناتة من أهل المغرب،
وبعضاً من أخبار الدولتين الأموية
والعباسية، وشيئاً من أخبار الدول
قبل الإسلام، ولم أستوف ذلك ولا
أخبار المشرق ودوله في العرب والعجم
قبل الإسلام وبغده، وإنما استوعبت
ذلك بعد الرحلة إلى المشرق، وفي هذا
الكتاب المتوج باسم الملك الظاهر

فلما رفعت له ذلك الكتاب أنشدته

والأخبار واقتناء الفضائل، فأكلت
منه أخبار البربر وزناتة وكتبت من
أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما
وصل إلي منها، وأكلت منه نسخة
رفعتها إلى خزائنه.

فلما رفعت له الكتاب وتوجته باسمه،
أنشدته

[التعريف 240]

[الظاهري- آخر الجزء 14،

الورقة 69 ب]

ويُقارَن كلُّ هذا بما ذكره في آخر نسخة المقدمة، وهو النص المشهور الذي
حافظت عليه جميع النسخ:

3- "أتممت⁽¹⁾ هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتنذيب، في
خمسة أشهر، آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعماية، ثم نقضته بعد
ذلك وهذبته، وألحقته به من تواريخ الأمم كما ذكرته في أوله وشرطته".

(1) جاءت هذه الخاتمة للكتاب الأول بأخر مخطوطة مكتبة السلطان أحمد الثالث 297 أ رقم 1 A / 3042 ،
وهي أقدم أصل نقل نسخة عاطف مصطفى رقم 1936 كما تقدم. وهذا نص خاتمة مخطوط الظاهري الذي كتب =

فإذا كان قد وصل قلعة ابن سلامة سنة ست وسبعين وسبعائة، وتفرغ من الشواغل وبدأ في تأليف الكتاب، ثم كتب المقدمة بدءاً من شهر صفر سنة تسع وسبعين وسبعائة، وأتمها في خمسة أشهر، آخر شهر جمادى منه، أي أنه كتبها بعد أن انقضت سنتان وشهر على قدومه! فماذا كان يفعل قبلها؟

وفي النص المقارن بين روايتين للمؤلف نفسه ورداً في كتاب "التعريف" عن علاقة الكتاب بأبي العباس الحفصي والظاهر برقوق، ما يُساعد على ضبط بعض التصورات.

فهذه أنظار يمكن بحثها.

2 • تَرَدَّدَ في الكتاب الأوّل لفظةٌ تحيى في آخر فصوله، استَوْقَفَنِي تَكَرُّرُهَا، فالتقطتها - من هذا القسم الأول المنشور - في صيغة ثابتة وفي معاني متصرفة، ذلك هو مُفَرَّد الأمر من فعل اغْتَبَر، وهو ما يُثير الانتباه.

فقد جاءث:

1 • بمعنى: قَامَرْنُ وَوَاكِرْنُ، في قوله: "فاعتبره تجدّه" [ظ 126 ب]. وفي قوله: "واعْتَبِرْ ذلك أيضاً بأهل مصر، فإنّها في مثل عرض البلاد الجريدية وقريباً

= سنة 797هـ، قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه :

"أتممت هذا الجزء المشتمل على المقدمة بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتذهيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعائة ثم نقحته بعد ذلك رَهْدَتَهُ، وألحقته به من تواريخ العرب والبربر ما اخترته، ثم استوفيت بعد ذلك في هذا الكتاب الملقب الظاهري خبر الدول في الخليفة والعالم، واستوعبته حسبما ذكرته في أوّله وشرطته".

منها، كيف غلب الفرح عليهم" [ظ 160 أ] 154 . وفي قوله: "واعْتَبِرْ ذلك في

حيوان القَفَرِ ومواطن الجَذْبِ مع أمثالها من حيوان التَّلُولِ" [ظ 161 أ] 158 .

2 • ومعنى: قَدَّرُهُ، في قوله: "فافهم ذلك واعتبره فيما نوردُه عليك من بعد"
[ظ 128 ب] .

3 • ومعنى: والتَمَسَ ذلك، في قوله: "واعْتَبِرْ ذلك في أمة الفُرسِ [ظ 100 ب] .

4 • ومعنى: التنبه والوعى، في قوله بعد أن شَرَحَ مَعْنَى البَيْعَةِ في العُزْفِ:
"واعْتَبِرْ ذلك من أفعالِكَ مع الملوك" [ظ 141 ب] .

5 • ومعنى: قَتَمَسَكَ بِهِ واعتمد، في قوله بعد أن قَرَّرَ أن بَقَاءَ الدَّولِ كأغمار
النَّاسِ وأن عمرها مائة عام: "فاعْتَبِرْهُ واتَّخِذْ مِنْهُ قَانُوناً" [ظ 115 أ] .

6 • ومعنى: واتَّخِذْ واعتمد، في قوله: "واعْتَبِرْ ذلك علامةً تميِّزُ لها بين المكيِّ
والمدنيِّ من السُّورِ والآياتِ" [ظ 68 ب] 179 .

7 • ومعنى: المقايسة، في قوله: "واعْتَبِرْ ذلك بجوائزِ ابنِ ذِي يَزَنَ" [ظ 120 أ] .

8 • ومعنى: ابْحَثْ وانظر، في قوله: "واعْتَبِرْ ذلك في الدَّولِ والرِّئاساتِ
تَجِدْهُ" [ظ 124 أ]، وفي قوله: واعْتَبِرْ ذلك في الحاضرِ الشاهدِ والقريبِ
المعروفِ تجد زعمهم باطلاً [ظ 11 أ] 14 .

9 • ومعنى: افهم، في قوله: "فاعْتَبِرْهُ واجتنب المغالطة فيه" [ظ 90 ب] 235 .

10 • ومعنى: تَمَثَّلُ، في قوله: "واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً" [ظ 85 ب] 224 . وفي قوله: "واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف" 228.

11 • ومعنى: واسبر وتعمق فهم، في قوله: "فافهمه، واعتبر سر الله في خليقته" [ظ 189 ب] 233 .

12 • ومعنى: تأمل، في قوله: "واعتبر ذلك في الحيوانات العجم" [94 أ] 243 . وفي قوله: "واعتبر حال القرمطي إذ كان دعيّاً في انتسابه كيف تلاشت دعوته" [ظ 17 أ] 33 و [ظ 62 ب] 162 .

13 • ومعنى: فأدرك معنى هذا، في قوله: "فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كافٍ" [ظ 965 ب] 249 .

14 • ومعنى: وقدّر - وليكن في تقديرك، في قوله: "واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت" [ظ 107 ب] 277، وفي قوله: "واعتبر هذا في دولة الموحدين مع زناتة" [ظ 107 ب] .

وهذه النماذج لهذا المفتاح الذي يتجه به لأكثر من باب ودلالة، سمة فيه لمرونة الفكر وإثارة التأمل والبحث والفهم والمقارنة والمقايسة؛ وستتقدم استعمالات هذه اللفظة التي تجاوزت الخمسين، في معاجم الكتاب، لأهميتها.

وعلى هذا، فإنّ بعض ما قدّمته من نماذج - وهي قليلٌ من كثير - هي معنى "العبر" التي سُمّي بها كتابه، ولا تقفُ عند معنى الموعظة التي انساق إليها تلميذه المقرئيّ، فسُمّي كتابه في خطط القاهرة : الموعظة والاعتبار.

وقد ذكر اسم الكتاب بمعنى غائم غير محدّد في القصيدة⁽¹⁾ اللامية التي قدّمه بها في صيغته الأولى لأبي العباس أحمد الحفصيّ، فقال:

وإليك من سِير الزّمان وأهله عبراً يدين بفضلها من يتعدّل

وليس في هذا البيت - فيما أرى - أيّ معنى للموعظة .

وأصلُ استعمال الأمر بالاعتبار عنده، تأثّره منذ أوائل النّشأة بما كان يتلقّاه عن شيخه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبليّ، الذي درس عليه "مُحصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين"، للفخر الرّازيّ، والذي أثنى عليه أبلغ الشّناء⁽²⁾ في مقدّمة التّليخيص الذي كتبه بتوجيهه وسّمّاه "لُباب المُحصّل".

وطريقة الفخر الرّازيّ أنه عندما يعرض أقوال المخالفين ويوردّها متتاليةً للردّ عليها، يبدأ نسق القول والردّ بمثل قوله: "التّمسّك بعموم قوله تعالى ﴿فاغْتَبِرُوا﴾" [المحصول في علم أصول الفقه 5: 349]، أو: "إنّ عموم قوله ﴿فاغْتَبِرُوا﴾" يتّقي هذا الشّرط [المحصول 5: 367، 371، 399، 233، 341] . وهذا التصرّف في معنى الاعتبار، قائم في فكر الرّازيّ، في استعماله الجدلية، استمداداً

(1) التعريف بابن خلدون 247 .

(2) ابن خلدون: لباب المحصل في أصول الدين 229 - 30 ، (دار المشرق - بيروت 1995) .

وإحياء لمفاهيم اللغة نفسها⁽¹⁾، وأوضحها ما قرّره عند تفسير الآية الكريمة ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾⁽²⁾ "بأن الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاورة من شيء إلى شيء، ولهذا سُمّيت العبارة عبارة لأنها تنتقل من العين إلى الخد؛ وسُمّي المِغْبَر مِغْبَرًا، لأن به تحوّل المجاوزة؛ وسُمّي العلم المخصوص بالتعبير، لأن صاحبه ينتقل من المتخيّل إلى المعقول؛ وسُمّيت الألفاظ عبارات، لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع؛ ويقال: السعيد من اعتبر بغيره، لأنّه ينتقل عقله من حال ذلك الغير، إلى حال نفسه، ولهذا قال المفسّرون: الاعتبار هو التّظّر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها، ليُعرف بالتّظّر فيها شيء آخر من جنسها"⁽³⁾.

3 • كانت أسبجاعة واضحة التكلّف، يتصنّعها اضطراراً في مناسباتها، حُطَبَةٌ في كتاب، أو دَرْساً أمام من اعتادوا اعتبار العالم على مقدار إجادته لطريقة العَصْرِ من إتقان فنّ السّجع واللّوان البديع، وقد أفاد عن نفسه أنّه عندما تولّى في المرحلة المغربية الكتابة عن السلطان أبي سالم في شعبان 760 هـ / 1358م، كان يشاركه في الخطّة من يُجيد الكتابة في الأسبجاعة، لضَعْف انتحاله لها، وأنّه انفرد بكتابة المُرسَل يومئذٍ وكان مُستغرباً عندهم بين أهل الصّناعة⁽⁴⁾. ومع أنّه كثيراً ما يكرّر كلامه ويُعيد عَرَض الموضوع بأكثر من صيغة مقبولة، إلّا أنّ الأمر في المسجوع يبدو أكثر إخراجاً لأدبه، فقد التجأ إلى الاستنجاد بفقرّة مسجّعة - وليست بذاك -

(1) لسان العرب (عَبَر)

(2) سورة الحشر، الآية 2

(3) الرازي: مفاتيح الغيب 10: 504.

(4) التعريف: 72 - 73.

استعملها ضمن خطبة دُرِس قَدَّمه في المدرسة القمحيتة أول قُدومه على القاهرة⁽¹⁾، ثم نزلها في آخر دياجة المقدّمة (نسخة الظاهري ص 8).

4 • وفي هذه المقدّمة مداخل وفُصول⁽²⁾ معرفية تظلّ ألبازاً للمتعاملين معها، لاندثار مفاهيمها وصُعوبة إخضاعها للمنطق والفهم، وعرض ابن خلدون يشعرك بمشاركته في فهمها وربّما بتّصديق مُحْتَوَاهَا أحياناً بما جعله يُطنب في تقديمها وتحليل محتواها وإدراجها في ذلك النّسق والإطار المترابط لتركيب مادّة هذا الجزء من العبر (المقدّمة). ويعترض من يعترض بالتّساؤل عن طبيعة هذا الإقحام وعلاقته بالتركيب المغربي للفكر الإسلاميّ كما سجّله في عصره، والواقع أن تلك القضايا المعقّدة كانت جزءاً من ثقافة العالم الإسلاميّ وعصر ابن خلدون خاصّة، فقد كانت المجتمعات تنتظر أجوبة عن مصيرها المُزْتَبك المهدّد باستمرار، فتطلبُ الإجابة من أولئك المُنتصِبين لتغزيّتهم بالقُدرة على اختراق الحاضر والتّماس أجوبة المُستقبل من عمق المُستقبل نفسه، وكثير أذعياء هذا الفن، يتوسّلون إليه بأساليب مُختلفة، ويتعاملون فيه مع متون القصائد الجُفرية، أو يتلمّسون ذلك بالحلول الآنية التي تُحسب بضرب الرمل⁽³⁾ وغيره؛ وكان الملوك وأهل السُلطان خاصّة أكثر ولعاً بهذه الفنون، يَلْتَدِبون لها المنجّمين يقيمون عندهم لكشف طالع كلّ سغي يقومون به.

(1) التعريف : 291 .

(2) من ذلك علوم السحر والطلّمسات، وعلم أسرار الحروف، ومن فروع علم السّمياء وكيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرة العالم، والاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية.

(3) كانت أخت تمرلنك تجيد ضرب الرمل (إنباء الغمر 3 : 208) .

ومع الأهمية التاريخية لهذه الفصول، فإنّها تَضَع عبئاً ثَقِيلاً على الكتاب،
وتفصل وُحْدته المعرفيّة، وتثْقُل بالقارئ من المعقول إلى اللاّمعقول.



هذا وقد عملت⁽¹⁾ هذا العمل وليس في تقديري أن أقيم صحبتي على أبي
زَيْد، فغايَةُ ما صنَعته أني قَدّمت بأمانة وللمرّة الأولى نصّاً واضحاً مصحّحاً بقلمه
وعلى أصوله نفسها، ومُسْتَكْملاً منها، بعد أن قضيتُ زمناً طويلاً، ألاحقُ تلك
الأصول حتّى جَمَعْتُها لبغضها البعض، وميّزت⁽²⁾ مَنزِلتها، ثم تعقّبت النصّ لتدقيق
معانيه والتّعرف على مُصطلحه ومصادره.

وحرصتُ فيه على تفكيك وفهم جُملة الطويلة المدّدة الّتي تكاد تذهب أحياناً
بالفكرة الّتي يعرضها، ورقّمتها بأدوات التّرقيم تيسيراً لمتابعتها وفهمها، وأثبت الأرقام
الجانبية للسّطور لتيسير الإحالة عليها في المعاجم، والتّزّمت شكل الكلمات بنسبة
معقولة، لما يؤدّيه ذلك من مُساعدة على تبين معاني المؤلّف.

(1) اشتركت مع مقام أستاذي صديقي الدّكتور إحسان عباس في إعداد هذا الجزء الأول من
الكتاب الأول، وقابلنا النّسخ المخطوطة، ثم توقّفنا عند هذا الحدّ، وأبقيت ما أعدّدناه في مكتبه،
فتوفي إلى رحمة الله في 2003/7/29. وعندما استأنفتُ المشروع لم أجِدْ بما أعدّدناه إلّا بعض
صفحات، فاضطّرت إلى إعادة المقابلة، ومواصلة عمل ما يتطلّبه الكتاب. واحتفظت باسم
الدّكتور إحسان عباس على صدر الكتاب، وفاءً لذكرى صداقة متينة، وتكريماً لما قدّمه في
خدمة تراث العربية كاتباً وناقداً ومؤلفاً ومحقّقاً.

(2) بعض هذه الأصول، كان يكتفى في التعريف بها في القوائم والفهارس المنشورة بأنّها مخطوطة من القرن التاسع!

ثم خَرَّجَت ما أورده من شِغْرِ - وهو قليل - وما أَسَنَدَه من نصوص ، وما أورده من أحاديث⁽¹⁾ ، إلّا في حالات محدودة لم تُسَعِفنا بها المَصَادِرُ الَّتِي بين أيدينا، ونَسْتَذِرُكها في فوات التعالِيق بآخر الكتاب.

ونَبِّهت على ما لم نَجِدْه من إحالاته على المَصَادِر ، أو ما لم نَجِدْه في إحالاته المحدّدة ووجدناه في غير ما حدّده . أو ما وَهَم فيه وليس كذلك، أو ضَبُط بعض الأسماء "الأماكِنِيَّة" المختلف فيها، أو ما تَأَكَّد توضيحُه من إشارات تاريخية، أو شَرَح بعض الكلمات التي قرئت خطأ في النسخ المنشورة.

وعَلَّقت فيما تدعو إليه الضَّرورة لتصحيح فهم خاطيء أو الكَشْف عما يحتاج للكشف.

واخترت أن يكون مُعْجَم ابن خَلْدُون اللُّغَوِي وما يُكْرَّره من مفردات واستعمالات خاصّة به تقريباً. أو ما يستعمله أحياناً من عاميّة المغرب والأندلس، ضمن المعجم اللغوي المنفصل الذي يَسْتَوْعِب كُلُّ ما يَتَّصِلُ بجزئي الكتاب الأوّل (المقدمة).

وميّزت في الفهرس الفصول الَّتِي لم يَتَّخِذْ عنواناً لها، وذلك باستخراج عناوينها من نَصّها، مع الحرص على أن يكون من لغته.

ويوجد فَضْلان لم يَرِدَا في المخطوطات المعتمدة، قد يكونان ممّا أضافه المؤلّف بعد سنة 799 آخر تواريخ أصولنا الخمسة، أحدهما وُضِعَ له علامة مخرج في النسخة

⁽¹⁾ الشكر لصديقي العلامة الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف الذي ساعد في ذلك كل المساعدة.

الأم (ع) وسقطت الورقة المضافة بعد أن نقلتها بعض النسخ الأخرى ، والفصلان هما:

❖ فصل في أن الرئاسة لا تزال في نصائبها المخصوص من أهل العصبية.

[ذكره د . عبد الواحد وافي في 2: 488 وهو ساقط من طبعة باريس ومن التيمورية] .

❖ فصل في اتّساع نطاق الدولة أولاً إلى نهايته، ثم تضايقه دوراً بعد دور إلى فناء الدولة واضمحلالها.

[ذكره د . عبد الواحد وافي في 2: 760، ويوجد في طبعة باريس 2: 114 - 117، والنسخة التيمورية].

وسنوردهما في آخر الكتاب حسبما اعتمدناه، مصحّحين على أصول خطيّة أخرى نشير إليها .



وعليّ واجب شكر أوّديه لكل الذين وجدت منهم العون العلميّ والمعنويّ،
ودفعوني - رغم الشواغل الثقيلة - إلى العودة لمشروعي القديم، وكنت أوّل من فكر
فيه وقدّم خطة متكاملة عنه، ألقيتها في المؤتمر الثّاني لبيت الحكمة بقرطاج، وكنت
وَقْتُها من أعضائها ، ثمّ ... ثمّ تراخيت عنه وأهملته.

فالشّكر لوزارة ووزراء الثقافة التونسية ، ولأصدقائي وإخواني : أ. د.
إبراهيم النجار، د. الهادي البكوش، أ. د. المنجي الكعبي، أ. د. أبو يقرب المرزوقي،

أ. عبد العزيز قاسم، أ. الطيّب العشّاش، أ. الحبيب شيبوب، أ. ربحانة شَبّوح،
د. مراد الرّماح، والسيد الحبيب اللّمسّي.

والشكر لوزارة الثقافة التركية، و أ.د. أكمل الدين إحسان أوغلو، ومدير
المكتبة السّليمانية د. نوزت كايا، ومساعدته أ. أمير، ومحافظ مكتبة عاطف مصطفى
أ. عثمان دوزجان، و أ. محمّد التّميمي.

وفي فرنكفورت : أ. د. فؤاد سزكين الذي قدّم لي صور أكثر النّسخ التّركية،
وصورة خريطة نسخة عاطف مصطفى التي تنشر في هذا الكتاب.

وفي المغرب الشقيق: صديقي المرحوم أ. عبد الرحمن الفاسي مدير الخزنة
العامة السابق، وإلى أ. د. محمد بن شريفة، و أ. د. أحمد شوقي بنين الذي لا أنسى
مساعدته.

وفي الجزائر الشقيقة: د. أحمد طالب الإبراهيمي، وأ. د. أبو عبد الله غلام
الله، و أ. د. عمّار الطالبي.

وفي الجماهيرية الليبية: د. خليفة التّليسي.

وفي لبنان : أ. د. محمد يوسف نجم، و أ. د. رضوان السيد.

وفي عمّان: مؤسّسة آل البيت للفكر الإسلاميّ، ثم، أ. د. عبد الكريم
غرايبة، و أ. د. محمد عدنان البخيت، و أ. د. فاضل بيات، و أ. د. عبد العزيز
الدوري، وأ. صديقي حطّاب، و أ. فاروق جرّار، و أ. مهدي الرّواضيه، و د.
إحسان ذنون.

وفي مصر: د. أيمن فؤاد سيد .

وإلى مركز الملك فيصل، ومكتبة الملك فهد في الرياض.

وإلى أ. د. رشدي راشد (باريس).

وإلى أ. د. فيرنر شفارتس (جوتنجن، ألمانيا) .



ولا أدعي إصابة الغرض فيما قصدت إليه، وإنما اجتهدت ما استطعت في إعداد هذا النص وإخراجه موثقاً على هذه الهيئة ، إسهاماً في خدمة تراث أبي زيد الذي امتدت صحبتي له زمناً ، ووقفت على أصالة ما قدمه، ومن الله أستمّد العون على إتمام ما بدأته ، ولواهب العقل الحمد بلا انتهاء.

إبراهيم شوبح

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم ، قاضي القضاة ، ولي الدين ، عبد الرحمن ابن خلدون ، أطال الله بقاءه⁽¹⁾:

الحمد لله الذي له العِزَّة والجَبَرُوتُ ، وبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ ، وله الأسماءُ
5 الحُسْنَى والتُّعَوَاتُ ، العالم فلا يَغْرُبُ عنه ما تُظْهِرُهُ النَّجْوَى^(ب) أو يُخْفِيهِ^(ج)
السُّكُوتُ ، القادرُ فلا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَقُوتُ. أَنْشَأْنَا مِنْ
الْأَرْضِ نَسْماً ، وَاسْتَعْمَرْنَا فِيهَا أَجْيَالاً وَأُمَمًا ، وَيَسَّرْنَا مِنْهَا أَرْزَاقاً وَقِسْماً ؛ تَكْنِيفُنا
الْأَرْحَامَ وَالْبُيُوتَ ، وَيَكْفُلُنَا الرِّزْقَ وَالْقُوتَ ، وَتُبْلِينَا الْأَيَّامَ وَالْوُقُوتَ ، وَتَعْتُورُنَا الْآجَالَ
10 الَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ ؛ وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثَّبُوتُ ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .

(1) جاء هذا الاستهلال في الأصول الأخرى كما يلي:

في ع، ج بخط المؤلف: يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه، الغني بلطفه [وفضله]، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وقَّعه الله [تعالى وغفر له] والكلمات المحصورة من نسخة ج . وفي نسخة ي نص مستهل نسخة ع نفسه. وفي ل: قال سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام ، قاضي قضاة المسلمين، ولي الدين أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، متعنا الله بعلومه. (ب) في ل: يديه النطق (ج) في حاشية ع: يُضْمَرُهُ .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا^(أ) محمد النبي العربي المكتوب في
 التوراة والإنجيل المنعوت ، الذي تمخض لفصالة^(ب) الكون قبل أن تتعاقب الآحاد
 والسُّبوت ، ويتباين زُحُلُ واليهُموت^(ج) ؛ وشهد بصدقهِ الحمامُ والغنُكُوت . وعلى
 آله وأصحابه الذين لهم في محبته واتباعه الأثر البعيد والصيت ، والشَّمْلُ الجميع في
 5 مَظَاهِرَتِهِ وَلَعْدُوهُمْ الشَّمْلُ الشَّتِيت ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصَلَ لِلْإِسْلَامِ جَدُّهُ
 الْمَبْخُوتُ ، وَانْقَطَعَ بِالْكَفْرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد :

فإنَّ فَنَّ التَّارِيخِ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهَا الْأُمُ وَالْأَخْيَالُ ، / وَتُشَدُّ إِلَيْهِ الرُّكَائِبُ [١٥]
 وَالرُّحَالُ ، وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ ، وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَالُ ،
 10 وَيَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ . إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى إِبْخَارٍ عَنِ
 الْأَيَّامِ وَالْدُّوَلِ ، وَالسُّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأَوَّلِ ، تُتَمَقُّ^(د) لَهَا الْأَقْوَالُ ، وَتُصَرَّفُ فِيهَا
 الْأَمْثَالُ ، وَتُظَرَّفُ بِهَا الْأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا^(هـ) الْإِحْتِفَالُ ، وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ
 تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ ، وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ النِّطَاقُ فِيهَا وَالْمَجَالُ ، وَعَمَرُوا الْأَرْضَ حَتَّى
 نَادَى بِهِمُ الْإِزْتِحَالُ ، وَحَانَ مِنْهُمْ الزَّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ ، وَتَعْلِيلٌ
 15 لِلْكَائِنَاتِ وَمِبَادِئُهَا دَقِيقٌ ، وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذَلِكَ أَصِيلٌ فِي
 الْحِكْمَةِ عَرِيقٌ ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٍ .

(أ) سقط من ل (ب) ع: لفضاله (ج) ع، ل: اليهوت (د) كذا في ط ع ، وفي ل ي : تنمو فيها (هـ) كذا في ي ل ، وفي
 ع: غمها ، ولعلها تصحيف غمها .

وإنَّ فُحول المؤرّخين في الإسلام قد استَوْعَبوا أخبارَ الأَيّام وجمّعوها،
وسَطّروها في صَفحات الدِّفائِر وأودَعوها، وخَلَطَها المتطَفِّلون بِدَسائِس من الباطل
وهِمُّوا فيها أو ابتَدَعوها، وزُخِرِف من الرِّوايات المُضَعَّفَة لَفَقوها ووَضَعوها . واقتَفَى
تلك الآثارَ الكثيرُ ممَّن بَعْدَهم واتَّبَعوها، وأدَّوها إلينا كما سَمِعَوها. ولم يُلاحظوا أسبابَ
الوقائع والأحوال ولم يُراعوها ، ولا رَفَضُوا تَرَهات الأحاديث ولا دَفَعوها. فالتَّحقيقُ 5
قليلٌ، وطَرَفُ التَّنقيح في الغالب كَليلٌ، والغَلَطُ والوَهْمُ نَسيبٌ للأخبار واخليلٌ،
والتَّقليد عريقٌ في الآدَمِيِّين وسَليلٌ، والتَّطَفُّل على الفنون عريضٌ طويلٌ، ومَزَعى
الجهل بين الأنام وَييلٌ . والحقُّ لا يَقْاوم سُلْطانَه، والباطلُ يُقْذَف بِشَهاب النِّظَر
شَيْطانَه، / والناقلُ إنَّما هو يُمْلِي وَيَنقُل، والبصيرةُ تَنقُدُ الصحيح إذا تَمَقَّل، والعِلْمُ [ب5]
يَجْلُو لها صفحات الصَّواب ويَضِلُّ.

10

هذا، وقد دَوَّن النَّاسُ في الأخبارَ وأَكثَرُوا، وجمَّعوا تواريخَ الأمم والدُّول في
العالم وسَطَّروا. والَّذين⁽¹⁾ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهرة والإمامة المُعْتَبَرة، واستَفَرَّغُوا دواوينَ
مَنْ قَبْلَهُمْ في صُحُفِهِم المتأخِّرة، هُم قليلون لا يكادون يُجاوِزونَ عَدَدَ الأنامِل، ولا
حَرَكاتِ العوامِل، مِثْل ابنِ إسحاق، والطَّبْرِيِّ، وابنِ الكلِّبِيِّ، ومحمد بنِ عُمَرَ الواقديّ،
وسَيْفِ بنِ عُمَرَ الأَسديّ، والمُسعوديّ، وغيرهم من المشاهير، المتميِّزين عن الجَماهير. 15
وإن كان في كُتُب المُسعوديّ والواقديّ من المَطْعَن والمُعْزَم ما هو مَعْرُوفٌ عند
الأثبات ، ومشهورٌ بَيْنَ^(ب) الحَفْظَةِ الثَّقَات . إلّا أنَّ الكافَّة اختَصُّوهُم بِقبول
أخبارهم، واقتَفاء سَنَنهم في التَّصنيف واتِّباع آثارهم ؛ والناقدُ البَصيرُ قِسْطاس

(1) ع: وإنَّ الذين (ب) ي: من .

نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم ؛ فليغمران طبائع في أخواله ترجع إليها الأخبار ، وتحمّل عليها^(١) الروايات والآثار .

ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك ، لعموم الدولتين صدر الإسلام في الآفاق والممالك . وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمآرك ؛ ومن هؤلاء من أوعب ما قبل الملة من الدول والأمم ، والأمر العمم ، كالمسعودي ومن نحا منحاه .

وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد ، ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد ، فقيد شوارذ عصره ، واستوعب أخبار أفيقه وقطره ، واقتصر على أحاديث دولته ومصره ، كما فعل ابن خيآن مؤرخ الأندلس / والدولة [١٦] الأموية بها ، وابن الرقيق مؤرخ إفريقية والدولة التي كانت بالقيروان .

ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد ، وبليد الطبع والعقل أو متبذل ، ينسج على ذلك المنوال ، ويحتذي منه بالمثل ، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال ، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال . فيجلبون الأخبار عن الدول ، وحكايات الوقائع في العصور الأول ، صوراً قد تجردت من موادها ، وصفاً انتضيت من أغمادها ، ومعارف تستنكر للجهل بطايرها وتلاذها . إنما هي حوادث لم تعلم أصولها ، وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها ؛ يكررون في موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها ، اتباعاً لمن غني من المتقدمين بشأنها ، ويفعلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها ، بما أعوز عليهم من ترجمانها ؛ فتستعجم صُحفهم عن بيانها . ثم إذا

(١) ل: إليها .

تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا، مُحَافِظِينَ عَلَى ثَقْلِهَا وَهَمًّا أَوْ صِدْقًا، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا، وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَأْيِهَا، وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا، وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا؛ فَيَبْقَى النَّازِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدَ إِلَى مَبَادِيءِ الْأَحْوَالِ وَمَرَاتِبِهَا، مُفْتَنِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا، بَاحِثًا عَنِ الْمُنْتَفَعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُلِهَا؛ حَسْبَمَا نَذْكُرُ⁽¹⁾ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ .

5

ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْاِخْتِصَارِ ، وَذَهَبُوا إِلَى الْاِكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْاِقْتِصَارِ^(ب) ، مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ ، مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ الْغُبَارِ ؛ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ ، وَمَنْ اقْتَفَى / هَذَا الْأَثَرُ مِنَ الْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لَهُؤَلَاءِ مَقَالٌ ، وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا اثْتِقَالٌ ، لَمَّا ذَهَبُوا بِالْفَوَائِدِ ، وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ .

10

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ، وَسَبَرْتُ غُورَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ، نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ أَوْ النَّوْمِ، وَسُمْتُ التَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي - وَأَنَا الْمُفْلِسُ - أَحْسَنَ السُّوْمِ. فَأَنْشَأْتُ فِي التَّارِيخِ كِتَابًا، رَفَعْتُ فِيهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا، وَفَصَّلْتُهِ فِي الْأَخْبَارِ وَالْاِعْتِبَارِ بَابًا بَابًا، وَأُبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَةِ الدُّوَلِ وَالْعُمَرَاءِ عِلَلًا وَأَنْسَابًا، وَبَيَّنَّتهُ عَلَى أَخْبَارِ الْجِيلَيْنِ اللَّذَيْنِ عَمَرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ، وَمَلَأُوا أَكْنَافَ الصُّوَاخِي مِنْهُ وَالْأَمْصَارِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْقِصَارِ، وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَنْصَارِ؛ وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ؛ إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ بِالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا، وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ مَثْوَاهُمَا، حَتَّى لَا يَكَادُ يُتَصَوَّرُ عَنْهُ

15

(1) ج: يُذَكَّرُ (ب) ل: الْأَمْصَارُ .

مُتَنَوِّهًا، وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الْآدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا. فَهَذَّبْتُ مَنَاجِيَهُ^(أ) تَهْذِيبًا، وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيبًا، وَسَلَكْتُ فِي تَبْوِيهِهِ وَتَرْتِيبِهِ مَسْلَكًا غَرِيبًا، وَاخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْمَنَاحِي مَذْهَبًا عَجِيبًا، وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأُسْلُوبًا، وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ وَالتَّمَدُّنِ وَمَا يَغْرِضُ فِي الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِي مِنَ الْأَعْرَاضِ الذَّاتِيَّةِ مَا يُمْتَنِعُكَ بِعِلَلِ الْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا، وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أُنُوبِهَا، حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ ، وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا^(ب) قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ .

[17]

وَرَبَّيْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةِ ، / وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ:

المُقَدِّمَةُ : فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ ، وَالْإِلْهَامِ بِمَغَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ .
 10 الْكِتَابُ الْأَوَّلُ : فِي الْعُمَرَانِ ، وَذَكَرَ مَا يَغْرِضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ ، مِنَ الْمُلْكِ ، وَالسُّلْطَانِ ، وَالْكَسْبِ ، وَالْمَعَاشِ ، وَالصَّنَائِعِ ، وَالْعُلُومِ ، وَمَا لِنَدِكَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

الْكِتَابُ الثَّانِي : فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ .
 وَفِيهِ الْإِلْمَامُ بِبَغْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدَوْلِهِمْ ، مِثْلَ
 15 النَّبَطِ ، وَالسَّرِيزِيِّينَ ، وَالْفُرْسِ ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَالْقَبِيطِ ،
 وَيُونَانَ ، وَالرُّومِ^(ج) .

الْكِتَابُ الثَّلَاثُ : فِي أَخْبَارِ الْبَرَبْرِ ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ زَنَاتَةٍ ، وَذِكْرُ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ بِدْيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلْكِ وَالْأَمْرِ .

(أ) ج ع : مباحته (ب) ج : من (ج) في ع ، ج ، أضيف اسم: الترك .

ثم كانت الرحلة إلى المشرق، لاجتلاء أنواره، وقضاء الفرض والسنة في
مطافه ومزاره، والوقوف على آثاره، في دواوينه وأسفاره؛ فأفدت ما تقصني من
أخبار ملوك العجم بتلك الديار، ودول الترك فيما ملكوه من الأقطار، وأتبعْتُ بها ما
كتبته في تلك الأسطار، وأدرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الأنبيال من أمم النواحي،
وملوك الأمصار منهم والضواحي؛ سالكاً سبيل الاختصار والتلخيص، مُقتدياً⁽¹⁾ بالمرام
السَّهل من العويص، داخلاً من باب الأنساب على العموم إلى الأخبار على
الخصوص. فاستوعب^(ب) أخبار الخليقة استيعاباً، وذلَّل^(ب) من الحكم الثائرة صعباً،
وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً، وأصبح للحكمة صواناً وللتاريخ جراباً.

ولما كان مُشتملاً على أخبار العرب والبربر، من أهل المدير والوهر، والإمام
[7ب] بمن عاصرهم من الدول الكبرى، / وأفصح بالذكرى والعبر، في مُبتدئ^(ج) الأخوال
وما بعدها من الخبر، سميته :

كتاب^(د) العبر، وديوان المُبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم^(هـ)
والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر

ولم أترك شيئاً في^(و) أولية الأنبيال والدول، وتعاصر الأمم الأولى، وأسباب
التصرف والجول، في القرون الخالية والمِلل، وما يَعرِض في العمران من دولة
15

(1) ج : مقتدياً (ب) في ج، ع: فاستوعب، وأذلَّل (ج) ل: مبادئ، وفي ع مثله، ومعدلة في الحاشية بخط المؤلف إلى:
مبتدئ (د) في ج، ل: كتاب عنوان العبر (هـ) جاء اسم "العجم"، مستدرَكاً في حاشية ع بخط المؤلف، وسقط من ي
(و) ل: من .

ومِلَّةٌ، ومَدِينَةٌ وَحِلَّةٌ ، وَعِزَّةٌ وَذِلَّةٌ ، وَكَثْرَةٌ وَقِلَّةٌ ، وَعِلْمٌ وَصِنَاعَةٌ ، وَكَسْبٌ
وَإِضَاعَةٌ، وَأَحْوَالٌ مُتَقَلِّبَةٌ مُشَاعَةٌ ، وَبَدْوٌ وَحَضَرٌ، وَوَاقِعٌ وَمُنْتَظَرٌ ، إِلَّا وَاسْتَوْعَبْتُ
جُمْلَهُ ، وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِينَهُ وَعِلَلَهُ . فجاء هذا الكتابُ فذاً بما ضَمَّنْته من العلوم
الغريبة، والحكم المحجوبة القريبة . وأنا من بعدها مُوقِنٌ بالقُصور، بَيْنَ أَهْلِ الْعُصُورِ؛
5 مُعْتَرِفٌ بِالْعَجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ ، فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ^(١)، رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ ،
وَالْمَعَارِفِ الْمُنْتَسَعَةِ الْقَضَاءِ، النَّظَرِ^(ب) بَعَيْنِ الْاِثْتِقَادِ لَا بَعَيْنِ الْاِزْتِضَاءِ، وَالتَّغَمَّدِ لَمَّا
يَعْتُرُونَ عَلَيْهِ، بِالْإِضْلَاحِ وَالْإِعْضَاءِ . فَالْبِضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُزْجَاةٌ، وَالْاِعْتِرَافُ
مِنَ اللَّؤْمِ مَنَجَاةٌ، وَالْحُسْنَى مِنَ الْإِخْوَانِ مُزْتَجَاةٌ . وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً
لِوَجْهِهِ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

10 * (ج) وَبَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ ، وَأَنْزَلْتُ مِشْكَاةَهُ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ وَأَذْكَيْتُ
سِرَاجَهُ، وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ، وَأَوْسَعْتُ فِي قَضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ،
وَأَذَرْتُ سِيَاجَهُ . طَفِيفْتُ أَرْتَادُ لَهُ الْمَحَلَّ الَّذِي يَتَكَفَّلُ بِرِفْعَةِ شَأْنِهِ ، وَيُمَهِّدُ لَهُ أَكْنَافَ
الرِّضَى وَالرِّضْوَانِ فِي مَقَاصِرِ إِيْوَانِهِ ، / وَيُثَبِّتُ لَهُ حُظُوظَ الْعِنَايَةِ فِي مَرَامِ دِيْوَانِهِ، [١٨]
وَيُخَبِّئُ لَهُ ذَخَائِرَ الْمَبَرَّةِ فِي مُودَعِهِ وَصَوَانِهِ. فَتَوَجَّهْتُ بِأَحْسَنِ شَيْئَاتِهِ، وَدَعَوْتُهُ بِالظَّاهِرِيِّ،
15 اشْتِقَاقاً مِنْ أَشْرَفِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِلْيَةٍ تُضْفِي مَلَائِسَ السَّعَادَةِ وَالْبَحْثِ مِنْ
سَعَادَةِ هَذَا اللَّقَبِ وَسِمَاتِهِ ؛ اقْتِدَاءً بِمَنْ سَلَفَ قَبْلِي فِي نَسْبِ الْكِتَابِ إِلَى صَاحِبِ
عَصْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَمِيقَاتِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ آيَاتُهُمْ فِي الْمُلْكِ دُونَ آيَاتِهِ . وَجَلَّوْتُهُ فِي

(١) كذا في ظ، ع، ي، وفي ل، ج: القضاء (ب) ع، ج: في النظر (ج) من هنا إلى آخر نص الإهداء المحصور بين النجمين، كما تردت به نسخة الظاهري "ظ".

مواقفه الشريفة مُلتَمِحاً أشيعة القبول من لحظاته السعيدة ولمحاته ، فصار اسمه :

الظاهري في العبر ، بأخبار العرب والعجم والبربر

وأهديته إلى خزانته العالية ، وإنه من نعيمه وحسناته ، ومما أعان عليه كفايته
المهم ، حتى تفرغت لتدوينه وإثباته ، وجمع مفرقه ونظم شتاته ، وصان ونجى عن
ابتذاله للخلق والتفاته ، وغمرني بما يغجز الشكر من جزيل هباته ، فأنا أبوء بنعمته
5 لمن يجازي المحسن على ذراته ، فضلاً عن ثرائه ، وأبتهل بالدعاء له ابتغال المخلص
في عرفاته ، وهو مولانا السلطان الملك الظاهر ، العزيز القاهر ، العادل الظاهر ،
القائم بأمر المسلمين عندما أغيا حملها الأكتاد ، وقطب دائرة الملك الذي أطلع
الله من حاشيته الأبدال وأثبت الأوتاد ، ومُنق أسواق العز بما أنفق فيها ، من
10 جميل نظره ، المذخور والعتاد ، رحمة الله الكافلة للخلق ، ويداه المبسوطتان بالأجل
والرزق ، وظله الواقي للعباد بما اكتنفهم من العدل والحق ، قاصم الجبايرة ، والمعفي
على آثار الأعظم من القياصرة ، وذوي التيجان من التبابعة والأكاسرة ، أولى
الأقيال والأساور ، وحائز قصب السبق بين الملوك عند المناصلة والمفاخرة ،
ومفوض الأمور بإخلاصه إلى ولي الدنيا والآخرة ، الذي استوى بعزمه الثاقب ،
15 / ورأيه الكريم المناقب ، الحميد العواقب ، على كرسي الملك ، وانتظمت عقود
[8 ب] الدول في لبات الأيام فكانت دولته واسطة السلك ، وجمع الله له الدين بولاية
الحرمين ، والدنيا بسُلطان الترك ، وأجزى له أنهار مضر بالماء والمال فكان فخاره
فيها بالعدل في الأخذ والتترك ، وجمع عليه قلوب العباد فشهد سيرها بمحبة الله له
شهادة خالصة له من الرتب بريئة من الشك . مؤيد كلمة الموحدين ، ورافع دعائم

الدين ، وظهير خلافة المؤمنين ، سلطان المسلمين أبو سعيد صدق الله فيما
يبتغي من الله ظنونه ، وجعل النصّر ظهيره كما جعل السعد قرينه ، والعزّ خديته ،
وكان وليه على القيام بأمر المسلمين ومعيته ، وبلغ الأمة في اتصال أيامه ودوام
سلطانه ما يرجونه من الله ويؤملونه. والمواقف السلطانية - إن شاء الله - بنظرها
5 الشّريف ، وفضلها الغني عن التعريف ، تُوطي له من القبول مهاداً ، وتُفسح له في
جانب الرضوان آماداً ، فتوضح له أدلة على الولاء والخلوص وإشهاداً ، ففي سوقها
تتفق بضائع الكتاب ، وعلى حضرتها تغكف ركائب العلوم والآداب ، ومن مدد
بصائرنا المنيرة نتائج القرائح والألباب .

وأنا وإن كنت بقصور البضاعة ، متأخراً عن الجماعة ، وشعور الهمة ، عيلاً
10 على الأئمة ، فسمحهم يغطي ويلجف ، ومواهب العفو والتجاوز يُنجف ، وإنما هي
رحمة من مولانا السلطان تخصّ كما تعم ، وتمحو شعث الإغفال والإهمال وتلم ،
وتكمل مواهب عطفه وجبره وتلم ؛ وقد ينتظم الدر مع المزجان ، وتلتبس العصائب
بالتيجان ، وتراض العراب المسومة على مسابقة الهجان ، / والكّل في نظر مولانا
[19] السلطان وتصريفه ، والأهلية بتأهيله والمعرفة بتغريفه ، وقوام الحياة والآمال بلطائف
15 إحصائه وصنوفه. والله يوزعنا شكر معروفه ، ويحمي حماه من غير الدهر وصروفه ،
ويقيء على ممالك الإسلام ظلال أعلامه ورماحه وسيوفه ، ويريه قرّة العين في
نفسه وبنيه وحاشيته وذويه وخاصته ولفيفه ؛ بمنّ الله وفضله⁽¹⁾ .

(1) انتهى نص الإهداء الذي تردّث به نسخة ط .

فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّأْرِيخِ، وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ، وَالْإِلْمَاعِ بِمَا يُعْرِضُ
لِلْمُؤَرِّخِينَ مِنَ الْمَغَالِطِ وَالْأَوْهَامِ، وَذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا

اعْلَمْ أَنَّ قَنَ التَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ ، جَمُّ الْفَائِدَةِ ، شَرِيفُ الْغَايَةِ ؛ إِذْ هُوَ
يُوقِنُنَا عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ ، وَالْأَنْبِيَاءِ فِي سَيْرِهِمْ ، وَالْمُلُوكِ فِي
دَوْلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ؛ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الْاِقْتِدَاءِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ الدِّينِ
وَالدُّنْيَا. فَهُوَ مُخْتِاجٌ إِلَى مَا خِذَ مُتَعَدِّدَةً، وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةً ، وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ،
يُفَضِّلَانِ بِصَاحِبَيْهَا إِلَى الْحَقِّ، وَيُنْكَبَانِ بِهِ عَنِ الْمَزَلَّاتِ وَالْمَغَالِطِ، لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِذَا
اعْتَمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ الثَّقَلِ ، وَلَمْ تُحْكَمْ أَصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمُرَانِ
وَالْأَحْوَالِ فِي الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَلَا قِيَاسَ الْغَائِبِ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ ، وَالْحَاضِرِ
بِالذَّاهِبِ، فَرَبَّمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهَا مِنَ الْعُثُورِ، وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ، وَالْحَيْدُ عَنْ جَادَةِ الصَّدَقِ .

وَكثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْمَفْسِّرِينَ وَأُئِمَّةِ الثَّقَلِ الْمَغَالِطُ فِي الْوَقَائِعِ، لِاعْتِمَادِهِمْ
فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ الثَّقَلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا، لَمْ يُعْرِضُوهَا عَلَى أَصُولِهَا، وَلَا قَاسُوهَا
بِأَشْبَاهِهَا، وَلَا سَبَرُوهَا بِمِغْيَارِ الْحِكْمَةِ، وَالْوَقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ، وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ
وَالْبَصِيرَةِ فِي الْأَخْبَارِ . فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ ، وَتَاهُوا فِي تَيِّدَاءِ الْوَهْمِ وَالْغَلْطِ ؛ سَيِّئًا فِي

إِخْصَاءُ الْأَعْدَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ ، إِذْ هِيَ مَظَنَّةُ الْكَذِبِ وَمَظَنَّةُ الْهَذَرِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الْأَصُولِ ، وَعَرَضُهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ .

وهذا كما نَقَلَ الْمَسْعُودِيُّ⁽¹⁾ / وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَّ [10] موسى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَخْصَاهُمْ فِي التَّيِّهِ بَعْدَ أَنْ أُجَازَ مِنْ يُطِيقُ حَمْلَ السَّلَاحِ ، خَاصَّةً مِنْ ابْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا ، فَكَانُوا سِتِّمِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . 5

وَيَذْهَلُ فِي ذَلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَاتِّسَاعِهَا لِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجُيُوشِ ، فَلِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةٌ مِنَ الْحَامِيَةِ تَنْسَعُ لَهَا ، وَتَقُومُ بِوِظَائِفِهَا ، وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا ؛ تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ .

ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجُيُوشِ الْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ ، يَتَّعِدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا 10 رَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لَضِيقِ سَاحَةِ الْأَرْضِ عَنْهَا ، وَبُعْدِهَا إِذَا اضْطَلَّتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثًا أَوْ أَزِيدَ ؛ فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ ، أَوْ تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ الصَّفَيْنِ ، وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرِ؟ وَالْحَاضِرُ يَشْهَدُ لَذَلِكَ ؛ فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ .

وَلَقَدْ كَانَ مُلْكُ الْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ مُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ ؛ يَشْهَدُ 15 لَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بُخْتَنْصَرٍ لَهُمْ ، وَالتَّيَّاهِمِ بِلَادِهِمْ ، وَاسْتِيلَايِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ ، وَتَخْرِيبِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَاعِدَةَ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ ، وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَالِ مَمْلَكَةِ فَارِسٍ ؛ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانَ الْمَغْرِبِ مِنْ تَخُومِهَا . وَكَانَتْ مَمَالِكُهُم بِالْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَمَا

(1) مروج الذهب 1: 54 (87) و 2: 369 (1347) يذكر أن جميع من كان مع بني إسرائيل في التَّيِّهِ سِتِّمِائَةَ أَلْفٍ بِالْغِ فِي آخِرِينَ .

وراء النهز والأبواب أوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير. ومع ذلك فلم تبلغ جيوش
الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه . وأعظم ما كانت جُوعُهم بالقادِسيَّة مائة
وعشرين ألفاً كلهم مَثْبُوعٌ ، على ما نقله سيف ؛ قال : وكانوا في أثباعهم / أَكْثَرُ مِنْ
مِائَتِي أَلْفٍ. وعن عائِشة⁽¹⁾ والزُّهريّ: أَنَّ جُمُوعَ رُسُومِ الَّتِي رَحَفَ بِهَا لِسَعْدٍ بِالْقَادِسيَّةِ
إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا ، كُلُّهُمْ مَثْبُوعٌ .

5

وأيضاً ، فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد ، لانتسَعِ نطاقُ مُلكهم وانفسَحَ
مَدَى دَوْلَتهم ؛ فَإِنَّ الْعَمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ فِي الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا
فِي قَلَّتِهَا وَكَثُرَتِهَا؛ حَسَبِهَا يَتَّبِعُونَ فِي فَضْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ. وَالْقَوْمُ لَمْ تَنْسِغْ
مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأَرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ ، وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ ، عَلَى
مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ .

10

وأيضاً فالَّذِي بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ؛
فإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهِثَ بَفَتْحِ الْهَاءِ أَوْ كَسْرِهَا ، ابْنُ لَاوِي بِكَسْرِ اللَّامِ أَوْ
فَتْحِهَا ، ابْنُ يَعْقُوبَ ، وَهُوَ إِسْرَائِيلُ اللَّهُ ، هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَةِ؛ وَالْمُدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى
مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ⁽²⁾ ، قَالَ: دَخَلَ إِسْرَائِيلُ مِصْرَ مَعَ وَلَدِهِ الْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أُتُوا إِلَى
يُوسُفَ ، سَبْعِينَ نَفْسًا؛ وَكَانَ مُقَامُهُمْ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ،

15

(1) الطبري 3: 505 وفيه سند سيف بن عمر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، ولم تقف على خبر الزُّهري.

(2) لم يرد في المروج هذا الخبر عن مقام إسرائيل وأولاده الأسباط في مصر إلى خروجهم إلى التيه . وأشار أنه أتى على خبر يوسف في الكتاب الأوسط فقد يكون فيه . ونسخته غير موجودة . مروج الذهب 2: 86 (809).

إلى التيه ، مائتين وعشرين سنة ، يتداولهم ملوك القنيط من الفراعنة؛ ويَبْعُدُ أن
يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ في أربعة أجيال إلى مثل ذلك العدد .

وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده، فبَعِيدٌ
أيضاً ؛ إذ ليس بينَ سليمان وإسرائيل إلا أحدَ عَشَرَ أباً ؛ فإنه سليمان بن داود ، بن
إيشائي، بن عوبد، ويقال عوفد، بن باعز، [ويقال بُوعز]^(أ) بن شلمون بن نحشون،
ابن عميناذب ويقال حميناذب^(ب) بن دام^(ج) بن حضرون^(د) ويقال حَسْرُون، بن
بارس، ويقال بيرس، بن يهوذا، بن يعقوب. ولا يتشعب النسل في أحد عشر من
الولد / إلى مثل هذا العدد الذي زعموه ؛ اللهم إلى المئتين والألوف^(هـ) قريباً يكون ؛
وأما أن يتجاوزَ إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبَعِيدٌ .

واعتبر ذلك في الحاضر الشاهد والقريب المعروف، تجد زعمهم باطلاً ونقلهم
كاذباً ؛ والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة ،
وأن مقرباته^(د) كانت ألفاً وأربعمائة فارس مُرتبطة على أبوابه^(ز) . هذا هو الصحيح من
أخبارهم ، ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم ، وفي أيام سليمان عليه السلام كان
عُنفوان دولتهم واتساع ملكهم .

هذا ، وقد تجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر
الدول التي لعهدهم أو قريباً منه، وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى،
أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخزج السلطان، ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء

(أ) من ل (ب) في ل مكانه، ويقال: بجاء مكان العين المهملة أوله (ج) في ل: رام (د) في: ي ل ج ع: حضرون (هـ) ي
ل: الآلاف (و) ظ ، بتشديد الراء المفتوحة خطأ (ز) في ج: أبوابه .

الموسرين؛ توغلوا في الغدد، وتجاوزوا حدود العوائد، وطاوعوا وساوس الإغراب. فإذا استكشف أصحاب الدواوين عن عساكرهم، واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم، واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم، لن تجد مغشار ما يعدونه . وما ذلك إلا لولوع النفس بالغزابة ، وسهولة التجاوز على اللسان، والغفلة عن المعقب والمتقيد؛ حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد، ولا يطالبها في الخبر 5 بتوسط ولا عدالة، ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش؛ فيرسل عنائه، ويسيم في مراتع الكذب لسانه، ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الحق؛ وحسبك بها صفقة خاسرة .

[وقد يقال إن العوائد إنما تمنع من نمو الذرية إلى مثل هذا العدد في غير بني إسرائيل، لأن ذلك كان معجزة على ما نقل أنه كان فيما أوجي إلى آبائهم من 10 الأنبياء، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، صلوات الله عليهم، أن الله يكثر ذريتهم حتى تكاثر نجوم السماء وخصى الأرض؛ وأنجز الله لهم هذا الوعد كرامة لهم⁽¹⁾، ومعجزة خارقة للعادة في حقهم، فلا تعترضه العوائد، ولا يطعن فيه.

وهو وإن كان أحق بالطعن على خبر ذلك ، وأنه إنما ورد في التوراة، واليهود قد بدلوها على ما هو معروف، فالقول بهذا التبديل مزجوح عند المحققين، 15 وليس على ظاهره، لأن العادة مانعة من اعتماد أهل الأديان ذلك في صحتهم الإلهية، كما ذكره البخاري في صحيحه . فيكون هذا النمو الكثير في بني إسرائيل معجزة خارقة للعادة، وتبقى العادة مانعة من ذلك في غيرهم على حكم دلالتها.

(1) في الأصل ع : بهم

وأما استبعاد الرّخف بينهم فصحيح، لكنه لم يقع ولم تدع إليه حاجة. واختصاص كل مملكة بعددها من الحامية صحيح، وبنو إسرائيل لم يكونوا أولاً حامية، ولم تكن لهم دولة، وإنما نموا هذا الثّمور ليستثو [لوا] على أرض كنعان التي وعدهم الله بها، وظهر لهم بضعها؛ وكل هذه معجزات. والله الهادي إلى الحق⁽¹⁾.

5 ومن الأخبار الواهية للمؤرخين، ما ينقلونه كافة في أخبار التّبايعه ملوك

اليمن وجزيرة العرب، أنهم كانوا يغزون من قرارهم باليمن إلى إفريقيّة والبربر من بلاد المغرب، وإلى التّرك وبلاد الثّبت من بلاد المشرق، وأن إفريقيس بن قيس بن صيفي من أعظم ملوكهم الأول، وكان لعهد موسى، عليه السّلام، أو قبله بقليل، غزا إفريقيّة وأنحن في البربر، وأنه الذي سمّاهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم، وقال:

10 ما هذه / البربر؟!، فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا من يومئذ به^(ب)؛ وأنه لما انصرف [11ب]

عن المغرب، جمر هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها [واختلطوا بأهلها]^(ج)، ومنهم صنهاجة وكنّامة. ومن هذا ذهب الطّبري⁽¹⁾ والجرجاني⁽²⁾ وابن الكلبي⁽³⁾ والبيهقي إلى أن صنهاجة وكنّامة من حمير؛ وأباه نسبة البربر، وهو الصحيح.

(1) علق ابن خلدون بخطه إضافة مطولة في حاشية ع (عاطف مصطفى)، ثم ألقى أكثرها بالنّطب، واستبقى هذا النص، وأشار إلى موقعه بعلامة الإخراج الموجهة إليه. والمؤكد أن المؤلف كتب هذا بعد نهاية القرن الثامن؛ لأن الأصول المعتمدة الأخرى لم تنقله عنه. وظهر في نسخة التيمورية التي نقلت الأصل ع متأخراً، وفيها بعض التحريف في القراءة، وأخطأت في ربط هذه الزيادة بموقعها، فأدرجتها في الحاشية (التيمورية 15 أ) (ب) في ل ع ج: به من يومئذ (ج) من ع ل ج .

(1) تاريخ الطبري 1 : 442 .

(2) المروج 2 : 244 (1104) ذكر أنهم اتجهوا إلى المغرب بعد الطوفان .

(3) ابن السائب الكلبي : نسب معد واليمن الكبير 2 : 548 .

وذكر المسعودي⁽¹⁾ أيضا أن ذا الأذعار من ملوكهم بعد إفريقس ، وكان على عهد سليمان [عليه السلام]⁽¹⁾ غزا المغرب ودوّخه ؛ وكذلك ذكر⁽²⁾ مثله عن ياسر ابنه من بغده ، وأنه بلغ وادي الرّمل من بلاد المغرب ، ولم يجذ فيه مسلّكا لكثرة الرّمل ، فرجع .

وكذلك يقولون في تَبَع الآخر⁽³⁾ ، وهو أسعد أبو كَرِب ، وكان على عهد 5 يستأسب من ملوك الفُرس الكينية ، إنه ملك الموصل وأذربيجان ، ولقي التُّرك فهزّمهم وأُخِنَ فيهم ؛ ثم غَراهم ثانية وثالثة كذلك ، وإنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيهِ إلى بلاد فارس ، وإلى بلاد الصُّغد من أُمَم التُّرك فيما وراء النهر ، وإلى بلاد الرّوم ؛ فملك بالأوّل البلادَ إلى سَمَرْقَنْد ، وقطع المفازة إلى الصين ، فوجد أخاه الثاني 10 الَّذِي غَرا إلى الصُّغد قد سَبَقَه إليها ، فَأَتَتْحَنَا في بلاد الصين ورجعا جميعاً بالغنائم ، وتركوا في بلاد الثُّبَّت قبائل من جَمِير⁽⁴⁾ ، فهم بها لهذا العهد ، وبلغ الثالث إلى قُسطنطينية فحاصرها ودوّخ بلاد الرّوم ، ورجع .

وهذه الأخبارُ كلّها بعيدة عن الصّحة ، وعريقة^(ب) في الوهم والغلط ، وأشبهه بأحاديث القصاص الموضوعّة .

(أ) من ع (ب) واو العطف ساقطة في ع .

(1) المروج 2 : 197 (1002) .

(2) المصدر نفسه 2 : 209 (1028) ، والطبري 1 : 566 قال : فزعم أهل اليمن .

(3) تاريخ الطبري 1 : 566 .

(4) المصدر نفسه 1 : 567 .

وذلك أن مُلْك التَّابِيعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَقَرَارُهُمْ وَكُرْسِيُّهُمْ بِصَنْعَاءَ
الْيَمَنِ ، وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا: فَبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ ؛
وَبَحْرُ فَارِسَ ، الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ ، مِنَ الْمَشْرِقِ ؛ وَبَحْرُ السَّوَيْسِ ، الْهَابِطُ مِنْهُ
أَيْضاً إِلَى السَّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ ، مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ ؛ كَمَا تَرَاهُ فِي مُصَوِّرِ جُغْرَافِيَا ؛
5 فَلَا يَجِدُ السَّالِكُ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقاً مِنْ غَيْرِ السَّوَيْسِ ، وَالْمُسْلِكُ هُنَاكَ
ما بين بَحْرِ السَّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ / قَدَرُ مَرَحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا . وَيَتَعَدُّ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا
الْمُسْلِكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَصِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِ ؛ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي
الْعَادَةِ ، وَقَدْ كَانَ بَتْلُكَ الْأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةُ وَكُنْعَانُ بِالشَّامِ ، وَالْقَبْطُ بِمِصْرَ . ثُمَّ مَلِكُ
الْعَمَالِقَةِ مِصْرَ وَمَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الشَّامَ ؛ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّابِيعَةَ حَارَبُوا أَحَداً مِنْ
10 هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ ، وَلَا مَلَكَوا شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ .

وَأَيْضاً فَالْشُّقَّةُ مِنَ [الْيَمَنِ] ^(١) إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ ، وَالْأَزُودَةُ وَالْعُلُوفَةُ
لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ ؛ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ اخْتَجَاجُوا إِلَى انْتِسَافِ الزُّرُوعِ وَالنَّعْمِ
وَانْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمْرُونَ عَلَيْهِ . وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ لِلْأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَةِ عَادَةً ؛ وَإِنْ نَقَلُوا
كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَلَا تَقْبِي لَهُمُ الرُّوَاجِلُ بِنَقْلِهِ ؛ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمْرُوا فِي
15 طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكَوْهَا وَدَوَّخَوْهَا ، لِتَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا . وَإِنْ قَلْنَا إِنَّ تِلْكَ
الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهِيَجَّهُمْ فَتَحْصُلَ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالمُسَالَمَةِ ، فَذَلِكَ
أَيْضاً أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعاً ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ .

(١) من : ل ع ج ، وفي ظ : البحر .

وأما وادي الرَّمْل الذي يُعْجِزُ السَّالِكَ ، فلم يُسْمَعْ قطّ ذكره في المغرب على كثرة سالكيه ، وَمَنْ نَقَضَ طُرُقَه من الرِّكَّاب والغُزَى في كلِّ عَصْرٍ وكلِّ جَمْعَةٍ ؛ وهو على ما ذكره من الغرابة مما تنوَّع الدَّواعي على نقله .

وأما غَزْوُهم بلاد المشرق وأرض التُّرك ، وإن كانت طريقه أوسع من مَسْلَك السَّوَيْس ، إلا أن الشُّقَّةَ هنا أبعد ، وأتم فارس والروم مُعْتَرضون فيها دون التُّرك . 5 ولم يُنْقَل قطّ أن التَّابِعة مَلَكُوا بلادَ فارس ولا بلادَ الروم ؛ وإنما كانوا يُجَارِبُونَ أَهْلَ فارس على حُدُودِ أرض العراق وبلاد العرب ، ما بين البُخْرَيْن والحِيرة ، لِلْمُتَاخَمَةِ بَيْنَهُمَا في الأَعْمَال . وقد وقع ذلك بَيْنَ ذِي الأَذْعَارِ [مِنْهُمْ] ^(أ) وَكَيْقَاوَسٍ مِنْ مُلُوكِ الْكَيْنِيَّةِ ، وَبَيْنَ تَبَعِ الْأَصْغَرِ أَبُو كَرِب ^(ب) ، وَيَسْتَأْسِبُ مِنْهُمْ أَيْضاً ، وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَاتِفِ بَعْدَ الْكَيْنِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ ؛ فَمَجَاوِزَةُ التَّابِيعَةِ أَرْضُ فَارِسَ بِالْغَزْوِ 10 [12ب] / إلى بلاد التُّرك والتَّبَتُّ مُمْتَنِعٌ عَادَةً ، [مِنْ أَجْلِ الأُمِّ الْمُعْتَرضَةِ دُونَهُمْ] ^(ج) ، وَالحَاجَةُ ^(د) إلى الأَزُودَةِ وَالْعُلُوفَاتِ ، مَعَ بَعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ . فَالأَخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَذْخُولَةٌ ، وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً النَّقْلُ لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا ؛ فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ .

وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ ⁽¹⁾ [فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسَ وَالْحَزْرَجَ] ^(هـ) أَنَّ تَبَعًا الْآخِرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولًا عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ . وَأَمَّا بِلَادُ التُّرك وَالتَّبَتُّ فَلَا 15 يَصِحُّ غَزْوُهم إِلَيْهَا بِوَجْهِ لَمَّا تَقَرَّرَ . فَلَا تَتَّقِنُ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ ، وَتَأْمَلُ الْأَخْبَارَ

(أ) من: ع (ب) كذا في الأصول على بناء الاسم على الرفع (ج) من: ع (د) في ظ: بالحاجة (هـ) من: ج ل .

(1) السير والمغازي 52 .

واغرضها على القوانين الصحيحة يَقَعُ لك تَمَحِيصُهَا بأحسن وجه. والله الهادي إلى الصواب.

1. [فَضْلٌ ⁽¹⁾] :

وأبعدُ من ذلك وأغرقُ في الوهم ، مَا يتناقله المفسِّرون في تفسِيرِ سُورَةِ
5 الفجر، في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ [سورة الفجر،
الآية 6، 7]، فيتجعلون لَفْظَةَ إِرَمَ اسْمًا لمدينةٍ وُصِفَتْ بأنها ذات العِمَادِ، أي الأساطين.
ويتقلون أنه كان لعَادِ بن عوص بن إرم ابنان، هما شديدٌ وشَدَاد، مَلَكًا مِنْ بَعْدِهِ،
وهلِكَ شديدٌ فخلَصَ الملك لشَدَاد، ودَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ. وسمعَ وَصَفَ الْجَنَّةِ، فقال:
لَأَبْنِيَنَّ مِثْلَهَا ؛ فبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةِ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ ، وكان عُمُرُهُ
10 تسعمائة سنة . وإنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ ، قُصُورُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَسَاطِينُهَا مِنَ
الزَّبَرَجَدِ وَالْيَاقُوتِ، وَفِيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالْأَنْهَارِ الْمَطْرَدَةِ؛ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا
بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَنِيعَةً مِنَ
السَّمَاءِ، فَهَلَكُوا. ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ ⁽¹⁾ وَالتَّعَالِبِيُّ ⁽²⁾ وَالزَّمَخْشَرِيُّ ⁽³⁾، وَغَيْرُهُمْ مِنَ
المفسِّرين.

(1) سقط هذا الفصل من الظاهري ، وأثبت في : ل ج ع ي .

(1) جامع البيان 30 : 212 وما بعدها .

(2) كذا في الأصول، ويعني به أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المفسر المتوفى سنة 427هـ/

1035م ، وتفسيره الكشف والبيان في تفسير القرآن ، غير مطبوع .

(3) الكشف عن حقائق التنزيل 4 : 750 - 751 .

وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قِلَابَةَ⁽¹⁾ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبْلِ لَه
فَوَقَعَ عَلَيْهَا، وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، وَبَلَغَ خَبْرَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَخْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ؛
فَبَحَثَ عَنْ كَتِّبِ الْأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: هِيَ إِرْمُ ذَاتِ الْعِمَادِ، وَسَيَدْخُلُهَا
رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِكَ، أَحْمَرُ أَشَقَرُ قَصِيرٌ، عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ، وَفِي عُنُقِهِ
خَالٌ، يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبْلِ لَه؛ ثُمَّ التَفَتَ فَأَبْصَرَ ابْنَ قِلَابَةَ فَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ
الرَّجُلُ. انْتَهَى.

وهذه المدينة لم يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمَئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ،
وَصَحَّارَى عَدَنَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ الْيَمَنِ، وَمَا زَالَ عُمَرَاءُ مُتَعاقِباً
وَالرُّكَّابُ وَالْأَدْلَاءُ تَنْفُضُ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبَرٌ،
وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ الْأَخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ الْأُمَمِ. وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دَرَسَتْ فِيهَا دَرَسٌ مِنْ
الْآثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ، إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ؛
بِنَاءً عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا. وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَذَا يُنْبِغُضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ عَنِ الْحِسِّ،
وَإِنَّمَا يَغْتَرُّ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ أَوْ السَّحَرَةِ؛ مَزَاعِمُ كُلِّهَا شَبِيهَةٌ بِالْخُرَافَاتِ.

وَالَّذِي حَمَلَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ، مَا اقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الْإِغْرَابِ فِي لَفْظَةِ ذَاتِ
الْعِمَادِ، مِنْ أَنَّهَا صِفَةُ إِرْمٍ، وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءً؛
وَرَشَّحَ لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزَّيْرِ: عَادِ إِرْمَ، عَلَى الْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَثْوِينٍ. ثُمَّ وَقَفُوا
عَلَى تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَقَاصِيصِ الْمَوْضُوعَةِ، [وَأَقْرَبَ لِنَفَاسِيرِ

(1) ليس بصحابي، وقد وهم المؤلف فيه، وهو يعني به عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي، أبا قِلَابَةَ
البصري، تابعي مات بالشَّام سنة 104هـ (تهذيب الكمال 14: 542، تقريب التهذيب 304).

سيفويه^(١) المنقولة في عداد المضحكات ؛ وإلا فالعباد هي عباد الحيام ، وإن أريد بها الأساطين فلا يدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم ، بما اشتهر من قوتهم ؛ لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير ، فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة ، وإلياس 5 مضر ، وزبيعة نزار ؛ من غير ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي يجلب لتوجيه أمثال هذه الحكايات الواهية التي تنزه كتاب الله [تعالى]^(ب) عن مثلها ، لبغدها عن الصّحة [ج] .

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ، ما ينقلونه كاقّة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصّة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مؤلاه ، وأنه لكلفه 10 بمكانها من معاقرته إياها الخمر ، أذن لها في عقد التكاكح دون الخلوة ، جزصاً على اجتماعها في مجلسه ، وأنّ العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به ، لما شغفها من حبه ، حتى واقعها - زعموا في حالة سُكرٍ - فحملت ، ووُشي بذلك للرشيد ، فاستغضب .

وهيات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبوتها وجلالها ، وأنها بنت عبد 15 الله بن عباس ، ليس يئنها ويئنه إلا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ؛ العباسة بنت محمد المهدي ، ابن عبد الله ، أبي جعفر المنصور ، ابن محمد السجاد ، ابن عليّ أبي الخلفاء ، ابن عبد الله تَرْجَمَان القرآن ، ابن العباس عم النبي ﷺ ؛ بنت خليفة أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة

(١) من : ل ع ج ، وسقط من ي ظ (ب) من : ل (ج) نهاية سقط الظاهري المستكمل من : ل ج ع ي .

الرَّسُولَ وَعُمُومَتِهِ ، وإِمَامَةَ الْمِلَّةِ ونورِ الْوَحْيِ وَمَهْبِطِ الْمَلَائِكَةِ من سائر جهاتها ؛
 قَرِيبَةً عَهْدٍ بِبِدَاوَةِ الْعُرُوِّيَّةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ ، الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ وَمَرَاتِعِ
 الْفَوَاحِشِ . فَأَيْنَ يُطَلَّبُ الصُّوْنُ وَالْعِفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا ؟ أَوْ أَيْنَ تَوَجَّدُ الطَّهَارَةُ
 وَالزَّكَاةُ إِذَا فُقِدَ مِنْ بَيْتِهَا ؟ وَكَيْفَ تُلْجَمُ نَسَبُهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يُحْيَى وَتُدْنَسَ شَرَفُهَا الْعَرَبِيُّ
 بِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ ؟ ! تَمْلِكُ جَدَّهُ مِنَ الْفُرْسِ أَوْ تَوْلَاهُ جَدُّهَا مِنْ عُمُومَةِ الرَّسُولِ 5
 وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتُهُمْ بَضْبِعِهِ وَضَبَعَ أَيْبِهِ ، وَاسْتَخْلَصَتْهُمْ
 وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ التَّشْرِيفِ . وَكَيْفَ يَسُوعُ مِنَ الرَّشِيدِ أَنْ يُضْهِرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ
 عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ ، وَعِظَمِ آبَائِهِ^(١) ؟ . وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِفِ ، وَقَاسَ
 الْعَبَاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ زَمَانِهِ ، لَاسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلَى مِنْ
 مَوَالِي دَوْلَتِهَا ، وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا ، / وَاسْتَنْكَرَهُ وَجَّحًا فِي تَكْذِيبِهِ ، وَأَيْنَ قَدَّرَ الْعَبَاسَةَ 10
 وَالرَّشِيدَ مِنَ النَّاسِ ؟

وَإِنَّمَا نَكَبَ الْبِرَامِكَةُ مَا كَانَ مِنْ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَاحْتِجَانِهِمْ أُمُوالَ
 الْجَبَايَةِ ، حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يُطَلَّبُ الْيَسِيرَ مِنَ الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ ، فَغَلَبُوهُ عَلَى
 أَمْرِهِ وَشَرَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ ، فَعَظُمَتْ
 آثَارُهُمْ وَبَعُدَ صَيِّتُهُمْ ، وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخُطَطَهَا بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وَلَدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ ، 15
 وَاخْتَارُوهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ : مِنْ وَزَارَةٍ ، وَكِتَابَةٍ ، وَقِيَادَةٍ ، وَجَبَابَةٍ ، وَسَيْفٍ ، وَقَلَمٍ .
 يَقَالُ إِنَّهُ كَانَ بَدَارَ الرَّشِيدِ مِنْ وَلَدِ يُحْيَى بْنِ خَالِدٍ ، خَمْسَةُ وَعِشْرُونَ رَئِيسًا
 مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ ، زَاحَمُوا فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَائِكِ ، وَدَفَعُوهُمْ

(١) ع: إِيَّائِهِ .

عنها بالزّاح ، لمكان أيهم ينجي من كفالة هارون ، وليّ عهد وخليفة ؛ حتّى شبّ في
 ججره ، ودرج من عُسّه ، وغلبه على أمره ، وكان يذعوه يا أبت ؛ فتوجّه الإيثار
 من السلطان إليهم ، وعظمت الدّالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم
 الوجوه ، وخضعت لهم الرّقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى
 5 الثخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء ، وتسربت إلى خزائهم - في سبيل التزلف
 والاستمالة - أموال الجباية ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء ،
 وطوّقوهم المِنَن ، وكسوا^(أ) من بيوتات الأشراف المغنم ، وفكّوا العاني ، ومَدَحوا بما
 لم يُمدح به خليفَتهم ، وأسَنُوا لغفاتهم الجوائز والضّلات ، واستولوا على القرى
 والضّياع من الصّواحي والأمصار في سائر الممالك ؛ حتّى آسفوا البطانة ، وأخفّدوا
 10 الخاصّة ، وأغصّوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المتافسة والحسد ، ودبت
 إلى مهادهم الوشير من الدّولة / عقارب السّعاية ، حتّى لقد كان بنو قحطبه أحوال
 جعفر من أعظم السّاعين عليهم ، لم تعطيهم - لما وقّر في نفوسهم من الحسد -
 عواطف الرّجيم ، ولا وزّعَهم أواصر^(ب) القرابة ، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشيء
 الغيرة ، والاستنكاف من الحجر ، والأنفّة ، وكامن الحقد التي بعثتها منهم صغائر
 15 الدّالة ، وانتهى بهم^(ج) الإضرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة . كقصّتهم في نجى بن
 عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، أخي محمد المهدي ، الملقّب
 بالنّفس الزكيّة ، الخارج على المنصور ؛ ونجى هذا هو الذي استنزله الفضل بن
 نجى من بلاد الدّيلم على أمان الرّشيد بحظّه ، وبذل لهم فيه ألف ألف ديزم على

(أ) ل ج ع : كسوا (ب) سقط من ج (ج) في : ل ج ع ي : جا .

ما ذكره الطبري⁽¹⁾ . ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظيره ،
 حبسه مدة ، ثم حملته الدالة على تخليته سبيله ، والاستبداد بحل عقاله ، حرماً
 ليماء أهل البيت بزعمه ، ودالة على السلطان في حكمه . وسأله الرشيد عنه لما
 وشي به إليه ، ففطن ، وقال : أطلقته؛ فأبدى له وجهة الاستيخسان وأسرّها في
 نفسه . فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه ؛ حتى ثلّ غزّهم ، وأكفيت عليهم 5
 سماءهم ، وخسفت الأرض بهم ودارهم ، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيّامهم .
 ومن تأمل أخبارهم ، واستقصى سير الدولة وسيرهم ، وجد ذلك مُحَقَّق
 الأثر ، مُمَهَّد الأسباب .

وانظر ما نقله ابن عبد ربّه⁽²⁾ في مُفَاوِضَةِ الرشيد عمّ جدّه داود بن عليّ في
 شَأْن تَكْبِتِهِمْ ، وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقد⁽³⁾ ، في مُحَاوَرَةِ الأَضْمَعِي 10
 للرشيد وللفضل بن يحيى في سَمَرِهِمْ ، تَتَبَّهَتْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلْتَهُمُ الْغَيْرَةُ وَالْمُنَافِسَةُ فِي الاستِئْذَانِ
 مِنَ الْخَلِيفَةِ فَمَنْ دُونَهُ . وكذلك ما تحيّل به أعداؤهم⁽⁴⁾ من البطانة فيما دَسَّوهُ لِلْمُغْتَنِّينَ
 مِنَ الشَّعْرِ ، اختيالاً على إسماعه للخليفة وتحريك حَفَائِظِهِ لَهُمْ ، وهو قوله⁽⁵⁾ : [من الرمل]

(1) تاريخ الرُّسُل والملوك 8 : 242 ، 289 .

(2) العقد الفريد 5 : 66 وفيه سَمِيَّ عمّ جدّ الرشيد "إسحاق" . ولا يوجد في أعيان جدّه اسم إسحاق هذا كما
 في جمهرة النسب لابن حزم (ص 20) في تعداد أبناء علي بن عبد الله بن عباس ، وهم : محمد ، سليمان ،
 داود ، عبد الله ، صالح ، عيسى ، عبد الصمد ، إسماعيل .

(3) العقد الفريد 5 : 309 - 317 .

(4) البيهقي : المحاسن والمساوي 2 : 80 .

(5) الشعر لعمر بن أبي ربيعة ، ديوانه 320 . الطبري 9 : 127 ورواية البيت الأول عنده :

وعدت هندٌ وما كانت تُعَدُّ ليت هنداً أنجزتنا ما تُعَدُّ

لَيْتَ هَذَا أَتَجَزَّتْ مَا تَعِدُ وَشَفَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَحِذُ
/ وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِيدُ

وَأَنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ : إِي وَاللَّهِ ، عَاجِزٌ ؛ حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْثَالِ هَذِهِ
كَامِينَ غَيْرَتِهِ ، وَسَلَطُوا عَلَيْهِمْ بِأَسْ أُنْتِقَامِهِ . نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَلْبَةِ الرِّجَالِ وَسُوءِ الْحَالِ .
5 وَأَمَّا مَا تُمَوِّهُ ⁽¹⁾ بِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مُعَاوَرَةِ الرَّشِيدِ الْخُمْرِ ، وَاقْتِرَانِ سُكْرِهِ بِسُكْرِ
النَّدَمَانِ ، فَخَاشَ اللَّهُ ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ [سورة يوسف ، من الآية 51] ، وَأَيْنَ
هَذَا مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ لِمَنْصِبِ الْخِلَافَةِ مِنَ الدِّينِ وَالْعَدَالَةِ ، وَمَا كَانَ
عَلَيْهِ مِنْ صِحَابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَمُحَاوَرَتِهِ لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَّاضٍ ، وَابْنِ السَّمَّالِ ،
وَالْعُمَرِيِّ ، وَمَكَاتِبَتِهِ سُفْيَانَ ، وَبِكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ ، وَدَعَائِهِ بِمَكَّةَ فِي طَوَافِهِ ، وَمَا كَانَ
10 عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَشُهُودِ الصُّبْحِ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا .

حَكَى الطَّبْرِيُّ ⁽¹⁾ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يَصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةٍ ؛ وَكَانَ يَغْزُو
عَاماً وَيَحْجُ عَاماً . وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنَ أَبِي مَرْزُومٍ مُضْجِكَةً سَمَرَهُ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ
فِي الصَّلَاةِ ، لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ ﴿ وَمَالِي لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [سورة يس ، من الآية 22] ،
قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَذْري لِمَ ؟ فَمَا تَمَّاكَ الرَّشِيدُ أَنْ ضَحِكَ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ مُغَضِباً ، وَقَالَ :
15 يَا ابْنَ أَبِي مَرْزُومٍ ، فِي الصَّلَاةِ أَيْضاً ؟ ! إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالدِّينَ ، وَلَكَ مَا شِئْتَ
بَعْدَهُمَا .

(1) ع : تَمَوِّهُ .

(1) تاريخ الرسل والملوك 8 : 349 .

وأيضاً، فقد كان من العلم والسداجة بمكان، لقرب عهده من سلفه المنتحلين
لذلك، ولم يكن بينه وبين جدّه أبي جعفر بعيدُ زمان ، إنّما خلفه غلاماً ، وقد كان أبو
جعفر بمكانٍ من العلم والدين قبل الخلافة وتبعدها ، وهو القائلُ لمالك حين أشار عليه
بتأليف الموطأ: يا أبا عبد الله، إنّهُ لم يَتَقَ على وَجْهِ الأرض أَعْلَمُ مِنِّي ومنك، وإنّي
قد شغلّني خلافةٌ ، فضع أنت للناس كتاباً يَنْتَفِعُونَ به ، تَجَنَّبَ فيه رُخْصَ ابنِ عباس ، 5
وشدائد ابنِ عمر ، ووَطْئُهُ للناس تَوَطِئَةً. قال مالك: فوالله لقد عَلَّمَنِي التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ .
ولقد أدركه ابنه المهديُّ أبو الرّشيد هذا وهو يَتَوَرَّعُ عن كِسْوة الجديد / لِعِيَالِهِ من يَتِ
[14 ب] المال. ودَخَلَ عليه يوماً وهو بمجلسه يُبَاشِرُ الخِطَاطِينَ في إِزْقَاعِ الخُلُقَانِ من ثياب
عِيَالِهِ ، فاستنكف المهديُّ من ذلك، وقال : يا أمير المؤمنين، عَلَيَّ كِسْوةُ هذه العِيَالِ
غَافِماً هذا من عَطَائِي، فقال: لك ذلك، ولم يَصُدَّهُ عَنْهُ ، ولا سَمَحَ بالإِنْفَاقِ من أَمْوَالِ
10 المُسْلِمِينَ. فكيف يَلِيقُ بالرّشيد على قُرْبِ العَهْدِ من هذا الخليفة وأبوته ، وما رِبِي
عليه من أَمْثَالِ هذه السَّيْرِ في أَهْلِ بَيْنَتِهِ ، والتَّخَلُّقِ بِهَا ، أَنْ يُعَاقِرَ في الحَمْزِ أو يُجَاهِرَ
بِهَا ، وقد كانت حَالُ الأَشْرَافِ من العَرَبِ الجَاهِلِيَّةِ في اجْتِنَابِ الحَمْزِ مَعْلُومَةً ، ولم تكن
الكَرْمُ شَجَرَتَهُمْ ، وكان شَرِبُهَا مَذْمُومَةً عند الكثير منهم ؛ والرّشيدُ وآبَاؤُهُ كانوا على تَبَجٍّ من
15 اجْتِنَابِ المَذْمُومَاتِ في دينهم ودُنْيَاهُمْ ، والتَّخَلُّقِ بِالْحَمَامِدِ وَأَوْصَافِ الكَمَالِ وَنَزَعَاتِ العَرَبِ .
وانْظُرْ ما نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ ⁽¹⁾ والمَسْعُودِيُّ ⁽²⁾ في قِصَّةِ جِبْرِيلَ بْنِ بَخْتِيشُوعِ
الطَّبِيبِ ، حين أَحْضَرَ لَهُ السَّمَكُ في مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ، ثم أَمَرَ صَاحِبَ المَائِدَةِ بِحَمْلِهِ

(1) لم تُحدّد مَوْقِعُ الخبرِ في تاريخ الطبري ، وأوردته ابن أبي أصيبعة أكثر تفصيلاً في طبقات الأطباء 191

(2) مروج الذهب 4 : 205 (2511)

إلى منزله؛ وفطن الرشيد وارتأب به، ودس خادِمه حتى عاينه يتناولُه؛ فأعد ابنُ
 بختيشوع للاغتدار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح: خلط إحداهما باللحم
 المعالج بالتوابل والبقول والبوارِد والحلوى؛ وصَب على الثانية ماءً مُثلجاً؛ وعلى
 الثالثة خمرًا صِرْفًا ، وقال في الأول والثاني : هذا طعامُ أمير المؤمنين ، إن خلطَ
 5 السمك بغيره أو لم يخلطه ؛ وقال في الثالث : هذا طعامُ ابن بختيشوع ، ودفعها إلى
 صاحبِ المائدة، حتى إذا اتَّبه الرشيدُ وأخضرهُ للتؤيخ، أخضر الأقداح، فوجد
 صاحب الحُمر قد اختلطَ واماعَ وتفتَّت، ووجد الآخرين قد فسداً وتغيرت رائحتُهما؛
 فكانت له في ذلك مَعذرة ، وتبين من ذلك أنَّ حالَ الرشيد في اجتناب الحُمر
 كانت مَعروفةً عندِ بطانته وأهل مائدته ؛ ولقد ثبتَّ عنه أنه عهدَ بحبس أبي نُوَاس
 10 لما بلغه من انهماكه في المعاقرة، حتى تاب / وأقلع .

[15]

وإنما كان الرشيدُ يشربُ نبيذَ الثَّفر على مذهب أهل العراق ، وقتاويهم فيها
 مَعروفةٌ ؛ وأما الحُمر الصَّرْفَة^(أ) ، فلا سبيلَ إلى اتِّهامه بها ، ولا تقليدِ الأخبار
 الواهية فيها ، فلم يكن الرجلُ بحيث يُواقع مَحَرَمًا من أكبر الكبائر عند أهل المِلَّة ،
 ولقد كان أولئك القومُ كلُّهم بمنجاةٍ من حَبَث^(ب) السَّرف والتَّرف في ملابسهم
 15 وزيلتهم وسائر مُتناولاتهم ، لما كانوا عليه من حُسونة البدَاوة وسداجة الدين التي لم
 يفارقوها بَعْد ؛ فما ظنُّك بما يُخرج عن الإباحة إلى الحَظر ، وعن الحِلِّيَّة إلى الحُرمة .

ولقد اتفق المؤرخون : الطبريُّ والمسعوديُّ [وغيرهم]^(ج) ، على أن جميعَ من
 سلف من حُلَفاء بني أُمَيَّة وبني العباس إنما كانوا يزكون بالحِلِّيَّة الخفيفة من الفِضة

(أ) من ظ و ع ، وفي ج الصَّرْف (ب) كذا في ظ ل ج ي ، وفي ع: خنث (ج) سقط من ظ وحدها .

في المناطق والسيوف واللجج و[السروج]⁽¹⁾. وأن أول خليفة أخذت الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل⁽¹⁾، ثامن الخلفاء بعد الرشيد، وهكذا كان حالهم أيضاً في ملابسهم، فما ظنك بمشاريهم. ويتبين ذلك بآتم من هذا، إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة، كما نشرح في مسائل الكتاب الأول إن شاء الله.

ويناسب هذا أو قريباً منه، ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم، قاضي المأمون 5 وصاحبه، وأنه كان يعاقر المأمون الخمر، وأنه سكر ليلة مع شربه، فدفن في الریحان حتى أفاق، ويُشيدون على لسانه⁽²⁾: [من البسيط]

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جاز في حكمه من كان ينقيني
إني غفلت عن الساق، فصيرني كما تراني، سلب العقل والدين

وحال ابن أكرم والمأمون في ذلك من حال الرشيد، وشرابهم إنما كان التبيذ؛ 10 ولم يكن مخطوراً عندهم، وأما السكر فليس من شأنهم، وصحابته للمأمون إنما كانت خلّة [في الدين]^(ب)، ولقد ثبت أنه كان يتأمر معه [في البيت]^(ب).

ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرينه، أنه اثبت ذات ليلة، فقام يتحسس 15 ويلتمس الإناء، / مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم؛ وثبت أنها كانا يصليان الصبح جميعاً، فأين هذا من المعاورة؟!

(1) في ظ وحدها السرج (ب) من: ج ع ل ي .

(1) مروج الذهب 5 : 90 (3102) .

(2) الخبر في العقد الفريد 6 : 345، ولا يعرف قائل الأبيات .

وأيضاً فيخشي بن أكرم كان من أهل الحديث ، وقد أثنى عليه [الإمام أحمد]^(١)
ابن حنبل، وإسماعيل القاضي. وخرج عنه الترمذي، وذكر المزي الحافظ^(١) أن
البخاري روى عنه في غير الجامع ، فالقدح فيه قدح في جميعهم.

وكذلك ما ينزهه المجان بالمثل إلى الغلمان، بهتاناً على الله وفرية على العلماء ؛
5 ويستندون في ذلك إلى أخبار القصص الواهية ، التي لعلها من افتراء أعدائه ؛ فإنه
كان محسداً في كماله وخلته للسلطان ؛ وكان مقامه من العلم والدين منزهاً عن مثل
ذلك ؛ ولقد ذكر لابن حنبل ما يزميه به الناس ؛ فقال: سبحان الله، سبحان الله،
ومن يقول هذا؟! وأنكر ذلك إنكاراً شديداً. وقيل لإسماعيل القاضي مما كان يقال
فيه ؛ فقال : معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ أو^(ب) حاسد ؛ وقال
10 [أيضاً]^(ج) : كان يحيى بن أكرم أترا إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به
من أمر الغلمان ؛ ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف لله ، لكنه
كانت فيه دعاية وحسن خلق، فرمي بما رمي به . وذكره ابن حبان^(٢) في الثقات ،
وقال : لا يشتغل بما يحكى عنه ، لأن أكثرها لا يصح عنه .

ومن أمثال هذه الحكايات ، ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد^(٣) ، من
15 حديث الزبيل، في سبب إضهار المأمون إلى الحسن بن سهل في بثته بوزان، وأنه

(أ) من: ل ي (ب) ي ل ع ج : و (ج) من : ي .

(١) تهذيب الكمال : 31 : 209 .

(٢) الثقات 9 : 265 .

(٣) العقد الفريد 6 : 457 - 470 ، والخبر فيه أكثر تفصيلاً .

عَثَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّافِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادِ بَزْبِيلٍ مُدَلَّى مِنْ بَعْضِ السَّطُوحِ ،
بِمَعَالِقٍ وَجُدُلٍ مُغَارَةِ الْقَتْلِ مِنَ الْحَرِيرِ ، فَاقْتَعَدَهُ وَتَنَاوَلَ الْمَعَالِقَ ، فَاهْتَزَّتْ ، وَذَهَبَ بِهِ صُعْدًا
إِلَى مَجْلِسٍ شَأْنُهُ كَذَا ، وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فَرْشِهِ وَتَثْوِيدِ آيَتِهِ وَجَمَالِ رُؤَايِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ
الْطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ ، وَأَنَّ امْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ ، رَائِعَةٌ
الْجَمَالِ ، فَتَانَةٌ الْمَحَاسِنِ ، / فَحَيْثُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِرُهَا الْحَمْرَ حَتَّى الصَّبَاحِ ،
وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ انْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَتْهُ [عَلَى] ⁽¹⁾ الْإِضْهَارِ إِلَى أَبِيهَا .

وَأَيْنَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَاقْتِنَائِهِ سَنَنَ الْخُلَفَاءِ
الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ ، وَأَخَذَهُ بِسِيرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَزْكَانِ الْمِلَّةِ ، وَمُنَاطَرَتِهِ لِلْعُلَمَاءِ ،
وَحِفْظِهِ لِحُدُودِ اللَّهِ فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ ؛ فَكَيْفَ تَصِحُّ عَنْهُ أَحْوَالُ الْفُسَّاقِ الْمُسْتَهْتَرِينَ
فِي التَّطَوُّافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ ، وَغِشْيَانِ السَّمَرِ ؛ سَبِيلِ غُشَّاقِ الْأَعْرَابِ ، وَأَيْنَ
ذَلِكَ مِنْ مَنْصَبِ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا ، وَمَا كَانَ بَدَارَ أَبِيهَا مِنَ الصَّوْنِ
وَالْعَفَافِ .

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ ، وَفِي كُتُبِ الْمَوْرَخِينَ مَعْرُوفَةٌ ؛ وَإِنَّمَا يَبْتَغِ عَلَى
وَضْعِهَا وَالْحَدِيثِ بِهَا الْإِنْهَافُ فِي اللَّذَاتِ الْمُحَرَّمَةِ ، وَهَتْكَ قِنَاعِ الْمُرُوءَاتِ ، وَيَتَعَلَّلُونَ
بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لَذَاتِهِمْ ، فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيرًا مَا يُلَهِّجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ ،
وَيُنْقَرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ الدَّوَابِّ ، وَلَوْ انْتَسَوْا بِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ
أَخْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ ، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [سُورَةُ
النِّسَاءِ ، مِنَ الْآيَةِ 66] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ^(ب) .

(أ) كَذَا فِي النِّسْخَةِ ج ل ي ، وَفِي ظ : إِلَى (ب) فِي ع ي : يَعْلَمُونَ .

ولقد عَدَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأُمَرَاءِ مِنْ أُنْبَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ الْغِنَاءِ وَوُلُوعِهِ
بِالْأَوْتَارِ، وَقُلْتُ لَهُ : لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ ، وَلَا يَتْلِقُ بِمَنْصِبِكَ؛ فَقَالَ لِي : أَفَلَا
تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَرِئِيسَ الْمُغْنِيِّينَ فِي زَمَانِهِ ؟
فَقُلْتُ لَهُ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَهَلَا تَأَسَّيْتُ بِأَبِيهِ أَوْ بِأَخِيهِ ؟! أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ
5 ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنَاصِبِهِمْ ؟ فَصَمَّ عَنْ غَذْلِي وَأَعْرَضَ !

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ ، مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْعَبِيدِيِّينَ ،
خُلَفَاءِ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَالْقَاهِرَةِ ، مِنْ تَقْيِهِمْ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ،
وَالطَّنْ / فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلِ الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ . يَعْتَمِدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى [16 ب]
أَحَادِيثَ لَفَّقَتْ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، تَرْلُفًا إِلَيْهِمْ بِالْقَدْحِ فِيمَنْ نَاصَبَهُمْ ،
10 وَتَقَنُّنًا فِي الشُّبُهَاتِ بَعْدَهُمْ ؛ حَسْبَمَا نَذَكِرُ بَعْضَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي أَحْبَارِهِمْ . وَيَقْفُلُونَ
عَنِ التَّفَقُّطِ لَشَوَاهِدِ الْوَاقِعَاتِ وَأَدِلَّةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي اقْتَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ
تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ . فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مَبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْعَةِ ،
أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُخْتَسِبَ لَمَّا دَعَا بِكُتَامَةِ اللَّزْزِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ، وَاشْتَهَرَ خَبْرُهُ ،
وَعُلِمَ تَحْوِيلُهُ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ ، خَشِيَ عَلَى أَنْفُسِهِمَا ، فَهَرَبَا مِنْ
15 الْمَشْرِقِ مَحَلَّ الْخِلَافَةِ ، وَاجْتَازا بِمِصْرَ ؛ وَأَتَتْهُمَا خُرُجًا مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي زِيَّ الشُّجَارِ ،
وَنُصِيَ خَبْرُهُمَا إِلَى عَيْسَى التَّوَشْرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِمَا
الْحَيَالَةَ؛ حَتَّى إِذَا أُدْرِكَا خَفِيَ حَالُهُمَا عَلَى تَابِعِيهِمَا ، بِمَا لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزِّيِّ؛
فَأُفْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ ؛ وَأَنَّ الْمُعْتَصِدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِيَةِ أُمَرَاءِ إِفْرِيقِيَّةِ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَبَنِي
مِذْرَارٍ أُمَرَاءِ سِجِلْمَاسَةَ ، بِأَخْذِ الْآفَاقِ عَلَيْهَا وَإِذْكَاءِ الْعُيُونِ فِي طَلَبِهِمَا ؛ فَعَثَرَ الْيَسْعُ

صاحب سِجْلَمَاسَة من آل مِدرار على خَفِيٍّ مَكَانِهَا بِتَلْدِهِ ، واعتَقَلَهَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ .
هذا قَبْلَ أن تَظْهَر الشَّيْعَةُ على الأَغَالِيَةِ بِالْقَيْرَوَانِ .

ثم كان بَعْدَ ذلك ما كان ، من ظُهور دَعْوَتِهِم بِالْمَغْرِبِ وإفْرِيقِيَّةِ ، ثم بِالْيَمَنِ ،
ثم بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ ، ثم بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ . وقاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ في مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ
شِقِّ الأَبْلَقَةِ ، وكادوا يَلْجُونَ عَلَيْهِم مَوَاطِنَهُمْ وَيُدِيلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ .

ولقد أَظْهَرَ دَعْوَتَهُم بِبَغْدَادِ [وَعِرَاقِهَا] ^(أ) الأَمِيرُ الْبَسَاسِيرِيُّ - من مَوَالِي الدَّيْلَمِ
[17] الْمُتَغَلَّبِينَ على / خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ - في مُغَاضَبَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاءِ الْعَجَمِ ،
وخطَبَ لَهُم على مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَرِيثًا . وما زالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَغْضَوْنَ بِمَكَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ ،
ومُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةٍ وراءَ الْبَحْرِ يُنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ . وكيف يَقَعُ هذا كُلُّهُ لَدَعِيٍّ
في النَّسَبِ مَكْذُوبٍ في انْتِحَالِ الأَمْرِ ؟

واعْتَبِرْ حَالَ الْقَرْمَطِيِّ إِذْ كانَ دَعِيًّا في انْتِسَابِهِ ، كيفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَ
أَتْبَاعُهُ ، وظُهِرَ سَرِيعًا على خَبِيرِهِمْ ^(ب) وَمَكْرِهِمْ ، فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ ، وَذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ . ولو كانَ أَمْرُ الْعَبِيدِيِّينَ كَذَلِكَ لَعُرفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَةٍ . [من الطويل]

ومَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ أَمْرٍ مِنْ خَلِيفَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلى النَّاسِ تُعْلَمُ ⁽¹⁾

فقد اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً ، وَمَلَكَوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ
وَمُصْلَاهُ ، وَمَوْطِنَ الرِّسُولِ وَمَذْفَنَهُ ، وَمَوْقِفَ الْحَجِيجِ وَمَهْبِطَ الْمَلَائِكَةِ ، ثُمَّ انْقَرَضَ

(أ) من: ل ج ع ي (ب) في: ع ل ي ج: خبيثهم .

(1) البيت لزهير بن أبي سلمى ، من معلقته ، انظر ابن الأنباري: شرح القصائد السبع الطوال 289 ، وروايته:
ولو خالها .

أمرهم، وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الصاغية إليهم، والحُب فيهم، واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق .

ولقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة ودُروس أثرها، داعين إلى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم ، يزعمون استحقاقهم للخلافة ، ويذهبون إلى تعينهم بالتوصية ممن سلف قبلهم من الأئمة، ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار 5 في الانتصار لهم؛ فصاحب البدعة لا يُلبس في أمره، ولا يُشبه في بدعته، ولا يُكذب نفسه فيما ينتحله.

والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني⁽¹⁾، شيخ النُّظار من المتكلمين، يَجْنَحُ إلى هذه المقالة المَرْجُوحَة ؛ ويرى هذا الرأي الضَّعِيف . فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتَّعَمُّق في الرَّافِضِيَّة، فليس ذلك بدافع في صدر بدعتهم، 10 وليس إثبات مُنْتَسِبِهِم بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً في كُفْرِهِمْ ؛ فقد قال تعالى لنوح عليه السَّلامُ في شأن ابنه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [سورة هود ، من الآية 46] . وقال : ﷺ / لفاطمة [17 ب] يَعْظُمُهَا⁽²⁾ : "يا فاطمة، اعْمَلِي فَلَنْ أُغْنِيَ عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً".

(1) لم يذكر شيئاً من هذا في كتابه التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، وإنما تناول هذا الموضوع في كتاب له مفقود، ذكره السُّبُكِي في طبقات الشافعية 7 : 18 وسمَّاه كشف الأشرار الباطنية، وأنَّ الباقلاني كشف في أوله بطلان نسب الفاطميين إلى الإمام علي .

(2) رُوي في الصحيحين البخاري 4 : 7 ، و 6 : 140 ، ومسلم 206 ، من حديث أبي هريرة بلفظ مُقارب . باب : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، الآية 214] .

ومتى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أو اسْتَيْقَنَ أَمْرًا ، وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَضَدَعَ بِهِ ،
﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية 4] . والقوم كانوا
في مجالٍ لظنون الدّول بهم ، وتحت رِقْبَةٍ من الطُّغاة، لتَوْفُرَ شِيعَتُهُمْ ، وانتشارهم في
القاصية بدعوتهم ، وتكثُرَ خُرُوجُهُمْ مَرَّةً بعد أُخْرَى ، فلاذت رجالُهم بالاختفاء ولم
يكادوا يُعْرَفُونَ، كما قيل⁽¹⁾ : [من الطويل]

5

فلو تسأل الأيَّامَ ما سُمِّيَ، ما دَرَتْ وأين مَكَاني ؟ ما عَرَفَنَ مَكَاني

حتى لقد سُمِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامَ، جَدُّ عُتَيْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ، بالْمَكْتومِ؛
سَمَّيْتُهُ بِذَلِكَ شِيعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ ، حَذَرًا مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ . فتَوَصَّلَ شِيعَةُ
آلِ الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطُّعْنِ فِي نَسَبِهِمْ ؛ وازْدَلَفُوا بِهَذَا الرَّأْيِ الْفَائِلِ إِلَى
الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ خُلَفَائِهِمْ، وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأُمَرَاءُ دَوْلَتِهِمْ، الْمُتَوَلُّونَ لِحُرُوبِهِمْ مَعَ
الْأَعْدَاءِ، يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعَرَّةَ الْعُجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلِبَهُمْ
عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبَرِّيرِ الْكُتَّامِيِّينَ، شِيعَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَأَهْلِ دَعْوَتِهِمْ؛
حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ⁽²⁾ الْقَضَاةُ بِيغْدَادَ بِنْفِيهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ
أَعْلَامِ النَّاسِ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ: الشَّرِيفُ الرَّضِيُّيُّ، وَأَخُوهُ الْمُزْتَضِيُّ، وَابْنُ [الْبَطْحَاوِيِّ]⁽¹⁾ ،

10

(1) من ع ج ل ي ، وفي ط : الطحاوي .

(1) البيت لأبي نواس ، من قصيدته :

لَمْ طَلَّلْ لَمْ أَشْجِهْ وَشَجَانِي وَهَاجَ الْهَوَى، أَوْ هَاجَهُ لِأَوَانِ

الديوان 650 - (صادر) .

(2) نَصَّ السَّجَلُ فِي الْمُنْتَظَمِ لِابْنِ الْجَوَازِيِّ 7 : 255 .

ومن العلماء: أبو حامد الإسفرايني⁽¹⁾، والقُدوري، والصيمري، وابن الأَكفاني،
والأبيوزدي، وأبو عبد الله ابن الثُّعْمان، فقيه الشيعة، وغيرهم من أعلام الأُمَّة
ببغداد، في يوم مشهود، وذلك سنة ثنتين وأربعمئة، في أيام القادر. وكانت شهادتهم
في ذلك على السَّماع لما اشتهر وعُرف بين الناس ببغداد، وغالبها شيعة / بني [18]
5 العباس الطاعنون في هذا النسب؛ فنقله الأخباريون كما سَمِعوه، وَرَوَوْهُ حَسْبِهَا
وَعَوُهُ؛ والحق من ورائه.

وفي كتاب المُعْتَضِد⁽²⁾، في شأن عُبيد الله، إلى ابن الأَغلَب بالقيروان،
 وابن مِدرارٍ بِسِجِلْمَاسَة، أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نَسَبِهِمْ، فَاَلْمُعْتَضِدُ
أَقْعَدُ بِنَسَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ. والدولة والسلطان سوق للعالم، تُجَلَبُ إِلَيْهِ
10 بضائع العلوم والصنائع، وتُلْتَمَسُ فِيهِ ضَوَالُّ الْحِكْمِ، وَتُحْدَى إِلَيْهِ رِكَائِبُ الرِّوَايَاتِ
والأخبار، وما نَقَّ فِيهَا نَقَقَ عِنْدَ الْكَافَّةِ. فَإِنْ تَزَهَّتْ الدَّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمَيْلِ
وَالْأَفَنِ وَالسَّفْسَفَةِ، وَسَلَكَتِ النَّهْجَ الْأَمَّ، وَلَمْ تَحْزَ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، نَقَقَ فِي
سُوقِهَا الْإِبْرِيْزُ الْخَالِصَ وَاللُّجَيْنُ الْمُصَنَّى؛ وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ الْأَغْرَاضِ وَالْحَقُودِ،
وَمَاجَتْ بِسَمَاسِرَةِ الْبَغْيِ وَالْبَاطِلِ، نَقَقَ الْبَهْرَجُ وَالزَّائِفُ؛ وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قِسْطَاسُ
15 نَظَرِهِ، وَمِيزَانُ بَحْثِهِ وَمُلْتَمِسِهِ.

(1) كذا في كل الأصول بياء واحدة كما ضبطها ابن خلكان (وفيات الأعيان 1: 74) مع كسر الهمزة وفتح الفاء
نسبة إلى إسفران، بلد صغير من نواحي نيسابور. وضبطها ياقوت بالفتح ثم السكون وفتح الفاء،
وآخرها يآن، بياء مكسورة وأخرى ساكنة بعدها نون، "إسفرانين" (معجم البلدان 1: 177).

(2) أعاد هذا الخبر بنصه تقريباً في كتاب العبر 4: 31.

ومثل هذا وأبعد منه كثيراً، ما يَتَنَاجَى به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم وصلاته وسلامه ، الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى . ويُعَرِّضُونَ تَعْرِيضَ الْحَدِّ بِاللَّظُنِّ فِي الْحَمْلِ الْمُخَلْفِ عَنْ إِدْرِيسِ الْكَبَرِ ، أَنَّهُ لِرَاشِدِ مَوْلَاهُمْ . قَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَأَبْغَدَهُمْ ؛ مَا أَجْهَلُهُمْ ! أما يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الْكَبَرِ كَانَ إِضْهَارُهُ فِي الْبَرَرِ ، وَأَنَّهُ مُذْ دَخَلَ 5 الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ [تعالى] ^(أ) عَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ ، وَأَنَّ حَالَ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ ^(ب) ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ ، إِذْ لَا مَكَامِينَ لَهُمْ تَتَأَنَّى فِيهَا الرِّيْبُ ؛ وَأَحْوَالُ حُرْمِهِمْ أَجْمَعِينَ بِمَزَايَ مِنْ جَارَاتِهِمْ وَمَسْمُوعٍ مِنْ جِيرَانِهِمْ ، لَتَلَاصُقِ الْجُدْرَانِ وَتَطَامُنَ الْبِنَاءُ وَعَدَمُ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ ^(ج) الْمَسَاكِينِ . وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحَزْمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ ، بِمَشْهَدٍ مِنْ 10 أَوْلِيَائِهِمْ وَشِيعَتِهِمْ ، وَمُرَاقَبَةٍ مِنْ كَافَّةِهِمْ .

10

وقد اتفق بريرة المغرب الأقصى عامة على بيعة إدريس الأصغر من بعد أبيه ،

/ [18 ب] وآتوه طاعتهم عن رضا وإضفاقي ، وبايعوه على الموت الآخر ، وخاضوا دونه بحار

المنايا في حروبه وغزواته . ولو حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الرِّيْبَةِ ، أَوْ قَرَعَتْ أَسْمَاعَهُمْ

ولو من عَدُوِّ كَاشِحٍ ، أَوْ مُنَافِقٍ مُزْتَابٍ ، لَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَغْضُهُمْ ، كَلَّا وَاللَّهِ ،

وإنما صَدَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَقْتَالِهِمْ ، وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ ، عَمَّا لَهُمْ كَانُوا 15

بِإِفْرِيقِيَّةِ وَوُلَايَتِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَرَّرَ إِدْرِيسُ الْكَبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَفْعَةٍ فَتَحَ ، أَوْعَزَ

الهادي إِلَى الْأَغْلِبَةِ أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ ^(د) وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعِيُونَ ، فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ ،

(أ) من : ل ي ج (ب) ج : كل (ج) ي : من (د) ي : بالمرصاد .

وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَتَمَّ أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ. وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا
 كَانَ مِنْ وَاضِحِ مَوْلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ، مِنْ دَسِيسَةِ الشَّيْعِ لِلْعُلُوَّةِ،
 وَإِذْهَانِهِ فِي نَجَاةِ إِدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَقَتَلَهُ؛ وَدَسَّ الشَّمَاخُ مِنْ مَوَالِي أَبِيهِ
 لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ إِدْرِيسَ، فَأَظْهَرَ اللَّحَاقُ بِهِ وَالْبَرَاءَةُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيَهُ ،
 5 فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيسُ وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ، وَنَاوَلَهُ الشَّمَاخُ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُمًّا اسْتَهْلَكَهُ
 بِهِ. وَوَقَعَ خَبَرُ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ ، لِيَا رَجَاؤُهُ مِنْ قَطْعِ
 أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعُلُوَّةِ بِالْمَغْرِبِ [الْأَقْصَى] ^(أ) وَاقْتِلَاعِ جُزْئِ مَوْتِهَا . وَلَمَّا يَتَأَدَّ ^(ب)
 إِلَيْهِمْ خَبَرُ الْحَمْلِ الْمُخْلَفِ لِإِدْرِيسَ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلًّا وَلَا، وَإِذَا بِالْدَّعْوَةِ قَدْ
 عَادَتْ ، وَالشَّيْعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ ، وَذَوَلَّتْهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ [قَدْ] ^(ج)
 10 تَجَدَّدَتْ؛ فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقَعِ السَّهَامِ؛ وَكَانَ الْفَشْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلَا
 بِذَوَلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمَوْا إِلَى الْقَاصِيَةِ، فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى
 إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالِ الْبَرَزِ عَلَيْهِ، إِلَّا بِالتَّحْيِيلِ فِي
 إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ . فَعِنْدَ ذَلِكَ فَرَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْأَغَالِبَةِ بِإِفْرِيقِيَّةِ ^(د) فِي
 سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَّتِهِمْ، وَخَسَمَ الدَّاءَ الْمُتَوَقَّعَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَاقْتِلَاعِ
 15 تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْجَحَ مِنْهُمْ، يُخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ
 خُلَفَائِهِمْ . فَكَانَ الْأَغَالِبَةُ عَنْ بَرَابَرَةِ / الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَعْجَزُ ، وَلَمْلَهَا مِنَ الزُّبُونِ
 عَلَى مُلُوكِهِمْ أَخْوَجَ، لِيَا طَرَقَ الْخِلَافَةُ مِنْ انْتِزَاعِ الْمَالِيكِ ^(هـ) الْعُجْمَ عَلَى سُدَّتِهَا،
 وَامْتِطَائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغْلُبِ عَلَيْهَا، وَتَضْرِيْفِهِمْ أَخْكَامَهَا طَوَّعَ أَغْرَاضِهِمْ فِي رِجَالِهَا

[19 أ]

(أ) من: ل (ب) ج: لم يتأد (ج) من: ل ج (د) سقط من ل (هـ) كذا في: ظ ل ع، وفي ج ي: الممالك .

وجبايتها وأهل حُططها^(١)، وسائر نفضها وإبرامها؛ كما قال شاعر عصرهم: [من مجزوء
الرجز]

خليفة في قفص بين وصيف وبعا
يقول ما قالاً له كما تقول الببغا^(١)

- 5 فحشي هؤلاء الأمراء الأغلبة بوادِر السّعايات، وتلوّوا بالمعاذير؛ فطوراً باختِصار
المغرب وأهله؛ وطوراً بالإزهاب بشأن إدريس الخارج به ومن قام مقامه^(ب) من
أعقابه، يخاطبونهم بتجاوزه حدود التّخوم من عمله، ويُنْفِذون سِكَتَه في تخفّهم
وهداياهم ومُزْتَفِع جباياتهم، تعرّضاً باستيفحاله، وتهويلاً باستِدَاد شوكته، وتعظيماً لما
دُفِعوا إليه من [مُطالَبته]^(ج) ومراسيه، وتهديداً بقلب الدّعوة إن ألجئوا إليه؛ وطوراً
10 يَطْلَعون في نسب إدريس بمثل ذلك الطّعن الكاذب، تخفيضاً لشأنه، لا يُبالون
بصدقه من كذبه، لبُغْد المسافة، وأفن عُقول من خَلَف من صِبيّة بني العبّاس
ومماليكهم العُجم في القبول من كلّ قائل، والسمع لكلّ ناعق. ولم يزل هذا دأبهم
حتّى انقضى أمر الأغلبة؛ فقرّعت هذه الكلمة الشّنعاء أسماع الغوغاء، وصرّ عليها
بعض الطّاعنين أذنه، واعتدّها ذريعة إلى التّيل من خلفهم عند المناقسة. وما لهم

(١) فوقها بخطه في ع: رثها، وفي ي ج: رثها، مشطوبة (ب) سقط من ي (ج) كذا من ع ل ج ي، وفي ظ، مطالبعه.

(1) ورد البيتان في ترجمتي المُعرّض بهما في تاريخ الإسلام 6: 58، الوافي 10: 173، 27: 445، ولا يعرف
القاتل، ويرد التعريف بالأميرين بغا الشرايين، ووصيف التركي الفائقين الرائقين زمن المتوكل والمستعين
والمعتز، في الجزء المفرد للحواشي واللغة والمصطلح.

- قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - والعدولُ عن مَقاصِدِ الشَّريعة؛ فلا تَعَارَضَ فيها بَيْنَ الْمُقْطُوعِ والمُظَنُّونِ . وإدريسُ وُلِدَ على فِرَاشِ أَبِيهِ، والوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، على أَنَّ تَثْرِيَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ عن مِثْلِ هَذَا من عَقَائِدِ الْإِيمَانِ؛ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً . ففِرَاشُ إِدْرِيسٍ طَاهِرٌ من الدَّنَسِ وَمُنَزَّةٌ عن الرَّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ ؛ ومن 5 اعتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَجَّعَ الْكَفَرُ مِنْ بَابِهِ.

وإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِي هَذَا الرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ الرَّيْبِ، / وَدَفَعًا فِي صَدْرِ الْحَاسِدِ؛ لِمَا [19 ب] سَمِعْتُهُ أَذْنَايَ من قَائِلِهِ الْمُعْتَدِّ عَلَيْهِمُ بِهِ، الْقَادِحِ فِي نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ ؛ وَيَنْقُلُهُ بَزْعُمُهُ عن بَعْضِ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ مِمَّنْ انْحَرَفَ عن أَهْلِ الْبَيْتِ، وَازْتَابَ فِي الْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ . وَإِلَّا فَالْمَحَلُّ مُنَزَّةٌ عن ذَلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ، وَتَقْيُّ الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ الْعَيْبُ عَيْبٌ. 10 وَلَكِنِّي جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَرْجُو أَنْ يَجَادِلُوا عَنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِينَ فِي نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمُ الْحَسَدَةُ لِأَغْقَابِ إِدْرِيسٍ هَذَا، مِنْ مُنْتَمٍ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ؛ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ دَعْوَى شَرِّ عَرِيضٍ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الْآفَاقِ، فَتَغْرِضُ الشُّهْمَةَ فِيهِ.

وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِي إِدْرِيسٍ هَؤُلَاءِ ، بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَاسٍ وَسَائِرِ بِلَادِ (i) 15 الْمَغْرِبِ ، قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْلَعُ أَحَدٌ فِي ذِكْرِهِ ، إِذْ هُوَ نَقْلُ الْأُمَمِ وَالْجَمِيلِ مِنَ الْخَلْفِ عَنِ الْأُمَمِ وَالْجَمِيلِ مِنَ السَّلَفِ . وَيَنْتُ جَدُّهُمْ إِدْرِيسٌ مَخْتَطٌّ فَاسٍ وَمُؤَسَّسُهَا بَيْنَ بُيُوتِهِمْ، وَمَسْجِدُهُ لَصِقَ بِمَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ ، وَسَيُفْهِ

(i) كَذَا فِي ظ ج، وَفِي ع ل ي: دِيَار .

مُنْتَضَى بِرَأْسِ الْمِثْدَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بِلَدِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِي جَاوَزَتْ
أَخْبَارُهَا حُدُودَ التَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ ، وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعِيَانِ ، فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ
هَذَا النَّسَبِ إِلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا ، وَمَا عَصَّدَ شَرَفُهُمُ النَّبَوِيَّ مِنْ جَلَالِ
الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ لِسُلَفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ ، وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَغْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مُدَّ
أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ . وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ الْمُتَمَيِّنِ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مَنْ لَمْ يَخْضُلْ لَهُ أَمْثَالُ 5
هَذِهِ الشَّوَاهِدِ ، أَنْ يَنْسَلِمَ لَهُمْ حَالُهُمْ ، لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ ؛ وَبَيِّنُ
مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالتَّسْلِيمِ ، فَإِذَا عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ عَصَ بَرِيْقِهِ ، وَوَدَّ
كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يُرْدُونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سَوْقَةً وَوَضْعَاءً ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ،
فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْعِنَادِ وَازْتِكَابِ اللَّجَاجِ وَالْبَهْتِ بِمِثْلِ هَذَا الطَّغْنِ الْفَائِلِ وَالْقَوْلِ
[20] الْمَكْذُوبِ ، / تَعْلُلًا بِالمَسَاوَاةِ فِي الظُّنَّةِ وَالْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ الْاِخْتِمَالِ ، وَهَيْهَاتَ لَهُمْ 10
ذَلِكَ ! فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ - فِيمَا نَعْلَمُهُ - مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ ، مَنْ يَبْلُغُ
فِي صَرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مِبَالِغَ أَغْقَابِ إِدْرِيسَ هَذَا مِنْ آلِ الْحَسَنِ . وَكِبَرَاؤُهُمْ
لهَذَا الْعَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِفَاسَ ، مِنْ وَلَدِ يَحْيَى الْجَوْطِيِّ ابْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الْعَدَامِ ابْنِ
الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ ، وَهُمْ نَقَبَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ ، وَالسَّاكِنُونَ بَيْنَتِ
جَدَّهُمْ إِدْرِيسَ ، وَلَهُمُ السِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَافَّةً ، حَسْبًا نَذَرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ 15
الْأَدَارِسَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَيَلْحَقُ بِهَذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةُ وَالْمَذَاهِبُ الْفَائِلَةُ ، مَا يَتَنَاوَلُهُ ضَعْفَةُ الرَّأْيِ مِنْ
فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ ، مِنَ الْقَدْحِ فِي الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَنَسَبَتِهِ إِلَى
الشَّغْوَذَةِ وَالتَّلْبِيسِ ، فِيمَا آتَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِالتَّوْحِيدِ الْحَقِّ ، وَالتَّغْيِ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ قَبْلَهُ ،

وتكذيبهم لجميع مُدَّعِيَّاته في ذلك، حتَّى فيما يزعم الموحِّدون اتِّباعه من اتِّسابه في أهل البيت . وإنَّما حَمَلَ الفقهاء على تكذيبه ما كَمَنَ في نُفوسهم من حَسَدِه على شأنه ؛ فإنَّهم لما رأوا من أنفسهم مُناهضتَه في العِلْمِ والفُتْيَا وفي الدِّينِ بَزْغَمهم، ثم امتازَ عنهم بأنَّه متَّبِعُ الرَّأْيِ ، مَسْمُوعُ الْقَوْلِ ، مَوْطَأُ الْعَقَبِ ، نَفَسُوا ذلك عليه وَعَضُّوا منه بِالْقَدْحِ في مَذَاهِبِه والتَّكْذِيبِ لِمُدَّعِيَّاتِه . وأيضاً فكانوا يُؤَنِّسُون 5 من مُلُوكِ لَمْتُونَةَ - أعدائِه - تَحِلَّةً وَكَرَامَةً لم تكن لهم من غَيْرهم، لما كانوا عليه من السَّذَاجَةِ واتِّحَالِ الدِّيَانَةِ. فكان لَحْمَةُ الْعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ الْوَجَاهَةِ وَالِاتِّصَابِ لِلشُّورَى، كُلٌّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدَرِهِ فِي قَوْمِهِ؛ فَأَصْبَحُوا بِذلك شِيعَةً لَهُمْ وَحِزْباً لِعَدُوِّهِمْ.

وَنَقَمُوا عَلَى الْمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِهِمْ وَالتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ وَالْمُنَاصَبَةِ لَهُمْ ، 10 تَشْيِيعاً لِلْمَمْتُونَةِ وَتَعْصِباً لِدَوْلَتِهِمْ . وَمَكَانُ الرَّجُلِ غَيْرُ مَكَانِهِمْ ، وَحَالُهُ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ. وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ عَلَى الدَّوْلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَخْوَالِهِمْ ، / وَخَالَفَ اجْتِهَادَهُ [20 ب] فُقَهَائِهِمْ، فَنَادَى فِي قَوْمِهِ وَدَعَا إِلَى جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ، فَافْتَتَحَ الدَّوْلَةَ مِنْ أَصُولِهَا، وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا ، أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصَارًا وَحَامِيَةً ، وَتَسَاقَطَتْ 15 فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نَفُوسٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا خَالِقُهَا، قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بِإِثْلَافِ مُهْجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّغْوَةِ، وَالتَّعْصِبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ، وَأَدَالَتْ بِالْعُدُوتَيْنِ مِنَ الدُّوَلِ. وَهُوَ بِحَالِهِ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْحَصْرِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا ، حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ، وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحِظِّ وَالْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ، حَتَّى الْوَلَدَ الَّذِي رُبَّمَا تَجَنَّحُ إِلَيْهِ

التفوس، وتُخادعُ عن تَمَنّيه. فليت شِغري ما الذي قصدَ بذلك إن لم يكن وجه الله، وهو لم يُحْضَلْ له حظٌّ من الدنيا في عاجله، ومع هذا فلو كان قَصْدُهُ غيرَ صالح لما تَمَّ أمره وانفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ، ﴿سُئِنْتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [سورة غافر، من الآية 85].

- 5 وأما إنكارُهم نَسَبِهِ في أهل البيت ، فلا تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لهم ؛ مع أَنَّهُ [إن] ⁽¹⁾
- ثَبَّتَ أَنَّهُ ادَّعَاهُ وانتَسَبَ إليه، فلا دليل يقومُ على بطلانِهِ، لأنَّ الناسَ مُصَدِّقُونَ في أنسابِهِمْ . وإن قالوا إنَّ الرِّئاسةَ لا تكون على قومٍ في غير أهل جِلْدَتِهِمْ، كما هو الصَّحيح، حَسْبُما يَأْتِي في الفصل الأوَّل من هذا الكتاب، والرَّجلُ قد رَأَسَ سائرَ المَصامِدَةِ، ودانوا بِاتِّباعِهِ والانتِهادِ إليه وإلى عِصَابَتِهِ من هَزْغَةٍ، حتَّى تَمَّ أمرُ الله في دَعْوَتِهِ، فاعْلَمُوا أنَّ هذا النِّسبَ الفاطميَّ لم يكن أمرُ المهديِّ يتوقَّفُ عليه، ولا اتَّبَعَهُ 10 الناسَ بِسَبَبِهِ، وإنَّما كان اتِّباعُهُمْ له بعِصْبِيَّةِ الهَزْغِيَّةِ والمُضْمُودِيَّةِ ومكانِهِ منها ، ورُسُوخِ شَجَرَتِهِ فيها. وكان ذلك النِّسبَ الفاطميَّ خَفِيًّا قد دَرَسَ عندَ الناسِ، وبقي عِنْدَهُ وعندَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَ بينهم ، فيكون النِّسبُ الأوَّلُ كأَنَّهُ انْسَلَخَ مِنْهُ وَلَبَسَ جِلْدَةَ هَؤُلَاءِ / وظهرَ فيها ، فلا يَضُرُّهُ الانْتِسابُ الأوَّلُ في عِصْبِيَّتِهِ ، إذ هو مَجْهُولٌ [21]
- عند أهل العِصَابَةِ؛ ومثل هذا واقعٌ كثيرًا إذا كان النِّسبُ الأوَّلُ خَفِيًّا. وانظر قِصَّةَ ⁽¹⁾ 15 عَزْفَجَةٍ وَجَرِيرٍ في رِئاسةِ بَجِيلَةٍ، وكيف كان عَزْفَجَةٌ مِنَ الْأَزْدِ وَلَبَسَ جِلْدَةَ بَجِيلَةٍ،

(1) من : ج ي ع .

(1) انظر تفاصيل هذا الخبر منذ وقعة الجسر بين العرب والفرس وخبر عَرْفَجَةٍ وَجَرِيرٍ، في الطبري، تاريخ الرسل والملوك 3 : 471 .

حتى تنازع مع جرير رؤسَتهم عند عُمر، رضي الله عنه ، كما هو مذكور، تتفهّم منه
وَجْهَ الحقّ. والله الهادي للصّواب.

وقد كِدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب في هذه المغالط ؛ فقد
زلّت أقدام كثير من الأثبات والمؤرّخين الحفّاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء ،
5 وعَلِقَتْ بأفكارهم ولَقَنَها عنهم الكافّة من ضَعْفَةِ النّظر والعَقْلَة عن القياس، ولَقَنُوها هم
أيضاً كذلك من غير بَحْثٍ ولا رَوِيّة، واندرَجَتْ في مَحفوظاتهم، حتّى صار فنُّ
التّاريخ واهياً⁽¹⁾ مُختلطاً، وناظِرُهُ مُرتَبِكاً، وعُدّ من مناحي العامّة.

فإذن ، يحتاجُ صاحبُ هذا الفنّ إلى: العِلْم بقواعد السّياسة ، وطبائع
الموجودات، واختلاف الأُمم والبِقاع والأعصار في السّير والأخلاق والعوائد والتّخل
10 والمذاهب وسائر الأخوال ، والإحاطة بالحاضر من ذلك ، ومُماثَلَة ما يَبْنِيهِ وَيَبْنِ
الغائب من الوفاق ، أو يَتَوّن ما بَيْنَهما من الخِلاف ، وتعليل المُتَّفِق منه والمُخْتَلِف،
والقيام على أصول الدّول والمِلل ، ومبادئ ظُهورها ، وأسباب حُدُوثها ، ودَواعي
كُونها، وأخوال القائمين بها وأخبارهم ، حتّى يكون مُستَوْعِباً لأسباب كلِّ حادث،
واقفاً على أصول كلِّ خَبَر . وحينئذٍ يَغْرِض خَبَرَهُ المنقول على ما عِنْدَهُ من القَواعِد
15 والأصول ، فإن وافَقها وجَرى على مُقتضاها كان صَحِيحاً ، وإلّا زَيَّفَهُ واستَغنى عنه.

وما استَكْبَر القُدما عِلْمُ التّاريخ إلّا لذلك؛ حتّى انتحلّه الطّبريّ والبُخاريّ

وابنُ إسحاق من قَبْلِهما، / وأمثالهم من علّماء الأُمّة. وقد ذَهَل الكثيرُ عن هذا السّرّ [21 ب]

(1) سقط من ج .

فيه، حتى صار انتحاله مَجْهَلَةً، واستخفَّ العوامُّ ومن لا رُسوخَ له في المعارف مُطالَعَتَه وخَمَلَه والخوض فيه والتطفُّل عليه، فاختلط المزعِي بالهمَل، واللُّباب بالقِشر، والصادق بالكاذب. ﴿وإلى الله عاقِبَةُ الأمور﴾ [سورة لقمان، من الآية 22].

ومن الغلط الخفي في التاريخ، الدهول عن تبدُّل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدُّل الأعصار ومُرور الأيام، وهو داءٌ دَوِيٌّ شديدُ الحفَاء، [إذ]^(١) لا يقع إلا بعد 5
أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ، فلا يكادُ يتفَضَّلُ له إلا الآحادُ من أهل الخَلِيقَةِ؛ وذلك أنْ
أَحْوالَ العَالَمِ والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدومُ على وَتيرة واحدة ومنهاج مُستَقَرٍّ، إنما
هو اختلافٌ على الأيام والأزمنة، وانتقالٌ من حالٍ إلى حال. وكما يكونُ ذلك في
الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدُّول،
﴿سُئِلَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [سورة غافر، من الآية 85]. 10

وقد كانت في العَالَمِ أُمَمُ الفُرسِ الأولى، والسَّرِيايَتون، والنَّبِيط، والتَّبَايِعَةُ،
وبنو إسرائيل، والقَبِيط، وكانوا على أحوالٍ خَاصَّةٍ بهم في دُولهم ومَمَالِكهم وسياسَتهم
وصَنَائِعهم ولُغَاتهم واضطِلَاحاتهم، وسائر مُشاركاتهم مع أبنائِ جِنْسهم؛ وأحوالُ
اغْتَارهم للعَالَمِ تَشْهَدُ بها آثارُهم.

15 ثم جاء من بَعْدَهم الفُرسُ الثَّانِيَةُ والزُّرومُ والعَرَبُ والفِرَنْجَةُ^(ب)، فتبدَّلَتْ تلك
الأحوالُ، وانقلبتْ بها^(ج) العوائدُ إلى ما يُجَانِسُها وَيُشَابِهُها، وإلى ما يُبَايِنُها وَيُبَاغِضُها.
ثم جاء الإسلامُ بِدَوَلَةٍ مُضَرٍّ، فانقلبتْ تلك الأحوالُ أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى، وصارتْ

(١) من: ع ل ج ي (ب) أنبتا المؤلف في الأصل "ع" ثم شطبها، ولم ترد في الأصول الأخرى إلا في ظ (ج) سقط
من ل .

إلى ما أكثره متعارف لهذا العهد، يأخذه الخلف عن السلف. ثم دَرَسَتْ دولة العرب وأَيَامُهُمْ، وذهب الأسلاف الذين شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ، وصار الأمر في أيدي سِوَاهُمْ من العَجَم، مثل التُّرك بالْمَشْرِقِ، والبربر بِالْمَغْرِبِ، / والفرنجية بالشَّمال ؛ [22] فذهبت بذهَابِهِمْ أُمَّمٌ، وانقلبت أحوالٌ وعوائدٌ، نُسِيَتْ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا.

5 . والسَّبَبُ الشَّائِعُ في تبدُّل الأحوال والعوائد، أنَّ عوائد كلِّ جيلٍ تابعة لعوائد سُلْطَانِهِ ، كما يُقال في الأمثال الحكيمة : الناس على دين الملك . وأهلُ الملكِ والسُّلْطَانِ إذا استولوا على الدَّولة والأمرِ، فلا بُدَّ وأن يَنزَعُوا إلى عوائد مَنْ قَبْلَهُمْ ، ويأخذون الكثيرَ منها ، ولا يُغفلون عوائدَ جيلهم مع ذلك، فيقع في عوائد الدَّولة بغضُ المخالفة لعوائد الجيل الأوَّل ؛ فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومَرَجَتْ من عوائدهم وعوائدها ، خالفت أيضاً بعضَ الشَّيء ؛ وكانت للأولى أشدَّ مخالفةً. ثم 10 لا يزال التدرُّجُ في المخالفة حتَّى يَنتهي إلى المَبَائِثَةِ بِالْجُمْلَةِ؛ فما دامت الأُمُّ والأجيالُ تتعاقبُ في الملكِ والسُّلْطَانِ، لا تزالُ المخالفةُ في العوائد والأحوال واقعةً.

والقياسُ والمحاكاةُ للإنسان طبيعةً معروفةً، ومن الغلط غيرُ مأمونةٍ، تُخرجه مع الدُّهول والغفلة عن قضيده ، وتغوّجُ به عن مرامه . فربَّما يَسمع السامِعُ كثيراً من 15 أخبار المَاضِينَ، ولا يَتَنَبَّهُ لما وَقَعَ من تَغْيِيرِ الأحوال وانقلابها، فيَجْريها لأوَّل وهلة على ما عَرَفَ، ويقيسُها بما شَهِد؛ وقد يكونُ الفرقُ بَيْنَهُمَا كثيراً، فيقعُ في مَهْوَاةٍ من الغلط.

فمن هذا الباب، ما يَتَقَلُّهُ المؤرِّخون من أحوال الحُجَّاجِ، وأنَّ أباهُ كان من المُعَلِّمِينَ؛ ومع أنَّ التَّعليمَ لهذا العهد من جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ المَعاشِيَةِ البعيدة من اعتزاز أهل العَصِيَّةِ ، والمُعلِّمُ مُسْتَضَعَّفٌ مُسَكِينٌ، مُنْقَطِعُ الجِذْمِ، فيَتَشَوَّفُ الكثيرُ من

المُسْتَضْعَفِينَ أَهْلَ الْحِرْفِ وَالصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَّةِ إِلَى نَيْلِ الرُّتَبِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ ،
وَيَعْدُونَهَا مِنَ الْمُفَكِّنَاتِ لَهُمْ؛ فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوُسُ الْمَطَامِعِ، وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ
أَيْدِيهِمْ / فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالتَّلَفِ ، وَلَا يَعْلَمُونَ اسْتِحَالَתَهَا فِي حَقِّهِمْ ، [22 ب]
وَأَنْتُمْ أَهْلُ حِرْفٍ وَصَنَائِعٍ لِلْمَعَاشِ، وَأَنْ التَّعْلِيمَ صَدَرَ الْإِسْلَامَ وَالِدَوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ،
وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً، إِنَّمَا كَانَ ثَقْلًا لِمَا سَمِعَ مِنَ الشَّارِعِ، وَتَعْلِيمًا لِمَا جُهِلَ مِنْ 5
الَّذِينَ عَلَى جِهَةِ الْإِبْلَاجِ. فَكَانَ أَهْلُ الْأَنْسَابِ وَالْعَصَبِيَّةِ الَّذِينَ قَامُوا بِالْمِلَّةِ، هُمُ الَّذِينَ
يُعَلِّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ، عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبَرِيِّ، لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ
الصَّنَاعِيِّ؛ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ الْمُنَزَّلُ عَلَى الرَّسُولِ مِنْهُمْ ، وَبِهِ هِدَايَتُهُمْ، وَالْإِسْلَامُ دِينُهُمْ،
قَاتِلُوا عَلَيْهِ وَقُتِلُوا ، وَاخْتَصَّصُوا بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَشَرَفُوا ؛ فَيَخْرِصُونَ عَلَى تَعْلِيمِ ذَلِكَ
وَتَقْهِمِهِ لِلْأُمَّةِ، لَا تَصُدِّمُهُمْ عَنْهُ لَأَمَّةُ الْكِبَرِ، وَلَا يَزْعُمُهُمْ عَاذِلُ الْأَنْفَةِ. وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ بَعَثَ 10
النَّبِيَّ ﷺ ، كَبَارَ أَصْحَابِهِ مَعَ وَفودِ الْعَرَبِ يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ الْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ
شَرَائِعِ الدِّينِ ؛ بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْعَشْرَةَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ . فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ
وَوَسَّجَتْ عُرُوقُ الْمِلَّةِ ، حَتَّى تَنَاولَهَا الْأُمَمُ الْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا ، وَاسْتَحَالَتْ
بِمُرُورِ الْأَيَّامِ أَمْوَالُهَا، وَكَثُرَ اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ الْوُقُوعِ
وَتَلَاخُفِهَا، فَاحْتَاجَ ذَلِكَ إِلَى قَانُونٍ يَحْفَظُهُ مِنَ الْخَطَا، وَصَارَ الْعِلْمُ مَلَكَةً تَحْتَاجُ إِلَى 15
التَّعَلُّمِ، فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ وَالْحِرْفِ، كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ.

وَاشْتَغَلَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِالْقِيَامِ بِالْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ، فَدَفَعَ لِلْعِلْمِ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ،
وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ ، وَشَمَخَتْ أَنْوْفُ الْمُتَشْرِفِينَ وَأَهْلُ السُّلْطَانِ عَنِ التَّصَدِّيِّ لِلتَّعْلِيمِ ⁽¹⁾ ،

(1) ل : للتعليم .

[23] واختَصَّ انتِحَالَهُ بِالْمُسْتَضْعِفِينَ ، وصار مُنْتَحِلُهُ مُحْتَقَرًا عند أَهْلِ / الْعَصِيَّةِ وَالْمَلِكِ .

وَالْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ ، وَمَكَانُهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ وَمُنَاهِضَةِ قُرَيْشٍ فِي الشَّرَفِ مَا عَلِمَتْ . وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ ⁽¹⁾ عَلَى مَا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، مِنْ أَنَّهُ جِرْقَةٌ لِلْمَعَاشِ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ فِي الْإِسْلَامِ .

5 ومن هذا الباب ، ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ ، إذا سمعوا أحوال

القضاء وما كانوا عليه من الرئاسة في الحروب وقود العساكر . فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب ، يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل . ويظنون باین أبي عامر ، حاجب هشام المستبد عليه ، وابن

عباد من ملوك الطوائف بأشبيلية ، إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاء أنهم مثل 10 القضاء لهذا العهد ، ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد ، كما نبينه

في فضل القضاء من الكتاب الأول .

وابن أبي عامر وابن عباد ، كانا من قبائل العرب ، القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصيئتها ، وكان مكانهم فيها معلوماً ، ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد ، بل إنما كان القضاء في الأمر القديم

15 لأهل العصبيات من قبيل الدولة ومواليها ، كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب .

وانظر خروجهم بالعساكر في الصوائف ، وتقليدهم عظام الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغناء فيها بالعصبيّة . فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي [عليه] ^(ب) . وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من أهل الأنندلس لهذا

(1) ل : القرآن (ب) من ل .

[23 ب] العهد، لفقدان العصبية / في مواطنهم منذ أعصار بعيدة، لقضاء العرب ودولتهم بها ،
 وخروجهم عن ملكة أهل العصبية من البربر ؛ فبقيت أنسابهم العربية محفوظة،
 والدربة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة، بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين
 الذين تعبدهم القهر ، ورئمو المذلة ؛ يحسبون أن أنسابهم مع مخالطة الدولة هي
 التي يكون بها الغلب والتحكّم . فتجد أهل الحرف منهم والصنائع متصدّين لذلك 5
 ساعين في نيله . فأما من باشر أحوال القبائل والعصبية ودولهم بالعدوة المغربية،
 وكيف يكون التغلب بين الأمم والعشائر، فقلما يغلطون في ذلك أو يخطئون في
 اختياره.

ومن هذا الباب أيضاً، ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها،
 فيذكرون اسمه، ونسبه، وأمه ، وأباه، ونسائه، ولقبه، وخاتمه ، وقاضيه، وحاجبه، 10
 ووزيره؛ كل ذلك تقليداً لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم. والمؤرخون لذلك
 العهد، كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناءؤها متشوّفون إلى سير سلفهم
 ومعرفة أحوالهم، ليشتفوا آثارهم ويتسجوا على منوالهم، حتى في اضطناع الرجال من
 خلف دولتهم ، وتشليد الخطط والمراتب لأبناء صنائعهم وذويهم . والقضاة أيضاً كانوا
 من أهل عصبية الدولة وفي عداد الوزراء كما ذكرناه لك ؛ فيحتاجون إلى ذكر 15
 ذلك كله . وأما حين تباينت الدول ، وتباعد ما بين العصور ، ووقف الغرض على
 معرفة الملوك بأنفسهم خاصة، ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبها ، ومن
 كان يناهضها من الأمم أو يقصر عنها، فما الفائدة للمصنف لهذا العهد في ذكر الأبناء
 والنساء ونسب الخواتم واللقب / والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا تعرف [24 أ]

ففيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم؟! إنما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين، والدُّهولُ عن تحري الأغراض من التاريخ؛ اللهم إلا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم، وعُتت على الملوك أخبارهم؛ كالحجاج، وبني المهلب، والبرامية، وبني سهل بن نوح، وكافور الإخشيد، وابن أبي عامر، وأمثالهم؛ 5 فغير تكثير الإلماع بأيامهم، والإشارة إلى أحوالهم، لانتظامهم في عداد الملوك.

ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل بها، وهي: أن التاريخ إنما هو [ذكر] ⁽¹⁾ الأخبار الخاصة بعصر أو جيل. فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أس للمؤرخ ينبغي عليه أكثر مقاصده وتبني به أخباره. وقد كان الناس يُفردونه بالتأليف؛ كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب؛ شرح فيه 10 أحوال الأمم والآفاق لعهد في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً، وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول، وفرق شعوب العرب والعجم؛ فصار أمماً للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه. ثم جاء البكري من بعده، ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها من الأحوال؛ لأن الأمم والأجيال لعهد لم يقع فيها كبير ^(ب) انتقال 15 ولا عظيم تغير.

وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم، بمن طراً فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب، بما كثروهم وغلبوهم، / وانتزعوا [24 ب]

(أ) من: ع ل ج ي، وفي ظ: هو إخبار الخاصة (ب) في ج: كثير.

منهم عامّة الأوطان ، وشاركهم فيما بقي من البلدان لِمَلَكْتِهِمْ؛ هذا إلى ما نزل
 بالعُمران شرقاً وغرباً في مُنتصف هذه المائة الثامنة من الطّاعون الجارف، الذي
 تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العُمران ومحاها، وجاء
 للدُّول على حين هَرَمِها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها، وفلّ من حدّها،
 وأوهن من سُلطانها، وتداغت إلى التلاشي والاضمّحلال أحوالها، وانتقص⁽¹⁾ عُمران
 الأرض بانتقاص⁽¹⁾ البشَر، فخرّبت الأُمصار والمصانع، ودَرسَت السُّبُل والمعالم ،
 وخلّت الدِّيارُ والمنازل، وضَعُفت الدُّول والقبائل، وتَبَدَّل السّاكن. وكأنيّ بالمشرق
 قد نزل به مثلُ ما نزل بالمغرب، لكنّ على نِسْبَتِهِ ومِقْدَار عُمرانه. وكأنّما نادى لسانُ
 الكَوْن في العالم بالحمول والانتقاض، فبادر إلى الإجابة، والله وارثُ الأرض ومن
 عليها .

10

وإذا تَبَدَّلَت الأحوالُ جُمْلَةً، فكأنّما تَبَدَّلَ الخَلْقُ من أَصله، وتحوّل العالمُ بأسره،
 وكأنّهُ خُلِقَ جَديداً، ونشأةٌ مُستأنفة، وعالمٌ مُحدَث. فاحتاج لهذا العهد من يُدَوِّن
 أحوالَ الخليقة ، والآفاقَ وأجيالها ، والعوائدَ والنَّحْلَ التي تَبَدَّلَت لأهلها، ويتقو
 مَسَلَكٌ^(ب) المسعودي لعصره، ليكون أَصْلاً يَتَّقِدِي به مَنْ يَأْتِي مِنَ المؤرّخين مِنْ بَعْدِهِ.

وأنا ذاكِرٌ في كتابي هذا ما أُمَكِّنِي مِنْهُ في هذا القُطرِ المَغْرِبِي ، إمّا صريحاً ،
 أو مُندرجاً في أخباره وتلويحاً ، لاختصاص قُصْدي في التّأليف بالمغرب ، وأحوال
 أجياله وأُمَمه ، وذِكْر ممالكه ودُولِهِ دون ما سِواه من الأقطار ، لَعَدَم اِطِّلاعي على
 أحوال المَشْرِقِ وأُمَمه، وأنّ الأخبارَ المتناقلة لا تُوفِّي كُنْهَ ما أُرِيدُه مِنْهُ. والمَسعودي

15

(1) في ج : انتقض ... بانتفاض (ب) ج : مسالك .

إنما استوفى ذلك لبُعْد رِخْلَيْهِ وَثَقْلِهِ فِي الْبِلَادِ، كَمَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ؛ مَعَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَّرَ فِي اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ ؛ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76] ، / وَمَرَدُّ الْعِلْمِ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ، وَالْبَشَرُ عَاجِزٌ قَاصِرٌ، وَالاعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ ؛ [25] وَمَنْ كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِهِ تَيَسَّرَتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ ، وَأُنْجِحتْ لَهُ الْمَسَاعِي وَالْمَطَالِبُ . 5 وَنَحْنُ آخِذُونَ، بِعَوْنِ اللَّهِ، فِيمَا زُمِنَاهُ مِنْ أَغْرَاضِ التَّأْلِيفِ، وَاللَّهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ .



وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً فِي كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ إِذَا عَرَضَتْ فِي كِتَابِنَا هَذَا .

10 وَاعْلَمْ أَنَّ الْحُرُوفَ فِي النُّطْقِ، كَمَا يَأْتِي شَرْحُهُ بَعْدُ، هِيَ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَصْوَاتِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْحَنَجْرَةِ ، تَغْرِضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصَّوْتِ ، بِقَرْعِ اللَّهَاءِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ الْحَلْقِ أَوْ الْحَنَكِ وَالْأَضْرَاسِ ، أَوْ بِقَرْعِ الشَّفَتَيْنِ أَيْضاً ، فَتَتَغَايَرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ بِتَغْيِيرٍ^(١) ذَلِكَ الْقَرْعِ ، وَتَحْيِئُ الْحُرُوفُ مُتَمَايِزَةً فِي السَّمْعِ، وَتَرْكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ .

15 وَلَيْسَتْ الْأُمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي النُّطْقِ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ ، فَقَدْ يَكُونُ لِأُمَّةٍ مِنَ الْحُرُوفِ مَا لَيْسَ لِأُمَّةٍ أُخْرَى. وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا الْعَرَبُ هِيَ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ

(١) فِي: ل ج ي: بِتَغَايِرِ .

حَرْفًا كَمَا عَلِمْتَ؛ وَنَجِدُ لِلْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا ، وَفِي لُغَتِنَا أَيْضًا حُرُوفًا لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ الْإِفْرَنْجُ وَالتُّرْكُ وَالبَّرْبَرْ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْعَجَمِ.

ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْعَرَبِ اضْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمِ الْمُسَمَّوَةِ بِأَوْضَاعِ حُرُوفٍ مَكْتُوبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا ، كَوَضْعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَرَاءَ وَطَاءٍ ، إِلَى آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ ؛ فَإِذَا عَرَّضَ لَهُمُ الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ [حُرُوفِ] ⁽¹⁾ لُغَتِهِمْ 5 بَقِيَ مُهْمَلًا عَنِ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُغْفَلًا عَنِ الْبَيَانِ ؛ وَرُبَّمَا يَرْسُمُهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ بِشَكْلِ الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَتِفُهُ مِنْ لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِكَافٍ فِي الدَّلَالَةِ ؛ بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ .

وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْبَرْبَرْ وَبَعْضِ الْعَجَمِ ، وَكَانَتْ تَعْرِضُ لَنَا فِي 10 أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةٍ كِتَابَتْنَا وَلَا اضْطِلَاحُ أَوْضَاعِنَا ، اضْطَرَرْنَا إِلَى بَيَانِهِ ، وَلَمْ نَكْتَفِ بِرِسْمِ الْحَرْفِ الَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَا ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالْدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، / فَاضْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى ^(ب) أَنْ أَضَعُ ذَلِكَ الْحَرْفَ [25 ب] الْعَجَمِيِّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْحَرْفَيْنِ الَّذِينَ يَكْتَتِفَانِهِ ، لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِئُ بِالنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ مَخْرَجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ ، فَتَحْضُلَ تَأْدِيتُهُ .

وَإِنَّمَا اقْتَبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ رِسْمِ أَهْلِ الْمُصْحَفِ حُرُوفَ الْإِشْمَامِ ، كَالصَّرَاطِ فِي 15 قِرَاءَةِ خَلْفَ ، فَإِنَّ النُّطْقَ بِصَادِهِ فِيهَا مُفْخَمٌ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّايِ ، فَوَضَعُوا الصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّايِ ؛ وَدَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ.

(1) مِنْ: ي ل (ب) مَقْطُوعٌ مِنْ ل .

فكذلك رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا ، كالكاف
الْمَتَوَسِّطَةِ عِنْدَ الْبَرَبْرِ ، بَيْنَ الْكَافِ الصَّرِيحَةِ عِنْدُنَا وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ ، مِثْلَ اسْمِ بُلْكَيْنِ ،
فَأَضَعُهَا كَافاً وَأَنْقُطُهَا بِنُقْطَةِ الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْفَلِ ، أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ
فَوْقِ ، أَوْ ثِنْتَيْنِ ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مَتَوَسَّطٌ بَيْنَ الْكَافِ وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ . وَهَذَا
5 الْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ الْبَرَبْرِ ، وَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ : أَضَعُ
الْحَرْفَ الْمَتَوَسَّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعاً ، لِيَعْلَمَ الْقَارِئُ أَنَّهُ مَتَوَسَّطٌ
فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ ، فَنَكُونُ قَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ . وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ عَنْ
جَانِبَيْهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ الْحَرْفِ الَّذِي مِنْ لُغَتِنَا ، وَغَيَّرْنَا لُغَةَ
الْقَوْمِ ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ ^(١) .

(١) ترك النسخ بقية الصفحة 25 ب بيضاء ، وكذلك كامل الصفحة 26 أ من الأصل ظ .

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١)

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ^(١)

الكتاب الأول:

5 في طبيعة العُمران في المخلِقة ، وما يُعْرَضُ فيها من البدو والحضر ، والتغلب ،
والكسب ، والمعاش ، والعُلوم ، والصنائع ، ونحوها ،
وما لذلك من العلل والأسباب

اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو
عُمران العالم ، وما يُعْرَضُ لطبيعة ذلك العُمران من الأحوال ، مثل التوحش ،
والتأنس ، والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن
10 ذلك من الملك والسلو ومراتبها ، وما ينتج له البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب
والمعاش والعُلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العُمران بطبيعته من الأحوال .
ولما كان الكذب مُتَطَرِّقاً للخبر بطبيعته ، وله أسباب تقتضيه ، فمنها :

(١) سقط من ي .

التَّشِيعَاتِ لِلآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ ؛ فَإِنَّ التَّقَسُّ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْإِعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ ، أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّمْحِصِ وَالنَّظَرِ ، حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ . وَإِذَا خَامَرَهَا تَشْيِيعٌ لِرَأْيٍ أَوْ نِخْلَةٌ ، قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَيْلُ وَالتَّشْيِيعُ غَطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الْإِنْتِقَادِ وَالتَّمْحِصِ ، فَتَقَعُ فِي قَبُولِ الْكَذِبِ وَتَقْلَهُ . 5

وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي الْأَخْبَارِ أَيْضًا ، الثَّقَّةُ بِالنَّاqِلِينَ ؛ وَتَمْحِصُ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيعِ .

وَمِنْهَا : الذَّهْوُ عَنِ الْمَقَاصِدِ ؛ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ^(أ) لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ ، وَيَنْقُلُ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَحْمِينِهِ ، فَيَقَعُ فِي الْكَذِبِ .

وَمِنْهَا : تَوْهُمُ الصَّدَقِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ ؛ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي الْأَكْثَرِ مِنْ جَهَةِ الثَّقَّةِ بِالنَّاqِلِينَ . 10

* وَمِنْهَا : الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الْأَحْوَالِ عَلَى الْوَقَائِعِ ^(ب) ، لِأَجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ التَّلَبُّسِ وَالتَّصْنُوعِ ، فَيَنْقُلُهَا الْمُخْبِرُ كَمَا رَأَاهَا ، وَهِيَ بِالتَّصْنُوعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ * ^(ج) .

/ وَمِنْهَا : تَقَرُّبُ النَّاسِ فِي - الْأَكْثَرِ - لِأَصْحَابِ التَّجِلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالشَّنَاءِ [127]

15 وَالْمَدْحِ ، وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ ، وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ ، فَتُسْتَفِضُ الْأَخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ ؛ فَالنَّفُوسُ مَوْلَعَةٌ بِحُبِّ الشَّنَاءِ ؛ وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ ؛ وَلَيْسُوا - فِي الْأَكْثَرِ - بِرَاعِيَيْنِ فِي الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا .

(أ) ل ج ي ع : النَّاqِلِينَ (ب) ي ج : الْوَقَائِعِ (ج) سَقَطَ مَا بَيْنَ النُّجُومِ مِنْ ل .

ومن الأسباب المُتَضِية له أيضاً ، وهي سَابِقَةٌ على جَمِيع ما تَقَدَّمَ ، الجهلُ
بطَبَائِعِ الأَحْوالِ في العُمران؛ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ الحَوَادِثِ ، ذَاتاً كَانَ أَوْ فِعْلاً ، لَا بُدَّ
له من طَبِيعَةٍ تَخُصُّه في ذَاتِهِ وفيما يَغْرِضُ له من أحواله ؛ فإذا كَانَ السَّامِعُ عارِفاً
بطَبَائِعِ الحَوَادِثِ والأَحْوالِ في الوجودِ ومُتَضِياتِها ، أعانَهُ ذلك في تَمْحِيصِ الخَبَرِ على
تَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنَ الكَذِبِ ، وهذا أبلغُ في التَّمْحِيصِ من كُلِّ وَجْهٍ يُفَرِّضُ . 5

وكثيراً ما يَغْرِضُ للسَّامِعِينَ قَبُولُ الأَخْبَارِ المُسْتَحِيلَةِ ، وَيَتَقَلَّبُونَها وَتُؤَثِّرُ
عَنَهم . كما نَقَلَهُ المُسَعُودِي⁽¹⁾ عَنِ الإسْكَندَرِ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ البَحْرِ عَنِ بِنَاءِ
الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَكَيْفَ اتَّخَذَ تَابُوتَ الخَشَبِ وفي بَاطِنِهِ صُنْدُوقُ الزُّجَاجِ ، وَغَاصَ
فِيهِ إِلَى قَعْرِ البَحْرِ ، حَتَّى كَتَبَ صُورَ تلكِ الدَّوَابِّ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي رَأَاهَا ، وَعَمِلَ
تَمَائِيلَها مِنَ أَجْسَادِ مَغْدِيَّةٍ ، وَنَصَبَها جِذَاءَ البُنْيَانِ ، فَفَرَّتْ تلكِ الدَّوَابُّ حِينَ 10
خَرَجَتْ وَعَايَنَتْها ، وَتَمَّ لَهُ بِنَاؤُها ، فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةِ مُسْتَحِيلَةٍ ،
مِنْ قَبْلِ اتَّخَاذِ التَّابُوتِ الزُّجَاجِيِّ ، وَمُصَادَمَةِ البَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ بِجَزْمِهِ ؛ وَمِنْ قَبْلِ أَنَّ
الْمُلُوكَ لَا تَحْمِلُ أَنْفُسَها عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغَرَرِ ، وَمِنْ اعْتِمَادِهِ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَضَ نَفْسَهُ
لِلْهَلَكَةِ ، وَانْتِقَاضِ الْعُقْدَةِ ، وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَفِي ذَلِكَ تَلَاْفُهُ ، لَا يَنْتَظِرُونَ
بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غَرَرِهِ ذَلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ . وَمِنْ قَبْلِ أَنَّ الْجَنَّ لَا تُعْرِفُ لَهَا صُورٌ وَلَا 15
تَمَائِيلَ تَخْتَصُّ بِها ، إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشْكِكِ ، وَمَا يُذَكِّرُ مِنْ كَثْرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا
فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْبَشَاعَةُ وَالتَّهْوِيلُ ، لَا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهَذِهِ كُلُّها قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ .
وَالْقَادِحُ الْحَمِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ الوجودِ بِأَيِّينِ مِنْ هَذَا / كُلِّهِ ، أَنَّ الْمُتَعَمِّسَ فِي الْمَاءِ [27 ب]

(1) مروج الذهب 2 : 101 (830-831) .

ولو كان في الصُّندوق يَضِيقُ عليه الهواءُ لِلتَّنَفُّسِ الطَّبِيعِيِّ ، وَتَسَخُنَ رَوْحُهُ⁽¹⁾ بسرعةٍ لِقَلَّتِهِ ، فيفقد صاحبه الهواءَ الباردَ المعدَّلَ لمزاجِ الرِّثَّةِ والروحِ القَلْبِيِّ ، ويَهْلِكُ مكانه . وهذا هو السَّبَبُ في هَلَاكِ أَهْلِ الحَمَّامَاتِ إِذَا أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ عَنِ الهواءِ الباردِ ، والمُتَدَلِّينَ فِي الآبَارِ والمطاميرِ العميقة المَهْوَى ، إِذَا سَخُنَ هَوَاؤُهَا بِالْعُفُونَةِ ولم تُدَاخِلْهُمُ الرِّيحُ فَتُخَلِّجْهُمُ ؛ فَإِنَّ المُتَدَلِّيَ فِيهَا يَهْلِكُ لِحِينِهِ . وهذا السَّبَبُ يَكُونُ مَوْتُ الحوتِ إِذَا فارقَ البحرَ ؛ فَإِنَّ الهواءَ لا يَكْفِيهِ فِي تَعْدِيلِ رِثَّتِهِ ، إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ ، والماءُ الَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ ، والهواءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ حَارٌّ ، فَيَسْتَوِلِي عَلَى رَوْحِهِ الحيواني وَيَهْلِكُ دَفْعَةً . ومنه هَلَاكُ المَضْعُوقِينَ ، وأمثالُ ذلك .

ومن الأخبارِ المُسْتَحِيلَةِ ، ما نَقَلَهُ المَسْعُودِيُّ⁽¹⁾ أَيْضاً ، فِي تَمَالِ الزُّرُزُورِ الَّذِي بِرُومَةٍ ، تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الزَّرَازِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ ، وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ . وانظرْ ما أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ المَجْرَى الطَّبِيعِيِّ فِي اتِّخَاذِ الزَّيْتِ .

ومنها ما نَقَلَهُ البَكْرِيُّ⁽²⁾ فِي بِنَاءِ المَدِينَةِ المَسْمَاةِ ذَاتِ الأَبْوَابِ ، تُحِيطُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَّحَلَةً ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى عَشْرَةِ آلَافِ بَابٍ . والمَدُنُ إِنَّمَا تُخِذُ لِلتَّحْصَنِ والاعْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي ؛ وَهَذِهِ خَرَجَتْ عَنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا ، فَلَا يَكُونُ فِيهَا حِصْنٌ وَلَا مُعْتَصَمٌ .

(1) سقط من ي .

(1) مروج الذهب 2: 401 (1422)، ويبدو أنه ذكر هذا الخبر في أخبار الطُّلُسمَاتِ عن بَلِينُوسٍ وغيره مَفْصَلَةً فِي كِتَابِهِ أَخْبَارِ الزَّمَانِ المَفْقُودِ .

(2) المسالك والممالك 1: 262-263 .

وكما نقله المسعودي⁽¹⁾ أيضًا في حديث مدينة النحاس ، وأنها مدينة كلها من نحاس بصخراء سجلماسة ، طرقتها موسى بن نصير في غزاته إلى المغرب ، وأنها مغلقة الأبواب ، وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورَمَى بنفسه ، فلا يرجع آخر الدهر ، في حديث مُستحيل من خرافات القصاص . وصخراء سجلماسة قد [نقضها]⁽¹⁾ الركاب والأدلاء ولم يبقوا لهذه المدينة على خبر . ثم 5 إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مُستحيل عادة ، مُنافٍ للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها ؛ وأن المعادن غاية الوجود منها أن يُصرف في الآنية والحُرَاق ؛ وأما تشييد / مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبُعد ، وأمثال ذلك [28] كثير .

وتتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العُمران ، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في 10 تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التتمحيص بتعديل الرواة . ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى نعلم [أن]^(ب) ذلك الخبر في نفسه مُمكن أو مُمتنع . وأما إذا كان مُستحيلاً فلا فائدة للنظر في التّعديل والتّجريح .

ولقد عدّ أهل النظر من المطاعين في الخبر ، استحالة مدلول اللفظ أو تأويله 15 إن تُؤوّل بما لا يقبله العقل . وإنما كان التّعديل والتّجريح هو المعتبر في صحة الأخبار

(أ) في الأصول وفي ظ : نقضها (ب) من ل ، وسقط من ظ ، وفي ي ج ع : هل .

(1) في المروج 2 : 409 حديث مقتضب عن مدينة الصّفر بمفاوز الأندلس ، وخبر مدينة أخرى في أطراف مفاوز الهند أسوارها من الصّفر ، ولعل ابن خلدون يشير إلى نصّ أوسع تفصيلاً ، قد يكون في كتاب المسعودي المفقود أخبار الزمان .

الشرعية ، لأنَّ مُعْظَمَها تكاليف إنشائية أوجب الشَّارِعُ العملَ بها متى حَصَلَ الظَّنُّ بِصِدْقِها ؛ وسبيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ الثَّقةُ بالرواية للعدالة والضبط .

وأما الأخبار عن الواقعات ، فلا بُدَّ في صِدْقِها وصحَّتها من اعتبار المطابقة .

فلذلك وجب^(١) أن يُنظر في إمكان وقوعه ، وصار ذلك فيها أهم من التعديل

5 ومقدماً عليه ؛ إذ فائدة الإنشاء مُقتبسة منه فقط ، وفائدة الخبر منه ومن الخارج

بالمطابقة . وإذا كان ذلك ، فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان

والاستحالة ، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميز ما يلحقه

من الأحوال لذاته ومقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتدُّ به ، وما لا يمكن أن

يغرض له . وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك^(ب) لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في

10 الأخبار ، والصدق من الكذب بوجه بزهائي لا مدخل للشك فيه . وحينئذ ، فإذا

سمِعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران ، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم

بتزويفه . وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب

فيما يتفلونه . وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا .

وكأن هذا علمٌ مُستقلٌّ بنفسه ، فإنه ذو موضوع : وهو العمران البشري

15 والاجتماع الإنساني ، / وذو مسائل : وهي بيان ما يلحقه من الأحوال لذاته واحدة [28 ب]

بعد أخرى . وهذا شأن كلِّ علم من العلوم ، وضعياً كان أو عقلياً .

واعلم أن الكلام في هذا الغرض مُستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، عزيز

الفائدة ، أعتز عليه البحث ، وأدى إليه الغوص . وليس من علم الخطابة الذي هو

(١) ل : وجب علينا أن ننظر (ب) سقط من ع .

أحد الكتب المنطقية ؛ فإن موضوع⁽¹⁾ الخطابة إنما هو الأقوال المفيدة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي ، أو صدّهم عنه ؛ ولا هو أيضًا من علم السياسة المدنية ؛ إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة ، بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ، ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه . فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفئتين اللذين ربّما يشبهانه .

5

وكأنه علم مُستنبط النشأة . ولعمري لم أقف على الكلام في منحاها لأحد من الخليفة ، ما أدري لغفلتهم عن ذلك ؟ وليس الظنّ بهم ، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا ؛ فالعلوم كثيرة ، والحكماء في أتم النوع الإنساني متعدّدون ؛ وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل . فأين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح ؟ وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل ، وما ظهر عليهم من آثارها وتناجها ؟ وأين علوم القبط من قبلهم ؟ وإنّا وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة ، يكلف المأمون بإخراجها من لغتهم ، واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين ، وبذل الأموال فيها . ولم تقف على شيء من علوم غيرهم .

10

وإذا كانت كل حقيقة متعلّقة طبيعياً يصلح أن يُبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها ، وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصّه . لكن الحكماء^(ب) لعلهم إنّما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات ؛ وهذا إنّما ثمرته - كما رأيت - في الأخبار فقط ، وإن كانت مسائله / في ذاتها وباختصاصاتها شريفة ؛ لكن

[129]

(1) سقط من ج (ب) ج: العلماء .

ثمرته تصحيح الأخبار ، وهي ضعيفة ، فلهذا هجره ، والله أعلم . ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء، من الآية 85] .

وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه ، نجد منه ⁽¹⁾ مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم ، وهي من جنس مسائله بالموضوع والمطلب ، مثل ما يذكره الحكماء في إثبات النبوة ، من أن البشر متعاونون في وجودهم ، فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع. ومثل ما يذكر في أصول الفقه، في باب إثبات اللغات، أن الناس يحتاجون للعبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع، وشأن العبارات أخف. ومثل ما يذكره الفقهاء في تغليل الأحكام الشرعية بالمقاصد، في ^(ب) أن الرضا مخلطٌ للأنسَاب مُفسِدٌ للنوع، وأن القتل أيضاً مُفسِدٌ للنوع، وأن الظلم مؤذنٌ بخراب العمران المُقتضي فسادَ النوع ، وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام ؛ فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران، فكأن لها النظر فيما يعرض له، وهو ظاهرٌ من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة .

وكذلك أيضاً يقع إلينا القليل من مسائله في كلماتٍ مُتفرقة لحكماء الخليفة ، لكنهم لم يستوفوه . فمن كلام المؤيدان لبهرام بن بهرام ، في حكاية البوم التي نقلها المسعودي ⁽¹⁾ : أيها الملك، إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية ، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشرعية إلا بالملك؛ ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ، ولا سبيل

(1) ج: فيه (ب) سقط من ع ج .

(1) مروج الذهب 1: 294 (597) .

إلى العِمارة إلا بالعدل ، والعدلُ الميزانُ المنصوبُ بين الخليفة ، نصبه الربُّ ، وجعل له قِيماً وهو الملك .

ومن كلام أنوشيزوان⁽¹⁾ في هذا المعنى بعينه :

الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل،
والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال / باستقامة الوزراء ، ورأس الكلّ بافتقار⁽¹⁾ [29 ب] 5
الملك حال رعيته بنفسه، واقتداره على تأديبها، حتى يملكها ولا تملكه .

وفي الكتاب المنسوب لأرسطو⁽²⁾ في السياسة ، المتداول بين الناس ، جزء صالح منه ، إلا أنه غير مُستوفٍ ولا مُعطى حقّه من البراهين ومُختلطٌ بغيره ؛ وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه الكليّات التي نقلناها عن المؤبذان وأنوشيزوان ، وجعلها في الدائرة⁽³⁾ الغريبة التي أعظم القول فيها ، وهي قوله : 10

العالمُ بُستانٌ، سِيّاجُه الدولة، الدولة سلطانٌ، تحيا^(ب) به السُنّة، السُنّة سياسةٌ، يسوسُها الملك، الملك^(ج) نظامٌ ، يعضّده الجند ، الجند أعوانٌ ، يكفلهم

(1) في مروج الذهب : ورأس الكلّ تقدّ الملك أمور نفسه واقتداره على تأديبها ... (ب) ابن جلجل وابن أبي أصيبعة: تحجبه السُنّة (ج) المصدر نفسه: الملك راع يعضّده الجيش .

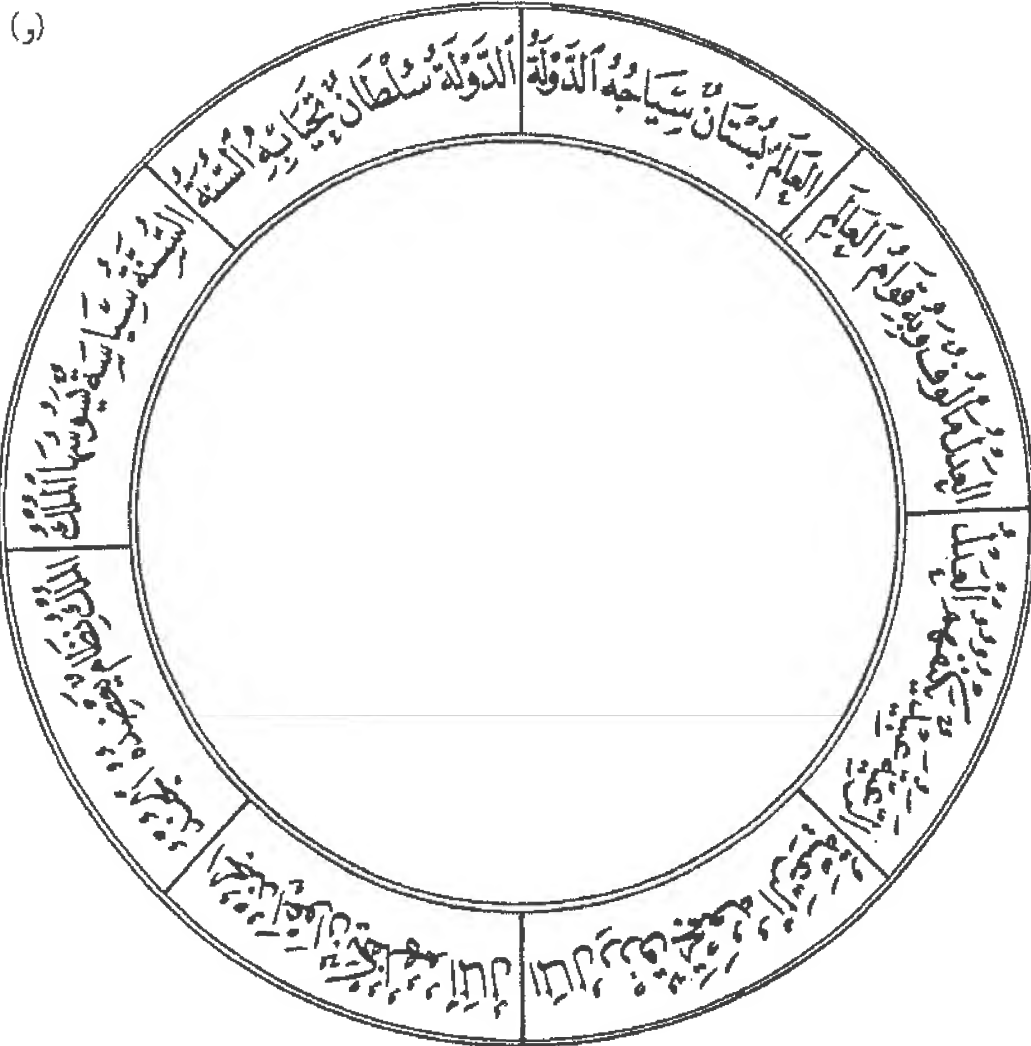
(1) مروج الذهب 1: 311 (631) .

(2) السياسة في تدبير الرئاسة، ويعرف بسرّ الأسرار، ترجمة يوحنا بن البطريق، (ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، عن نسخة سوهاج رقم 167). نُشر منه قسم باسم السياسة العامية. ولا يوجد فيه النصّ التالي . ويشكك ابن خلدون - فيما يلي - في نسبة الكتاب لأرسطو (المقدمة 1 : 208) .

(3) طبقات ابن جلجل 26 وابن أبي أصيبعة 102 أن أرسطوطاليس أوصى أن يُبنى عليه بعد موته قبة مئنة، يكتب في كل جانب منها كلمة من الكلمات الثمانية .

* المال ؛ المالُ رِزْقٌ ، تجمعه الرعيَّةُ ؛ الرعيَّةُ عبيدٌ ، يَكْنُفُهُمُ ^(أ) العذلُ * ^(ب) ، العذلُ مألوفٌ ^(ج) ، وبه قوامٌ ^(د) العالم . العالمُ بستانٌ .. ثم يرجع إلى أول الكلام .

[صورة الدائرة] ^(هـ)



(أ) ابن جلجل: يتبعدهم؛ ابن أبي أصيبعة: يَسْتَلْكُهُمْ (ب) سقط ما بين النجمين من ج (ج) ابن أبي أصيبعة: العذل ألفة بها صلاح العالم (د) ابن جلجل: وهو صلاح العالم (هـ) من ل (و) زُيِّمَت الدائرة في ع ج، وُثِرَ لها فراغ ولم تُدرَج في : ظ ل ي.

[30] هذه ثمان كلماتٍ حِكْمِيَّةٍ سِياسِيَّةٍ اِزْتَبَطَ بَعْضُهَا بَعْضٌ ، وَاِرتَدَّتْ اَعْجَازُهَا عَلَى صُدُورِهَا، / وَاِتَّصَلَتْ فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَعَيَّنُ طَرَفُهَا، فَخَرَّ بَعْثُورُهُ عَلَيْهَا، وَعَظُمَ مِنْ قَوَائِدِهَا. وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَضْلِ الْمَلِكِ وَالْدَوْلِ، وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنْ التَّصَفُّحِ وَالتَّفَهُمِ، عَثَرْتَ فِي أَثْنَائِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى مُبَيَّنًا بِأَوْعَبِ بَيَانٍ، وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ ؛ أَطْلَعَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ أَرِسْطُو 5 وَلَا إِفَادَةِ الْمُؤَنِّدَانِ.

وَكَذَلِكَ تَجَدُّ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ، وَمَا يَسْتَظَرُّ فِي رِسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ، الْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِ كِتَابِنَا هَذَا غَيْرِ مُبْرَهَنَةٍ كَمَا بَرَهَنَاهُ؛ إِنَّمَا يَجْلِيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنْحَى الْخُطَابَةِ فِي أُسْلُوبِ التَّرْسِيلِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ.

10 وَكَذَلِكَ حَوِّمَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الطُّرْطُوشِيُّ فِي كِتَابِ سِرَاجِ الْمُلُوكِ، وَنَوَّهَ عَلَى أَبْوَابِ تَقَرُّبٍ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا وَمَسَائِلِهِ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يُصَادَفْ فِيهِ الرَّمِيَّةُ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةُ، وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ، وَلَا أَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ؛ إِنَّمَا يَبُوبُ الْبَابَ لِلْمَسْأَلَةِ، ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ، وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِحُكَمَاءِ الْفُرْسِ، مِثْلَ [بُرْزُجْمَهْر]⁽¹⁾، وَالْمُؤَنِّدَانِ، وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ، وَالْمَأْثُورِ عَنْ دَانِيَالٍ وَهَزْمَسٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكْبَرِ الْخَلِيقَةِ ، وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ قِنَاعًا ، وَلَا يَزْفَعُ بِالْبَرَاهِينِ الطَّبِيعِيَّةِ حِجَابًا؛ إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ 15 شَبِيهٌ بِالْمَوَاعِظِ؛ وَكَأَنَّهُ حَوِّمَ عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ يُصَادِفْهُ، وَلَا تَحَقَّقْ قُضْدَهُ، وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ.

(1) مِنْ لَوْحَدَهَا وَفِي ظِي عَج: بُرْزُجْمَهْر، وَفِي حَاشِيَةِ ع: ضَبَطَهُ مِنْ لِسَانِ الْعَجَمِ: بُرْزُجْمَهْر .

وَنَحْنُ أَلْهَمْنَا اللَّهَ إِلَى ذَلِكَ إِلْهَامًا ، وَأَعَثَرْنَا عَلَى عِلْمٍ جَعَلْنَا سِنَّ بَكْرِهِ وَجُهَيْنَةَ
خَبْرِهِ . فَإِنْ كُنْتُ قَدْ اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ ، وَمَيَّزْتُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْجَاءَهُ ،
فَتَوْفِيقُ مِنَ اللَّهِ وَهْدَايَةٌ . وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَائِهِ ، وَاسْتَشَبَّهْتُ بغيرِهِ مَسَائِلُهُ ،
فَلِلنَّاطِرِ الْحَقِّقِ إِصْلَاحُهُ ؛ وَلِيَ الْفَضْلِ أَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ ، وَأَوْضَحْتُ الطَّرِيقَ ،
5 / وَاللَّهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ .

[30 ب]



وَنَحْنُ الْآنَ نُبَيِّنُ فِي هَذَا الْكِتَابِ مَا يَعْزِضُ لِلْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ ، مِنْ أَحْوَالِ
الْعُمُرَانِ فِي الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ ، بِوُجُوهِ بَزْهَانِيَّةٍ يَتَّضِعُ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي
مَعَارِفِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، وَتَتَدَفَعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتَرْتَفِعُ الشُّكُوكُ ، وَنَقُولُ :
10 لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصِّ اخْتِصَّصَ بِهَا .
فَمِنْهَا : الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ ،
وَشَرُفَ بِوَصْفِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ .

وَمِنْهَا : الْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ ؛ إِذْ لَا يُفَكِّرُ وَجُودُهُ دُونَ
ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا ، إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ التَّحُلِّ وَالْجَرَادِ ؛ وَهَذِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَهَا
15 مِثْلُ ذَلِكَ ، فَبطَرِيقِ الْإِلْهَامِيِّ لَا بِفِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ .

وَمِنْهَا : السَّغْيُ فِي الْمَعَاشِ وَالْاعْتِمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَاكْتِسَابُ أَسْبَابِهِ ،
لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْإِفْتِقَارِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ ، وَهَدَاهُ إِلَى التَّنَاسُلِ
وَطَلَبِهِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [سورة طه، من الآية 50] .

ومنها : العُمران ، وهو التَّساكن والتَّنازل في مِصْرٍ أو حِلَّةٍ لِلأُنس بالعِشرة واقتِضاء الحاجات ، لما في طباعهم من التَّعاون على المَعاش كما نَبَّئته . ومن هذا العُمران ما يكونُ بَدَوِيًّا ، وهو الَّذي يكون في الصَّواحي والجبال ، وفي الحِلَلِ المُنتجعة للفقار وأطراف الرِّمال . ومنه ما يكون حَضْرِيًّا ، وهو الَّذي بالأنْصَار والقرى والمدن والمداشِر ، للاعتصام بها والتَّحصُّن بِجُدُرانها ؛ وله في كلِّ هذه الأحوال أمورٌ تعرِّض 5 من حيث الاجتماع عُروضاً ذاتيّاً له .

فلا جَرَم انْخَصَرَ الكلامُ في هذا الكتاب في ستَّة فصول :

الأوَّل : في العُمران البَشَرِيَّ على الجُمْلَةِ ، وأصنافه وقِسْطه من الأرض .

الثَّاني : في العُمران البدويِّ ، وذكر القبائل والأُمَم الوَحْشِيَّة .

الثَّالث : في الدَّول والخِلافة والمُلْك ، وذكر المراتب السُّلْطانيَّة . [31] / 10

الرَّابع : في العُمران الحَضْرِيَّ ، والبُلدان والأنصار .

الخامس : في الصَّنائع والمعاش ، والكسْب ووُجُوْهه .

السادس : في العُلوم واكتسابها وتعلُّمها .

وقَدَّمْتُ العُمرانَ البَدَوِيَّ لأنَّه سَابِقٌ على جَمِيعِها ، كما يَتَبَيَّن لك بعد ؛ وكذا

تقديم المُلْك على البُلدان والأنصار ؛ وأمَّا تَقْدِيمُ المَعاش ، فَلِأَنَّ المَعاشَ ضروريَّ 15

طَبِيعِيٍّ ، وتعلُّمُ العِلْم كمالٌ أو حاجيٌّ ، والطَبِيعِيُّ أَقْدَمُ من الكَماليِّ . وجعلْتُ الصَّنائع مع الكَسْب ، لأنَّها منه يَبْغُضُ الوُجُوْه ومن حيث العُمران ، كما يَتَبَيَّن بعدُ .

والله الموفق والمعين .

الفصل الأوّل من الكتاب الأوّل :

في العمران البشري على الجملة ، وفيه مقدمات ،

الأولى :

في أنّ الاجتماع للإنسان ضروريّ، ويعتبر الحكماء عن هذا بقولهم : الإنسان
مدنيّ بالطبع؛ أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى
5 العمران. وبيانه: أنّ الله سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لا تصحّ حياتها
وتقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته، وبما ركّب فيه من القدرة على
تخصيله. إلّا أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء،
غير موفية له بمادة حياته منه. ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من
10 الحنطة مثلاً ، فلا يحصل إلّا بعلاج كبير من الطحن والعجن والطبخ . وكلّ واحد
من * هذه الأعمال الثلاثة، يحتاج إلى مواعين وآلات لا يتمّ إلا بصناعات متعدّدة
من ⁽¹⁾ حداد ونجار وفخّار ^(ب) . هبّ أنّه يأكله حبّاً من غير علاج؛ فهو أيضاً
يحتاج في تخصيله حبّاً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والحصاد والدرس

(1) سقط ما بين النجمين من ج (ب) كذا في ط ج ل ع، وفي ي وحاشية ع: فاخوري .

الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّبُلِ . وَيُحْتَاجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ / إِلَى آلَاتٍ [31 ب] مُتَعَدَّةٍ وَصَنَائِعَ كَثِيرَةٍ أَكْثَرُ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ . وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تُوفِيَ بِذَلِكَ كُلُّهُ أَوْ يَبْغُضَهُ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ . فَلَا بُدَّ مِنْ اجْتِمَاعِ الْقُدَرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِتَحْصِيلِ الْقُوَّةِ لَهُ وَلَهُمْ؛ فَيَحْصُلُ بِالتَّعَاوُنِ قُدْرُ الْكَفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ .

5 * وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضاً فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ^(أ)؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطَّبَاعَ^(ب) الْحَيَوَانِيَّةَ كُلَّهَا، وَقَسَمَ الْقُدْرَ بَيْنَهَا، جَعَلَ حُظُوظَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حِظِّ الْإِنْسَانِ، فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مِثْلًا أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ؛ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ؛ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْعُدْوَانُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ ، جُعِلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَضْوٌ يَخْتَصُّ بِمُدَافَعَةٍ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةِ غَيْرِهِ . وَجُعِلَ لِلْإِنْسَانِ عِوَضاً مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرُ وَالْيَدُ، فَالْيَدُ مَهَيَّئَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ؛ وَالصَّنَائِعُ تَحْصُلُ لَهُ الْآلَاتُ الَّتِي تَنْوِبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ ، مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تَنْوِبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِحَةِ ؛ وَالسِّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنِ الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ ؛ وَالتَّرَاسِ النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ .

10 15 فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا تَقَاوِمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ، سِوَمَا الْمُفْتَرَسَةِ ؛ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ مُدَافَعَتِهَا وَخَدِّهَا بِالْجُمْلَةِ ؛ وَلَا تَقِي قُدْرَتُهُ أَيْضاً بِاسْتِعْمَالِ الْآلَاتِ الْمُعَدَّةِ لِلْمُدَافَعَةِ ، لِكَثْرَتِهَا وَكَثْرَةِ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَاعِينِ الْمُعَدَّةِ لَهَا . فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ . وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ ، فَلَا [يَحْصُلُ]^(ج) لَهُ قُوَّةٌ

(أ) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ل : الطباع (ج) كذا في الأصول وفي ط وحدها: يكن .

ولا غِذاء ولا نِعمَ حِياتِه ؛ لما رَزَقَهُ اللهُ عليه من الحَاجةِ إلى الغِذاءِ في حِياتِه ؛
ولا يَحْصِلُ له أيضًا دِفاعٌ عن نَفْسِه ، لِفقْدانِ السِّلاحِ ، فيكونُ فريسةً للحيواناتِ ،
[ويعالجه] ⁽¹⁾ الهلاكُ عن مَدَى حِياتِه ، / وَيَنْظُرُ نِوعُ البَشَرِ . [32]

وإذا كان التعاونُ ، حَصَلَ له القوَّةُ للغِذاءِ ، والسِّلاحُ لِلْمُدافعةِ ، وَتَمَّتْ
حِكمةُ اللهِ في بَقائِه وَحِفْظُ نِوعِه . فَإِذَنْ ، هذا الاجتماعُ ضَروريٌّ لِلنَّوعِ الإنسانيِّ ؛
5 وإلَّا لم يَكْمُلْ وَجُودُهم وما أَرادَهُ اللهُ [من] ^(ب) اغْتِمَارِ العالَمِ بِهِم واستِخْلَافِه إِيَّاهُمْ ؛
وَهَذَا هو مَعْنَى العُمُرانِ الَّذِي جَعَلَناهُ مَوْضوعًا لِهَذَا العِلْمِ .

وفي هذا الكلامِ نِوعُ إثباتٍ لِلْمَوْضوعِ في فَتَةِ الَّذِي هو مَوْضوعٌ له . وهذا
وإن لم يَكُنْ واجباً على صاحِبِ الفَنِّ ، لما تَقَرَّرَ في الصَّنْاعةِ المنطَقيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ على
صاحِبِ عِلْمٍ إثباتُ المَوْضوعِ في ذَلِكَ العِلْمِ ؛ فَلَيْسَ أيضًا من المَفْضوعاتِ عِنْدَهم ؛
10 فيكونُ إثباتُه من التَّبَرُّعاتِ ، واللهُ الموفِّقُ بِفَضْلِه .

ثم إنَّ هذا الاجتماعَ إذا حَصَلَ للبَشَرِ ، كما قَرَّرناهُ ، وَتَمَّ عُمُرانُ العالَمِ بِهِم ،
فلا بُدَّ من وازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضُهم عن بَعْضٍ ؛ لما في طِباعِهِم الحيوانيَّةُ من العُدوانِ
والظُّلْمِ . وَلَيْسَتْ السِّلاحُ الَّتِي جُعِلَتْ دافِعةً لَعُدوانِ الحيواناتِ العُجْمِ عَنْهُمْ بِكَافِيَةٍ
في دَفْعِ العُدوانِ بَيْنَهُم ، لِأَنَّها مَوْجُودَةٌ لِجَميعِهِم ، فلا بُدَّ من شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدوانَ
15 بَعْضِهِم عن بَعْضٍ . ولا يَكُونُ من غَيْرِهِم لِقُصُورِ جَميعِ الحيواناتِ عن مَدَارِكِهِم
وإِهْمالِهِم . فيكونُ ذَلِكَ الوَازِعُ واحِدًا مِنْهُمْ ، تَكُونُ له عَلَيْهِم الغَلَبَةُ والسُّلْطانُ
واليدُ القاهِرَةُ ؛ حَتَّى لا يَصِلُ أَحَدٌ إلى غَيْرِهِ بِعُدوانٍ ؛ وهذا هو مَعْنَى المُلْكِ . وقد

(1) من ع ل ج ي ، وفي ظ : يعالجه (ب) في ظ وحدهما : في .

تَبَيَّنَ لَكَ بهذا أَنَّهُ خَاصَّةٌ لِلإِنسَانِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا. وَقَدْ تَوَجَّدَ فِي بَعْضِ
الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ، كَمَا فِي النَّحْلِ وَالْجَرَادِ، لَمَّا اسْتَقْرِيءَ فِيهَا مِنْ
الْحُكْمِ وَالْإِتْقَادِ وَالْإِتِّبَاعِ لِرَئِيسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا، مُتَمَيِّزٍ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجُثْمَانِهِ؛ إِلَّا
أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لَغَيْرِ الْإِنسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْهِدَايَةِ، لَا بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ:

5 ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه، من الآية 50] .

ويزيدُ الفلاسفةُ على هذا البرهان ، حيثُ يحاولون إثبات النبوة بالدليل
العقلي، وأنها خاصة بطبيعة الإنسان، فيقررون هذا البرهان إلى غايته ، وأنه لا بُدَّ
للبشر من الحكم الوازع ، / ثم يقولون بعد ذلك: وذلك الحكم يكون بشرع مفروض
من عند الله يأتي به واحدٌ من البشر ، يكون مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللهُ فِيهِ مِنْ
10 خواص هِدَايَتِهِ ، لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ ، حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ
إِنْكَارٍ وَلَا تَثْرِيبٍ .

وهذه القضية للحُكَمَاءِ غَيْرُ بُزْهَائِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ ؛ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ
مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرُضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ، أَوْ بِالْعَصِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ
وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ . فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَشَبِّهُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَجُوسِ
الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ؛ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ النَّبُولُ وَالْآثَارُ
15 فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ؛ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْخَرِفَةِ إِلَى الشَّامِ
وَالْجَنُوبِ. بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعِ الْبَتَّةِ، فَإِنَّهُ مُمْتَنِعٌ . وَهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ
غَلْطُهُمْ فِي وَجُوبِ النَّبُوتِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ ، وَإِنَّمَا مُدْرَكُهُ الشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ
السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ . وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ.

المقدمة الثانية:

فِي قِسْطِ الْعُمْرَانِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَالْإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ
مِنَ الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَقَالِيمِ

إنَّه قد تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاطِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ ، أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ
كَرِّيٌّ ، وَأَنَّهَا مُحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ . فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ 5
جَوَانِبِهَا ، لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَكُونِ^(١) الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا ، وَعُمْرَانِهَا بِالتَّوَعُّدِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي
لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا . وَقَدْ يُتَوَقَّعُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ ؛ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ؛
وَأَمَّا التَّحْتَ الطَّبِيعِيِّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسْطُ كُرَّتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا ، وَالْكُلُّ يَطْلُبُهُ
بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ ؛ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا . وَالْمَاءُ الْحَاطِ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ ؛ وَإِنْ قِيلَ
فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةِ أُخْرَى عَنْهُ . وَهَذَا الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ 10
مِنَ الْأَرْضِ هُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ ، أَحَاطَ الْعُنْصُرُ الْمَائِيَّ بِهَا
مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرُ الْحَاطِ ، وَيُسَمَّى أَيْضًا لِبَلَايَةِ ، بِتَفْخِيمِ اللَّامِ
الثَّانِيَةِ ، وَيُسَمَّى أَوْفِيَانُوسَ ، أَسْمَاءُ أَجْمَعِيَّةٌ ، وَيَقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ ، وَالْأَسْوَدُ .

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشَفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمْرَانِ ، فِيهِ الْقِفَارُ ، وَالْخِلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ
عُمْرَانِهِ ، وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ / أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ ؛ وَإِنَّا الْمَعْمُورُ مِنْهُ 15 [133]

(١) مِنْ ج ، وَفِي ع ل ي : تَكُونُ ، وَفِي ظ : تَكْرِير .

قطعة أميل إلى جانب الشمال ، على شكل سطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء ، ومن جهة الشمال إلى خط كروي ، وراءه الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري التي بينها سدّ ياجوج وماجوج . وهذه الجبال مائلة إلى جهة الشرق . وتنتهي من الشرق والغرب إلى عنصر الماء أيضا بقطعتين من الدائرة المحيطة .

5 وهذا المنكشف من الأرض ، قالوا هو مقدار التصف من الكرة أو أقل ؛ والمعمر منه مقدار زئجه ؛ وهو المنتقسم بالأقاليم السبعة .

وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق ، وهو طول الأرض ، وأكبر خط في كرتها ؛ كما أن منطقة البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك .

10 ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة ؛ والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخا ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال ، لأن الميل أربعة آلاف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهرًا لبطن .

15 وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين ، وتسامت خط الاستواء من الأرض ، وبين كل واحد من القطبين ، تسعون درجة . لكن العِمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربعة وستون درجة ، والباقي منها خلاء لا عِمارة فيه ، لشدة البرد والجُمود ، كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر ، كما نُبِّئ ذلك كله إن شاء الله [تعالى] ⁽¹⁾ .

(1) من : ل ي ج ع .

ثم إنّ المُخْبِرِينَ عن هذا المَعْمُورِ وَحُدُودِهِ ، وما فيه من الأُمُصارِ والمُدُنِ والجِبَالِ والقِفَارِ والرَّمالِ ، مثل بَظْلَمِيُوسِ في كتاب الجغرافيا ، وصاحب كتاب رُجَّارٍ من بَعْدِهِ ، قَسَمُوا هذا المَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسامٍ ، يُسَمُّونها السَّبْعَ الأقاليمَ ، بِحُدُودٍ وَهَمِيَّةٍ بين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، مُتساوِيَةٍ في العَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ في الطَّوْلِ ؛ فالإقليم الأولُ أَطْوَلُ ممَّا بَعْدَهُ ، وكذا الثَّاني ، إلى آخِرِها ؛ فيكون السَّابعُ أَقْصَرَ لما اقتضاه 5 وَضَعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ من انْحِسارِ الماءِ عن كُرَّةِ الأَرْضِ . وكلُّ واحدٍ من هذه الأقاليمِ عِنْدَهُمْ / مُنْقَسِمٌ بِعَشْرَةِ أَجزاءٍ ، من المَغْرِبِ إلى المَشْرِقِ على التَّوَالِي ؛ وفي كُلِّ جِزْءٍ [33 ب] الخَبْرُ عن أَحوالِهِ وأَحوالِ عُمَرانِهِ .

وذكروا أَنَّ هذا البَحْرَ المَحِيطَ يَخْرُجُ مِنْهُ من جِهَةِ المَغْرِبِ من ^(أ) الإقليمِ الرَّابِعِ ، البَحْرُ الرُّومِيُّ المَعْرُوفُ . يَبْدَأُ في خَلِيجِ مُتَضايِقٍ في عَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً أو نَحْوِها ، 10 ما بَيْنَ طَنْجَةِ وطَرِيفٍ ، وَيُسَمَّى الرُّقاقَ ؛ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشْرِقاً ، وَيَنْفَسِحُ إلى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ . وَنَهايَتُهُ في آخِرِ الجُزْءِ الرَّابِعِ من الإقليمِ الرَّابِعِ ، على أَلْفِ فَرَسَخٍ وَمِائَةِ وَسْتَيْنِ فَرَسَخاً من مَبْدِئِهِ ؛ وَعَلَيْهِ هُنالِكَ سِوَا جِلِّ الشَّامِ .

وعَلَيْهِ من جِهَةِ الجَنُوبِ سِوَا جِلِّ المَغْرِبِ ، أَوَّلُها طَنْجَةُ عِنْدَ الخَلِيجِ ، ثُمَّ إِفْرِيقِيَّةُ ، ثُمَّ بَرْقَةُ إلى الإسْكَندَرِيَّةِ . ومن جِهَةِ الشَّمالِ سِوَا جِلِّ القُسْطَنْطِينِيَّةِ ، ثُمَّ البَنادِيقَةُ ، ثُمَّ 15 رُومَةُ ، ثُمَّ الإِفْرِنجَةُ ، ثُمَّ الأَنْدَلُسُ إلى طَرِيفٍ عِنْدَ الرُّقاقِ قُبالةَ طَنْجَةِ . وَيُسَمَّى هذا البَحْرُ ، الرُّومِيُّ والشَّامِيُّ ؛ وفيهِ جُزُرٌ كَثِيرَةٌ عَامِرَةٌ ، كَبارُها مِثْلُ أَقْرِيطَشٍ ، وَقَبْرِصٍ ، وَصِيقَلِيَّةٍ ، وَمِيبُورْقَةِ ^(ب) ، وَسَرْدَانِيَّةٍ ، وَدَانِيَّةٍ .

(أ) في بَقِيَةِ الأَصُولِ : في (ب) ظ ي : بِبُورْقَةِ .

قالوا: ويخرج منه في جهة الشمال بجران آخران^(أ)، من خليجين ، أحدهما: مُسَامِتٌ للقُسطنطينيّة ، يبدأ من هذا البحر مُتضايقاً في عَرْض رُمِيّة السّهم ويَمُرُّ ثلاثة [مجار]^(ب) ، فيتصل بالقُسطنطينيّة ؛ ثم يفسح في عَرْض أَرْبعة أميال ، ويمُرُّ في جَزِيه سِتّين ميلاً ، ويُسمّى خليج القُسطنطينيّة ، ثم يخرج من قُوّهة عَرْضها سِتّة أميال ، فيمُدُّ بحر نيطش^(ج) ؛ وهو بَحْرٌ يَنحَرِفُ من هنالك في مَذْهبه إلى ناحية الشّرق ، فيمرُّ بأرض هريقلية ، وينتهي إلى بلاد الخزريّة على ألف وثلاثمائة ميل من قُوّهته ، وعليه من الجانبين أُمَم من الرّوم والترك وبرجان^(د) والرّوس .

والبحر الثاني من خليجي هذا البخر الرّومي وهو بَحْرُ البنادقة ، يخرج في بلاد الرّوم على سَمْت الشمال ، فإذا انتهى إلى شَنَت أنجل انحرف في سَمْت الغرب إلى بلاد البنادقة ، وينتهي إلى بلاد أنكلآية على ألف ومائة ميل من مَبْدئه . وعلى صِفَتَيْهِ من البنادقة والرّوم وغيرهم أُمَم ، ويُسمّى خليج البنادقة .

قالوا : وينسأح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشّرق ، وعلى ثلاث عَشْرَة درجة في الشمال من خَطّ الاسْتواء ، بَحْرٌ عَظِيمٌ مُتَسَّعٌ ، يمرُّ إلى الجنوب قليلاً حتّى يَنْتَهِى إلى الإقليم الأوّل ، ثُمَّ يَمُرُّ فيه مُعَرَّباً / إلى أن يَنْتَهِى في الجزء الخامس [134] منه إلى بلاد الحبشة والزّنج ، وإلى باب المَندب منه على أَرْبعة آلاف فَرْسَخٍ وخَمْسَمائة فَرْسَخٍ من مَبْدئه . ويُسمّى البحر الصّينيّ والهنديّ والحبشيّ .

(أ) ج : زاخران (ب) في ظ وحدها : مجار (ج) كذا في جميع الأصول، وصوابه المعروف بنطش أو بنطس ، وعلّق

Ch. Pellat في فهارس المروج : أن الكتاب حرفوا اسم Ποντος فصار نيطس ، وانظر الموسوعة الإسلامية E. I.

بحر بنطس 5: 334 (المروج 6: 209) (د) ي: بجران

وعليه من جهة الجنوب، بلاد الزنج وبلاد بَزْرا التي ذكرها امرؤ القيس في
شعره⁽¹⁾ ، ولنسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب . ثم بلد مَقْدِشو ، ثم بلد
سُقَالَة ، وأرض الواق واق ، وأمم أخرى ليس بغدهم إلا القفار والحلاء .

وعليه من جهة الشمال الصين من عند مَبْدئه ، ثم الهند ، ثم السند ، ثم
سواحل اليمن من الأخفاف وزيد وغيرها، ثم بلاد الزنج عند نهايته؛ وبعدهم البجة . 5
قالوا : ويخرج من هذا البحر الحبشي بجران آخران ، يخرج أحدهما من نهايته
عند باب المندب ، فيبدأ متضايقا ، ثم يمر مستبحرا إلى ناحية الشمال ومغربا
قليلا، إلى أن ينتهي إلى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني، على ألف
وأربعمئة ميل من مَبْدئه، وهو بحر القلزم وبحر السويس . وثينه وبين فسطاط مضر
من هنالك ثلاثة مراحل . وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن، ثم الحجاز وجدة ، 10
ثم مدين ، وأيلة، وقازان عند نهايته .

ومن جهة الغرب، سواحل الصعيد وعذاب وسواكن وزالغ، ثم بلاد البجة
عند مَبْدئه، وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش . وبينهما نحو
سِت مراحل . وما زال الملوك في الإسلام وقبلة يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك .
والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ، ويسمى الخليج الأخضر ، يخرج ما 15
بين بلاد السند والأخفاف من اليمن، ويمر إلى ناحية الشمال مغربا قليلا إلى أن

(1) يشير إلى قوله :

على كل مقصوص الدنابي معاود يريد السرى بالليل من خيل بَزْرا

الدنوان : 66 .

يَنْتَهِي إِلَى الْأُبُلَّةِ مِنْ سِوَا حِلِّ الْبَصْرَةِ ، فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي ، وَعَلَى أَرْبَعِمِائَةِ فَرْسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدَئِهِ ، وَيُسَمَّى بَحْرُ فَارِسَ .

وعليه من جهة الشرق سِوَا حِلِّ السُّنْدِ وَمُكْرَانَ وَكُزْمَانَ وَفَارِسَ ، وَالْأُبُلَّةُ عِنْدَ نَهَايَتِهِ؛ وَمِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سِوَا حِلِّ الْبَحْرَيْنِ، / وَالْيَمَامَةِ، وَعُمَانَ، وَالشَّخْرِ، وَالْأَخْقَافِ [34 ب] 5 عِنْدَ مَبْدَئِهِ. وَفِيمَا بَيْنَ [بَحْرٍ]^(أ) فَارِسَ وَالْقُلْزُومِ هِيَ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ ، كَأَنَّهَا دَخَلَةٌ^(ب) مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ، يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ، وَبَحْرُ الْقُلْزُومِ مِنَ الْغَرْبِ، وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ ؛ وَتَقْضِي إِلَى الْعِرَاقِ فِيمَا بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ ، عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا . وَهَنَّاكَ الْكُوفَةُ ، وَالْقَادِسِيَّةُ ، وَبَغْدَادُ ، وَإِيوَانَ كِسْرَى ، وَالْحِيرَةُ . وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمَّمُ الْأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ وَالْخَزَرِّ وَغَيْرِهِمْ .

10 وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلَادُ الْجَزَارِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا ، وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا ، وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ [مِنْهَا]^(ج) ، وَسِوَا حِلِّهِ عَلَى الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ .

قالوا : وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٍ آخَرٌ مُنْقَطِعٌ عَنْ سَائِرِ الْبِحَارِ فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ بِأَرْضِ الدَّيْلَمِ ، يُسَمَّى بَحْرُ جُزْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ ، طُولُ أَلْفِ مِيلٍ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ 15 مِيلٍ ؛ فِي غَرْبِهِ أَذْرَبِجَانَ وَالدَّيْلَمَ ، وَفِي شَرْقِيهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخَوَارِزْمُ ، وَفِي جَنُوبِيهِ طَبْرِسْتَانُ^(د) ، وَفِي شِمَالِيهِ أَرْضُ الْخَزَرِّ وَاللَّانِ .

هَذِهِ جُمْلَةُ الْبِحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغَرَفِيَا .

(أ) سَقَطَتْ مِنْ ظَ وَحَدَّثَا (ب) ي : دَاخِلَةٌ (ج) سَقَطَتْ مِنْ ظَ (د) ضَبَطَهَا فِي عَ بِالْحَرَكَاتِ: طَبْرِسْتَانُ .

قالوا : وفي هذا الجزء المغمور أنهارٌ كثيرة ، أعظمها أربعة أنهار ، وهي :
النيل ، والفرات ، ودجلة ، و^(أ)نهر بلخ المسمى جِيحُون .

فأما النيل فَمَبْدُؤُهُ من جَبَلٍ عَظِيمٍ وراءَ خطِّ الاستواءِ بسِتِّ عَشْرَةِ دَرَجَةِ ،
وعلى سَمْتِ الجزءِ الرَّابِعِ من الإقليمِ الأوَّلِ ، ويُسمَّى جَبَلُ القُمرِ ، ولا يُعْلَمُ في الأرضِ
جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ ، تَخْرُجُ مِنْهُ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ ، فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي بُحِيرَةٍ هُنَاكَ ، وَبَعْضُ
5 فِي أُخْرَى ، ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ ، فَتَصُبُّ كُلُّهُمَا فِي بُحِيرَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ
الاستواءِ ، وعلى عَشْرِ مَرَاكِلٍ مِنَ الْجَبَلِ .

وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبُحِيرَةِ نَهْرَانِ : يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ عَلَى سَمْتِهِ ،
وَيَمُرُّ بِبِلَادِ الثُّوبَةِ ، ثُمَّ بِبِلَادِ مِصْرَ ، فَإِذَا جَاوَزَهَا^(ب) تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى
كُلُّ مِنْهَا خَلِيجًا ، وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ عِنْدَ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَيُسَمَّى نَيْلُ مِصْرَ ،
10 وَعَلَيْهِ الصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيَّهِ ، وَالْوَاهَاتُ مِنْ غَرْبِيَّهِ . وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مَنْعِطًا إِلَى
[35] الْغَرْبِ ، / ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَهُوَ نَيْلُ السُّودَانِ ؛
وَأُمَمُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفَّتَيْهِ .

وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ،
وَيَمُرُّ جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ وَمَلَطِيَّةٍ إِلَى مَنبِجَ ، ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفِّينَ ، ثُمَّ بِالرَّقَّةِ ، ثُمَّ بِالْكُوفَةِ ،
15 إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ الَّتِي بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوَاسِطَ ، وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ
الْحَبَشِيِّ ؛ ^(ج) وَتَحْلُبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ
فِي دِجْلَةَ .

(أ) فِي ل : وَهُوَ نَهْرٌ بَلَخَ (ب) ل : جَاوَزَهَا (ج) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَجْمَيْنِ مِنْ ج .

وَأَمَّا دِجْلَةٌ ، فَمَبْدُؤُهَا أَعْيُنُ بِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرَمِينِيَّةٍ أَيْضًا ، وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ
الْجَنُوبِ بِالْمَوْصِلِ وَأَذَرَبَيْجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطٍ ، فَيَفْتَرِقُ فِي خُلْجَانٍ تَصُبُّ كُلُّهَا فِي
بُحَيْرَةِ الْبَصْرَةِ ، وَتُقْضَى إِلَى بَحْرِ فَارِسَ ؛ وَهُوَ فِي الشَّرْقِ عَلَى ^(أ) نَهْرِ الْفُرَاتِ * ^(ب) .
وَتَحْلُبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . وَفِيهَا بَيْنُ الْفُرَاتِ وَدِجْلَةٍ مِنْ أَوَّلِهِ ،
5 هِيَ جَزِيرَةُ الْمَوْصِلِ ، قُبَالَةَ الشَّامِ مِنْ عُذُوقِ الْفُرَاتِ ، وَقُبَالَةَ أَذَرَبَيْجَانَ مِنْ عُذُوقِ
دِجْلَةٍ .

وَأَمَّا نَهْرُ جَيْخُونٍ فَمَبْدُؤُهُ مِنْ بَلَخٍ ، فِي الْجَزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ ، مِنْ
عُيُونٍ هُنَاكَ ^(ج) كَثِيرَةٌ ؛ وَتَحْلُبُ [إِلَيْهِ] ^(د) أَنْهَارٌ عِظَامٌ ؛ وَيَذْهَبُ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى
الشَّامِ ، فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ؛ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خَوَارِزْمَ فِي الْجَزْءِ الثَّامِنِ مِنَ
10 الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ؛ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ الْجُرْجَانِيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ ^(هـ) مَدِينَتِهَا ، وَهِيَ مَسِيرَةُ
شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ ، وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرَزَغَانَةَ وَالشَّاشَ الْآتِي مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ . وَعَلَى غَرْبِي
نَهْرُ جَيْخُونٍ بِلَادُ خُرَاسَانَ وَخَوَارِزْمَ ؛ وَعَلَى شَرْقِيَّتِهِ بِلَادُ بَخَارَى وَالتُّرْمُذَ وَتَمْرَقَنْدَ ؛
وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرَزَغَانَةَ وَالْحَرَلِيَّةَ وَأُمَمَ الْأَعَاجِمِ .

وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ بَطْلَمَيْوسُ فِي كِتَابِهِ ، وَالشَّرِيفُ فِي كِتَابِ رُجَّارٍ ، وَصَوَّرُوا
15 فِي الْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَوْدِيَةِ ، وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ
مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لَطَوْلِهِ ، وَلَآنَ عِنَايَتُنَا فِي الْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ
الْبَرَبْرِ ، وَبِالْأَوْطَانِ الَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ الْمَشْرِقِ . وَاللَّهُ وَاهِبُ الْمَعُونَةِ .

(أ) ع ج ل ي : عن (ب) نهاية سقط من ج (ج) ل : هنالك (د) في ط وحدها : عليه (هـ) ل : أسفل .

تَكْمِلَةُ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ الثَّانِيَةِ

[35 ب] / فِي أَنَّ الرُّبْعَ الشَّمَالِيَّ مِنَ الْأَرْضِ أَكْثَرُ عُمْرَانًا مِنَ الرُّبْعِ الْجَنُوبِيِّ ،
وَذِكْرُ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ

نَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارَ الْمُتَوَاتِرَةَ ، أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنَ أَقَالِيمِ الْمَغْمُورِ
أَقْلُ عُمْرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا ، وَمَا وَجَدَ مِنْ عُمْرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرَّمَالُ ، وَالْبَحْرُ 5
الْهِنْدِيُّ [الَّذِي] ⁽¹⁾ فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا . وَأَمَّ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأُنَاسِيَّتُهُمَا لَيْسَتْ لَهُمَا الْكَثْرَةُ
الْبَالِغَةُ ؛ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ . وَالثَّلَاثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَالْقِفَارُ
فِيهَا قَلِيلَةٌ ، وَالرَّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ ، وَأَمَمُهَا وَأُنَاسِيَّتُهَا بِحَرِّ زَاخِرٍ مِنَ الْكَثْرَةِ ،
وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تَجَاوَزُ الْحَدَّ عَدْدًا ، وَالْعُمْرَانُ فِيهَا مُتَدَرِّجٌ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالسَّادِسِ ،
وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ .

10

وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ ، وَقِلَّةِ مَيْلِ الشَّمْسِ فِيهَا
عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ . فَلْنَوْضِّحْ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ ، وَتَبَيَّنَ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيهَا بَيْنَ
الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ ، فَنَقُولُ :

إِنَّ قُطْبَيْ الْفَلَكَ الْجَنُوبِيِّ وَالشَّمَالِيِّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأَفْقِ ، فَهَنَّاكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ
تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ ، هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَازَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ؛ وَتُسَمَّى دَائِرَةُ 15

(1) مِنْ عَجَلِي .

مُعَدِّل النَّهَار. وقد تَبَيَّنَ في مَوْضِعِهِ من الهَيْئَةِ أَنَّ الفَّلَكَ الأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ من المَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الأَفْلاكِ الَّتِي فِي جَوْفِهِ قَسْرًا ، وهذه الحَرَكَةُ مَخْسُوسَةٌ. وكذلك تَبَيَّنَ أَنَّ للكَوَاكِبِ في أَفْلاكِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لهذه الحَرَكَةِ، وهي من المَغْرِبِ إلى المَشْرِقِ، وتَخْتَلِفُ آمَادُهَا باختلاف حَرَكَاتِ الكَوَاكِبِ في السَّرْعَةِ والبُطْءِ. 5 وَمَمَرَّاتُ هذه الكَوَاكِبِ في أَفْلاكِهَا تُوازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةُ عَظِيمَةٍ من الفَّلَكِ الأَعْلَى تُقَسِّمُهُ بِنِصْفَيْنِ، وهي دَائِرَةُ فَلَكِ البُرُوجِ، مُنْقَسِمَةٌ بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا، وهي - على مَا تَبَيَّنَ في مَوْضِعِهِ - مُقَاطِعَةٌ لدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ على نُقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ من البُرُوجِ، هُمَا، أَوَّلُ الحَمَلِ وَأَوَّلُ المِيزَانِ، فَتَقَسِّمُهَا / دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ: نِصْفٌ مَائِلٌ عَنِ مُعَدِّلِ [136] النَّهَارِ إلى الشَّمَالِ، وهو من أَوَّلِ الحَمَلِ إلى آخِرِ السُّنْبُلَةِ؛ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إلى الجَنُوبِ، وهو من أَوَّلِ المِيزَانِ إلى آخِرِ الحُوتِ . وَإِذَا وَقَعَ القُطْبَانِ على الأفُقِ في جَمِيعِ 10 نَوَاحِي الأَرْضِ، كَانَ على سَطْحِ الأَرْضِ خَطٌّ وَاحِدٌ يُسَامَتُ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ، حِينَئِذٍ، يَمُرُّ من المَغْرِبِ إلى المَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطَّ الاسْتَوَاءِ. وَوَقَعَ هَذَا الخَطُّ بِالرُّضْدِ على مَا زَعَمُوا في مَبْدِئِ الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ من الأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ؛ والعُمُرَانِ كُلَّهُ في الجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ عَنْهُ.

وَالْقُطْبُ الشَّمَالِي يَرْتَفِعُ على آفَاقِ هَذَا المَعْمُورِ بالتَّدرِجِ، إلى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إلى أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً ؛ وَهَنَالِكَ يَنْقَطِعُ العُمُرَانِ، وهو آخِرُ الإِقْلِيمِ السَّابِعِ. وَإِذَا ارْتَفَعَ 15 على الأفُقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً، وهي الَّتِي بَيْنَ القُطْبِ ودَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ، صَارَ القُطْبُ على سَمْتِ الرُّؤُوسِ، وَصَارَتِ دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ على الأفُقِ، وَبَقِيَ سِتَّةٌ من البُرُوجِ فَوْقَ الأفُقِ، وهي الشَّمَالِيَّةُ، وَسِتَّةٌ تَحْتَ الأفُقِ، وهي الجَنُوبِيَّةُ. وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الأَرْبَعَةِ وَالسَّتِينَ إلى التَّسْعِينَ مُفْتَنِعَةٌ ؛ لِأَنَّ الحَرَّ والبَرْدَ حِينَئِذٍ لَا يَحْصِلَانِ مُفْتَزَجِينَ لِبُعْدِ الزَّمَانِ 20 بَيْنَهُمَا، فَلَا يَحْصُلُ تَكْوِينُ.

فإذن ، الشمس تُسَامِتُ الرُّؤُوسَ على خطِّ الاستواء في رأس الحمل والميزان ، ثم تميلُ عن المُسَامِتَةِ إلى رأس السرطان وإلى رأس الجدي ، وتكون نهاية ميلها عن دائرة مُعدّل النهار أربعاً وعشرين درجةً . ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق ، مالت دائرة مُعدّل النهار عن سمت الرُّؤُوس بمقدار ارتفاعه ، وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار مُتساوٍ في الثلاثة ، وهو المُسمّى عند أهل المواقيت عرض البلد . 5 وإذا مالت دائرة مُعدّل النهار عن سمت الرُّؤُوس ، علّت عليها البروج الشماليّة متدرّجةً في مقدار علوّها إلى رأس السرطان ، وانخفضت البروج الجنوبيّة / عن الأفق [36 ب] كذلك إلى رأس الجدي ، لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه . فلا يزال الأفق الشماليّ يَرتفع حتّى يصير أبعد الشماليّة ، وهو رأس السرطان في سمت الرُّؤُوس ؛ وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً وعشرين في الحجاز وما يليه . وهذا هو الميل 10 الذي [إن] ⁽¹⁾ مالَ رأس السرطان عن مُعدّل النهار في أفق الاستواء ، ارتفع بازدياد ارتفاع القطب الشماليّ حتّى صار مُسامتاً . فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين ، نزلت الشمس عن المُسَامِتَةِ ، ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً وستين ، ويكون انخفاض الشمس عن المُسَامِتَةِ كذلك ، وانخفاض القطب الجنوبيّ عن الأفق مثلها ، فينقطع التكوين لإفراط البرد والجمد ، وطول زمانه غير مُمتزج بالحرّ . 15

ثم إن الشمس عند المُسَامِتَةِ وما يقاربها تبعثُ الأشعة على الأرض على زوايا ، وفيما دون المُسَامِتَةِ على زوايا مُنفرجة وحادة ، وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر ، بخلافه في المُنفرجة والحادة . فلهذا يكون الحرّ عند المُسَامِتَةِ

(1) زيادة يقتضيا السياق .

وما قَرَّبَ منها أكثرَ منه فيما بُعدَ ؛ لأنَّ الصَّوَّ سببُ الحرِّ والتَّسخين . ثم إنَّ المُسامَمةَ في خطِّ الاستواء تكون مَرَّتَيْنِ في السَّنَةِ ، عند نُقْطَتَي الحَمَلِ والمِيزان ؛ وإذا مالتَ فغيرُ بعيدٍ ، ولا يكادُ الحرُّ يَعتدلُ في آخرَ مَيلِها عند رأسِ السَّرطانِ والجُذْيِ إلَّا وقد صَعِدَتْ إلى المُسامَمةِ ، فَبَقِيَ الأشعَّةُ القائمةُ الزَّوايا تُلحُّ على ذلك الأفقِ ،

5 ويطولُ مُكثُها أو يدومُ ، فيشتعلُ الهواءُ حرارةً ، ويُفْرِطُ في شدَّتِها . وكذا ما دامتِ الشَّمْسُ تُسامِتُ مَرَّتَيْنِ فيما بُعدَ خطِّ الاستواءِ إلى عَرَضِ أربعةٍ وعشرينَ ، فإنَّ الأشعَّةَ / مُلِحَّةٌ على الأفقِ في ذلك الأفقِ بِقَرِيبٍ من إلحاحِها في خطِّ الاستواءِ . وإفراطُ [137]

الحرِّ يَفْعَلُ في الهواءِ تَجْفِيفًا وَيُبْسًا يَمْنَعُ من التَّكوينِ ؛ لأنَّه إذا أَفْرَطَ الحرُّ جَفَّتِ المِياهُ والرَّطوباتُ ، وَفَسَدَ التَّكوينُ في المَعْدِنِ والنَّباتِ والحيوانِ ؛ إذ التَّكوينُ لا يكونُ

10 إلَّا بالرَّطوبةِ . ثم إذا مالَ رأسُ السَّرطانِ عن سَمْتِ الرُّؤوسِ في عَرَضِ خمسةٍ وعشرينَ فما بُعدُهُ ، نَزَلَتِ الشَّمْسُ عن المُسامَمةِ ، فيصيرُ الحرُّ إلى الاعتدالِ أو يَمِيلُ عنه قليلاً ، فيكونُ التَّكوينُ ، ويزيدُ⁽¹⁾ على التدرِجِ ، إلى أن يُفْرِطَ البَرْدُ في شدَّتِه بقلَّةِ الصَّوِّ ، وَكَوْنَ الأشعَّةِ مُنْفَرِجَةً الزَّوايا ، فينْقُصُ التَّكوينُ وَيَفْسُدُ . إلَّا أنَّ فسادَ التَّكوينِ من جِهةِ شِدَّةِ الحرِّ أعظمُ منه من جِهةِ شِدَّةِ البَرْدِ ؛ لأنَّ الحرَّ أَسْرَعُ تأثيراً في التَّجْفِيفِ

15 من تأثيرِ البَرْدِ في الجُمْدِ . فلذلكَ كانَ العُمرانُ في الإقليمِ الأوَّلِ والثَّاني قليلاً ؛ وفي الثَّالثِ والرَّابعِ والخامسِ متوسَّطاً ، لا عِتْدالَ الحرِّ بِنُقْصانِ الصَّوِّ ، وفي السَّادسِ والسَّابعِ كثيراً لِنُقْصانِ الحرِّ ، وأنَّ كِيفِيَّةَ البَرْدِ لا تُؤثِّرُ عندَ أوَّلِها في فسادِ التَّكوينِ كما يَفْعَلُ الحرُّ ؛ إذ لا تَجْفِيفَ فيها إلَّا عندَ الإفراطِ بما يَعرِضُ لها حينئذٍ من اليُبْسِ كما بعدَ السَّابعِ . فلهذا كانَ العُمرانُ في الرِّبعِ الشَّماليِّ أكثرَ^(ب) وأوفرَ ؛ واللهُ أَعْلَمُ .

(1) ع: يترابِد، ي: يترَيَد (ب) في ط وحدها: إلى أكثر .

ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه. وأورد عليهم أنه

معمورٌ بالمُشاهدة والأخبار المتواترة، فكيف يتمُّ البرهان على ذلك؟! والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية؛ إنما أذاهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوِّي بإفراط الحر، فالعمران فيه إما مُمتنع / أو مُمكن أَقلَّ. وهو كذلك؛ فإن خط

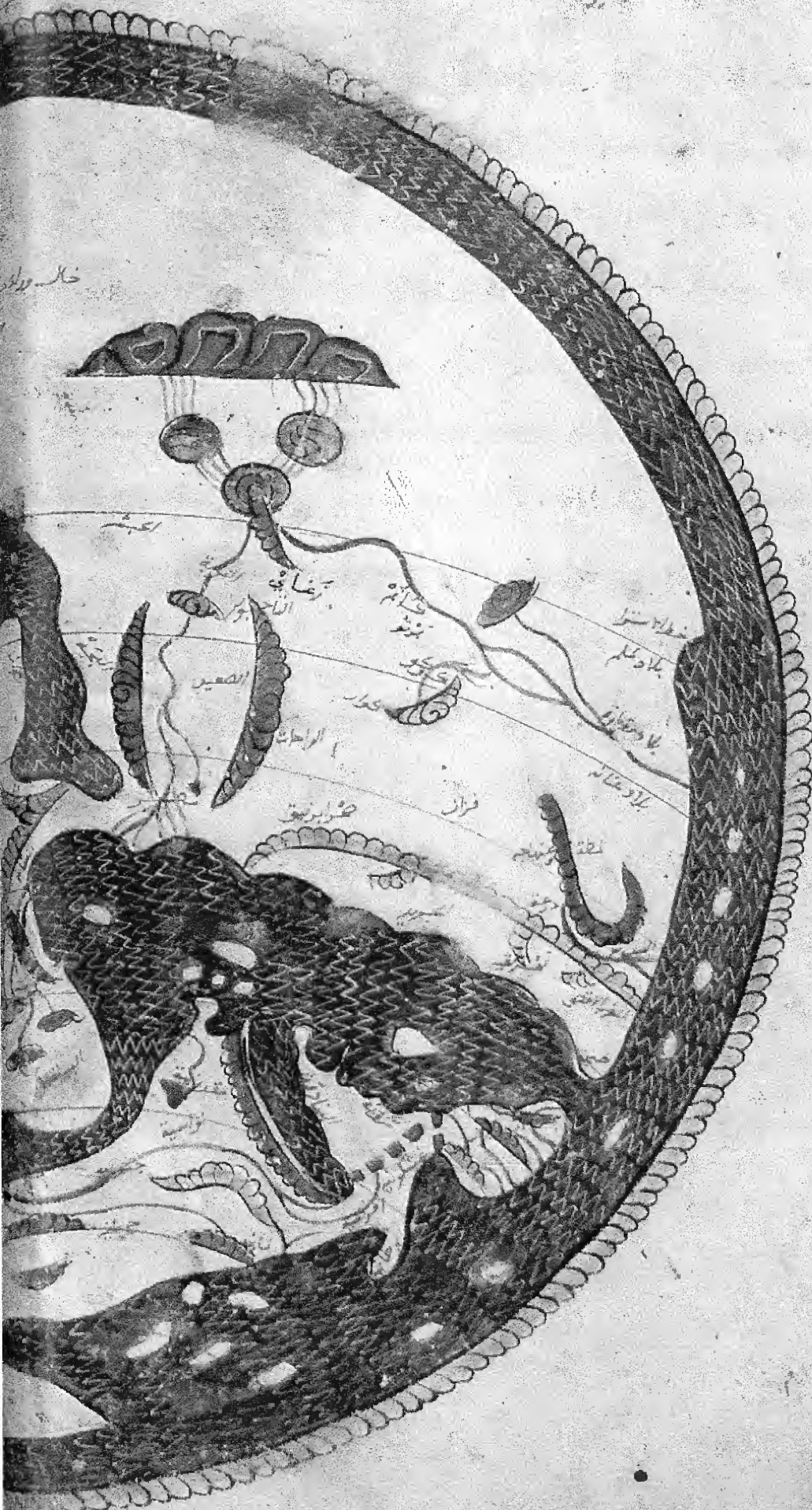
[37 ب]

الاستواء والذي وراءه، وإن كان فيه عمران كما نُقِل، فهو قليلٌ جدًّا. وقد زعم ابنُ
رُشد⁽¹⁾ أن خط الاستواء مُعتدِلٌ وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في
الشمال، فيعمر منه ما عُمِر من هذا. والذي قاله غيرُ مُمتنع من جهة فساد التكوين؛
وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب، من جهة أن العنصر المائي [عُمُر]⁽²⁾ وجه
الأرض هنالك، إلى الحد الذي كان مقابلهُ من الجهة الشماليَّة قابلاً للتكوين؛ ولما
امتنع المعتدِلُ لقلبة الماء تبعهُ ما سواه؛ لأنَّ العمران مُتدرِّج^(ب) ويأخذ في التدرُّج
من جهة الوجود لا من جهة الامتناع؛ وأما القولُ بامتناعه في خط الاستواء، فيردُّه
النقلُ المتواتر. والله أعلم.

ولنرسم بعد هذا الكلام^(ج) صورة الجغرافيا^(د) كما رسمها صاحبُ كتاب
رُجَّار، ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره^(ب).

(1) من ج، وفي ظي ل ع: عمر (ب) سقط ما بين النجمين من نسخة ي (ج) ل: وهذه صورة الجغرافيا ويتلوها الكلام عليها مفصلاً (د) جاءت صورة الجغرافيا في ع وحدها وترك لها فراغ في بقية النسخ.

(1) لم نوفق إلى تحديد مصدر نصه.



غرب

الخريطة الوحيدة في النسخ المعتمدة جاءت في نسخة "ع" وخذها،
وكتبت أسماء البلدان والشعوب فيها بخط ابن خلدون

خريطة كزية الشكل، أعلاها الجنوب، وأسفلها الشمال، ويمينا الغرب، ويسارها الشرق.
قسم دائرة الكرة إلى خطوط عرضية قوسية سبعة، حُصرت بينها الأقاليم السبعة، ووزع في
كل إقليم بعض المواقع والشعوب الموجودة فيه. وقد استخرجنا تفاصيل محتواها كما يلي :
[كتب في أعلاها: خالي وراء خط الاستواء من الحر.

فالإقليم الأول أدرج فيه مبتدء من جهة الغرب على اليمين إلى الشرق، ما يلي:
بلاد الملم - بلاد نقارة - كاثم - بزؤو - كوكو - زغاي - التاجوين - التوبة - الحبشة .
والإقليم الثاني :

بلاد غانة - لفطة وصنهاجة - قزان - كوار - الواحات - الصعيد - البجة - الحجاز - اليمن -
النيامة - عُمان - الشحر - السند - مكران - كرمان - المفازة - الهند - الصين .
والإقليم الثالث :

السوس - المغرب الأقصى - طنجة - دزعة - إفريقية - الجريد - صحراء بزنيق - مضر -
الشام - البصرة - فارس - خراسان - الصفد - التفرغر.

والإقليم الرابع:

العراق - البهلوس - أذربيجان - خوارزم - الشاش - خلخية - كباك

والإقليم الخامس:

ترؤيه (?) - عشكوتية - البنادقة - مقبونية - التيلقان - طبرستان - عزنة - تركش - أذكش - ياجوج

والإقليم السادس:

برطانية - إفريقية - لمانية - جثولية - جرمانية - ؟ - الحزر - اللان - بلغار - المنقنة - الخراب.

والإقليم السابع:

سجرت - بجنناكية - ماجوج.

وكتب بأسفلها: خالي ... الشمال من البرد .]

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا⁽¹⁾

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور ، كما تقدم ذكره ، بسبعة أقسام ، من الجنوب إلى الشمال ، يُسمون كل قسم منها إقليمًا . فانقسم المعمور من الأرض

(1) انقردت نسخة "ع" بهذا الجمل في اختلاف الجغرافيين في عروض الأقاليم والساعات والأميال ، وأغفلت الأصول الأربعة الأخرى مستعيزة عنه بما أثبتناه من نصها . ويبدأ تطابق نسخة "ع" مع بقية الأصول التي أجمعت على المدخل المثبت ، عند قوله بعده : "والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا ... " وأمر هذين المقدمتين غير واضح ، لغياب مقدمة "ع" عن بقية النسخ ، وغياب المقدمة المثبتة عن نسخة "ع" ، فكيف نشأ هذا الاختلاف ، خاصة وأن نص "ع" مثبت إثر الخارطة في متن النص ويخط كاتب النسخة نفسه ، وليس طارئاً في الحواشي والزيادات التي يضيفها المؤلف . ونشير إلى أن الناسخ ترك صفحة يتضاء بين هذا الجزء الذي انفرد به وبين ما التقى فيه مع بقية النسخ .

النص :

وهو على نوعين ، مفضل ومجمل . فالمفضل هو الكلام في بلدان هذا المعمور وجباله وبحاره وأنهاره واجنات واجنات ؛ وسيأتي في الفصل بعد هذا . وأما المجمل ، فالكلام في انقسام المعمور بالأقاليم السبعة [التي التأسخ أو المؤلف نحو سطرين] وذكر عروضها وساعات نهارها ؛ وهو الذي تضمنه هذا الفصل . فلنأخذ في بيانه :

قد تقدم لنا أن الأرض طافية على الماء العنصري كالعنبة ، فانكشف لذلك بعضها لحكمة الله في العمران والتكوين العنصري . فيقال إن هذا المنكشف هو النصف من سطح الأرض . فالمعمور منه رُبُعُه والباقي خراب ؛ وقيل المعمور سدسُه فقط . فالخلاء من هذا المنكشف في جهتي الجنوب والشمال ؛ والعمران بينهما متصل من المغرب إلى المشرق ؛ وليس بينه وبين البحر من الجهتين خلا . قالوا : وفيه خط وهمي يمر من المغرب إلى المشرق مسامتا للنائرة مغدل النهار حيث يكون قطبا الفلك على الأفق وهو أول العمران إلى ما بعده من الشمال . وقال بطلميوس : بل بعده في جهة الجنوب عمران ، وقدره بقرض البلد كما يأتي . وعند إسحاق بن الحسن الحازني أن وراء الإقليم السابع عمران آخر ، وقدره بقرض بلده كما يذكر ؛ وهو من أثمة هذه الصناعة . =

كله بهذه السبعة الأقاليم ، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله ،
فالأول منها مارٌّ من الغرب إلى الشرق مع خط الاستواء يحدّه من جهة الجنوب ،
وليس وراءه هنالك إلا القفار والزّمال ، وبعض عمارة إن صحت فهي كلاً عمارة .

= ثم إن الحكماء قديماً قَسَمُوا هذا المعمور في جهة الشمال بالأقاليم السبعة بخطوط وهمية آخذة من الغرب
إلى الشرق ؛ وعروضها مختلفة عندهم ، كما يأتي تفصيله .

فالإقليم الأول منها مارٌّ مع خط الاستواء من جهة شماليته ، وليس في جنوبيه إلا تلك العمارة التي أشار
إليها بطلَميوس ، ونغدها القفار والزّمال إلى دائرة الماء المستاة بالبحر المحيط .

ويليه من جهة شماليته الإقليم الثاني كذلك ، ثم الثالث ، ثم الرابع والخامس والسادس والسابع ، وهو
آخر الغمران في جهة الشمال ، وليس وراءه إلا الخلاء والقفار إلى البحر المحيط . إلا أنّ الخلاء في جهة
الجنوب أكثر منه في جهة الشمال بكثير .

وأما عروض هذه الأقاليم وساعات نهارها ، فاعلم أنّ قُطبي الفلك يكونان في خط الاستواء على
الأفق من غربه إلى شرقه ، والشمس تُسَامِت رؤوس أهلها ؛ فإذا بُعد الغمران إلى جهة الشمال ، ارتفع القطب
الشمالي قليلاً وانخفض الجنوبي مثله وتعدت الشمس عن دائرة مُعَدِّل النَّهَار إلى سمتة بمثل ذلك ، وصارت
هذه الأبعاد الثلاثة مُتساوية ، يُسمّى كل واحد منها عرض البلد ، كما هو معروف عند أهل المواقيت .

وقد اختلف الناس في مقدار هذه العروض ، ومقدارها في الأقاليم ؛ فالذي عند بطلَميوس ، أنّ
عرض المعمور كله سبع وسبعون درجة ونصف درجة ؛ فعرض المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب
منها ، إحدى عشرة درجة وست وستون درجة ونصف ، هي عروض الأقاليم الشمالية إلى آخرها . فعرض
الإقليم الأول منها عنده ست عشرة درجة ، والثاني عشرون ، والثالث سبع وعشرون ، والرابع ثلاث
وثلاثون ، والخامس ثمان وثلاثون ، والسادس ثلاث وأربعون ، والسابع ثمان وأربعون . ثم قدر الترجة في
الفلك بستة وستين ميلاً وثلاثي ميل من مسافة الأرض . فتكون أميال الإقليم الأول ما بين الجنوب والشمال
ألف ميل وسبعة وستين ميلاً ؛ وأميال الإقليم الثاني معه ألفي ميل وثلاثمائة ميل وثلاثة وثلاثين ميلاً ؛ وأميال
الثالث معها ألفي ميل وسبعمائة وتسعين ؛ والرابع معها ألفين ومائة وخمسة وثمانين ، والخامس ألفين وخمسمائة
وعشرين ، والسادس ألفين وثمانمائة وأربعين ، والسابع ثلاثة آلاف ومائة وخمسين .

ثم إن أزمته الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة مُعَدِّل النَّهَار وارتفاع
القطب الشمالي عن آفاقها ؛ فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك . وينتهي أطول الليل والنهار في آخر الإقليم =

ويليه من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ، ثم الرابع والخامس

= الأول عند حلول الشمس برأس الجذّي للليل ، وبرأس السرطان للنهار ، كل واحد منها عند بطلان بؤس إلى اثنتي عشرة ساعة ونصف ؛ وينتهيان في آخر الإقليم الثاني إلى ثلاث عشرة ساعة ؛ وفي آخر الإقليم الثالث إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ، وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ؛ وفي آخر الخامس بزيادة نصف ساعة ، وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ؛ وفي آخر السابع بزيادة نصف ساعة ، وينتهي للأقصر من النهار وللليل ما يتبقى بعد هذه الأعداد من جملة أربعة وعشرين ، الساعات الزمانيّة لمجموع الليل والنهار ، وهو دوزة الفلك الكاملة . فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم ، تزيد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال ، موزعة على أجزاء هذا البعد.

وعند إسحاق بن الحسن الحارثي أنّ عرض الغفران الذي وراء خط الاستواء ست عشرة درجة وخمس وعشرون دقيقة . وطول ليله ونهاره ثلاث عشرة ساعة . و عرض الإقليم الأول وساعاته مثل الذي وراء خط الاستواء . و عرض الإقليم الثاني أربع وعشرون درجة ؛ وساعاته عند آخره ثلاث عشرة ساعة ونصف . و عرض الثالث ثلاثون درجة ؛ وساعاته أربع عشرة ساعة . و عرض الرابع ست وثلاثون درجة ؛ وساعاته أربع عشرة ساعة ونصف . و عرض الخامس إحدى وأربعون درجة ؛ وساعاته خمس عشرة ساعة . و عرض السادس خمس وأربعون درجة ؛ وساعاته خمس عشرة ساعة ونصف . و عرض السابع ثمان وأربعون درجة ونصف ؛ وساعاته ست عشرة ساعة . ثم ينتهي عرض الغفران وراء السابع من عند آخره إلى ثلاث وستين درجة ، وساعاته إلى عشرين ساعة .

وعند غير إسحاق الحارثي من أئمة هذا الشأن ، أن عرض الذي وراء خط الاستواء ست عشرة درجة وسبع وعشرون دقيقة ، و عرض الإقليم الأول عشرون درجة وخمس عشرة دقيقة ؛ والثاني سبع وعشرون درجة ، وثلاث عشرة دقيقة ؛ والثالث ثلاث وثلاثون درجة ، وعشرون دقيقة ؛ والرابع ثمان وثلاثون درجة ، ونصف درجة ، والخامس ثلاث وأربعون درجة ، والسادس سبع وأربعون درجة ، وثلاث وخمسون دقيقة ، وقبل فيه ست وأربعون درجة وخمسون دقيقة ؛ والسابع إحدى وخمسون درجة ، وثلاث وخمسون دقيقة . والغفران وراء السابع سبع وسبعون درجة . وعند أبي جعفر الحارثي من أئمتهم أيضا أنّ عرض الإقليم الأول من درجة إلى عشرين وثلاث عشرة دقيقة ، والثاني إلى سبع وعشرين وثلاث عشرة دقيقة ، والثالث إلى ثلاث وثلاثين وتسع وثلاثين دقيقة ، والرابع إلى ثمان وثلاثين وثلاث وعشرين دقيقة ، والخامس إلى ثنتين وأربعين وثمان وخمسين دقيقة ، والسادس إلى سبع وأربعين ودقيقتين ، والسابع إلى خمسين وخمس وأربعين دقيقة . هذا ما حصرني من اختلافهم في العروض والساعات والأميال لهذه الأقاليم ، والله خلق كل شيء بقدره تقدراً .

والسادس والسابع، وهذا⁽¹⁾ آخر العُمران في جهة الشمال . وليس وراء السابع إلاّ
 الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط ؛ كالحال فيما وراء الإقليم الأول في
 جهة الجنوب . [إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة
 الجنوب]^(ب) . ثم إن أزمانه الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل
 5 الشمس عن دائرة مُعدّل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها . فيتفاوت قوس
 النهار [أ]^(ج) الليل لذلك ، وينتهي أطول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول ،
 وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل ، وبرأس السرطان للنهار ، كل
 واحد منها إلى ثلاث عشرة ساعة . وكذلك في آخر الإقليم الثاني ممّا يلي الشمال ،
 ينتهي أطول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان ، وهو مُنقلبها الصيفي ،
 10 إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة . ومثله أطول الليل عند مُنقلبها الشتوي برأس
 الجدي . ويتبقى للأقصر من النهار والليل ما يتبقى بعد الثلاثة عشر ونصف من جملة
 أربع وعشرين ، الساعات / الزمانية لمجموع الليل والنهار ، وهو دورة الفلك الكاملة . [38 ب]
 وكذلك في آخر الإقليم الثالث ممّا يلي الشمال أيضاً ، ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة ؛
 وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة ؛ وفي آخر الخامس إلى خمس
 15 عشرة ساعة ؛ وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف ساعة ؛ وفي آخر
 السابع إلى ست عشرة ساعة ؛ وهنالك ينقطع العُمران ، فيكون تفاوت هذه الأقاليم
 في الأطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم ، يتزايد من أوله في ناحية
 الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال ، موزعة على أجزاء هذا البُعد .

(1) ل ج ي : وهو (ب) من ي ج وسقط من ظ ل (ج) من ج .

وأما عَرْضُ البُلدانِ في هذه الأقاليم ، وهو عبارةٌ عن بُعد ما يَبين سَمَتَ رأسِ البَلَدِ ودائرة مُعَدِّلِ النَّهارِ ، وَالَّذِي هو سَمَتُ رأسِ^(١) خطِّ الاستِواءِ وبمثله ، سواءً يَتَخَفِضُ القُطْبُ الجَنُوبِيُّ عن أَفْقِ ذلكِ البَلَدِ ، ويرتَفِعُ القُطْبُ الشَّمالِيُّ عَنْهُ ، وهي ثَلَاثَةُ أبعادٍ مُتساويةٍ تُسَمَّى عَرْضُ البَلَدِ ، كما مرَّ ذلك من^(١) قَبْلُ .

5

1. [فَصْلٌ] (ب) :

وَالْمُتَكَلِّمُونَ عَلَى هَذِهِ الْجُغَرافِيَا قَسَّمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةَ فِي طَوْلِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتساوِيَةٍ ، وَيَذْكُرُونَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ ، وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ . وَنَحْنُ الْآنَ نَوْجِزُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ بِاخْتِصَارٍ ، وَنَذْكُرُ مَشَاهِيرَ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا ، وَنُحَازِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ نَزْهَةِ الْمُشْتَقِ الَّذِي أَلْفَهُ الْعَلَوِيُّ [39] الإِذْرِيْسِيُّ الْحَمُودِيُّ لِلْمَلِكِ صَيْقَلِيَّةٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ ، وَهُوَ رُجَّارُ بْنُ رُجَّارٍ / عِنْدَمَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصَيْقَلِيَّةٍ بَعْدَ خُرُوجِ سَلْفِهِ مِنْ إِمَارَةِ مَالْقَةِ .

وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ . وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً ، لِلْمُسْعُودِيِّ ، وَابْنِ خُرْدَاذِبَةِ ، وَالْحَوْقَلِيِّ ، وَالْعُدْرِيِّ ، وَإِسْحَاقِ الْمُنَجِّمِ ، وَبَطْلَمَيْوسَ ، وَغَيْرَهُمْ .

15

وَنَبْدَأُ مِنْهَا بِالْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا .

(١) سقط من ل (ب) من ع ، ومن هنا تعود نسخة عاطف أفندي "ع" إلى متابعة السياق مع بقية الأصول .

• الإقليم الأول :

وفيه من جهة غربيّة الجزائر الخالدات ، التي منها بدأ بطلَميوس يأخذ أطوال البلاد . وليست في بسيط الإقليم ، وإنما هي في البحر المحيط ، جزر متكررة [أكبرها]⁽¹⁾ وأشهرها ثلاثة ؛ ويقال إنها مغمورة . وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرّت بها في أواسط هذه المائة ، وقتلوهم ، فغنموا منهم وسبّوا ، وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى ، وصاروا إلى خدمة السلطان ، فلما تعلّموا اللسان العربيّ أخذوا عن حال جزيرتهم ، وأنهم يحترفون الأرض للزراعة بالقرون ، وأن الحديد مفقود بأرضهم ، وعيشهم من الشعير ، وماشييتهم المغز ، وقتالهم بالحجارة يُلَوِّحونها إلى خلف ، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ، ولا يعرفون ديناً ، ولم تبلغهم دعوة ، ولا يوقف على مكان هذه الجزائر^(ب) إلا بالعثور لا بالقصد إليها ؛ لأنّ سفر السفن في البحر إنّما هو بالرياح ، ومعرفة جهات مهابها ، وإلى أين توصل إذا مرّت على الاستقامة من البلاد التي في ممرّ ذلك المهبّ . وإذا اختلف المهبّ وعلم حيث يوصل على الاستقامة ، حوذي به القلع محاذاة تحمّل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النوايئة والملاحين الذين هم رؤساء السفّر في البحر .

15 والبلاد التي جفائي البحر الرومي / وفي عُدوتيه ، مكتوبة كلّها في صحيفة [39 ب] على شكل ما هي عليه في الوجود ، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها .

(1) سقط من ط (ب) ج : الجزيرة .

ومهابُّ الرِّياح ومَمَرَّاتها على اختلافِها مرسوْمٌ معها في تلك الصَّحيفة، ويُسَمَّونها الكُنْباص ؛ وعليها يَتَمَدَّدون في أسفارِهم . وهذا كلُّه مفقودٌ في البَحر المحيط ، فلذلك لا تُلَجِّج فيه السُّفن لأنَّها إن غابَتْ عن مَرأى السَّواحل فَقَلَّ أن تَهْتَدِيَ إلى الرُّجوع إليها؛ مع ما يَتَعَقَّد في جَوْ هذا البَحر وعلى صَفْح مائِهِ من الأَبْجَرَةِ المانِعَةِ^(١) للسُّفن في مَسِيرِها ؛ وهي لِبُعْدها لا تُذَرِّكُها أضواءُ الشَّمْسِ المنعكِسَةُ من سَطْح الأرض 5 فتَحَلَّلُها ؛ فلذلك عَسَرَ الِاهْتِدَاءُ إليها وصَعَبَ الوُقُوفُ على خَبَرِها .

وأما الجُزْءُ الأوَّل من هذا الإقليم ، ففيه مصبُّ النِّيل الآتي من مَبْدئِهِ عند جَبَل القَمَر، كما ذَكَرناهُ ، ويُسمَّى نيلُ السُّودان ؛ ويذهب إلى البَحر المُحيط فيصبُّ فيه عند جزيرة أوليك^(ب) . وعلى هذا النِّيل مَدِينَةُ سُلَى وتَكَرُّور وغانَّة ؛ وكلُّها لهذا العَهْد في مَمْلَكَةِ أَهْلِ مالِي من أَمَمِ السُّودان ؛ وإلى بلادِهِم يُسافِرُ تِجَّارُ المَغْرِب 10 الأَقْصَى . وبالقُرْب منها من شَمالِها بلادُ لَفْتونَة وسائِر طوائِف المَلثَمين ، مفاوِزُ يَجُولون فيها . وفي جَنُوبِ هذا النِّيل قَوْمٌ من السُّودان يُقال لَهم لَمَم ، وهم كُفَّار ، ويَكْتُونون في وُجُوهِهم وأضْداعِهِم ؛ وأهلُ غانَّة والتَكَرُّور يُغَيِّرون عليهم وَيَسْبُونَهُم وَيَبِيعُونَهُم لِلتِّجَّارِ فَيُجْلِبُونَهُم إلى المَغْرِب ، ومنْهُم عامَّة رَقِيقَهُم . وليس وراءَهُم في الجَنُوب عَمْران يُعْتَبَر ، إلا أَناسِيُّ أَقْرَب إلى الحَيَوان العُجْم من النَّاطِق ، يَسْكُنون 15 الغِياض والكُهوف ، ويأْكُلون العُشْب والحَبوب غَيْرَ مُهَيَّاة ؛ وَرُبَّما يَأْكُلُ بَعْضُهُم بَعْضًا ؛ وَلَيْسُوا في عِدادِ البَشَر .

(١) ظ ، وفي ج ل ع ي : المانعة (ب) كذا في ظ ج ، وفي ي ع ل : أوليل وهو ما في نزهة المشتاق 1 : 17 ، 18 ، 19 ، 108 .

وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب ، مثل ثَوَات
وتيكورارين ووازكلآن . وكان في غانة فيما يقال مَلِكٌ ودَوْلَةٌ / لقوم من العلوية [140]
يُعرفون ببني صالح . وقال صاحبُ كتاب رُجَار⁽¹⁾ : إِنَّهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ . وَلَا يُعْرِفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ . وَقَدْ ذَهَبَتْ
5 هذه الدَّوْلَةُ لهذا العهد ، وصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ مَالِي .

وفي شرقي هذه البلاد في الجزء الثالث من هذا الإقليم ، بِلَادُ كُوكُو^(ا) على
نَهْرٍ يَنْبُعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَاكَ ، وَيَمُرُّ مُغْرِبًا فَيَغُوصُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي . وَكَانَ
مُلْكُ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي وَأَصْبَحَتْ فِي مَلَكَتِهِ ؛
وخرِبَتْ لهذا العهد من أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ ، نَذَرْنَا عَنْ ذِكْرِ دَوْلَةِ [أَهْلِ]^(ب)
10 مَالِي ، فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ الْبَزِيرِ . وَفِي جَنُوبِي بِلَادِ كُوكُو بِلَادُ كَانِم^(ج) مِنْ أُمَمِ
السُّودَانِ . وَبَعْدَهُمْ وَتَقَارَةُ^(د) عَلَى ضَفَّةِ النَّيْلِ مِنْ شِمَالِيَّةِ .

وفي شرقي بلاد وتقارة وكانم بلاد [زغاوة]^(هـ) وتاجرة ، المتصلة بأرض التوبة
في الجزء الرابع من هذا الإقليم . وفيها يَمُرُّ نَيْلٌ مِصْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ خَطِّ
الاستواء إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الشَّمَالِ . وَمَخْرَجُ هَذَا النَّيْلِ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي

(ا) فِي ع ج ي نَقْطَةُ تَحْتَ الْكَافِ لِلنَّطْقِ بِالْإِشْمَامِ بَيْنَ الْكَافِ وَالْقَافِ ، وَفِي ج ع سَكُونٌ عَلَى الْوَاوِ (ب) سَقَطَتْ مِنْ ظ
(ج) فِي ع بْكَافٍ مَنقُوطَةٌ مِنْ فَوْقَ ، وَفِي خَرِيطَةِ النِّسْخَةِ نَفْسُهَا بِفَتْحِ النُّونِ (د) كَذَا فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ ، وَانْفَرَدَتْ عَ بِرَسْمِهَا
بْكَافٍ عَلَيْهَا نَقْطَتَانِ بِنْدَلِ الْقَافِ (هـ) مِنْ ل ج ي وَهُوَ الصَّحِيحُ ، وَفِي ظ زَغَايَةِ ، وَفِي ع وَالْخَرِيطَةُ : زَغَايَ .

(1) نَزْهَةُ الْمُشْتَقِ 1: 23 يَذْكُرُ أَنَّ مَلِكَ غَانَةِ فِيْمَا يُوصَفُ ، مِنْ ذُرِّيَةِ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ... ، وَأَنَّهُ يُخْطَبُ
لِنَفْسِهِ ، لَكِنَّهُ تَحْتَ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَبَّاسِيِّ .

فوق خطّ الاستواء بسِتّ عَشْرَةَ دَرَجَةً . واختَلَفُوا في ضَبْط هذه اللَّفْظَةِ ، فبعضُهم يَفْتَحُ القَافَ والمِيمَ نِسْبَةً إلى قَمَرِ السَّمَاءِ ، لشدَّةِ بياضِهِ وكثرةِ ضوئِهِ ، وفي كتاب المُشْتَرَكِ⁽¹⁾ لياقوت بَضَمَ القَافَ وسُكُون المِيمَ ، نِسْبَةً إلى قومٍ من أَهْلِ الهِنْدِ ؛ وكذا ضَبَطَهُ ابنُ سَعِيدٍ⁽²⁾ ، فيُخْرِجُ من هَذَا الجَبَلِ عَشْرُ عُيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ [خَمْسَةٍ]⁽³⁾ مِنْهَا في بَحِيرَةٍ ؛ وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أُمِّيَالٍ . وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ 5 كُلُّهَا في بَطِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، في أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبَحِيرَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ . وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا بِقَسْمَيْنِ : فَيَمْرُ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُعْتَرِباً حَتَّى يَصْبَ في الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَيَخْرُجُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ ذَاهِباً إِلَى الشَّامِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالتُّوْبَةِ وَفِيهَا بَيْنَهُمَا ؛ وَيَنْقَسِمُ في أَعْلَى أَرْضِ مِصْرَ ، فَتَصْبُ ثَلَاثَةٌ مِنْ جَدَاوِلِهِ في الْبَحْرِ الرُّومِيِّ 10 عِنْدَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ / وَرَشِيدٍ^(ب) وَدُمِيَّاطَ ، وَيَصْبُ وَاحِدٌ في بَحِيرَةٍ مِلْحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ .

وفي وَسَطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، وَعَلَى هَذَا النَّيْلِ ، بِلَادُ النَّوْبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَتَعْضُ بِلَادِ الْوَاخَاتِ إِلَى أَسْوَانٍ . وَحَاضِرَةُ بِلَادِ النَّوْبَةِ مَدِينَةُ دُنْقَلَةَ ؛ وَهِيَ فِي غَرْبِ هَذَا النَّيْلِ ، وَبَعْدَهَا عُلُوَّةٌ وَبَلَاقٌ^(ج) ، وَبَعْدَهُمَا جَبَلُ الْجَنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاكِلٍ مِنْ بَلَاقٍ فِي الشَّامِ ، وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ مِنْ جِهَةِ النَّوْبَةِ ، فَيَنْفِذُ 15 فِيهِ النَّيْلُ وَيَصْبُ في مَهْوًى بَعِيدٍ صَبّاً مَهولاً فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَاكِبُ ، بَلْ يُحَوِّلُ

(أ) مِنْ ع ل ج ي ، وَفِي ظ ، عَشْرَةٌ ! (ب) سَقَطَ مِنْ ي (ج) فِي ع : ضَبَطَتْ بِالْحَرَكَاتِ غُلُوَّةٌ وَبَلَاقُ ، وَفِي ل : غُلُوَّةٌ .

(1) الْمُشْتَرَكُ وَضَعًا وَالْمَفْتَرَقُ صَقْعًا 358 ، وَهُوَ مُخْتَصَرُ نَصِّهِ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ 4 : 397 .

(2) بَسَطَ الْأَرْضَ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ 80 .

الْوَسْقُ من مَرَاكِبِ السُّودَانِ، فَيُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ إِلَى بَلَدِ أُسْوَانَ قَاعِدَةَ الصَّعِيدِ ؛
وَكَذَا وَسَقَ مَرَاكِبِ الصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ الْجَنَادِلِ. وَبَيْنَ الْجَنَادِلِ وَأُسْوَانَ ثَلَاثِي عَشْرَةَ
مَرْحَلَةً. وَالْوَاهَاتُ فِي غَرْبِهَا عُدُوَّةُ النَّيْلِ، وَهِيَ الْآنَ خَرَابٌ، وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ.

وَفِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ، بِلَادُ الْحَبَشَةِ ، عَلَى وَادٍ
5 يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ الاسْتِوَاءِ [وَيَمُرُّ قِبَالَ مَقْدِشِ الْآتِي فِي جَنُوبِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ]^(أ)
ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ التَّوْبَةِ، فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي النَّيْلِ الْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ . وَقَدْ وَهَمَ فِيهِ كَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نَيْلِ الْقَمَرِ. وَبَطْلَمَيْوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ
لَيْسَ مِنْ هَذَا النَّيْلِ. وَإِلَى وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي هَذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ، يَنْتَهِي بَحْرُ
[الْهِنْدِ]^(ب) الَّذِي يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ الصِّينِ ، وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هَذَا الْإِقْلِيمِ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ
10 الْخَامِسِ ، فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمُرَانُ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْجَزَائِرِ الْآتِي فِي دَاخِلِهِ، وَهِيَ مُتَعَدَّدَةٌ ،
يُقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ، أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ الْجَنُوبِيَّةِ وَهِيَ آخِرُ الْمَغْمُورِ فِي
الْجَنُوبِ، أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا
طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ.

وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ، فِيمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْهَابِطَيْنِ
15 مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ، وَهُمَا بَحْرُ الْقُلُزْمِ، وَبَحْرُ فَارَسَ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا
جَزِيرَةُ الْعَرَبِ؛ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ، وَبِلَادِ الشَّحْرِ فِي شَرْقِهَا / عَلَى سَاحِلِ هَذَا
الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ، وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا ، كَمَا نَذَكَرَهُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَمَا
بَعْدَهُ .

(أ) مِنْ حَاشِيَةِ عِ بَخْطَه (ب) فِي ظِ وَحْدَهَا : النَّيْلِ .

فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيته فبلد زالغ من أطراف بلاد الحبشة، ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي الذي في أعالي الصعيد، وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي . وتحت بلد زالغ من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب. يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي، مُمتدًا مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في 5 طول اثني عشر ميلاً ، فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها، ويُسمى باب المندب، وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريبًا من مضر. وتحت باب المندب جزيرة سواكين ودهلك، وقبالة من غربيته مجالات البجة^(أ) من أمم السودان كما ذكرناه. ومن شرقيته في هذا الجزء تهائم اليمن، ومنها على ساحله بلد حلي ابن يعقوب . وفي جهة الجنوب من بلد زالغ وعلى ساحل 10 هذا البحر من غربيته قرى بريرا يتلو بعضها بعضًا، ويتعطف مع جنوبيته إلى آخر الجزء السادس. ويلها هنالك من جهة شرقها بلاد الزنج، [وبعدها مدينة مقدشو، وهي مدينة مُستبحرة العمارة ، ... الأحوال، كثيرة التجار على ساحل البحر الهندي من جنوبه، ثم بلاد سُفالة]^(ب) على^(ج) ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الإقليم . وفي شرقي بلاد سُفالة من ساحله الجنوبي بلاد^(د) الواق واق متصلة إلى 15 آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم وعند مدخل هذا البحر من البحر المحيط.

وأما جزائر هذا البحر فكثيرة ، ومن أعظمها جزيرة سرنديب ، مدورة الشكل ، وبها الجبل المشهور ، يُقال ليس في الأرض أعلى منه ، وهي قبالة سُفالة .

(أ) في خريطة ع بتشدب الجيم (ب) حاشية بخطه من ع، ونقلت على حاشية ج بخط أحدث، والنقطة لكلمة لم تقرأ (ج) ي ج : من (د) سقط من ج .

ثم جزيرة القمر^(١) ، وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سُفالة ، وتذهب إلى الشرق مُنحرفة بكثير إلى الشمال إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ؛ وتحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الواق واق ، ومن شرقيها جزائر السيللا ، / إلى جزائر أخرى في هذا البحر كثيرة العدد ، وفيها أنواع الطيوب والأفاوه ، وفيها [41 ب] 5 - يُقال - معادن الذهب والرُّمُّد ، وعامة أهلها على دين المجوسية ، وفيهم ملوك مُتعدِّدون . وهذه الجزائر من أحوال العُمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا . وعلى الضفة الشماليّة من هذا البحر وفي الجزء السادس من هذا الإقليم ، بلاد اليمن كلها؛ فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمنهجم وتهامة اليمن ؛ وتبعدها [شرقاً]^(ب) بلد صعدة ؛ مقر الإمامة^(ج) الزيدية ، وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر 10 الشرقي. وفيما بعد ذلك مدينة عدن؛ وفي شماليها صنعاء ؛ وتبعدها إلى الشرق أرض الأخفاف وظفار ؛ وتبعدها^(د) أرض حصرموت ؛ ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس . وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشفت عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطي ، وينكشف بعدها قليل من التاسع ، وأكثر منه من العاشر ، فيه أعالي بلاد الصين ، ومن مدنه الشهيرة مدينة خانكو^(هـ) ، وقبالتها من 15 جهة الشرق جزائر السيللا ؛ وقد تقدّم ذكرها . وهذا آخر الكلام في الإقليم الأول .

(١) ضبطت بالحركات في ل ع (ب) من ل (ج) ع ج : الأئمة (د) ي ؛ وفيما بعد ذلك (هـ) في ل وضعت نقطة تحت الكاف لضبط النطق .

• الإقليم الثاني:

وهو متّصل بالأوّل من جهة الشّمال . وقُبالة الغَزب منه في البَحْر المحيِط
جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مرّ ذكرُها .

وفي الجزء الأوّل والثاني منه في الجانب الأعلى منهما ، أرض قمُوريّه ؛

- 5 وبعدها في جهة الشّرق أعالي أرض غانة ، ثم مَجالات زغاوة^(أ) من السّودان ؛ وفي
الجانب الأسفل منها صحراء نيسر^(ب) متّصلة من الغَزب إلى الشّرق ، ذات مفاوِز
يسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السّودان ، وفيها مَجالات الملتّمين من
صنهاجة ، وهم شعوب كثيرة ما بين كدالة^(ج) ولَمْتونة ومَسُوفة ولَمَطه ووَنزِيكه^(د) .

وعلى سَمَت هذه المفاوِز شرقاً أرض فزان ، ثم مَجالات أزكار^(هـ) من قبائل

- 10 البربر ، ذاهبةً إلى أعالي الجزء الثالث على سَمَتها في الشّرق ، وبعدها من هذا الجزء
بلاد كوار^(و) من أُمّ السّودان ، ثم قطعتين من أرض التّاجوين^(ز) . وفي أسافل

[142] / هذا الجزء الثالث وهي جهة الشّمال منه ، بقيّة أرض وُدّان ، وعلى سَمَتها شرقاً
أرض سنّيريّة وتُسمّى الواحات الدّاخلية .

وفي الجزء الرّابع من أغلاه بقيّة أرض التّاجوين . ثمّ تعرّض في وسط هذا

- 15 الجزء بلاد الصّعيد ، حِفافيّ التّيل الدّاهب من مَبْدئه في الإقليم الأوّل إلى مصبّه في

(أ) ي ومقحمة في ج : زغاني (ب) مستدركة في حاشية ع ، ومنكولة بخط ابن خلدون (ج) ل : بكاف مضمومة ومنقوطة
لضبط النطق (د) ل : الكاف منقوطة (هـ) ع ل ي ج ، بكاف منقوطة (و) كذا ضبطت في ل (ز) كذا ضبطت في ل ،
وفي الأصول بالناء ، عدا ظ فقد أثبتتها بالنون .

البَحْر، فَيَمُرُّ في هذا الجزء بين الجَبَلَيْنِ الحَاجِزَيْنِ، وهما جَبَلُ الوَاحَاتِ من غَرْبِيَّه، وجَبَلُ المَقْطَمِ من شَرْقِيَّه. وعليه من أعلاه بَلَدُ إِسْنَا وَأَزْمَنْت، وتَتَّصِلُ كَذَلِكَ حِفَافِيَّه إِلَى أُسْيُوطَ وَقُوصَ، ثُمَّ إِلَى صُول. وَيَقْتَرُقُ النَّيْلُ هُنَالِكَ عَلَى شِغْبَيْنِ، يَنْتَهِي الأَيْمَنُ مِنْهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ عِنْدَ اللَّأْهُونَ، وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ دَلَاض^(١)؛ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ.

5 وفي الشَّرْقِ من جَبَلِ المَقْطَمِ صَحَارَى عَيْنَاب، ذَاهِبَةٌ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ السُّوَيْسِ، وَهُوَ بَحْرُ الْقُلُزْمِ الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ. وَفِي عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا * (ب) الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ، مِنْ جَبَلِ (ج) يَلْمَلَمَ إِلَى بَلَدِ يَثْرِبَ. وَفِي وَسْطِ الْحِجَازِ بَلَدُ مَكَّةَ، شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جُدَّةَ تُقَابِلُ بَلَدَ عَيْنَابِ فِي الْعُدُوتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ.

10 وفي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِيَّه بِلَادُ نَجْدَ، [أَعْلَاهَا فِي الْجَنُوبِ جُرْشُ وَتَبَالَةُ، إِلَى عَكَاظَ مِنَ الشَّمَالِ. وَتَحْتَ بِلَادِ نَجْدَ] (د) مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْحِجَازِ * (ب)؛ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ [بِلَادُ نَجْرَانَ وَجَنْدَ، وَتَحْتُهُمَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ، وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فِي الشَّرْقِ] (د) أَرْضُ سَبَأَ وَمَأْرِبَ ثُمَّ أَرْضُ الشُّخْرِ. وَتَنْتَهِي إِلَى بَحْرِ فَارَسَ، وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِي الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ كَمَا مَرَّ. [وَيَذْهَبُ] (هـ) فِي هَذَا الْجُزْءِ 15 بِالْأَنْحِرَافِ إِلَى الْغَرْبِ فَيَنْغُمِرُ مَا بَيْنَ شَرْقِيَّه وَجَوْفِيَّه قِطْعَةً مِثْلَةً عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ، وَهِيَ سَاحِلُ الشُّخْرِ، ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عُثْمَانَ، ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْنِ، وَهَجَرَ مِنْهَا فِي آخِرِ الْجُزْءِ.

(أ) كُنَّا ضَبَطْنَا بِالْحَرَكَاتِ فِي ل (ب) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَجْمَيْنِ مِنْ ي (ج) كُنَّا فِي ظ ج ع، وَفِي ل: هَجَّة (د) مِنْ ل ج ع، وَسَقَطَتْ مِنْ ظ (هـ) كُنَّا فِي الْأَصُولِ وَفِي ظ: وَيَنْتَهِي.

وفي الجزء السابع ثم في الأعلى من غزيبه، قطعة من بحر فارس ، تتصل
بالقطعة الأخرى في السادس ؛ ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله . وعليه هنالك
بلاد السند إلى بلاد مكران منه . ويقابلها بلاد الطوران وهي من السند أيضا ؛
فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء ، وتحول المفاوز بينه وبين أرض

الهند ، ويمر فيه نهري الآتي من ناحية بلاد الهند / ويصب في البحر الهندي في 5 [42 ب]

الجنوب . وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهرا^(أ) ،
وتحتها الملتان ، بلد الصنم العظيم عندهم ، ثم أسفل الهند^(ب) ، أعالي بلاد سيجستان .

وفي الجزء الثامن من غزيبه بقية بلاد بلهرا من الهند ، وعلى سمتها شرقا
بلاد القندهار ثم بلاد منيار^(ج) ، في الجانب الأعلى على ساحل البحر الهندي ،

وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل ، وتغدهما شرقا إلى البحر المحيط ببلاد القنوج 10
ما بين قشمر الداخلة وقشمر الخارجة عند آخر الإقليم .

وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ، وتتصل
فيه إلى الجانب الشرقي ، فتتصل من أعلاه إلى العاشر ، وتبقى في أسفل ذلك
الجانب [قطعة]^(د) من بلاد الصين فيها مدينة خينغون ، ثم تتصل ببلاد الصين في
الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط .

15

(أ) ضبطت بالحركات في ع بلهرا ، ثم شكلها في الجزء التالي كما أنبته وكما ضبطت في ل (ب) ي: السند (ج) ضبطت في ل:
منيار (د) من ل ج ي ، وفي ظ ع: قطعتين (كذا) ولا يطابق ذلك ما بعده: فيها مدينة .

• الإقليم الثالث :

وهو مُتّصل بالثاني من جهة الشمال ؛ ففي الجزء الأول وعلى نحو التّثلث من أغلاه ، جَبَل دَرَن ، مُعترض فيه من غربيّه عند البَحْر المُحيط إلى الشرق عند آخره . ويسكن هذا الجبل من البرّ أُمَمٌ لا يحصيهم إلا خالفهم حَسبها يأتي ذِكره .
5 وفي القِطعة التي يَتُن هذا الجبل والإقليم الثاني ، وعلى البَحْر المحيط منها ، رباط ماسّة ، وتُتّصل به شرقًا بلاد سُوس وتُول ، وعلى سَمتها شرقًا بلادُ دَرَعَة ، ثم بلاد سِجِلْماسّة ، ثم قِطعةٌ من صَحراء نيسَر ، المُقازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني . وهذا الجَبَل مُطلٌّ على هذه البلاد كلّها في هذا الجزء ، وهو قليلُ الشّايا والمسالك في هذه النّاحية الغربيّة إلى أن يُسامت وادي مَلويّة ، فتكثرُ ثُناياه ومَسالكه إلى أن
10 يَنْتهي . وفي هذه النّاحية منه أُمَمُ المَصامِدة ، فسكسيوّة عند البَحْر المحيط ، ثم هِنثاتَة ، ثم تِينال^(١) ، ثم كَذميوّة ، ثم هَسْكَورَة ، وهم آخر المَصامِدة فيه . ثم قبائل صِنّاكَة^(ب) وهم صِنهاجَة . ثم في آخر هذا الجزء منه بعض قبائل / زَناتَة . ويتّصل به [١٤٣]
هنالك من جوفيّه جَبَلُ أوراس وهو جَبَل كُتامة . وبعد ذلك أُمٌ أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكهم . ثم إنّ جَبَل دَرَن هذا من جهة غربيّه مُطلٌّ على بلاد المغرب الأقصى وهي في جَوْفِيّه . ففي النّاحية الجنوبيّة منها بلادُ مَرّاكش وأَغْمات وتاذلا ،
15 وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي ومدينة سَلا ، وفي الشرق عن بلاد مَرّاكش

(١) كذا في ظ ي ، وفي ل ع ج : تِينَمَل (ب) رسمها في ظ ل ع لضبط النطق ، يراي داخل الصاد ونقطة على الكاف .

بلاد فاس ومكناسة وتازا وقَصْر كَتَامَة . وهذه هي التي تُسَمَّى المغرب الأقصى في
عُزْف أهلها . وعلى ساحل البحر المحيط منها بُلْدَان : آصِيلَا^(أ)؛ والعرايش .

وفي سَمَت هذه البلاد شرقًا بلاد المغرب الأوسط ، وقاعدتها تِلْمُسان ؛
وفي سواحلها على البحر الرُّومِيّ بلد هُنَيْن وَوَهْرَان والجزائر . لأنَّ هذا البحر الرُّومِيّ
يُخْرَج من البحر المحيط من خليج طَنْجَة في الناحية الغَرْبِيَّة من الجزء الرابع، ويذهب
5 [مشرقًا]^(ب) فينتهي إلى بلاد الشام، فإذا خَرَج من الخليج المُتَضَائِق غير بعيد،
[انفسح]^(ج) جنوبًا وشمالًا فَدَخَلَ في الإقليم الثالث والخامس . فلهذا كان على ساحله
من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلادهِ، [تبتدئ] من طَنْجَة إلى القَصْر الصغير، ثمَّ
سَبْتَة ثم بادِس ثم غ...^(د) ثمَّ يَتَّصِل ببلاد الجزائر، ومن شرقها بِلَد بِجَاية في ساحل
البحر، ثم قُسْنَطِينَة في الشَّرق عنها .

10

وفي آخر الجزء الأول ، وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه
البلاد ، ومرتفعًا إلى جنوب المغرب الأوسط ، بلد آشِير [بجبل تِنِيطْرِي]^(هـ)، ثم بِلَد
المَسِيلَة ، ثم الزَّاب ، وقاعدته بَسْكَرَة تحت جبل أُوْرَاس المتصل بِدَرَن كما مرَّ .
وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق .

15 والجُزء الثاني من هذا الإقليم على هَيْئَةِ الجزء الأول ؛ يَمُرُّ جبلُ دَرَن
[على]^(و) نحو الثَّلَث من جنوبيهِ ذاهِبًا فيه من غَرْب إلى شَرْق ، فيَقْسِمُهُ بِقَطْعَتَيْنِ،

(أ) رسمت بالمد على الهجزة، وفي ظ ع وضعت مع الصاد زائي للنطق (ب) من الأصول الأربعة وسقطت من ظ (ج) من ل
ج ي ع ، وفي ظ : انفسح (د) من حاشية ع بخطه ، وفيه الكلمة منطومة (هـ) من حاشية ع بخطه (و) في ظ وحدها :
عدد .

وَيَعْمُرُ الْبَحْرُ الرُّومِيَّ مَسَافَةً مِنْ شِمَالِهِ . فَالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ غَرْبَهَا كُلُّهُ
مَفَاوِزَ ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بَلَدٌ عَدَامِسَ ، وَفِي سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ وَدَّانَ الَّتِي بَقِيَّتُهَا فِي
الإقليم الثاني كما مرَّ . وَالْقِطْعَةُ الْجَوْفِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي
الْغَرْبِ مِنْهَا ، جَبَلُ أَوْرَاسٍ وَتَبَسَّةَ وَالْأَرْبُسَ ، وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَلَدٌ بُونَةُ . ثُمَّ فِي
5 سَمْتِ / هَذِهِ الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ إِفْرِيقِيَّةَ ؛ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تَوُؤُسَ ؛ ثُمَّ [43 ب]
سُوسَةَ ، ثُمَّ الْمَهْدِيَّةَ .

وَفِي جَنُوبِ هَذِهِ الْبِلَادِ ، تَحْتَ جَبَلِ دَرَنْ ، بِلَادُ الْجَرِيدِ : تَوُزَرُ ، وَقَفْصَةُ ،
وَقَفْزَاوَةُ . وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّوَاوِحِلِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ ، وَجَبَلُ وَشَلَاتٍ ⁽¹⁾ وَسَيْطِلَةَ ^(ب) .
وَعَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْبِلَادِ كُلِّهَا شَرْقًا بَلَدٌ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ . وَبِأَزَائِهَا فِي
10 الْجَنُوبِ جِبَالُ دُمَرٍ وَمَقَرَّةٍ مِنْ قِبَائِلِ هَوَّارَةٍ ، مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنْ . وَفِي مُقَابِلَةِ عَدَامِسَ
الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ . وَآخِرُ هَذَا الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ ، سُوَيْقَةُ ابْنِ
مَشْكُودٍ عَلَى الْبَحْرِ ، وَفِي جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدَّانِ .

وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ يَمُرُّ فِيهِ أَيْضًا جَبَلُ دَرَنْ ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ
عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ ، وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ ، وَيَسْمَى
15 هُنَاكَ طَرَفُ أَوْثَانٍ ، وَالْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنْ شِمَالِيَّةِ غَمَرٍ طَائِفَةٍ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَصَافِقَ مَا
بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنْ . فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ
وَدَّانِ وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ، ثُمَّ زُوَيْلَةُ ابْنِ خَطَّابٍ ، ثُمَّ رِمَالٌ وَقِفَارٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي
الشَّرْقِ . وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْغَرْبِ مِنْهُ بَلَدٌ سُرْتٌ عَلَى الْبَحْرِ ، ثُمَّ خَلَاءٌ وَقِفَارٌ

(1) ضَبَطْتُ فِي لَ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ (ب) ضَبَطْتُ مَعْجَمَ الْبُلْدَانِ ، وَفِي لَ بَفَتْحِ الطَّاءِ .

تجول فيها الغرب، ثم أجداية، ثم بركة عند منعطف الجبل، ثم طليثة على البحر هنالك. ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هييب^(أ) ورواحة إلى آخر الجزء.

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم وفي الأعلى من غربه، صخاري بزنيق، وأسفل منها بلاد هييب ورواحة. ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه ذاهبا إلى الجنوب، حتى يزاحم طرفه الأعلى، ويتقى بينه وبين آخر الجزء قفار⁵ تجول فيها الغرب. وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم، وهي على مصب أحد الشغبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلد الصعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثاني، ويصب في بحيرة الفيوم. وعلى سمتها شرقا أرض مصر، ومدينتها الشهيرة على الشغب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني. ويفترق هذا الشغب افتراقة ثانية من تحت مصر على شغبين / آخرين من شطون^(ب)¹⁰ [144] و[زفتة]^(ج). ويتقسم الأيمن منها من ثروط^(د) بشغبين آخرين، ويصب جميعها في البحر الرومي. فعلى مصب الغربي من هذه الشغب بلد إسكندرية، وعلى مصب الأوسط بلد رشيد، وعلى مصب الشرقي بلد دمياط^(هـ). وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية، أسافل الديار المصرية كلها مخشوة عمرانًا وقلحا.

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام [أو]^(و) أكثرها، على ما أصف؛ وذلك أن [بحر القلزم]^(ز) ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند

(أ) كذا ضبطت بالحركات في ع ل ج (ب) في ل وحدها وضعت فتحة على الطاء، وفي بلدان ياقوت 3: 344 بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتح النون (ج) في ط: زه، ووردت مفتوحة الزاي في ع، وفي بلدان ياقوت 3: 144 جاءت بكسر الزاي والفتحة مقصورة بعد التاء المفتوحة (د) كذا ضبطت بالحركات في ل، وفوقها أنها في نسخة أخرى: ذروط (هـ) ل: دمياط، بالذال (و) في ط: و (ز) سقطت من ط.

السُّوَيْسَ، لَأَنَّهُ فِي مَمَرِّهِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّامِ يَنْعَطِفُ آخِذًا إِلَى جِهَةِ
الْغَرْبِ، فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنْ انْعِطَافِهِ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَوِيلَةً، تُنْتَهِي فِي الطَّرَفِ الْغَرْبِيِّ
مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ. وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ قَارَانٌ، ثُمَّ جَبَلُ الطَّوْرِ، ثُمَّ أُيْلَةُ
بَلَدُ مَدَيْنَ، ثُمَّ الْحَوْرَاءُ فِي آخِرِهِ. وَمِنْ هُنَاكَ يَنْعَطِفُ سَاحِلُهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ
5 الْحِجَازِ، كَمَا مَرَّ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ .

وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ
غَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غُرَيْبِهِ ؛ عَلَيْهَا الْفَرْمَاءُ^(أ) وَالْعَرِيشُ ، وَقَارِبُ طَرَفِهَا بَلَدُ الْقُلُومِ ،
فَتَضَاقِقُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَاكَ ، وَبَقِيَ شِبْهُ الْبَابِ مُفْضِيًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ . وَفِي
غُرَيْبٍ هَذَا الْبَابِ فَخْصُ التِّيهِ، أَرْضُ جَرْدَاءَ لَا تُثْبِتُ ، كَانَتْ مَجَالًا لِبَنِي
10 إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، كَمَا قَصَّه
الْقُرْآنُ^(ب).

وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ ، طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ
قُبْرُصَ ، وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا نَذَكِرُهُ . وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرَفِ
الْمُضَاقِقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ ، وَهُوَ آخِرُ [بَلَدٍ]^(ج) الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ،
15 وَعَسَقْلَانُ ، وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ. ثُمَّ تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ فِي انْعِطَافِهَا مِنْ هُنَاكَ
إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَعِزْقَةَ^(د). وَهُنَاكَ مُنْتَهَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي جِهَةِ
الشَّرْقِ . وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ ؛ فَبِشَرْقِيِّ عَسَقْلَانَ ، وَبِانْحِرَافِ

(أ) كُنَّا بَنَسْكِينَ الرَّاءِ فِي ع ل، وَفِي بِلْدَانِ يَاقُوتَ 4: 255 بِالْفَتْحِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ (ب) ل: كَمَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى (ج) مِنْ ل

(د) كَذَا ضَبَطَتْ بِالْحَرَكَاتِ فِي ل، وَهُوَ مُطَابِقٌ لَضَبْطِ يَاقُوتَ فِي مَعْجَمِ الْبِلْدَانِ 4: 109 .

يسير عنها إلى الشمال ، بلد قيسارية . ثم كذلك بلد عكا ، ثم صور ، ثم صيدا ثم عزة ، ثم ينعطف البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع .

[44 ب]

ويقابل هذه البلاد / الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء ، جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم ، ويذهب في ناحية الشمال منحرفاً إلى الشرق ، إلى أن يتجاوز هذا الجزء ، ويسمى جبل اللكام ؛ وكأنه حاجر بين 5 [أرض] مصر والشام . ففي طرفه عند أيلة ، العقبة التي يمر عليها الحاج من مصر إلى مكة ؛ ثم بعدها في ناحية الشمال مَدْفَنُ الخليل عليه السلام عند جبل الشراة ، يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ، ذاهباً على سمت الشرق ثم ينعطف قليلاً . وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل ؛ وهي أسفل الحجاز . وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها . 10 وفيما بين جبل الشراة وبحر القلزم صحراء تبوك . وفي شمال جبل الشراة مدينة القدس عند جبل اللكام ، ثم الأردن ، ثم طبرية . وفي شرقها بلاد الغور إلى أذرعاً . وعلى سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء ، وهي آخر الحجاز . وعند منعطف جبل اللكام إلى الشمال من آخر هذا الجزء ، مدينة دمشق ، مقابلة صيدا ويبروت من القطعة البحرية ، وجبل اللكام يغترض بينهما وبينها . وعلى سمت 15 دمشق في الشرق مدينة بعلبك ، ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء ، وعند منقطع جبل اللكام . وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ، ومجالات البادية إلى آخر الجزء .

(أ) سقطت من ظ وحدها .

وفي الجزء السادس من أغلاه مجالات الأعراب تحت بلاد نجد واليامة ،
ما بين جبل العزج والصّمان إلى البحرين وهجر على بحر فارس . وفي أسافل هذا
الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسيّة ، ومغايض الفرات . وفيما بعدها شرقاً
مدينة البصرة . وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبّادان والأبلة في أسافل
5 الجزء من شماله . ويصّب فيه عند عبّادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول
كثيرة ، وتختلط به جداول أخرى من الفرات ، ثم تجتمع كلها عند عبّادان ،
وتصّب في بحر فارس . وهذه القطعة من البحر متسعة في أغلاه ، مضايقة
لآخره في ^(١) شرقيّه ، وضيقه عند منتهاه مضايقة للحدّ / الشمالي منه ، وعلى [١٤٥]
عُدوتها الغربيّة أسافل البحرين وهجر والأخساء ؛ وفي غزها الخطّ والصّمان ^(ب)
10 وبقية أرض اليامة ؛ وعلى عُدوته الشرقيّة سواحل فارس ، فمن أغلاها ، وهو من
عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتدّ من هذا البحر مُشرقاً . ووراءه
إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كزمان ، وتحت هُزْمَز على الساحل بلد
سيراف ونَجِيم ^(ج) على ساحل هذا البحر . وفي شرقيّه إلى آخر الجزء، وتحت
هُزْمَز ، بلاد فارس ، مثل سابور ودرابجزد ^(د) وقسا واضطخر والشاهجان
15 وشيراز وهي قاعدتها كلها . وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طَرَف البحر بلاد
خوزستان ، ومنها الأهواز وتُسْتَر وجنديسابور والسوس ورام هُزْمَز وغيرها ،
وأرجان وهي حدّ بين فارس وخوزستان . وفي شرقيّ بلاد خوزستان جبال الأكراد

(١) في ل : وهي شرقيّه (ب) في ل وعند ياقوت بفتح الصاد، وبالضم في ع (ج) ضبطها ياقوت بالحرف: بفتح أوله وثانيه،
وياء ساكنة وراء مفتوحة، وميم (معجم البلدان 5: 274) وانفردت ل وحدها بضم النون وفتح الجيم بعدها ساكن: نَجِيم (د) كذا
ضبطت في ل وحدها، وفي ياقوت بسكون الباء وكسر الجيم، وسكون الراء: درابجزد (معجم البلدان 2: 446) .

متَّصلة إلى نواحي أَضْبَهان وبها مساكنهم ، ومجالاتهم وراءها في أرض فارس ،
وتُسمَّى الرُّوم .

وفي الجزء السابع ثم في الأعلى منه من الغرب ، بقيَّة جبال القفص ،
وتليها من الجنوب والشمال بلاد كَرْمَان ومُكْرَان ، ومن مُدُنِها الرُّودَان والشَّيرْجَان^(أ)
وجيرفت^(ب) ونَزْدَشِير^(ج) والفهرج . وتحت أرض كَرْمَان إلى الشمال بقيَّة بلاد فارس
إلى حدود أَضْبَهان . ومدينة أَضْبَهان في طرف هذا الجزء ما بين غَرْبه وشماله . ثم في
الشرق من أرض كَرْمَان وبلاد فارس أرض سِجِسْتَان في الجنوب ، وأرض
كُوهِسْتَان في الشمال عنها . ويتوسَّطُ بين كَرْمَان وفارس وبين سِجِسْتَان وكُوهِسْتَان
في وسط هذا الجزء ، المفازة العظيمة القليلة المسالك لصعوبتها . ومن مُدُنِ سِجِسْتَان
بُست والطاق . وأما كُوهِسْتَان فهي من بلاد خُرَاسَان ، ومن مشاهير بلادها
سَرْخُس وقُوهِسْتَان^(د) آخر الجزء .

وفي الجزء الثامن من غَرْبه وجنوبه مجالات الخُلج من أَمَم التُّرك ، متَّصلة
بأرض سِجِسْتَان من غربها وبأرض كَابُل الهِنْد من جنوبها . وفي الشمال عن هذه المجالات
جبال الغور ، وبلادها وقاعدتها غَزَنَة / قُرْصَة الهِنْد . وفي آخر الغور من الشمال بلد
إِسْتِرَابَاد ، ثم في الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد هَرَاة وأوسط خُرَاسَان ؛ وبها أَشْفَرَاين^(هـ) [45 ب]

(أ) كذا في ط ع ، وفي ج ل ي ، وعند ياقوت (البلدان 3: 295) : الشيرجان ، مدينة بين كرمان وفارس . وذكر شيرجان في
الدين (البلدان 3: 381) وقال : ما أظنها إلا ميرجان قضية كرمان ، فإن كانت غيرها فقد أنهم على أمرها (ب) في ط وحدها :
حجروت (ج) كذا في الأصول الخمسة ، والمعروف فيه : نَزْدَشِير ، يذكر ياقوت أنها من أكبر مدن كرمان مما يلي المفازة التي بين
كرمان وخراسان ، وأن اسمها تعريب أردشير بانيا . (معجم البلدان 1: 377) (د) هو تعريب كوهستان (معجم البلدان 4: 416)
(هـ) كذا في الأصول كلها بياء واحدة ، والمشهور بياء مثناة من تحت ، مكسورة ، بعدها ياء : أَشْفَرَاين . (انظر معجم البلدان
1: 177) .

وقاشان وبوشنج ومزؤ الرود والطاقان والجوزجان . وتنتهي خراسان هنالك إلى
نهر جينجون . وعلى هذا النهر من بلاد خراسان في غربيته مدينة بلخ ، وفي شرقيته
مدينة الترمذ . ومدينة بلخ كانت كرسي ملك الترك . وهذا النهر ، نهر جينجون ،
مخرج من بلاد وخان في حدود بدخشان مما يلي الهند . ويخرج من جنوب هذا
5 الجزء عند آخره من الشرق ، فينعطف عن قرب مغرباً إلى وسط الجزء ، ويسمى
هنالك نهر خربات^(١) ؛ ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان ، ويذهب على
سمته إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الإقليم الخامس كما نذكره . وتمده عند
انعطافه في وسط الجزء من الجنوب إلى الشمال ، خمسة أنهار عظيمة من بلاد
الجيل^(ب) والوخش من شرقيته ، وأنهار أخرى من جبال البثم من شرقيه أيضاً ،
10 وجوفي الجيل^(ب) حتى يتسع ويتعظم بما لا كفاء له . ومن هذه الأنهار الخمسة الممددة
له نهر وخشاب ، يخرج من بلاد التبت ، وهي بين الجنوب والشرق من هذا
الجزء ، فيمر مغرباً بانحراف إلى الشمال ، ويعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من
وسط الجنوب في هذا الجزء ، ويذهب مشرقاً بانحراف إلى الشمال ، إلى أن يخرج
إلى الجزء التاسع قريباً من شمالي هذا الجزء ، فيجوز بلاد التبت إلى القطعة الشرقية
15 الجنوبية من هذا الجزء ، ويحول بين الترك وبين بلاد الجيل^(ب) ؛ وليس فيه إلا
مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء ، جعل فيه الفضل بن يحيى سداً
وتى له باباً كسد ياجوج^(ج) . فإذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا

(١) في حاشية ع بخط ابن خلدون وفي ل ج ، وضعت نقطة تحت التاء (ب) كذا في جميع النسخ ، وصوابه الختل ، بخاء
مضمومة وتاء مشاة فوقية مشددة . انظر معجم البلدان 2: 346 ، 5: 364 (ج) في ل وحدها : وماجوج .

الجلل فنقذ تحته في مدى بعيد ، إلى أن يمر بلاد الوخش ويصب في نهر جينحون عند حدود بلخ ، ثم يمر هابطاً إلى الترمذ في الشمال إلى بلاد الجوزجان .

[46 أ]

وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينه وبين نهر جينحون ، / بلاد الناميان^(أ) من خراسان . وفي العدو الشرقية هنالك من النهر بلاد الجليل^(ب) ، وأكثرها جبال ، وبلاد الوخش ، ويحدها من جهة الشمال جبال البثم ، تخرج 5 من طرف خراسان غربي نهر جينحون ، وتذهب مشرقة إلى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت . ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه ، فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى . ويمر نهر جينحون بين هذه الجبال ، وأنهار أخرى تصب فيه ، منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ إلى 10 جهة الشمال ، ونهر بلخ^(ج) يخرج من جبال البثم من مبدئه عند الجوزجان ، ويصب فيه من غربيته . وعلى هذا النهر من غربيته بلد آمل من خراسان . وفي شرقي النهر هنالك أرض الصغد وأشروسنة من بلاد الترك ، وفي شرقها أرض فرغانة أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً . وكل بلاد الترك هذه تحوزها جبال البثم إلى شماليها .

15 وفي الجزء التاسع من غربيته أرض التبت إلى وسط الجزء ، وفي جنوبها بلاد الهند ، وفي شرقها بلاد الصين إلى آخر الجزء . وفي أسفل هذا الجزء شمالاً

(أ) كذا في الأصول ، وفي مختلف مصادر الجغرافيا: الباميان ، انظر: اليعقوبي: البلدان 289 ، ابن حوقل: صورة الأرض 449 ، الإدريسي: نزهة المشتاق 1 : 485 ، ياقوت: معجم البلدان 1 : 330 ، أبو الفدا: تقويم البلدان 466 (ب) كذا ، وصوابه الختل كما تقدم (ج) كذا في جميع الأصول ، ويعني نهر بلخ ، وهو نهر جينحون نفسه .

عن بلاد التُّبَّت بلاد الخَزْلَخِيَّة من التُّرْك إلى آخر الجزء شمالاً. ويتَّصل بها من غربيها أرض فَرْغَانَة، ومن شرقيها أرض البَغْرَغَر^(١) من التُّرْك إلى آخر الجزء شرقاً وشمالاً .

وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعاً بقية الصين وأسافلها . وفي الشمال بقية بلاد البَغْرَغَر . ثم شرقاً عنهم بلادُ خَزَخِيز من التُّرْك أيضاً إلى آخر الجزء شرقاً . وفي الشمال عن أرض خَزَخِيز بلادُ كِيَاك من التُّرْك . وقبالتما في البحر المحيط جزيرةُ الياقوت ، في وسط جبلٍ مُستدير لا مَنفذ منه إليها ولا مَسْلَك ؛ والصَّعود إلى أعلاه من خارجه صَعْبٌ في الغاية . وبالجزيرة حَيَاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى من الياقوت كثير ، فيَخْتَالُ أَهْلُ تلك الناحية في استخراجها بما يُلْهِمُهُم الله إليه . وهذه البلادُ في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خُرَاسَان والجِيل^(ب) ، / كلُّها مجالاتٌ [46 ب]

10 للثُّرْك أُمَّمٌ لا تُنْحَصَى؛ وهم ظُوعَيْنُ رَحَالَةٍ أَهْلُ إِبِلٍ وَشَاءٍ وَبَقَرٍ وَخَيْلٍ لِلنَّجَاحِ وَالرَّكُوبِ وَالْأَكْلِ. وطوائفُهُم كثيرةٌ لا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ ، وفيهم مُسْلِمُونَ تَمَّا يَلِي بلاد النهر ؛ نهر جِيْنَحُون. يَغْزُونَ الكُفَّارَ مِنْهُمْ الدَّائِنِينَ بِالْمَجُوسِيَّةِ ، فيبيعون رَقِيْقَهُمْ لِمَنْ يَلِيهِمْ ، ويَخْرُجُونَ إلى بلاد خُرَاسَان والهند والعِراق .

(١) في حدود العالم 90 ، 92 : التُّغْرَغَرُ وفي نزهة المشتاق (الفهرس) في هذه المقدمة ص 151 الطُّغْرَغَرُ. تما يشير إلى اشلاب التاء إلى طاء . وفي خريطة ع : التُّغْرَغَرُ (ب) كذا وصوابه الخُتْلُ كما تقدَّم .

• الإقليم الرابع:

يَتَّصِلُ بِالثَّالِثِ مِنْ جِهَةِ الشَّامَلِ ؛ وَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ فِي غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مِنْ
الْبَحْرِ الْحَيْطِ ، مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ أَوَّلِهِ جَنُوبًا إِلَى آخِرِهِ شَمَالًا ، وَعَلَيْهَا فِي الْجَنُوبِ مَدِينَةُ
طَنْجَةَ ، وَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ تَحْتَ طَنْجَةِ مِنَ الْبَحْرِ الْحَيْطِ ، الْبَحْرُ الرُّومِيُّ ، فِي
خَلِيجٍ مُتَضَائِقٍ بِمَقْدَارِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا ، مَا بَيْنَ طَرِيفِ وَالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ شَمَالًا ،
وَقَصْرِ الْمَجَازِ وَسَبْتَةِ جَنُوبًا ، وَيَذْهَبُ مُشْرِقًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ
الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، وَيَنْفَسِحُ فِي ذِهَابِهِ بِتَدْرِيحٍ إِلَى أَنْ يَغْمُرَ الْأَرْبَعَةَ الْأَجْزَاءَ
وَأَكْثَرَ الْخَامِسِ ، وَيَغْمُرُ عَنْ^(أ) جَانِبَيْهِ طَرَفًا مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ ، كَمَا نَذَكَّرُهُ.
وَيَسْمَى هَذَا الْبَحْرُ الْبَحْرُ الشَّامِيُّ أَيْضًا . وَفِيهِ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ ، أَعْظَمُهَا مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ
يَابِسَةٌ ، ثُمَّ مَيُوزَقَةٌ^(ب) ، ثُمَّ مَنُزَقَةٌ^(ج) ، ثُمَّ سَرْدَانِيَّةٌ ، ثُمَّ صِقْلِيَّةٌ ، وَهِيَ أَعْظَمُهَا ، ثُمَّ
بَلْبُونَسٌ ، ثُمَّ أَقْرِيطَشٌ ، ثُمَّ قُبْرُصٌ ، كَمَا نَذَكَّرُهَا كُلَّهَا فِي أَجْزَائِهَا الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا .

وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْهُ ، وَفِي الْجُزْءِ
الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، خَلِيجُ الْبِنَادِقَةِ ، يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامَلِ ، ثُمَّ
يَتَعَطَّفُ عِنْدَ وَسْطِ الْجُزْءِ مِنْ جَوْفِيهِ وَيَمُرُّ مُغْرِبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ
الْخَامِسِ . وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، يَمُرُّ فِي الشَّامَلِ مُتَضَائِقًا فِي عَرْضِ زَمِيَّةِ السَّهْمِ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ ، ثُمَّ

(أ) ل: من (ب) كذا في الأصول، وانفردت ظ برسمها خطأ: مبروقه. وانظر ياقوت 5: 246 (ج) هكذا في الأصول،
ورسمها ياقوت بالواو بعد النون، معجم البلدان 5: 246 .

يُفْضِي إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَنْعُطِفُ إِلَى بَحْرِ نِيَطَشْ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ ، وَنِصْفِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا [نَذَكُرُ]^(١) ذَلِكَ فِي أَمَاكِهِ .

- [47] / وَعِنْدَمَا يُخْرَجُ هَذَا الْبَحْرُ الرُّومِيُّ مِنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ فِي خَلِيجِ طَنْجَةِ ،
5 وَيَنْفَسُخُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ ، يَبْقَى فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْخَلِيجِ قِطْعَةً صَغِيرَةً مِنْ هَذَا
الْجُزْءِ ، فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةِ عَلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ، وَبَعْدَهَا سَبْتَةُ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، ثُمَّ
تِيَطَاوِينَ ، ثُمَّ بَادِس . ثُمَّ يَغْمُرُ الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هَذَا الْجُزْءِ شَرْقًا وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّالِثِ .
وَأَكْثَرُ الْعِمَارَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ فِي شِمَالِهِ وَشِمَالِ الْخَلِيجِ مِنْهُ ، وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ ؛
فَالْغَرِيبَةُ مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، أَوَّلُهَا طَرِيفُ عِنْدَ مَجْمَعِ
10 الْبَحْرَيْنِ ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ ، ثُمَّ مَالَقَةُ ،
ثُمَّ الْمَتَكَبُ ، ثُمَّ الْمَرِيَّةُ . وَتَحْتَ هَذِهِ مِنْ لَدُنْ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهُ
شَرِيشُ وَلَبْلَةُ ، [وَقَبَالَتُهُمَا فِيهِ جَزِيرَةُ قَادِسُ ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشُ وَلَبْلَةُ]^(ب)
إِشْبِيلِيَّةُ ثُمَّ [إِسْتِجَّةُ]^(ج) وَقُرْطَبَةُ وَمَرْتَلَةُ ، ثُمَّ غَرْنَاطَةُ وَجِيَّانُ وَأُبْدَةُ ، ثُمَّ وَادِيَاشُ
وَبَسْطَةُ ، وَتَحْتَ هَذِهِ شَنْتَمِرِيَّةُ وَشَلْبُ عَلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ غَرْبًا ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا
15 بَطْلَيْنُوسُ وَمَارِدَةُ وَيَابُرَةُ ، ثُمَّ غَافِقُ وَتَرْجَالَةُ ثُمَّ قَلْعَةُ رَبَاحُ ، وَتَحْتَ هَذِهِ أَشْبُونَةُ عَلَى
الْبَحْرِ الْمَحِيطِ غَرْبًا ، وَعَلَى نَهَرٍ تَاجُهُ ، وَفِي الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينَ وَقُورِيَّةُ عَلَى النَّهْرِ
الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ قَنْطَرَةُ السَّيْفِ . وَيُسَامِتُ أَشْبُونَةُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جِبِلَّ الشَّارَاتِ ، يَبْدَأُ

(١) سَقَطَ مِنْ : ظ ل (ب) سَقَطَ مِنْ : ظ (ج) مِنْ ج وَعَلَيْهَا ضَبَطُ يَاقُوتَ (الْبُلْدَانُ 1: 174 ، وَالْإِدْرِيسِيُّ : النَّزْهَةُ 2:

537 ، 572-) وَفِي ع : ءِ اسْمُجَةٍ ، وَفِي بَقِيَّةِ النُّسخِ : إِسْمُجَةٍ .

من الغرب هنالك ويذهب مُشرقاً مع آخر الجزء من شماليّه ، فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد التصف منه . وتحت هذا الجبل طَلْبَيْرَة في الشرق عن قُورِيَة^(أ) ثم طَلَيْطِلَة ثم وادي الججارة ثم مدينة سالم . وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أُشْبُونَة بلد قَلْمَرِيَه . هذه غَزب الأندلس .

5 وأما شَرْق الأندلس ، فعلى ساحل البَخر الروميّ منها من بعد المريّة ، قَرطاجنة ثم لَقَنْت ثم دَانِيَة ثم بَلَنْسِيَة إلى طَرْكُونَة آخر الجزء في الشرق ، وتحتها شمالاً لُوزَقَة وشُقُورَة يُتَاخَمَان بَسْطَة وقَلْعَة رباح من غَزب الأندلس . ثم مُزْسِيَة شرقاً ثم شاطِبَة تحت بَلَنْسِيَة شمالاً ثم شَقْر^(ب) ثم طَرْطُوشَة / تحت طَرْكُونَة آخر الجزء . ثم تحت هذه شمالاً جَنْجَالَة ووَبْذَة متاخمتان لشُقُورَة وطَلَيْطِلَة من الغَزب ، ثم إفْرَاعَة^(ج) شرقاً تحت طَرْطُوشَة وشمالاً عنها . ثم في الشرق عن مدينة سالم قَلْعَة أَيُوب ثم سَرْفُسْطَة ، ثم لارْدَة آخر الجزء شرقاً وشمالاً.

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه إلا قِطْعَة من غربيّه في الشّمال ، فيها بقيّة جَبَل البُرْتَات ومَغْنَاه جَبَل الثَّنَايَا والمسالك ، يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس ، يَبْدَأ من الطرف المُتْهِي من البَخر المُحِيط عند آخر ذلك الجزء جنوباً وشرقاً ، ويمرّ في الجنوب بانحرافٍ إلى الشرق ، 15 فيخرج في هذا الإقليم الرابع مُنْحَرَفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني ، فتقع فيه قِطْعَة منه تُقْضِي ثَنَايَاها إلى البرّ المتصل ، وتُسمّى أرض غَشْكُونِيَة ، وفيه مدينة

(أ) الضبط من : ع ج ل ، وضبطها ياقوت بالحرف بضم القاف واللام (معجم البلدان 4 : 391) (ب) في ل ي : شُرّ ، بضم القاف وسكون الراء (ج) في ع بكسر الهزّة كما عند ياقوت ، وفتحها في ل .

جُرُنْدَة^(١) وَقَرْقَشُونَة^(١). وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة بَرْشَلُونَة^(١) ثم أَرْبُونَة^(١). وفي هذا البحر الذي غَمَرَ هذا الجزء جزائر كثيرة ، والكثير منها غير مَسْكُونٍ لِصَغَرِهَا . ففي غَرْبِهِ جزيرة سَرْدَانِيَة ، وفي شَرْقِيَّه جزيرة صِقْلِيَة مُتَّسِعَة الأَقْطَار ، يُقَالُ إِنَّ فِي دَوْرِهَا سَبْعَمِائَة مِيل ، وبها مُدُنٌ كثيرة ، من مشاهيرها^(ب) : سَرْقُوسَة وَبَلَرْم^(١) وَطَرَابَنْة وَمَازَر وَمِيسِينِي^(١) . وهذه الجزيرة تقابل أرض إفريقيَّة ، وفيما بينهما جزيرتا عَوْدَش^(١) وَمَالْطَة^(١) .

والجُزءُ الثَّالِثُ من هذا الإقليم مَغْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ ، إِلَّا ثَلَاثَ قِطْعٍ من نَاحِيَةِ الشَّامِ ، الْغَرْبِيَّةُ مِنْهَا مِنْ أَرْضِ قَلُورِيَّةٍ ؛ وَالْوُسْطَى مِنْ أَرْضِ نَكَبَزْدَه^(ج) ؛ وَالشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ الْبِنَادِقَةِ .

10 والجُزءُ الرَّابِعُ من هذا الإقليم مَغْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ كَمَا مَرَّ ، وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ ، وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي الثَّالِثِ . وَالْمَغْمُورُ مِنْهَا جَزِيرَةٌ بَلْبُونَس^(د) فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ ، وَجَزِيرَةٌ أَفْرِيطَش ، مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ .

15 والجُزءُ الْخَامِسُ من هذا الإقليم غَمَرَ الْبَحْرُ مِنْهُ مِثْلَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ ، يَنْتَهِي الضَّلْعُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزءِ فِي الشَّامِ ، / وَيَنْتَهِي الضَّلْعُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ [الثَّلَاثِينَ]^(هـ) مِنْ الْجُزءِ ، وَيَبْقَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْجُزءِ قِطْعَةٌ نَحْوِ الثَّلَاثِ ، يَمُرُّ الشَّمَالِيُّ مِنْهَا إِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا . وَفِي

(١) كَذَا ضَبَطْتُ بِالْحَرَكَاتِ فِي ع ل (ب) كَذَا وَرَدَتْ فِي كُلِّ الْأَصُولِ ، وَيُنْكَرُ أَهْلُ التَّصْرِيفِ جَمْعَ مَا أَوَّلَهُ مِيمٌ مِنْ اسْمِ الْمَفْعُولِ جَمْعَ تَكْسِيرِ (ج) فِي ل : أَنْكَبَزْدَه ، بِنُقْطَةٍ تَحْتَ الْكَافِ لَضَبْطِ النُّطْقِ بِهَا (د) الضَّبْطُ مِنْ ل (هـ) فِي ظ وَحْدَهَا : الثَّلَاثِينَ .

النصف الجنوبي منها أسافل الشام، ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال، فينعطف من هنالك ذاهباً إلى القطر الشرقي الشمالي، ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة، ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس، ويحور من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق. وتقوم من عند منعطفه من جهة الغرب جبال متصلة بعضها ببعض، إلى أن تنتهي إلى طرف خارج من البحر 5 الرومي، متاخمة إلى آخر الجزء من الشمال. وبين هذه الجبال ثانياً تسمى الدروب، وهي التي تقضي إلى بلاد الأزمن. وفي هذا الجزء قطعة منها يثن هذه الجبال ويثن جبل السلسلة. فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام، وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال، فعلى ساحل البحر منه بلد أنطرسوس في أول الجزء من الجنوب، متاخمة لعزقة وطرابلس على ساحله من 10 الإقليم الثالث، وفي شمال أنطرسوس جبلة ثم اللاذقية ثم إسكندرونة ثم سلوقية، وبعدها شمالاً بلاد الروم. وأما جبل اللكام المفترض بين البحر وآخر الجزء، فخفايته من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً حصن الخواي من غزيته، وهو للحشيشية الإسماعيلية، ويعرفون لهذا العهد بالفداوية، ويسمى الحصن مضيّات⁽¹⁾ وهو قبالة أنطرسوس شرقاً. ويقابل هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حصن. وفي الشمال 15 عن مضيّات⁽¹⁾ بين الجبل والبحر بلد أنطاكية، ويقابلها في شرق الجبل المعرة، وفي شرقها المראה. وفي شمال أنطاكية [المضيصة]^(ب) ثم أذنة^(ج) ثم طرسوس [آخر الشام]^(د)

(أ) كنا في الأصول كلها وذكرها ياقوت (المعجم 5: 44) بالباء في آخرها، مضيا، وبعضهم يقول مضيا (ب) ع ل ج وفي ظ ي: المضيصة، وضبطها ياقوت بالحرف (المعجم 5: 144) (ج) رسمها في ل بالألف المدودة: ءاذنة (د) من: ع ل ج ي، وسقط من ظ.

ويحاذيها من غربيّ الجبل قنّسرين ، ثم عَيْن زَرْبَة ^(أ) ، وقُبالة قنّسرين في شَرْق الجبل
حَلَب ، ويُقابل عَيْن زَرْبَة مَنبِج آخر الشّام . وأمّا / الدُّرُوبُ فَعَن يمينها ، ما بينها [48 ب]
وبَيْن البَحر الرُّومِيّ بِلادُ الرُّوم التي هي لهذا العهد للترُكمان ، وسلطانها ابنُ عُثْمان .
وفي ساحل البَحر الرُّومِيّ منها بِلدُ [أنطالية] ^(ب) والعلايا . وأمّا بِلادُ الأَزمَن التي بين
5 جَبَل الدُّرُوب وجَبَل السَّلْسَلَة ، ففيها بِلدُ مَرْعَش ومَلْطِيَّة وأنْقَرَة ^(ج) إلى آخر الجزء
شمالاً .

ويخرجُ من الجزء الخامس في بلاد الأَزمَن نَهْر جَنحان ونَهْر سَينحان في
شَرْقيه؛ فيمرّ جَنحان جنوباً حتّى يتجاوز الدُّرُوبَ ، ثم يمرّ بطَرْسوس ، ثم
بالمَصِيصَة ^(د) ، ثمّ ينعطف هابطاً إلى الشّمال ومُغَرَّباً حتّى يَصُبَّ في البَحر الرُّومِيّ
10 جنوب سَلوْقِيَّة . ويمرّ نهر سَينحان مُوازياً لنهر جَنحان ، فيحاذي أنْقَرَة ومَرْعَش ،
ويتجاوزُ جبالَ الدُّرُوب إلى أرض الشّام . ثمّ يمرّ بعَيْن زَرْبَة ويجوز عن نَهْر جَنحان ،
ثمّ ينعطفُ إلى الشّمال ومُغَرَّباً ، فيختلطُ بنَهْر جَنحان عند المَصِيصَة ^(د) ومن غَربها .
وأمّا بلاد الجزيرة التي يحيطُ بها منعطفُ جَبَل اللُّكَّام إلى جَبَل السَّلْسَلَة ، ففي
جنوبيّها بِلدُ الرّافِقَة والرّقّة ، ثمّ حَرّان ثم سَروج والرّها ، ثمّ نصّيبين ثم شُمَيْسَاط ^(هـ)
15 وآمِد تحت جَبَل السَّلْسَلَة وآخر الجزء من شماله ، وهو أيضاً آخر الجزء من شَرْقه .
ويمرّ في وَسَط هذه القطعة نَهْر الفُرات ونَهْر دِجْلَه ؛ يَخْرُجان ^(و) من الإقليم
الخامس ، ويمرّان في بِلاد الأَزمَن جنوباً إلى أن يتجاوزا جَبَل السَّلْسَلَة . فيمرّ نَهْرُ

(أ) ذكرها ياقوت بالألف المقصورة في آخرها : عين زَرْبِي (ب) ظ وحدها: أنطاكية (ج) ضبطت في ع ل بكسر القاف ،
وبذلك ضبطها ياقوت بالحرف (المعجم 1: 271) (د) كما تقدّم (هـ) هكذا بالشين المبتدئة في ظ ع ل ج ، ويذكرها ياقوت في
باب السين ، شُمَيْسَاط (المعجم 3: 258) (و) صحّفت في ل إلى يخرجان .

الفرات في غربي شَمْنِساط وسُروج ، ثم يَتَحَرِّف إلى الشَّرق فيَمُرُّ بِقُرْبِ الرَّافِقَةِ
وَالرَّقَّةِ ، ويَخْرُج إلى الجزء السَّادس . وَيَمُرُّ دِجْلَةً في شرق آمِد ، وَيَنْعَطِفُ قَرِيباً إلى
الشَّرق فيَخْرُج قَرِيباً إلى الجزء السَّادس .

وفي الجُزء السَّادس من هذا الإقليم من غربيته، بلادُ الجزيرة، وفي الشرق
عنها بلاد العراق متصلة بها ، تنتهي في الشرق إلى قُرب آخر الجزء . وَيَغْتَرِضُ آخِرُ 5
العراق هنالك جبلُ أَضْهَانٍ، هابِطاً من جَنُوب الجزء، مُنْحَرِفاً إلى الغرب ، فإذا
انتهى إلى وسط الجُزء من آخره في الشَّمال ، يَذْهَبُ مُغْرَباً إلى أن يَخْرُج من الجزء
السَّادس، ويتَّصِلُ على سَمْتِهِ بِجَبَلِ السَّلْسِلَةِ / في الجزء الخَامِس ، فيَقْطَعُ هذا الجزء [49]
السَّادس بِقِطْعَتَيْنِ ، غَرْبِيَّةً وَشَرْقِيَّةً ، ففي الغَرْبِيَّة من جنوبها مَخْرُجُ الفُرات من
الخَامِس، وفي شِمَالِهَا⁽¹⁾ مَخْرُجُ دِجْلَةٍ مِنْهُ .

10

أَمَّا الفُرات فَأَوَّلُ مَا يَخْرُج إلى السَّادس يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا، ويَخْرُج مِنْهُ هُنَاكَ
جَدُولٌ إلى الشَّمال، يُنْسَابُ في أَرْضِ الجزيرة وَيَغُوصُ في نَوَاحِيهَا ، وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا
غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إلى الجَنُوب فيَمُرُّ بِغَرْبِ الْخَابُورِ إلى غَرْبِ الرَّحْبَةِ ، ويَخْرُجُ مِنْهُ
جَدُولٌ مِنْ هُنَاكَ يَمُرُّ جَنُوباً ، وَتَبْقَى صَفَيْنِ في غَرْبِهِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ
بِشُعُوبٍ، فيَمُرُّ بَعْضُهَا بِالْكُوفَةِ، وَبَعْضُ بَقْصَرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ، وَيَخْرُجُ^(ب) جَمِيعُهَا 15
في جَنُوبِ الجُزء إلى الإقليم الثَّالِث، فَتَغُوصُ هُنَاكَ في شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ.
وَيَمُرُّ الْفُراتُ مِنَ الرَّحْبَةِ مُشْرِقاً على سَمْتِهِ إلى هَيْتٍ مِنْ شِمَالِهَا ، ثُمَّ إلى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ
مِنْ جَنُوبِهَا ، ثُمَّ يَصُبُّ في دِجْلَةٍ عِنْدَ بَغْدَادِ .

(1) ل : شِمَالِهَا (ب) ل : تَخْرُج .

وأما نهر دجلة ، فإذا دخل في الجزء الخامس إلى هذا الجزء ، يمرّ مُشرقاً على سَمْتِه ومُحاذياً لجبل السَّلسلة المتَّصل بجبل العراق على سَمْتِه ، فيمرّ بجزيرة ابن عَمْرٍ من شمالها ، ثمّ بالمَوْصِل كذلك وتكرّيت ، ويتَّهي إلى الحديثة ، فيتَّعطف جنوباً وتَبَقَّى الحديثة في شرقه ، والزَّاب الكبير والصَّغير كذلك ، ويمرّ على سَمْتِه جنوباً وفي غَرْب القادِسيَّة إلى أن يَتَّهي إلى بَغداد ويختلطُ بالفُرات ، ثم يمرّ جنوباً على غَرْب جَزْجَرَايا إلى أن يخرج من الجزء إلى الإقليم الثالث ، فتتكثرُ هنالك شُعبوهُ وجداولُهُ ، ثم تَجْتَمِعُ وتَصُبُّ هنالك في بحر فارس عند عَبَّادان. وفيما بين نهر الدَّجلة والفُرات قَبْل مَجْمَعِهما ببَغداد ، هي بلاد الجزيرة. ويختلطُ بنهر دجلة بعد مُفارقتِه بَغداد نهرٌ آخر يأتي من الجِهة الشرقيَّة الشماليَّة عنه ، ويتَّهي إلى بلد النُّهروان قُبالة بَغداد شرقاً ، ثم ينعطف جنوباً ، ويختلطُ بِدجلة قبل خُرُوجه إلى الإقليم الثالث. ويتَّي ما بين هذا النهر / وبين جبل العراق والأعاجم بلد جُلولاء ، وفي شرقها [49 ب] عند الجبل بلدُ حُلوان وصَيْمَرَة . وأما القِطعة الغربيَّة من الجزء ، فيعترضُها جبلٌ يَبْدَأُ من جبل الأعاجم مُشرقاً إلى آخر الجزء ، ويُسمَّى جبل شَهْرزور فيقسمُها بِقِطعتَيْن. وفي الجنوب من هذه القِطعة الصُّغرى بلدُ خُونَجَان في الغَرْب والشَّمال عن أَصْهَبَان ، وتسمَّى هذه القِطعة بلادُ البَهلوس^(أ) ، وفي وَسَطِها بلدُ نَهاوَنَد ، وفي شَمالِها بلدُ شَهْرزور غرباً عند مُلتَقَى الجبلَيْن ، والدَّيْنُور شرقاً عند آخر الجزء.^(ب) وفي القِطعة الصُّغرى الثَّانية طرفٌ من بلاد أزمينية ، قاعدُها المَراغة ، والذي يُقابِلُها من جبل العراق يُسمَّى جبلُ بَارْمَا^(ج) وهو مَسَاكُنُ للأَكْرَاد ، والزَّاب الكبير والصَّغير الذي

(أ) كذا في الأصول. وقد تكون مصحفة عن البهلويين التي ذكرها الإدريسي (الزهوة 2: 654، 655، 678) (ب) سقطت الواو

من ل (ج) ضبطت في ع ج وحدها بفتح الراء، وضبطها ياقوت بالحرف بكسرهما (معجم البلدان 1: 320) .

على دِخْلَةٍ من ورائه . وفي آخر هذه القِطْعَةِ من جهة الشّرق بلاد أَدْرِيَجَان ، ومنها
تَبْرِيزَ والبَيْلَقَان . وفي الزاوية الشّرقيّة الشماليّة من هذا الجزء قُطَيْعَةٌ من بحر نيطنش
وهو بَحْرُ الْخَزَر .

وفي الجُزء السّابع من هذا الإقليم في غربيّه وجنوبه مُعْظَمُ بلاد البهلوس ،
وفيها هَمْدَان وقَزْوِين ، وَبَقِيَّتُهَا في الإقليم الثّالث وفيها هنالك أَصْهَان . ويَحِيطُ بها من 5
الجنوب جبلٌ يَخْرُجُ من غربيّها وَيَمُرُّ بالإقليم الثّالث ، ثمَّ يَنْعَطِفُ من الجزء السّادس
إلى الإقليم الرّابع ، ويتّصل بجبل العراق في شرقيّه الَّذِي مَرَّ ذَكَرُهُ هنالك ، وأتّه
محيطٌ ببلاد البهلوس في القِطْعَةِ الشّرقيّة . ويَهْبِطُ هذا الجبلُ المحيِطُ بِأَصْهَان [من] ^(١)
الإقليم الثّالث إلى جهة الشّمال ، ويَخْرُجُ إلى هذا الجزء السّابع فيحيط ببلاد البهلوس
من شرقيّها ، وتَحْتَهُ هنالك قَاشَان ثمَّ قُمْ ، وَيَنْعَطِفُ في قُزْبِ النّصف من طريقه 10
مَغْرِبًا بَغْضَ الشَّيْءِ ، ثمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقًا وَمُنْحَرِفًا إلى الشّمال ، حتّى
يَخْرُجُ إلى الإقليم الخامس ، وَيَشْتَمِلُ عند مُنْعَطِفِهِ واستِدَارَتِهِ على بَلَدِ الرّي / في [50]
شرقيّه ، وَيَبْدَأُ من مُنْعَطِفِهِ جبلٌ آخر يَمُرُّ غَرْبًا إلى آخر الجزء ، ومن جنوبه هنالك
قَزْوِين ، ومن جانبه الشّماليّ وجانب جَبَلِ الرّي المتّصل معه ذاهبًا إلى الشّرق
والشّمال إلى وسط الجزء ، ثمَّ إلى الإقليم الخامس ، بلاد طَبْرِسْتَان ^(ج) فيما بَيْنَ هذه 15
الجبال وبين [قِطْعَةٍ] ^(ب) من بَحْرِ طَبْرِسْتَان ^(ج) . يَدْخُلُ من الإقليم الخامس في هذا
الجزء في نحو النّصف من غَرْبِهِ إلى شَرْقِهِ ، وَيَقْطُرُ عند جبل الرّي ، وعند

(١) ظ : في (ب) كنا في الأصول، وفي ظ وحدها: قطعتين (ج) افردت ع بضبطه بفتح الأول والثالث بينهما ساكن كما
أثبت ، وعند ياقوت بفتح أوله وثانيه وكسر الراء. طَبْرِسْتَان .

انعطافه إلى الغرب ، جبل متصل يَمُرُّ على سَمْتِه مشرقًا وبانحرافٍ قليل إلى الجنوب ، حتَّى يَدْخُلَ في الجزء الثامن من عَزْبِه . وَيَبْقَى بين جَبَلِ الرَّيِّ وهذا الجبل من عند مَبْدئِهما بلادُ جُزْجَانَ فيما بين الجبلَيْن ، ومنها بِسْطَام . ووراء هذا الجبل قطعةٌ من هذا الجزء فيها بقيةُ المَفَاةِ الَّتِي بَيْنَ فَارِسَ وَخُرَاسَانَ ، وهي 5 في شَرْقِي قَاشَانَ ، وفي آخرها عند هذا الجَبَلِ بَلَدُ إِسْتَرَابَادَ ، وَجِغْفَانِي هذا الجبل من شَرْقِيَّهِ إلى آخر الجزء بلادُ^(أ) نَيْسَابُورَ من خُرَاسَانَ . ففي جَنُوبِ الجبل وشرق المَفَاةِ بَلَدُ نَيْسَابُورَ ، ثم مَزُو الشَّاهِجَانَ آخر الجزء . وفي شماله وشرق جُزْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ ، وَخَازَرُونَ^(ب) ، وَطُوسَ آخر الجزء شرقًا ؛ وَكُلُّ هذه تَحْتَ الجبل . وفي الشَّمالِ عنها بعيدًا بلادُ نَسَا ؛ وَتَحِيطُ بها عند زاويةِ الجزء بين الشمال 10 والشرق مَفَاوِزُ مَعْطَلَةٌ .

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في غربيته نَهْرُ جَنْجُونِ ، ذَاهِبًا من الجنوب إلى الشَّمالِ . ففي عُدُوتِهِ الْغَرْبِيَّةِ زَمْ^(ج) وَأَمَلُ من بلاد خُرَاسَانَ ، وَالطَّاهَرِيَّةُ وَالجُرْجَانِيَّةُ من بلاد خُوارِزْمِ . وَيُحِيطُ بِالزَّائِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلُ إِسْتَرَابَادَ الْمُعْتَرِضِ فِي الجزء السَّابِعِ قَبْلَهُ ، وَيَخْرُجُ فِي هذا الجزء من غربيته وَيُحِيطُ بِهذه الزَّائِيَةِ ، 15 وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ ، وَيَمُرُّ الْجَبَلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ بَيْنَ هَرَاةَ وَالْجُوزْجَانَ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبُثْمِ^(د) كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَاكَ .

(أ) ل : بَلَدُ (ب) كَذَا فِي الْأَصُولِ ، وَهِيَ كَانْدُونُ (ج) وَرَدَتْ فِي نَسْخَةِ "ع" بِضَمِّ الزَّائِيِ ، وَمَيَّزَهَا يَاقُوتُ ؛ بِأَنَّهَا بَلِيدَةٌ عَلَى طَرِيقِ جَنْجُونِ مِنْ تَزْمَدَ وَأَمَلُ ، وَبَفَتْحِ الزَّائِيِ ، عَنْ رُومِ الْمَضْمُونَةِ الزَّائِيِ الَّتِي تَقَعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ 3 : 150-151) (د) كَذَا ضَبَطَتْ فِي جَ ، وَعِنْدَ يَاقُوتَ بِالضَّمِّ ثُمَّ بِالْفَتْحِ وَالتَّشْدِيدِ (الْمَعْجَمُ 1 : 335) .

وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء / وفي الجنوب منه ، بلاد بخارى
ثم بلاد الصغد ، وقاعدتها سمرقند ، ثم بلاد أشروسنة ، ومنها خجندة آخر الجزء
شرقاً . وفي الشمال عن سمرقند وأشروسنة أرض يلاق^(أ) . ثم في الشمال عن يلاق
أرض الشاش ، تمر^(ب) إلى آخر الجزء شرقاً ، وتأخذ قطعة من الجزء التاسع في
جنوب تلك القطعة ، بقية أرض فرغانة . ويخرج من هذه القطعة التي في الجزء
5 التاسع نهر الشاش ، يمرّ معترضاً في الجزء الثامن إلى أن يصبّ في نهر جيحون
عند مخرجه من هذا الجزء الثامن ، في شماله إلى الإقليم الخامس . ويختلط معه في
أرض يلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت .
ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة . وعلى سمت نهر الشاش
10 جبل جبراغون؛ يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف مشرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب ،
حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش ، ثم ينعطف في الجزء التاسع
فيحيط بالشاش وفرغانة هنالك إلى جنوبه ، فيدخل في الإقليم الثالث . وبين نهر
الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب . وبينه وبين أرض بخارى
وخوارزم [مفاوز]^(ج) معطلة . وفي زاوية هذا الجزء بين الشمال والشرق أرض
15 خجندة ، وفيها بلد إسبيجاب وطرار^(د) .

(أ) جاءت بضم الياء في ع ، وذكرها ياقوت في باب الألف بكسر الهمزة : "إيلاق" (المعجم 1: 291) (ب) ل : ثم
(ج) ظ : مفازة (د) في ع ظ ج ي : طرار ، وفي ل : أطرار ، بنقطتين على الطاء إحداهما تخرج الحرف . وعند ياقوت: طراز
بكسر الطاء وزاي في الآخر ، ولم يضبطها بالحرف وهي المعنية في النص لقوله ، إنها بلد قريب من إسبيجاب من تنور الفرق
(المعجم 4 : 27) .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم ، ففي غربيّه بُعد فَرَغانة والسّاش أرضُ
الْخَزَلِيَّة في الجنوب ، وأرض الخَلِيَّة في الشّمال . وفي شرق الجزء كلّه إلى آخره
أرضُ الكِمَاكِيَّة . وتتّصل في الجزء العاشر كلّه إلى جَبَل قَوْفايا آخر الجزء شرقاً ،
على قِطعة من البَحْر المُحيط هناك ، وهو جبل ياجوج وماجوج . وهذه الأُمم كلّها
5 من سُعوب التُّرك .

• الإقليم الخامس

- الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء، إلا قليلاً من جنوبه وشرقه ، لأن
- [51] البحر المحيط من هذه الجهة الغربية دخل في الإقليم / الخامس والسادس والسابع
عن الدائرة المحيطة بالأقاليم . فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل المثلث ،
متصلة من هنالك بالأندلس ، وعليها بقيتها ، ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما 5
ضلعان مُحيطان بزاوية المثلث. ففيها من بقية غرب الأندلس منت ميور على
البحر، عند أول الجزء من الجنوب والغرب، وسلمنكة شرقاً عنها، وفي جوفها
سمورة، وفي الشرق عن سلمنكة آبله آخر الجنوب، وأرض قشتالة شرقاً عنها ،
وفيها مدينة شقوبية ، وفي شمالها أرض ليون وبرغشت. ثم وراءها في الشمال أرض
جليقية إلى زاوية القطعة . وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد 10
شنتياقوب، ومعناه يعقوب، وفيها من بلاد شرق الأندلس مدينة تطيلة عند آخر
الجزء في الجنوب، وشرقاً [عن] ^(أ) قشتالة، وفي شمالها وشرقها وشقة ثم بنبلونة على
سمتها شرقاً وشمالاً. وفي غرب بنبلونة قسطالة ^(ب) ثم تاجرة ^(ج) فيما بينها وبين برغشت.
ويغترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذياً للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه
وعلى قرب، ويتصل به وبطرف البحر من عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا 15
من قبل أنه يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الإقليم الرابع؛ ويصير ججراً على

(أ) ظ: عند (ب) كنا رسمت في الأصول ولعلها فسطلة (ج) كذا بالناء المشاء في الأصول، وعند الإدريسي وياقوت
بالنون: تاجره (ترجمة المشتاق 2: 725، 732 ومعجم البلدان 5: 250) .

الأندلس من جهة الشرق . وثناياه أبواب لها تُقضي إلى بلاد عَشْكَوَيْتَةٍ من أَمَم
الْفِرْنَج . فمنها في الإقليم الرابع بَرْشَلُونَة وَأَزْبُونَة على ساحل البحر الرّوميّ وجُرْنْدَة
وَقَرْقَشُونَة وراءهما في الشّمال . ومنها في الإقليم الخامس طَلُوشَة شمالاً عن جُرْنْدَة .
وأما المنكشِف في هذا الجزء من جهة الشرق ، فقطعةٌ على شكل مثلث مُسْتَطِيل ،
5 زاويته الحادّة وراء البرّات شرقاً . وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي
يتّصل^(١) بها جبل البرّات بلد بَيُوتَة . وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقيّة
الشّماليّة من الجزء أرض يَيطو من الفِرْنَج إلى آخر الجزء .

[51 ب] وفي الجزء الثاني في الناحية / الغربيّة منه أرض عَشْكَوَيْتَة ، وفي شمالها
أرض يَيطو ويَزْغُش ، وقد ذكرناهما . وفي شرق بلاد عَشْكَوَيْتَة ، قطعةٌ من البحر
10 الرّوميّ دخلت في هذا الجزء كالضّرس ، مائلة إلى الشرق قليلاً ، وصارت بلاد
عَشْكَوَيْتَة في غربها داخلّة في جَوْن^(ب) من البحر . وعلى رأس هذه القطعة شمالاً
بلاد جَنْوَة ، وعلى سمتها في الشّمال جبلٌ منّت جُون . وفي شماله وعلى سمتهِ أرض
برغُونَة ، وفي الشرق عن طرف جَنْوَة الخارج من البحر الرّوميّ طرفٌ آخر خارج
منه ، يَتَقَى بَيْنَهما جَوْن^(ب) داخل من البرّ في البحر ، في غَرْبِهِ يَبِش ، وفي شرقيّه
15 مدينةٌ رُومَة العظيمة ، كرسيّ مَلِك الإفرنجية ، ومَسْكَن البَابَة بَتْرِكْهم الأعظم . وفيها من
المباني الضّخمة والهيكل المَهولة والكنائس العاديّة ما هو معروف الأخبار . ومن
عجائبها النّهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب ، مفروّش قاعه ببلاط
التّحاس ؛ وفيها كنيسة بَطْرُس وبُولُس^(ج) من الحواريّين وهما مَدْفُونان بها . وفي

(١) ل : تَصُل (ب) ل : جوف (ج) ل : يولص .

الشمال عن بلاد رومة بلاد أنبرضيّة إلى آخر الجزء . وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جونة رومة بلد نابل في الجانب الشرقي منه ، متصلة ببلاد قلورية من بلاد الفرنج . وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء ، وانتهى إلى نحو الثلث منه ، وعليه كثير^(أ) من بلاد البنادقة من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط . ومن شماله بلاد 5 أنكلاية^(ب) في الإقليم السادس.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربه بلاد قلورية ، بين خليج البنادقة والبحر الرومي ، يدخل جانب من برّها في الإقليم الرابع في البحر الرومي في جون^(ج) بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء . وفي شرقي بلاد قلورية بلاد أنكبرذه في جون^(ج) بين خليج البنادقة * والبحر الرومي . ويدخل 10 طرف من هذا الجون في الإقليم الرابع / وفي البحر الرومي ، ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة *^(د) من البحر الرومي ذاهباً إلى سمت الشمال ، ثم ينعطف إلى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشمالي ؛ ويخرج على سمت من الإقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ، ثم يغرب معه في الإقليم السادس إلى أن ينتهي قبالة الخليج في شماله في بلاد أنكلاية من أم اللّماتيين كما يُذكر . وعلى هذا الخليج 15 وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين إلى الشمال ، بلاد البنادقة ، فإذا ذهباً إلى الغرب فبينهما بلاد جزواسيا ، ثم بلاد اللّماتيين عند طرف الخليج .

(أ) ل : الكثير (ب) ضبطها في ل بالحركات وفيها وفي ع نقطة تحت الكاف لضبط النطق (ج) ل : جوف (د) سقط ما بين النجمين من ل .

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرومي ، خرجت إليه
من الإقليم الرابع مَضْرَسَة كلها يَقْطَع من البحر ، تخرج منها إلى الشمال ، وبين كل
ضَرْسَيْن منها طَرْف من البَر في الجُون بينهما . وفي آخر الجزء شرقاً خليج
القُسْطَنْطِينَة ، يخرج^(أ) من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال إلى أن
5 يَدْخُل في الإقليم السادس ، ويتعطف من هُنَاكَ عن قُرْب مشرقاً إلى بحر نيَطَش
في الجزء الخامس وتغض الرابع قبله ، والسادس بعده من الإقليم السادس كما نذكر .
وبلد القُسْطَنْطِينَة في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال .
وهي المدينة العظيمة التي كانت كُرْسِي القِيَاصِرَة ، وبها من آثار البناء والضخامة ما
كثرت عنه الأحاديث . والقطعة التي بين البحر الرومي وخليج القُسْطَنْطِينَة من هذا
10 الجزء ، فيها بلاد مَقْدُونِيَة التي كانت لليُونَانِيَيْن ، ومنها ابتداء^(ب) مُلْكُهُمْ . وفي شرقي
هذا الخليج إلى آخر الجزء ، قطعة من أرض بَاطُوس ، وأظنها لهذا العهد مجالات
للتركان ، وبها مُلْك ابن عُثْمَان ، وقاعدته بَرْصَا^(ج) ؛ وكانت من^(د) قبلهم للروم ، وغلبتهم
/ عليها الأمم إلى أن صارت للتركان .

[52 ب]

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيته وجنوبه أرض بَاطُوس ، وفي
15 الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عُمُورِيَة ، وفي شرق عُمُورِيَة نَهْر قَبَاقِب الذي يمدُّ
الفرات ، يخرج من جبل هُنَاكَ ، ويذهب في الجنوب حتى يُخَالِط الفُرَات قبل فُصُولِهِ
من هذا الجزء إلى مَمَرِهِ في الإقليم الرابع ، وهناك في غربيته آخر الجزء ، مبدأ نهر
سِيحَان ، ثم نهر جَنْحَان غربه ، النَّاهِيَيْن على سمتِهِ ، وقد مرَّ ذَكَرُهُمَا . وفي [شرقيته]^(هـ)

(أ) ج : ثم يخرج (ب) ل : ابتداء (ج) ع : بَرْصَة (د) سقط من ل (هـ) في ظ وحدها : وفي سمتِهِ .

هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمنته وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد . وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء ، وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة ، بلد ميثافارقين . ونهر قباقيب الذي ذكرناه ، يقسم هذا الجزء بقطعتين : إحداهما غربية جنوبية ، وفيها أرض باطوس كما قلناه ، وأسافلها إلى آخر الجزء شمالاً ، ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقيب ، أرض عمورية كما قلناه . والقطعة 5 الثانية شمالية شرقية جنوبية على الثلث ، ففي الجنوب منها مبدأ الدجلة والفرات ، وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقيب ، وهي عريضة ، وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خزشنة ، وفي الزاوية الشرقية الشمالية فطينة من بحر نيطنش الذي يمتد خليج القسطنطينية⁽¹⁾.

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أزمينية ، متصلة 10 إلى أن تتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق . وفيها بلد أزرز في الجنوب والغرب ، وفي شمالها ثقليس ودبيل . وفي شرق^(ب) أزرز مدينة خلاط ثم بزذعة ، وفي جنوبها بانحراف إلى الشرق مدينة أزمينية . ومن هنالك تخرج بلاد أزمينية إلى الإقليم الرابع . وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بآرمما^(ج) ، وقد مر ذكره في الجزء السادس منه .

15

[53] ويتأخم بلاد / أزمينية في هذا الجزء ، وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها ، بلاد أذربيجان ، وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلد أذربيل على قطعة من

(1) كذا في ع ل ج ط ، وفي ي : القسطنطينية (ب) ل : شرقي (ج) ضبطت كذا بالحركات في ل ، وضبطها ياقوت بكسر الراء وتشديد الميم (معجم البلدان 1: 320) .

بَحْر طَبْرِسْتَان ، دخلت في الناحية الشرقية من هذا الجزء من الجزء السابع ،
ويسمى بَحْر طَبْرِسْتَان . وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر ، وهم
التُّركُمَان . ويبدأ من عند آخر هذه القطيعة البحرية في الشمال [جبال] ^(١) يتصل
بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس ، وتَمُرُّ فيه منعطفة ومحيطة ببلاد
مِيثَافَرِقِينَ ، وتَخْرُجُ إلى الإقليم الرابع عند آمِد ، وتتصل بجبل السلسلة في أسافل
الشَّام ، ومن هنالك تتصل بجبل اللُّكَّام كما مرَّ . وبين هذه الجبال الشمالية في هذا
الجزء ثَلاَثَا كَالْأَبْوَاب تُفْضِي من الجانبين ؛ ففي جنوبيها بلادُ الأبواب مُتَّصِلَةٌ في
الشرق إلى بَحْر طَبْرِسْتَان ، و ^(ب) عليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب . وتتصل
بلادُ الأبواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلاد أَرْمِينِيَّة . وبينها في الشرق وبين
بلاد أَدْرِيَجَان الجنوبية بلادُ الرَّان مُتَّصِلَةٌ إلى بَحْر طَبْرِسْتَان . وفي شمال هذه الجبال
قِطْعَةٌ من هذا الجزء ، في غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِير ، وفي الزَّاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا ،
وهي زَاوِيَةُ الْجُزْءِ كُلِّهِ ، قِطْعَةٌ أَيْضاً من بَحْر نِيَطَش الَّذِي يُمَدُّ خَلِيجُ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ^(ج) ، وقد مرَّ ذِكْرُهُ . وتَحِيفُ بِهِذِهِ الْقِطْعَةُ من نِيَطَش بِلَادِ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا
مِنْهَا بَلَدٌ أَطْرَابَرْزَنْدَةٌ . وتتصل بلادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جِبَالِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ
الْجُزْءِ ، إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ شَرْقاً إِلَى جَبَلِ خَاَزَنْ ^(د) بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ . وعند آخرها
مَدِينَةُ صُول ^(هـ) . ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر ، تنتهي إلى الزَّاوِيَةِ
الْشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ بَحْرِ طَبْرِسْتَانِ وَآخِرِ الْجُزْءِ شَمَالاً .

(١) سقطت من ظ (ب) سقطت الواو من ظ (ج) تقدمت فروق النسخ في كتابها (د) كذا في ظ، وفي ع ل ي ج:
خازن، ولعلها الصواب، بمعنى التبع للجبل بالغلظ وفي حدود العالم 48 وبلدان الخلافة الشرقية 217: حارث (هـ) كذا في ع
بضمة على الصاد وكنا ضبطها ياقوت بالحرف (معجم البلدان 3: 435) وفي ل: صول، بالفتح والسكون .

والجزء السابع من هذا الإقليم، غربيّه كلّهُ مغمورٌ ببَحْر طَبْرِستان ، وَخَرَجَ
من جنوبه في الإقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هُنالك أَنَّ عليها بلاد طَبْرِستان وجبال
الدَّيْلَم إلى قَزوين. وفي غربيّ تلك القطعة مُتَّصِلَةٌ بِهَا ، القُطَيْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ
[53 ب] السَّادِس / من الإقليم الرابع . وَتَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شِمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِس
من شَرْقِهِ آيْناً . وَتُكْشَفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ الشَّمَالِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ⁵
فِيهَا نَهْرُ آيْلٍ^(أ) فِي هَذَا الْبَحْرِ . وَتَبْقَى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ
مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ ، هِيَ مَجَالَاتٌ لِلْغُرِّ مِنْ أُمِّ التُّرْك ، [وَيُقَالُ لَهُمُ الْخُورُ، كَأَنَّهُ عُرْبٌ
وَصَارَتْ خَاؤُهُ غَيْناً، وَشَدَّدَتْ الزَّاي، وَيُحِيطُ بِهَذِهِ الْقِطْعَةَ]^(ب) جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ
الْجَنُوبِ دَاخِلٌ مِنَ الْجُزْءِ الثَّامِنِ، وَيَذْهَبُ فِي الْغُرِّ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ، فَيَنْعَطِفُ
إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلَاقِيَ بَحْرَ طَبْرِستان ، فَيَخْتَفِّ بِهَذَا ذَاهِباً مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي الْإِقْلِيمِ¹⁰
السَّادِس ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ ، وَيُسَمَّى هُنَالِكَ جَبَلُ شِيَاةٍ^(ج) . وَيَذْهَبُ
مَغْرِباً إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِس ، ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوباً إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ
مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِس . وَهَذَا الطَّرْفُ مِنْهُ هُوَ الَّذِي اعْتَرَضَ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ
السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ. وَاتَّصَلَتْ أَرْضُ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حِقَاقِي هَذَا
الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلُ شِيَاةٍ كَمَا يَأْتِي .¹⁵

والجزء الثامن من هذا الإقليم الخامس، كلّهُ مَجَالَاتٌ لِلْغُرِّ مِنْ أُمِّ التُّرْك؛
وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بُحِيرَةُ خُوَارِزْمِ الَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ جَيْنَحُون ؛ دَوْرُهَا

(أ) ضبط بالحركات في ج، وفي ع ل بالناء المثناة المكسورة وفتح الهززة ومدها، وعند ياقوت بكسر الهززة والتاء (معجم البلدان
1: 87) (ب) حاشية من ع بخطه (ج) سماء ياقوت بيباه كوه (المعجم 3: 292) .

ثلاثمائة ميل ، وتصبّ فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات . وفي الجهة الشماليّة الشرقيّة منه بحيرة غَزْغُون ، دَوْرُهَا أَرْبَعُمِائَةِ مِيل ؛ وماؤها حلو . وفي الناحية الشماليّة من هذا الجزء جبل مرغار⁽¹⁾ ، ومعناه جبلُ الثَّلْج ، لأنّه لا يذوب فيه ، وهو متصلٌ بآخر الجزء . وفي الجنوب عن بحيرة غَزْغُون جبلٌ من الحجر الصّلد لا يُنبت شيئاً ، يُسمّى غَزْغُون ، وبه سُمّيت⁽¹⁾ البحيرة . وتحلّب منه ومن جبل مرغار شماليّ 5 البحيرة أنهار لا تنحصر عددها ، فتصبّ فيها من الجانبين .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلادٌ أدكش من أمم التّرك ، في غَرْب بلاد الغُرّ وشرق بلاد الكيمائيّة . ويحفّه من جهة الشرق آخر الجزء جبلٌ قوفايا المحيطُ بياجوج وماجوج ، يفترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حين يتعطف أول 10 دخوله / من الجزء العاشر ، وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم [154] الرابع قبله ، اختفّ هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال ، ثمّ انعطف مغرباً في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه ، وأحاط من أوله إلى هنا ببلاد الكيمائيّة ، ثم خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس ؛ فذهب فيه مغرباً إلى آخره ، وبقيت في جنوبيّه^(ب) قطعة من هذا الجزء مُستطيلة إلى الغرب ، 15 فيها آخر بلاد الكيمائيّة ، ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيّه وفي الأعلى منه ،

(أ) كنا في ظ ع ج ، وهو ما في نزهة المشتاق 2: 839 ، وفي ل بالباء في أوله: برغار (ب) ل : جنوبه .

(1) أصل نص الإدريسي (النزهة 2 : 841) : وعلى هذه البحيرة من جهة الجنوب ، جبل من الصخر الصلد لا يُنبت شيئاً من النبات ، وعليه حصن كبير يسمّى غرغون ، وبهذا الحصن عُرفت البحيرة ونُسبت إليه .

وانعطف قريباً إلى الشمال ، وذهب على سَنَمته إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس. وفيه السدُّ هُنالك كما نذكر، وبقيت منه القِطعةُ التي أحاط بها جبل قُوفَايا عند الزاوية الشرقيّة الشماليّة من هذا الجزء ، مستطيلاً إلى الجنوب ، وهي من بلاد ياجوج^(أ).

- 5 وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرضُ [ياجوج]^(ب) متّصلةٌ فيه كلّهُ، إلّا قطعة من البحر المحيط غَمَرَت طرفاً في^(ج) شرقيّه من جنوبه إلى شماله ، وإلّا القِطعة التي يفصلُها إلى جهة الجنوب والغرب جبل قُوفَايا حين مرّ فيه ، وما سِوى ذلك فكلُّه أرضُ ياجوج .

(أ) ل : وماجوج (ب) من : ع ل ج ي ، وسقطت من ظ (ج) ل : من .

• الإقليم السادس:

فالجُزءُ الأولُ منه ، غَمَر البحرُ الأكثرُ من نصفه ، واستدار مُشَرِّقاً مع
النّاحية الشماليّة ، ثم ذهب مع النّاحية الشرقيّة إلى الجنوب ، وانتهى قريباً من
النّاحية الجنوبيّة ، فانكشفت قطعةٌ من الأرض في هذا الجُزءِ داخلةٌ بين
5 طرفين من البحر المحيط كالجُون⁽¹⁾ فيه ، ويتفسّخ طويلاً وعرضاً ، وهي كلّها أرض
بُرطانيّة. وفي بابها بين الطّرفين ، وفي الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة^(ب) من الجُزءِ ، بلاد
صايس متّصلة ببلاد ييطو التي مرّ ذكرها في الجزء الأوّل والثّاني من الإقليم
الخامس .

والجُزءُ الثّاني من هذا الإقليم دخل البحرُ المحيطُ من غَربه وشماله ؛ فمن
10 غَربه في قطعةٍ مُستطيلةٍ أكثر من نصفه الشماليّ من شرق أرض بُرطانيّة في الجُزءِ
الأوّل ، واتّصلت بها القطعةُ الأخرى في الشمال من غَربه إلى شرقه ، وانفسحت في
التّصف الغربيّ منه بعضُ الشّيء. وفيه هناك / قطعةٌ من جزيرة [أنكلطرة]^(ج) ؛ وهي
جزيرةٌ عظيمةٌ مُتسعةٌ مُشمّلةٌ على مُدن ، وبها مُلكٌ ضخم ، وبقيّتها في الإقليم السّابع .
وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في التّصف الغربيّ من هذا الجُزءِ ، بلاد بُرمُنديّة ،
15 وبلاد أفلانْدش مُتّصِلين بها ، ثمّ بلادُ أفرنسيّة جنوباً وغرباً من هذا الجُزءِ ،
وبلاّد بُرغُونيّة شرقاً عنها ، وكلّها لأُمّ الإفرنجيّة ، وبلاد اللّمانيين في التّصف الشرقيّ من

(1) ل : كالجوف (ب) سقط من ل (ج) في ظ: أنكاطره وهو فصل سهو في النسخ ، فصل اللّام عن الطّاء فأصبحت ألف
مدّ. وفي ع ج ل ضُبِطت بالحركات ونقطة تحت الكاف واثنان على الطّاء للنطق ، وكُثِرَت الطّاء في ع وثُمّحت في ل .

الجزء، فجنوبه بلاد أنكلانية^(أ) ثم بلاد برغونية شمالاً، ثم أرض لهرنكه وشصونية. وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض افريزه^(ب) وكلها لأمم اللّمانيين .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية ، بلاد نوايه^(ج) في الجنوب، وبلاد شصونية في الشمال. وفي الناحية الشرقية بلاد انكره^(د) في الجنوب 5 وبلاد بلونيه^(هـ) في الشمال. يفترض بينهما جبل بلواط داخلاً من الجزء الرابع، ويمر مُعرباً بانحراف إلى الشمال، إلى أن يقف في بلاد شصونية آخر النصف الغربي .

وفي الجزء الرابع في ناحيته الجنوبية أرض جثوليه؛ وتحتها في الشمال بلاد الروسية ، ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غرباً إلى أن يقف في النصف الشرقي . وفي شرق أرض جثوليه بلاد جزمانيه . وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض 10 القسطنطينيه^(و)، ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي ، وعند مدفعه في بحر نيطش ؛ فتقع قُطَيْعَةٌ من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ، ويمدّها الخليج ، وبينهما في الزاوية بلدٌ مَسْنَاة .

وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس ، ثم في الناحية الجنوبية منه بحر نيطش، يتصل من الخليج آخر الجزء الرابع، ويخرج على سَمْتِه شرقاً فيمُرُّ في هذا 15 الجزء كله وفي بقض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل، من مَبْدئه في عرض

(أ) نقطة تحت الكاف (ب) كذا في الأصول، وأهملت الزاي في: ج ي، وعند الإدريسي: أرض افريزه (ج) كذا في الأصول، وفي ظ آخره تاء معقودة (د) كذا بنقطة تحت الكاف، وعند الإدريسي: انكره (هـ) في ع وحدها آخرها تاء معقودة (و) كذا بدون ياء مشددة تسبق آخرها .

ستمائة ميل ، ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء من غربها
إلى شرقها بئر مُستطيل، في غربه هرقلية على ساحل نيطش متصلة بأرض / البيلقان [i 55]
من الإقليم الخامس . وفي شرقه بلاد اللآنية⁽¹⁾ وقاعدتها سنوبلى⁽¹⁾ على بحر نيطش.
وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غرباً أرض برّجان^(ب)، وشرقاً بلاد الروسية ،
5 وكلها على ساحل هذا البحر . وبلاد الروسية محيطة ببلاد برّجان من شرقها في
هذا الجزء ، ومن شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ، ومن غربها في الجزء
الرابع من هذا الإقليم .

وفي الجزء السادس في غربه بقيّة بحر نيطش، ويتحرف قليلاً إلى الشمال،
ويتبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد قمانية ، وفي جنوبه ومُنفسحاً إلى
10 الشمال بما انحرف هو كذلك ، بقيّة بلاد اللآنية التي كانت آخر جنوبه في الجزء
الخامس. وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل بأرض الخزر. وفي شرقها أرض
بُرطاس، وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية
أرض بلنجر تحوزها هنالك قطعة من جبل شياه كويه^(ج) المنعطف مع بحر الخزر في
الجزء السابع بعده، ويذهب بعد مفارقه مغرباً فتحوز هذه القطعة، ويدخل
15 إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس، فيتصل هنالك بجمال الأبواب ، وعليه من
ناحيته بلاد الخزر .

(أ) انفردت ع برسمها بالناء المقودة (ب) نزهة المشتاق 2: 905، 911، وتشديد الراء من نسخة ل، وضبطها ياقوت بضم الباء
وسكون الراء (معجم البلدان 1: 373) (ج) كذا ورد في الأصول بالسين المبتدئة ، وانفردت ع بتسكين الباء : كونه، وفي
النزهة (الفهرس) وعند ياقوت بالسين المبتدئة: سياه كوه .

(1) نزهة المشتاق 2 : 907

وفي الجزء السابع ، من هذا الإقليم في الناحية الجنوبية ما حازه جبل شياه بعد مُفارقته بحر طبرستان ، وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غرباً . وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يحوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها . ووراء جبل شياه في الناحية الغربية الشمالية أرض بڑطاس . وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض بسجرت⁽¹⁾ وبجناك من أمم الترك .

5

وفي الجزء الثامن ، والناحية الجنوبية منه كلها أرض الخوخ من الترك ، وفي الناحية الشمالية غرباً الأرض المُنْتَنَة ، وشرقاً الأرض التي يُقال إنَّ ياجوج وماجوج خربوها قبل بناء السّد . وفي هذه الأرض المُنْتَنَة مَبْدَأُ نَهْرِ أَثْل^(ب) ، من أعظم أنهار العالم ، وممرّه في بلاد الترك ، ومصبّه في بحر طبرستان في الإقليم

10 [55 ب] الخامس وفي الجزء / السابع منه . وهو كثير الانعطاف ، يخرج من جبل في الأرض

الْمُنْتَنَة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ، ويمرّ على سمت الغرب إلى آخر السابع من [هذا الإقليم]^(ج) ، فيتعطف شمالاً إلى الجزء السابع من الإقليم السابع ، فيمرّ في طرفه بين الجنوب والغرب ، فيخرج في الجزء السادس من السابع ، ويذهب مُعَرَّباً غير بعيد ، ثم يتعطف ثانياً إلى الجنوب ، ويرجع إلى الجزء السادس من السادس ،

15 ويخرج منه جدولٌ يذهب مُعَرَّباً ويصبُّ في بحر نيطنش في ذلك الجزء ، ويمرّ هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بُلغار ، فيخرج في الجزء السابع من الإقليم السادس ، ثم يتعطف ثالثةً إلى الجنوب ، وينفذ في جبل شياه ، ويمرّ في بلاد

(1) النزعة 2: 834 وهم الباشغرد الذين ذكرهم ابن فضلان في الرحلة 107 وفي آثار البلاد: باشغرت (ب) في ع وعند ياقوت

بكسر التاء. وجاءت الألف ونحىء بمدودة (ج) في ظ: هذه الأقاليم .

الجزر ، ويخرج إلى الإقليم الخامس في الجزء السابع منه ، فيصبُّ هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم ، في الجانب الغربي [منه]^(أ) ، بلاد خفساخ^(ب) من الترك ، وهم قفجق ، وبلاد التركش^(ج) منهم أيضاً ، وفي الشرق منه 5 بلاد ماجوج ، يفصل بينهما جبل قوقايا المحيط ، وقد مرَّ ذكره ، يبدأ من البحر المحيط في شرق الإقليم الرابع ، ويذهب معه إلى آخر الإقليم في الشمال ، ويفارقه مغرباً وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الإقليم الخامس ، فيرجع إلى سمنته الأول في الشمال ، حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من جنوبه إلى شماله وبانحراف إلى الغرب ، وفي وسطه ههنا السدُّ الذي بناه الإسكندر ، ثم يخرج على 10 سمنته إلى الإقليم السابع وفي الجزء التاسع منه ، فيمرُّ فيه من الجنوب إلى أن يلتقي البحر المحيط في شماله ، ثم يتعطف معه من هنالك مغرباً في الإقليم السابع إلى الجزء الخامس منه ، فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيّه .

وفي وسط هذا الجزء التاسع السدُّ^(د) الذي بناه الإسكندر كما قلناه .
والصحيح من خبره في القرآن . وقد ذكر عبيد الله بن خرداذبة في كتابه في 15 الجغرافيا⁽¹⁾ : أنَّ الواثق رأى في منامه / كأنَّ السدَّ انفتح ، فانتبّه فزعاً ، وبعث [156]

(أ) سقط من ط (ب) في ط : خفساخ ، وانظر الزهراء 2 : 934 (ج) كذا في الأصول ، وفي ع مضافة بخط ابن خلدون ، وفي حاشية ل : أظنه الذكش (د) في ع ل ط : هو السد .

(1) المسالك والممالك 162 .

سَلَاماً التُّرْجَمَان ، فَوْقَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بَخْرُهُ وَوَضِفُهُ ، فِي حَكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا .

وَفِي الْجَنْزِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، بِلَادُ مَا جُوجَ ، مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ هُنَالِكَ مِنَ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ، أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشِمَالِهِ ، مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيشَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ .

• الإقليم السابع :

البحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس ، حيث يتصل بجبل قوفايا المحيط بياجوج وماجوج .

فالمُجزء الأول والثاني مغموران بالماء ، إلا ما انكشف من جزيرة أنكلطرة^(أ) التي مُعظمها في الثاني. وفي الأول منها طرف انعطف بانحراف إلى الشمال، وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الإقليم السادس، وهي مذكورة هناك. والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلاً. ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده، مستطيلة من الغرب إلى الشرق.

والمُجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أكثره بالبحر، إلا قطعة مُستطيلة في جنوبه، وتنتسع في شرقها، وفيها هناك متصل أرض فلونيه^(ب) التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس، وأنها^(ج) في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء. ثم في الجانب الغربي منها مُستديرة فسيحة، وتتصل بالبر من باب في جنوبها يُفضي إلى بلاد فلونيه^(ب). وفي شمالها جزيرة برقاعة^(د)، مُستطيلة مع الشمال من الغرب إلى الشرق .

(أ) بنقطة مضافة للظاء (ب) كذا في الأصول ، وفي الزهرة (2: 873) فلونيه ، وفي حاشية ل : فلورية، وفي منها علامة الإلغاء . والذي مر في الثالث من السادس: بلونيه (ج) ل : فإنها (د) كذا في: ع ل ج ي، وفي ظ: برقاعة، وعند الإدريسي (2: 949، 950، 951) : جزيرة برقاعة .

والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله مغمورٌ بالبحر المحيط من الغرب إلى الشرق ، وجنوبه منكشَفٌ ، وفي غِزبه أرض فيمارك⁽¹⁾ من التُّرك ، وفي شرقها بلادٌ طبست ، ثم أرضٌ رسلاندة إلى آخر الجزء شرقاً ، وهي دائمة الثلوج ، وعُمرانها قليل . وتتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه .

5

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه ، بلاد [56 ب] الروسية ، وتنتهي في / الشمال إلى قطعة البحر المحيط التي يتصل بها جبلُ قُوفَايا ، كما ذكرناه من قبل . وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القماييه التي على قطعة بحر نيطش في الجزء السادس من الإقليم السادس ، وتنتهي إلى بحيرة طُزْمى⁽¹⁾ من هذا الجزء ؛ وهي عذبةٌ ، وتتخلَّبُ^(ب) إليها أنهارٌ كثيرةٌ من الجبال عن الجنوب 10 والشمال . وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء ، أرض التبارية من التُّرك ، إلى آخره .

وفي الجزء السادس في الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القماييه ، وفي وسط الناحية بحيرة عَتُون ، عذبةٌ تتخلَّبُ إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية ، وهي جامدةٌ دائماً لشدة البرد ، إلا قليلاً في زمن المصيف . وفي شرق بلاد 15 القماييه بلاد الروسية التي كان مَبْدؤها في الإقليم السادس ، في الناحية الشرقية

(1) كذا في: ظ ج ، وهو ما في النزهة 2: 949، 951 ، وفي: ع ل ي: فيمارك (ب) ج : تجلب .

(1) الإدريسي : 2: 957 .

الشَّمالِية من الجُزء الخامس منه . وفي الزاوية الجنوبيَّة الشرقيَّة من هذا الجُزء بقيَّة أرض بُلغار التي كان مَبْدؤها في الإقليم السادس ، وفي الناحية الشرقيَّة الشماليَّة من الجُزء السادس منه . وفي وَسَط هذه القِطعة من أرض بُلغار ، مُنعطف نهر أَثْل^(أ)؛ العَظقة^(ب) الأولى إلى الجنوب كما مَرَّ. وفي آخر هذا الجُزء السادس من شماله جبل 5 قُوفَايا متَّصلٌ من غَربه إلى شَرْقه .

وفي الجُزء السَّابع من هذا الإقليم في غَربه ، بقيَّة أرض بَجْنَاك⁽¹⁾ من أُمِّ التُّرك . وكان مَبْدؤها في الناحية الشرقيَّة الشماليَّة من الجُزء السادس قَبْلَه^(ج) ، و^(د) في الناحية الجنوبيَّة الغربيَّة من هذا الجُزء . ويخرج إلى الإقليم السادس فَوْقه ، وفي الناحية الشرقيَّة ، بقيَّة أرض بَسْجَزَت ، ثم بقيَّة الأرض المُنتِنَّة إلى آخر الجُزء 10 شَرْقاً . وفي آخر الجُزء من جهة الشَّمال جبلُ قُوفَايا المحيط^(هـ)، متَّصلاً من غَربه إلى شَرْقه .

وفي الجُزء الثَّامن من هذا الإقليم في الجنوبيَّة الغربيَّة منه ، متَّصلُ الأرض المُنتِنَّة . وفي شرقها الأرض المحفورة ، وهي من العجائب ؛ خَزَقٌ عَظِيمٌ في الأرض ، فَسِيحُ الأَقطار ، بعيدُ المَهْوَى ، مُمتنعُ الوُصولِ إلى قَعْرِهِ، يُسْتَدَلُّ 15 على / عُمُرَانِهِ بالدَّخانِ في النَّهار ، والتَّيرانُ بالليلِ تُضيءُ وتُخْفَى . وَرَبَّما رُئيَ فيها نَهْرٌ [157] يَشُقُّها من الجنوب إلى الشَّمال . وفي الناحية الشرقيَّة من هذا الجُزء ، البلادُ

(أ) كذا ضبطت في ل، وفي ع: أثل (ب) ل: القِطعة (ج) ل: من قبله (د) سقط واو العطف من: ل (هـ) سقط من: ع ل.

(1) الإدريسي 2: 960 .

الخراب المتاخمة للسُد . وفي آخر الشمال منه جبل قُوفَايَا متّصلاً من الغرب إلى الشرق .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه ، بلاد خفشاخ ، وهم قفجق ، يحوزها جبل قُوفَايَا حين يتعطف من شماله عند البحر المحيط ، ويذهب في وسطه إلى الجنوب بانحراف إلى الشرق ، فيخرج في الجزء التاسع من الإقليم 5 السادس ، وَيَمُرُّ مُعْتَرِضاً فيه . وفي وسطه هنالك سُدّ ياجوج وماجوج وقد ذكّرناه . وفي الناحية الشرقيّة من هذا الجزء أرض ماجوج وراء جبل قُوفَايَا على البحر ، قليلة العرض مُستطيّة ، أحاطت به من شرقه وشماله .
والجزء العاشر غَمَرَهُ البحرُ جميعه .

هذا آخر الكلام على الجغرافيا وأقاليمها السبعة ، [وهو آخر المقدمة 10 الثانية]⁽¹⁾ . وفي خَلْق السَّمَوَات والأَرْض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين .

(1) من حاشية ل .

المقدمة الثالثة :

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف ، وتأثير الهواء في ألوان البشر ،
والكثير من أحوالهم

قد بيّنا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه إلى
[الجانب] ⁽¹⁾ الشمالي ، لإفراط الحر في الجنوب منه ، والبرد في الشمال . ولما كان
5 الجانبان من الجنوب والشمال متضادين في البرد والحر ، وجب أن تتدرج الكيفيّة من
كليهما إلى الوسط ، فيكون معتدلاً ؛ فالإقليم الرابع أغدل العُمران ، والذي حفافيه من
الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال ، والذي يليهما السادس والثاني بعيدان من
الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس
والأقوات والفواكه ، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة
10 مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أغدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأحوالاً .

[57ب] فتجدّهم / على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ،
يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة ، المنمّقة بالصناعة ؛ ويتناغون في استجادة الآلات
والمواعين ، يذهبون في ذلك إلى الغاية . وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب

(1) ظ: جانبه .

والفضة والحديد والنحاس والرصاص والفضدير ، ويتصرفون في معاملاتهم بالتقدين
العزيزين ، ويتعدون عن الانحراف في عامة أخوالهم . وهؤلاء أهل المغرب والشام
والعراقين والصين والسند ، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالة ،
ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة . ولهذا كان العراق والشام
أعدل هذه كلها ، لأنها وسط من جميع الجهات .

5

وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال ، مثل الأول والثاني والسادس والسابع ،
فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع^(أ) أخوالهم ؛ فبناؤهم بالطين والقصب ، وأقواتهم
من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر يخصصونها عليهم^(ب) ، أو الجلود ،
وأكثرهم عرايا من اللباس ؛ وفواكه بلادهم وأدومها غريبة التكوين ، مائلة إلى الانحراف .
ومعاملاتهم بغير التقدين الشريفين ، من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات .
وأخلاقهم مع ذلك قريب من خلق الحيوانات العجم ؛ حتى يُثقل عن الكثير^(ج)
من السودان ، أهل الإقليم الأول ، أنهم يسكنون في^(د) الكهوف والغياض ،
ويأكلون العشب ، وأنهم متوحشون غير مستأنسين ، وأنهم يأكل بعضهم بعضاً ،
وكذا^(هـ) الصقالبه . والسبب في ذلك أنهم لبغدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم
وأخوالهم^(و) من عرض الحيوانات العجم ؛ ويتعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك .

15

وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً ؛ فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة ، / إلا من
قرب منهم من جوانب^(ز) الاعتدال ، وهو في الأقل التادر ، مثل الحبشة المجاورين

(أ) ل: سائر (ب) ل: و (ج) ل: كثير (د) سقط من ل (هـ) ل: وكذلك (و) كذا في ظ. وفي بقية النسخ: وأخلاقهم
(ز) سقط من ل .

لِلْيَمَنِ ، الدَّائِنِينَ بِالتَّضَرَّاتِ فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ ؛ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي ، وَكَوْكَو^(١) ، وَالتَّكْرُورِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ ، الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ ، وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالتَّضَرَّاتِ مِنْ أُمَّمِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالتُّرْكَ فِي الشَّامِ . وَمَنْ سِوَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا ؛ فَالَّذِينَ مَجْهُولٌ عَنْهُمْ ، وَالْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ ، وَجَمِيعُ أَخْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَخْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ ، 5 قَرِيبَةٌ مِنْ أَخْوَالِ الْبَهَائِمِ ، ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ النُّحْلِ ، مِنْ آيَةِ 8] .

وَلَا يُغْتَرَضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بَوُجُودِ الْيَمَنِ وَخَضْرَمُوتِ وَالْأَخْقَافِ وَبِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ؛ فَإِنَّ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْبَحَارُ مِنَ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ ؛ فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا ؛ فَتَقْصُ ذَلِكَ مِنَ الْيُبْسِ وَالْانْحِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ ، وَصَارَ 10 فِيهَا بَعْضُ الْإِعْتِدَالِ بِرُطُوبَةِ الْبَحْرِ .

وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُ النَّسَابِينَ ، تَمَنِّيَ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ ، أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وَلَدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ ، اخْتَصَّصُوا بِلَوْنِ السَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ^(ب) مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ ، وَفِيمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرُّقِّ فِي عَقِبِهِ ؛ وَدَعَاءُ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ السَّوَادِ ، وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَبِيدًا لَوْلَدِ إِخْوَتِهِ^(ج) 15 لَا غَيْرَ . وَفِي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ السَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ . وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ

(١) ضُبِطَتْ فِي لِ بِنُقْطَةٍ تَحْتَ الْكَافِ وَسُكُونِ عَلَى الْوَائِ (ب) ع: كَانَتْ عَلَيْهِ (ج) كَذَا فِي ظ ، وَحَاشِيَةُ ع بِحِطِّ ابْنِ خَلْدُونِ . وَفِي لِ : أَخُوْنِهِ .

/ والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ؛ فإن الشمس تسامت [58 ب] رؤوسهم مرتين في كل سنة، قريبة إحداهما من الأخرى، فتطول المسامته عامة الفصول، ويكثر الضوء لأجلها ، ويلج القَيْظ الشديد عليهم، فتسود جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين فيما يقابلهما من الشمال، الإقليم السابع والسادس ، شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ؛ إذ الشمس لا تزال 5 بأفقهم في دائرة مزأى العين أو ما قرب منها ، * ولا ترتفع إلى المسامته ولا ما قرب منها^(١) ، فيضعف الحر فيها، ويشتد البرد عامة الفصول، فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعزعة، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط، من زُرقة العيون، وبرش الجلود، وضهونة الشعور. وتوسط بينهما الأقاليم الثلاثة^(ب)، الثالث والرابع والخامس؛ فكان لهما في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط خطٌ وإفر ، والرابع أبلغها^(ج) في 10 الاعتدال، غاية للنهية في التوسط كما قدمناه. فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم، وتبعه عن جانبيه الخامس والثالث وإن لم يبلغا غاية التوسط، لميل هذا قليلاً إلى الجنوب الحار، وهذا قليلاً إلى الشمال البارد؛ إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف . وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في 15 خلقهم وخلقهم ؛ فالأول والثاني للحرّ والسود ؛ والسادس والسابع للبرد والبياض . وسُمي سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني، باسم الحبشة [والزنج]^(د) والسودان، أسماء مترادفة على الأمة / المتغيرة بالسود، وإن كان اسم الحبشة مختصاً منهم بمن تجاه [59 أ]

(١) سقط ما بين النجمين من ل (ب) كذا في ظ، وفي بقية النسخ ربيت الأرقام : الخامس والرابع والثالث (ج) ظ: أبلغها

(د) ظ: الجنس .

مَكَّةَ وَالْيَمَنَ ، وَالزَّنَجَ مِنْ تَجَاهِ بَحْرِ الْهِنْدِ . وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ جِهَةِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى آدَمِيٍّ [أَسْوَد]^(أ) ، لَا حَامٍ وَلَا غَيْرِهِ . وَقَدْ نَجَدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلَ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ الرَّابِعَ الْمُعْتَدِلَ أَوْ^(ب) السَّابِعَ الْمُتَحَرِّفَ إِلَى الْبَيَاضِ ، فَتَبَيَّنَ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ عَلَى التَّدرِجِ مَعَ الْأَيَّامِ ، وَبِالْعَكْسِ فِيمَنْ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَوْ الرَّابِعِ بِالْجَنُوبِ ، فَتَسْوَدُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ ؛ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ * عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ *^(ج) تَابِعٌ لِمَزَاجِ الْهَوَاءِ .

5

قال ابنُ سينا⁽¹⁾ في أَرْجُوزَتِهِ فِي الطَّبِّ :

بِالزَّنَجِ حَرٌّ غَيْرُ الْأَجْسَادَا حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادَا
وَالصَّقْلَبُ اكْتَسَبَ الْبَيَاضَا حَتَّى غَدَتْ جُلُودُهَا بِيَضَا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّامِ ، فَلَمْ يُسَمُّوا بِاعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ ، لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللَّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ ، فَلَمْ تَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ 10 وَاعْتِيَادِهِ ؛ وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِيَةِ وَالطُّغْرُغَرِ^(د) وَالخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْفِرَنْجَةِ وَيَا جُوجَ وَمَا جُوجَ ، أَمَّا مُتَفَرِّقَةٌ وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةٌ مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِمِ الْمُتَوَسِّطَةِ ، أَهْلُ الْإِعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ وَسِيرِهِمْ ، وَكَافَّةُ الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِعْتِمَارِ ، لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ 15 وَالرَّئِاسَاتِ وَالْمُلْكِ ، فَكَانَتْ فِيهِمُ النَّبَوَاتُ وَالْمُلُوكُ وَالْأَدُولُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ وَالْمَبَانِي وَالْغِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُغْتَدِلَةِ . وَأَهْلُ هَذِهِ

(أ) سقط من ظ (ب) ل: و (ج) سقط ما بين النجمين من ج (د) كنا ضبطت بالحركات في ل .

(1) من مؤلفات ابن سينا الطبية - القسم الثاني ، الأرجوزة في الطب ، ص 95 (دمشق 1948م) .

الأقاليم الذين وقفنا على أخبارهم، / مثل العرب والروم وفارس وبتي إسرائيل [59 ب] واليونانيين وأهل السند والصين .

ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعائرها، حسبوا ذلك لأجل الأنساب؛ فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام، وارتابوا في ألوانهم ، فتكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية ؛ وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث، وأكثر الأمم المعتدلة وهم أهل الوسط، المنشغلون للعلوم والصنائع والملا والشرائع والسياسة والملك، من ولد سام .

وهذا الزعم وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء، فليس ذلك بقياس مُطَرِد ، إنما هو إخبار عن الواقع ، لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان 10 من أجل انتسابهم إلى حام الأنسود. وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط، وليس كذلك؛ فإن التمييز للجيل أو للأمة، يكون بالنسب في بعضهم، كما للعرب وبتي إسرائيل والفُرس، ويكون بالجهة والسمة، كما للزنج والحبشان والصقالية والسودان، ويكون بالعوائد والشعائر مع النسب كما للعرب، ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم. فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف ، لما شملهم من لون أو نخلة أو سمة وحدث لذلك الأب؛ إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأنكوان والجهات، وأن هذه كلها تتبدل⁽¹⁾ في الأعقاب ولا يجب استمرارها. سنة الله في عباده، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الفتح، من الآية 23] .

(1) ل: تبدل .

المقدمة الرابعة :

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ، الْحَقَّةَ وَالطَّيِّشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ؛
فَتَجِدُهُمْ مَوْلَعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوَقُّعٍ ، مَوْصُوفِينَ بِالْحُمُقِ فِي كُلِّ قَطَرٍ . وَالسَّبَبُ
الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ ، أَنَّ طَبِيعَةَ / الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ هِيَ 5
إِنْتِشَارُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَتَفَشِّيهِ ، وَطَبِيعَةُ الْحُزَنِ بِالْعَكْسِ ، وَهِيَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَثُّفُهُ.
وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفَشِّئَةً لِلْهَوَاءِ وَالْبَخَارِ، مُخَلِّطَةً لَهُ، زَائِدَةٌ فِي كَمِّيَّتِهِ. وَلِهَذَا يَجِدُ
الْمُنْتَشِي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ؛ وَذَلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُحَارَ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ
مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعُثُهَا سَوْرَةُ الْحَفْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مِزَاجِهِ ، فَيَتَفَشَّى الرُّوحُ
وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ . وَكَذَلِكَ نَجِدُ الْمُسْتَعْمِلِينَ بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا ، 10
وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ بِأَزْوَاجِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَلِكَ، حَدَّثَ لَهُمْ فَرَحٌ، وَرَبَّمَا انْبَعَثَ
الكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ النَّاشِيءِ عَنِ السُّرُورِ.

وَلَمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ، وَاسْتَوَلَى الْحَرُّ عَلَى أُمُورِهِمْ،
وَفِي أَضَلِّ تَكْوِينِهِمْ^(١)، كَانَ فِي أَزْوَاجِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أُنْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ ،
فَتَكُونُ أَزْوَاجُهُمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَزْوَاجِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا ، فَتَكُونُ أَكْثَرُ 15

(١) ج : تَكُونُهُمْ .

نَفْسِيًّا، فتكون أَسْرَعَ فرحاً وسُروراً وأكثر انبساطاً⁽¹⁾، ويحيء الطّيش على إثر هذه. وكذلك يُلحق بهم قليلاً أهلُ البلاد البحريّة، لما كان هوائُها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسّيط البحر وأشعّته، كانت حصّتهم من تَوابع الحرارة في الفرح والخِفّة موجودة أكثر من بلاد الثّلول والجبال الباردة. وقد نجد 5 يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجريدية من الإقليم الثالث، لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها، لأنها عريضة في الجنوب عن الأزياف والثّلول.

واعتبر ذلك أيضاً بأهل مِصر، فإنّها في مثل عرض البلاد الجريدية وقريباً منها، كيف غلبَ الفرح عليهم والخِفّة والعِفلة عن العواقب؛ حتّى إنهم لا يذخرون أقوات سنّتهم ولا شهرهم، وعامة ماكلهم من أسواقهم.

ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التّوغل في الثّلول 10 الباردة، كيف ترى أهلها مُطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب؛ حتّى إنّ الرّجل منهم ليذخر^(ب) أقوات سنّين من حبوب الحنطة، / ويُبَاكر [60 ب] الأسواق ليشراء قوته ليومه، مخافة أن يَرزأ شيئاً من مُدّخره. وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان، تجذ في الأخلاق أثراً من كميّات الهواء؛ والله الخلاق العليم.

وقد تعرّض المسعودي⁽¹⁾ للبحث عن السّبب في خِفّة السودان وطيشهم، 15 وكثرة الطّرب فيهم، وحاول تعليله فلم يأت فيه بشيء أكثر من أنّه نقل عن

(1) ل: نشاطاً (ب) ل: ليندخِر.

(1) مروج الذهب 1: 91 (170 - 171).

جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي ، أنَّ ذلك لضعف أذنيهم ، وما نشأ عنه
من ضعف عقولهم . وهذا كلام لا مُحصل له ولا بُرهان فيه . ﴿والله يَهْدِي مَنْ
يَشَاء﴾ [سورة البقرة ، من الآية 213] .

المقدمة الخامسة :

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع ، وما ينشأ
عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد له الخصب، ولا كل
سكانها في رغد من العيش ؛ بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش ، من الحبوب 5
والأذم والحنطة والفواكه ، لزكاء المنابت ، واعتدال الطينة ، وفور العفران ؛ وفيها
الأرض الحرة التي لا تثبت زرعاً ولا عشباً بالجفلة، فسكانها في شظف من العيش،
مثل أهل الحجاز واليمن ، ومثل المثلثين من صنهاجة ، الساكنين بصخراء المغرب
وأطراف الرمال ، فيما بين البربر والسودان ، فإن هؤلاء يفتقدون الحبوب والأذم
جملةً ، وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم؛ ومثل العرب الجائلين في القفار، فإنهم 10
وإن كانوا يأخذون الحبوب والأذم من التلول، إلا أن ذلك في الأحايين وتحت رقبة
من حاميتها، وعلى الإقلال، لقلة وجدهم ، فلا يتوصلون منه إلا إلى سد الخلّة
ودونها، فضلاً عن الرغد والخصب، وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على
الألبان، وتغوضهم من الحنطة أحسن معاض .

ونجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأذم من أهل القفار أحسن حالاً 15
في جُسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش ، فالوائهم أضفى،

وأبدانهم أُنْقَى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، وأخلاقهم / أبعد من الانحراف ، وأذهانهم [١٦١]
 أُنْقَبُ في المعارف والإدراكات ؛ هذا أمرٌ تشهد له التجربة في كلِّ جيلٍ منهم . فكثيرٌ
 ما بين العرب والبربر فيما وصفناه ، وبين الملتئمين وأهل الثلول ؛ يعرف ذلك من
 خبره . والسبب في ذلك - والله أعلم - أن كثرة الأغذية ورطوباتها تولد في الجسم
 5 رطوبات^(١) رديئة ، ينشأ عنها بُعد أقطاره في غير نسبة ، وكثرة الأخلاط الفاسدة
 الغفنة ، ويتبع ذلك انكساف الألوان ، وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه ،
 وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة ،
 فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة .

واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب ، من الغزال والمها والنعام
 10 والزرافة والحمر الوحشية والبقرة ، مع أمثالها من حيوان الثلول والأزياف والمراعي
 الخضبة ، كيف تجد بينها بؤنا بعيدا في صفاء أديمها ، وحسن رونقها وأشكالها ،
 وتناسب أعضائها ؛ وحدة مداركها ؛ فالغزال أخو المغز ، والزرافة أخو البعير ،
 والحمار والبقرة هو الحمار والبقرة ؛ والبؤن بينها ما رأيت . وما ذاك إلا لأجل أن
 الخضب في الثلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما
 15 ظهر عليها أثره ؛ والجوع لحيوان القفر^(ب) حسن في خلقها وأشكالها ما شاء .

واعتبر ذلك في الآدميين أيضاً ، فإننا نجد أهل الأقاليم المخصبة الغيش ،
 الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه ، يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم ،
 والخشونة في أجسامهم ، وهذا شأن البربر المنغصسين في الأدم والخنطة ، مع

(١) من ظ ، وفي بقية الأصول : فضلات (ب) ظ وحدها : في حيوان القفر .

المتقشّفين في عَيْشِهِمُ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ ، مثل المصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلُ
السَّوْسِ وَغَمَارَةٍ؛ فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ حَالاً فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ . وكذا أَهْلُ بِلَادِ
[61 ب] الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ ، / الْمُتَغَمِّسِينَ فِي الْأَذْمِ وَالْبُرِّ، مع الأَنْدَلُسِ الْمُفْقُودِ بِأَرْضِهِمُ
السَّمْنِ جُمْلَةً ، وَغَالِبُ عَيْشِهِمُ الذَّرَّةَ ؛ فَتَجِدُ لِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَاةِ الْعُقُولِ ،
وَحِقَّةِ الْأَجْسَامِ ، وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لَا يَوْجَدُ لغيرِهِمْ . وكذا أَهْلُ الصَّوَاخِي مِنَ الْمَغْرِبِ 5
بِالْجُمْلَةِ مع أَهْلِ الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ
الْأَذْمِ وَمُخْصَبِينَ فِي الْعَيْشِ، إِلَّا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ الْعِلَاجِ بِالطَّبَخِ ، وَالتَّلْطِيفِ
بِمَا يَخْلُطُونَ مَعَهَا، فَيَذْهَبُ لَذَّةُ غِلْظِهَا وَيَرِقُّ قِوَامُهَا ؛ وَعَامَّةُ مَا كُلُّهُمْ لُحْمَانُ الضَّانِ
وَالدَّجَاجِ، وَلَا يَغْبِطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْأَذْمِ لَتَفَاهِيَتِهِ؛ فَتَقِلُّ الرُّطُوبَاتُ لَذَلِكَ فِي
أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخَفُّ مَا تُؤَدِّيهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْفَضَلَاتِ الرَّدِيَّةِ . فَلِذَلِكَ تَجِدُ جُسُومَ 10
أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَلْفَافاً مِنْ جُسُومِ [أَهْلٍ] ^(أ) الْبَادِيَةِ الْمُخْشِنِينَ فِي الْعَيْشِ . وَكَذَلِكَ تَجِدُ
الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْجُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَإِنَّهُمْ لَا فَضْلَاتَ فِي جُسُومِهِمْ غَلِيظَةً وَلَا لَطِيفَةً .
وَاعْلَمْ أَنَّ أَثَرَ هَذَا الْحِصْبِ فِي الْبَدَنِ لَيُظْهَرُ حَتَّى فِي [حَالِ] ^(ب) الدِّينِ
وَالْعِبَادَةِ ، فَتَجِدُ الْمُتَقَشِّفِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْحَاضِرَةِ ، مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ
وَالْتَّجَافِ عَنِ الْمَلَاذِ، أَحْسَنَ دِيناً وَإِقْبَالاً عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ وَالْحِصْبِ، بَلْ 15
بَلْ نَجِدُ أَهْلَ الدِّينِ قَلِيلِينَ فِي الْمَدُنِ وَالْأَمْصَارِ، لَمَّا يَغْتَمُّهَا مِنَ الْقَسَاوَةِ وَالْعَقْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ
بِالْإِكْثَارِ مِنَ اللَّحْمَانِ وَالْأَذْمِ وَلُبَابِ الْبُرِّ، وَيَخْتَصُّ وَجُودَ الْعِبَادِ وَالزُّهَادِ لَذَلِكَ
بِالْمُتَقَشِّفِينَ فِي غِدَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي. وَكَذَلِكَ نَجِدُ حَالَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ فِي

(أ) مِنْ لَوْحَدَهَا (ب) سَقَطَ مِنْ ظ .

ذلك يختلف⁽¹⁾ باختلاف حالها في الثَّرَف والجُضْب. وكذلك نجد هؤلاء المُخْصِبِينَ العيش المُتَغَمِّسِينَ في طَيِّبَاتِهِ، لا من أَهْلِ البَادِيَةِ ولا من أَهْلِ الحَاضِرَةِ والأُمْصَارِ، إِذَا نَزَلَتْ بِهِم السَّنُون وأَخَذَتْهُم المَجَاعَاتُ، يُسْرِعُ إِلَيْهِم الهَلَاكُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ مِثْلَ بَرَابِرَةِ المَغْرِبِ، وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسٍ وَمِضَرَ فِيمَا يَبْلَغُنَا، لَا مِثْلَ العَرَبِ أَهْلِ القَفْرِ

- 5 والصَّخْرَاءِ، وَلَا مِثْلَ أَهْلِ بِلَادِ النَّحْلِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ التَّفَرُّ، / وَلَا مِثْلَ أَهْلِ [62] إِفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا العَهْدِ، الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الشَّعِيرَ والزَّيْتَ، وَأَهْلُ الأَنْدَلُسِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمُ الدَّرَّةَ والزَّيْتَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمُ السَّنُونُ والمَجَاعَاتُ، فَلَا تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أَوْلَئِكَ، وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الهَلَاكُ بِالجُوعِ بَلْ وَلَا يَنْدُرُ. والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ المُتَغَمِّسِينَ فِي الجُضْبِ، المُتَعَوِّدِينَ للأُذْمِ والسَّفْنِ خُصُوصاً، 10 تَكْتَسِبُ مِيعَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ رَطُوبَةً فَوْقَ رَطُوبَتِهَا الأَصْلِيَّةِ المِزَاجِيَّةِ حَتَّى تُجَاوِزَ حَدَّهَا؛ فَإِذَا خُولِفَ بِهَا العَادَةُ بِقَلَّةِ الأَقْوَاتِ، وَفَقْدَانِ الأُذْمِ، وَاسْتِعْمَالِ الحَشَنِ غَيْرِ المَأْلُوفِ مِنْ الغِذَاءِ، أُسْرِعَ إِلَى المِيعَى اليُنْسِ والائْتِكَمَاشِ، وَهُوَ عُضْوٌ ضَعِيفٌ فِي الغَايَةِ، وَلِهَذَا عُدَّ فِي المَقَاتِلِ، فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ المَرَضُ، وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ بِسُرْعَةٍ. فَهَالِكُونَ فِي المَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّبَعُ المَعْتَادُ السَّابِقُ، لَا الجُوعُ اللَّاحِقُ. وَأَمَّا المُتَعَوِّدُونَ لِلغَيْمَةِ وَتَرْكُ 15 الأُذْمِ والسَّفْنِ، فَلَا تَزَالُ رَطُوبَتُهُمُ الأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ، وَهِيَ صَالِحَةٌ عَلَى جَمِيعِ الأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَلَا يَقَعُ فِي مِيعَاهُمْ بَتَبَدُّلِ الأَغْذِيَةِ يُنْسَ وَلَا انْخِرَافٌ، فَيَنْسَلِمُونَ فِي الغَالِبِ مِنَ الهَلَاكِ الَّذِي يَغْرِضُ لغيرِهِمُ بِالْجُضْبِ وَكَثْرَةِ الأُذْمِ فِي المَأْكَلِ.

(1) ل: تختلف .

وأصل هذا كله ، أن تعلم أن الأغذية وإيلافها أو تركها ، إنما هو بالعادة ، فمن عوّد نفسه غذاء ولاءمه تناولهُ كان له مألوفاً ، وصار الخروج عنه والتبديل به داءً ، ما لم يخرج عن عرض الغذاء بالجُملة ، كالسُموم واليُسُوع⁽¹⁾ وما أفرط في الانحراف. فأما ما وُجد فيه التغذي والملاءمة فيصيرُ غذاءً مألوفاً بالعادة . فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقول عوضاً من الحنطة حتى صار له ديدناً ، 5 فقد حصل له ذلك غذاءً ، واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك ؛ وكذا من عوّد نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام ، كما يُنقل عن أهل الرياضات ؛ فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبةً / يكاد يُنكرها من لا يعرفها . [62 ب] والسبب في ذلك العادة ؛ فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من [جبلتها]^(ب) وطبيعتها لأنها كثيرة التلّون ، فإذا حصل لها^(ج) اعتياد الجوع بالتدرّج والرياضة ، فقد حصل 10 ذلك عادةً وطبيعةً لها. وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مُهلكٌ فلنيس على ما يتوهمونه ، إلا إذا حُمِلت النفس عليه دفعةً وقُطع عنها الغذاء بالكلية ، فإنه حينئذٍ يتَحَسَّم الميعى ويناله المرض الذي يُخشى معه الهلاك . وأما إذا كان ذلك تدرّجاً ورياضةً بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً ، كما يفعله المتصوّفة ، فهو بمنزلة عن الهلاك . وهذا التدرّج ضروريٌّ حتى في الرجوع عن هذه الرياضة؛ فإنه إذا رجع إلى الغذاء 15 الأول دفعةً خيف عليه الهلاك . وإنما يَرْجِعُ به كما بدأ في الرياضة بالتدرّج . ولقد شاهدنا من يضرب على الجوع أربعين يوماً وصلاً وأكثر . وحضر أسيّاخنا في دولة السلطان أبي الحسن، وقد رُفِعَ إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورُئِدة ،

(1) في ل أنها بضم الياء المثناة من تحت (ب) ع ل ي. وفي ط ج ومتن ع قبل الإصلاح : خَلَفَهَا (ج) ل : له .

حَبَسَتْهُمَا أَنْفُسُهُمَا عَنِ الْأَكْلِ جَمَلَةً مِنْذُ سِنِينَ ، وَشَاعَ أَمْرُهُمَا وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا فَصَحَّ شَأْنُهُمَا ، وَاتَّصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَتَا . وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِنَا أَيْضًا مَنْ يَفْتَتِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الْمَغْزَى يَلْتَقِمُ ثَدْيَهَا فِي بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ الْإِفْطَارِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ غِذَاءَهُ ؛ وَاسْتِدَامَ ذَلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ ، وَلَا تَسْتَنْكِرُونَ^(١) ذَلِكَ . 5

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجُوعَ أَضْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الْأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهِ لِمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ ، أَوْ عَلَى الْإِفْقَالِ مِنْهَا ، وَأَنَّ لَهُ أَثَرًا فِي الْأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِي صِفَائِهَا وَصَلَاحِهَا كَمَا قُلْنَا.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِآثَارِ الْأَغْذِيَةِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْهَا فِي الْجُسُومِ ؛ فَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَغَذِّينَ بِلُحُومِ الْحَيَوَانَاتِ الْفَاحِشَةِ الْعَظِيمَةِ الْجَثْمَانِ ، تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ . وَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ . وَكَذَا الْمُتَغَذُّونَ بِالْأَلْبَانِ الْإِبِلِ / وَلُحُومِهَا أَيْضًا ، مَعَ مَا يُؤَثِّرُ فِي أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالِاخْتِمَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الْأَثْقَالِ كَمَا هُوَ لِلْإِبِلِ ، وَتَنْشَأُ مَعَهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةٍ مَعَ الْإِبِلِ فِي الصَّحَّةِ وَالْغَلْظِ ، فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهَنُ وَلَا الضَّعْفُ ، وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَضَارِّ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ ، فَيَشْرَبُونَ الْيَتُّوعَاتِ لَا سِتِّطْلَاقَ بَطُونِهِمْ غَيْرَ مُحْجُوبَةٍ ، كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ نُضْجِهِ ، وَالذَّرِّيَّاسِ وَالْفَرَزِيَّوْنَ ، وَلَا يَنَالُ مَعَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ . وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ الرَّقِيقَةُ مَعَهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ الْعَيْنِ ، لَمَا فِيهَا مِنَ السُّمِّيَّةِ . 10 15

(١) ط ع ي ج ، وفي ل : يستنكرون .

ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهدَه أهل التجربة،
أن الدجاج إذا غُذِيَتْ بالحبوب المطبوخة في بَعر الإبل ، واتُّخِذَ يَبْصُها ثم حُصِّنَتْ
عليه ، جاء الدجاجُ منها أعظمَ ما يكون . وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب
بطرح ذلك البَعر مع البيض المُحَصَّن ، فيجِيءُ دجاجُها في غاية العظم ، وأمثال ذلك
كثير . فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان ، فلا شكَّ أن للجوع أيضاً آثاراً 5
في الأبدان ؛ لأنَّ الضَّدين على نسبةٍ واحدةٍ في التأثير وعَدَمِهِ ، فيكونُ تأثيرُ الجوع
في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المُخلَّة بالجِسم والعقل ،
كما كان الغذاء مؤثراً في وجود ذلك للجِسم . والله محيطٌ بعِلْمِهِ .

المقدمة السادسة :

في أصناف المذمركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياسة ،
ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

- اعلم أن الله سبحانه اضطفى من البشر أشخاصاً فضّلهم بخطابه، وفطرهم
على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عبادته ، يُعرفونهم بمصالحهم ، ويخرصون على 5
هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدّلونهم على طريق النجاة . وكان فيما
[يُلقيه] ⁽¹⁾ إليهم من المعارف ، / ويظهره على ألسنتهم من الخوارق، الإخبار بوقوع [63 ب]
الكائنات المغيبة عن البشر ، التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا
يَعْلَمونها إلا بتعليم الله إياهم . قال ﷺ ⁽¹⁾ : "ألا وإني لا أعلم إلا ما علّمني الله".
واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصّيته وضرورته الصدق؛ لما يتّين لك عند 10
بيان حقيقة النبوة .

(1) من عل ج ي ، وفي ظ: يلقى .

(1) ابن جبان : الثقات 2: 94 ، ابن القيم : زاد المعاد 3 : 533 .

وعلامه هذا الصنف من البشر، أن يوجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين مع غطيط، كأنها غشي أو إغماء في رأي العين، وليست منها في شيء؛ وإنما هي بالحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بإدراكهم المناسب لهم، الخارج عن مدارك البشر بالكلفة. ثم ينزل إلى المدارك البشرية، إما بسماع ذوي الكلام فيفهمه؛ أو يتمثل⁽¹⁾ له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله. ثم تتجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى عليه. قال رسول الله ﷺ، وقد سئل عن الوحي⁽¹⁾: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال؛ وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول". ويذكره أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه. ففي الحديث⁽²⁾: كان مما يعالج من التنزيل شدة. وقالت عائشة⁽³⁾: كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً. وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل، الآية 5]. ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي، كان المشركون يزعمون الأنبياء بالجنون، ويقولون: له ربي أو تابع من الجن. وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الحال ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر، من الآية 36].

(1) ل: تمثل.

(1) أخرجه البخاري 1: 2 (2) من حديث عائشة، وهو في الموطأ (رقم 542 رواية الليثي)

(2) هذا قول ابن عباس، وهو في البخاري، في التوحيد 1: 4 (5) وفي التفسير 6: 202 (4927) و(4928) و(4929) وفي فضائل القرآن 6: 240 (5044) وفي التوحيد 9: 187 (7524). وهو في الصلاة من صحيح مسلم (448).

(3) قطعة من حديث أخرجه البخاري 1: 2 (2) من حديث عائشة.

ومن علاماتهم أيضاً، أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والركاء، ومُجَانَبَةُ
 المذمومات والرجس أجمع؛ وهذا هو معنى العِصْمَةِ. وكأنه مَفْطُور على التَّنَزُّهِ عن
 المذمومات والمنافرة لها و / كأنها منافية لجبلته. وفي الصحيح⁽¹⁾ : أنه حمل الحِجَارَةَ [64]
 وهو غلامٌ مع عمِّه العباس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره ، فانكشف فسقط مغشياً
 عليه ، حتّى استتر بإزاره. ودُعِيَ إلى مُجْتَمَعٍ لوليمة، وفيها عُرْشٌ ولعب، فأصابه 5
 غَشْيُ التَّوَمِ إلى أن طلعت الشمس، ولم يحضر شيئاً من شأنهم؛ بل نَزَّهه الله عن
 ذلك بجبلته، حتّى إنّه ليتنزه عن المَطْعومات المُستَكْرَهة. فقد كان ﷺ لا يشرب
 البصل ولا الثوم، ف قيل له في ذلك، فقال⁽²⁾ : "إني أناجي من لا تُناجون". وانظر لما
 أخبر⁽³⁾ النبي ﷺ خديجة بحال الوحي أول ما فجأه وأرادت اختياره، فقالت:
 اجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ؛ فلما فعل ذلك ذهب عنه؛ فقالت: إنّه مَلَكٌ وليس 10
 بشيطان؛ ومَغْنَاهُ أنّه لا يقرب النساء. وكذا سأله عن أحبّ الثياب إليه أن يأتيه
 فيها، فقال⁽⁴⁾ : "البياض والخضرة"، فقالت: إنّه المَلَكُ؛ بمعنى أنّ الخضرة والبياض من
 ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشرّ والشیاطين، وأمثال ذلك .

(1) هذان حديثان، الأول منهما، وهي قصة الإزار، في الصحيحين؛ البخاري 2: 179 (1582) ومسلم (340)، والثاني
 أنّه دُعِيَ إلى مجتمَعٍ لوليمة، جاء في سيرة ابن إسحاق 2: 56 (حميد الله) وعنه الروض الأنف 1: 295، وكتاب
 الاكتفاء للكلاعي 1: 151 .

(2) أخرجه مسلم (564) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري، وهو في مسند أحمد 3: 387 ومسند الحميدي
 (1278) و (1299) .

(3) سيرة ابن هشام 1: 338، ابن عبد البر: الاستيعاب 2: 182، الذهبي: سير أعلام النبلاء 2: 116 .

(4) لم أقف عليه .

ومن علاماتهم أيضاً ، دُعاؤهم إلى الدين والعبادة ، من الصلاة والصَّدقة والعَاف . وقد استدلَّت خديجةُ على صِدْقِهِ ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره إلى دليلٍ خارج عن حاله وخلقه . وفي الصحيح⁽¹⁾ : أنَّ هِرَقل حين جاءهُ كتابُ النبي ﷺ يَدْعُوهُ إلى الإسلام ، أخضر من وُجْدَ بَتلده من قُرَيْش ، وفيهم أبو سُفْيَان ، لَيْسَ أَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ ، فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ : يَمْ يَأْمُرُكُمْ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَان : بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعَاف ، إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ ؛ فَقَالَ : إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا ، إِنَّهُ نَبِيٌّ ، وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ . وَالْعَافُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرَقلُ هُوَ الْعِصْمَةُ . فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ وَالِدَعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ النُّبُوَّةِ ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُعْجَزَةٍ ، قَدْ لَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ .

- 10 / ومن علاماتهم أيضاً، أن يكونوا ذوي حَسَبٍ في قَوْمِهِمْ ، وفي الصحيح⁽²⁾ : ما بعث الله نبياً إلا في مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ؛ وفي رواية أخرى : في ثَرَوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ؛ وَاسْتَنْذَرَهُ الْحَاكِمُ⁽³⁾ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ . وَ فِي مُسَاءَلَةِ هِرَقلَ لِأَبِي سُفْيَانِ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ⁽⁴⁾ ، قَالَ : كَيْفَ هُوَ فَيْكُمْ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَان : هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ ؛ فَقَالَ هِرَقلُ : وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا . وَمَغْنَاهُ ، أَنْ تَكُونَ لَهُ عَصِيَّةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ أَدَى الْكُفَّارِ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَاتَ رَبِّهِ ، وَيَتِمَّ مُرَادَ اللَّهِ فِي إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ .

(1) أخرجه البخاري 1: 5-6 حديث رقم (7) .

(2) هذا الحديث خاص بالأنبياء، والمحفوظ فيه : "في ثروة من قومه" والثروة العدد الكثير، وهو معنى المنعة. أخرجه الطبري في تفسيره 12: 88 والحاكم : 2: 561 من حديث أبي هريرة، وابن حبان في صحيحه (6207) (6206).

(3) المستدرک 2: 561 .

(4) أخرجه البخاري 1: 6 حديث (7) .

(أ) ومن علاماتهم أيضاً ، وقوع الخوارق لهم شاهدةً بِصِدْقِهِمْ ، وهي أفعالٌ يَعْجِزُ البشرُ عن مثلها ، فسُمِّيت لذلك مُعْجِزةً ، وليست من جنس مقدور العباد ، وإنما تَقَعُ في غير محلِّ قُدْرَتِهِمْ^(ب) ، وللتناس في كَيْفِيَّةِ وَقْعِهَا ودلالاتها على تَصْدِيقِ الأنبياء خلافٌ .

- 5 فالتكلمون بناءً على القول بالفاعل المختار ، قائلون بأنها واقعةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ لا بِفِعْلِ النَّبِيِّ ، وإن كانت أفعالُ العباد عند المغترة صادرة عنهم ، إلا أنَّ المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم . وليس للنبي فيها عند الجميع^(ج) إلا التحدي بها بإذن الله ، وهو أن يستدلَّ بها النبي قبل وقوعها على صدقه في مدَّعاه ، فتتنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق ، وتكون دلالتها على الصدق قطعيةً . فالمعجزة الدالة مجموع الخارق والتَّحْدِي ، ولذلك كان التَّحْدِي جزءاً منها ، وعبارة المتكلمين : صِفَةُ 10 نفسها ، وهو واحدٌ ، لأنه معنى الذاقي عندهم .

- والتَّحْدِي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسَّحَر ، إذ لا حاجة فيهما إلى التَّصْدِيق ، فلا وجودَ للتَّحْدِي إلا إن وُجِدَ اتِّفَاقاً . وإن وَقَعَ التَّحْدِي في الكرامة عند مَنْ يُجِيزُهَا ، وكانت لها دلالة ، [فإنَّما]^(د) هي على الولاية وهي غيرُ الثبوت . ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحاق وغيره وقوع الخوارق كرامةً ، فراراً من الالتباس بالثبوت عند 15 التَّحْدِي بالولاية . وقد أَرَيْنَاكَ المغايرة بينهما ، وأنه يَتَّحَدَّى بغير ما يتحدَّى به النبي ، فلا لُبْس ؛ على أَنَّ الثَّقَلَ / عن الأستاذ^(هـ) ليس صريحاً ، وربما حُجِّلَ على إنكار أن تقع خوارقُ الأنبياء لهم بناءً على اختصاص كلٍّ من الفريقين بخوارقه .

(أ) من هنا تبدأ ورقة مضافة بصفحتها بخط ابن خلسون في الشخصيتين ع ي ، وهي مدرجة في ظل ج (ب) ي : القُدْرَةُ (ج) ي وحدها: عند المتكلمين (د) ظ: وإِنَّمَا (هـ) في ي : الأستاذ في ذلك .

وأما الْمُغْتَرِلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أَنَّ الخَوَارِقَ لَيْسَتْ من أفعال العباد ، وأفعالهم مُعْتَادَة ، فلا خارق . وأما وقوعها على يَدِ الكاذبِ تَلْبِيساً ، فهو مُحَالٌ .

أما عند الأشعرية فلأنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمُعْجِزَةِ التَّصْدِيقُ والهِدَايَةُ ، فَلَوْ وَقَعَتْ 5 بخلاف ذلك انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً ، والهِدَايَةُ ضَلَالَةً ، وأقولُ : والتَّصْدِيقُ كَذِباً ، واستحالت الحقائق ، وانقلبت صفات النَّفْسِ ؛ وما يلزم من فَرَضِ وَقُوعِهِ المُحَالُ لا يكون مُمَكِّناً . وأما عند الْمُغْتَرِلة فلأنَّ وَقُوعَ الدَّلِيلِ شُبْهَةً والهِدَايَةَ ضَلَالَةً ، قَبِيحٌ ، فلا يَقَعُ من الله .

وأما الحكماء ، فالخارقُ عندهم من فِعْلِ النَّبِيِّ ، ولو كان في ^(١) غير محلِّ 10 القُدْرَةِ ، بناءً على مذهبهم في الإيجاب النَّاتِي . ووقوعُ الحوادثِ بَعْضُهَا عن بَعْضٍ ، متوقِّفٌ على الشُّرُوطِ والأسبابِ الحَادِثَةِ ، مُسْتَنَدَةٌ أخيراً إلى الواجبِ بالذَّاتِ الفَاعِلِ بالذَّاتِ ^(ب) لا بالاختيار ، وأنَّ النَّفْسَ النَّبَوِيَّةَ عندهم لها خواصٌّ ذاتيةٌ ، منها صُذُورُ هذه الخوارق بِقُدْرَتِهِ وطَاعَةِ الْعَنَاصِرِ لَهُ في التَّكْوِينِ . والنَّبِيُّ عندهم مَجْبُولٌ على التَّصْرِيفِ في الْأَكْوَانِ متى تَوَجَّهَ إِلَيْهَا ، واستَجْمَعَ لها بما جَعَلَ اللهُ لَهُ من ذلك . 15 والخارقُ عندهم يَقَعُ لِلنَّبِيِّ ، كان التَّحْدِي أو لم يَكُنْ ، وهو شاهدٌ بِصِدْقِهِ من حيثِ دِلَالَتِهِ على تَصَرُّفِ النَّبِيِّ في الْأَكْوَانِ الَّذِي هو من خواصِّ النَّفْسِ النَّبَوِيَّةِ ، لا بآئِهِ يَنْزِلُ مَنَزَلَةَ الْقَوْلِ الصَّرِيحِ بالتَّصْدِيقِ . فلذلك لا تكون دِلَالَتُهَا عندهم قَطْعِيَّةً كما هي عند المتكلمين ، ولا يكونُ التَّحْدِي جُزْءاً من الْمُعْجِزَةِ ، ولم يصحَّ فارقاً لها عن

(١) ع ج : على (ب) مذكورة في ع ج ل ظ : وأثبت في ي بخط ابن خلدون في الورقة المضافة ، ثم شطبها .

السُّخْر والكِرَامَة . وفَارِقُهَا عندهم عن السُّخْر ، أَنَّ النَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى أَفْعَالٍ ^(أ) الْحَيَّرَ ،
 [65 ب] مصروفٌ عن أَفْعَالِ الشَّرِّ ، / فلا يَلَمُّ الشَّرُّ بِخَوَارِقِهِ . وَالسَّاحِرُ عَلَى الضَّدِّ ؛ فَأَفْعَالُهُ ^(ب)
 كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ الشَّرِّ . وفَارِقُهَا عن الكِرَامَة أَنَّ خَوَارِقَ النَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ ،
 كَصُعودِ السَّمَاءِ ، وَالتَّقَوُّذِ فِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ ، وَإِخْيَاءِ الْمَوْتَى ، وَتَكْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ ؛
 5 وَالطَّيْرَانِ فِي الْهَوَاءِ . وَخَوَارِقُ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ ، كَتَكْثِيرِ الْقَلِيلِ ، وَالْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ
 الْمُسْتَقْبَلِ ، وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَضْرِيفِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِمِثْلِ خَوَارِقِهِ ، وَلَا
 يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ
 وَنَقَلُوهُ عَنْ مَوَاجِدِهِمْ .

وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا دَلَالَةٌ ، الْقُرْآنُ
 10 الْكَرِيمُ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْخَوَارِقَ فِي الْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ
 الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ وَتَأْتِي بِهِ الْمُعْجَزَةُ شَاهِدَةً ، وَهَذَا ظَاهِرٌ ؛ وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ الْوَحْيُ
 الْمُدَّعَى ، وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجَزُ ؛ فِدِلَالَتُهُ ^(ج) فِي عَيْنِهِ ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُ
 كَسَائِرِ الْخَوَارِقِ مَعَ الْوَحْيِ ؛ فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِاتِّحَادِ الدَّلِيلِ وَالْمَذْلُولِ فِيهِ . وَهَذَا مَعْنَى
 قَوْلِهِ ﷺ ⁽¹⁾ : " مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ؛
 15 وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَى إِلَيَّ . فَأَنَا أَزْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " .
 يَشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجَزَةَ مَتَى كَانَتْ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فِي الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ الدَّلَالَةِ ، وَهُوَ كَوْنُهَا

(أ) ل : فعل (ب) في ظ : أفعاله ، بدون عطف (ج) كذا في ظ ل ج ع ، وفي ي : ومقاصده .

(1) أخرجه البخاري في فضائل القرآن من صحيحه 6: 224 حديث (4981) وفي الاعتصام 9: 113 حديث (7274) ومسلم في الإيمان 152 .

نفس الوحي، كان المصدّق لها أكثر، لوضوحها ، فكثُر المصدّق المؤمن ، وهم التابع والأمة . والله تعالى أعلم ^(١) .

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرّحه كثير من المحقّقين ، ثمّ نذكر حقيقة الكهانة، ثمّ الرؤيا، ثمّ شأن العرّافين، وغير ذلك من مدارك الغيب ، فنقول:

- 5 اعلم ، أرشدنا الله وإياك ، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلّها على هيئة من الترتيب والإحكام ، / وربط الأسباب بالمسبّبات ، واتّصال الأكوان [١٦٦] بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تقتضي عجايبه في ذلك ولا تنتهي غايته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجسماني، وأولاً: عالم العناصر المشاهد كيف تدرّج صاعداً من الأرض إلى الماء ، ثمّ إلى الهواء، ثمّ إلى النار، متّصلاً بعضها ببعض، 10 وكلّ واحد منها مستعدّ أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً، ويستحيل بعض الأوقات . والصّاعد منها ألطف ممّا قبله ، إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك ، وهي ألطف من الكلّ ، وعلى طبقات ؛ اتّصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحسّ منها إلّا الحركات فقط، وبها يهنّدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود النّوات التي لها هذه الآثار فيها. ثمّ انظر إلى عالم التّكوين 15 كيف ابتدأ من المعادن، ثمّ النبات، ثمّ الحيوان، على هيئة بدیعة من التدرّج؛ آخر أفق المعادن متّصل بأول أفق النبات، مثل الحشائش وما لا يزر له؛ وآخر أفق النبات مثل التخل والكرم، متّصل بأول أفق الحيوان كالحلزون والصّدف ، لم توجد

(١) إلى هنا ينهي النص بخط ابن خلدون في نسختي ع ي، ونقلته بقية النسخ .

لها إلا قُوَّة اللَّمس فَقَط . ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات ، أن آخر أفقٍ منها مستعدّ بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفقٍ من الذي بعده . واتَّسع عالم الحيوان وتعدّدت أنواعه ، وانتهى في تدرّج^(أ) التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية ، يرتفع إليه من عالم القردة^(ب) الذي استُجمع فيه الكَيْس والإدراك ، ولم ينته إلى الرؤية والفكر بالفعل ، وكان ذلك في أول أفقٍ من الإنسان بعده ، وهذا غاية شهودنا . 5

[66 ب]

ثم إنّنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً مُتنوّعة ، ففي عالم الحس آثار من حركة الأفلاك والعناصر ، / وفي عالم التكوين آثار من حركات النمو والإدراك ، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مُميّناً للأجسام . فهو روحانيّ ومُتّصل بالمكوّنات ؛ لوجود اتصال هذه العوالم في وجودها ، وذلك هو النفس المدركة والحركة . ولا بُدّ فوقها من موجود آخر يُغطيها قُوَى الإدراك والحركة ، ويتّصل بها أيضاً ، وتكون ذواته إدراكاً صرفاً وتعلّلاً مَحْضاً ، وهو عالم الملائكة^(ج) . فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداداً للانسلاخ من البشريّة إلى الملائكيّة^(ج) ، لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات وفي لَمحةٍ من اللَّمحات ؛ وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانيّة بالفعل ، كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها ، شأن الموجودات المرتبة كما قدّمناه ، فلها في الاتصال جهتا العلوّ والسفّل ، هي مُتّصلة [بالبدن من]^(د) أسفل منها ، ومُكتسبة به المدارك الحسيّة التي يُستعدُّ بها للحصول على التعلّل بالفعل ؛ ومُتّصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة^(هـ) ومُكتسبة فيه المدارك العلميّة

(أ) ل : تدرّج (ب) كذا في الأصول المخطوطة الخمسة (ج) ع : ل : الملكية (د) كذا في ج ل ع ي ، وفي ظ وحدها : بالذي (هـ) ل : الملكية .

عالم غريب
لقد قيل عليه

والغيبية، فإنَّ علمَ الحوادث موجودٌ في [ذواتهم]^(١) من غيرَ زمان . وهذا على ما قدَّمناه من الترتيب المُحكَّم في الوجود باتِّصال ذواته وقُوَّاه بَعْضُها بَبَعْضٍ.

ثم إنَّ هذه النَّفس الإنسانية غائبةٌ عن العيان، وآثارها ظاهرةٌ في البدن؛ وكأنَّه وجميعُ أجزائه مُجمَّعة ومُتفرقة^(ب) آلاتٌ للنَّفس ولقُوَّاتها. أمَّا الفاعلة، فالبطشُ باليد، والمشيُّ بالرجل، والكلامُ باللسان، والحركةُ الكلِّيةُ بالبدن مُتدافِعاً. وأمَّا 5 المَدرَكة، وإنَّ كانت قُوَّةُ الإدراك مُترتبةٌ ومُرتَّبةٌ إلى القُوَّةِ العُلْيَا منها، وهي المَفرَكة التي يُعبَرون عنها بالنَّاطِقة، فقُوَّةُ الحِسِّ الظَّاهرِ بآلاته، من البصر، والسَّمْع، وسائرِها، تَرتقي إلى الباطن. وأوَّلُه الحِسُّ المُشترَك، وهو قُوَّةُ تَذَرِكِ المَحسوسات مُبَصَّرَةً وَمَسْمُوعَةً / وَمَلْمُوسَةً وغيرها في حالةٍ واحدة؛ وبذلك فارقت قُوَّةُ الحِسِّ 10 الظَّاهِر؛ لأنَّ المَحسوسات لا تَزْدحم عليها في الوَقْتِ الواحد. ثم يُؤدِّيهِ الحِسُّ المُشترَك إلى الخيال، وهو قُوَّةٌ تُمَثِّلُ الشَّيْءَ المَحسوسَ في النَّفس كما هو، مُجَرِّداً عن المَوَادِّ الخارجِيةِ فقط. وآلةُ هاتين القُوَّتَيْنِ في تَصَرُّفِهما البَطْنُ الأوَّلُ من الدِّماغ، مُقَدِّمُهُ للأولى؛ ومُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ. ثمَّ يَرتقي الخيالُ إلى الوَهْمِيَّةِ والحَافِظَةِ، فالوَهْمِيَّةُ لإدراك المعاني المُتعلِّقة بالشَّخصِيات، كعداوة زَيْد، وصداقة عَمْرٍو، وَرَحْمَةِ الأب، واقتِراس 15 الذَّنْب. والحَافِظَةُ لإيداع المَدرَكَات كُلِّها، مَتَخَيَّلَةً وَغيرَ مَتَخَيَّلَةٍ؛ وهي لها كالخِزانَةِ، تَحْفَظُها إلى وَقْتِ الحاجة إليها. وآلةُ هاتين القُوَّتَيْنِ في تَصَرُّفِهما، البَطْنُ المُؤَخَّر من الدِّماغ، أوَّلُهُ للأولى؛ ومُؤَخَّرُهُ لِلأُخْرَى. ثمَّ يَرتقي جَمِيعُها إلى قُوَّةِ الفِكر، وآلَتُهُ البَطْنُ الأَوْسَطُ من الدِّماغ؛ وهو القُوَّةُ التي تَقَعُ بها حَرَكَةُ الرُّويَّةِ والتَّوَجُّهِ نحو

(١) في ع ل: تعلاتهم، ومصححة في الحاشية بخطه بما أثبت، وبقيت على حالها في ي ط (ب) في بقية الأصول: متفرقة.

التَّعَقُّلُ؛ تَتَحَرَّكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا - بِمَا رُكِّبَ فِيهَا مِنَ النَّزْوَعِ إِلَى ذَلِكَ - لِتَخْلُصَ مِنَ
ذَرَكِ الْقُوَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ الَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتَخْرُجَ إِلَى الْفِعْلِ فِي تَعَقُّلِهَا مَتَشَبِّهَةً بِالْمَلَأِ
الْأَعْلَى الرُّوحَانِيِّ؛ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْآلَاتِ
الْجِسْمَانِيَّةِ . فَهِيَ مَتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ . وَقَدْ تَنَسَّلَخَ بِالْكَلِمَةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ
وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى [الْمَلَكِيَّةِ]⁽¹⁾ مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ ، بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا 5
مِنَ الْجِبِلَّةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِي ذَلِكَ .

وَالنَّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبَعِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْإِدْرَاكِ الرُّوحَانِيِّ، فَيَقْنَعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى
الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَهْمِيَّةِ
عَلَى قَوَائِنٍ مَحْصُورَةٍ، وَتَرْتِيبٍ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ / التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصَدِيقِيَّةَ الَّتِي [67 ب] 10
لِلْفِكْرِ فِي الْبَدَنِ ؛ وَكُلُّهَا خَيَالِيٌّ مُنْحَصَرٌّ نِطَاقُهُ ؛ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةٍ مُبْتَدِئَةٍ^(ب) يَنْتَهِي إِلَى
الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا. وَهَذَا هُوَ فِي الْأَغْلَبِ نِطَاقُ
الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ الْجِسْمَانِيِّ. وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ، وَفِيهِ تَرَسَّخُ أَقْدَامُهُمْ.

وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ التَّعَقُّلِ الرُّوحَانِيِّ وَالْإِدْرَاكِ الَّذِي لَا
يَقْتَنِرُ إِلَى آلَاتِ الْبَدَنِ ، بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ . فَيَتَّسِعُ نِطَاقُ إِدْرَاكِهِ 15
عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِيِّ ، وَيَسْرُحُ فِي فِضَاءِ الْمَشَاهِدَاتِ
الْبَاطِنَةِ ، وَهِيَ وَجْدَانٌ كُلُّهَا ، لَا نِطَاقَ لَهَا مِنْ مَبْدِئِهَا وَلَا مِنْ مُنْتَهَاهَا ؛ وَهَذِهِ

(1) مِنْ ع ل ج ، وَفِي ظ ي : الْمَلَكِيَّةُ (ب) فِي بَقِيَّةِ الْأَصُولِ : مَبْدِئُهُ .

مدارك الأولياء^(١) أهل العلوم الدنيّة والمعارف الربّانية ، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ .

وصنّف مَفْطور على الانسلاخ من البشريّة جُملةً ، جسمانيّها وروحانيّها ،
إلى [الملكيّة]^(ب) من الأفق الأعلى ، ليصير في لَمحةٍ من اللّمحات ملكاً بالفعل ،
ويُحْصَل له شهودُ الملأ الأعلى في أفقهم ، وسماعُ الكلام التّفصّلي والخطاب الإلهي 5
في تلك اللّمحة . وهؤلاء هم الأنبياء ، صلوات الله عليهم ؛ جعل الله لهم الانسلاخ
من البشريّة في تلك اللّمحة ، وهي حالة الوحي ، فطرة فطرهم عليها ، وجيلة صوّرهم
فيها ، ونزّهمهم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا مُلابسين لها بالبشريّة ، بما رَكِبَ في
غرائرهم من العِصمة والاستقامة التي يُحاذون بها تلك الوجْهة ، وركّز في طباعهم
رغبةً في العبادة تكتنف بتلك الوجْهة * وتشيع نحوها*^(ج) . فهم يتوجّهون^(د) إلى 10
ذلك^(هـ) الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا ، بتلك الفطرة التي فُطروا
عليها ، لا باكتساب ولا صناعة . فإذا توجّهوا وانسلخوا عن بشريّتهم ، وتلقّوا في ذلك
الملأ الأعلى / ما يتلقّونه ، عاجوا به على المدارك البشريّة مُتَنَزِّلًا [في]^(و) قواها لحكمة [١٦٨]
التبليغ للعباد . فتارة بسماع دويّ كأنه زمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي أُلقي
إليه ، فلا ينقضي الدويّ إلّا وقد وعاه وفهمه . وتارة يتمثل له الملك الذي يُلقى إليه ، 15
رجلاً ، فيكلّمه ويبي ما يقوله . والتلقّي من الملك ، والرجوع على المدارك البشريّة ،
وفهمه ما أُلقي عليه ، كلّهُ ، كأنه في لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنّه

(١) ي: العلماء (ب) ط: الملائكة (ج) سقط ما بين الجين من ل (د) ج: متوجّهون (هـ) سقط من ي (و) في
ط وحدها: من .

ليس في زمان، بل كلها تقع جميعاً فتظهر كأنها سريعة؛ ولذلك سُميت وحيًا؛ لأن
الوحي في اللغة الإسراع.

واعلم أن الأولى، وهي حالة الدوي، هي رتبة الأنبياء غير المرسلين [على ما
حَقَّقْوه. والثانية، وهي حالة تمثل الملك رجلاً يُخاطب، هي رتبة الأنبياء] ^(١) المرسلين،
ولذلك ^(ب) كانت أكمل من الأولى. وهذا معنى الحديث ^(١) الذي فسر فيه النبي ﷺ
5 الوحي لما سألُه الحارث بن هشام، وقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: "أحياناً يأتيني
مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال؛ وأحياناً
يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول". وإنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ
الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل، فيغسر بعض العسر؛ ولذلك لما عاج
10 فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه. وعندما يتكرر الوحي
ويكثر التلقي يسهل ذلك ^(ج) الاتصال؛ فعندما يعوج إلى المدارك البشرية، يأتي على
جميعها، وخصوصاً الأوضح منها وهو إدراك البصر.

وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي، وفي الثانية بصيغة المضارع
لطيفة من البلاغة؛ وهي: أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي، فمثلت
الحالة الأولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه
15 غب انقضائه، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي،

(١) من ل ع ج وسقط من ط ي (ب) ل : ولهذا (ج) ج : ذاك .

(١) تقدّم تخرجه في صفحة (166) .

المطابق للاقتضاء والاتقطاع؛ ومثل الملك في الحالة الثانية برجلٍ يخاطب ويتكلم، والكلام يساوقه الوغي، فناسب العبارة بالمضارع / المقتضي للتجدد .

[68 ب]

واعلم أن في حالة الوحي كلها على الجملة صعوبة وشدة قد أشار إليها القرآن؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [سورة المزمل، الآية 5] ، وقالت عائشة⁽¹⁾ : كان مما يعاني من التنزيل شدة ؛ وقالت : كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فينقصم عنه وإن جبينه لينفصد عرقاً . ولذلك ما كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف . وسبب ذلك أن الوحي - كما قررناه - مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية ، وتلقي كلام النفس، فتحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر . وهذا هو معنى الغطاء الذي عبر به في مبدأ الوحي في قوله⁽²⁾ : " فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ ! فقلت : ما أنا بقاريء " ؛ وكذا ثانية وثالثة، كما في الحديث . وقد يفضي الاعتياد فيه بالتدرج شيئاً فشيئاً إلى بغض السهولة بالقياس إلى ما قبله . ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآياته حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة . وانظر إلى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك ، وأنها أنزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته؛ بعد أن كان بمكة ينزل عليه بغض السورة 15 من قصار المفصل في وقت، وينزل الباقي في حين آخر . وكذلك كان من آخر ما⁽¹⁾ نزل بالمدينة آية الدين، وهي ما هي في الطول؛ بعد أن كانت الآيات تنزل بمكة مثل

(1) سقط من: ل ج .

(1) المحفوظ أن هذا قول ابن عباس ، وتقدم تخرجه في صفحة (166) .

(2) قطعة من حديث عائشة في البخاري (3) .

آيات سُورَةِ الرَّحْمَنِ، وَالذَّارِيَاتِ، وَالْمُدَّثِّرِ، وَالضُّحَى، وَالْعَلَقِ، وَأَمْثَالِهَا . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ عِلَامَةً تُفَيِّدُهَا بَيْنَ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ مِنَ السُّورِ وَالآيَاتِ ؛ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ . هَذَا مُحْصَلُ أَمْرِ التَّبَوُّةِ .

وَأَمَّا الْكَهَانَةُ فَهِيَ أَيْضاً مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَاداً لِلانْسِلَاخِ عَنِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى 5
الزُّوْحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا، وَأَنَّهُ تَحْصُلُ ^(١) مِنْ ذَلِكَ لَمَحَّةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ * عَلَيْهِمُ السَّلَامُ * ^(ب) / بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ [١٦٩]
وَلَا اسْتِعَانَةَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَدَارِكِ ، وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ ، وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدِئِيَّةِ ،
كَلَاماً أَوْ حَرَكَةً ، وَلَا بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، إِنَّمَا هُوَ انْسِلَاخٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ
بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَفْحِ الْبَصَرِ .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ، وَكَانَ [هَذَا] ^(ج) الْاسْتِعْدَادُ مَوْجُوداً فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ،
فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيُّ أَنَّ هُنَا [صِنْفاً] ^(ج) آخَرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصاً عَنْ رُتْبَةِ الصَّنْفِ
الْأَوَّلِ نُقْصَانُ الضَّدِّ عَنْ ضِدِّهِ الْكَامِلِ . لِأَنَّ عَدَمَ الْاسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ ضِدٌّ
لِلْاسْتِعَانَةِ فِيهِ، وَشَتَانٌ مَا بَيْنَهُمَا . فَإِذَنْ ، أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ أَنَّ هُنَا صِنْفاً آخَرَ
مِنَ الْبَشَرِ مَفْطُورٌ عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الْفِكْرِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَتَعَبَّأُ 15
الْزُّوْعَ لِذَلِكَ، وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجِبِلَّةِ، فَيَكُونُ لَهَا بِالْجِبِلَّةِ عِنْدَمَا يَعُوقُهَا الْعَجْزُ عَنْ
ذَلِكَ تَشَبُّثٌ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَخْصُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ، كَالْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ، وَعِظَامِ
الْحَيَوَانِ، وَسَجْعِ الْكَلَامِ، وَمَا يَنْسَخُ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ، يَسْتَنْدِيمُ ذَلِكَ الْإِحْسَاسَ أَوْ

(١) ع: يحصل (ب) سقط من ع ل (ج) من: ع ج ل ي .

التخيّل مُستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يَحصده ويكون كالمُشيّع له. وهذه القوّة
التي فيهم مَبْدَأُ لذلك الإدراك، هي الكهانة. ولكون هذه النفوس مَفْطُورَةٌ عَلَى النِّقْصِ
والقصور عن الكمال، كان إدراكها في الجزئيات أَكْثَرَ من الكلّيات، وتكون متشبّهة
بها [غافلة] ^(أ) عن الكلّيات . ولذلك ما تكون [المتخيّلة] ^(ب) فيهم في غاية القوّة،
5 لأنها آلة الجزئيات ، فتنفذ فيها نفوذاً تامّاً في نَوْمٍ أو يَقْظَةٍ ، وتكون عندها حاضرة
عتيدة، تُخْضِرُها المتخيّلة وتكون لها كالمرآة تَنْظُرُ فيها دائماً . ولا يَقْوَى الكاهنُ على
الكمال في إدراك المَعْقُولَاتِ ، لأنّ وَحْيَهُ من وَحْيِ الشَّيَاطِينِ . وأُرفِغَ أحوال هذا
الصّنف أن يَسْتَعِينَ بالكلام الذي فيه السَّجْعُ والموازنة لِيَسْتَغْلِبَ به عن الحواس ،
ويَقْوَى بعضُ الشَّيْءِ على ذلك الاتّصال الناقص، / فَيَهْجُسُ في قلبه عن تلك
[69 ب] الحركة، والتي ^(ج) يُشَيِّعُها لذلك الأجنبيّ ما يَقْذِفُهُ على لسانه؛ فَرَبِّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقُّ ،
10 وَرَبِّمَا كَذَبَ؛ لَأَنَّهُ [يُنْتَمِ] ^(د) نَقْصَهُ بِأَمْرِ أَجْنَبِيٍّ عن ذاته المُذْرِكَةِ ، ومُبَايِنٍ لها غيرِ
ملائمٍ ، فيَغْرِضُ له الصّدق والكذبُ جميعاً ويكون غيرَ موثوق به . وربّما يَفْزَعُ إلى
الظُّنون والتَّخْمِينَاتِ حِرْصاً على الظُّفَرِ بالإدراك، بَزْعَمِهِ، وتَقْوِيهَا على السَّائِلِينَ.
وأَصْحَابُ هذا السَّجْعِ هم المَخْصُوصُونَ بِاسْمِ الْكُهَّانِ، لأنّهم أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ. وقد
15 قَالَ ﷺ فِي مِثْلِهِ ⁽¹⁾ : " هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ " . فَجَعَلَ السَّجْعَ مَخْتَصّاً بِهِمْ بِمُقْتَضَى
الإِضَافَةِ . وَقَالَ ⁽²⁾ لَابِنُ صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفاً عَنْ خَالِهِ بِالْإِخْتِيَارِ " ، كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا
الْأَمْرُ ؟ قَالَ : يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ ! فَقَالَ : خُلِّطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ " يَعْنِي أَنَّ النُّبُوَّةَ

(أ) في ظ: غافلة (ب) في ظ: الهَيْلَة (ج) ع: وَالَّذِي (د) ظ: يَتَم .

(1) لم أَقِفْ عَلَيْهِ بهذا اللفظ .

(2) أخرجه مسلم (2925) والترمذي (2247) وأحمد في مسنده 3 : 66 ، 97 .

خاصيتها الصّديق ، فلا يغترّ بها الكذب بحال ، لأنها اتّصال من ذات النّبيّ بالملا
الأعلى من غير مُشيع ولا استعانة بأجنبيّ . والكهانة لما احتاج صاحبها ، بسبب
عجزه ، إلى الاستعانة بالتصوّرات الأجنبيّة ، فكانت داخلة في إدراكه ،
و[التّبسّث]⁽¹⁾ بالإدراك الذي توجّه إليه ، فصار مُختلطاً بها وطرقه الكذب من
هذه الجهة ، فامتنع أن يكون بُبوة . وإنّما قلنا إنّ أرفع مراتب الكهانة حالة
السّجع ، لأنّ مُعين السّجع أخفّ من سائر المعينات من المريّيات والمسموعات .
وتدلّ خفة المعين على قُرب ذلك الاتّصال والإدراك ، والبُعد فيه عن العجز
بعض الشيء .

وقد زعم بعض الناس أنّ هذه الكهانة قد انقطعت مُنذ زمن النّبوة ، بما وقّع
من شأن زخم الشّياطين بالشّهب بين يدي البعثة ، وأنّ ذلك كان لمنعهم من خبر
السّماء كما وقّع في القرآن ؛ والكهّان إنّما يتعرّفون أخبار السّماء من الشّياطين ؛
فبطلت الكهانة من يومئذٍ . ولا يقوم من ذلك دليل ؛ لأنّ علوم الكهانة كما تكون
من الشّياطين تكون من نفوسهم كما قرّزناه . وأيضاً ، فالآية / إنّما دلّت على منع
الشّياطين من نوع واحد من أخبار السّماء ، وهو ما يتعلّق بخبر البعثة ، ولم يُمنعوا ممّا
سوى ذلك . وأيضاً ، فإنّما كان ذلك الانقطاع بين يدي النّبوة فقط ، ولعلّها عادت
بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظّاهر ؛ لأنّ هذه المذارك كلّها تخمد في
زمن النّبوة ، كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشّمس ؛ لأنّ النّبوة هي النّور
الأعظم الذي يخفي معه كلّ نور أو يذهب .

(1) كذا في الأصول ، وفي ظ وحدها: والسبب .

وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة، ثم تنقطع؛ وهكذا مع كل نبوة وقعت . لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه ، وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ، ونقص ذلك الوضع على التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع الذي يقتضيه، ناقصة، وهو معنى الكاهن على ما قررناه.

5 فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص، ويقتضي وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً. فإذا تم ذلك الوضع، تم وجود النبي بكماله، وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة، فلا يوجد منها شيء بعد. وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره . وهو غير مسلم. فلعل الوضع إنما يقتضي ذلك الأثر بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضي شيئاً، [لا] ⁽¹⁾ أنه يقتضي ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه.

10 ثم إن هؤلاء الكهّان إذا عاصروا زمن النبوة، فإنهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم. ومغفولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد [مِمَّا] ^(ب) للنائم . ولا يصدّهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا وسواس المطامع بأنها نبوة لهم ، فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت ، فإنه كان يطمع أن يكون نبياً ، وكذا وقع لابن صياد

15 ولمسيّلة / وغيرهم . فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن أيمان ؛ [70 ب]

كما وقع لطليحة الأسدي وقارب بن الأسود ، وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان .

(1) في ظ: إلا (ب) في ط: ي : ما .

وأما الرؤيا ، فحقيقتها مُطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحية لمحّة من
صُور الواقعات . فإنّها عندما تكون روحانيّة تكون صُور الواقعات فيها موجودة
بالفعل ، كما هو شأن الدّوات الروحانيّة كلّها . وتصيرُ روحانيّة بأن تتجرّد عن الموادّ
الجسمانيّة والمدارك البدنيّة . وقد يقع لها ذلك لمحّة بسبب النّوم كما نذكر ، فتقتبس
فيها علم ما تشوّف إليه من الأمور المُستقبلة وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك 5
الاقتباس ضعيفاً وغير جليّ عانته بالمحاكاة والمثال في الخيال لتحصّله ، فيحتاج من
أجل هذه المحاكاة إلى التّغيير . وقد يكون الاقتباس قوياً يُستغنى فيه عن المحاكاة
فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال . والسبب في وقوع هذه اللّفحة
للنفس أنّها ذات روحانيّة بالقوّة مُستكملة بالبدن ومداركه ، حتّى تصير ذاتها تعقّلاً
مخصّصاً ويكمل وجودها بالفعل ، فتكون حينئذ ذاتاً روحانيّة مدركةً بغير شيء من 10
الآلات البدنيّة . إلّا أنّ نوعها في الروحانيّات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى
الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصلٌ
لها ما دامت في البدن ، ومنه خاصّ ؛ كالذي للأولياء ، ومنه عامٌ للبشر على العموم ؛
وهو أمرُ الرؤيا .

وأما الذي للأنبياء ، فهو استعدادٌ بالانسلاخ من البشريّة إلى الملكيّة 15
المخضّة التي هي أعلى الروحانيّات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم مُتكرّراً في حالات
الوحي ؛ وهو عندما يعوجّ على المدارك البدنيّة ويقع فيه ما يقع من الإدراك شبيهاً
بحال النّوم شبيهاً بيقظ ، وإن كان حال النّوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشّبه عبّر
الشارعُ عن الرؤيا / بأنّها جزءٌ من ستّة وأربعين جزءاً من النبوة ، وفي رواية: ثلاثة [171]

وأربعين ، وفي رواية : سَبْعِينَ . وليس العددُ في جميعها مقصوداً بالذات ، وإنَّما المرادُ الكثرةُ في تَقَاوُتِ هذه المراتبِ ؛ بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبعِينَ في بَعْضِ طُرُقِهِ وهي للتَّكثِيرِ عندَ العَرَبِ . وما ذَهَبَ إليه بَعْضُهُمْ في روايةِ سِتَّةِ وأربعين ، من أنَّ الوَحْيَ كان في مَبْدِئِهِ بالرُّؤْيَا سِتَّةَ أَشْهُرَ ، وهي نِصْفُ سَنَةٍ ؛ ومُدَّةُ النُّبُوَّةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ والمَدِينَةِ ثَلَاثَةَ 5 وعِشْرُونَ سَنَةً ، فَنِصْفُ السَّنَةِ مِنْهَا جِزْءٌ ⁽¹⁾ من سِتَّةِ وأربعين ، فَكَلَامٌ بَعِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ . لأنَّه إنَّما وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لغيرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؟ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنَ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النَّبُوَّةِ ، وَلَا يُعْطَى نِسْبَةً حَقِيقَتِهَا مِنْ حَقِيقَةِ النَّبُوَّةِ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا ، عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْإِسْتِعْدَادِ 10 الْأَوَّلِ الشَّامِلِ لِلْبَشَرِ ، إِلَى الْإِسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِصِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ الْفِطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْتِعْدَادَ الْبَعِيدَ وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي الْبَشَرِ ، فَقَعَهُ عَوَائِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ بِالْفِعْلِ . وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ . فَفَطَرَ اللَّهُ الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِّ بِالتَّوَمُّ الَّذِي هُوَ جَبِلِّيٌّ لَهُمْ ، فَتَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ الْحَقِّ ، فَتُدْرِكُ فِي بَعْضِ 15 الْأَخْيَانِ مِنْهُ لَمَحَةٌ يَكُونُ فِيهَا الظُّفَرُ بِالْمَقْصُودِ . وَلِذَلِكَ مَا جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ ، فَقَالَ ⁽¹⁾ : "لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ" ؛ قَالُوا : وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، أَوْ تَرَى لَهُ" .

(1) ل: جزءاً .

(1) أخرجه مسلم (479) وأحمد 1: 219 وأبو داود (876) والنسائي في المجتبى 2: 179 وابن ماجه (3899) وابن حبان (1896) .

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم، فعلى ما أصفه لك: وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني⁽¹⁾، وهو بخار لطيف مركزه في التجويف الأيسر من القلب، على ما في كُتب التشرح لجالينوس⁽¹⁾

[71 ب] وغيره ؛ ويتبعث / مع الدم في الشريانات والعروق ، فيغطي الحس والحركة وسائر الأفعال البدئية، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من بزرده، ويتمم أفعال القوى التي 5 في بطونه . فالتفـس الناطقة إنما تدرك وتـعمل بهذا الروح البخاري ، وهي متعلقة به، بما اقتضته حكمة التكوين ، في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف . ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدئية ، صار محلاً لآثار الذات المبينة له في جسمانيته، وهي النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة في البدن بوساطته . وقد 10 كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين، إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس ، وإدراك في الباطن وهو بالقوى الدماغية ، وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذوات الروحانيات التي هي مستعدة له بالفطرة .

ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية⁽¹⁾، كانت معرضة للوهن والفسل ، بما يذكرها من التعب والكلال ونقصي الروح بكثرة التصرف ؛ فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجدد الإدراك على الصورة الكاملة. وإنما يكون ذلك بالانحسار الروح 15 الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب

(1) ضبطت في ع بضم الجيم .

(1) لم يتمكن من مقابلتها على نصوصه .

من ظاهره إلى باطنه، فتكون مُشَيَّعةً مَرَكَبًا، وهو الرُّوح الحيواني، إلى الباطن .
ولذلك ما كان التَّوَمُّ للبشر في الغالب إنَّما هو بالليل . فإذا انْخَسَّ الرُّوحُ عن
الحواسِّ الظَّاهرة رجع إلى القُوَى الباطنة، وَخَفَّتْ عن^(١) النَّفْسِ شواغلُ الحِسِّ
وموانعُه، ورجعت إلى الصُّور التي في الحافظة، تُمَثِّلُ منها بالتركيب والتَّخيل صوراً
5 خياليَّةً، وأكثرُ ما تكون معتادةً ، لأنَّها مُتَرَعَّةٌ من المُدْرَكَاتِ المُتَعَاهِدة قريباً . ثم تُزَلِّها
إلى الحِسِّ المشترك الذي هو جامعُ الحواسِّ الظَّاهرة، فيدرِكها على أنحاء
الحواسِّ الخمس . وربَّما / التفتَّت النَّفْسُ لَفْتَةً إلى ذاتِها الرُّوحانيَّة مع مُنازعة القُوَى
الباطنة، فتُدرِك بإدراكها الرُّوحانيَّ لأنَّها مَفْطُورة عليه، وتَقْتَبِسُ من صور
الأشياء التي صارت متعلِّقة في ذاتِها حينئذٍ . ثم يأخذُ الخيالُ تلك الصُّور المدركة
10 فيُمَثِّلُها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المَعهودة . والمحاكاة من هذه هي المحتاجة إلى
التَّعبير^(ب)، وتَصَرَّفُها بالتركيب والتَّحليل في صُور الحافظة قبل أن تُدرِك من تلك
اللَّمْحَةِ ما تُدرِك، هي أَضْغاثُ الأَخْلَام . وفي الصَّحيح^(١) : أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "الرُّؤْيَا
ثلاث: رُؤْيَا من الله، ورُؤْيَا من المَلَك، ورُؤْيَا من الشَّيْطان". وهذا التَّفْصيل
مطابق لما ذَكَرناه، فالجلي من الله، والمحاكاة الدَّاعية إلى التَّعبير من المَلَك، وأَضْغاثُ
15 الأَخْلَام من الشَّيْطان، لأنَّها كُلُّها باطلٌ، والشَّيْطانُ يُنبِوعُ الباطل .

هذه حقيقةُ الرُّؤْيَا وما يُسَبِّها وَيُشَيِّعُها من التَّوَم ، وهي خواصُّ للنَّفْسِ
الإنسانيَّة مَوْجُودةٌ في البَشَرِ على العُموْم، لا يَخْلُو عنها أَحَدٌ منهم ، بل كُلُّ واحدٍ من

(١) ي : على (ب) ل : التغير .

(1) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولكن جاء في الصحيحين "الرُّؤْيَا ثلاث، حديث النفس، وتخويف الشَّيْطان،
ويُشرى من الله" البخاري 9: 48 (7017)، مسلم (2263) .

الأناسي فقد رأى في تومه ما صدق له في يقظته مراراً غير واحدة، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ، ولا بد . وإذا جاز ذلك في عالم النوم فلا يمتنع في غيره من الأحوال ؛ لأن الذات المدركة واحدة، وخواصها عامة في كل حال. والله الهادي إلى الحق .

1. فصل :

5

ووقع ما يقع من ذلك للبشر غالباً إنما هو من غير قصد ولا قدرة عليه ؛ وإنما تكون النفس مُستشرفة للشيء فتقع لها تلك اللقمة في النوم، لا أنها تقصد إلى ذلك قترأه. وقد وقع في كتاب الغاية⁽¹⁾ وغيره من كتب أهل الرياضات، ذكرُ أسماء تُذكر عند النوم، فتكون⁽¹⁾ عنها الرؤيا فيما يتشوّف إليه ، ويُسمونها الحالومة . ذكر منها منسلة في كتاب الغاية حالومة سَمّاها حالومة الطباع الثام، وهي أن يقال عند النوم، بعد فراغ السرّ وصحة التوجّه، هذه الكلمات الأعجمية، وهي : تَمَاعِش، بَعْدَان، يَسَوَادْ، / وَغَدَاش، تَوْفَنّا، غَادِش؛ ويذكر حاجته ، فإنه يرى الكشف عما [72 ب] يسأل عنه في النوم. وحكى أن رجلاً فعل ذلك بعد رياضة ليالٍ في مأكله وذكره، فتمثل له شخص يقول أنا طباغك التام، فسئل، وأخبره عما كان يتشوّف إليه.

10

(1) ع : فيكون .

(1) كتاب غاية الحكيم ، وأحقّ التّيجتين بالتقديم، لمسلمة بن أحمد المريطي (- 395هـ/1005م) كتبه في التسمياء، ويتعلق بالأرواح العلوية واستئزال قواها للانتفاع بها. وقد ذكر الزركلي أنه مطبوع، فلم نوفق للعثور عليه. وكتب معه في الكيمياء "رتبة الحكيم" في معرفة الأرواح الأرضية وإخراج لطائفها للانتفاع بها. (مخطوط دار الكتب التونسية 999) انظر إ . شتوح : المخطوط 72 (128) .

وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء مَرَاءٍ عجيبةً ، واطَّلَغت بها على أمورٍ كنتُ
أَتَشَوِّفُ إليها من أخوالي . وليس ذلك بدليل على أَنَّ القَصْدَ إلى الرُّؤْيَا يُحْدِثُهَا ؛
وإنَّما هذه الحالومات تُحْدِثُ اسْتِغْدَادًا في النَّفْسِ لَوُقُوعِ الرُّؤْيَا ؛ فإذا قَوِيَ
الاستعدادُ كان أقربَ حُصُولِ ما يُسْتَعَدُّ له . وللشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ من الاستعداد
5 ما أَحَبُّ ، ولا يَكُونُ دليلاً على إيقاع المستعدِّ له . فالقُدْرَةُ على الاستعداد غيرُ
القُدْرَةِ على الشَّيْءِ ؛ فاعْلَمْ ذلك وتَدَبَّرْهُ فيما تَجِدُ من أمثاله . والله الحكيمُ
الخبيرُ .

2. فَضْلٌ :

ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ في النَّوعِ الْإِنْسَانِي أَشْخَاصاً يُخْبِرُونَ بالكائنات قبل وُقُوعِهَا ،
10 بطبيعةٍ فيهم يَتَمَيَّزُ فيها صِنْفُهُمْ عن سائرِ النَّاسِ ، ولا يَزْجَعُونَ في ذلك إلى صِنَاعَةٍ ،
ولا يَسْتَدِلُّونَ عليه بِأَثَرٍ من التَّجُومِ ولا غَيْرِهَا ؛ إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُمْ في ذلك بِمُقْتَضَى
فِطْرَتِهِم الَّتِي فَطَرُوا عَلَيْهَا ؛ وذلك مثل العَرَافِينَ ، والتَّائِظِينَ في الْأَجْسَامِ الشَّقَاقَةِ ؛
كالمَرَايَا وَطِسَاسِ الْمَاءِ ، والتَّائِظِينَ في قُلُوبِ الْحَيَوَانِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا ، وَأَهْلَ الرَّجْرِ
في الطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ ، وَأَهْلَ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى وَالْحُبُوبِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالنُّوَى . وهذه كُلُّهَا
15 موجودةٌ في عَالَمِ الْإِنْسَانِ ، لا يَسْعُ أَحَدٌ جَحْدُهَا ولا إنْكَارُهَا . وكذلك الْمَجَانِينُ ثَلَقُوا
على أَلْسِنَتِهِمْ كَلِمَاتٌ من الْغَيْبِ فيُخْبِرُونَ بِهَا . وكذلك التَّائِمُ ، وَالْمَيِّتُ لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أو
نَوْمِهِ يَتَكَلَّمُ بِالْغَيْبِ . وكذلك أَهْلُ الرِّيَاضَةِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكٌ في الْغَيْبِ على
سَبِيلِ الْكَرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ .

ونحن الآن نتكلم على هذه الإدراكات كلها ، ونبتديء منها بالكيهانة ، ثم تأتي عليها واحدة واحدة إلى آخرها . ونقدم على ذلك مقدمة ، في أن النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك / الغيب في جميع الأصناف التي ذكرناها . وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل ؛ وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله . وهذا أمر مُدْرَك لكل أحد . وكل ما بالقوة فله 5 مادة وصورة ؛ وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل . فهي توجد أولاً بالقوة مُستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشوؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن ، وما يعودها بؤرود مُدْرَكاته المُحسوسة عليها ، وما تنتزع هي من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور، مرة بعد أخرى ، حتى يحصل لها الإدراك والتعقل صورة بالفعل، فتتم ذاتها ، وتبقى النفس 10 كالهَيُولَى ، والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة . ولهذا نجد الصبي في أول نشوئه لا يقتدر على الإدراك الذي لها من ذاتها ، لا في نَوْم ولا بكشف ولا غيرها . وذلك لأن صورته التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل ، لم تتم بعد . بل لم يتم لها انتزاع الكليات . ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ، ما دامت مع 15 البدن ، نوعان من الإدراك: إدراك بالآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدئية، وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي مخجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وشواغلها ، لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني . وربما تنغمس عن الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة ، إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق ، مثل النوم ، أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر ،

مثل الكهانة والطَّرْق ، أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية. [فَتَلْتَفِتُ]^(أ)
حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى ، لما بين أُنْفِيقِها وأُفْقِهم من الاتصال في
الوجود كما قرَّره قبل . وتلك الذوات رُوحانيَّة ، وهي إدراكٌ مَخْض وعُقُول بالفِعْل ،
/ وفيها صُورُ الموجودات وحقائقها كما مرَّ؛ فيتجلَّى فيها شيءٌ من تلك الصُّور [73 ب]
5 وتُتَبَسُّسُ منها عِلْمًا ؛ وَرُبَّمَا دَفَعَتْ تلك الصُّور المَذْرُكَةُ إلى الخيال فتَصَرَّفُهُ في القوالب
المُعْتَادَةِ ، ثُمَّ تُرَاجِعُ الحِسَّ بما أدركتْ ، إمَّا مُجَرِّدًا أو في قوالبه ، فتُخْبِرُ به . هذا هو
شَرْحُ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لهذا الإدراك الغَيْبِيِّ .

ولنرجع إلى ما وَعَدْنَا به من بيان أَصْنَافِهِ : فَأَمَّا النَّاظِرُونَ في الأجسام
الشَّافَةِ مِنَ المَرَايَا وَالطَّنَسِاسِ والمِيَاهِ وَقُلُوبِ الحَيَوَانِ^(ب) وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا ، وَأَهْلُ
10 الطَّرْقِ بِالْحَصَى والنُّوَى ، فَكُلُّهُمْ من قَبِيلِ الكَهَّانِ . إِلَّا أَنَّهُمْ أضعَفُ رُتْبَةً فِيهِ في
أَصْلِ خَلْقِهِمْ ؛ لِأَنَّ الكَاهِنَ لَا يَخْتِاجُ في رَفْعِ حِجَابِ الحِسِّ إلى كَبِيرٍ^(ج) مُعَانَاةً ؛
وهؤلاء يُعَانُونَهُ بِانْحِصَارِ المَدَارِكِ الحِسِّيَّةِ كُلِّهَا في نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا ، وَأَشْرَفُهَا البَصَرُ ،
فَيَعْكُفُ به على المَزَيِّ البَسِيطِ حَتَّى يَتَّيَدُوا لَهُ مُذْرَكُهُ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْهُ . وَرُبَّمَا يُظَنُّ
أَنَّ مُشَاهَدَةَ هؤلاء لما يَرَوْنَهُ ، هُوَ في سَطْحِ المَرَاةِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . بَلْ لَا يَرَالُونَ
15 يَنْظُرُونَ في سَطْحِ المَرَاةِ إلى أَنَّ تَغِيبَ عَنِ البَصَرِ ، وَيَتَّيَدُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المَرَاةِ
حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ تَتِمَّتْ فِيهِ صُورٌ هِيَ [مُذْرَكَاتُهُمْ]^(د) ، فَتُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ فِيهَا
يَتَوَجَّهُونَ إلى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ ، فَيُخْبِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَدْرَكُوهُ . وَأَمَّا
المَرَاةُ وَمَا يُذْرِكُ فِيهَا مِنَ [الصُّورِ]^(هـ) فَلَا يُذْرِكُونَهُ في تِلْكَ الحَالِ ، وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا

(أ) ظ وحدها: فتلقت (ب) ج: الحيوانات (ج) ج: كبير (د) كذا في: ع ج ي، وفي ظ ل: مداركهم (هـ) من ل ج ع ي.

هذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفساني ليس من إدراك البصر ، بل يتشكّل به المذرك النفساني للحس كما هو معروف . ومثل ذلك يعرض للتأظرين في قلوب الحيوان وأكبادها ، وللتأظرين في الماء والطّساس ، وأمثال ذلك . وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحسّ بالبحور فقط ، ثمّ بالعزائم للاستعداد ، ثمّ يخبر عما أدرك . ويؤمنون أنهم يرون الصّور مُشخّصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجّهون إلى 5 إدراكه بالمثل والإشارة . وغيبه هؤلاء عن الحسّ أخفّ من الأولين ؛ والعالم أبو الغرائب .

[174]

وأما الزّجر ، وهو ما يحدث من بغض الناس / من التكلّم بالغيب عند سُوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه بعد مغيبه . وهي قوّة في النفس تبعث على الحدس والفكر فيما زجر فيه من مرّي أو مسموع . وتكون قوّته المتخيّلة كما قدّمنا 10 قويّة ، فيبعثها في البحث مُستعيناً بما رآه أو سمعه ، فيؤدّيه ذلك إلى إدراك ما ؛ كما تفعّله القوّة المتخيّلة في التّوم وعند زكود الحواسّ ، تتوسّطُ بين المحسوس المرّي في يقظته وتجمعه مع ما عقّله فيكون عنها الرّؤيا .

وأما المجانين ، فنفسهم الناطقة ضعيفة التعلّق بالبدن ، لفساد أمزجتهم غالباً 15 وضغف الروح الحيواني فيها ، فتكون نفسه غير مُستغرقة بالحواس ولا مُنغمسة فيها^(أ) بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومريضه ؛ وربّما زاحمها على التعلّق به روحانيّة أخرى شيطانيّة تشبّث به ، وتضعف هذه عن مُمانعتها ، فيكون عنه التخبّط . فإذا أصابه^(ب) ذلك التخبّط ، إمّا لفساد مزاجه من فساد النّفس في ذاتها ، أو لما زاحمه

(أ) سقط من ل (ب) ل: حصل له .

من النفوس الشيطانية في تعلقه، غاب عن جسده جملة، فأدرك لفحة من عالم نفسه، وانطبع فيها بعض الصور وصرفها الخيال؛ وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير إرادة النطق.

وإدراك هؤلاء كلهم مشوب في الحق بالباطل؛ لأنه لا يحصل لهم الاتصال، وإن فقدوا الحس، إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه. ومن ذلك يحيى الكذب في هذه المدارك.

وأما العرافون، فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال، فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه، ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك، ويدعون بذلك معرفة الغيب، وليس منه على الحقيقة.

هذا تحصيل هذه الأمور؛ وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب⁽¹⁾، فما صادف تحقيقاً ولا أصابه. ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف، / فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله.

[74 ب]

وهذه الإدراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر. فقد كان العرب يفتزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث، ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبيهم. وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك. واشتهر منهم في الجاهلية⁽¹⁾ شق من أنمار بن نزار، وسطيخ من مازن بن عسّان، وكان

(1) سقط ما بين النجمين من ل.

(1) مروج الذهب، الباب الحادي والخمسون، والثاني والخمسون 2 : 301-317.

يُذَرِّجُ كما يُذَرِّجُ الثَّوْبَ ولا عَظَمَ فيه إلا الجُمُجُمَةُ . ومن مَشْهُورِ الحِكاياتِ عنهما
تَأْوِيلُهَا رُؤْيَا رَبيعَةَ بنِ نَضْرٍ ، وما أَخْبَرَهُ به من مُلْكِ الحَبَشَةِ لِلْيَمَنِ ، ومُلْكِ مُضَرَ
من بَعْدِهِمْ ، وظُهورِ الثَّبَوَةِ المَحْمُودِيَّةِ في قُرَيْشٍ . وكذا رُؤْيَا المُوْبَذَّانِ الَّتِي أَوَّلُهَا
سَطِيحٌ لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ بِهَا كُنْزَى عِنْدَ المَسِيحِ ، فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ الثَّبَوَةِ وَخَرَابِ مُلْكِ
فَارِسٍ . وهذه كُلُّهَا مَشْهُورَةٌ .

5

وكذلك العَرَّافُونَ ، كان في العَرَبِ منهم كثيرٌ ، وذكرَهم في أشعارهم ،
فقال⁽¹⁾ : [من الطويل]

فَقُلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ دَاوِنِي فَإِنَّكَ إِن دَاوَيْتَنِي لَطِيبُ

وقال آخر⁽²⁾ : [من الطويل]

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِن هُمَا شَفَيَانِي
فَقَالَا : شَفَاكَ اللَّهُ ، وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَا حَمَلْتُ مِنْكَ الصُّلُوعُ يَدَانِي

10

وعَرَّافِ الْيَمَامَةِ هُوَ رِيَّاحُ بنِ عِجْلَةَ ؛ وَعَرَّافُ نَجْدٍ : الأَبْلَقُ الأَسَدِيُّ .

[ومن]⁽¹⁾ هذه المَدَارِكُ الغَيْبِيَّةُ ما يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ
والتَّبَاسُخِ بِالتَّوْمِ ، من الكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ
الْأَمْرِ كما يُرِيدُ . ولا يَقَعُ ذَلِكَ إِلَّا فِي مَبَادِيءِ التَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقْظَةِ وَذَهَابِ

15

(1) مقط من ظ .

(1) البيت لعروة بن حزام ، (الأغاني 84/24) ورواية اللسان (عرف) : فإنك إن أبرأتني

(2) هو عروة بن حزام أيضاً ، انظر الأغاني 84 : 24 .

الاختيار في الكلام ، فيتكلم كأنه مجبول على التطق ؛ وغايته أن يسمعه ويفهمه .

وكذلك يصدّر عن المقتولين عند مفارقة رؤوسهم وأوساط أبدانهم كلاماً بمثل ذلك .

ولقد بلغنا عن بغض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرّفوا من

كلامهم عند القتل / عواقب أمورهم في أنفسهم ، فأعلموهم بما يُستبشع . وذكر [175]

5 مَسْلَمَةٌ في كتاب الغاية له ، في مثل ذلك ، أن آدمياً إذا جُعل في دَنٍّ مملوءٍ بدُهن

السّفْسِمِ^(١) ومكث فيه أربعين يوماً يُغذّى بالّتين والجوز حتّى يذهب لحمه ولا يَبْقَى

منه^(ب) إلاّ العروقُ وشُؤُونُ رأسه ، فيُخرج من ذلك الدُّهن ، وحين يجفّ عليه الهواء

يُجيب عن كل شيء يُسأل عنه من عَوَاقِبِ الأمور الخاصّة والعامة . وهذا فعلٌ من

مناكير أفعال السّحرة . لكن تفهم منه عجائب العالم الإنساني .

10 ومن الناس من يُحاول حصولَ هذا المُدرك الغيبيّ بالريّاضة ؛ فيُحاولون

بالمُجاهدة موتاً صناعيّاً بإماتة جميع الثّوى البدنيّة ، ثمّ مخو آثارها التي تَلَوْنَتْ بها

النّفس ، وذلك يَحْصُلُ بجمع الفكر وكثرة الجوع . ومن المعلوم على القطع ، أنّه إذا

نزل الموتُ بالبدن ذهب الحسّ وحجابه ، واطلّعت النّفس على ذاتها وعالمها ،

فيُحاولون ذلك بالاكْتِسَاب ، ليقع لهم قبل الموت منه ما يقع بعد الموت ، وتطلّع

15 النّفس على المغيّبات .

ومن هؤلاء أهل الرّياضة السّحريّة ، يَرْتاضون بذلك ليحصل لهم

الاطّلاع على المغيّبات والتّصرّف في العوالم . وأكثر هؤلاء في الأقاليم المُتحرّفة

(١) ضبطها في ع الشّخْصِمْ بفتح الشّين المشددة بعدها ميم ساكنة وسين مفتوحة ، وهو من أساء الذّنب والثعلب ، وبالكسر :

الجلجلان (ب) ج: فيه .

جنوباً أو ⁽¹⁾ شمالاً وخصوصاً بلاد الهند . ويُسمَّون هنالك الجوكية ، ولهم كُتُب في كيفية هذه الرياضة كثيرة ، والأخبار عنهم في ذلك غريبة .

وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعريّة من هذه المقاصد المذمومة ؛ وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ، لتحصل أذواق العزفان والتوحيد ، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التَّغذية بالذكر، فيها تيمّ وجمتهم في هذه 5 الرياضة. [75 ب] لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت / أقرب إلى العزفان بالله؛ وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية. وحصول ما يحصل من معرفة الغيب أو التصرف لهؤلاء المتصوفة ، إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله؛ وإنما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب، وأخسر بها صفة، فإنها في الحقيقة شرك. قال بعضهم: من آثر العزفان للعزفان فقد 10 قال بالثاني. فهم يقصدون بوجهم المعبود لا لشيء سواه. وإن حصل أثناء ذلك ما يحصل بالعرض، وغير مقصود لهم. وكثير منهم يقرّ منه إذا حصل ^(ب) له ولا يخفى به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره، وحصول ذلك لهم معروف. ويُسمَّون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فِراسةً وكشفاً ، وما يقع لهم من التصرف كرامة ؛ وليس شيء من ذلك بتكثير في حقهم. وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحاق 15 الإسفرائيني، وأبو محمد ابن أبي زَيْد المالكي ⁽¹⁾، في آخرين، فراراً من التباس المعجزة

(1) ع : و (ب) في ع : عرض .

(1) كتب كتاب الكشف وكتاب الاستظهار - ولم يصلانا - في نقض كتاب عبد الرحمن الصقلي في خرق العادات. انظر المدارك 6: 219 .

بغيرها . والمعول عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدّي ، فهو كافٍ . وقد ثبت في الصحيح⁽¹⁾ أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنّ فيكم محدّثين وإنّ منهم عمر". وقد وقع للصّحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك، في مثل قول عمر رضي الله عنه⁽²⁾ :
يا سارية الجبل! وهو سارية بن زُئيم، كان قائدا على بغض جيوش المسلمين بالعراق
5 أيّام الفتوحات ، وتورّط مع المشركين في مُعتركٍ وهَمّ بالانهزام ، وكان بقربه جبلٌ
يتخيّر إليه، فزفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة ، فناداه: يا سارية
الجبل! وسمعه سارية بمكانه ورأى شخصه هنالك ، والقصة معروفة. ووقع مثله أيضاً
لأبي بكر في وصيّته عائشة ابنته [رضي الله عنها]⁽³⁾ في شأن ما نحلها / من أوسق
[176] الثمر من حديقته، ثم نهبها على جدّاه لتحوزّه عن الورثة، فقال في سياق كلامه:
10 وإنا أخوالك وأختالك؛ فقالت: إنا هي أسماء، فمن الأخرى؟ فقال: إنّ ذا بطن بنت
خارجة، أراها جارية؛ فكانت جارية. وقع في الموطأ⁽³⁾ في باب ما لا يجوز من
النخل. ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصّالحين وأهل الاقتداء. إلّا أنّ
المتصوّفة يقولون إنّهم يقيّلون في زمن النّبوة؛ إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النّبي؛ حتّى

(1) سقط من ظ .

(1) لم يرد في الصحيح بهذا اللفظ، وإنا جاء في صحيح مسلم (2398) من حديث عائشة أنّ النّبي ﷺ كان يقول: "قد كان يكون في الأمم قبلكم محدّثون، فإن يكن من أمّتي منهم أحد، فإنّ عمر بن الخطاب منهم". قال عبد الله بن وهب (راوي الحديث) : تفسير محدّثون، مُلهَمون .
ومثل هذا أخرجه الحميدي (253) وأحمد 6: 55 والترمذي (3693) .

(2) تاريخ الطبري 4: 178 ، 179 .

(3) الموطأ 2: 298 رقم 2189 برواية الليثي .

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ سُلِبَ حَالُهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يَفَارِقَهَا . وَاللَّهُ يَرْزُقُنَا الْهَدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى الْحَقِّ .

3. فَضْلٌ :

- وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرِيدِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بِهَالِيلٍ مَغْتَوَهُونَ ، أَشْبَهُ بِالْمَجَانِينِ مِنَ الْعُقَلَاءِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ الْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ الصَّدِيقِينَ ، وَعَلِمَ ذَلِكَ 5
مِنْ أَخْوَالِهِمْ مَنْ يَفْهَمُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ ، مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ . وَيَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ عَجَائِبُ ؛ [لَأَنَّهُمْ]^(أ) لَا يَتَّقَتِدُونَ بِشَيْءٍ ، فَيُطْلَقُونَ كَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ . وَرُبَّمَا يُنْكِرُ الْفُقَهَاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ ، لَمَّا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ ؛ وَالْوِلَايَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ . وَهُوَ غَلَطٌ ؛ فَإِنَّهُ ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ الْإِسْلَامَ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ ، مِنْ آيَةِ 54] ، وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ 10
الْوِلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرِهَا . وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ ثَابِتَةً الْوُجُودِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْصُهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ ؛ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَمْ تُغْدَمْ نَفْسُهُمُ النَّاطِقَةُ وَلَا فَسَدَتْ كَحَالِ الْمَجَانِينِ ؛ وَإِنَّمَا فَقَدَ لَهُمُ الْعَقْلَ الَّذِي يُنَاطُ بِهِ التَّكْلِيفُ ، وَهُوَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ ، وَهِيَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلإِنْسَانِ يَسْتَدُ^(ب) بِهَا نَظْرُهُ وَيَعْرِفُ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ [76 ب] وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ . وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ / لَمْ يَبْقَ لَهُ عُدْرٌ فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ 15
لِإِضْلَاحِ مَعَادِهِ . وَلَيْسَ مِنْ فَقَدِ هَذِهِ الصِّفَةِ بِفَاقِدٍ لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلٍ عَنْ حَقِيقَتِهِ ؛

(أ) سَطَطَ مِنْ ظ (ب) ي: يَسْتَبْدُ .

فيكون موجودَ الحقيقة، معدومَ العقل التَّكْلِيفِي الذي هو مَعْرِفَةُ المَعاش، ولا استحالة في ذلك؛ ولا يَتَوَقَّفُ اضْطِفاءُ الله عبادَه للمَعْرِفَةِ على شَيْءٍ من التَّكْلِيفِ. وإذا صَحَّ ذلك، فاعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَبِسُ حَالُ هؤلاء بالمجانين الذين تُفْسِدُ نفوسُهم النَّاطِقَةُ وَيَلْتَجِيقُونَ بالبَهائم . ولك في تَمْيِيزِهِم علاماتٌ؛ منها : أَنَّ هؤلاء البَهَائِلَ تَجِدُ لهم وَجْهَةً ما لا يَخْلُون عنها أَضْلاً من ذِكْرِ وِعْبَادَةٍ، لكن على غَيْرِ الشُّرُوطِ الشَّرْعِيَّةِ 5 لما قُلْنَاهُ من عَدَمِ التَّكْلِيفِ . والمجانين لا تَجِدُ لهم وَجْهَةً أَضْلاً ، ومنها أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ على البَلَاءِ من أَوَّلِ نُشُوءِهِمْ. والمجانين يَغْرِضُ لهم الجنونُ بَعْدَ بَرْهَةٍ من العُفْرِ لِعَوَارِضَ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ، فإذا عَرَضَ لهم ذلك وَفَسَدَتْ نفوسُهم النَّاطِقَةُ، ذَهَبُوا بِالْحَنِيَّةِ. ومنها كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، لأنَّهُمْ لا يَتَوَقَّفُونَ على إِذْنِ لَعَدَمِ التَّكْلِيفِ 10 في حَقِّهِمْ؛ والمجانين لا تَصَرَّفُ لهم .

وهذا فَضْلٌ انْتَهَى بنا الكلامُ إِلَيْهِ ؛ وَاللهُ المُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ.

4. فَضْلٌ:

وقد يَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ لِلْغَيْبِ من دُونِ غَيْبَةِ عَنِ الحِسِّ . فمنهم المُنْجَمُونَ القَائِلُونَ بِالْإِدْلالاتِ النُّجُومِيَّةِ وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْفَلَكِ ، وآثَارِهَا 15 فِي الْعَنَاصِرِ، وما يَخْضُلُ مِنَ الْاِمْتِزَاجِ بَيْنَ طَبَاعِهَا بِالتَّنَاضُرِ، ويتَأَدَّى من ذلك المِزَاجِ إِلَى الهَوَاءِ . وهؤلاءِ المُنْجَمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ ؛ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ حَذِيبِيَّةٌ وَتَحْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّأثيرِ النُّجُومِيِّ ، وَحُصُولِ المِزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ ، مع مَزِيدِ حَذِيسٍ

يَقِفُ بِهِ التَّائِظُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْلَمَيْوس⁽¹⁾ . وَنَحْنُ
نُبَيِّنُ بَطْلَانَ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ لَوْ ثَبَتَ فَعَايِنْتَهُ حَدْسٌ وَتَحْمِينٌ ،
وَلَيْسَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ .

- [177] وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ ، / اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ وَتَعَرَّفَ
الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةً سَمَّوْهَا خَطَّ الرَّمْلِ ، نِسْبَةً إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ⁽¹⁾ 5
وَمَخْصُولُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّهُمْ صَيَّرُوا مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ ، تَخْتَلِفُ
بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الزَّوْجِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ ، أَوْ^(ب) اسْتَوَائِهَا فِيهَا ، فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ
شَكْلًا ؛ لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ أَزْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا فَشَكْلَانِ ؛ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهَا مِنْ^(ج)
مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ ؛ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فِسِتَّةَ أَشْكَالٍ ؛ * وَإِنْ
كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ *^(د) . جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا ؛ مِيزُوهَا [كُلُّهَا]^(هـ) 10
بِأَسْمَائِهَا ، وَتَوَعُّوهَا إِلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ ، شَأْنِ الْكَوَاكِبِ ، وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتًا
طَبِيعِيَّةً بَرَزْغَمَهُمْ ، وَكَانَتْهَا الْبُرُوجُ الْاِثْنِي عَشَرَ الَّتِي لِلْفَلَكَ وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةِ ، وَجَعَلُوا
لِكُلِّ شَكْلٍ بَيْتًا وَخُطُوطًا^(و) وَدِلَالَةً عَلَى صِنْفٍ مِنَ عَالَمِ الْعُنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ ،
وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ فِتْنًا حَادِثًا بِهِ فَنَ النِّجَامَةِ وَنَوْعَ قَضَائِهِ . إِلَّا أَنَّ أَحْكَامَ النِّجَامَةِ
مُسْتَنْدَةً إِلَى أَوْضَاعٍ^(ز) طَبِيعِيَّةٍ كَمَا زَعَمَ بَطْلَمَيْوس⁽²⁾ ، وَهَذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنْدُهَا أَوْضَاعٌ^(ح) 15

(أ) كَذَا فِي: ظ ع ج ي، وَفِي ل: عَمَلُهُمْ، وَأَضْلَحْتُ فِي الْحَاشِيَةِ عَنْ نَسَخَةِ: صِنَاعَتِهِمْ (ب) ع: وَ (ج) ع: فِي (د) سَقَطَ
مَا بَيْنَ النَّجْمِينَ مِنْ ع (هـ) سَقَطَ مِنْ ع (و) ع ل: وَخُطُوطًا (ز) فِي ج ع: دِلَالَات (ح) كَذَا فِي ظ، وَفِي ع: إِنَّمَا
دِلَالَتِهَا وَضَعِيَّة. وَفِي ج أَضِيفَتْ حَاشِيَةٌ بِخَطِّ رُقْعَةٍ مُتَأَخَّرٍ؛ تَشْمَلُ السَّقَطَ التَّالِيَ الَّذِي أَفْرَدَتْ بِهِ ع .

(1) و(2) لَمْ نَحْدَدْ مَصْدَرَ التَّقِلِّ .

* تحكّية وأهواء ثقافية، ولا دليل يقوم على شيء منها*^(أ) . ^(ب) [وذلك أن بطلميوس إنما تكلم في المواليد والقرانات التي هي عنده من آثار الكواكب والأوضاع الفلكية في عالم العناصر، وتكلم المنجمون من بعده في المسائل باستخراج الضمائر وتقسيمها على يوت الفلك، والحكم عليها بأحكام ذلك البيت النجومية، وهي التي ذكر بطلميوس . 5

واعلم أن الضمائر أمور نفسية ليست من عالم العناصر، فليست من آثار الكواكب ولا الأوضاع الفلكية، ولا دلالة لها عليها، نعم، إنه صار لفن المسائل مدخل في صناعة النجامة من حيث الاستدلال بالكواكب والأوضاع، إلا أنه في غير مذكوله الطبيعي، فلما جاء أهل الخط، عدلوا عن الكواكب والأوضاع، استضعاباً لمعاناة الارتفاع بالآلات، وتعديل الكواكب بالحسبان؛ واستخرجوا هذه الأشكال الخطية وفرضوها ستة عشر بيتاً من يوت الفلك وأوتاديه، وتوعوها إلى سغدي ونحس وممترج، شأن الكواكب السيارة، واقتصروا على التأسيس من المناظرة، ونزلوا الأحكام النجومية عليها كما في المسائل، لأن دلالة كل منها غير طبيعية كما قدّمناه . 10

15 واتحل هذه الصناعة كثير من البطالين للمعاش في المدن، وصنقوا فيها التصانيف المحصلة لقواعدها وأصولها، كما فعله الزناتي منهم وغيره . وقد يكون من أهل هذه الصناعة من يتعرّض بها لإدراك الغيب، بإشغال الحس بالنظر في أشكال

(أ) سقط من ع (ب) زيادة افردت بها نسخة ع .

تلك الخطوط، فتغتربه حالة الاستعداد كما يغتري المفطورين على ذلك، كما تذكره
 بعد، وهؤلاء أشرف أهل هذه الصناعة، وهم على الجملة^(أ) يزعمون أن أصل ذلك
 من النبوات القديمة في العالم، وربما نسبوها إلى دانيال أو^(ب) إدريس صلوات الله
 عليهما، شأن الصنائع كلها، وربما يدعون مشروعيتها، ويحتجون^(ج) بقوله ﷺ^(د) :
 "كان نبي يخط، فمن وافق خطه فذاك". وليس في الحديث دليل على مشروعية
 5 خط الزمل كما يزعمه بعض^(هـ) من لا تحصيل لديه؛ لأن معنى الحديث: "كان
 نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك [الخط]"^(و)؛ ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة
 لبعض الأنبياء،^(ز) [فإنهم صلوات الله عليهم متفاوتون في إدراك الوحي]. قال الله
 تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية 253] فمنهم من
 10 يأتيه الوحي ويكلمه الملك ابتداءً من غير طلب ولا وجهة لذلك، ومنهم من يتوجه
 فيما يعرض له من أمور البشر سؤال أمته عن مشكل أو تكليف أو نحو ذلك،
 فيتوجه وجهة ربانية يتعرض بها لكشف ما يريد من ذلك من الله، ويعطي التقسيم
 هنا قسمًا آخر إن وجد، لأن الوحي قد يكون وهو لا يستعيد له بشيء من
 الأحوال، كالذي ذكرناه. وقد يكون وهو مستعد ببعض الأحوال، كما نقل في
 15 الإسرائيليات^(ح) أن بعض الأنبياء كان يستعد لنزول الوحي بسماع الأصوات الطيبة
 الملحنة، وهذا النقل وإن لم يكن متمكنًا في الصحة^(د) إلا أنه غير بعيد. فالله تعالى

(أ) انتهى النص الذي انفردت به نسخة ع (ب) ع ج ي: أو إلى (ج) ع: ويحتجون لذلك (د) ع: بعضهم لأن معنى... (هـ) سقط
 من ظ (و) نقص انفردت بإثباته نسخة ع (ز) رسمت في ع: الإسرائيليات (ح) كلمة مدججة الحروف، وقراءتها تقريبيه.

(1) أخرجه مسلم (537)، وتفسيره في شرح الأبي لمسلم 2: 436.

يَخْتَصُّ أَنْبِيَاءُهُ وَرُسُلُهُ بِمَا يَشَاءُ . وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ ، وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ فِي أَصْحَابِ خَطِّ
الزَّمَلِ مَنْ يَتَعَرَّضُ لِلْكَشْفِ بِهِ بِإِشْغَالِ الْحِسِّ بِالنَّظَرِ فِي تِلْكَ الْخُطُوطِ
وَالْأَشْكَالِ ، فَيَغْتَرِيهِ حِينَئِذٍ الْإِدْرَاكُ الْغَيْبِيُّ الْوَجْدَانِيُّ بِالتَّقَرُّغِ عَنِ الْحِسِّ جُمْلَةً ،
ويفارقُ المداركَ البشريَّةَ إلى المداركِ الروحانيَّةِ ، وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُهُمَا ، وَهَذَا مِنْ
5 الكِهَانَةِ ، مِنْ تَوَعُّدِ النَّظَرِ فِي الْعِظَامِ وَالْمِيَاهِ وَالْمَرَايَا ، بِخِلَافِ مَنْ يَتَّقَصِّرُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا
عَلَى الْأَمْرِ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي يَحْضُلُ بِهِ عَلَى الْغَيْبِ بِالْحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ ، وَهُوَ لَمْ
يُفَارِقِ الْمَدَارِكَ الْجِسْمَانِيَّةَ بَعْدَ ، جَائِلًا فِي مَرَامِي الظُّنُونِ . فَقَدْ يَكُونُ شَأْنُ
بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ الْإِسْتِعْدَادَ بِالْخَطِّ فِي مَقَامِهِ النَّبَوِيِّ لِحَطَابِ الْمَلِكِ ، كَمَا يَسْتَعِدُّ بِهِ مَنْ
لَيْسَ بَنِيًّا لِلْإِدْرَاكِ الرَّوْحَانِيِّ ، وَمَفَارِقَةُ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّ إِدْرَاكَهُ رُوحَانِيًّا
10 فَقَطْ ، وَإِدْرَاكُ النَّبِيِّ مُلْكِيٌّ بِالْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [وَأَمَّا مَقَامَاتُ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْخَطِّ
فِي مَدَارِكِ الْحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ ، فَخَاشٌ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْهَا ، فَإِنَّهُمْ لَا يُشْرَعُونَ التَّكَلَّمَ
بِالْغَيْبِ وَلَا الْخَوْضَ فِيهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ . وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ]^(١) : فَمَنْ وَافَقَ خَطَّ
ذَلِكَ النَّبِيِّ فَهُوَ ذَلِكَ^(ب) ، أَيُّ فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيِّنِ الْخَطِّ بِمَا عَصَّدَهُ مِنَ الْوَحْيِ لِذَلِكَ
النَّبِيِّ الَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ عِنْدَ الْخَطِّ . [أَوْ تَكُونُ الْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى
15 تَعْظِيمِهِ وَعُلُوِّ شَأْنِهِ فِي اتِّخَاذِ خُطُوطِ الزَّمَلِ ، بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِذَا كَانَ
عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ يَسْتَعِدُّ بِهِ لِلْوَحْيِ ، فَيَأْتِي عَلَى وَفَاقِهِ]^(١) .
/ وَأَمَّا إِذَا أُخِذَ ذَلِكَ عَنِ الْخَطِّ بِمَجْرَدَا عَنْ غَيْرِ مُوَافَقَةٍ وَحْيٍ فَلَا [صِحَّةٌ فِيهِ]^(ج) .
وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

[77 ب]

(١) من ع وحدها (ب) ع ل ج ي: ذاك (ج) من ع .

اوليس فيه دلالة على مشروعية خط الرمل ولا جواز انتحاله لتعرف الغيب ، كما هو شأن أهله في المدن ، وإن مال إلى ذلك بعضهم ، بناء على أن فعل النبي شريعة متبعة ، فيكون مشروعاً على مذهب من يرى أن شرع من قبلنا شرع لنا ، وليس هذا بمطابق لذاك ، فإن الشرع إنما هو للرسل المرشحين للأمم ، والحديث لم يدل على ذلك ، وإنما دلّ على أن هذه الحالة قد تحصل لبعض الأنبياء ، 5 ويحتمل أن يكون غير مشروع ، فلا يكون ذلك شرعاً لا خاصاً بأئمة ولا عاماً لهم ولغيرهم ، وإنما يدل على أنها حالة تقع لبعض الأنبياء خاصة به فلا تعداه للبشر ، وهذا آخر ما أردنا تحقيقه هنا ، والله المُلهم للصواب⁽¹⁾ .

فإذا أرادوا استخراج مغيّب بزعمهم ، عمدوا إلى قِزطاس أو رمل أو دقيق ، فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربع ، ثم كرّروا ذلك أربع مرّات ، فتجيء 10 ستة عشر سطرًا . ثم يطرحون النقط أزواجاً ، ويضعون ما بقي من كل سطر زوجاً كان أو فرداً في مرتبته على الترتيب ، فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطر مُتتالية؛ ثم يُولّدون منها أربعة أشكالٍ أخرى من جانب العُرض ، باعتبار كل مرتبة وما قبلها من الشكل الذي بإزائه وما يجتمع فيها من زوج أو فرد ، فتكون ثمانية أشكالٍ موضوعة في سطر؛ ثم يُولّدون من كل شكلين شكلاً تحتها ، 15 باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد ، فتكون أربعة أخرى تحتها؛ ثم يُولّدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها؛ ثم من الشكلين شكلاً كذلك تحتها^(ب)؛ ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلاً

(1) زيادة من ع وحدها (ب) ع: تحتها .

يكون آخر الستة عشر. ثم يحكمون على الخطّ كلّهما اقتضته أشكاله من السُعودة
والثّحوسة بالذّات، والنظر والحلول والامتزاج والدّلالة على أضاف الموجودات،
وسائر ذلك ، تحكّماً غريباً .

5 وكثرت هذه الصّناعة في العُمران، ووُضِعَتْ فيها التّواليُف، واشتهر فيها
الأعلامُ من المتقدّمين والمتأخّرين ؛ وهي كما رأيت تحكُّم وهوى . والتّحقيق الذي
ينبغي أن يكون نُصِبَ فِكْرُك، أنّ الغيوبَ لا تُدْرِك بصناعة البتّة ، ولا سبيل إلى
تعرّفها إلّا للخواصّ من البشّر ، المَفْطُورين على الرّجوع عن عالم الحِسّ إلى عالم
الروح . ولذلك يُسمّى المنجمون هذا الصّنف كلّهم بالزّهريّين ، نسبةً إلى ما تقتضيه
دلالة الزّهرة برغمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب . فالخطّ وغيره من هذه
10 إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصّيّة، وقصد⁽¹⁾ بهذه الأمور التي ينظر فيها من
النّقط والعظام أو غيرها / إشغال الحِسّ لتزجّع النّفس إلى عالم الرّوحانيّات لحظةً،
فهو من باب الطّرق بالحصّى والنّظر في قلوب الحيوانات^(ب)، والمرآيا الشّفاقة كما
ذكرناه . وإن لم يكن كذلك ، وإنّا قصّدَ مَعْرِفَةَ المغيّب بهذه الصّناعة ، فهذّر من
القول والعمل . والله يَهْدِي من يشاء .

15 والعلامةُ لهذه الفِطْرة التي فُطِرَ عليها أهلُ هذا الإدراك الغيبيّ ، أنّهم عند
توجّههم إلى تعرّف الكائنات، يَغْتَرِبُهم خُروجُ عن حالتهم الطّبيعيّة، كالتّشاؤُب والتّمطُّط
ومباديء الغيبيّة عن الحِسّ ، ويختلف ذلك بالقوّة والضعف على اختلاف وجودها

(1) ع : وقضه (ب) في ط ج ي : وغيرها لما أسلفنا .

فيهم . فمن لم تُوجَد له هذه العلامة فلنيس من إدراك الغيب في شيء ؛ وإنما هو
ساعٍ في تنفيق كذبه .

5. فَضْلٌ :

ومنهم طوائف يَصْعَوْنَ قَوَانِينَ لاستِخْراج الغيب، ليست من الطُّور الأول
الذي هو من مدارك النفس الروحانيّة، ولا من الحدس المبنيّ على تأثيرات النجوم 5
كما زعمه بطلميوس⁽¹⁾، ولا من الظنّ والتّخمين الذي يُحاول عليه العرّافون؛ وإنما هو
مغالطٌ يجعلونها كالمصائد لأهل العقول المُستضعفة. ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره
المُصنّفون وولّع به الخواص .

فمن تلك القوانين، الحسابُ الذي يُسمّونه حساب النيم، وهو مذكورٌ في
آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو⁽²⁾، يُعرّف به الغالبُ من المغلوب في 10
المتحاربين من الملوك . وهو أن تُحسب الحروفُ التي في اسم أحدهما بحساب الجُمْلِ
المُصطلح عليه في حروف أبجد، من الواحد إلى الألف، آحاداً وعشرات ومئتين
وألفاً. فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عددٌ، فاحسب اسم الآخر كذلك، ثم
اطرح من⁽¹⁾ كلّ واحدٍ منها تسعة تسعة، واحفظ بقيّة هذا وبقيّة هذا، ثم انظر بين

(1) سقط من ع .

(1) لم نصل إلى تعيين مأخذ ابن خلدون من بطلميوس .
(2) لم نقف عليه في القسم المطبوع من السياسة العامية .

العددين الباقيين من حساب الـ ١٠٠ ، فإن كانا مختلفين في الكمية ، وكانا معاً زوجين أو فردين ، فصاحب الأقل منهما هو الغالب؛ وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً ، فصاحب الأكثر هو الغالب ، وإن كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجان ، فالمطلوب هو الغالب ، وإن كانا معاً فردين / فالطالب هو الغالب. ونقل هنالك [78 ب] 5 يثبت في هذا العمل اشتهاً بين الناس ، وهما⁽¹⁾ : [من الطويل]

أرى الزوج والأفراد⁽¹⁾ ينمو أقلها وأكثرها عند التخالف غالب ويغلب مطلوب إذا الزوج يستوي وعند استواء الفرد يغلب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما تبقى من الحروف بعد طرحها بتسعة ، قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة. وذلك بأن يجمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الأربعة ، وهي : أ الدالة على الواحد ؛ و ي الدالة على العشرة ، وهي واحد في مرتبة العشرات ؛ و ق الدالة على المائة ، لأنها واحد في مرتبة المئين ؛ و (ش)^(ب) الدالة على الألف ، [وهي]^(ج) واحد في مرتبة الآلاف ؛ وليس بعد الألف عدد يدلّ عليه بالحروف ، لأنّ الشين^(د) هي آخر حروف أبجد . ثم رتبوا هذه الحروف الأربعة على نسق المراتب ، فكان منها كلمة رابعة وهي أيقش^(هـ) . ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث ، وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر 15

(أ) كذا في ع بفتح الهزة ، ولعلها : الأفراد (ب) ل: غ وهي رقم الألف في ترتيب المشاركة لحساب الجمل ، وقد عدلت عن حرف الشين المكتوب في الأصل (ج) سقط من ظ (د) من ي ظ ع ل وفي ج: غ ويذكر بعدها: لأن الغين هي آخر الحروف ، وقبلها يذكر الشين الدالة على الألف! (هـ) ل: أيقع عدلت عن الأصل : أيقش .

(1) لم نعرف قائلها .

حُرُوفُ أَجَبَدَ ، وكان مَجْمُوعُ حُرُوفِ الاثْنَيْنِ في المَرَاتِبِ^(أ) ثلاثة حُرُوفَ ، وهي ب[في ذلك]^(ب) الدَّالَّةُ على الاثْنَيْنِ في الآحاد ؛ و ك الدَّالَّةُ على اثنَيْنِ في العَشْرَاتِ ، وهي عشرون ؛ و ر الدَّالَّةُ على اثنَيْنِ في المِائِنِ ، وهي مائتان ؛ وَصَيَّرُوهَا كَلِمَةً واحدةً ثلاثِيَّةً على نسقِ المراتبِ ، وهي بَكَزَ . ثم فعلوا كذلك في الحُرُوفِ الدَّالَّةُ على ثلاثة ، فنَشَأَتْ عنها كَلِمَةٌ جَلَسَ . وكذلك إلى آخر حُرُوفِ أَجَبَدَ . وصارت تسع كلماتٍ نِهَايةً 5 عَدَدِ الآحادِ ، وهي: أَيْقَشَ^(ج)؛ بَكَزَ؛ جَلَسَ؛ دَمَتَ؛ هَنْتَ؛ وَصَحَ؛ [زَعَدُ]^(د)؛ حَفَظَ؛ طَضَعُ؛ مَرْتَبَةً على توالي الأَعْدَادِ ، ولكلِّ كَلِمَةٍ منها عَدْدُهَا الَّذِي في مَرْتَبَتِهِ: فالواحد لكَلِمَةٌ أَيْقَشَ؛ والاثنانِ لِكَلِمَةٍ بَكَزَ؛ والثلاثة لِكَلِمَةٍ جَلَسَ؛ وكذلك إلى التَّاسِعَةِ الَّتِي هي طَضَعُ ، فتكون لها التَّسْعَةُ . فإذا أرادوا طَرَحَ الاسمِ بتسعة ، نظروا كلَّ حرفٍ منه في أيِّ كَلِمَةٍ هو من هذه الكلماتِ ، وأخذوا عَدَدَهَا مكانَهُ ، ثم يَجْمَعُونَ الأَعْدَادَ 10 الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بدلاً من حُرُوفِ الاسمِ ، / فإن كانت زائدةً على التَّسْعَةِ أخذوا ما فَضَلَ عنها ، وإلاَّ أخذوه كما هُوَ ؛ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كذلك بالاسمِ الآخرِ ، وَيَنْظُرُونَ بين الخارجَيْنِ بما^(هـ) قَدَّمَناه . والسِّرُّ في هذا القانونِ بَيِّنٌ ؛ وذلك أَنَّ الباقيَ في كلِّ عَقْدٍ من عُقُودِ الأَعْدَادِ بِطَرَحِ تِسْعَةٍ إِنَّمَا هو وَاحِدٌ ؛ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ العُقُودِ خَاصَّةً من كلِّ مَرْتَبَةٍ؛ فصارت أَعْدَادُ العُقُودِ كُلُّهَا كَأَنَّهَا آحادٌ ، فلا فَرْقَ بين الاثْنَيْنِ أو 15 العِشْرَيْنِ أو المِائَتَيْنِ أو الأَلْفَيْنِ ، وَكُلُّهَا اثنانِ ؛ وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة آلاف كُلُّهَا ثلاثة . فَوُضِعَتْ الأَعْدَادُ على التَّوَالِي دَالَّةً على أَعْدَادِ العُقُودِ لا غَيْرَ؛ وَجُعِلَتْ الحُرُوفُ الدَّالَّةُ على أَصْنَافِ العُقُودِ في كلِّ كَلِمَةٍ من الآحادِ والعَشْرَاتِ

(أ) سقط من: ل ع ي ج (ب) سقط من ط (ج) ل: أيقع بكتابة الغين بعد أن كانت في الأصل شيئاً وشكل الكلمات التسع من نسخ: ع ل ج (د) كذا في الأصول وفي ط زغد (هـ) ل: كما .

والمئين والألوف؛ وصارَ عددُ الكلمةِ الموضوعِ عليها نائباً عن كلِّ حَرْفٍ فيها ، سواءً دَلَّ على الآحاد أو العشرات أو المئين أو الآلاف ، فيؤخذ عددُ كلِّ كلمةٍ عَوْضاً من الحُرُوفِ الَّتِي فيها؛ وتُجمعُ كُلُّها إلى آخِرِها كما قلناه. هذا هو العملُ المتداولُ بين الناسِ فيها منذ الأمرِ القديم .

5 وكان بعضُ من لَقيناهُ من شيوخنا يَرَوْنَ أَنَّ الصَّحِيحَ فيها كلماتٌ أخرى تِسْعَةٌ مكانَ هذه، ومُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيهَا ، وَيَفْعَلُونَ بها في الطَّرْحِ بتسعةٍ مثلَ ما يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سَوَاءً؛ وهي هذه : أَرَبْ؛ يَسْقُكْ؛ جَزَلَطْ؛ مَدُوضْ؛ هَفْ؛ تَحْدُنْ؛ غَشْ؛ خَغْ؛ تَضَطْ؛ تسعُ كلماتٍ على تَوَالِي العَدَدِ، فيها الثَّلَاثِيّ والرَّباعِيّ والثَّنَائِيّ، وليست جاريةً على أَضَلِّ مطَرِدٍ كما تَراه. لكن كان شيوخنا يَتَقَلَّبُونَهَا عن شَيْخِ المَغْرِبِ في هذه 10 هذه المعارفِ، من التَّجَامَةِ والسِّمَاءِ وأَسْرَارِ الحُرُوفِ، وهو أبو العباسِ ابنُ البَتَّاءِ، ويقولون عنه: إِنَّ العملَ بهذه الكلماتِ في طَرَحِ حِسَابِ النِّيمِ أَصَحُّ من العملِ بكلماتِ أَيْقَشْ؛ فاللهُ أَعْلَمُ كيف ذلك .

وهذه كُلُّها مدارِكٌ للغَيْبِ غيرُ مُسْتَنَدَةٍ إلى بَرْهَانٍ ولا تَحْقِيقٍ. والكتابُ الَّذِي وَجَدَ فيه حِسَابُ النِّيمِ غيرُ مَعْرُوفٍ إلى أَرِسْطُو عندَ المَحْقِقِينَ، / لما فيه من الآراءِ [79 ب] 15 البَعِيدَةِ عن التَّحْقِيقِ، والبَرْهَانُ يَشْهَدُ لكَ بِذلك، فَتَصَفِّحْهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الرُّسُوخِ.

ومن هذه القَوَانِينِ الصَّنَاعِيَّةِ لاسْتِخْرَاجِ الغُيُوبِ فيما يَزْعُمُونَ، الزَّائِرُجَةُ المَسْمُوءَةُ بِزَائِرُجَةٍ⁽¹⁾ العَالِمِ، المَعْرُوفَةُ إلى أَبِي العَبَّاسِ السَّنْبُغِيِّ، من أَعْلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ

(1) كذا في ظ، وفي بقية الأصول: زائرجة .

بالمغرب. كان في آخر المائة السادسة بمراكش، ولعهد يعقوب المنصور، من ملوك
الموحدين . وهي غريبة العمل صنيعة. وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها
بعملها⁽¹⁾ المعروف الملقب ، فيحرصون لذلك على حل رمزه وكشف غامضه .

- وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها، دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية،
منها للأفلاك وللعناصر وللمكونات وللروحانيات ولغير ذلك من أصناف الكائنات 5
والعلوم. وكل دائرة مقسومة بأقسام فللكها : إما البروج، وإما العناصر، أو غيرها.
وخطوط كل قسم مارة إلى المركز، ويسمونها الأوتار. وعلى كل وتر حروف متتابعة
موضوعة ، فمنها يرشوم الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحسبان
بالمغرب لهذا العهد، ومنها يرشوم الغبار* المتعارفة، وفي داخل الزايزة، وبين الدوائر،
أسماء العلوم ومواضع الأكوان*^(ب) ، وعلى ظهر الدوائر جدول متكرر البيوت 10
المتقاطعة طولاً وعرضاً، يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً في العرض، ومائة وإحدى
وثلاثين في الطول ، جوانب منه معمورة البيوت ، تارة بالعدد، وأخرى بالحروف؛
وجوانب خالية البيوت . ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ، ولا القسمة التي
عينت البيوت العائرة من الحالية . وحفا في الزايزة أبيات من عروض الطويل على
روي اللام المنصوبة ، تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك 15
الزايزة ، إلا أنها من قبيل الألباز في عدم الوضوح والجلال . وفي بعض جوانب
الزايزة بيت من الشعر، منسوب لبغض أكابر أهل الحدثان بالمغرب، وهو مالك
ابن وهيب من علماء أهل إشبيلية، كان في الدولة اللمّوتية، ونص البيت: [من الطويل]

[180]

(1) في ج ل: بعلمها (ب) سقط ما بين النجمين من ي .

سؤال عظيم الخلق حُزِتْ فَصُنْ إِذَنْ غرائب شك ضبطه الجِدُّ مُثَلًّا⁽¹⁾

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايضة وغيرها . فإذا أرادوا استخراج الجواب عما يُسأل عنه من المسائل ، كتبوا ذلك السؤال وقطعوه حروفاً ، ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك 5 ودَرجها ، وعمدوا إلى الزايضة ، ثم إلى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع من أوله ماراً إلى المركز ، ثم إلى محيط الدائرة قبالة الطالع . فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من أوله إلى آخره ، والأعداد المرسومة⁽¹⁾ بينها ، ويصيرونها حروفاً بحساب الجمل . وقد يتقلون آحادها إلى العشرات ، وعشراتهما إلى المئين ، وبالعكس فيها ، كما يقتضيه قانون العمل عندهم ، ويضعونها مع حروف السؤال ، ويضيفون إلى ذلك 10 جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف والأعداد ، من أوله إلى المركز فقط ، لا يتجاوزونه إلى المحيط ؛ ويفعلون بالأعداد ما فعلوه بالأولى ، ويضيفونها إلى الحروف الأخرى . ثم يقطعون حروف البيت الذي هو أضل العمل وقانونه عندهم ، وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم الذكر ؛ ويضعونها ناحية ، ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج ، وأسه عندهم هو بُعد البرج 15 عن آخر المراتب ، عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب ؛ فإنه عندهم البُعد عن أول المراتب ، ثم يضربونه في عدد آخر يُسمونه الأس الأكبر والدور

(1) ع ل : المرسومة .

(1) يذكره البوني بقوله : أما حروف القطب 44 فيجمعها هذا البيت ، وهو الوتر . (شمس المعارف الكبرى

الأصلى . ويدخلون [ما] يجتمع⁽¹⁾ لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين مغروفة
 [80 ب] وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ، / ويستخرجون منها حروفاً ويسقطون أخرى ،
 ويقابلون بما معهم في حروف البئت. وينقلون منه ما ينقلون إلى حروف السؤال
 وما معها ، ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الأدوار ؛ ويخرجون
 في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور ؛ ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة 5
 عندهم لذلك . فيخرج آخرها حروف متقطعة ، وتؤلف على التوالي فتصير كلمات
 منظومة في بيت واحد على وزن البئت الذي يقابل به العمل وزويته، وهو بيت
 مالك بن وهيب المتقدم ، حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل
 بهذه الزايرة .

10 وقد رأينا كثيراً من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك
 الأعمال ، ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب ،
 دليل على مطابقة الواقع . وليس ذلك بصحيح ؛ لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك
 بأمر صناعي البتة ؛ وإنما المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الإفهام
 والتوافق في الخطاب ، حتى يكون الجواب مستقيماً وموافقاً للسؤال . ووقوع
 15 ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار ، والدخول في
 الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة ، واستخراج الحروف من
 الجدول بذلك ، وإطراح أخرى ، ومعاودة ذلك في الأدوار المعدودة ، ومقابلة ذلك
 كله بحروف البئت على التوالي ، غير مستنكر . وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء

(1) من ل . وفي بقية النسخ : بما .

على تناسُبِ بَيْنَ هذه الأشياءِ ، فيقعُ له معرفةُ المجهولِ منها . فالتناسبُ بَيْنَ الأشياءِ ، هو سِرُّ الحصولِ على المجهولِ من المعلومِ الحاصلِ للنفسِ ، وطريقُ الحصولِ ، سِيما من أهلِ الرِّياضةِ ، فإنَّها تُفيدُ العقلَ قُوَّةً على القياسِ وزيادةً في الفكرِ . وقد مرَّ لك تعليلُ ذلك غيرَ مرَّةٍ .

- 5 ومن أجل هذا المعنى ، ينسبون هذه الزَّايِرةَ / في الغالبِ لأهلِ الرِّياضةِ ؛ ⁽¹⁸¹⁾ فهذه منسوبةٌ للسَّنْبَتِي ، ووقفتُ على أُخرى منسوبةٍ لسهلِ بن عبدِ الله ، ولعمري إنّها من الأعمالِ الغريبةِ والمُعَاياةِ العجيبةِ . والجوابُ الَّذي يُخرجُ منها ؛ فالسِرُّ في خروجه منظوماً ، فيما يَظْهَرُ لي ، إنّما هو المقابلةُ بحروفِ ذلك البَيْتِ . ولهذا يكونُ التَّنْظِمُ على وَزْنِهِ وَرَوِيَّةٍ . ويدلُّ عليه ، أنّا وَجَدنا أعمالاً أُخرى لهم في مثل ذلك ، 10 أسقطوا فيه المقابلةَ بالبَيْتِ ، فلم يُخرجِ الجوابُ منظوماً كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه .

- وكثيرٌ من النَّاسِ تضيقُ مَدَارِكُهُم عن التصديقِ بهذا العملِ وثقودهِ إلى المطلوبِ ، فينكُرُ صِحَّتَها ويَحْسِبُ أنّها من التَّخْييلاتِ والإيهاماتِ ، وأنَّ صاحبَ العملِ بها يَبُتُّ حروفَ البَيْتِ الَّذي يَنْظُمُه كما يُريدُ بينَ أثناءِ حروفِ السُّؤالِ والأوتارِ ، 15 ويُفَعِّلُ تلكَ الصَّناعةَ على غيرِ نِسْبَةٍ ولا قانونٍ ، ثمَّ يَحْيِيءُ بالبَيْتِ ويؤهِمُ أنّ العملَ جاء به على طريقةٍ مُنضِبَةٍ . وهذا الحِسبانُ توهمٌ فاسدٌ حملَ عليه القُصورُ عن فَهْمِ التَّناسُبِ بينَ الموجوداتِ والمعلوماتِ ، والتفاوتِ بينَ المداركِ والعقولِ ؛ ولكن من شأنِ كُلِّ مُدْرِكٍ أن يُنكَرَ ما ليسَ في طَوْقِهِ إدراكُهُ . ويكفيُنا في ردِّ ذلك

مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحُدس القطعي ؛ بأنها جاءت بِعَمَلٍ مُطَرِّدٍ وقانون صحيح ، ولا مِرْيَةَ فيه عند من يُباشِر ذلك مَن له مَزِيدُ ذكاءٍ وحَدِسٍ . وإذا كان كثيرٌ من المُعايَاة في العَدَد الَّذِي هو أوضحُ الواضحات ، يَعُسِرُ على الفَهم إدراكه ، لِبُعْدِ النسبة فيه وخَفَائِها ، فما ظنُّكَ بِمثل هذا مع خَفَاءِ النسبة فيه وغَرَابَتِها . فَلتَذَكِّرْ مسألةً من المُعايَاة يَتَضَحُّ لك بِها شيءٌ مَّا ذَكَرْنَاهُ ، مثاله : لو قِيلَ لك خُذْ عَدَدًا من الدِّراهم ، 5 واجْعَلْ بِإِزاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً من الفُلُوسِ ؛ ثم اِجْمَعْ الفُلُوسَ الَّتِي أَخَذْتَ واشْتَرِ بِها طَائِرًا ، ثم اشْتَرِ بِالدِّراهم كُلِّها طَيورًا بِسِغَرِ ذَلِكَ الطَّائِرِ ، / فَكَمْ الطُّيُورُ الْمُشْتَرَاةُ ؟ [81 ب]

فجوابه أن تقولَ هي تِسْعَةٌ ، لأنَّكَ تَعْلَمُ أن فُلُوسَ الدِّرْهَمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ ، وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ ثُمْنُهَا ؛ وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ ثَمَانِيَةٌ . فَكَأَنَّكَ جَمَعْتَ الثُّمْنِ مِنْ كُلِّ دِرْهَمٍ إِلَى الثُّمْنِ مِنَ الْآخِرِ ، فَكَانَ كُلُّهُ ثَمْنِ طَائِرٍ ، [فَفي] ⁽¹⁾ ثَمَانِيَةَ طُّيُورٍ عِدَّةُ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ . وَتَزِيدُ 10 عَلَى الثَّمَانِيَةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ الْمُشْتَرَى بِالْفُلُوسِ الْمَأْخُوذَةِ أَوَّلًا ، وَعَلَى سِغَرِهِ اشْتَرَيْتَ بِالدِّراهم ؛ فَتَكُونُ تِسْعَةٌ . فَأَنْتِ تَرَى كَيْفَ خَرَجَ لَكَ الْجَوَابُ الْمُضْمَرُ بِسِرِّ التَّنَاسُبِ الَّذِي يَتَنَبَّهُ أَعْدَادُ الْمَسْأَلَةِ . وَالْوَهْمُ أَوَّلُ مَا يُلْقَى إِلَيْكَ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا ، إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا تُمَكِّنُ مَعْرِفَتُهُ . فَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ 15 مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا ؛ وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَاقِعَاتِ الْحَاصِلَةِ فِي الْوُجُودِ أَوِ الْعِلْمِ . وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وَقُوعِهَا ، وَلَا ثَبَتَ لَنَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهُ ، فَهُوَ غَيْبٌ لَا تُمَكِّنُ مَعْرِفَتُهُ .

(1) من ل ، وفي بقية النسخ : فهي .

وإذا^(١) تَبَيَّنَ لك ذلك ، فالأعمالُ الواقعةُ في هذه الزايرة كلها إنما هي في استخراج ألفاظ الجواب من ألفاظ السؤال؛ لأنها، كما رأيتُ، استنباطُ حروفٍ على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر. وسرُّ ذلك إنما هو من تناسبٍ بينها يطلع عليه بعضٌ دون بعضٍ . فمن عَرَفَ ذلك التَّنَاسُبَ تيسَّرَ عليه استخراجُ ذلك 5 الجواب بتلك القوانين. والجوابُ يدلُّ في مقامٍ آخر من حيث موضوعُ ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو إثبات. وليس هذا من المقام الأول؛ بل إنما يرجع إلى مطابقة الكلام لما في الخارج . ولا سبيلَ إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال؛ بل البشرُ مَخْجُونُونَ عنه؛ وقد استأثر الله بعلمه؛ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . [سورة البقرة، من الآية 216] .

(١) ع ج ل: فإذا .

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي^(ب)

الفصل الثاني من الكتاب الأول :

في العمران البدوي، والأُمم الوحشية والقبائل، وما يعرض في ذلك
من الأحوال، وفيه أصول وتهديدات

5

1 • فصل، في أن أجيال البدو والحضر طبعية

اعلم أن اختلاف الأجيال في أخوالهم، إنما هو باختلاف نحلّتهم من المعاش.
فإن اجتماعهم إنما هو المتعاون^(ج) على تحصيله، والابتداء بما هو ضروريّ منه
وبسيط قبل الحاجي والكمالي. فمنهم من ينتجّل الفلح من الفراسة والزراعة؛ ومنهم
من ينتجّل القيام على الحيوان من الشاء والبقر والمغز والنحل والدود للقرّ لنتائجها¹⁰
واستخراج [فضلاتها]^(د). وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة
- ولا بُدَّ - إلى البدو، لأنه متنسّع لما لا تنسّع له الحواضر من المزارع والفدن،

(أ) الصفحة 82 من نسخة ط يضاء (ب) انفردت ط بهذا الاستفتاح وفي بقية الأصول وردت التظلية (ج) كذا في ط،
وفي بقية الأصول: للتعارن (د) سقط من ط.

والمسارح للحيوان وغير ذلك. فكان اختصاص هؤلاء بالبندو أمراً ضرورياً لهم؛ وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجات معاشهم وعمرانهم من القوت والكين والدفع إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصل بُلغة العيش من غير مَرِيدٍ عليه، للعجز عما وراء ذلك.

- 5 ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرّفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأثّق فيها، وتوسّعة البيوت، واخطّطوا المدن والأمصار للتخصّص. ثمّ تزيد أحوال الرّفه والرّغد، فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأثّق في علاج القوت، واستجدادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها
- 10 من الحرير والديباج وغير ذلك، ومُعالة^(١) البيوت والصروح، وإحكام وضعها في تنجيدها، والانتباه بالصنائع في الخروج من القوّة إلى الفعل إلى غايّتها، فيتخذون / القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه، ويعالون في صروحها، ويبالغون في تنجيدها، [١٨٣] ويختلفون في استجدادة ما يتخذونه في مهنتهم^(ب) من لبوس أو فراش أو آنية أو ماعون؛ وهؤلاء هم الحضّر؛ ومغنائه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان. ومن هؤلاء
- 15 من يتنحل في معاشه الصنائع، ومنهم من يتنجل التجارة. وتكون مكاسيهم أنمي وأزفة من أهل البندو، لأن أحوالهم زائدة على الضروري، ومعاشهم في^(ج) نسبة وُجْدِهِم، فقد تبين أنّ أجيال البندو والحضر طبيعيتة لا بدّ منها كما قلناه.

(١) ع: مغلاة (ب) ع ل ي ج: المهنتهم (ج) من ظ وفي بقية الأصول: على .

٢٠ فصل، في أن جيل العرب في الخليفة طبعي

قد قدّمنا في الفصل قبله، أن أهل البدو هم المشتغلون للمعاش الطبيعي، من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري في^(١) الأقوات والملابس والمسكن وسائر الأحوال والعوائد، مقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كالي؛ فيتخذون البيوت من الشجر أو الوتر أو الشجر، أو من الطين والحجارة غير منجدة،⁵ إنما هو قصد الاستغلال والكسب لا ما وراءه؛ وقد يأوون إلى الغيران والكهوف. وأما أقواتهم فيتناولونها بيسير العلاج أو بغير علاج البتة، إلا ما مسسته النار. فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح، كان المقام به أولى من الظعن؛ وهؤلاء سكان المداشر والقرى والجبال، وهم عامة البزير والأعاجم. ومن كان معاشه في السائمة؛ مثل الغنم والبقر، فهم ظواعن في الأغلب، لازتياد المسارح والمياه¹⁰ لحيوانهم، إذ التقلب في الأرض أصلح بها، ويسمون شاوية؛ ومغناه القائمون على الشاء والبقر؛ ولا يتعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة به؛ وهؤلاء مثل البزير والتزك وإخوانهم من التزكمان والصقالبة. وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنًا وأبعد في القفر مجالًا؛ لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها، لا تستغني به [83 ب] الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر، وورود مياهه الملحّة، والتقلب¹⁵ فصل الشتاء في نواحيه فرارًا من أذى البرد إلى دفء هوائه، وطلبًا لمفاجص النتائج في رماله؛ إذ الإبل أصعب الحيوان فصلاً ومخاضاً، وأخوَجُها في ذلك إلى الدفء؛

(١) ي: من .

فاضطروا إلى إبعاد النجعة. ورُبما ذادتْهم الحامية عن التلُّول أيضاً، فأوغلوا في القفار
نُفرةً عن النُصفَة منهم والجزاء لعدوانهم، فكانوا لذلك أشدَّ الناس توحُّشاً. تتلَّوا من
أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه، والمفتريس من الحيوانات العُجم،
وهؤلاء هم العرب. وفي معنائهم ضوايعُ البرر، وزناتهُ بالمغرب، والأكراد والتركمان
5 والترك بالمشرق. إلا أنَّ المغرب أبعدُ نُجعةً وأشدُّ بداوةً، لأنَّهم مُختصون بالقيام على
الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها.

فقد تبين لك، أنَّ جيلَ العرب طبعي لا بُدَّ منه في العُمران. والله
﴿الخالقُ العليم﴾ [سورة يس، من الآية 81].

3 • فصل، في أنَّ البدو أقدمُ من الحضَر وسابقُ عليه. وأنَّ البادية أصلُ
العُمران والأمصاير ومددُها⁽¹⁾

10

قد ذكرنا أنَّ البدو هم المُقتصرون على الصُّروري في أخوالهم، العاجزون
عما فوقه؛ والحضر^(ب) المعتنون بحاجات التُّرف والكمال في أخوالهم وعوائدهم. ولا
شكَّ أنَّ الصُّروري أقدمُ من الحاجي والكمالي^(ج) وسابقُ عليه؛ وكأنَّ الصُّروري
أصلُ والكمالي فزرعُ ناشيء عنه. فالبدو أصلٌ للمدُن والحضر، سابقٌ عليها؛ لأنَّ
15 أوَّلَ مطالب الإنسان الصُّروري، ولا ينتهي إلى التُّرف والكمال إلا إذا كان الصُّروري
حاصلاً. فخشونته البداوة قبل رِقَّة الحضارة. ولهذا نجد التَّمُدُّن غايةً للبدويَّ يجري

(1) ل: منذها (ب) في: ع ج ل ي: وأنَّ الحضَر (ج) ي: ومن الكمالي.

إليها، وينتهي بسعيه إلى مُفترجه^(ا) منها^(ب). ومتى حصل على الرياش الذي تحصل
 [184] به أحوال الترف وعوائده، عاج إلى / الدعة ، وأمكن نفسه من قياد المدينة. وهكذا
 شأن القبائل المتبدية كلهم . والحضري لا يتشوّف إلى أحوال البادية إلا لضرورة
 تدعوه إليها أو [لتقصير]^(ج) عن أحوال أهل مدينته .

- 5 وما يشهد لنا أنّ البدو أصل للحضر ومُتقدّم عليه ، أنّا إذا فتشنا أهل
 مِصر من الأمصار، وجَدنا أوليّة أكثرهم من أهل البدو الذين بضاحية ذلك المِصر
 وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المِصر، وعدّلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر.
 وذلك يدلّ على أنّ أحوال الحضارة ثانیة عن أحوال البداوة، وأنّها أصل لها ،
 فتفهّمه. ثمّ إنّ كلّ واحد من البدو والحضر مُتفاوت لأحوال^(د) من جنسه، فربّ
 10 حَيّ أعظم من حَيّ؛ وقبيلة أعظم من قبيلة ؛ ومِصر أوسع من مِصر؛ ومدينة أكثر
 عُمراناً من مدينة .

فقد تبين أنّ وجود البدو مُتقدّم على وجود المُدن والأمصار [وأصل لها ،
 كما أنّ وجود المُدن والأمصار]^(هـ) من عوائد الترف والدعة الذي هو متأخّر عن
 عوائد الضرورة المعاشية .

(ا) كذا في ط، وفي باقي الأصول: مقترحة (ب) ل: فيها (ج) في ط وحدها: ليقتصر (د) كذا في ط ج، وفي ع ل ي:
 الأحوال (هـ) من: ل ع ج ي .

4 • فصل، في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت مُتهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر؛ قال عليه السلام⁽¹⁾: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". ويقدر ما ينسب إليها من أحد الخلقين، تبعد عن الآخر ويضع عليها اكتسابه؛ فصاحب الخير إذا سبقت على⁽²⁾ نفسه عوائد الخير وحصلت له^(ب) ملكته، بعد عن الشر وضع عليه طريقه؛ وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده. وأهل الحضرة لكثرة ما يعانونه من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وتعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك، / حتى [لقد]^(ج) ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أخوالهم؛ فتجد الكثير منهم يقذعون [في أقوال]^(د) الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصدّهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً. وأهل البدو وإن كانوا مُقبلين على الدنيا مثلهم، إلا أنه في المقدار الضروري، لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة

[84 ب]

(أ) ع: إل (ب) ع: لها (ج) في ظ وحدها: لو (د) سقطت من ظ وحدها .

(1) هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري 2: 118 حديث رقم (1359) وغيره ومسلم (2658)، وجامع الترمذي (2138)، ومصنف ابن أبي شيبة 12: 6 ومسند أحمد 2: 253، 481 .

إلى أهل الحَضَر أَقْلُ بكثير؛ فهم أَقْرَبُ إلى الفِطْرَةِ الأولى وأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ في النَّفْسِ من سوءِ المَلَكاتِ بِكَثْرَةِ العَوائِدِ المَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا ؛ فَيَسْهَلُ علاجُهم عن علاجِ الحَضَر؛ وهو ظَاهِرٌ . وقد تَوَضَّحَ فيما بَعْدُ أَنَّ الحضارةَ هي نهاية العُمُرَانِ وخُرُوجُهُ إلى الفسادِ، ونهايةُ الشَّرِّ والبُغْدِ عن الخيرِ . فقد ثَبَّيْنِ أَنَّ أَهْلَ البَدْوِ أَقْرَبُ إلى الخيرِ من أَهْلِ الحَضَرِ . واللهُ ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 76] .

5

ولا يُغْتَرَضُ على ذلك بما وَرَدَ في حديثِ البُخاري⁽¹⁾ من قَوْلِ الحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بنِ الأكْوَعِ ، وقد بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إلى سُكْنَى الباديةِ ، فقال له : ارتَدَدْتَ على عَقْبَيْكَ، تَعَرَّيْتَ؟! فقال : لا ، ولكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَذِنَ لي في البَدْوِ . فاعْلَمْ أَنَّ الهِجْرَةَ افْتَرَضَتْ أَوَّلَ الإسلامِ على أَهْلِ مَكَّةَ ليكونوا مع النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ حَلَّ من المَواطِنِ، يَنْصُرُونَهُ، وَيُظَاهِرُونَهُ على أَمْرِهِ وَيَخْرُسُونَهُ، ولم تكن واجِبَةً على الأَعْرَابِ 10 أَهْلِ الباديةِ؛ لأنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمَسُّهُمْ من عَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ في المَظَاهِرَةِ و[الجِراسَةِ]⁽¹⁾ ما لا يَمَسُّ غَيْرَهُم من باديةِ الأَعْرَابِ . وقد كان المهاجرون يَسْتَعِينُونَ باللهِ من التَّعَرُّبِ، وهو سُكْنَى الباديةِ، حيث لا تَجِبُ الهِجْرَةُ .

وقال ﷺ⁽²⁾ في حديثِ سَعْدِ بنِ أَبِي وقَّاصٍ عند مَرَضِهِ بِمَكَّةَ: "اللَّهُمَّ أَمُضْ

لأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ ولا تَرُدَّهُمْ على أَعْقَابِهِمْ" . / وَمَعْنَاهُ أَنَّ يَوْفَقَهُمْ لِمُلَازِمَةِ المَدِينَةِ وَعَدَمِ 15 التَّحَوُّلِ عَنْهَا، فلا يَرْجِعُوا عن هِجْرَتِهِم الَّتِي ابْتَدَأُوا بِهَا؛ وهو من بابِ التَّرجُوعِ على

(1) ظ: الجِراس .

(1) أخرجه البخاري في الفتن من صحيحه 9: 66 حديث (7088) ومسلم في المغازي (4494) .

(2) أخرجه البخاري في الهجرة من صحيحه 5: 87 حديث (3936) وفي أماكن أخرى منه، ومسلم في الوصايا (1628) .

العقب في السغي إلى^(١) وجه من الوجوه؛ وقيل: إن ذلك كان خاصاً بما قبل الفتح، حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة، لقلة المسلمين؛ وأما بعد الفتح^(ب)، وحين كثّر المسلمون واعتزّوا، وتكفل الله لنتيجه بالعصمة من الناس، فإن الهجرة ساقطة حينئذٍ، لقوله ﷺ^(١): "لا هجرة بعد الفتح". قيل: سقط إنشاؤها عمّن يُسلم بعد الفتح، وقيل: سقط وجوبها عمّن أسلم وهاجر قبل الفتح. والكلُّ مُجمعون على أنها 5 بعد الوفاة ساقطة؛ لأنّ الصحابة اُفترقوا من يومئذٍ في الآفاق وانتشروا، ولم يبق إلاّ فضل السكّنى بالمدينة وهو هجرة. فقول الحجاج لسلمة حين سكّن البادية: ارتدّدت على عقينك، تعرّبت؟! نعيّ عليه في ترك السكّنى بالمدينة، بالإشارة إلى الدعاء المأثور الذي قدّمناه، وهو قوله: "ولا تردّهم على أعقابهم"، وبقوله^(ج): "تعرّبت"، إلى أنّه صار من الأعراب الذين لا يهاجرون. وأجاب سلمة بإكثار ما ألزمه^(د) من الأمرين، وأنّ النبي ﷺ أذن له في البدو، ويكون ذلك خاصاً به، كشهادة خزيمة وعناق أبي بريدة، أو^(هـ) يكون الحجاج إنّما نعيّ عليه ترك السكّنى بالمدينة فقط، لعلّهم بسقوط الهجرة بعد الوفاة، وإجابة سلمة بأنّ اغتيامه لإذن النبي ﷺ أولى وأفضل؛ فما أثره به واختصّه إلاّ لمعنى غلّمه فيه. وعلى كلّ تقدير، 15 فليس فيه دليل على مذمة البدو الذي عبّر عنه بالتعرّب؛ لأنّ مشروعية الهجرة إنّما كان - كما علمت - لمظاهرة النبي ﷺ وجراسته، لا لمذمة البدو. فليس^(هـ) في النعي على ترك هذا الواجب بالتعرّب دليل على مذمة التعرّب. والله أعلم.

(١) ل: على (ب) سقط من ط (ج) ع: لقوله (د) ل: لزمه (هـ) ل: و (و) ل: وليس.

(١) أخرجه البخاري في الهجرة من صحيحه، من حديث ابن عمر 5: 72 (3899) ومسلم (1862) من حديث عائشة.

5 • فَضْلٌ ، فِي أَنْ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الشَّجَاعَةِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ الرَّاحَةِ وَالِدُّعَةِ ،
 / [85 ب] / وَانْتَعَمُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ ، وَوَكَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى
 وَإِلَيْهِمْ ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي يَسُوسُهُمْ ، وَالْحَامِيَةُ الَّتِي تَوَلَّى جِرَاسَتَهُمْ ، وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ
 الَّتِي تَحُوطُهُمْ ، وَالْحِزْزَ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ ، لَا تُهَيِّجُهُمْ هَيْعَةً وَلَا يُنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ ؛ فَهُمْ 5
 غَاوُونَ [آمِنُونَ] ^(أ) ، قَدْ أَلْقَوْا السَّلَاحَ ، وَزَيَّنَتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ الْأَخْيَالُ ، وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ
 النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَثْوَاهُمْ ؛ حَتَّى صَارَ لَهُمْ ^(ب) خُلُقًا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ
 الطَّبِيعَةِ . وَأَهْلُ الْبَدْوِ [التَفَرَّدَهُمْ] ^(ج) عَنِ الْمَجْتَمَعِ ، وَتَوَخَّشَهُمْ فِي الضَّوَاحِي ، وَبُعْدَهُمْ عَنِ
 الْحَامِيَةِ ، وَانْتِبَازَهُمْ عَنِ الْأَسْوَارِ وَالْأَبْوَابِ ، قَائِمُونَ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَكِلُونَهَا
 إِلَى سِوَاهُمْ ، وَلَا يَتَّقُونَ فِيهَا بَغِيرَهُمْ . فَهُمْ دَائِمًا يَحْمِلُونَ السَّلَاحَ ، وَيَتَلَفَّتُونَ عَنْ كُلِّ 10
 جَانِبٍ فِي الطَّرْقِ ، وَيَتَجَافَوْنَ عَنِ الْهُجُوعِ إِلَّا غَرَارًا فِي الْمَجَالِسِ وَعَلَى الرِّحَالِ وَفَوْقَ
 الْأَقْتَابِ ، يَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَاةِ وَالْهَيْعَاتِ ، وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ ، مُدْلِلِينَ بِأَنْفُسِهِمْ ؛
 وَاثْقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ ، قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبَأْسُ خُلُقًا ، وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً ، يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى
 دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوْ اسْتَفَزَّهُمْ صَارِخٌ .

وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي السَّفَرِ ، عِيَالٌ عَلَيْهِمْ ، 15
 لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ ؛ وَذَلِكَ مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ ، حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ
 التَّوَاحِي وَالْجِهَاتِ ، وَمَوَارِدِ الْمَاءِ ، وَمَشَارِعِ السُّبُلِ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ . وَأَضْلُهُ

(أ) فِي ظ: آمِنُونَ (ب) ع ل ج ي: ذَلِكَ (ج) ظ: لَتَفَرَّدَهُمْ .

أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ، لَا ابْنَ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ، فَالَّذِي أُلِفَّه مِنَ الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ لَهُ خُلُقًا وَمَلَكَةً وَعَادَةً تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَالْجِبِلَّةِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْآدَمِيِّينَ تَجَدُّهُ كَثِيرًا صَحِيحًا . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .

6 • فصلٌ، في أن معاناة أهل الحضر للأحكام، مُفسدةٌ للبأس فيهم، ذاهبةٌ
5 بالمنفعة منهم

/ وذلك أنه ليس كلُّ أحدٍ مالكاً أمر نفسه؛ إذ الرؤساء والأمرء المالكون لأمر [186]
الناس قليلٌ بالنسبة إلى غيرهم؛ فمِنَ الغالب أن يكون الإنسانُ في مَلَكَةٍ غَيْرِهِ
وَلَا بُدَّ.

فإن كانت المَلَكَةُ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً لَا يَغْنَى مِنْهَا حَكْمٌ وَلَا مَنَعٌ وَصَدٌّ، كَانَ مَنْ
10 تَحْتَ يَدِهَا مُدِلِّينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ، وَاثْقَيْنَ بَعْدَ الْوَارِعِ، حَتَّى
صَارَ لَهُمُ الْإِذْلَالُ جِبِلَّةً لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا .

وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْمَلَكَةُ وَأَحْكَامُهَا بِالْقَهْرِ وَالسَّطْوِ، فَتَكْسِرُ حِينَئِذٍ مِنْ سَوْرَةٍ
بَأْسِهِمْ، وَتُذْهِبُ الْمَنْعَةَ عَنْهُمْ لَمَّا يَكُونُ مِنَ التَّكَاسُلِ فِي النُّفُوسِ الْمُضْطَهَدَةِ، كَمَا
نُبَيِّنُهُ. وَقَدْ نَهَى عُمَرُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ مِثْلِهَا، لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةٍ سَلَبَ
15 الْجَالِنُوسِ، وَكَانَتْ قِيَمَتُهُ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ، وَكَانَ اتَّبَعَ الْجَالِنُوسَ يَوْمَ
الْقَادِسِيَّةِ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ سَلَبَتَهُ، فَاتَزَعَهُ مِنْهُ سَعْدٌ، وَقَالَ: أَلَا انتَظَرْتُ فِي اتِّبَاعِهِ إِذْنِي؟
وَكُتِبَ إِلَى عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: تَعَمَّدُ إِلَى مِثْلِ زُهْرَةَ وَقَدْ صَلَّى بِمَا صَلَّى

به ، وبقي عليك ما بقي من حزيك ، فتكسر قزته وتُسيد قلبه ؛ وأمضى له عُمرُ سَلَبته .

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب ، فمذهبة للناس بالكلية ؛ لأن وقوع العقاب به ولم يُدافع عن نفسه ، يُكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك .

5 وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية ، وأخذت من عهد الصبا ، أثرت في ذلك بعض الشيء ، لمزباه على المخافة والانقياد ، فلا يكون مُدلاً بئاسه .

ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو ، أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام . ونجد أيضاً الذين يعانون الأحكام وملكتها من لدن مزباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ، يُنقص ذلك من بأسهم كثيراً ، ولا يكادون يُدافعون عن أنفسهم عادية / بوجه من الوجوه. وهذا شأن طلبة العلم المنتجلين [86 ب] 10 للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة ، الممارسين للتعليم^(أ) والتأديب في مجالس الوُقار والهيبة . فتفهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس .

ولا تستنكرن ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشرعة ، ولم يُنقص ذلك من بأسهم ، بل كانوا أشد الناس بأساً ؛ لأن الشارع صلوات الله عليه ، لما أخذ المسلمون عنه دينهم ، كان وازعه [فيهم]^(ب) من أنفسهم ، لما تلا عليهم 15 من الترغيب والترهيب ، ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي ؛ إنما هو^(ج) أحكام الدين وآدابه المتلقاة^(د) نقلاً يأخذون أنفسهم بها ، بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصدق . فلم تزل سورة بأسهم مُستخكمة كما كانت ، ولم تحْدِشها أظفار التأديب

(أ) ع: التعلم (ب) من ل ، وفي بقية النسخ: فيه (ج) ع: ل: هي (د) سقط من ل .

والحكم . قال عُمَرُ رضي الله عنه⁽¹⁾ : من لم يؤدِّبه الشرع لا أدِّبه الله . حرصاً على أن يكون الوازع لكلِّ أحدٍ من نفسه ، وبقيناً بأنَّ الشرع أعلم بمصالح العباد .

ولما تناقض الدين في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ، ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ، ورجع الناس إلى الحضارة وحُلق الانقياد إلى الأحكام ، نقصت بذلك سورة البأس فيهم . 5

فقد تبين أنَّ الأحكام السلطانية والتعليمية مُفسدة للبأس ، لأنَّ الوازع فيها أجنبي ؛ وأما الشرعية فغير مُفسدة ، لأنَّ الوازع فيها ذاتي . ولهذا كانت [هذه]⁽¹⁾ الأحكام السلطانية والتعليمية مما يؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم ، و[خضد]^(ب) الشوكة منهم بمعاناتها في وليدهم وكهولهم . والبندؤ بمغزل عن هذه المنزلة لبُعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب ؛ ولهذا قال محمد بن أبي زَيْد في كتابه 10 في أحكام المعلمين والمتعلمين⁽²⁾ : / إنَّه لا ينبغي للمؤدِّب أن يضرب أحداً من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط ؛ نقله عن شريح القاضي . واحتجَّ له بعضهم^(ج) بما وَقَّع في حديث بدء الوحي من شأن الغط ، وأنَّه كان ثلاث مرَّات ؛ وهو ضعيف . ولا يصلح شأن الغط أن يكون دليلاً على ذلك ، لبُعده عن التعليم المتعارف . والله 15 ﴿الحكيمُ الخبيرُ﴾ [سورة الأنعام ، من الآية 18] .

(أ) سقط من ظ (ب) ظ : خضل (ج) سقط من ل .

(1) ابن الأزرقي : بدائع السلك 2 : 369 .

(2) لم يعرف هذا الكتاب في كتب محمد بن أبي زيد ، وقد أعاد ذكره ونسبته ونقل النص نفسه في الجزء الثاني في فصل : أنَّ الشدَّة على المتعلمين مُضرة بهم . فلعله أراد محمد بن سحنون .

7 * فصلٌ ، في أن سُكْنَى الْبَدْوِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [سورة البلد، الآية 10] ، وقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [سورة الشمس ، الآية 8] ، وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أَهْمِلَ فِي مَزْعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ [يُهْدِئْهُ] ⁽¹⁾ الْاِقْتِدَاءُ بِالْأَدِينِ ، وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ. وَمِنْ أَخْلَاقِ 5 الشَّرِّ فِيهِمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ؛ فَمَنْ امْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخْذِهِ، إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَانْعَ، [كما] ^(ب) قَالَ ⁽¹⁾ : [من الكامل]

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ ، فَإِنْ تَجَدَّدَ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا الْمَدَنُ وَالْأَمْصَارُ ، فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكَّامُ وَالْأُولَاءُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، أَوْ يَغْدُو عَلَيْهِ. فَهَمُ 10 مَكْبُوحُونَ بِحُكْمَةِ الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالُمِ، إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَتَدَفَّعُهُ سِيَاجُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوْ الْغُرَّةِ لَيْلًا، أَوْ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ نَهَارًا، وَيَتَدَفَّعُهُ ذِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ [أَعْوَانِ] ^(ج) الْأُولَاءِ عِنْدَ الْاِسْتِغْدَادِ وَالْمُقَاوَمَةِ .

وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ ، فَيَزَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ ، بِمَا [وَقَرَأَ] ^(د) [87ب] / فِي نَفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالْتَّجِلَّةِ. وَأَمَّا جِلْلُهُمْ فَإِنَّمَا يَنْدُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجِ حَامِيَةِ 15

(1) ظ: لم يبدبه (ب) سقط من ظ (ج) ظ: إغوازة (د) ظ: وقن .

(1) البيت لأبي الطيب المتنبي (الديوان بشرح المعبري 4: 125) .

الحي من أنجادهم وفثيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم . ولا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عَصِيَّةً وأهل نَسَبٍ واحد ؛ لأنهم بذلك تشتدُّ شُوكُهُمْ ويخشى جانبهم ؛ إذ نُعْرَةُ كلِّ أحدٍ على نَسَبِهِ^(١) وعَصِيَّتِهِ أهُمُّ ، وما جعلَ الله في قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ والنُّعْرَةِ على ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ موجودٌ في الطَّبَاعِ البَشَرِيَّةِ ، وبها يكونُ التَّعَاصُدُ 5 والتَّنَاصُرُ ، وتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ . واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف حين قالوا لأبيه: ﴿لَنْ أَكْلَهُ الدُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخِاسِرُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية 14] ؛ والمعنى أَنَّهُ لَا يَتَوَهَّمُ الْعَدُوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعَصِيَّةِ لَهُ .

وأما الْمُتَفَرِّدُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ ، فَقَلٌّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ . فإذا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالْشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ ، تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَغَيُّ التَّجَاةَ بِنَفْسِهِ خِيفَةً 10 واستيحاشاً مِنَ التَّخَاذُلِ . فلا يَقْتَدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ ، لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَمِهُمُ مِنَ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ .

وإذا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ ، فَمِثْلُهُ يَتَّبِعُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، مِنْ بُيُوتٍ أَوْ إِقَامَةٍ مُلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ ؛ إِذْ بُلُوعُ الْغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ ، لِمَا فِي طَبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ الْإِسْتِغْصَاءِ ، وَلَا 15 بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعَصِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنَفًا ، فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نَوْرُهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدِ . وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

(١) ظ ع: ينسبه .

8 • فصل ، في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه

[188] / وذلك أن صلة الرّجيم طبيعي في البشر إلا في الأقل. ومن صلّتها الثغرة على ذوي القرّبي وأهل الأرحام أن ينالهم ضيمّ أو تصيبهم هلكة. فإنّ القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ، وبودّ لو يحول بينه وبين ما يصلّيه من المعاطب والمهالك ؛ نزعةً طبيعيّة في البشر مذ كانوا. فإذا كان النسب الواصل بين المتناصرين 5 قريباً جداً، بحيث حصل به الالتحام والاتحاد، كانت الوصلة ظاهرة ، فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها. وإذا بعد النسب بعض الشيء، فربما تُوسّي بعضها ويتقي منه شهرة فتخمل على التضرّة لذوي نسبته بالأمر المشهور منه، فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه. ومن هذا الباب الولاء والحلف، إذ نغرة كلّ أحد على أهل ولائه وحليفه، للألفة التي تلحق النفس من اهتضام 10 جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب؛ وذلك لأجل اللّحمة الحاصلة من الولاء، مثل لحمة النسب أو قريباً منها. ومن هذا نفهم معنى قوله ﷺ⁽¹⁾: "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم". بمعنى أن النسب إنّما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والثغرة ، وما فوق ذلك مُستغنى عنه ؛ إذ النسب أمرٌ وهني لا حقيقة له، وثقعه له⁽¹⁾ إنّما هو في هذه الوصلة والالتحام؛ فإذا كان ظاهراً 15 واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من الثغرة كما قلناه؛ وإذا كان إنّما يُستفاد من الخبر

(1) سقط من ل .

(1) أخرجه أحمد 2: 374، الترمذي (1979) والحاكم في المستدرک 4: 161 .

البعيد ، ضَعُفَ فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ ، وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَانًا وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهِو
 / الْمُنْهِي عَنْهُ. وَمِنْ هَذَا الْإِغْتِبَارِ ، مَعْنَى قَوْلِهِمُ النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ ، وَجَهَالَةٌ لَا تَضُرُّ ؛ [88 ب]
 بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ ، ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ
 فِيهِ عَنِ النَّفْسِ ، وَانْتَفَتِ النَّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصِيَّةَ ، فَلَا مَنَفْعَةَ حِينَئِذٍ فِيهِ .
 5 وَاللَّهُ أَغْلَمُ .

9 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الصَّرِيحَ مِنَ النَّسَبِ إِنَّمَا يُوْجَدُ لِلْمُتَوَحِّشِينَ فِي الْقَفْرِ ، مِنْ
 الْعَرَبِ وَمِنْ فِي مَعْنَاهُمْ

وَذَلِكَ لِمَا اخْتَصُّوا بِهِ مِنْ تَكْدِ الْعَيْشِ وَشُطْفِ الْأَحْوَالِ وَسُوءِ الْمَوْطِنِ ،
 حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهَا ⁽¹⁾ الضَّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ ؛ وَهِيَ بِمَا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ
 10 الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ وَنِتَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا ، وَالْإِبِلُ تَذْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِي الْقَفْرِ
 لِرَغْبَتِهَا مِنْ شَجَرِهِ وَنِتَاجِهَا فِي رِمَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ؛ وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشُّطْفِ وَالسَّعْبِ ،
 فَصَارَ لَهُمْ إِلْفًا وَعَادَةً وَرَبِيتٌ فِيهَا أَجْيَالُهُمْ ، حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجِبِلَّةً . فَلَا يَنْزِعُ
 إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنْ يُسَاهِمَهُمْ فِي حَالِهِمْ ، وَلَا يَأْنُسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ ؛
 بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ السَّبِيلَ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ حَالِهِ وَأَمَكَّنَهُ ذَلِكَ لَمَا تَرَكَه .
 15 فَيُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَاطِ أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا ، وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ
 مُحْفُوظَةٌ صَرِيحَةٌ .

(1) ل: عليه .

واعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي مُضَرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةٍ وَثَقِيفٍ وَبَنِي أَسَدٍ وَهَذَلٍ وَمَنْ
 جَاوَرَهُمْ مِنْ خُزَاعَةٍ؛ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَطَفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ، وَبَعُدُوا
 مِنْ أَزْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأُذْمِ^(أ) وَالْحَبُوبِ، كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً
 مُحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ وَلَا عُرِفَ فِيهَا شُوبٌ. وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا بِالثَّلُولِ فِي
 مَعَادِنِ الْخَضْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ، مِنْ جَمِيرٍ / وَكَهْلَانٍ، مِثْلَ لَحْمٍ وَجُدَامٍ وَغَسَّانٍ 5
 وَطَيِّءٍ وَقُضَاعَةٍ وَإِيَادٍ، فَاخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ. فَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
 بُيُوتِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ، وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ؛
 وَهُمْ لَا يَتَعَبَّرُونَ بِمَحَافِظَةِ عَلَى النَّسَبِ فِي بُيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ؛ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ.
 قَالَ عُمَرُ^(ب): تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبَطِ السَّوَادِ، إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ،
 قَالَ مِنْ قُرَيْبَةٍ كَذَا. هَذَا إِلَى مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ أَهْلُ الْأَزْيَافِ مِنَ الْإِزْدِحَامِ 10
 مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبِلَادِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَصِيصَةِ^(ج)؛ فَكَثُرَ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ.
 وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صُدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِتِمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ، فَيُقَالُ: جُنْدٌ قَيْسَرِيْنِ،
 جُنْدٌ دِمَشْقِي، جُنْدٌ الْعَوَاصِمِ، وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ؛ وَلَمْ يَكُنْ [ذَلِكَ]^(د) لَا طَرَا ح
 الْعَرَبِ أَمْرَ النَّسَبِ، وَإِنَّمَا كَانَ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا،
 وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى النَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ. ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَاطُ 15
 فِي الْحَوَاضِرِ مَعَ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ، وَفَسَدَتْ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ، [وَفُقِدَتْ]^(هـ) ثَمَرُهَا مِنْ

(أ) جاء في ع بضم الدال، والأصح التسكين (ب) ي ج: الحصبة (ج) من ل (د) في ط وحدها: فُقد .

(1) ابن عبد البر: الإنباه على قبائل الرواة 1: 12، ابن الأزرقي: بدائع السلك 1: 65 .

العَصِيَّة، فَاطْرَحَتْ، ثُمَّ تَلَا شَتْ الْقِبَائِلُ وَدَثَرَتْ، فَدَثَرَتْ الْعَصِيَّةُ بِدُثُورِهَا، وَبَقِيَ [ذَلِكَ] ⁽¹⁾ فِي الْبَدْوِ ^(ب) كَمَا كَانَ . وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمِنْ عَلَيْهَا .

10 • فَضْلٌ، فِي اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ كَيْفَ يَنْعُ

إِنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضاً مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَنْسُقُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ ،
 5 بَنُوعٍ إِلَيْهِمْ أَوْ جَلِيفٍ أَوْ وِلَاءٍ، أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجِنَايَةِ أَصَابِهَا، فَيُدْعَى بِنَسَبِ
 هَؤُلَاءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ ، مِنْ الثُّغَرِ وَالْقَوْدِ وَخَمْلِ الدِّيَّاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ . وَإِذَا
 وَجَدْتَ ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجِدَ؛ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لَكُونِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَوْ مِنْ هَؤُلَاءِ، إِلَّا
 جَرِيَانُ / أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ اتَّحَمَ بِهِمْ . ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبُ الْأَوَّلُ [89 ب]
 بِطَوْلِ الزَّمَانِ، وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ، فَيُخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ .

10 وما زَالَتْ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شِغْبٍ إِلَى شِغْبٍ؛ وَيَتَلَحَّمُ قَوْمٌ بآخَرِينَ فِي
 الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ . وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ آلِ الْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ
 تَتَبَيَّنُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ . وَمِنْهُ شَأْنُ بَجِيلَةَ فِي عَرْفَجَةَ ⁽¹⁾ بْنِ هَزْثَمَةَ لَمَّا وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ ،
 فَسَأَلُوهُ الْإِغْفَاءَ مِنْهُ، وَقَالُوا: هُوَ فِينَا نَزِيْفٌ، أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ ، وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلَّى
 عَلَيْهِمْ جَرِيْرًا . فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ عَرْفَجَةُ : صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا رَجُلٌ
 15 مِنَ الْأَزْدِ، أَصَبْتُ دَمًا فِي قَوْمِي وَلَحِقْتُ بِهِمْ . وَانْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ

(1) سقط من ط (ب) ل: البداة .

(1) تقدمت الإشارة إلى خبره في صفحة 43 .

وليس جلدتهم ودُعي بنسبهم حتى ترشح للرئاسة عليهم، لولا علم بعضهم بوشائجه ؛
 ولَوْ غفلوا عن ذلك وامتدَّ الزَّمَنُ لثُنِيَ بالجُملة وعُدَّ منهم بكلِّ وجهٍ ومذهبٍ .
 فافهمه، واعتبر سرَّ الله في خَلِيقَتِهِ . ومثُلُ هذا كثيرٌ لهذا العهد ولما قبله من العهود.

11 • فصلٌ، في أن الرئاسة على أهل العصية لا تكون في غير نسبهم

- 5 وذلك أن الرئاسة لا تكونُ إلا بالغلب، والغلبُ إنما يكون بالعصية كما
 قدَّمناه. فلا بُدَّ في الرئاسة على القوم أن تكون من عصية غالبية لعصياتهم واحدة
 واحدة، لأنَّ كلَّ عصية منهم إذا أحسَّت بغلبِ عصية الرئيس لهم أقروا بالإذعان
 والاتباع. والساقط في نسبهم بالجُملة لا تكونُ له عصية فيهم بالنسب، إنما هو
 ملصقٌ نزيه؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجبُ له غلباً عليهم
 البتة. وإن فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتوسى هذه الأول من الالتصاق،
 10 وليس جلدتهم ودُعي بنسبهم، فكيف له الرئاسة قبل هذا الالتحام أو لأحدٍ من
 سلفه. / والرئاسة على القوم إنما تكون مُتناقلة في منبِتٍ واحدٍ تعيَّن له الغلب
 بالعصية. فالأوليَّة التي كانت لهذا الملصق قد عُرف فيها التصاقه من غير شك،
 ومنعه ذلك الالتصاق من الرئاسة حينئذٍ؛ فكيف تُوقِلت عنه وهو على حالِ
 15 الإلتصاق^(١)؛ والرئاسة لا بُدَّ وأن تكونَ موروثةً عن مُستحقِّها لما قلناه من التغلب
 بالعصية.

(١) ل: الالتصاق .

وقد يَتَشَوَّفُ كثيرٌ من الرُّؤساء على القبائل والعصائب إلى أنسابٍ يلهجون بها، إما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب، من شجاعة، أو كرم، أو ذكرٍ كيف اتفق؛ فينزعون إلى ذلك النسب، ويتورطون بالدَّعوى في شعوبه، ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القَذح في رئاستهم والطَّعن في شرفهم . وهذا كثيرٌ في التَّاس لهذا العهد . 5

فمن ذلك ما تدَّعيه زِناتةُ جملةً أنَّهُم من العرب. ومنه ادَّعاءُ أولاد [رئاب]^(أ) المعروفين بالحجازيين من بني عامر، إحدى شعوب رُغْبَة، أنَّهُم من بني سُلَيْم، [ثم]^(ب) من الشَّريد منهم، لحق جدُّهم ببني عامر نَجَّارًا يَضَع الحِزْجان، واختلطَ بهم والتَحَمَ بنسبهم حتَّى رَأَس عليهم، ويُسمَّونه الحِجازيَّ.

ومن ذلك ادَّعاءُ بني عبد القويِّ بن العبَّاس من تُوجين ، أنَّهُم من وُلْدِ العبَّاس بن عبد المطلب، رُغْبَة في هذا النسب الشريف وغلطًا باسم العبَّاس بن عطية، أبي عبد القويِّ. ولم يُعلم دخولُ أحدٍ من العبَّاسيين إلى المغرب، لأنَّه كان مُدَّ أَوَّل دَوْلَتِهِمْ على دَعْوَةِ العَلَوِيِّين أعدائِهِمْ من الأدارسة والعَبِيدِيِّين ؛ فكيف يَسْقُطُ العبَّاسيُّ إلى أحدٍ من شيعة العَلَوِيِّين ؟! 10

وكذلك ما يدَّعيه أبناءُ زِيَّان مُلُوكِ بَنِي عَبد الواد ، أنَّهُم من وُلْدِ القاسم بن إدريس، ذهاباً إلى ما اشتهر في نسبهم أنَّهُم من وُلْدِ القاسم، فيقولون بلسانهم الزَّنَاتِيَّ إيت القاسم، أي: بنو القاسم، ثم يدَّعون أنَّ القاسم هذا هو القاسمُ بن إدريس، أو / القاسم بن محمد بن إدريس. ولو كان ذلك صحيحاً، فغايةُ القاسم هذا أنه قَرَّ مِنْ [90 ب]

(أ) في ظ: رباب، وفي: ع ج ل: رباب، بقلب الحمة إلى ياء، والأصل رئاب (انظر الاشتقاق 119) (ب) من: ع ل ي .

مكان سُلطانه مُستجيرًا بهم، فكيف تتم له الرئاسة عليهم في باديتهم ؟ وإنما هو غلط من قبل اسم القاسم ؛ فإنه كثير الدَّوران^(أ) في الأدارسة ؛ فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب، وهم غير مُحتاجين لذلك؛ فإن منالهم للملك والعزة إنما كان بعصيتهم، ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الأنساب. وإنما يحمل على هذا المتقربون إلى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم وبشهر حتى يبعد عن الرد . ولقد بلغني عن 5 يغمراسن بن زيان مؤثر سلطانهم ، أنه لما قيل له ذلك نكره ، وقال بلغته الزناتية ما معناه : أما الدنيا والملك [فيلناه]^(ب) بسؤفنا لا بهذا النسب، وأما نفعه في الآخرة فردود إلى الله . وأعرض عن المتقرب إليه^(ج) بذلك .

ومن هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بني يزيد من رغبة ، أنهم من 10 ولد أبي بكر الصديق ، وبنو سلامة شيوخ بني يذللتن من توجين أنهم من سليم ، وكذا الدواودة شيوخ رباح أنهم من أعقاب البرامكة ، وكذلك بنو مهتا أمراء طيء بالمشرق ، يدعون فيما بلغنا أنهم من أعقابهم، وأمثال ذلك كثير ؛ ورئاستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الأنساب كما ذكرناه ؛ بل يُعين أن يكونوا من صريح ذلك النسب وأقوى عصبياته . فاعتبره واجتنب المغالطة فيه. ولا تجعل من هذا الباب 15 إلحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية ؛ فإن المهدي لم يكن من مثبت الرئاسة في قومه، وإنما رأس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين، ودخول قبائل المصامدة في دعوته، وكان مع ذلك من أهل القبائل^(د) المتوسطة فيهم. والله عالم الغيب والشهادة.

(أ) ي: الوجود (ب) في ظ وحدها: قبلناه، وهو تصحيف (ج) سقط من ج (د) في: ع ل ج ي: المناب

12 ﴿ فَصْلٌ ، فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرْفَ بِالْأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةِ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَيَكُونُ
لِغَيْرِهِمْ بِالْجَانِزِ وَالشُّبْهِ

/ وذلك أَنَّ الشَّرْفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَالِ ؛ وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنَّ يَعُدَّ الرَّجُلُ
فِي آبَائِهِ أَشْرَافاً مَذْكُورِينَ ، يَكُونُ لَهُ بَوْلَادَتُهُمْ إِيَّاهُ وَالْإِنْتِسَابُ إِلَيْهِمْ تَجَلَّةً فِي أَهْلِ
5 جَلَدَتِهِ ، لَمَّا وَقَرَّ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ تَجَلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ . وَالنَّاسُ فِي نُشُوءِهِمْ
وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادُنٌ ؛ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽¹⁾ : "النَّاسُ مَعَادُنٌ ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي
الْإِسْلَامِ ، إِذَا فَهَمُوا" . فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ . وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ
وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ الْعَصَبِيَّةُ لِلتُّغْرَةِ وَالتَّنَاصُرِ ، فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصَبِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَمَخْشِيَةً ،
وَالْمُنْتَبِثُ فِيهَا زَكِيٌّ مَخْمِيٌّ ، تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى ، وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ
10 مِنْ الْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا ؛ فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرْفُ أَصِيلًا فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ لَوْجُودِ
ثَمَرَةِ النَّسَبِ . وَتَتَفَاوَتُ الْبُيُوتُ فِي هَذَا الشَّرْفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصَبِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ سِرُّهَا . وَلَا
يَكُونُ لِلْمُتَفَرِّدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِالْجَازِ ، وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ ، فَزُخْرَفٌ مِنْ
الدَّعَاوَى . وَإِذَا اغْتَبَرَتْ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ ، وَجَذَتْ مَغْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ
يَعُدُّ سَلَفًا فِي خِلَالِ الْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ ، مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ ، وَهَذَا
15 مُغَايِرٌ لِسِرِّ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَعْدِيدُ الْآبَاءِ ، لَكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ
وَيُنْتَبِثُ بِالْجَازِ ، بِعِلَاقَةٍ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْآبَاءِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ
وَمَسَائِلِكِهِ ؛ وَلَيْسَ حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ وَعَلَى الْإِطْلَاقِ .

(1) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَنَاقِبِ 4: 217 (3496) وَ (2374) وَ (3588) ، وَمُسْلِمٌ (2526) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ .

وقد يكون للبيت شرف أول بالعصية والخلال، ثم يتسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم، ويختلطون بالغمار، ويتقى في نفوسهم وشواش ذلك الحسب، يعدون به أنفسهم من أشرف البيوتات أهل العصيات⁽¹⁾، وليسوا منها في شيء، لذهاب العصية جملة. / وكثير من أهل الأمصار التائبين في بيوت العرب أو العجم [91 ب]

لأول عهدهم مؤسوسون بذلك؛ وأكثر ما رشح الوشواس في ذلك ليني إسرائيل، فإنه 5 كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمتبت، أولاً، لما تعدد في سلفهم من الأنبياء والرسل، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم؛ ثم بالعصية ثانياً، وما آتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم به، ثم انسلخوا من ذلك أجمع، وضربت عليهم الذلة^(ب)، وكتب عليهم الجلاء في الأرض، وانفردوا بالاستعباد والكفر آفاً من السنين. ثم وما زال هذا الوشواس مصاحباً لهم؛ فتجدهم يقولون: 10 هذا هاروني؛ هذا من نسل يوشع؛ هذا من عقب كالب؛ هذا من سبط يهوذا، مع ذهاب العصية ورسوخ الدل فيهم منذ أحقاب متطاولة. وكثير من أهل الأمصار غيرهم، المنقطعين في أنسابهم عن العصية، يذهب إلى هذا الهذيان.

وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة⁽¹⁾ من تلخيص كتب المعلم الأول، فقال: والحسب هو أن يكون من قوم قد تم نزلهم 15 بالمدينة؛ ولم يتعرض لما ذكرناه. ولئت شغري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة إن

(1) في: ع ل ج ي: العصاب (ب) ل: والمسكنة.

(1) ابن رشد: تلخيص الخطابة 41 ونص عبارته وشروطه: أما الحسب فهو أن يكون القوم الذين هو منهم هم أول من نزل المدينة، وأن يكونوا قدما النزول فيها، ويكونون مع هذا حكماً ورؤساء ذوي ذكر جميل وكثرة عدد، وأن يكونوا مع هذا أحراراً لم يجبر عليهم سباء....

لم تكن له عِصَابَةٌ يُرْهَبُ بها جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرَهُمْ عَلَى الْقَبُولِ مِنْهُ ؟ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ الآبَاءِ فَقَطْ . مع أَنَّ الخطابة إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةٌ مِنْ تَوَثُّرِ اسْتِمَالَتِهِ ، وَهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ . وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَقْدَرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يُسْتَمَالُ هُوَ . وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنَ الْحَضَرِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ ؛ إِلَّا أَنَّ ابْنَ رُشْدٍ رَبِّي فِي جِيلٍ وَتَلَدٍ لَمْ يُنَاسُوا الْعَصِيَّةَ وَلَا أَنْسَوْا أحوَالَهَا ، فَبَقِيَ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَالْحَسَبِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَعْدِيدِ الآبَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَمْ يُرَاجَعْ فِيهِ حَقِيقَةُ الْعَصِيَّةِ وَسِرُّهَا فِي [الْحَقِيقَةِ] ⁽¹⁾ . ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة ، من الآية 192] 5

[282] .

13 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرْفَ لِلْمَوَالِي وَأَهْلِ الْأَصْطِنَاعِ ^(ب) ، إِنَّمَا هُوَ مَوَالِيهِمْ لَا بِأَنْسَابِهِمْ

10

وذلك أَنَا قَدَّمْنَا الْآنَ أَنَّ الشَّرْفَ بِالْأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ . فَإِذَا اضْطَنَعَ أَهْلُ الْعَصِيَّةِ قَوْمًا مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ ، أَوْ اسْتَرْقَوْا الْعِبْدَى وَالْمَوَالِي ، وَالتَّحَمُّوا بِهِمْ كَمَا قُلْنَا ، ضَرَبَ مَعَهُمْ أَوْلَئِكَ الْمَوَالِي وَالْمُضْطَنَعُونَ بِسَنَمِ عَصِيَّتِهِمْ فِي تِلْكَ الْعَصِيَّةِ ، وَلَبَسُوا جِلْدَتَهَا كَأَنَّهُمْ عَصِيَّتُهُمْ ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِنْتِظَامِ فِي الْعَصِيَّةِ مَسَاهِمَةٌ فِي نَسَبِهَا ؛ كَمَا قَالَ ﷺ ⁽¹⁾ : "مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ" . وَسَوَاءٌ كَانَ مَوْلَى رِقٍّ أَوْ

15

(1) ط: الحقيقة (ب) ل: النصيبة .

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 3: 215 ، وأحمد في المسند 3: 448 ، من حديث مهران مولى النبي ﷺ . وفي البخاري 8: 193 (6761) من حديث أنس عن النبي: "مولى القوم من أنفسهم" .

مولى اضطناع وحلف . وليس نسبُ ولادته بنافع له في تلك العَصِيَّة ، إذ هي مُباينةٌ لذلك النسب ، وعَصِيَّة ذلك النسب مفقودةٌ لذهاب سِرِّها عند التحاميه بهذا النسب الآخر وفقدانه أهل عَصِيَّتِها ، فيصيرُ من هؤلاء ويتدرجُ فيهم . فإذا تعددت له الآباء في هذه العَصِيَّة ، كان له بينهم شرفٌ وينتُ على نسبته في ولايته ، واضطناعُهم لا يتجاوزُهُ إلى شرفهم ، بل يكون أدونُ منهم على كلِّ حال . 5

وهذا شأنُ الموالى في الدَّول والخِدْمَة كُلِّهم ؛ فإنَّهم إنَّما يشرفون بالرُّسوخ في ولاء الدولة وخِدْمَتِها وتعدّد الآباء في ولايتِها . ألا ترى إلى موالى الأتراك في دولة بني العبَّاس ، وإلى بني بَزْمَك من قبلهم ، وبني تُوجُخت ، كيف أذكروا البيتَ والشَّرف ، وتبنَّوا المجدَّ والأصالة بالرُّسوخ في ولاء الدولة ؛ فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم النَّاس بَيْتًا وشرَّفًا بالانتساب إلى ولاء الرِّشيد وقومه ، لا بالانتساب في 10 الفرس . وكذا موالى كلِّ دولة وخِدْمَتِها إنَّما يكونُ / لهم البيتُ والحسبُ بالرُّسوخ في ولايتِها والأصالة في اضطناعها . ويضمَّجَلُ نسبُهُ [الأقدمُ إن كان من غير نسبِها ، ويبقى مُلغى لا عِبْرَة به في أصالَتِهِ ومَجْدِهِ . وإنَّما المُعْتَبَرُ نِسْبَتُهُ⁽¹⁾] ولايته واضطناعه ، إذ فيه سِرُّ العَصِيَّة التي بها البيتُ والشَّرف ؛ فكان شرفه مُشتقٌّ من شرف مواليه ، وبَيْتُهُ من بَنائِهِمْ ، فلم ينفعه نسبُ الولادة ، وإنَّما بنى مَجْدَهُ نسبُ الولاء في الدَّولة 15 ولُحْمَةُ الاضطناع فيها والتَّزْيِيَة . وقد يكونُ نسبُهُ الأوَّلُ في لُحْمَة عَصِيَّة ودولة ، فإذا ذَهَبَتْ وصارَ ولاؤُهُ واضطناعه في أُخْرَى ، لم ينفعه الأوَّلُ لذهاب عَصِيَّتِهِ ، وانتفعَ بالثَّاني لوجودها . وهذا حالُ بني بَزْمَك ؛ إذ المنقولُ أنَّهم كانوا أهلَ بَيْتٍ في

(1) سقط من ظ وحدها .

الفُرس من سَدَنَةِ بُيُوت النَّارِ عندهم، ولَمَّا صاروا إلى وِلَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ
اعْتِبَاراً، وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وَلَاؤُهُمْ^(١) فِي الدَّوْلَةِ وَاضْطِنَاعُهُمْ . وَمَا سِوَى هَذَا
فَوَهُمْ تُؤَسَّسُونَ بِهِ النُّفُوسُ الْجَامِحَةُ وَلَا حَقِيقَةُ لَهُ ، وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَا .
و ﴿ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات ، من الآية 13].

5 14 • فَضْلٌ ، فِي أَنْ نَهَايَةَ الْحَسَبِ فِي الْعَقَبِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَةُ آبَاءَ

اعْلَمْ أَنَّ الْعَالَمَ الْعُنْصُرِيَّ بِمَا فِيهِ ، كَائِنٌ فَاسِدٌ ، لَا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلَا مِنْ أَسْوَائِهِ ؛
فَالْمَكُونَاتُ مِنَ الْمَغْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ ، الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ ، كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ
بِالْمَعَانِيَةِ ، وَكَذَلِكَ مَا يَغْرِضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَخُصُوصاً الْإِنْسَانِيَّةِ . فَالْعُلُومُ تُنْشَأُ ثُمَّ
تَذْرُسُ ، وَكَذَلِكَ الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا . وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَغْرِضُ لِلْآدَمِيِّينَ ؛ فَهُوَ
كَائِنٌ فَاسِدٌ لَا مَحَالَةَ . وَلَيْسَ يَوْجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ
لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، كَرَامَةٌ بِهِ وَحَيَاظَةٌ فِي^(ب) الشَّرَفِيَّةِ^(ج) ، وَأَوَّلُ
كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ ، وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنِ الرَّئِيسَةِ وَالشَّرَفِ إِلَى الضَّعَةِ وَالْإِتِّدَالِ
وَعَدَمِ الْحَسَبِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ / فَقَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ ، شَأْنُ كُلِّ
مُخَذَّثٍ .

[193]

15 ثُمَّ إِنَّ نَهَايَتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آبَاءٍ مِنْ عَقِبِهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بَانِي الْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي
بَنَائِهِ ، وَمُحَافِظٌ عَلَى الْخِلَالِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ . وَابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ

(١) فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ: وَلَانِهِمْ (ب) ظ، وَفِي ج ع ل ي: عَلَى (ج) مِنْ ظ وَحْدَهَا وَفِي بَقِيَةِ الْأَصُولِ الْبِرِّ فِيهِ .

لأبيه ، قد سَمِعَ منه ذلك وأخذه عنه ، إلا أنه مُقَصِّرٌ في ذلك تقصيرَ السامعِ بالشَّيءِ عن المعاني له . ثم إذا جاء الثالث كان حَطُّهُ الافتقارَ والتَّقليدَ خاصَّةً ، فَقَصَّرَ عن الثاني تقصيرَ المقلِّدِ عن المُجْتَهِدِ . ثم إذا جاء الرَّابِعُ قَصَّرَ عن طريقتهم جُمْلَةً ، وأضاع الجِلالَ الحافِظَةَ لبناءِ مَجْدِهِم واختَقَرَهَا ، وتوَهَّمُ أَنَّ ذلك البُنيانَ لم يَكُنْ بِمُعَانَاةٍ ولا تَكْلُفٍ ، وإنَّما هو أَمْرٌ وَجَبَ لَهُمْ منذ أَوَّلِ النِّشَاةِ بِمَجَرَّدِ انْتِسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعِصَابَةٍ ولا 5 بِخِلالٍ ، لما يَرى من التَّجَلُّةِ بَيْنَ النَّاسِ ، ولا يَعلَمُ كَيْفَ كان حَدُوثُهَا ولا سَبَبُهَا ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ ، فَيَرْتَابُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَهْلِ عَصِيَّتِهِ وَيَرى الفَضْلَ عَلَيْهِم ، وَثُوقًا بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنْ اسْتِثْبَاعِهِمْ ، وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ الاسْتِثْبَاعَ مِنَ الجِلالِ ، الَّتِي مِنْهَا التَّوَاضُّعُ لَهُمْ ، وَالْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ . فَيُحَقِّرُهُمْ لِذَلِكَ ؛ فَيَنْتَقِضُونَ عَلَيْهِ ، وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيُدِيلُونَهُ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمُنْتَبِتِ ، وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقَبِ ، لِلإِذْعَانِ بِعَصِيَّتِهِمْ كَمَا 10 قُلْنَاهُ ، بَعْدَ الْوُثُوقِ بِمَا يَرْضُونَهُ مِنْ خِلَالِهِ . فَتَنُمُو فُرُوعُ هَذَا ، وَتَتَدَوَّى فُرُوعُ الْأَوَّلِ وَيَتَهْدَمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ . هَذَا فِي الْمُلُوكِ ، وَهَكَذَا فِي بُيُوتِ الْقَبَائِلِ وَالْأَمْرَاءِ وَأَهْلِ الْعَصِيَّةِ أَجْمَعٍ ؛ ثُمَّ فِي بُيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ؛ إِذَا انْحَطَّتْ بُيُوتٌ نَشَأَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [سورة

فاطر ، الآيتان 16 ، 17].

15

واشترائط الأربعة في الأخساب إنما هو في الغالب ، وإلا فقد يندثر البيت من دون الأربعة ، ويتلاشى ويتهدم . وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس ، إلا أنه في الخطاط وذهاب . / واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة : بان ؛ ومباشر [93 ب] له ؛ ومقلد ؛ وهادِم . وهو أقل ما يمكن . وقد اعتُبرت الأربعة في نهاية الحسب في

باب المَدْح والثناء. قال عليه السلام⁽¹⁾ : "إنما الكَرِيم ابنُ الكَرِيم ابنُ الكَرِيم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" . إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد . وفي التَّوراة⁽²⁾ ما مَعْنَاه : أنا الله رَبُّكَ طَائِقٌ غَيُورٌ ، مُطَالِبٌ بِذُنُوبِ الآبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَعَلَى الرَّوَابِيعِ . وهو يدلُّ على أَنَّ الأربعةَ الأَغْصَابَ غايةً في الأنساب والحَسَبِ . *⁽¹⁾ ومن كتاب الأغاني⁽³⁾ في أخبار [عَوَيْف] ^(ب) القَوافي: أَنَّ كِسْرَى قال لِلتُّعْمَانِ ، هلْ في العَرَبِ قَبِيلَةٌ تَشْرُفُ عَلَى قَبِيلَةٍ ؟ قال : نعم ؛ قال : بأيِّ شَيْءٍ ؟ قال : من كانتْ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤُوسَاءِ ، ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمَالِ الرَّابِعِ ، فَالْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ ؛ وَطَلَبَ ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ ، وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ ، وَآلُ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ بَيْتُ تَمِيمٍ ، وَآلُ ذِي الْجَدَّيْنِ بَيْتُ شَيْبَانَ ، وَآلُ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ ، فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ ، وَأَقْعَدَ لَهُمُ الْحُكَّامَ الْعَدُولَ ؛ فَقَامَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَابَتِهِ مِنَ التُّعْمَانِ ، ثُمَّ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ ، مِنْ شَيْبَانَ ، ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ ، ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ ، وَخَطَبُوا وَنَشَرُوا ، فَقَالَ كِسْرَى : كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْبُيُوتَاتُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ بِالشَّرَفِ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي الدِّيَّانِ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ بَيْتُ الْيَمَنِ . وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْبَعَةَ آبَاءَ ^(ج) نِهَايَةً فِي الْحَسَبِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ * .

(أ) ما بين النجمين من الثقل عن الأغاني ساقط من ي ؛ وقد ألحق المؤلف هذا النص في حاشية ع ، وعنه نقلت الأصول الثلاثة لظ ج (ب) في الأصول: غريف مصحفًا ، والنص في الأغاني (ج) في ظ وحدها: الآباء .

(1) أخرجه البخاري في حديث الأنبياء من صحيحه 4: 181 (3382) و 4: 188 (3390) وفي التفسير 6: 95

(4688) وهو في مسند أحمد 2: 96 .

(2) سفر الخروج - الفصل العشرون : 5 .

(3) الأغاني 19 : 134 .

15 • فصل ، في أن الأمم الوحشية أقدرُ على التغلب من سواها

- اعلم أنه لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة ، لا جرم كان هذا الجيل الوحشي أشدَّ شجاعةً من الجيل الآخر ، فهم أقدرُ على التغلب
- (194) واثتراع ما في أيدي سواهم من الأمم . بل الجيل / الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار . فكلما نزلوا الأرياف ، وتبنكوا النعيم ، وألفوا عوائد الخصب في
- 5 المعاش والتعيم ، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحيشهم وبدوتهم . واعتبر ذلك في الحيوانات العجم ، بدواجن الطباء والبقر الوحشية والحمر ، إذا زال توحيشها بمخالطة الأدميين وأخصب عيشها ، كيف يختلف حالها في الاتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها ؛ وكذلك الأدمي المتوحش إذا أنس وألف .
- 10 وسببه أن تكون السجايا والطبائع إنما هو عن المألوفات والعوائد ؛ وإذا كان الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة ، فمن كان من هذه الأخيال أعرق في البداوة وأكثر توحيشاً كان أقرب إلى التغلب على سواه ، إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة والعصاة . وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين إلى
- الملك والنعيم ، ومع زبيعة الموطنين أرياف العراق ونعيمه ، لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم ، كيف أزهقت البداوة حدّهم في
- 15 التغلب ، فغلبوهم على ما في أيديهم واثترعوه منهم . وهكذا حال بني طيء وبني عامر بن صعصعة ، وبني سليم بن منصور من تقدمهم ، لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ، ولم [يلتبسوا] ⁽¹⁾ بشيء من دنياهم ، كيف أمسكت حال

(1) في ط وحدها : يكتسبوا .

البداءة عليهم قُوَّة عَصِيَّتِهِمْ ولم تُخْلِفْهَا مَذَاهِبُ التَّرَفِ ، حتَّى صاروا أَغْلَبَ على الأَمْرِ منهم . وكذا كُلُّ حَيٍّ من العَرَبِ يَلِي نَعِيمًا وَعَيْشًا خَصِيًّا دون الحَيِّ الأَخر ؛ فَإِنَّ الحَيَّ المُتَبَدِّي يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ ، وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَأَ فِي القُوَّةِ والعَدَدِ ، سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

5 16 • فَضْلٌ ، / فِي أَنَّ الغَايَةَ الَّتِي تَجْزِي إِلَيْهَا العَصِيَّةُ هِيَ الْمُلْكُ [94 ب]

وذلك لَأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ العَصِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الحِمَايَةُ والمدافعةُ والمطالبةُ وكلُّ أمرٍ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ؛ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الآدَمِيِّينَ بِالطَّبِيعَةِ الإنْسَانِيَّةِ يَخْتَاجُونَ فِي كُلِّ اجْتِمَاعٍ إِلَى وازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزْعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِم بِتِلْكَ العَصِيَّةِ ، وَإِلَّا لَمْ تَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا التَّغْلِبُ هُوَ الْمُلْكُ ، وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرِّئَاسَةِ ، لِأَنَّ الرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُؤْدُودٌ وَصَاحِبُهَا مَثْبُوعٌ ، وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ . وَأَمَّا الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ . وَصَاحِبُ العَصِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةِ السُّؤْدُودِ وَالِاتِّبَاعِ ، وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغْلِبِ وَالْقَهْرِ ، لَا يَتْرُكُهُ ، لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ ، وَلَا يَتِمُّ اقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِالعَصِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا مَثْبُوعًا . فَالتَّغْلِبُ الْمُلْكِيُّ غَايَةُ لِلْعَصِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَ .

15 ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَ⁽¹⁾ فِيهِ بُيُوتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَصِيَّةٍ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا ، تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتِيعُهَا وَتَلْتَحِمُ جَمِيعَ العَصَبِيَّاتِ فِيهَا ، وَتَصِيرُ

(1) ط ج: كانت .

كأنها عَصِيَّةٌ واحدةٌ كُبرى ؛ وإلا وَقَعَ الافتراقُ المُفْضي إلى الاختلاف والتنازع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ^(١) اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [سورة البقرة ، من الآية

. [251]

ثم إذا حصل التغلبُ بتلك العَصِيَّةِ على قَوْمِها طلبت بطبعها التغلبَ على أهل عَصِيَّةٍ أُخرى بعيدة عنها ، فإن كَفَأَتْها أو مانَعَتْها كانوا أَقْتالاً وأنظاراً ، ولكل واحدةٍ منها التغلبُ على حَوَزَتِها وقَوْمِها ، شأن القبائل والأُمَمِ المُفترقة في العالم . وإن غلبَتْها أو استتبَعَتْها ، التحمَّتْ بها أيضاً وزادَتْها قوَّةٌ في التغلبِ إلى قُوَّتِها ، وطلَبَتْ غايةً من التغلبِ / والشَّحْمُ أَغْلَى من الغاية الأولى وأَبْعَدُ ؛ وهكذا دائماً حتى تُكافِيَءَ بِقُوَّتِها قوَّةَ الدَّوْلَةِ . فإن أَدْرَكَتِ الدَّوْلَةُ في هَرَمِها ولم يكن لها مُمانِعٌ من أولياء الدَّوْلَةِ أهل العَصِيَّاتِ ، اسْتَوْلَتْ عليها وانتزَعَتْ الأمرَ من يَدِها ، وصار المُلْكُ أَجْمَعُ لها . وإن انتهت إلى قُوَّتِها ولم يُقارِنْ ذلك هَرَمَ الدَّوْلَةِ ، وإنما قارِنْ حاجَتِها إلى الاستِظْهار بأهل العَصِيَّاتِ ، انتظَمَتْها الدَّوْلَةُ في أوليائها تَسْتَظْهِرُ بها على ما يَعْنُ من مقاصِدها ، وذلك مُلْكٌ آخر دُونَ المُلْكِ المُسْتَبَدِّ . وهو كما وَقَعَ لِلتُّركِ في دَوْلَةِ بني العباس ؛ ولصِنْهاجَةِ وزِناتَةِ مع كُتامة ، ولبني جُمدان مع ملوك الشَّيعَةِ من العلَوِيَّةِ والعبَّاسِيَّةِ . فقد ظَهَرَ أَنَّ المُلْكَ هو غايةُ العَصِيَّةِ ، وأنها إذا بَلَغَتْ إلى غايَتِها حصلَ للقبيل المُلْكُ ، إمَّا بالاستِبدادِ ، أو بالمُظَاهَرَةِ ، على حَسَبِ ما يَسَعُهُ الوقتُ المقارِنْ لذلك . وإن عاقَبَتْها عن بُلُوغِ الغاية عوائِقُ ، كما بُيِّنَتْ ، وَقَفَتْ في مَقامِها إلى أن يَقْضِيَ اللَّهُ بأَمْرِهِ .

(١) في الأصول كلها : دفاع ، وهي إحدى قراءتين قرأ بها القراء ، والوجه فيها كما يقول الطبري ، المصدر من قول القائل : دفاع الله عن خلقه فهو يدافع مُدافعةً ودفاعاً . انظر جامع البيان 2 : 755 .

17 ﴿ فَصَلُّ ، فِي أَنَّ مِنْ عَوَاقِقِ الْمُلْكِ حُصُولَ التَّزَرُّفِ وَإِنْغِمَاسِ الْقَبِيلِ فِي النِّعَمِ

وَسَبَبُ ذَلِكَ ، أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بَعْصِيَّتُهَا بَعْضَ الْغَلَبِ ، اسْتَوْلَتْ عَلَى
النِّعْمَةِ بِمَقْدَارِهِ ، وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَالْخِصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخِصْبِهِمْ ، وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ
فِي ذَلِكَ بِسَنِهِمْ وَحِصَّةً ، بِمَقْدَارِ غَلَبِهَا وَاسْتِظْهَارِ الدَّوْلَةِ بِهَا . فَإِنْ ^(١) كَانَتِ الدَّوْلَةُ مِنْ
الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي انْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مُشَارَكَةِهَا فِيهِ ، أَدْعَنَ ذَلِكَ الْقَبِيلُ

لَوْلَايَتِهَا ، وَالْقُنُوعَ بِمَا يُسَوِّغُونَ مِنْ نِعْمَتِهَا ، / وَيُشْرِكُونَ فِيهِ مِنْ جِبَايَتِهَا ، وَلَمْ تَسْمُ [95 ب]
آمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَلَا أَسْبَابِهِ ، إِنَّمَا هُمُومُ النِّعَمِ وَالْكَسْبِ وَخِصْبِ
الْعَيْشِ وَالسَّكُونِ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ ، وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمُلْكِ فِي
الْمَبَانِي وَالْمَلَابِسِ ^(ب) ، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ وَالتَّائِقِ فِيهِ ، بِمَقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنْ
الرِّيَاشِ وَالتَّرَفِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ . فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ الْبَدَاوَةِ وَتَضَعُفُ
الْعَصِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ ، وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطِ . وَيَنْشَأُ بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي
مِثْلِ ذَلِكَ ، مِنْ التَّرَفِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ ، وَيَسْتَنَكِفُونَ عَنْ سَائِرِ
الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ فِي الْعَصِيَّةِ ، حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ خُلُقًا لَهُمْ وَسَجِيَّةً . فَتَنْقُصُ عَصِيَّتُهُمْ
وَيَسْأَلُهُمْ فِي الْأَخْيَالِ بَعْدَهُمْ بِتَعَاقُبِهَا ، إِلَى أَنْ تَنْقُضَ الْعَصِيَّةُ فَيَتَأَذَّنُونَ بِالْإِقْرَاضِ . وَعَلَى
قَدْرِ تَرَفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ ، فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ ؛ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرَفِ
وَالْفَرْقِ فِي النِّعَمِ كَاسَرٍّ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغْلِبُ . وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصِيَّةُ
قَصُرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ ، فَضْلًا عَنِ الْمُطَالَبَةِ ، وَالتَّهَمُّتِ الْأَمَمِ سِوَاهُمْ .
فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَاقِقِ الْمُلْكِ ؛ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مِنْ يَشَاءُ .

(١) ع: وإن (ب) في ظ: والملابس خاصة، وهي مثبتة في أصل ع ثم شطبت ولم تنقلها الأصول الأخرى .

18 ﴿ فَصَلِّ ، فِي أَنْ مِنْ عَوَاتِقِ الْمُلْكِ ، حُصُولَ الْمَذَلَّةِ لِلْقَبِيلِ ، وَالْإِثْقَادَ لِسَوَاهُمْ

وسبب ذلك أن المذلة والاثقياد كسيران لسورة العنصية وشدها ؛ فإن
اثقيادهم ومذلته دليل على فقدانها ؛ فما رثموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة ؛ ومن
عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة . واعتبر ذلك في بني
إسرائيل لما دعاهم موسى إلى ملك الشام ، وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها ،

كيف عجزوا عن ذلك ، / وقالوا: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا

منها ﴾ [سورة البقرة، من الآية 22] ، أَيْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرِ عَصِيَّتِنَا ،
وتكون من مُعْجَزَاتِكَ يَا مُوسَى . ولما عَزَمَ عَلَيْهِمْ لَجُّوا وَازْتَكَبُوا الْعِضْيَانَ ، وقالوا :

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ [سورة المائدة ، من الآية 24] . وما ذلك إلا لما آنسوا

من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها ؛

وذلك بما حصل فيهم من خلق الاثقياد ، وما رثموا من الدلّ للقبط أخقاباً حتى
ذهبت العنصية منهم جملة ؛ مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن

الشام لهم ، وأن العمالة الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من الله قدره لهم . فأقصرُوا^(أ)

عن ذلك وعجزوا ، تغويلاً على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة ، لما

حصل لهم من خلق المذلة ، وطغنهم فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به .

فعاقبهم الله بالتيه ، وهو أنهم أقاموا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين

سنة ، لم يأووا فيها لعُمران ولا نزلوا مِصراً ، كما قصه القرآن ، لغلظة العمالة

(أ) في ل وحدها، ففصروا؛ وفي اللسان (فصر) أقصر عن الشيء إذا نزع عنه وشذر عليه. وقصر عن الشيء عجز عنه ولم يبلغه.

بالسَّام والقَيْط بمضر عليهم ، ولعجزهم عن مُقاومتهم كما زعموه . ويظهر من مساق الآية ومفهومها أنّ حِكْمَةَ ذلك التّيه مقصودة ، وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الدّل والقهر والّفوه، وتخلّقوا به وأفسدوا من عصيتهم، حتّى نشأ في ذلك التّيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يُسام بالمدلة ، فنشأت لهم 5 بذلك عَصِيَّةٌ أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتّغلب . ويظهر لك من ذلك⁽¹⁾ أنّ الأزبعين سنة أقلّ ما يتأتّى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر . سنبّحان الحكيم العليم.

وفي هذا أوضح دليل على شأن العَصِيَّة ، وأنها التي تكونُ بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة ، وأنّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عن جميع ذلك .

- 10 ويُلْتَحَقُ بهذا الفصل فيما يوجب المدلة / للقبيل، شأن المغارم والضرائب؛ [96 ب]
- فإنّ القبيل الغارمين ما أعطوا اليدَ لذلك حتّى رَضُوا بالمدلة فيه ، لأنّ في المغارم والضرائب ضيماً ومدلة لا تحتملها النفوس الأبيّة إلا إذا استهوتته عن القتل والتلف، وأنّ عَصِيَّتَهُمْ حينئذٍ ضعيفة عن المدافعة والحماية؛ ومن كانت عَصِيَّتُهُ لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة أو المطالبة وقد حصل له الانقياد للدّل ؛ والمدلة عاتقة كما 15 قدّمناه. في الصحيح قوله ﷺ⁽¹⁾ في شأن الحزب لما رأى سكة المحراث في بغض دور الأنصار ، فقال : "ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الدّل". فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للدلة. هذا إلى ما يصحب ذلّ المغارم من خلق المكر

(1) ل: بذلك .

(1) أخرجه البخاري في المزارعة من صحيحه 3: 135 حديث (2321) .

والخديعة بسبب ملكة القهر، [ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يستعيد من المغرم، فسئل عن ذلك فقال⁽¹⁾: "إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أُغْرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ"⁽¹⁾]. فإذا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِي رِيقَةٍ مِنَ الدَّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخَرَ الدَّهْرَ.

- 5 ومن هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ
المَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمُ مِنَ الْمُلُوكِ. وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ؛ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ
لَمَا اسْتَتَبَّ لَهُمْ مُلْكُ وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ. وَانْظُرْ فِي هَذَا مَا قَالَهُ شَهْرِبَارُ مَلِكُ الْبَابِ
لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زُبَيْعَةَ لَمَّا أَطْلَّ عَلَيْهِ، وَسَأَلَ أَمَانَتَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ؛ فَقَالَ: أَنَا الْيَوْمَ
مِنْكُمْ ، يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ ، وَصَغُويَ مَعَكُمْ ، فَمَرْحَبًا بِكُمْ ، وَبَارَكَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ، وَجَزَيْتُنَا
إِلَيْكُمْ ، التَّضَرُّ لَكُمْ وَالْقِيَامُ بِمَا تُحِبُّونَ ، وَلَا تُذَلُّونَا بِالْجِزْيَةِ فَتَوْهِنُونَا لِعَدُوِّكُمْ. فَاعْتَبِرْ هَذَا
10 فِيمَا قُلْنَا فَإِنَّهُ كَافٍ.

(1) من حاشية ع بخطه .

(1) هو في الصحيحين من حديث عائشة : البخاري (832) و (2397) ومسلم (589) .

19 • فَصْلٌ ، فِي أَنَّ مِنْ عِلَامَاتِ الْمُلْكِ ، التَّنَافُسَ فِي الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ ،
[وَبِالْعَكْسِ] ^(١)

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الْاجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَا ، وَكَانَ
الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ / وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ [١٩٧]
5 الْعَاقِلَةِ ، لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ
إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبَ ، وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَ لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ
إِنْسَانٌ ، لِأَنَّهَا خَاصَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا لِلْحَيَوَانِ ؛ فَإِذَنْ خِلَالُ الْخَيْرِ فِيهِ هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ
السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ ، إِذَا الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْسِّيَاسَةِ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يَتَّبِعِي عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ ، وَهُوَ الْعَصَبِيَّةُ
10 وَالْعَشِيرُ ، وَقَرَعَ يُتَمَّمُ وَجُودَهُ وَيَكْمُلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ . [وَإِذَا كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ ،
فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا ، وَهِيَ الْخِلَالُ] ^(١) ؛ لِأَنَّ وَجُودَهُ دُونَ مُتَمِّمَاتِهِ كَوُجُودِ شَخْصٍ
مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ ، أَوْ ظُهُورِهِ عَزِيَانًا بَيْنَ النَّاسِ . وَإِذَا كَانَ وَجُودُ الْعَصَبِيَّةِ فَقَطْ مِنْ
غَيْرِ انْتِحَالِ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقْصًا فِي أَهْلِ الْبُيُوتِ وَالْأَحْسَابِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكِ
الَّذِي هُوَ غَايَةٌ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنَهَايَةٌ لِكُلِّ خَسْبٍ .

15 وَأَيْضًا فَالسِّيَاسَةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كِفَالَةٌ لِلخَلْقِ ، وَخِلَافَةٌ لِلَّهِ فِي الْعِبَادَةِ فِي الْأَحْكَامِ ؛
وَأَحْكَامُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادَتِهِ إِنَّمَا هِيَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ ؛
وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قَدَرِهِ سُبْحَانَهُ وَقُدْرَتِهِ ، فَإِنَّهُ

(١) سقط من ظ .

فاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا وَمُقَدَّرُهُمَا، إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ . فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الْعَصِيَّةُ
الكفيلةُ بالقُدْرَةِ وَأُوْنِسَتْ مِنْهُ خِلَالُ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةِ لَتَنْفِيزِ أَحْكَامِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، فَقَدْ
تَهَيَّأَ لِلْخِلَافَةِ فِي الْعِبَادَةِ وَكِفَالَةِ الْخَلْقِ ، وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِذَلِكَ . وَهَذَا الْبَرْهَانُ
أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ وَأَصَحُّ مَبْنًى .

5 فقد تبين أن خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وُجدت له العصية.

فَإِذَا نَظَرْنَا فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمُ الْقَلْبُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِي
وَالْأُتَمِّ ، فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْكَرَمِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَّاتِ ،
وَالِاخْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ الْقَادِرِ ، وَالْقِرَى لِلضُّيُوفِ ، وَحَمْلِ الْكَلِّ ، / وَكُنْصِ [الْمُعْدِمِ] ^(١) ، [97 ب]
وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ الْأَعْرَاضِ ، وَتَعْظِيمِ
الشَّرِيعَةِ ، وَإِجْلَالِ الْعُلَمَاءِ الْحَامِلِينَ لَهَا ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يَحْدِدُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ أَوْ
10 تَرْكٍ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ ، * وَاعْتِقَادِ أَهْلِ الدِّينِ وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ * ^(ب) ، وَرَغْبَةِ الدُّعَاءِ
مِنْهُمْ ، وَالْحَيَاءِ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْمَشَائِخِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ ، وَالِاتِّقِيَادَ لِلْحَقِّ مَعَ الدَّاعِي
إِلَيْهِ ، وَإِنْصَافِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَالتَّبَذْلِ فِي أَخْوَالِهِمْ ، وَالتَّوَاضُعِ لِلْمُسْكِينِ ،
وَاسْتِمَاعِ شَكْوَى الْمُسْتَغِيثِينَ ، وَالتَّدَبُّنِ بِالشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ ، وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا وَعَلَى
15 أَسْبَابِهَا ، وَالتَّجَافِي عَنِ الْغَدْرِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ ؛ عَلِمْنَا أَنَّ
هَذِهِ خُلُقُ السِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ ، وَاسْتَحَقَّوْا بِهَا أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ
أَيْدِيهِمْ ، أَوْ عَلَى الْعُمُومِ ؛ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُنَاسِبٌ لِعَصِيَّتِهِمْ وَغَلَبِهِمْ ، وَلَيْسَ
ذَلِكَ سُدًى فِيهِمْ ، وَلَا وَجَدَ عَبَثًا مِنْهُمْ ؛ وَالْمُلْكُ أَنْسَبُ الْخَيْرَاتِ وَالْمَرَاتِبِ لِعَصِيَّتِهِمْ ،

(أ) فِي ظ : الْمَعْدُوم (ب) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَجْمَيْنِ مِنْ ل

فعلِمنا بذلك أَنَّ الله تَأَذَّنَ لَهُم بِالْمُلْكِ وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ. وبالعكس من ذلك، إذا تَأَذَّنَ الله بِاتِّقِاضِ الْمُلْكِ مِنْ أُمَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى اِزْتِكَابِ الْمَذْمُومَاتِ، وَاتِّحَالِ الرِّذَائِلِ وَسُلُوكِ طُرُقِهَا، فَتَفْقَدِ الْفَضَائِلَ السِّيَاسِيَّةَ مِنْهُمْ جُمْلَةً، وَلَا تَزَالُ فِي انْتِقَاصِ إِلَى أَنْ يُخْرِجَ الْمُلْكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَيَتَبَدَّلَ بِهِ سَوَاهِمُ، لِيَكُونَ نَعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي سَلْبِ مَا كَانَ اللَّهُ 5 قَدْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُلْكِ، وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. [سورة الإسراء، الآية 16]. وَاسْتَفْرَى ذَلِكَ وَتَتَبَعَهُ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ تَحْذِيرًا كَثِيرًا مِمَّا قُلْنَاهُ وَرَسَمْنَاهُ. وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

- واعلم أنَّ من خِلَالِ / الْكَمَالِ الَّذِي تَتَنَافَسُ فِيهِ الْقَبَائِلُ أَوَّلُو الْعَصِيَّةِ، [198]
- 10 وَتَكُونُ شَاهِدَةً لَهُم بِالْمُلْكِ، إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلُ الْأَخْسَابِ وَأَصْنَافِ الثُّجَّارِ وَالْغُرَبَاءِ، وَإِنْزَالُ النَّاسِ مَنْزِلَهُمْ. وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ الْعَصِيَّاتِ وَالْعَشَائِرِ لِمَنْ يُنَاهِضُهُمْ فِي الشَّرَفِ، وَيُجَادِبُهُمْ خَبَلُ الْعَشِيرِ وَالْعَصِيَّةِ، وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ الْجَاهِ، أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ - فِي الْأَكْثَرِ - الرِّغْبَةُ فِي الْجَاهِ، أَوْ 15 الْمَخَافَةُ مِنْ قَوْمِ الْمَكْرَمِ، أَوْ التَّمَسُّ بِمِثْلِهَا مِنْهُ. وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ عَصِيَّةٌ نَبَّغَتْ وَلَا جَاهٌ يُرْتَحَى، فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كِرَامَتِهِمْ وَيَتَمَحَّضُ الْقَضْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلْمَجْدِ، وَاتِّحَالُ الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكَلِيَّةِ. لِأَنَّ إِكْرَامَ أَقْتَالِهِ وَأَمْثَالِهِ 20 ضَرُورِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ ^(أ) قَبِيلِهِ [وَنُظَرَائِهِ] ^(ب)؛ وَإِكْرَامَ الطَّارِئِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ. ^(ج) [فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ؛ وَالْعُلَمَاءُ

(أ) ج: عن (ب) في ظ وحدها: نظائره (ج) ما بين الجهمين حاشية ملحقة بخط ابن خلدون في ع ي .

للحاجة إليهم في إقامة مراسم الشريعة؛ والتجّار للترغيب حتى تعمّ المنفعة بهم^(أ)؛
والغرباء من مكارم^(ب) الأخلاق ومن الترغيب ببغض الوجوه^(ب)؛ وإنزال الناس
منازلهم من الإنصاف وهو من العذل^(ج). فيعلم بوجود ذلك من أهل عصيئته
انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك، وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها.
ولهذا فإنّ أول ما يذهب من القليل أهل الملك إذا تأذن الله بسلب ملكهم
وسلطانهم، إكرام هذا الصنف من الخلق؛ فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم،
فاعلم أنّ الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم، وازتقبت زوال الملك عنهم^(د)؛
﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له﴾ [سورة الرعد، من الآية 11].

20 • فصل، في أنه إذا كانت الأمة وخشيّة كان ملكها أوسع

[98 ب] / وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستيلاء - كما قلناه - واستغباد الطوائف،
لقدرتهم على محاربة الأمم سيواهم، ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من
الحيوانات العجم؛ وهؤلاء مثل العرب وزناتة، ومن في مغناهم من الأكراد والتركمان،
وأهل اللثام من صنهاجة. وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه،
ولا بلد يجنحون^(هـ) إليه؛ فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء. فلهذا لا
يقتصرون على ملكة قُطرهم وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقيهم،
بل يظفرون إلى الأقاليم البعيدة، ويتغلبون على الأمم النائية. وانظر ما يُحكى في

(أ) ي: بما في أيديهم (ب) سقط ما بين النجمين من ي (ج) ما بين الجبين حاشية ملحقة بخط ابن خلدون في ع ي (د) ع
ج: منهم (هـ) ي: يحجون .

ذلك عن عُمر رضي الله عنه، لما بُوع وقام يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْعِرَاقِ، فَقَالَ⁽¹⁾ : إِنَّ
الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بَدَارٍ إِلَّا عَلَى النُّجْعَةِ، وَلَا يَفْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ، أَيْنَ الطُّرَّاءُ
الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ⁽²⁾ اللَّهِ، سِيرُوا فِي⁽³⁾ الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ
يُورِثَكُمُوهَا، فَقَالَ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الصف، من
5 الآية 9].

واعتبر ذلك أيضًا بحال العرب السالفة من قبل، مثل التبابعة وخير، كيف
كانوا يخطون [فيما نقل]⁽⁴⁾ من اليمن إلى المغرب مرة، وإلى العراق والهند أخرى؛ ولم
يكن ذلك لغير العرب من الأمم. وكذا حال الملثمين بالمغرب لما نزعوا إلى الملك،
ظفروا⁽⁵⁾ من الإقليم الأول، ومجالاتهم منه في جوار السودان، إلى الإقليم الرابع
والخامس في ممالك الأندلس من غير واسطة.

وهذا شأن هذه الأمم الوحشية، فلذلك تكون دولهم أوسع نطاقاً، وأبعد
من مراكزها نهاية، ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [سورة المزمل، من الآية 20].

(1) الطبري : موعود (ب) الطبري : إلى (ج) من ع (د) ظ: ظفروا .

(1) تاريخ الطبري 3 : 445 .

21 ﴿ فَصَلِّ ، فِيْ اَنْ الْمُلْكِ اِذَا ذَهَبَ عَنْ بَعْضِ الشُّعُوْبِ مِنْ اُمَّةٍ ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَوْدِهِ اِلَى شَعْبٍ اٰخَرَ مِنْهَا ، مَا دَامَتْ لَهُمُ الْعَصِيَّةُ ﴾

[199] والسَّبَبُ في ذلك، أَنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سَوْرَةِ الْغَلَبِ / وَالْإِذْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ، فَيَتَعَيَّنُ مِنْهُمْ الْمُبَاشِرُونَ لِلأَمْرِ الْحَامِلُونَ لِسِرِّ الْمُلْكِ. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ لَجَمِيعِهِمْ، لَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثْرَةِ الَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ الْمُرَاحَةِ، وَلِلْغَيْرَةِ الَّتِي تَجْدَعُ أَنْوَفَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَطَوِّلِينَ لِلزُّبْنَةِ. فَإِذَا تَعَيَّنَ أَوْلَئِكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ، انْعَمَسُوا فِي النَّعِيمِ، وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالْخَضْبِ، وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجِيلِ، وَأَنْفَقَوْهُمْ فِي وُجُوهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا. وَبَقِيَ الَّذِينَ بَعُدُوا عَنِ الْأَمْرِ وَكُبِحُوا عَنْ الْمُشَارَكَةِ فِي ظِلٍّ مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ، وَمُنْجَاةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ. فَإِذَا اسْتَوَلَّتْ عَلَى الْأَوَّلِينَ الْأَيَّامُ، وَأَبَادَ غَضَاءُهُمُ الْهَرَمُ، وَطَبَخَتْهُمْ الدَّوْلَةُ، وَآكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرِبَ، بِمَا أَزْهَقَ النَّعِيمُ مِنْ حُدُودِهِمْ، وَاشْتَفَتْ غَرِيزَةَ التَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ، وَبَلَغُوا غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الْإِنْسَانِيِّ وَالتَّغْلِبِ السِّيَاسِيِّ [مَنْ الْوَافِر]

كَدُودِ الْقَرْ يَنْسَجُ ثُمَّ يَفْنَى بِمَرْكَزِ نَسْجِهِ فِي الْإِنْعِكَاسِ⁽¹⁾

15 كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصِيَّةُ الْآخِرِينَ مَوْفُورَةً ، وَسَوْرَةُ غَلَبِهِمْ مِنَ الْكَاسِرِ مَحْفُوظَةً، وَشَارَتْهُمْ فِي الْغَلَبِ مَغْلُومَةٌ؛ فَتَنَسَمُوا آمَالَهُمْ إِلَى الْمُلْكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ

(1) لم نعرف قائله .

منه بالقُوَّة الغالبة من جنس عَصِيَّتِهِمْ، وترتفع المنازعة لما عُرف من غَلَبِهِمْ، فَيَسْتَوْلُونَ على الأمر وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ. وكذا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مع من بَقِيَ أيضاً مُنْتَبِذاً عنه من عَشَائِر أُمَّتِهِمْ . فلا يَزَالُ الْمُلْكُ ملجأً في الأُمَّة إلى أن تَنكسر سُورَةُ الْعَصِيَّةِ منها أو تُفْنَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا . سُنَّةُ اللَّهِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية 25] .

واعْتَبِرْ هذا بما وَقَعَ في الأَمَمِ ، لما انْقَرَضَ مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ / إخوانهم من ثمود ، ومن بَعْدَهُمْ إخوانهم الْعَمَالِقَةُ ، ومن بَعْدَهُمْ إخوانهم من جَمِيرٍ ، [99 ب] ومن بَعْدَهُمْ إخوانهم التَّابِيعَةُ من جَمِيرٍ أيضاً، ومن بَعْدَهُمْ الْأَذْوَاءُ كَذَلِكَ ، ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ . وكذا الْفُزْسُ ، انْقَرَضَ أَمْرُ الْكَيْنِيَّةِ فَلَمَّا مِنْ بَعْدِهِمُ السَّاسَانِيَّةُ ، حَتَّى تَأْذُنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعٍ بِالْإِسْلَامِ . وكذا الْيُونَانِيُّونَ ، انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَانْتَقَلَ إِلَى إخوانهم مِنَ الرُّومِ . وكذا الْبَرْبُرُ بِالْمَغْرِبِ ، لما انْقَرَضَ أَمْرُ مَغْرَاوَةَ وَكُنَامَةَ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ ، رَجَعَ إِلَى صِنْهَاجَةَ ثُمَّ الْمَلْثَمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ثُمَّ الْمَصَامِدَةُ ، ثُمَّ مِنْ بَقِيٍّ مِنْ شُعُوبِ زَنَاتَةَ ، وَهَكَذَا . سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ .

وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ ؛ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْأَجْيَالِ ؛ وَالْمُلْكُ يُخْلَقُ التَّرَفُّ وَيُذْهِبُهُ ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ . فَإِذَا انْقَرَضَتِ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْأَمْرَ مِنْهُمْ 15 مِنْ لَهُ عَصِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصِيَّتِهِمُ الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالِاتِّقِيَادُ ، وَأُوْنِسَ مِنْهَا الْغَلَبُ لِجَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ . وَذَلِكَ إِنَّمَا يَوْجَدُ فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّ تَفَاوُتَ الْعَصِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرَّبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدَ . حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمَرَانِ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ ، فَحِينَئِذٍ

يُخْرِجُ عَنْ ذَلِكَ الْجِيلِ إِلَى الْجِيلِ الَّذِي [تَأْذَنُ] ^(أ) اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ. كَمَا وَقَعَ
لَمْضَرِّ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَدُولِ، وَأَخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ، بَعْدَ أَنْ
كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَابًا.

22 ❖ فَصْلٌ، فِي أَنَّ الْمَغْلُوبَ مَوْلَعٌ أَبَدًا بِالْاِقْتِدَاءِ بِالْغَالِبِ، فِي شِعَارِهِ وَنَرِيهِ وَنَحْلَتِهِ
وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ وَعَوَائِدِهِ

5

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ [أَنَّ] ^(ب) النَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ الْكَمَالَ فِيمَنْ غَلَبَهَا وَانْقَادَتْ
إِلَيْهِ، إِمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَقَرَّ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ ؛ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ انْقِيَادَهَا
لَيْسَ لِيَغْلِبَ طَبِيعِي، إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ، فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ / وَاتَّصَلَ لَهَا صَارَ
[100] اِعْتِقَادًا، فَاتَّحَلَّتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْاِقْتِدَاءُ . أَوْ لِمَا
تَرَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ الْغَالِبِ لَهَا لَيْسَ بِعَصِيَّةٍ وَلَا قُوَّةَ بَأْسٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا
اِتَّخَذَتْهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ، تُغَالِطُ أَيْضًا بِذَلِكَ عَنِ الْغَلَبِ، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى الْأَوَّلِ.
فَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِالْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَزَكِبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا
وَأَشْكَالِهَا، بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ. وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي الْأَنْبَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ ^(ج)، كَيْفَ تَجِدُهُمْ
مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِاِعْتِقَادِهِمُ الْكَمَالَ فِيهِمْ. وَانْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ
الْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ الْحَامِيَةِ وَجُنْدُ السُّلْطَانِ فِي الْأَكْثَرِ، لِأَنَّهِمُ الْغَالِبُونَ
15 لَهُمْ . حَتَّى إِنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا الْغَلَبُ عَلَيْهَا ، فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا

(أ) فِي ظَوْحِهَا: أَذْنُ (ب) سَقَطَ مِنْ ظَوْحِهَا (ج) ل: الْآبَاءُ .

السَّبَبَ والافتداء حَظٌّ كبير؛ كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أُمَم الجلالقة، فإنَّك تجدُّهم يتشبهون بهم في مَلابِسهم وشاراتهم والكثير من عَوَائِدِهم وأحوالهم، حتَّى في رَسْم التماثيل في الجُدران والمصانع والبُيوت، حتَّى لقد يَسْتَشْعِرُ من ذلك الناظر بعَيْن الحِكْمَةِ أَنَّهُ علامةُ الاستيلاء؛ والأمرُ لله. وتأمَّلْ في هذا سِرُّ قَوْلهم: العامَّةُ على دين المَلِك؛ فإنَّه من بابِه، إذ المَلِكُ غالِبٌ لمن تَحْتَ يَدِه، والرعيَّةُ مُقْتَدُونَ به لا اعتقاد الكمال فيه، اقتداء الأبناء بآبائهم والمتعلِّمين بمعلِّمهم. والله العليم الحكيم.

23 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا غَلِبَتْ وَصَارَتْ فِي مَلَكَهَ غَيْرِهَا، أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْفَنَاءُ

- والسَّبَبُ فِيهِ - واللهُ أَعْلَمُ - مَا يَحْصُلُ فِي النُّفُوسِ ⁽¹⁾ مِنَ التَّكَاسُلِ إِذَا مُلِكَ
- 10 أَمْرُهَا عَلَيْهَا، وَصَارَتْ بِالْإِسْتِعْبَادِ آلَةً لِسِوَاهَا / وَعَالَةً عَلَيْهِمْ، فَيَقْصُرُ الْأَمَلُ وَيَضْعُفُ، [100 ب]
- والتَّسَاوُلُ وَالْإِعْتِمَارُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ الْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ النَّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ . فَإِذَا ذَهَبَ الْأَمَلُ بِالتَّكَاسُلِ، وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْوَالِ، وَكَانَتْ الْعَصِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْغَلَبِ الْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ، تَنَاقَضَ عُمرَانُهُمْ، وَتَلَاشَتْ مَكَاسِبُهُمْ وَمَسَاعِيَهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، بِمَا خَضَّ الْغَلَبُ مِنْ شَوْكِهِمْ ،
- 15 فَأَصْبَحُوا مَغْلَبِينَ لِكُلِّ مُتَغَلَّبٍ، طُغْمَةٌ لِكُلِّ آكِلٍ؛ وَسَوَاءٌ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَوْ لَمْ يَحْصُلُوا .

(1) سقط من ل .

وفيه - والله أعلم - سرٌّ آخر، وهو أنَّ الإنسانَ رئيسَ بطنه بمقتضى
الاستخلاف الذي جُعِلَ له؛ والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزِّه،
تكاسلَ حتَّى عن شَبَع بطنه وريِّ كَبِدِه؛ وهذا موجودٌ في أخلاق الأناسي. ولقد
يُقال مثله في الحيوانات المُفترسة، وإنَّها لا تُسافِد إذا كانت في مَلَكَةِ الآدميين، ولا
يزال هذا القبيلُ المملوكُ أمرُه عليه في تناقُصٍ واضمحلالٍ إلى أن يأخذهم الفناء . 5
والبقاء لله وَحْدَهُ .

واعتبر ذلك في أُمَّة الفُرس ، كيف كانت قد ملأت العالم كثرةً ، ولما
فَنِيَتْ حاميتُهُمْ في أَيَّام العَرَب بقي منهم كثيرٌ وأكثر من الكثير. يُقال إنَّ سَعْدًا أَخَصَى
مَنْ وراء المداين، فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألف، منهم سبعة وثلاثون ألفاً
ربَّ نيت. ولما تَحَصَّلوا في مَلَكَةِ العَرَب وقَبْضة القَهْر، لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً، ودَثَرُوا 10
كأن لم يكونوا. ولا تحسبن أنَّ ذلك لظلم نَزَلَ بهم أو عُذوانٍ شَمَلَهُمْ ؛ فَمَلَكَةُ الإسلام
في العَدْل ما علمت؛ وإنَّما هي طبيعةٌ في [الإنسان] ^(١) إذا غلب على أمره، وصار آلةً
لغيره .

[101] / ولهذا، فإنَّما يَدْعُنُ للرِّقِّ في الغالب أُمَمُ السُّودان لتَقْصُ الإنسانيَّة فيهم،
وقُرْبهم من عَرَضٍ ^(ب) الحيوانات العُجْم كما قُلناه، أو مَنْ يَزْجُو بانتظامه في رِبْقَةِ الرِّقِّ 15
حصولَ رُتْبَةٍ أو إفادةٍ مالٍ أو عِزٍّ ، كما يَقَعُ للترك بالْمَشْرِقِ، [والعلوج] ^(ج) من
الجلالقة والإفرنجة بالأنْدَلُس ؛ فإنَّ العادةَ جاريةٌ باستِخلاص الدَّولة لهم ، فلا يَأْتَفُونَ
من الرِّقِّ ، لما يُؤْمَلُونُهُ من الجاهِ والرُّتْبَةِ باضْطِفاء الدَّولة . والله أَعْلَمُ .

(١) في ظ وحدها: الفزاد (ب) سقط من ل (ج) من حاشية ل، وفي ظ ع ي ج: والمفلوخوا .

24 • فَضْلٌ ، فِي أَنْ الْعَرَبَ لَا يَتَغَلَّبُونَ إِلَّا عَلَى الْبَسَائِطِ

وذلك أنهم، بطبيعة التَّوَحُّش التي فيهم، أهلُ انْتِهَابٍ وَعَيْثٍ ، يَتَهَبُونَ ما قَدَّرُوا عَلَيْهِ من غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلَا زُكُوبِ خَطَرٍ، وَيَقَرُّونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِم بِالْقَفْرِ؛ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى الْمَزَاخِفَةِ وَالْمُحَازَبَةِ إِلَّا إِذَا ذَافَعُوا⁽¹⁾ بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . فكلَّ مَغْقَلٍ أَوْ مُسْتَضْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهَمَّ تَارِكُوهُ إِلَى مَا سَهَّلَ عَنْهُ، وَلَا يَغْرَضُونَ لَهُ . وَالْقَبَائِلُ الْمُفْتَنِيَّةُ^(ب) 5 عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ الْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْثِهِمْ وَفَسَادِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمُ الْهَضَابَ، وَلَا يَزْكُونُ الصَّعَابَ، وَلَا يُجَاوِلُونَ الْخَطَرَ . وَأَمَّا الْبَسَائِطُ^(ب) مَتَى اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفَقْدَانِ الْحَامِيَةِ وَضُغْفِ الدَّوْلَةِ، فَهِيَ نَهَبٌ لَهُمْ وَطُعْمَةٌ لَأَكْلِهِمْ، يَرْدَدُونَ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالنَّهْبَ وَالزَّخْفَ لسهولةِهَا عَلَيْهِمْ، إِلَى أَنْ يُضْبَحَ أَهْلُهَا مُغْلَبِينَ لَهُمْ، ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهم بِاخْتِلَافِ 10 الْأَيْدِي وَانْحِرَافِ السِّيَاسَةِ ، إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمرَانُهُمْ . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ .

25 • فَضْلٌ ، فِي أَنْ الْعَرَبَ إِذَا تَغَلَّبُوا عَلَى الْأَوْطَانِ أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْخَرْابُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَخَشِيَّةٌ بِاسْتِخْكَامٍ / عَوَائِدِ التَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ 1011 ب: فِيهِمْ، فَصَارَ لَهُمْ خُلُقًا وَجِبَلَةً، وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلَنُودًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْحُكْمِ، وَعَدَمِ الْإِنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ . وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ . فَغَايَةُ الْأَحْوَالِ 15 الْعَادِيَةِ كُلُّهَا عِنْدَهُمُ الرَّحَلَةُ وَالتَّقَلُّبُ؛ وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ

(1) ي: دَفَعُوا (ب) ع ل ي: الْمُتَمَتِّعَةُ .

له. فالحجر مثلاً حاجتهم إليه لنضبه أثافيّ للقُدور، فيَنقلونه من المباني ويَحْرَبونها عليه، ويَعْدُونه لذلك. والخشب أيضاً إنَّما حاجتهم إليه ليَعْمِدُوا به خيامهم ويتَّخذوا الأوتادَ منه لبيوتهم، فيَحْرَبون الشَّقْفَ عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم مُنافيةً للبناء الذي هو أَصل العُمران، هذا في حالهم على العموم.

5 وأيضاً فطبيعتهم انتهابُ ما في أيدي الناس، وأنَّ رِزْقَهم في ظلال رِمَاجهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدٌّ يَنْتهون إليه، بل كلما امتدَّت أَعْيُنُهم إلى مالٍ أو متاعٍ أو ماعونٍ انتهبوه. فإذا تَمَّ اقتدارُهم على ذلك بالتغلب والمُلْك، بَطَلَت السِّيَاسةُ في حِفْظ أموال الناس وخَرِبَ العُمران .

10 وأيضاً فلأنَّهم يَكْلِفون على أهل الأعمال من الصَّنائع والجِرَف أعمالهم ، لا يَرَوْنَ لها قيمة ولا قِسْطاً من الأجر والثمن . والأعمال - كما سَنذكره - هي أَصلُ المكاسب وحقيقتها؛ وإذا فَسَدَت الأعمال وصارت مَجَاناً، ضَعُفَت الآمالُ في المكاسب، وانْقَبَضَت الأيدي عن العمل ، واندَعَرَ السَّاكن ، وفَسَدَ العُمران .

15 وأيضاً فإنَّهم لَيْسَتْ لهم عنايةٌ بالأحكام وزَجَر الناس عن المَفاوِد ودِفَاع بَعْضِهِم عن بَعْضٍ؛ إنَّما هُمُّهم ما يَأْخُذُونَهُ من أموال الناس نَهْباً أو مَغْرَماً؛ فإذا توَصَّلوا إلى ذلك وحصلوا عليه ، أغرضوا عَمَّا بَعْدَهُ من تشديد أحوالهم ، والنَّظَر في مَصَالِحِهِم وقَهْر بَعْضِهِم عن أغراض المَفاوِد . / وربَّما فَرَضُوا العقوبات في الأموال ، [102] حِرْصاً على تَحْصِيل الفائدة والجِباية والاستِثْكار منها كما هو شأنهم. وذلك ليس بِمُغْنٍ في دَفْع المَفاوِد وزَجَر المُتَعَرِّض لها ؛ بل يَكُونُ ذلك زائداً فيها لاسْتِشْهال الغُرم في جانب حُصول الغُرض ؛ فتنَبَّي الرِّعايا في مَلِكَتِهِم كأنَّها قَوْضَى دون حُكْم.

والفوضى مُهْلِكَةٌ للبشر مُفسِدة للعُمران ، بما ذكّرناه من أن وجودَ الملك خاصّةً طبيعِيَّةٌ للإنسان، لا يَسْتَقِيمُ وجودُهُم واجتماعُهُم إلّا بها ؛ وتقدّم ذلك أوّل الفصل .

وأيضاً فهم مُتَنافِسُونَ في الرّئاسة ، وَقَلَّ أن يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ الأَمْرَ لغيره، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عَشيرته ، إلّا في الأقلّ ، وعلى كُزّه من أَجَلِ الحياء، فيتعدّد الحُكَّام منهم والأُمراء، وتختلف الأيدي على الرّعية في الحِباية والأحكام؛ فَيُفْسَدُ العُمران وَيُنْتَقِضُ. قال الأعرابيّ الوافِدُ على عَبْدِ الملك لما سأله عن الحُجَّاج، وأرادَ الثّناءَ عليه عِنْدَه بِحُسْنِ السّياسة والعُمران ، فقال : تركّته يَظْلِمُ وَخَدَه .

وانْظُرْ إلى ما مَلَكُوهُ وتَغَلَّبُوا عليه من الأوطان من لَدُن الخليقة، كيف تَقْوُضُ عُمرانهُ ، وأَقْفَرُ ساكِينهُ، وبُدِّلَتِ الأرضُ فيه غير الأرض : فالَيَمَنُ قَرَارُهُم خرابٌ إلا قليلاً من الأمصار ؛ وعراقُ العرب كذلك قد خَرِبَ عُمرانهُ الَّذي كان للفرس أَجْمَع ، والشّامُ لهذا العهد كذلك ، وإفريقيَّةُ والمغربُ لما أجاز إليهما بنو هلال وبنو سليم منذ عَهْدِ المائَةِ الخامِسة وتَمَرَّسُوا بها لثلاثائَةِ وخمسين من السنين ، قد لَحِقَ بها وعادَتْ بِسائِطِهِ خَراباً كُلُّها ، بعد أن كان ما بَيْنَ السُّودانِ والبَحْرِ الرُّومِيِّ 10 كَلَّهُ عُمراناً ، تَشْهَدُ بِذلك آثارُ العُمران فيه من المعالم وتَماثيلُ البِناء وشواهدُ القُرى 15 والمدائِشِر . والله وارثُ الأرض ومن عليها وهو خَيْرُ الوارِثين .

26 • فَضْلٌ ، فِي أَنْ الْعَرَبَ لَا يَحْصُلُ لَهُمُ الْمُلْكُ إِلَّا بِصُغَةٍ دِينِيَّةٍ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ وِلَايَةٍ
أَوْ أَثَرٍ عَظِيمٍ مِنَ الدِّينِ عَلَى الْجُمْلَةِ

[102 ب]

/ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ، أَنَّهُمْ خُلِقَ التَّوَحُّشُ الَّذِي فِيهِمْ ، أَضْعَبُ الْأُمَمِ انْقِيَادًا
بَغْضِهِمْ لِبَغْضِ ، لِلْغِلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ ، وَبُعْدِ الْهِمَّةِ وَالْمُنَافَسَةِ فِي الرِّئَاسَةِ ؛ فَقَلَّمَا تَجْتَمَعُ أَهْوَاؤُهُمْ .
فَإِذَا كَانَ الدِّينُ بِالنُّبُوتِ أَوْ الْوِلَايَةِ ، كَانَ الْوَزَاعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَذَهَبَ خُلُقُ الْكِبَرِ 5
وَالْمُنَافَسَةُ مِنْهُمْ ، فَسَهَلَ انْقِيَادُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ . وَذَلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ ، الْمَذْهَبِ
لِلْغِلْظَةِ وَالْأَنَفَةِ ، الْوَزَاعِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ . فَإِذَا كَانَ فِيهِمُ النَّبِيُّ أَوْ الْوَلِيُّ الَّذِي
يَنْبَغِيهِمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَيُذْهِبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَأْخُذُهُمْ
بِمَحْمُودِهَا ، وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ ، تَمَّ اجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ التَّغَلُّبُ وَالْمُلْكُ .
وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قَبُولًا لِلْحَقِّ وَالْهُدَى ؛ لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عِيَوجِ الْمَلَكَاتِ ، 10
وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ ؛ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ التَّوَحُّشِ الْقَرِيبِ الْمُعَانَاةِ ، الْمُنْتَهِيَّ
لِقَبُولِ الْخَيْرِ بِقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى ، وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ
وَسُوءِ الْمَلَكَاتِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ⁽¹⁾ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ، وَقَدْ
تَقَدَّمَ .

(1) تَقَدَّمَ تَخْرِيجهُ فِي صَفْحَةِ 220 .

27 • فصل، في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك، أنهم أكثر بدَاوةً من سائر الأمم، وأبعدُ مَجَلاً في الفقر، وأغنى عن حاجات التلّول وحبوبها لاغتيادهم الشُّطَف وخُشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم؛ فصُعب انقيادُ بعضهم لبغضٍ لإيلافهم ذلك وللتَّوَحُّش؛ ورئيسهم 5 مُحْتَاجٌ إليهم غالباً للعصبيّة التي بها المدافعة، فكان مُضطراً إلى إحصان ملكتهم وترك مُراغمتهم، لئلاَّ يَحْتَلَّ عليه شأنُ عَصَبِيَّتِهِ، فيكون فيها هلاكه وهلاكهم. وسياسةُ الملك والسُّلطان تقتضي أن يكون السَّائِسُ وازعاً بالقهر، وإلاَّ لم تَسْتَقِم سياسته.

وأيضاً، فمن طبيعتهم - كما قدّمناه - أخذ ما في أيدي الناس خاصّة، 10 / والتّجافي عما سِوى ذلك من الأحكام بينهم⁽¹⁾، ودِّفاع بعضهم عن بغض. فإذا مَلَكُوا أُمَّةً من الأمم، جعلوا غايةَ [مُلْكهم]^(ب) الانتفاع بأخذ ما في أيديهم، وتركوا ما سِوى ذلك من الأحكام بينهم. ورُبّما جعلوا العقوبات على المفايد في الأموال جزصاً على تكثير الجبايات وتخصيل الفوائد، فلا يكون ذلك وازعاً؛ ورُبّما يكون باعِثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفايد، واستِهانة ما يُعطى من ماله في جانب 15 غَرَضِهِ، فتَنمو المفايد بذلك ويقع تخريبُ العمران. فتَبقى تلك الأُمَّة كأنّها فَوْضَى، مُسْتَطِيلَةٌ أيدي بغضها على بغض، فلا يَسْتَقِيمُ لها عُمُران، وتَحْرِبُ سريعاً، شأنُ الفوضى، كما قدّمناه.

(1) سقط من ل (ب) في ط إلى: ملكهم.

فَبُعِدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لَذَلِكَ كُلَّهُ عَنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ ؛ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا
 بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِبْغَةِ دِينِيَّةٍ تَمْحُو ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَجْعَلُ^(أ) الْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ
 أَنْفُسِهِمْ، وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ النَّاسِ بَغْضِهِمْ عَنْ بَغْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِذَوُلَّتِهِمْ
 [فِي الْمِلَّةِ]^(ب)، لَمَّا شَتَّدَ لَهُمُ الدِّينُ أَمْرَ السِّيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا، الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ
 الْعُمْرَانِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَتَتَابَعَ فِيهَا الْخُلَفَاءُ، عَظُمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ. كَانَ
 5 رُسُومُهُمْ إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ: أَكَلَ عُمُرُ كَيْدِي، يَعْلَمُ الْكَلَابُ الْآدَابَ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ [عَنْ]^(ج) الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا الدِّينَ، فَتَسَّوْا
 السِّيَاسَةَ، وَرَجَعُوا إِلَى قَفَرِهِمْ، وَجَهَلُوا شَأْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ يُبْغِدُهُمْ عَنْ
 الْإِثْقَادِ وَإِعْطَاءِ النِّصْفَةِ، فَتَوَخَّشُوا كَمَا كَانُوا، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْ اسْمِ الْمُلْكِ إِلَّا أَنَّهُ
 لِلْخُلَفَاءِ، وَهُمْ مِنْ جِيلِهِمْ. وَلَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَامَّحَى رُسْمُهَا انْقَطَعَ الْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ
 10 أَيْدِيهِمْ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَجَمُ دُونَهُمْ، وَأَقَامُوا بَادِيَةً فِي قِفَارِهِمْ، لَا يَعْرِفُونَ الْمُلْكَ وَلَا
 سِيَاسَتَهُ؛ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ^(د) كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ؛ وَمَا كَانَ لِأَحَدٍ
 [103 ب] مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ؛ / وَذَوُلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعِمَالِقَةَ وَجَمِيرَ
 وَالتَّبَاعَةَ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ، ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي الْإِسْلَامِ، بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ. لَكِنْ بَعْدَ
 15 عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِّينَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَضْلَاهُمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ. وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي
 بَغْضِ الْأَخْيَانِ غَلَبٌ عَلَى التَّوَلُّ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي [الْمَغْرِبِ]^(هـ) لِهَذَا الْعَهْدِ، فَلَا
 يَكُونُ مَالُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِبُ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمْرَانِ [كَمَا قَدَّمْنَاهُ]^(و). وَاللَّهُ
 خَيْرُ الْوَارِثِينَ.

(أ) ي: ويجعل ذلك وازعاً لهم (ب) سقط من ظ (ج) حُرِّفَتْ فِي ظ إِلَى: عَزَّ (د) ل: أَنَّهُ (هـ) ظ: الْغَرَب (و) سَقَطَ مِنْ ي.

28 • فصل، في أن البوادي من القبائل والعصائب [مُغْلَبُونَ] ⁽¹⁾ لأهل الأمصار

قد تقدّم لنا أن عُمران البادية ناقص عن عُمران الحواضر والأمصار؛ لأنّ
الأمور الضرورية في العُمران لئس كلها موجودًا لأهل البدو؛ وإنّا يُوجد لديهم وفي
مواطنهم أمور الفلح، وموادّها مَعدومة، ومُعظّمها الصنائع، فلا يوجد لديهم بالكليّة،
5 من نجار وخبّاط وحدّاد وأمثال ذلك ممّا يُقيم لهم ضرورات معاشهم في الفلح وغيره.
وكذا الدنانير والدراهم مَفقودة لديهم؛ وإنّا بأيديهم أغواضها من مُغلّ الزراعة وأعيان
الحيوان أو فضلاته ألبانًا وأوبارًا وأشعارًا وإهابًا ممّا يحتاج إليه أهل الأمصار،
فيَعْوِضونهم عنه بالدنانير والدراهم. إلّا أنّ حاجتهم إلى الأمصار في الضّروري، وحاجة
أهل الأمصار إليهم في الحاجيّ والكماليّ. فهم مُحتاجون إلى الأمصار في الضّروريّ
10 بطبيعة وجودهم. فما داموا في البادية ولم يَحْصُلْ لهم مُلك ولا استيلاء على الأمصار،
فهم مُحتاجون إلى أهلها ومُتَصَرِّفون في مصالحهم وطاعتهم متى دَعَوْهم إلى ذلك
وطالبوهم به. فإن كان في المِضر مَلِك كان خُضوعُهم وطاعتُهم لقلب المَلِك. / وإن لم
يَكُنْ في المِضر مَلِك فلا بُدّ فيه من رِئاسة وتوَعّج استيْداد من بغض أهله على
الباقين، وإلّا انتَقَضَ عُمرانُه. وذلك الرّئيس يَحْمِلُهم على طاعته والسّعي في مصالحه،
15 إمّا طوعًا ببذل المال لهم؛ ثمّ يبيح لهم ما يحتاجون إليه من الضّرورات في مِضره
فَيَسْتَقِيمُ عُمرانُهم، وإما كَرْهاً إن تَمَّت قُدرته على ذلك ولو بالتّضريب بينهم، حتّى

(1) من ل ي ع، وفي ظ: مغلوبون، وقد كتب هذا الفصل كله في ع بخط المؤلف .

يُحْصَلُ لَهُ جَانِبٌ ^(أ) مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ الْبَاقِينَ ، فَيُضْطَرُّ الْآخَرِينَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ
لِذَلِكَ مِنْ فُسَادِ عُمْرَانِهِمْ . وَرَبَّمَا لَا يَسْعُهُمْ مَفَارِقَةُ تِلْكَ النَّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ ^(ب) أُخْرَى ،
لَأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبَنُو الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَلَا يَجِدُ هَؤُلَاءِ
مَلْجَأًا إِلَّا طَاعَةَ الْمُضَرِّ [وَأَهْلِهِ] ^(ج) ، فَهُمْ بِالضَّرُورَةِ مُغْلَبُونَ لِأَهْلِ الْأُمُصَارِ . وَاللَّهُ
الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .

5

(أ) فِي ع وَحْدَهَا بِخَطِّ الْمُؤَلَّفِ: فَرِيقٌ (ب) فِي ع وَحْدَهَا: نَوَاحٍ (ج) مِنْ ع .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الفصل الثالث من الكتاب الأول:

في الدُّوَل، والمُلُك، والمُخْلَافَة، والمَرَاتِب السُّلْطَانِيَّة، وما يُعْرِضُ فِي ذَلِكَ
كُلُّهُ مِنَ الْأَحْوَال، وَفِيهِ قَوَاعِدٌ وَمُسْتَمَات

1 • فَصْلٌ، فِي أَنَّ الْمُلُكَ وَالِدُّوَلَ الْعَامَّةَ إِنَّمَا تَخْصُلُ بِالْقَبِيلِ وَالْعَصِيَّةِ

5

وذلك أَنَّهُ قَدْ قَرَّرْنَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ، أَنَّ الْمُغَالَبَةَ وَالْمَانَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ
بِالْعَصِيَّةِ، لِمَا فِيهَا مِنَ الثُّغْرَةِ وَالتَّدَامُرِ وَاسْتِثْنَاءِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ. ثُمَّ إِنَّ
الْمُلُكَ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ مَلْدُودٌ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ
وَالْمَلَادِّ النَّفْسَانِيَّةِ، فَيَقَعُ فِيهِ التَّنَافُسُ غَالِباً، وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَحَدٌ لَصَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا
غَلِبَ عَلَيْهِ؛ فَتَقَعُ الْمُنَازَعَةُ وَتُقْضَى إِلَى الْحَزْبِ وَالْقِتَالِ وَالْمُغَالَبَةِ؛ وَشَيْءٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ إِلَّا
10 بِالْعَصِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَيْضاً. وَهَذَا الْأَمْرُ بَعِيدٌ عَنْ أَفْهَامِ الْجُمْهُورِ بِالْجُمْلَةِ وَمُتَنَاسُونَ لَهُ،
لَأَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَقْهِيدِ الدُّوَلِ مِنْذُ أَوَّلِهَا، وَطَالَ [أَمَدٌ]⁽¹⁾ مَرَبَاهُمْ فِي الْحَضَارَةِ وَتَعَاقُبِهِمْ

(1) فِي ظ: أَمْر .

فيها جيلاً بعدَ جيلٍ؛ فلا يَعْرِفُونَ ما فعل الله أولَ الدَّولة؛ إنّما يُدْرِكُونَ أصحابَ الدَّولة قد استَحْكَمَت صِبْغَتُهُمْ، ووقعَ التَّسليمُ لهم، والاستغناء عن العَصِيَّة في تمهيد أمرهم ، ولا يَعْرِفُونَ كيف كان الأمرُ من أوله ، وما لَقِيَ أولُهم من المتاعِب دُونَه؛ وخصوصاً أهلُ الأندلس في نسيان هذه العَصِيَّة وأثرها، لطول الأمد، واستغنائهم 5 في الغالب عن قُوَّة العَصِيَّة بما تَلَا شَىْءٌ^(أ) وطَنُهم وخَلَا من العَصِيَّات^(ب). والله قادرٌ على ما يشاء .

2 • فصلٌ، في أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ الدَّولةُ وَتَمَهَّدَتْ، فَقَدْ يُسْتَغْنَى^(ج) عن العَصِيَّة

/ والسَّبَبُ في ذلك أَنَّ الدَّولَ^(د) العامَّةَ في أولِها يَصْعُبُ على الثُّقُوس [105 أ] الاتِّقيادُ لها إلا بِقُوَّة قويَّة من الغلب، للغزابة، وأنَّ النَّاسَ لم يَأْلَوْا مُلْكَها ولا 10 اعتادوه.

فإِذَا اسْتَقَرَّتِ الرِّئاسةُ في أَهلِ النَّصابِ المَخْصُوصِ بالملك في الدَّولة ، وتَوَارَثوه واحداً بعدَ آخرٍ في أعقاب كثيرين ودُولٍ مُتَعاقِبَةٍ، نَسِيَتْ الثُّقُوسُ شَأْنَ الأوليَّة، واستَحْكَمَت لأهل ذلك النَّصاب صِبْغَةُ الرِّئاسة، ورسَخَ في العقائد دينُ الاتِّقياد لهم^(هـ) والتَّسليم، [وإِعْطاء الصَّفقة بطاعتهم]^(و)، وقَاتَلَ النَّاسُ معهم على 15 أمرهم قتالَهم على العقائد الإيمانيَّة. فلم يَحْتَاجُوا حينئذٍ في أمرهم إلى كبيرِ عصابة ؛ بل

(أ) افردت نسخة ل بترك فراغ لكلمة يستقيم بها السياق قد تكون: به (ب) ع : العصائب (ج) ل : تستغني (د) ل : الدولة (هـ) ل : إليهم (و) من ع .

كَأَنَّ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لَا [يُبَدَّلُ] ^(أ) وَلَا يُعْلَمُ خِلَافُهُ. وَلِأَمْرِ مَا يُوضَعُ الْكَلَامُ فِي
 الْإِمَامَةِ آخِرَ الْكَلَامِ فِي ^(ب) الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ، كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا؛ وَيَكُونُ
 اسْتِظْهَارُهُمْ حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَذَوْتِهِمْ الْمَخْصُوصَةِ، إِمَّا بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَنِّعِينَ الَّذِينَ
 نَشَأُوا فِي ظِلِّ الْعَصْبِيَّةِ وَعِزِّهَا، وَإِمَّا بِالْعَصَائِبِ الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّاخِلِينَ فِي
 وَلَايَتِهَا.

5

وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ ؛ فَأَنَّ عَصْبِيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ
 دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَابْنِهِ الْوَائِقِ ، وَاسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ وَالتُّرْكِ
 وَالدَّيْلَمِ وَالسُّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . ثُمَّ تَغَلَّبَ الْعَجَمُ وَالْأَوْلِيَاءُ عَلَى التُّوَّاحِي ، وَتَقَلَّصَ ظِلُّ
 الدَّوْلَةِ ، فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ بَغْدَادَ ، حَتَّى رَحَفَ إِلَيْهَا الدَّيْلَمُ وَمَلَكُوهَا ، ثُمَّ صَارَ
 الْخِلَائِفُ فِي حُكْمِهِمْ . ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَمَلَكَ السُّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي
 حُكْمِهِمْ . ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَرَحَفَ آخِرُ الطُّطُرِ ^(ج) فَقَتَلُوا الْخَلِيفَةَ وَمَحَّوْا رَسْمَ
 الدَّوْلَةِ .

وَكَذَا صِنَاجَةٌ بِالْمَغْرِبِ ، فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مُنْذُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا،
 وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةً الظَّلَّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِحَايَةِ الْقَلْعَةِ وَسَائِرِ تُغُورِ إِفْرِيقِيَّةِ. وَرَبَّمَا
 انْتَزَى بِتِلْكَ التُّغُورِ مَنْ نَارَعَهمُ الْمُلُوكَ وَاعْتَصَمَ فِيهَا ؛ وَالسُّلْطَانُ وَالْمُلُوكُ مَعَ ذَلِكَ
 [105 ب] / مُسَلِّمٌ لَهُمْ؛ حَتَّى تَأْذَنَ اللَّهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ، وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةِ قَوِيَّةٍ مِنَ
 الْعَصْبِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ، فَمَحَّوْا آثَارَهُمْ.

(أ) ظ: يَبْدَلُ (ب) ل: عَلَى (ج) بِنَقَطَتَيْنِ فَوْقَ كُلِّ طَاءٍ لِيَضْبُطَ مَحْرَجَهَا بَيْنَ الظَّاءِ وَالذَّالِ .

وكذا دولة بني أمية بالأندلس ، لما فسدت عصيتها من العرب ، استولى ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا حُطَّتْهَا ، وثافسوا بينهم ، وتوزَّعوا ممالك الدولة ، و[اتزى]^(١) كل واحد منهم على ما كان في ولايته ، وشمخ بأنفه . وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية ، فتلقَّبوا بالقباب الملك ، ولبسوا شارته ، وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يُغيِّره ؛ لأنَّ الأندلس ليست بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره ، واستمرَّ لهم ذلك كما قال ابن شرف^(١) : [من البسيط]

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ^(ب) فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
الْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالِهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صُورَةً^(ج) الْأَسَدِ

فاستظَّهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطَّراء على الأندلس ، من أرض العدو من قبائل البربر وزناته وغيرهم ، اقتداءً بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعفت عصية العرب واستبَدَّ ابن أبي عامر على الدولة . فكان لهم دُولٌ عظيمة استبَدَّ كل واحد فيها بجانب من الأندلس ، وحظَّ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ، ولم يزالوا في سلطانهم ذلك ، حتَّى أجاز إليهم البحر المرابطون أهل العصية القويَّة من لفتونة ، فاستبدلوا بهم ، وأزالوهم عن [مراكزهم]^(د) ومَحَوْا آثارهم ، ولم يقدِّروا على مدافعتهم لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ لَهُمْ .

(١) ظ: اقترى (ب) ياقوت : مقتدر (ج) ياقوت : صولة (د) سقط من ظ .

(١) تنسب للحسن بن رشيق ، وهو لم يدخل الأندلس ، انظر مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ 2637/6 ، الذَّخِيرَةُ 4 : 121 ، نفع الطيب 214/1 ونسبها ابن خَلَّكَان لابن عَمَّار الأندلسي (وفيات الأعيان 4 : 52) .

ففي هذه العصبية [يكون] ^(د) تمهيد الدولة وجامعتها من أولها. وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول بإطلاق هم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة، ذكر ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك ⁽¹⁾. وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها، وإنما هو مخصوص بالدول [الأخيرة] ^(أ)، / بعد التمهيد واستقرار الملك في التصاب واستحكام الصبغة لأهله. فالرجل إنما أدرك الدولة عند هزمها 5 وخلق جدتها، ورجوعها إلى الاستظهار بالموالي والصنائع، ثم [إلى المستخدمين] ^(ب) من ورائهم بالأجر على المدافعة. فإنه إنما أدرك دول الطوائف، وذلك عند اختلال دولة بني أمية، وانقراض عصيتها من العرب، واستبداد كل أمير بقطره. وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة، ولم يكن بقي لهم من أمر العصبية شيء، لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلاثمائة من السنين وهلاكهم، ولم 10 ير إلا سلطانا مستبدا بالملك عن عشائره، قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية؛ فهو لذلك ^(ج) لا يناع فيه، ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة. فأطلق الطرطوشي القول في ذلك، ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة، وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية. فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه. ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ [سورة البقرة، من الآية 247]. 15

(أ) ظ : الآخرة (ب) ل : بالمستخدمين (ج) ظ : كذلك .

(1) سراج الملوك 2 : 492 .

3 • فصل ، في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصية

وذلك أنه إذا كان لعصيته غلب كبير على الأمم والأجيال ، وفي نفوس
القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد ، فإذا نزع إليهم هذا الخارج وانبتذ
5 عن مقر ملكه ومنبت عزه ، اشتملوا عليه ، وقاموا بأمره وظاهروه على شأنه وعُنُوا
بتمهيد دولته ، يزوجون استقراره في نصابه ، وتناولوا الأمر من يد أغياصه ، ولا
يطمعون في مشاركته في شيء من سلطانه ، / تسلياً لعصيته ، وانقياداً لما استحكم
له ولقومه من صبغة الغلب في العالم ، وعقيدة إيمانية استقرت في الإذعان لهم ، فلو
[راموها]⁽¹⁾ معه أو دونه لزلزلت الأرض زلزالها .

10 وهذا كما وقع للأدارسة بالمغرب الأقصى ، والعبيديين بإفريقية ومصر ، لما
انبتذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية ، وابتعدوا عن مقر^(ب) الخلافة ، وسمّوا إلى
طلبها من أيدي آل العباس ، بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف ، لبني أمية
أولاً ، ثم لبني هاشم من بعدهم ، فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعّوا لأنفسهم ، وقام
بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى ، فأوربهُ ومغيلة للأدارسة ، وكثامة وصنهاجة وهوارة
15 للعبيديين ، فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائيرهم أمرهم ، واقتطعوا من ممالك العباسيين
المغرب كله ثم إفريقية ، ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين يمتد ، إلى أن

(1) ظ: راموا (ب) ل: محل .

مَلَكُوا مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ، وَقَاسَمُوهُمْ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ شِقِّ الْأُبُلْمَةِ. وَهَؤُلَاءِ
 الْبَرَابِرَةُ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، مُسَلِّمُونَ لِلْعَبِيدِينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمُلْكِهِمْ.
 وَإِنَّمَا كَانُوا يُنَافِسُونَ⁽¹⁾ فِي الرِّتَبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً، تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ صِبْغَةِ الْمُلِكِ لِبَنِي
 هَاشِمٍ، وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الْغَلَبِ لِقُرَيْشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ. فَلَمْ يَزَلِ الْمُلِكُ فِي
 أَغْقَابِهِمْ إِلَى اقْتِرَاضِ دَوْلَةِ الْعَرَبِ بِأَسْرَافِهَا. ﴿وَاللَّهُ يَجْزِيكُمْ لَمُعَقَّبٍ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة 5
 الرعد، من الآية 41].

4 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الدُّوْلَةَ الْعَامَّةَ لَا سَتِيلَاءَ، الْعَظِيمَةَ الْمُلْكِ، أَصْلُهَا الدِّينُ، إِنَّمَا مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ دَعْوَةٍ حَقٍّ

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالتَّغَلُّبِ، وَالْغَلَبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَاتِّفَاقِ
 الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمَطْلَبَةِ. وَجَمْعُ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا / إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ
 [107] دِينِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾. [سورة
 الأنفال، من الآية 63]. وَسِرُّهُ، أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمَيْلِ إِلَى
 الدُّنْيَا، حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفُشَا الْخِلَافِ؛ وَإِذَا انْصَرَفَتْ إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتْ الدُّنْيَا
 وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ، اتَّحَدَتْ وَجَمَعَتْهَا، فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ الْخِلَافُ، وَحَسُنَ^(ب)
 التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاوُضُ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لَذَلِكَ، فَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ، كَمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ
 15 بَعْدُ.

(1) ل: يُنَافِسُونَ (ب) ل: حَصَلَ.

5 • فَصُلْ ، فِي أَنْ الدَّعْوَةَ الدِّينِيَّةَ ، تَرِيدُ الدَّوْلَةَ فِي أَصْلِهَا قُوَّةً عَلَى قُوَّةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا مِنْ عَدَدِهَا

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ الَّذِي فِي أَهْلِ الْعَصِيَّةِ وَتَقَرُّدِ الْوِجْهَةِ إِلَى الْحَقِّ . فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْإِسْتِئْصَارُ 5 فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ ، لِأَنَّ الْوِجْهَةَ وَاحِدَةٌ وَالْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ ، وَهُمْ مُسْتَمْتِعُونَ عَلَيْهِ ؛ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِيُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ ، فَأَغْرَضَهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ ، وَتَخَاذُلُهُمْ لِتَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ ؛ فَلَا يَقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، بَلْ يُغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِّ وَالذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ .

وهذا كما وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي الْفُتُوحَاتِ ؛ فَكَانَتْ جُيُوشُ 10 الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْيَزْمُوكِ بَضْعًا وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فِي كُلِّ مَعْسَكَرٍ ؛ وَجُمُوعُ فَارِسَ⁽¹⁾ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ ، وَجُمُوعُ هِرَاقِلَ عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ⁽²⁾ أَرْبَعَمِائَةَ أَلْفٍ ؛ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ .

واعتبر ذلك أيضاً في دَوْلَةِ لَمْتُونَةِ ودَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ ؛ فَقَدْ كَانَ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْقِبَائِلِ كَثِيرٌ [مَنْ]⁽¹⁾ يَقَاوِمُهُمْ فِي الْعَدَدِ وَالْعَصِيَّةِ أَوْ يَشْفُ عَلَيْهِمْ ، إِلَّا / أَنَّ

[107 ب]

(1) ظ: تما .

(1) الطبري : التاريخ 3 : 496 ، 535 .

(2) الواقدي : فتوح الشام 1 : 162 .

الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستنبصار والاستماتة كما قلناه ، فلم يقف لهم شيء .

واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفست، كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبية وخدّها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها ، الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها، وكانوا أكثر عصبية منها أو أشدّ بدواة .

واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كان زناتة أبدى من المصامدة وأشدّ توخّشاً، وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتّباع المهديّ، فلبسوا صبغتها، وتضاعفت قوة عصبيتهم بها، فغلبوا على زناتة أولاً واستتبّعوهم، وإن كانوا من حيث العصبية والبدواة أشدّ منهم؛ فلما [حَالُوا]⁽¹⁾ عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كلّ جانب وغلبوهم على الأمر واتزعوه منهم. ﴿والله غالب على أمره﴾ . [سورة يوسف، من الآية 21] .

6 • فصلّ، في أنّ الدعوة الدينية من [غير]^(ب) عصبية لا تتمّ

وهذا لما قدّمناه من أنّ كلّ أمرٍ تحمّل عليه الكافّة فلا بدّ له من العصبية. وفي الحديث الصحيح كما مرّ⁽¹⁾: "ما بعث الله نبيّاً إلّا في منعة من قومه". وإذا كان

(1) ظ: حاولوا (ب) سقط من ظ .

(1) تقدّم تخرجه في صفحة 168 الحاشية (2) .

هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخزق العوائد، فما ظنك بغيرهم أن لا تُخزق له العادة في الغلب بغير عَصِيَّة.

وقد وقع هذا لابن قسي⁽¹⁾ شيخ المتصوفة، وصاحب كتاب خلع الثقلين في التصوف؛ ثار بالأندلس داعيًا إلى الحق، وسمى أصحابه بالمرابطين، فبئيل دَعْوَةُ المهدي، فاستتب له الأمر قليلًا لشغل لفتونة بما دهمهم من أمر الموحدين، ولم يكن 5 هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه، فلم يلبث حين استولى الموحدون على / المغرب أن أذعن ودخل في دَعْوَتهم⁽¹⁾، وبايعهم من مَعْقِلِهِ بِحُضْنِ أَرْكَش، [108 أ] وأمكنهم من ثفره، وكان أول داعية لهم بالأندلس، وكانت ثورته تُسمى ثورة المرابطين.

ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفُقهاء. 10 فإن كثيرًا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين، يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء، داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف، رجاء في الثواب عليه من الله؛ فيكثر أتباعهم [والمُتلبسون]^(ب) بهم من القوغاء والدَّهماء، ويُعرضون بأنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل، مأزورين 15 غير مأجورين، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، و^(ج) إنما أمر به حيث تكون

(أ) ل: طاعتهم (ب) ط: الملبسون، ع: المتكسبون (ج) واو العطف ساقط من ل.

(1) أصله من المولدين أمراء تطيلة، أسلم جدّه عند فتح الأندلس. أورد ابن حزم نسبهم في الجمهرة (499)، (502). وذكر أخبار أحمد بن قسي هذا، المراكشي: المعجب 281، الذهبي: تاريخ الإسلام 2: 188، الصفي: الوافي 7: 297، ويرد الاستشهاد بكتابه خلع الثقلين.

الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ؛ قَالَ ﷺ⁽¹⁾: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ". وَأَحْوَالُ الْمُلُوكِ وَالْأُيُوفِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يُزْخِرُهَا وَيَهْدِمُ بِنَاءَهَا إِلَّا الْمَطَالِبَةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَصِيَّةُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ كَمَا قَدَّمَاهُ .

وهكذا كان حال الأنبياء في دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ بِالْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ، وَهُمْ الْمُؤَيَّدُونَ مِنْ اللَّهِ لَوْ شَاءَ بِالْكَوْنِ كُلِّهِ ؛ لَكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى الْأُمُورَ [بِحُكْمَتِهِ]^(أ) عَلَى 5 مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة، من الآية 60] .

فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ هَذَا الْمَذْهَبِ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا، قَصَرَ بِهِ الْإِنْفِرَادُ عَنِ الْعَصِيَّةِ ، فَطَاحَ فِي هَوَاةِ الْهَلَاكِ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُلْتَبِسِينَ بِذَلِكَ فِي طَلَبِ الرَّئَاسَةِ، فَأَجْدَرُ أَنْ تَعَوَّقَهُ الْعَوَائِقُ وَتَنْقَطِعَ^(ب) بِهِ الْمَهَالِكُ؛ لِأَنَّهُ أَمَرَ اللَّهُ، لَا يَتِمُّ إِلَّا بِرِضَاهُ وَإِعَانَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالتَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ وَلَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ، 10 وَلَا يَزْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ .

وَأَوَّلُ مَنْ ابْتَدَأَ هَذِهِ الزَّعْرَةَ فِي الْمِلَّةِ بَبْغَدَادَ، حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ، وَقُتِلَ [108 ب] الْأَمِينُ ، وَأَبْطَأَ الْمَأْمُونُ بِخُرَاسَانَ / عَنْ مَقْدَمِ الْعِرَاقِ ، ثُمَّ عَهْدَ لَعْلِي بْنِ مُوسَى الرِّضَا مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ، فَكَشَفَ بَنُو الْعَبَّاسِ وَجْهَ التَّكْيِيرِ عَلَيْهِ، وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ وَخَلَعَ طَاعَةَ الْمَأْمُونِ وَالْإِسْتِبدَالَ مِنْهُ. وَبَوَّعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ، فَوْقَ الْهَرَجِ بِبَغْدَادَ، 15 وَانْطَلَقَتْ أَيْدِي الدَّعْرَةِ^(ج) بِهَا مِنَ الشُّطَارِ^(د) وَالْحَزْبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَةِ وَالصُّوْنِ،

(أ) مِنْ عِ بَخَطِ الْمُؤَلِّفِ (ب) ع: تَنْقَطِعُ (ج) فِي ع: الزَّعْرَةُ، وَالدَّاعِرُ الْفَاسِقُ الَّتِي، الْخَلْقُ، وَجَمْعُهُ دَعَارٌ، وَلَمْ أَفْهَمْ عَلَى هَذَا الْجَمْعِ (د) ع: الشَّيْطَانُ .

(1) فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (49) (78) وَعِنْدَ أَحْمَدَ 3: 10، 20، 49، 54، 92، وَأَبِي دَاوُدَ (1140) وَالتِّرْمِذِيَّ (2172) وَفِي التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ مَزِيدُ مَصَادِرَ لِتَخْرِيجِهِ .

وقَطَعُوا السَّبِيلَ^(١)، وَاِمْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِيْهَابِ النَّاسِ وَبَاعُوهَا عِلَانِيَةً فِي الْأَسْوَاقِ،
 وَاسْتَعْدَى أَهْلُهَا الْحَكَامَ فَلَمْ يُعْذَوْهُمْ ؛ فَتَوَامَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْفُسَّاقِ
 وَكَفَّ عَادِيَتِهِمْ. وَقَامَ بَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرِفُ بِخَالِدِ الدَّرِيُوشِ^(١)، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ
 بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَأَجَابَهُ خَلْقٌ، وَقَاتَلَ أَهْلَ الدَّعَاةِ وَغَلَبَهُمْ؛ وَأَطْلَقَ يَدَهُ
 5 فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ. ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرٌ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ، يُعْرِفُ
 بِسَهْلِ بْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَيُكْنَى أَبُو حَاتِمٍ، وَعَلَّقَ مُضْحَكًا فِي عُنُقِهِ وَدَعَا إِلَى
 الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَاتَّبَعَهُ كَافَّةُ
 النَّاسِ مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ، مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَقَمْنٌ دُونَهُمْ، وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ، وَاتَّخَذَ
 الدِّيْوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ، وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَاءَةَ، وَمَنَعَ الْحَفَّارَةَ لِأَوْلِيَّكَ الشُّطَّارِ.
 10 وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدَّرِيُوشِ: أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ؛ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ: لَكِنِّي أَقَاتِلُ كُلَّ
 مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَاتِنًا مِنْ كَانَ. وَذَلِكَ سَنَةً إِخْدَى وَمِائَتَيْنِ. وَجَهَّزَ إِبْرَاهِيمُ
 ابْنُ الْمَهْدِيِّ إِلَيْهِ الْعَسَاكِرَ فَغَلَبَهُ وَأَسْرَهُ وَأَنْحَلَ أَمْرَهُ سَرِيعًا، وَذَهَبَ وَنَجَا بِذِمَاءِ نَفْسِهِ.
 ثُمَّ اقْتَدَى بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَسَّوسِينَ، يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ
 الْحَقِّ وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَحْتَاجُونَ^(ب) فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصِيَّةِ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَغَبَّةِ أَمْرِهِمْ
 15 وَمَالِ أَمْوَالِهِمْ. وَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ؛ إِمَّا الْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ / أَهْلِ
 الْجُنُونِ؛ وَإِمَّا التَّنْكِيلُ بِالْقَتْلِ أَوْ الضَّرْبِ إِنْ أَخْذُوا هَزْجًا؛ وَإِمَّا إِذَاعَةُ السُّخْرِيَاءِ
 مِنْهُمْ وَعَدُّهُمْ فِي جُمْلَةِ الصَّقَاعِينَ.

(أ) ل: السبيل (ب) ل: يحتاجون إليه .

(١) خص الطبري حركة "خروج المطوعة للتكثير على الفساق" بفصل مستقل في التاريخ 8: 551- .

وقد يَنْتَسِبُ بعضهم إلى الفاطميِّ المنتظر ، إمّا بأنه هو ، أو دَاعٍ له ،
وليس مع ذلك على عِلْمٍ من أمرِ الفاطميِّ ، ولا ما هو . وأكثرُ المنتحلين لمثل هذا
تَجِدُهُم مُوسَّوسِينَ أو مجانينَ أو [مُلبَّسين] ^(أ) ، يطلبون [بمثل] ^(ب) هذه الدَّعوى
رئاسةً امْتَلَأَتْ بها جَوَانِحُهُمْ وعَجَزُوا عن التَّوَصُّلِ إليها بشيءٍ من أسبابها العادية ،
فيَحْسِبُونَ أنَّ هذا من الأسبابِ البالغةِ بهم إلى ما يُؤمِّلُونَهُ من ذلك ، ولا يَحْتَسِبُونَ
5 ما يَنَالُهُم من الهَلَكَةِ ، فيُسْرِعُ إليهم القَتْلُ بما يُحْدِثُونَهُ من الفِتْنَةِ ، وتسوءُ عاقِبَةُ
مَكْرِهِمْ .

وقد كان لأوّل هذه المائة ، خَرَجَ بالسُّوس رَجُلٌ من المُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى
التَّوَيْزَرِيَّ ، عَمِدَ إلى مَسْجِدِ مَاسَّةٍ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَالِكَ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ الفاطميُّ المنتظرُ ،
تَلْبِيساً عَلَى الْعَامَّةِ هُنَالِكَ ، بما مَلَأَ قُلُوبَهُمْ من الْحَدَثَانِ بَانْتِظَارِهِ ، وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ
10 الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَضَلُّ دَعْوَتِهِ . فَتَهَافَّتَ عَلَيْهِ طَوَائِفٌ مِنْ عَامَّةِ الْبَرِّ تَهَافَّتَ الْقَرَّاشُ . ثُمَّ
خَشِيَ رُؤُوسُهُمْ اتِّسَاعَ نِطَاقِ الْفِتْنَةِ ؛ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَامِدَةِ يَوْمئِذٍ عُمَرُ
السَّكْسِيوِيِّ مِنْ قَتْلِهِ فِي فِرَاشِهِ .

وكذلك خَرَجَ فِي غُمَارَةِ الْأَوَّلِ هذه المائة أيضاً رَجُلٌ يُعْرِفُ بِالْعَبَّاسِ ، وَادَّعَى
مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَى ، وَاتَّبَعَ نَعِيقَهُ الْأَزْدَلُونَ مِنْ سُفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَغِمَارِهِمْ ، وَزَحَفَ
15 إِلَى بَادِسٍ مِنْ أَمْصَارِهِمْ فَدَخَلَهَا عَنُودَةً ، ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْماً مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِ ،
وَمَضَى فِي الْهَالِكِينَ الْأَوَّلِينَ .

(أ) ظ: مُلْبَّسِينَ (ب) من: ع ل ج ي .

وأمثال ذلك كثير، والغلط فيه^(١) من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها.
وأما إن كان الثلبيس، فأخرى أن لا يتم له أمر، وأن ييؤء بإثمه ﴿وذلك جزاء
الظالمين﴾ [سورة المائدة، من الآية 29] .

7 • فصل، في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لا تردّ عليها

5 / والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها، لا بدّ من
توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم، ويستولون عليها لحمايتها من
العدو، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية ورذع وغير ذلك. فإذا توزعت
العصائب كلهم على الثغور والممالك، فلا بدّ من نقاد^(ب) عددهم، وقد بلغت الممالك
حينئذ إلى حدّ يكون ثغراً للدولة؛ وتحمّاً لوطنها؛ ونطاقاً لمركز ملكها. فإن تكلفت
10 الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية، وكان موضعاً لانتهاز الفرصة
من العدو المجاور؛ ويعود وبأل ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخزق
سياج الهيبة .

وما كانت العصابة مؤفورة ولم ينفذ عددها في توزيع الحصص على الثغور
والنواحي، بقي في الدولة قوّة على تناول ما وراء الغاية، حتى ينفصح نطاقها إلى
15 غايته. والعلة الطبيعية في ذلك أن قوّة العصبية هي من سائر القوى الطبيعية، وكلّ
قوّة يضر عنها فعل من الأفعال، فشأنها ذلك في فعلها. والدولة في مركزها أشدّ تما

(١) سقط من ج (ب) ي: نود .

تكون في الطرف والنطاق. وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية، عجزت وقصرت عما وراءه؛ شأن الأشعة والأنوار إذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من الثغر عليه. ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنها تأخذ في التناقص من جهة الأطراف، ولا يزال المركز محفوظاً إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملةً، فحينئذ يكون انقراض المركز. وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء 5 الأطراف والنطاق، بل تضمحل لوقتها؛ فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح؛ فإذا غلب القلب ومليك انهزم جميع الأطراف .

وانظر هذا في الدولة الفارسية، كان مركزها المدائن؛ فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع، ولم ينفع يزدرج ما بقي بيده من أطراف ممالكه؛ وبالعكس^(١) من ذلك، / وكذا الدولة الرومية بالشام، لما كان مركزها 10 القسطنطينية* وغلّبهم المسلمون على الشام، تميزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية* (ب) ولم يضرمهم انتزاع الشام من أيديهم، فلم يزال ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن الله بانقراضه .

وانظر أيضاً شأن العرب أول الإسلام، لما كانت عصائهم مؤفورة، كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت، ثم تجاوزوا ذلك إلى 15 ما وراءه من السند والحبشة وإفريقية والمغرب؛ ثم إلى الأندلس. فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والشعور، ونزلوها حامية، ونقد عددهم في تلك التوزيعات، أقصروا عن

(١) ي: والعكس (ب) سقط ما بين النجمين من ي. وجاءت القسطنطينية في ع ظ بالياء المشددة تسبق التاء الأخيرة، على غير ما كتبت بها في غير موضع .

الفتوحات بَعْدَ، وانتهى أمرُ الإسلام، ولم يتجاوز تلك الحدود؛ ومنها تراجعت
الدَّولة، حتَّى تأذن الله بانقراضها .

وكذا كان حالُ الدَّول من بَعْد ذلك؛ كلُّ دولةٍ على نسبةِ القائمين بها في
القِلَّة والكثرة؛ وعند نقاد^(١) عددهم بالتوزيع، ينقطع لهم الفتح والاستيلاء. سنة الله
5 في خلقه.

8 • فصل، في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها، على نسبة القائمين بها في القِلَّة والكثرة

والسببُ في ذلك ، أن الملك إنما يكون بالعصبية ؛ وأهل العصبية هم
الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها ويتقسمون^(ب) عليها ؛ فما كان من الدَّول
10 العامة قبيلها وأهل عصبيتها أكثر ، كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطاناً ، وكان ملكها
أوسع لذلك .

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية لما ألف الله كلمة العرب على الإسلام،
وكان عددُ المسلمين في غزوة تبوك، آخر غزوات النبي ﷺ ، مائة ألف وعشرة
آلاف من مُضَر وقحطان، ما بين فارس وراجل، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى
15 الوفاة. فلما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك، / لم يكن دونه جى ولا
وزر، فاستبىح جى فارس والروم أهل الدَّولتين العظيمتين في العالم لعهدهم، والترك

(١) ي : فرد (ب) ع ل: وينقسمون .

بالمشرق، *والإفرنجة والبربر بالمغرب*^(١)، والقوط بالأندلس، وخطوا من الحجاز إلى السويس الأقصى، ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال، واستولوا على الأقاليم السبعة .

ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع الغنيديين قبلهم؛ لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة الغنيديين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة، كانت دولتهم 5 أعظم، فملكوا إفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز.

ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة، قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم .

ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزنانة، بني مرين وبني عبد الواد؛ لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني عبد الواد، كانت دولتهم أقوى 10 منها وأوسع نطاقاً، وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى . يقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم كانوا ثلاثة آلاف، وإن عدد بني عبد الواد كانوا ألفاً، إلا أن الدولة بالرّفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم .

وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك، يكون اتساع الدولة وقوتها. وأما طول أمدها أيضاً فعلى تلك النسبة؛ لأن عمر الحادث من قوة مزاجه؛ 15 ومزاج الدول إنما هو بالعصبية، فإذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر طويلاً. والعصبية إنما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه، والسبب

(١) ما بين النجمين سقط من ج .

الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ النَّقْصَ إِنَّمَا يَبْدَأُ الدَّوْلَةَ مِنَ الْأَطْرَافِ؛ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَزَكِزِهَا وَكَثِيرَةً؛ وَكُلُّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ؛ فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ النَّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ، وَاخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ / وَزَمَانِهِ، فَيَكُونُ أَمَدُهَا طَوِيلًا.

[111]

5 وانظر ذلك في دَوْلَةِ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَيْفَ كَانَ أَمَدُهَا أَطْوَلَ الدُّوَلِ، لَا بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ الْمُتَنَبِّذِينَ بِالْأَنْدَلُسِ. وَلَمْ يَنْتَقِصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَزْبَعَاءِ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَدَوْلَةُ الْعَبْسِيِّينَ كَانَ أَمَدُهَا قَرِيبًا مِنْ مَائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً. وَدَوْلَةُ صِنْهَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مَعَدِّ الْمُعِزِّ أَمْرَ إِفْرِيقِيَّةَ لِبُلْكَيْنِ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثُمِائَةٍ، إِلَى حِينَ اسْتِيلَاءِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ وَبِحَايَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تُنَاهِزُ مَائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً.

10 وهكذا يَنْسَبُ الدُّوَلُ فِي أَغْمَارِهَا عَلَى نِسْبِ الْقَائِمِينَ بِهَا. ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ، مِنَ الْآيَةِ 85].

9 ﴿فَصَلِّ، فِي أَنْ الْأَوْطَانِ الْكَثِيرَةِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ، قَلَّ أَنْ تَسْتَحْكِمَ فِيهَا دَوْلَةً﴾

15 وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، اخْتِلَافُ الْأَرَءِ وَالْأَهْوَاءِ، وَأَنْ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوًى عَصِيَّةً تُنَاجِزُ دُونَهَا، فَيَكْثُرُ الْإِنْتِقَاضُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصِيَّةٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ عَصِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تُطْلَقُ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةٌ وَقُوَّةٌ.

وانظر ما وقع من ذلك بإفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد؛ فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات. فلم يُغن فيهم الغلب الأول الذي كان لابن أبي سرح عليهم⁽¹⁾ وعلى الفرنجة شيئاً. وعاودوا بعد^(ب) ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة. قال ابن أبي زيد⁽¹⁾: 5
ازتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة، ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية / موسى بن نصير فما بعده. وهذا معنى ما يُنقل عن عمر⁽²⁾: أن إفريقية مفرقة لقلوب أهلها. إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحامل لهم على عدم الإدعان والالتقياد.

ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام، إنما كانت حاميتها من 10
فارس والروم؛ والكافة دهماء أهل مدن وأمصار؛ فلما غلبهم المسلمون على الأمر واتزعوه من أيديهم، لم يبق ممانع ولا مشاق. والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تُحصى، وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر، وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة، فطال أمر العرب في^(ج) تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب. وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل، كان فيه من قبائل 15

(أ) سقط من ج (ب) ج: من بعد (ج) ج: من .

(1) استعمل هذا النص في العبر عن ابن أبي زيد؛ انظر العبر 6: 103 .

(2) يُقَالُ هذا عن عمر بغير هذا اللفظ، انظر معجم ما استعجم، للبكري 1: 177 ، معجم البلدان 1: 229 ،
الروض المعطار 48 .

فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني^(١) مدين وبني لوط وأدوم والأزمن والعماليقة
وأكريكش والنبت من جانب الجزيرة والموصل، ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في
العصبيّة. فصعّب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورُسوخ أمرهم، واضطرب عليهم
المُلك مرّة بعد أخرى؛ وسرى ذلك الخلاف إليهم، فاختلفوا على سُلطانهم وخرجوا
عليه. ولم يكن لهم مُلك مُوطّد سائر أيّامهم إلى أن غلبهم الفرس ثمّ يونان ثمّ الروم
5 آخر أمرهم عند الجلاء، ﴿والله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21] .

وبعكس هذا أيضاً ، الأوطان الخلوّة من العصبيّات ، يسهل تمهيد الدولة
فيها، ويكون سُلطانها وادعاً لِقلة الهزج والانتقاض، ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير
من العصبيّة ، كما هو الشأن في مِصرَ والشّام لهذا العهد، إذ هي خلوّ من القبائل
والعصبيّات ، كأن لم يكن الشّام مَعَدناً لهم كما قُلناه . فمُلك مِصر في غاية الدّعة
10 والرّسوخ لِقلة الخوارج وأهل العصائب ، إنّما هو سُلطان ورعيّة ، ودولتها قائمة
/ بملوك التّرك، وعصائهم يَغلبون على الأمر واحدٌ بعد واحدٍ، وَيُنْقِلُ الأمر فيهم من
مَنبَت إلى مَنبَت، والخِلافة مُسمّاة للعبّاسيّ من أعقاب الخلفاء ببغداد .

وكذا شأنُ الأندلس لهذا العهد ؛ فإنّ عصبيّة ابنِ الآخرِ سُلطانها لم تكن
15 لأوّل دولتهم بقويّة ولا كانت لها كثرةٌ ، إنّما كانوا أهلَ بَيتٍ من يَوت العربِ أهلِ
الدّولة الأمويّة ، بقوا من ذلك القلّ . وذلك أنّ أهلَ الأندلس لما انقضت الدّولة
العربيّة منهم ومَلِكهم البربر من لَمْتونة والمُوحّدين، سَيِّمُوا مَلِكَتَهُمْ، وثَقُلَتْ وِطائِها
عليهم، فأشربت القلوبُ بغضائهم وتكرائهم، وأمكن المُوحّدون السّادة في آخر

(١) كذا في ع ل ج ي، وفي ظ: وهي .

الدَّوْلَةُ كَثِيرًا مِنَ الْحُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ، فِي سَبِيلِ الْإِسْطِظْهَارِ بِهِ عَلَى شَأْنِهِمْ مِنْ تَمَلُّكِ الْحَضْرَةِ مَرَكَشَ. فَاجْتَمَعَ مِنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا⁽¹⁾ مِنْ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، مُعَادِنٌ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ، تَحَافَى بِهِمُ الْمُنْتَبِتُ عَنِ الْحَضَارَةِ وَالْأَمْصَارِ بَعْضُ الشَّيْءِ، وَرَسَخُوا فِي الْجُنْدِيَّةِ، مِثْلُ: ابْنِ هُوْدٍ، وَابْنِ الْأَحْمَرِ، وَابْنِ مَرْذَنْشِشَ، وَأَمْثَالِهِمْ .

5 فقام ابنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ، وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ، فَتَبَدَّوْا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَأَخْرَجُوهُمْ؛ وَاسْتَقْلَّ ابْنُ هُوْدٍ بِالْأَمْرِ بِالْأَنْدَلُسِ.

ثُمَّ سَمَّا ابْنَ الْأَحْمَرَ لِلْأَمْرِ، وَخَالَفَ ابْنَ هُوْدٍ فِي دَعْوَتِهِ، فَدَعَا هَؤُلَاءِ لَابْنِ أَبِي حَفْصٍ صَاحِبِ إِفْرِيْقِيَّةٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، وَقَامَ بِالْأَمْرِ، وَتَنَاوَلَهُ بِعَصَابَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَمُّونَهُمُ الرُّؤَسَاءَ، وَلَمْ يَحْتِجْ لَأَكْثَرِ مِنْهَا لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَأَنَّهَا 10 سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ. ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الطَّاعِيَةِ مَنْ يُجِيزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَعْيَاصِ زَنَاتَةٍ، فَصَارُوا مَعَهُ غُضْبَةً عَلَى الْمُشَاغِرَةِ وَالرِّبَاطِ.

ثُمَّ سَمَّا لِصَاحِبِ الْمَغْرِبِ مِنْ مُلُوكِ زَنَاتَةٍ أَمْلٌ فِي الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ، فَصَارَ أُولَئِكَ الْأَعْيَاصُ عِصَابَةً ابْنَ الْأَحْمَرَ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ، إِلَى أَنْ تَأَثَّلَ 15 أَمْرُهُ وَرَسَخَ ، وَأَلْفَنَهُ / التُّفُوسَ، وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ، وَأَوْرَثَهُ أَغْقَابُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ. [112 ب] فَلَ تَطَلَّنَ أَنَّهُ بَغِيرَ عَصَابَةٍ فَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ وَقَدْ كَانَ مَبْدُؤُهُ بِعَصَابَةٍ إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ وَعَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ؛ فَإِنَّ وَطَنَ الْأَنْدَلُسِ لِقَلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ، يَغْنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَصِيَّةِ فِي التَّغْلِبِ عَلَيْهِمْ. وَ [إِنْ] ﴿اللَّهُ غَنَّى عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 97] .

(1) ل: منها .

10 • فصلٌ ، في أن من طَبِيعَةِ الْمُلْكِ الْإِنْفِرَادَ بِالْمَجْدِ^(١)

وذلك أن الملك كما قدّمناه إنّما هو بالعَصِيَّة، والعَصِيَّة مُتَأَلِّفَةٌ من عَصِيَّاتٍ كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلّها، فتغلبها وتَسْتَوِلِي عليها حتى تُصَيِّرُها جميعًا في ضَمَنِها ، وبذلك يكون الاجتماعُ والتَّغَلُّبُ^(ب) على الناس والدُّول. وسِرُّهُ أَنَّ الْعَصِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هي مثل المِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ؛ والمِزَاجُ إنّما يكون 5 عن العناصر؛ وقد تبَيَّنَ في مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعِنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةٌ فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مِزَاجٌ أَضْلًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهَا غَالِبًا عَلَى الْآخَرِ، وَبِغَلَبَتِهِ عَلَيْهَا يَقَعُ الْإِمْتِزَاجُ، وَكَذَا تِلْكَ الْعَصِيَّاتُ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةُ عَلَى الْكُلِّ، حتى تَجْمَعُهَا وَتَوَلِّفُهَا وَتُصَيِّرُهَا عَصِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْعَصَائِبِ ، وهي موجودةٌ 10 في ضَمَنِهَا. وتلك الْعَصِيَّةُ الْكُبْرَى إنّما تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلٍ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِمْ؛ وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رِئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ؛ فَيَتَعَيَّنُ رِئِيسًا لِلْعَصِيَّاتِ كُلِّهَا لَغَلَبِ مَنَبَتِهِ لَجَمِيعِهَا. وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ - وَمِنَ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ الْكِبَرِ وَالْأَثَقَةِ - فَيَأْتِي حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِثْبَاعِهِمْ وَالتَّحْكُمِ فِيهِمْ؛ وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنْ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ ، لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ 15 الْحُكَامِ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء ، من الآية 22] . فَيَجْدَعُ حِينَئِذٍ أَنْوَفَ الْعَصِيَّاتِ ، / وَيَكْتَبُحُ شَكَائَتَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي

[113 أ]

(١) جمعت ع ، في مرحلة لاحقة، بين هذا الفصل والفضلين التاليين، فأضاف المؤلف بخطه إلى هذا العنوان: [...] والتوغل في الترف وإثارة الذعة والكون [(ب) من ظ، وحدها ، وفي بقية الأصول: القلب .

التَّحْكُمُ ، وَيُفْرَغُ عَصِيَّتَهُمْ^(أ) عَنْ ذَلِكَ ، وَيَتَفَرَّدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ ، حَتَّى لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ نَاقَةً وَلَا جَمَلًا ، فَيَتَفَرَّدُ^(ب) بِذَلِكَ الْمَجْدَ بِكَلِّيَّتِهِ ؛ وَيُدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ فِيهِ . وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ ، وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي أَوْ لِلثَّالِثِ عَلَى قَدَرِ مُمَانَعَةِ الْعَصِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا . إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الدَّوَلِ ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

5

11 • فَصْلٌ ، فِي أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْمُلْكِ التَّسْرِيفَ^(ج)

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا ، كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ ؛ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ ؛ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَخْوَالِهِمْ ، وَتَصِيرُ لَتِلْكَ النَّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا ، وَيَتَزَعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَّةِ الْأَخْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْفَرَشِ وَالْآتِيَةِ ، وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ ، وَلُبْسِ الْأَنْيَقِ ، وَرُكُوبِ الْفَارِهِ ، وَيُنَاعِي خَلْفَهُمْ فِي ذَلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ . وَعَلَى قَدَرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرْفُهُمْ فِيهِ ، إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا ؛ سُنَّةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

15

(أ) ج : عَصِيَّتَهُمْ (ب) ل : فَيَفْرَدُ (ج) كَذَا وَرَدَ عَنَّا هَذَا الْفَصْلُ فِي ط ل ج ي ، وَفِي مَسْودَتِهِ ع ، شَطَبَ عَنَوَانَهُ وَجَعَلَهُ امْتِدَادًا لِلْفَصْلِ قَبْلَهُ بِقَوْلِهِ : وَأَمَّا التَّوَعُّلُ فِي الثَّرَفِ فَلَا أُنَ الْأُمَّةَ إِذَا

12 • فصلٌ ، في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون⁽¹⁾

وذلك أنَّ الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة ، والمطالبة غايها الغلب
والملك ، وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها : [من الطويل]

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر⁽¹⁾

- 5 فإذا حصل الملك ، أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه ،
/ وآثروا الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني
[113 ب] والمساكن والملابس ، فينبئون القصور ، ويحجرون المياه ، ويغرسون الرياض ،
ويستمتعون بأحوال الدنيا ، ويؤثرون الراحة على المتاعب ، ويتأنقون في أحوال
الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا ، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم
10 من أجيالهم ؛ ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره .

(1) كما حصل في الفصل قبله ، شطب المؤلف هذا العنوان في نسخته "ع" ، وربط الكلام بما قبله بقوله : وأما إشار السكون
فلأن الأمة لا يحصل لها الملك ...

(1) البيت لأبي صخر الهذلي ، انظر أمالي القالي : 1 : 148 ، الأغاني : 5 : 121 ، المعاني بن زكرياء : المجلس
الصالح الكافي : 4 : 102 ، الثعالب : لباب الآداب : 2 : 40 ، داود الأصفهاني : الزهرة : 1 : 275 .

13 • فصل ، في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول
الترف والدعة، أقبلت الدولة على الهرم

وبيانه من وجوه :

الأول : أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه . ومهما كان المجد مشتركاً بين
العصابة ، وكان سعيهم له واحداً ، كانت هممهم في التغلب على الغير ، والذب عن
الحوزة ، إنسوة في طموحها وقوة شكائهما ، ومزماهم إلى العز جميع ؛ فهم يشتطيون
الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فساديه . وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد ،
قرع عصيهم ، وكبح من أعنتهم ، واستأثر بالأموال دونهم ، فتكاسلوا عن العز ، وفشل
ربحهم ، ورثموا المذلة والاستعباد . ثم ربي الجيل الثاني على ذلك ، يحسبون ما ينالهم
من العطاء أجراً من السلطان لهم على الحماية والمعونة ، لا يجري في عقولهم سواه .
وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت ؛ فيصير ذلك وهناً في الدولة وخضداً من
الشوكة ، وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصية بذهاب البأس من أهلها .

الوجه الثاني : أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه ؛ فتكثر عوائدهم
وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ، ولا يقي دخلهم بخزجهم ؛ فالفقير منهم يهلك ، / والمترف
يستغرق عطاءه بترفه ، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة ، إلى أن يقصر العطاء كله
عن الترف وعوائده ، وتمسهم الحاجة ، وتطالبهم⁽¹⁾ ملوكهم بحضر نفقاتهم في الغزو

(1) ع : يطالبهم .

والحروب، فلا يجدون وليجةً عنها، فيوقعون بهم العقوبات، وينزعون ما في أيدي الكثير منهم، يستأثرون به عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم، فيضعفونهم لذلك عن إقامة أخوالهم، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم. وأيضاً إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عنهم. والحباية مقدارها 5 معلوم لا يزيد ولا ينقص، وإن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً. فإذا وزعت الحباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات. ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك، فينقص عدد الحامية، وثالثاً ورابعاً إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد؛ فتضعف الحماية لذلك، 10 وتسقط قوة الدولة، ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من تحت أيديها من العصائب والقبائل، ويتأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خلقه.

وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من [ألوان] ⁽¹⁾ الشر والسفسفة وعوائدها، كما يأتي في فصل الحضارة، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يناقضها / من خلال الشر، 15 فتكون علامة على الإذبار والافتراض، بما جعل الله من ذلك في خلقه، وتأخذ الدولة مبادئ العطب، وتتضعف أخوالها، وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم، إلى أن يقضى عليها.

(1) سقطت من ظ وحدها .

الوجه الثالث : أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه؛ وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجيلة، شأن العوائد كلها وإيلافها، فترياً⁽¹⁾ أجيالهم الحادثة في غصارة العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش، وينسون عوائد البداوة، التي كان بها الملك، من شدة البأس، وتعود الافتراس، وركوب البتداء، وهداية الفقر. فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر 5 إلا في الثقافة والشارة، فتضعف حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضد شوكتهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم. ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة، والسكون والدعة، ورقة الحاشية، في جميع أحوالهم، ويتغمسون فيها، وهم في ذلك يتعدون عن البداوة والحشونة، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً، وينسون خلق البسالة التي كانت بها الجاية والمدافعة، حتى يعودوا عيالاً على حامية 10 أخرى إن كانت لهم.

واعتبر ذلك في الدول التي [أخبارها]^(ب) في الصحف لديك، تجد ما قلته لك من ذلك صحيحاً من غير ريبة.

وربما يحدث في الدولة إذا طرقتها هذا الهرم بالترف والراحة، أن يتخير صاحب الدولة أنصاراً وشيعاً من غير جلدتهم ممن تعود الحشونة، فيتخذهم جنداً 15 يكونون أضرباً على الحروب وأقدر على معاناة الشدائد، من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواءً للدولة من الهرم الذي عساه يطرقها، حتى يتأذن الله فيها بأمره.

(1) كذا ضبطت في ع ل ، من "زناً" ولا معنى له، ولعلها حسب السياق من "زناً" بمعنى نساء (ب) ط: أختارها .

[115] وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق ، / فإن غالب جُنْدِهَا الموالى من
الترك ، فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فُرسَانًا وجُنْدًا ، فيكونون
أجزاء على الحزب ، وأصبر على الشَّطَف من أبناء المماليك الذين كانوا قَبْلَهُمْ ، ورُبوا
في ماء النعيم والسُّلْطَانِ وظِلِّهِ .

5 وكذلك في دولة الموحدين بإفريقية ، فإن صاحبها كثيراً ما يتخذ أجناده
من زَنَاتة والعَرَب ، ويستكثر منهم ، ويترك أهل الدولة المتعودين للترف ، فتستجد
الدولة بذلك عمراً آخر سالماً من الهزم . والله وارث الأرض ومن عليها .

14* فصل ، في أن الدَّوَلَ لها أعمارٌ طَبِيعِيَّةٌ كَمَا لِلأَشْخَاصِ

اعْلَمْ أَنَّ العُمْرَ الطَّبِيعِيَّ لِلأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الأطْبَاءُ وَالْمُنْجَمُونَ مائَةً وَعِشْرُونَ سَنَةً ، وَهِيَ سِنُو القَمَرِ الكُبْرَى عِنْدَ الْمُنْجِمِينَ . وَيَخْتَلِفُ العُمْرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ القِرَانَاتِ ، فَيَزِيدُ عَنْ هَذَا وَيَنْقُصُ [منه] ⁽¹⁾ . فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ القِرَانَاتِ مِائَةً تَامَّةً ، وَبَعْضُهُمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ ؛ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أُدِلَّةُ 5 القِرَانَاتِ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِيهَا . وَأَعْمَارُ أَهْلِ هَذِهِ الْمِلَّةِ مَا يَتَنَسَّيْنَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ ⁽¹⁾ . وَلَا يَزِيدُ عَلَى العُمْرِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ ، إِلَّا فِي الصُّوَرِ النَّادِرَةِ ، وَعَلَى الْأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنَ الْفَلَكَ ، كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَلِيلٍ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ .

وَأَمَّا أَعْمَارُ الدُّوَلِ أَيْضًا ، وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ ^(ب) بِحَسَبِ القِرَانَاتِ ، إِلَّا أَنَّ 10 الدَّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لَا تَعْدُو أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ . وَالْجِيلُ هُوَ عُمْرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ العُمْرِ الْوَسْطِ ، فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ الَّذِي هُوَ [انْتِهَاءُ النَّمُوِّ وَالنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ ^(ج) سَنَةً ﴾ . [سُورَةُ الْأَحْقَافِ ، مِنْ آيَةِ 15] . وَلِهَذَا قُلْنَا إِنَّ عُمْرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمْرُ الْجِيلِ . وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي [حِكْمَةِ] ^(د) النَّبِيِّ

(1) سقط من ظ (ب) ع : وإن كان يختلف (ج) سقط من ظ (د) في ظ وحدها: حكم .

(1) أخرجه الترمذي (2331) (3550)، وابن ماجه (4226)، وأبو يعلى (5990)، وابن حبان (2980)، والحاكم 2: 427، والخطيب في تاريخه 7: 438، 13: 496، والبيهقي في السنن الكبرى 3: 370 من حديث أبي هريرة، واقتصر الترمذي على تحسينه.

الَّذِي وَقَعَ لَبْنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْأَزْبَعِينَ فِيهِ، فَنَاءُ الْجِيلِ الْأَحْيَاءِ وَنَشَأَةُ جِيلٍ
[آخِر] ⁽¹⁾ لَمْ يَغْهَدُوا الثَّلَاثَ وَلَا عَرَفُوهُ؛ فَدَلَّ عَلَى اِغْتِبَارِ الْأَزْبَعِينَ فِي عُمُرِ الْجِيلِ الَّتِي
هِيَ عُمُرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ .

وَأِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمُرَ الدَّوْلَةِ فِي الْغَالِبِ لَا يَغْدُو ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ؛ لِأَنَّ الْجِيلَ الْأَوَّلَ
5 لَمْ يَزَالُوا عَلَى خُلُقِ الْبَدَاوَةِ / وَخُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شَطَفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ [115 ب]
وَالِاقْتِرَاسِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ، فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ سُورَةُ الْعَصِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ،
فَحَذُّهُمْ مُزَهِّفٌ، وَجَانِبُهُمْ مَزْهُوبٌ، وَالتَّائِسُ لَهُمْ مُغْلَبُونَ .

وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالرَّفَةِ مِنَ الْبَدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ، وَمِنْ
الشَّطَفِ إِلَى التَّرَفِ وَالْخُصْبِ، وَمِنْ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ،
10 وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنِ السَّغْيِ فِيهِ، وَمِنْ عِزِّ الْإِسْطِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْإِسْتِكَانَةِ، فَتَكَسَّرَ
سُورَةُ الْعَصِيَّةِ بَغْضِ الشَّيْءِ، وَتَوُتَّسَ مِنْهُمْ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ؛ وَيَبْقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ
ذَلِكَ، بِمَا أَذْرَكُوا الْجِيلَ الْأَوَّلَ، وَبَاشَرُوا أَسْوَأَ أَسْوَأِهِمْ وَشَاهَدُوا مِنْ اِغْتِرَازِهِمْ وَسُغْيِهِمْ إِلَى
الْمَجْدِ، وَمَرَامِيهِمْ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ، فَلَا يَسْتَعْنِ بِتَرْكِ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ
مَا ذَهَبَ، وَيَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ مُرَاجَعَةِ الْأَسْوَأِ الَّتِي كَانَتْ لِلْجِيلِ الْأَوَّلِ، أَوْ
15 عَلَى ظَنٍّ مِنْ وُجُودِهَا فِيهِمْ .

وَأَمَّا الْجِيلُ الثَّلَاثُ فَيُنْسَوْنَ عَهْدَ الْبَدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ كَأَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ ، وَيَفْقِدُونَ
حَلَاوَةَ الْعِزِّ وَالْعَصِيَّةَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَةِ الْقَهْرِ، وَيَبْلُغُ التَّرَفُ فِيهِمْ غَايَتَهُ بِمَا تَبَنَّكَوهُ
مِنْ النَّعِيمِ وَغَضَارَةِ الْعَيْشِ، فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ، وَمِنْ جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ،

(1) سقط من ظ .

المُحتاجين للمُدافعة عنهم، وتُسْقَطُ العَصِيَّةُ بالجملة، وَيُنْسَوْنَ الحمايةَ والمُدافعةَ والمُطالَبةَ، وَيُلْبَسُونَ على النَّاسِ في الشَّارَةِ والزِّيِّ وَرُكُوبِ الخَيْلِ وَحُسْنِ الثَّقَافَةِ، يَمُوهُونَ بِهَا، وَهُمْ في الأَكْثَرِ أَجَبْنَ مِنَ النَّسْوَانِ على ظُهورِها . فإذا جاء المُطالِبُ لَهُم لم يُقاوِموا مُدافَعَتَهُ . فيحتاجُ صاحِبُ الدَّوْلَةِ حينئِذٍ إلى الاستِظْهَارِ بِسِوَاهُم من أَهْلِ التَّجْدَةِ ، وَيَسْتَكْثِرُ بِالمِوَالِي ، وَيَضْطَنِعُ من يُغْنِي عن الدَّوْلَةِ بعضَ الغَناءِ، حَتَّى يَتَأَذَّنَ 5 اللهُ بانْقِرَاضِها ، فَتَذْهَبَ الدَّوْلَةُ بما حَمَلَتْ .

فهذه ، كما تَرَاهُ ، ثَلَاثَةُ أَجْيَالٍ فيها يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَحُلُّهَا .

وكذلك⁽¹⁾ كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مرّ ، في أن المجد
[115] / والحسب إنما هو في أربعة آباء. وقد أثبتناك فيه ببرهانٍ طبعيٍّ ظاهرٍ، مبنّيٍّ على
مكرر ما مهّدناه قبْلُ من المُقَدِّمات. فتأمّله، فلنْ تَعْدُو وَجْهَ الحقِّ إنْ كُنْتَ من أَهْلِ الإنصاف. 10

وهذه الأجيالُ الثَّلَاثَةُ أعمارُها مائةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً على ما مرّ . ولا تَعْدُو الدَّوْلُ في الغالبِ هذا العُمُرَ ، بِتَقْرِيْبٍ قَبْلَهُ أو بَعْدَهُ ، إِلَّا إنْ عَرَضَ لها عَارِضٌ آخر من فِقْدانِ المُطالِبِ ، فيكونُ الهَرَمُ حاصِلًا مُسْتَوِلِيًا والمُطالِبُ لم يَحْضُرْها ، ولو قد جاء المُطالِبُ لما وَجَدَ مُدافِعاً . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سورة النحل ، من الآية 61] . 15

وهذا العُمُرُ للدَّوْلَةِ بِمِثَابَةِ عُمُرِ الشَّخْصِ ، من التَّزْيِدِ إلى سِنِّ الوُقُوفِ ، ثُمَّ إلى سِنِّ الرَّجُوعِ . ولهذا يَجْرِي على أَلْسِنَةِ النَّاسِ في المَشْهُورِ أَنَّ عُمُرَ الدَّوْلَةِ مائةٌ سَنَةً ،

(1) ع ج ل ي: ولذلك .

وهذا معناه. فاعْتَبِرْهُ واتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدَدَ الْآبَاءِ فِي عَمُودِ النَّسَبِ الَّذِي تُرِيدُهُ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ السَّنِينَ الْمَاضِيَةِ، إِذَا كُنْتَ قَدْ اسْتَرَبْتَ فِي عَدَّتِهِمْ، وَكَانَتْ السَّنُونَ الْمَاضِيَةُ مُنْذُ أَوَّلِهِمْ مُخَصَّلَةً لَدَيْكَ ، فَعُدَّ لِكُلِّ مِائَةٍ مِنَ السَّنِينَ ثَلَاثَةً مِنَ الْآبَاءِ؛ فَإِنْ نَقَدْتَ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدْدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِنْ نَقَصْتَ عَنْهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غَلَطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عَمُودِ النَّسَبِ، وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ . وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَدَ السَّنِينَ مِنْ عَدْدِهِمْ إِذَا كَانَ مُخَصَّلًا لَدَيْكَ صَحِيحًا. وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

15 * فَضْلٌ ، فِي اسْتِقَالِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبَدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلِ. فَإِنَّ الْغَلَبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمُلْكُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصِيَّةِ وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ الْاِفْتِرَاسِ؛ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا 10
مَعَ الْبَدَاوَةِ؛ فَطَوُرُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بَدَاوَةٌ، ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ يَتَّبِعُهُ الرِّفَةُ وَاتِّسَاعُ الْأَحْوَالِ، وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَقْنُنٌ فِي التَّرْفِ وَإِحْكَامِ / الصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ 115 [ب] مكرر
وَمَذَاهِبِهِ؛ مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمُبَانِي وَالْفُرَشِ وَالْآنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ؛ فَلَكَ وَاحِدٌ مِنْهَا صِنَائِعٌ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالتَّائِقُ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بِغَضُهَا 15
بَعْضًا؛ وَتَتَكَثَّرُ بِهِ ⁽¹⁾ بِاخْتِلَافِ مَا تُنْزَعُ إِلَيْهِ النَّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِّ وَالتَّنْعَمِ بِأَحْوَالِ التَّرْفِ؛ وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ، فَصَارَ طَوُرُ الْحَضَارَةِ لِلْمُلْكِ يَتَّبِعُ طَوُرَ الْبَدَاوَةِ ضَرُورَةً؛ لِمُضْرَرَّةِ تَبَعِيَّةِ الرِّفَةِ لِلْمُلْكِ.

(1) سقط من ع ج ل ي .

وأهل الدُول أبداً يقلّدون في طُور الحضارة وأحوالها للدُول السالفة قبلهم ،
فأحوالهم يُشاهدون؛ ومنهم في الغالب يأخذون. ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح
ومَلَكوا فارسَ والرومَ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء
من الحضارة. فقد حُكي أنه قُدِّم لهم المُرَّقُ فكانوا يحسبونه رقاعاً. وعثروا على الكافور
في خِزائن كِسرى فاستعملوه في عَجينهم مِلْحاً، وأمثال ذلك. فلما استعبدوا أهل
الدُول قبلهم واستعملوهم في مِهَنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم ^(١) المَهْزَةَ في أمثال
ذلك والقُوَّة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنُّ فيه ، مع ما
حصل لهم من اتساع الغنى والتفنُّ في أحواله ؛ فبلغوا الغاية في ذلك؛ وتطوّروا
بطور الحضارة والتّرف في الأحوال، واشتجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني
والأسلحة والفُرش والآنية والغناء وسائر الماعون والخُرُثي؛ وكذلك أحوالهم في أيّام
المباهاة والولائم وليالي الإغراس؛ فأَتَوْا من ذلك وراء الغاية .

وانظر ما نقله المسعودي ^(١) والطبري ^(٢) وغيرهما في إغراس المأمون ببوران
[١١٦] بنت الحسن بن سهل ، وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين / وافاه في خطبتها إلى
داره بقم الصُّلح ، وركب إليها في السفين ؛ وما أنفق في إملاكها ، وما نَحَلها المأمون
وأنفق في عَرضها ، تَقِف من ذلك على العَجَب . فمنه أنَّ الحسن بن سهل نثر يوم
الإملاك في الصَّنيع الذي حَضَره حاشية المأمون ، فنثر على الطبقة الأولى منهم

(١) سقط من ع .

(١) مروج الذهب 4: 366 (2752) واسم بوران خديجة .

(٢) تاريخ الرسل والملوك 8: 606 .

بِنَادِقِ الْمِسْكِ مَلْتَوْتَةً عَلَى الرَّقَاعِ بِالصُّيَاعِ وَالْعَقَارِ مُسَوَّغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ؛ يَتَعَمَّقُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا آدَاهُ إِلَيْهِ الْإِتْقَانُ وَالتَّحْقُّقُ. وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ بِدَرِّ الدَّنَانِيرِ، فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةُ آلَافٍ. وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بِدَرِّ الدَّرَاهِمِ كَذَلِكَ؛ بَعْدَ أَنْ أَتَفَقَّ فِي مُقَامَةِ الْمَأْمُونِ بِدَارِهِ أَضْعَافَ ذَلِكَ .

5 وَمِنْهُ أَنَّ الْمَأْمُونَ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةً زَفَافِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ ، وَأَوْقَدَ شَمْعَ الْعَنْبَرِ ، فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مَائَةً مَرَّةً وَهُوَ رَطْلٌ وَثُلْثَانٌ ؛ وَبَسَطَ لَهَا فُرْشاً كَانَ الْحَصِيرُ مِنْهَا مَنْسُوجاً بِالذَّهَبِ مُكَلَّلًا بِالدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ . وَقَالَ الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ : قَاتِلَ اللَّهِ أَبَا نُوَّاسٍ ؛ كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْحَمْرِ⁽¹⁾ : [مِنْ الْبَسِيطِ]

10 كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَضْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وَأَعَدَّ بَدَارَ الطَّبَخِ مِنَ الْحَطْبِ لِلَّيْلَةِ الْوَلِيمَةِ ، نَقَلَ مَائَةً وَأَرْبَعِينَ بَغْلًا مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ . وَفَنِي الْحَطْبُ لَيْلَتَيْنِ ؛ وَأَوْقَدُوا الْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ الزَّيْتَ . وَأَوْعَزَ إِلَى التَّوَابِيَةِ بِإِخْضَارِ الشُّقْنِ لِإِجَازَةِ الْخَوَاصِّ مِنَ النَّاسِ بِدِجْلَةٍ، مِنْ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ لِحُضُورِ الْوَلِيمَةِ ؛ فَكَانَتِ الْحَرَاقَاتُ 15 الْمُعَدَّةُ لَذَلِكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا ؛ أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أَخْرِيَاتٍ نَهَارَهُمْ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا وَمِثَالِهِ .

(1) الدِّيوان 72 ومطلع القصيدة:

سَاعَ بَكَاسٍ إِلَى نَاشٍ عَلَى طَرَبٍ كَلَاهَا عَجَبٌ فِي مَنْظَرٍ عَجَبٍ

وكذلك عُرِسَ المأمون بن ذي النون بطلَيْطَلَة ؛ نقله ابنُ بسّامٍ في كتاب
الذخيرة⁽¹⁾ وابنُ حَيَّان. بعد / أن كانوا كلُّهم في الطَّوَرِ الأوَّل من البَدَاوَة عاجزين عن
[116 ب] ذلك جُمْلَة؛ لِفَقْدانِ أسبابه والقائمين على صنائعه في غَضاضَتهم وسداجَتهم.

يُذكر أن الحجاجَ أُولِمَ في إختِتانِ بَعْضِ وُلده ، فاستخضر بعضَ الدَّهَاقين
يَسْأَلُه عن ولائِمِ الفُرسِ ، وقال: أَخْبِرْنِي بِأَعْظَمِ صَنِيعٍ شَهِدْتَه ، فقال له: نَعَمْ أَيُّهَا
5 الأمير ، شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَاوِيةٍ كَسَرى ، وقد صَنَعَ لِأَهْلِ فَارِسَ صَنِيعاً أَخْضَرَ فِيهِ
[صَحَافٌ]^(أ) الذَّهَبَ على أَخُونَةِ الفِضَّةِ ، أَرْبَعاً على كُلِّ واحدٍ ، وتَحْمِلُه أَرْبَعُ وَصَائِفٍ ،
ويَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ ، فَإِذَا [طَعِمُوا]^(ب) أَتَبِعُوا أَرْبَعَتَهُم المائِدَة بِصَحَافِهَا
وَوَصَائِفِهَا. فقال الحجاجُ: يا غُلامَ ، انْحِرِ الجَزُورَ وَأَطْعِمِ النَّاسَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ
10 بِهِذِهِ الأُجْهَة ؛ وكذلك كانت .

ومن هذا الباب أَعْطِيَتْ بَنِي أُمَيَّةَ وجَوَائِزُهُمْ ؛ فَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهَا الْإِبِلُ ، أَخْذاً
بِمَذَاهِبِ الْعَرَبِ وَبِدَاوَتِهِمْ . ثُمَّ كَانَتْ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعُبَيْدِيِّينَ وَمِنْ
بَعْدَهُمْ مَا عَلِمْتُ ، مِنْ أَخْمالِ الْمَالِ ، وَتُخُوتِ الثِّيَابِ ، وَأَعْدَادِ الْخَيْلِ بِمَرَاجِبِهَا .

وهكذا كان شَأْنُ كُتَامَةِ مَعَ الْأَغَالِيَةِ بِإِفْرِيقِيَّةَ ، وَبَنِي طُغْجِ بِمَضَرَ ،
وَشَأْنُ لَمْتُونَةِ مَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَالْمُوَحِّدِينَ كَذَلِكَ ، وَشَأْنُ زَنَاتَةَ مَعَ
15 الْمُوَحِّدِينَ ، وَهَلُمَّ جَرّاً . تَنْتَقِلُ الْحَضَارَةُ مِنَ الدَّوَلِ السَّالِفَةِ إِلَى الدَّوَلِ الْخَالِفَةِ ؛ فَانْتَقَلَتْ

(أ) ط: صحائف (ب) من ع ج ل ي ، وفي ط : أطعموا .

(1) ما أورده ابن بسّام لا يتعلق بعرس المأمون بن ذي النون، وإنما بمذاعة إغذار حفيده يحيى. وقد نقل
صاحب الذخيرة الخبر مفصلاً عن أبي مروان ابن حيان. الذخيرة 4: 93 .

حضارة الفرس للعرب : بني أمية وبني العباس ؛ وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد ؛ وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ، ثم إلى الترك السلجوقية ، ثم إلى الترك المماليك بمصر ، والشار بالعراقين .

5 وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة ؛ إذ أمور الحضارة من توابع الترف ، والترف من توابع الثروة والتغمة ، والثروة والتغمة من / توابع الملك [117] ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة ، فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله . فاعتبره وتفهمه وتأمله ، تجده صحيحاً في الغفران [والدول]⁽¹⁾ . والله وارث الأرض ومن عليها .

10 16 • فصل ، في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك ، أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف ، كثر التناسل والولد والعمومية ، فكثرت العصابة ؛ واشتكروا أيضاً من الموالى والصنائع ، وزيث أجيالهم في جود ذلك النعيم [والرفه]^(ب) ، فازدادوا بهم عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم ، بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد . فإذا ذهب الجيل الأول والثاني ، وأخذت الدولة في الهزم ، لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها ، لأنهم ليس لهم من الأمر شيء ، إنما كانوا عيالاً على

(1) من ع بخله (ب) سقط من ط .

أهلها ومَعُونَةُ لها ؛ فإذا ذهب الأصل لم تستَقِلَّ الفروع بالترسوخ فتذهب وتُتَلاشى ،
ولا تَبْقَى الدَّولة على حالها من القُوَّة .

واعتبر هذا بما وقع في الدَّولة العربيَّة في الإسلام ؛ كان عددُ العرب كما
قُلناه لعهد النُّبوَّة والخِلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يُقاربها من مُضَر وقحطان ؛ ولما
بلغ التَّرف مبالغه في الدَّولة وتوفَّر نموُّهم بتوفَّر النعمة ، واستكثر الخلفاء من الموالى 5
والصَّنائع ، بلغ ذلك العدَدُ إلى أضعافه . يُقال إنَّ المُغتصم نازل عمُوريَّة لما افتتَحها في
تِسعمائة ألف . ولا يَبعد مِثْلُ هذا العدَد أن يكون صحيحاً ، إذا اعتبرت حاميتهم في
الثُّغور الدَّانية والقاصية شرقاً وغرباً ، إلى الجُند الحاملين سرير المُلك ، والموالى
والمُضطَّنين .

وقال المسعودي⁽¹⁾ : أُخِصِّي بنو العباس بن عبد المُطلب خاصَّةً أيَّام 10
[117 ب] المأمون للإِثاق عليهم ، فكانوا ثلاثين ألفاً [بين]⁽¹⁾ ذَكَرَان وإِناث . فانظر / مبالغ هذا
العدد لأقلَّ من مائتي سَنَة ؛ واعلم أن سببَه الرِّفَّة والنَّعيم الذي حصل للدَّولة ورِي
فيه أَجْيالُهم ؛ وإلَّا فعَدَدُ العرب لأوَّل الفتح لم يَبْلُغ هذا ولا قريباً منه . والله
﴿ الخلاق العليم ﴾ [سورة الحجر ، من الآية 86] .

(1) سقط من ط .

(1) لم يرد في المروج ، ولعله في كتابه المفقود ، أخبار الزمان .

17 • فصل، في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وبداوة أهلها باختلاف الأطوار^(١)

اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة.

الأول: طور الظفر بالبغية^(ب) وغلب المدافع والممانع^(ب)، والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها. فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية، لا يتفرد دونهم بشيء؛ لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب، وهي لم تزل بعد بحالها . 10

الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والافتراء دونهم بالملك، وكبحهم عن التناول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باضطناع الرجال واتخاذ الموالى والصنائع، والاستيثار من ذلك، لجذع أنوف أهل عصبية وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضارين في الملك بمثل سهمه. فهو يدافعهم عن الأمر ، ويصدّهم عن موارده ، ويردّهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه ، حتى يقرّ 15

(١) كذا ورد عنوان الفصل في كل الأصول ، ومنها الأصل ع ، الذي شطب المؤلف فيه جزءاً من العنوان ، وحوله بخطه كما يلي:
فصل في أطوار الدولة وكيف تختلف أحوال أهلها في البداوة باختلاف الأطوار (ب) شطبنا في أصل ع بعد الإنبات.

الأمْر في نِصابه ، ويُفَرِّدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بما يَنْبَغِي من مَجْدِهِ ؛ فَيُعَانِي من مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ
 مثلَ ما عَانَاهُ الأوَّلونَ في طَلَبِ الأَمْرِ أو أَشَدَّ؛ لَأَنَّ الأوَّلِينَ دَافَعُوا الأَجَانِبَ، فَكَانَ
 ظَهْرُهُمْ - على / * مُدَافَعَتِهِمْ - أَهْلَ العَصِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ؛ وَهَذَا يُدَافِعُ الأَقَارِبَ وَلَا
 يَظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ*^(١) إِلَّا الأَقْلَ من الأَبَاعِدِ، فَيَرْكَبُ صَغْباً من الأَمْرِ^(ب) .

(i 118)

5 الطُّورُ الثَّالِثُ: طَوْرُ الفَرَاغِ والدَّعَةِ، لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ المُلْكِ تَمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ
 البَشَرِ إِلَيْهِ، مِنْ تَحْصِيلِ المَالِ، وَتَحْلِيدِ الآثَارِ، وَبُعْدِ الصَّيْتِ، فَيَسْتَفْرِغُ وَسْعَهُ فِي
 الحِبَايَةِ وَضَبْطِ الدَّخْلِ والخَرْجِ، وإِخْصَاءِ التَّفَقَّاتِ والقَّصْدِ فِيهَا، وَتَشْيِيدِ المَبَانِي
 الحَافِلَةِ، والمَصَانِعِ العَظِيمَةِ، والأَمْصَارِ المُتَّسِعَةِ، والهِياكِلِ المُزْتَفِعَةِ، وإِجَازَةِ الوُفُودِ مِنْ
 أَشْرَافِ الأَمَمِ وَوُجُوهِ القَبَائِلِ، وَبَثِّ المَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ. هَذَا مَعَ التَّوَسُّعِ عَلَى ضَنَائِعِهِ
 وَحَاشِيَتِهِ فِي أَخْوَالِهِم بِالْمَالِ والجَاهِ، وَاعْتِرَاضِ جُنُودِهِ وَإِذْرائِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي
 10 أَعْطِيَايَتِهِمْ لِكُلِّ هِلَالٍ، حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَشِكَايَتِهِمْ أَيَّامَ
 الزَّيْنَةِ، فَيُبَاهِي بِهِمُ الدُّوْلَ المُسَالِمَةَ، وَيُرْهِبُ الدُّوْلَ المُحَارِبَةَ . وَهَذَا الطُّورُ آخِرُ
 أَطْوَارِ الاسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ، لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِيلُونَ بِأَرَائِهِمْ،
 بَانُونَ لِعِزِّهِمْ، مُوَضَّحُونَ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَتَّعِهِمْ .

15 الطُّورُ الرَّابِعُ: طَوْرُ^(ج) القُنُوعِ والمُسَالَمَةِ. وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا
 قَانِعاً بما بَنَى أَوَّلُوهُ، سِلْماً لِأَنْظَارِهِ مِنَ المُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ، مُقْلِداً لِلْمَاضِيينَ مِنْ سَلَفِهِ، فَيَتَّبِعُ
 آثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، وَيَشْتَفِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاجِحِ الاقْتِدَاءِ، وَيَرَى أَنَّ فِي
 الخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فِسَادَ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ.

(١) سقط ما بين النجمين من ي (ب) ي : الأمور (ج) سقط من ع .

- الطور الخامس : طور الإشراف والتبذير ، ويكون صاحب الدولة في هذا
الطور ، مثلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطاتها وفي
مجالسها ، واضطناع أخذان السوء وخضراء الدمن ، وتقليد عظيمات الأمور
/ التي لا يستقلون بحملها ، ولا يعرفون ما يأتون ويدرون منها ، مستفسداً لكبار [118 ب]
5 الأولياء من قومه وصنائع سلفه ، حتى يضطغنوا عليه ، ويتخاذلوا عن نصرته ، مضيعاً
من جنده بما أنفق أعطياتهم في شهواته ، وحجب عنهم وجه مباشرته وثقفته . فيكون
مُخرباً لما كان سلفه يؤسسون ، وهادماً لما كانوا يبنون . وفي هذا الطور تحضل في
الدولة طبيعة الهرم ، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ، ولا
يكون لها معه بزة ، إلى أن تنقرض ، كما بُئنه في الأحوال التي سردها . والله خير
10 الوارثين ﴿ [سورة الأنبياء ، من الآية 89] .

18 • فصل ، في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

- والسبب في ذلك ، أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً ،
وعلى قدرها يكون الأثر . فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة ؛ فإنها تكون على
نسبة قوة الدولة في أصلها ؛ لأنها لا تقيم إلا بكثرة الفعلة ، واجتماع الأيدي على العمل
15 والتعاون فيه . فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب ، كثيرة الممالك والرعايا ، كان
الفعلة كثيرين جداً وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها ، فتم العمل على أعظم
هياكله .

ألا ترى إلى⁽¹⁾ مصانع قوم عاد و ثمود وما قصَّه القرآن عنها. وانظر بالمُشاهدة إيوان كِسرى وما اقتدر فيه الفُرس، حتَّى إنَّه اعتزم الرِّشيد⁽²⁾ على هدمه وتخريره فتكادَّ عنه، وشرع فيه ثم أذركه العجز؛ وقصَّة استِشارته يحيى بن خالد في شأنه مَعروفة. فانظر كيف تُتدَرُّ دولة على بناء ما لا تَسْتَطِيع أُخرى على هدمه، مع بَون ما بين الهدم والبناء في السُّهولة، تعرَّف من ذلك بَون ما بين الدُولَتَيْن. وانظر إلى 5 بلاط الوليد بدمشق، وجامع بتي أميَّة بقرطبة، والقنطرة / التي على واديها، وكذا بناء الحنايا لجلب الماء إلى قرطاجنة في القناة الرَّابِكة عليها، وآثار شَرشال بالمغرب، والأهرام بمصر، وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان، تعلَّم منه اختلاف الدُول في القُوَّة والضعف.

[119]

- واعلم أنَّ تلك الأفعال للأقدمين إنَّما كانت بالهندام، واجتماع الفعلة وكثرة 10 الأيدي عليها؛ فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع. ولا تتوهَّم ما تتوهَّمه العامة أنَّ ذلك ليعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها؛ فلنيس بين البشر في ذلك كبير بون، كما تجد بين الهياكل والآثار. ولقد ولع الفصَّاص بذلك وتغالوا فيه، وسطَّروا عن عاد و ثمود والعمالقة في ذلك أخبارا عريقة في الكذب، من أغربها ما 15 يحكون عن عوج بن عناق، رجل من [الكنعانيين]^(ب) الذين قاتلهم بنو إسرائيل بالشَّام؛ زعموا أنَّه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه إلى الشَّمس. ويزيدون إلى جملهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب، لما اعتقدوا أنَّ للشَّمس

(1) ج: في (ب) في ظل ي: العمالقة، وفي ج ع مستدركة بخطه في الحاشية.

(1) مروج الذهب 1: 301 (610).

حرارة وأنها شديدة فيما قَرَب منها، ولا يَعْلَمون أَنَّ الحرَّ هو الضَّوء؛ وأنَّ الضَّوء فيما قَرَب من الأرض أكثر، لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمُقَابِلَةِ الأضواء، فَتَتَضَاعَفُ الحرارةُ هنا لأجل ذلك، وإذا تَجَاوَزَتْ ^(أ) مطَارَحَ الأشعةِ الْمُتَعَكِّسَةِ فلا حَرَّ هناك ، بل يكون فيه البَرْدُ حيثُ مَجَارِي الشَّحْبِ؛ وإِنَّمَا الشَّمْسُ في نَفْسِهَا لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ ، وإِنَّمَا هو جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيٌّ لَا مِزَاجَ لَهُ . وكذلك عُوجُ بَنِ عِنَاقِ 5 هو فيما ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ ^(ب) أَوْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا فَرِيسَةً بَنِي إِسْرَائِيلَ ^(ج) عِنْدَ فَتْحِهِمُ الشَّامَ ، وَأَطْوَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجُثَمَانِهِمْ لِذَلِكَ الْعَهْدِ قَرِيبٌ مِنْ هَيَاكِلِنَا؛ يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ ؛ / فَإِنَّهَا وَإِنْ خَرِبَتْ وَجُدَّتْ لَمْ تَزَلْ الْمُحَافِظَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أُنُوبِهَا . وَكَيْفَ يَكُونُ التَّفَاوُثُ بَيْنَ عَوْجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ ؟ وَإِنَّمَا مِثَارُ غَلَطِهِمْ فِي هَذَا أَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا آثَارَ الْأُمَمِ ، وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الدُّوَلِ 10 فِي الْاجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ ، وَمَا يَخْضُلُ بِذَلِكَ وَبِالْهِنْدَامِ مِنَ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ ، فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الْأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا بِعَظَمِ هَيَاكِلِهَا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُودِيُّ ⁽¹⁾ وَنَقَلَهُ عَنِ الْفَلَّاسِفَةِ مَزْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ إِلَّا التَّحَكُّمُ ، [وَهُوَ] ^(د) أَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي هِيَ جِبِلَّةٌ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ، كَانَتْ فِي تَمَامِ الْكَرَّةِ 15 وَنَهَايَةِ الْقُوَّةِ وَالْكَمَالِ ، فَكَانَتْ الْأَعْمَارُ أَطْوَلَ ، وَالْأَجْسَامُ أَقْوَى ، لِكَمَالِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ؛ فَإِنَّ طُرُوءَ الْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بَانْجِلَالُ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ ، فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةُ كَانَتْ الْأَعْمَارُ

(أ) ي: تجاوزت (ب) كذا في ط ي ج ل ، وفي ع شطب لفظه العالقة وأبدلت في الحاشية بخطه بكلمة "الكنعانيين" وعليها صح (ج) رسمت في ل: لبني إسرائيل (د) ط: وهي .

(1) مروج الذهب 153/2 (924-) ويبدو أنه بسط أقواله في كتبه الأخرى مثل كتاب الرؤوس السبعية، الذي تحدّث فيه عن علة عظم الأجسام وطول الأعمار (المروج 155/2 / 928) .

أُزِيدَ . فكان العالم في أوليته شأنه تامّ الأغمار كامل الأجسام ، ثم لم يزل يتناقص
لنقصان المادة إلى أن بلغ هذه الحال التي هو عليها ؛ ثم لا يزال يتناقص إلى وقت
الانحلال وانقراض العالم . وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما تراه؛ وليس له
علة طبيعية ولا سبب بزهاوي . ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما
أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن ، كديار ثمود المنحوتة في الصلد من
الصخر، بيوتاً صغاراً وأبواباً^(١) ضيقة. وقد أشار ﷺ إلى أنها ديارهم، ونهى عن
استعمال مياههم، وطرح ما عجن به وأهريق، وقال^(١): "لا تدخلوا مساكن الذين
ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم". وكذلك أرض عاد ومصر
والشام وسائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً؛ والحق ما قررناه.

ومن آثار الدول أيضاً حالها في الإغراس^(ب) والولائم ، كما ذكرناه في وليمة
بوران، وصنيع الحجاج، وابن ذي الثون، وقد مر ذلك كله .

ومن آثارها أيضاً / عطايا الدول ، وأنها تكون على نسبتها ؛ ويظهر ذلك
فيها ولو أشرفت على الهرم؛ فإن الهمم التي لأهل الدولة تكون على نسبة قوة ملكهم
وعلمهم للناس، والهمم لا تزال مصاحبة لهم إلى انقراض الدولة. واعتبر ذلك بجوائز
ابن ذي يزن لو قد قرئش، كيف أعطاهم من أرتال الذهب والفضة والأعبد والوصائف
عشرًا عشرًا، ومن كرش العنبر واحدة، وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب.

[120 أ]

(١) ل: وأبوابها (ب) ع: العرسة .

(١) في الصحيحين من حديث الزهري، عن سالم، عن أبيه ابن عمر: البخاري في أحاديث الأنبياء 4: 181
(3380) و (3881)، ومسلم (2980) (39) من حديث ابن عمر .

وإنما مُلكه يومئذٍ قرارة اليمن، خاصّة تحت استياد فارس؛ وإنّا حمّله على ذلك،
همّة نفسه بما كان لقومه التّبايعه من المُلْك في الأرض، والغلب على الأمم في
العراقين والهند والمغرب.

5 وكان الصّنهاجيتون بإفريقيّة أيضًا إذا أجازوا الوَفْدَ من أمراء زناة الوافدين
عليهم، فإنّما يُعطونهم المالَ أحمالاً، والكساء تُخوتًا مفلوءة، والحُمْلانَ جنائبَ عديدة،
وفي تاريخ ابن الرّقيق من ذلك أخبارٌ كثيرة. وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم
ونفقاتهم، وكانوا إذا كَسَبوا مُغَدِمًا فإنّما هو المُلْك والولاية والنّعمة آخِرُ الدّهر، لا
العطاء الذي يَسْتَنفده يومٌ أو بَعْضُ يومٍ، وأخبارهم في ذلك كثيرة مَسْطُورة، وهي
كلّها على نسبة الدّول جارية.

10 هذا جوهر الصّقلبي⁽¹⁾ الكاتب قائدُ جيش العُبَيْدِيِّين، لما اَزْتَحَلَ إلى فَتْحِ
مِصْرَ، اسْتَعَدَّ من القَيروان بَأْلَفِ جَمَلٍ من المال. ولا تُنتهي اليومَ دولةٌ إلى مثل هذا.

• (ب) وكذلك وَجَدَ بَخْطَ أَحْمَدُ بنَ مُحَمَّدَ بنِ عَبْدِ الحَمِيدِ عَمَلٌ بما يَحْمَلُ إلى
بَيْتِ المالِ بِبَغْدَادِ أَيَّامِ المَأْمُونِ، من جَمِيعِ النّوَاحِي، نَقَلْتُهُ من كِتَابِ جِرَابِ الدّولة⁽¹⁾:

(1) كذا منسوبة للصقالبة في ط ع ي ل، وفي ج: الصقلي (ب) هذا العمل أو الوثيقة التالية المحصورة بين النجمين كانت موجودة في المسودة "ع" وقد أشار في السطر الرابع من الصفحة (205) بعلامة مُخرج لها في بطاقة كانت منفردة، ولكنها لا توجد الآن، وقد نقلتها عنها نسخ ط ل ج قبل اختفائها، وسقطت من ي. والوثيقة أوردها الجهشباري في كتاب الوزراء والكتاب، مع بعض الفروق والتحريف، (ص 281-288).

(1) جراب الدولة، اسم كتاب ألفه أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار الكُتّامي. قاضي طرابلس السّام وحاكمها، كان فقيهاً شيعياً عاقلاً سديد الرأي، توفي سنة 464هـ. ومنه نقل ابنُ خَلْدُون هذا النص. ونقل منه أيضاً ابنُ أبي أَصْبِيعة بعض أخبار ابن ماسويه (طبقات الأطباء 253). انظر ابن الفرات 8: 77، ابن الأثير (حوادث سنة 464)، 10: 71، النجوم الزاهرة 5: 89، وانظر عن بعض الإيضاحات المهمة مصطفى جواد، مجلة العرفان ج2 م33 ص 149؛ والسيد محسن الأمين: أعيان الشيعة 5: 217-219.

غَلَّاتُ السَّوَادِ : سَبْعَةُ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ،
وِثْمَانُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ .

[120 ب] أَبْوَابُ الْمَالِ بِالسَّوَادِ : أَرْبَعَةُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، / وَثْمَانُ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ .
وَمِنَ الْحَلَلِ النَّجْرَانِيَّةِ مِائَتَا حُلَّةٍ ، وَمِنَ طِينِ الْحَتَمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رِطْلًا .

5 كَشْكْرَ : أَحَدُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَسِتُّ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ

كُورِ دِجَلَةَ : عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَثْمَانُ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ .

حُلُوان : أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَثْمَانُ مِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ .

الْأَهْوَاؤُ : خَمْسَةُ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، مَرَّةً ، وَمِنَ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

فَارِسَ : سَبْعَةُ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، وَمِنَ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ ،

10 وَمِنَ الزَّيْبِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

كَزْمَانَ : أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَمِائَتَا أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، وَمِنَ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ

خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنَ الثَّمَرِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ . وَمِنَ الْكَمُونِ أَلْفَ رِطْلٍ .

مُكَرَّانَ : أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّةً .

السُّنْدُ وَمَا يَلِيهِ : أَحَدُ⁽¹⁾ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، وَمِنَ

15 الْعُودِ الْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلًا .

سِجِسْتَانَ : أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ الشَّيَابِ الْمُعْتَبَةِ ثَلَاثُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنَ

الْفَانِيدِ^(ب) عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(1) ل: عشرون (ب) كذا بالنال في آخرها ، وفي اللسان بالنال ، وهو ضرب من الحلوى ، معرّية عن الفارسية .

خُرَاسَان : ثمانية وعِشرون ألف ألف مَرَّتَيْنِ ، ومن نُقِرَ الفِضَّةُ ألفاً نُقْرَةً ، ومن
الْبَرَّادِينَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، ومن الرِّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ ، ومن المَتَاعِ سَبْعَةٌ وَعِشرون ألف
ثَوْبٍ ، ومن الإِهْلِيلِجِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ رِطْلٍ .

جُرْجَان : اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفَ مَرَّتَيْنِ ، ومن الإِبْرِيسَمِ أَلْفُ شِقَّةٍ .

5 [قُومِس] ^(أ) : أَلْفُ أَلْفٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفٍ ، ومن نُقِرَ الفِضَّةُ أَلْفٌ .

طَبْرِسْتَانِ وَالرُّوْيَانِ وَمِهَآوَنْد : سِتَّةُ آلَافِ أَلْفٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ ، ومن
الْفَرْشِ الطَّبْرِجِيِّ سِتُّمِائَةِ قِطْعَةٍ ، ومن الأَكْسِيَّةِ مِائَتَانِ ، ومن الثِّيابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ ،
ومن المَنَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةٍ ، ومن الجَامَّاتِ ثَلَاثُمِائَةٍ .

الرَّيِّ : اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، ومن العَسَلِ عِشرون أَلْفَ رِطْلٍ .

10 هَمْدَان : أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ^(ب) ، مَرَّتَيْنِ ، وَثَمَانُمِائَةِ أَلْفٍ ، ومن رُبِّ الرِّمَانِينَ ^(ج)

أَلْفُ رِطْلٍ . ومن العَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ .

مَا بَيْنَ البَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ : عَشْرَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

مَا سَبْتَانِ وَالرَّيَّانِ : أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ .

/ شَهْرَزُور : سِتَّةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ . [121 أ]

15 الْمَوْصِلُ وَمَا إِلَيْهَا : أَرْبَعَةٌ وَعِشرون أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، ومن العَسَلِ الْأَبْيَضِ

عِشرون أَلْفَ رِطْلٍ .

(أ) من ج ل ، وفي ظ : قمرس (ب) سقط من ج (ج) كذا في ظ ج ل ، ولعله جمع عاتني للرمان .

أُذْرِيحَان : أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ .

الْجَزِيرَةُ وَمَا يَلِيهَا مِنْ أَعْمَالِ الْفُرَاتِ : أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ .

الْكَرْخ : ثَلَاثُمِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

كِلَان : خَمْسَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الرِّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ ، وَمِنْ الْعَسَلِ اثْنَا

5 عَشَرَ أَلْفَ زِقٍّ ، وَمِنْ الْبُرَاةِ عَشْرَةٌ ، وَمِنْ الْأَكْسِيَّةِ عِشْرُونَ .

أَزْمِينِيَّة : ثَلَاثَةُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الْبُسْطِ الْمَخْفُورَةِ عِشْرُونَ ،

وَمِنْ الرُّقْمِ خَمْسُمِائَةٍ وَثَمَانُونَ رِطْلًا ، وَمِنْ الْمَالِحِ السُّورْمَاهِي عَشْرَةُ آلَافِ رِطْلٍ ، وَمِنْ

الطَّرْنَجِ عَشْرَةُ آلَافِ رِطْلٍ ، وَمِنْ الْبِغَالِ مِائَتَانِ ، وَمِنْ الْبُرَاةِ ثَلَاثُونَ .

قَنْسَرِينَ : أَرْبَعُمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَمِنْ الزَّيْبِ أَلْفُ حِمْلٍ .

10 دِمَشْق : أَرْبَعُمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

الْأَزْدَنْ : سِتَّةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

فِلَسْطِينَ : ثَلَاثُمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، وَمِنْ الزَّيْبِ ثَلَاثُمِائَةُ أَلْفِ رِطْلٍ .

مِصْر : أَلْفَا أَلْفِ دِينَارٍ ، مَرَّتَيْنِ ⁽¹⁾ ، وَتِسْعُمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

بَرْقَةَ : أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ .

15 إِفْرِيقِيَّة : ثَلَاثَةُ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الْبُسْطِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ .

الْيَمَن : ثَلَاثُمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، سِوَى الْمَتَاعِ .

(1) سقط من ج .

الحِجَارُ : ثلاثمائة ألف دينار . انتهى .

وأما الأندلس ، فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها ، أنَّ التَّاصِرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ،
خَلَّفَ فِي بُيُوتِ أَمْوَالِهِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفٍ ^(أ) دِينَاراً ، مَكْرَرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، يَكُونُ
جَمَلَتُهَا بِالْقَنَاطِيرِ خَمْسَمِائَةَ أَلْفٍ ^(ب) قَنْطَاراً .

5 ورأيتُ في بعضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ أَنَّ الْمَحْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي أَيَّامِهِ سَبْعَةُ
آلَافٍ قَنْطَاراً وَخَمْسَمِائَةَ قَنْطَاراً فِي كُلِّ سَنَةٍ . وَكَذَلِكَ وَجَدَ لِلْأَفْضَلِ أَمِيرِ [الْجِيُوشِ] ^(ج)
الْمُسْتَبَدِّ عَلَى الْعَبِيدِيِّينَ بِمَضَرَ عِنْدَمَا قُتِلَ ، سِتْمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ مُكْرَرَةً مَرَّتَيْنِ ، وَمِائَتَانِ
وَخَمْسُونَ إِزْدَبَاً مِنَ الدَّرَاهِمِ ، / وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْمِشَةِ وَالْأَمْتِعةِ وَالْفُصُوصِ
وَاللَّآلِيءِ . ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ خَلِّكَانَ ⁽¹⁾ فِي تَارِيخِهِ * ^(د) . [121 ب]

10 [وَأَمَّا دَوْلَةُ الْعَبِيدِيِّينَ ، فَرَأَيْتُ فِي تَارِيخِ ابْنِ خَلِّكَانَ عِنْدَمَا ذَكَرَ الْأَفْضَلَ
أَمِيرَ الْجِيُوشِ بْنِ بَذْرِ الْجَمَالِيِّ الْمُسْتَبَدَّ عَلَى خُلَفَائِهِمْ بِمَضَرَ ، أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ ، وَجَدَ فِي
خِزَانَتِهِ سِتْمِائَةَ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ مُكْرَرَةً مَرَّتَيْنِ ، وَمِائَتَانِ وَخَمْسُونَ إِزْدَبَاً مِنَ الدَّرَاهِمِ ،
وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ مِنْ ذَخَائِرِ الْفُصُوصِ وَاللَّآلِيءِ وَالْأَقْمِشَةِ وَالْأَمْتِعةِ وَالْمَرَآكِبِ
وَالظَّهَرِ .

(أ) ج: مرتين (ب) سقط من ج (ج) سقط من ط (د) إلى هنا تنتهي الوثيقة والإضافة التي ضاعت من نسخة "ع" وسقطت من نسخة ي .

(1) وفيات الأعيان 2 : 451 ويُعيد ذكره في الإضافة المستدركة تالياً ، وما ورد فيها عن مخلف الأفضل نقله ابن خَلِّكَانَ مِنْ أَخْبَارِ الدَّوَلِ الْمُنْقَطِعَةِ لِابْنِ ظَافِرِ الْأَزْدِيِّ 1 : 239 .

وأما هذه الدول الحادثة التي أذكرناها، فأعظمها دولة الترك بمصر، وكان
استيفالها أيام الناصر محمد بن قلاوون منهم. وغلب عليه لأول دولته الأميران:
بئرس وسلار، ثم خلعه بئرس واستبد بكرسيه، وسلار رديف له.

فلما اتزع الناصر الملك من يده، نكب بعد مدة رديفه سلار، واستصفي
ذخيرته. فوقفت على جريدة إحصائها، ومنها نقلت:

من الياقوت⁽¹⁾ البهرمان والبلخش⁽²⁾، أربعة أرتال ونصف .

ومن الزمرد تسعة عشر رطلاً .

ومن فصوص ماس وعين هرّ، ثلاثمائة قطعة كبار .

ومن الفصوص المختلفة رطلان .

ومن اللؤلؤ المدور من زينة مثقال إلى درهم، ألف ومائة وخمسون حبة .

ومن الذهب العين، ألف ألف دينار مكررة مرتين، وأربعمائة ألف مرة؛ وفنسيّة
مفلوءة بالذهب صبيبا .

وأكاش مفلوءة ذهباً استخرجت من بين حائطين ولم يعلم عدتها .

ومن الدراهم ألفا ألف، اثنان مكرراً مرتين، وأحد (كذا) وسبعون ألفاً. ومن الحلّي

المصاغ، أربعة قناطير .

(1) يذكّر البيروني أن أجوده الرماني ثم البهرماني. (الجماهر 33) ويذكر بياض النسبة وبغيرها. ولون البهرمان هو الصّغ الخالص الحاصل عن العُضفر دون صُفرة. (ابن الأكفاني: نخب الذخائر 3) وفي النسخة التيمورية 98 أ: الياقوت الهرمان، خطأ.

(2) البلخش Spinelle : حجر يضاهاى الياقوت في لونه، ولكن دونه في الصلابة (نخب الذخائر 14-). انظر التّوخي: نشوار المحاضرة 2: 113، ابن الوردي: خريدة العجائب 171، وعن مؤطنه، انظر ياقوت: معجم البلدان 1: 360 .

إلى ما يُناسبُ ذلك من الأقمشة والأمتعة والمراكب والظُهر والغلال
والمواشي والممالك والجواري والعقار .

وبَعْدَها دَوْلَة بَنِي مَرِين بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، وَقَعَتْ عَلَى جَرِيدَةٍ فِي خِزَانَةِ
مُلُوكِهِمْ ، بَخْطٍ صَاحِبِ الْمَالِ فِي دَوْلَةِ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ مِنْهُمْ ، أَنَّ مُخَلَّفَهُ كَانَ بَنِيَتْ
5 مَالَهُ سَبْعِمِائَةَ قِنْطَارٍ وَتَيْفٍ مِنْ دَنَانِيرِ الذَّهَبِ ، وَكَانَ فِي مَوْجُودِهِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ
مِمَّا يَنْاسِبُهُ . وَكَانَ لِلْسُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ، ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . وَلَمَّا
اسْتَوَلَى عَلَى تِلْمَسَانَ وَجَدَ فِي ذَخَائِرِ سُلْطَانِهَا أَبِي تَاشِيفِينَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ ،
ثَلَاثِمِائَةَ قِنْطَارٍ مِنَ الذَّهَبِ ، مَا بَيْنَ مَسْكُوكٍ وَمُصَاغٍ ، إِلَى مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ مِمَّا سِوَاهُ .

وَأَمَّا مُلُوكُ إِفْرِيقِيَّةٍ مِنْ بَقِيَّةِ الْمُوَحِّدِينَ ، فَأَدْرَكَتْ السُّلْطَانُ أَبَا بَكْرٍ تَاسِعَ
10 مُلُوكِهِمْ وَقَدْ نَكَبَ قَائِدَهُ وَأَتَابَكَ عَسَاكِرِهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَكِيمِ ، فَاسْتَضْفَى مِنْهُ أَرْبَعِينَ
قِنْطَارًا مِنْ دَنَانِيرِ الذَّهَبِ ، وَمَكِيلَةً مَدًّا مِنَ الْفُصُوصِ وَاللَّالِيءِ . وَنَهَبَ مِنْ قَزَشِ بَيْتِهِ
قَرِيبَ مِنْ ذَلِكَ . وَاسْتَضْفَى لَهُ مِنَ الْعَقَارِ وَالْمُفْتَكَاتِ مِثْلَهُ .

وَحَضَرَتْ بِمَضَرَ أَيَّامِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ أَبِي سَعِيدِ بَرْقُوقٍ ، الْمُسْتَوَلِي عَلَى دَوْلَةِ
بَنِي قَلَاوُونَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ نَكَبَ أَسْتَاذَ دَارِهِ الْأَمِيرَ مُحَمَّدَ وَمُضَادَّرَهُ . فَأَخْبَرَنِي مَتَوَلِّي
15 مُضَادَّرَتِهِ أَنَّ مَبْلَغَ مَا اسْتَضَفَنِي مِنْهُ مِنَ الذَّهَبِ ، أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً مَرَّتَيْنِ ،
وَسِتِّمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً مَرَّةً . وَأَمَّا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَقْمِشَةِ وَالْمَرَائِبِ وَالظُّهْرِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْغِلَالِ ، فَعَلَى نِسْبَةِ ذَلِكَ .⁽¹⁾

(1) ما بين الحاصرتين انفردت به نسخة ج ، وقد سَجَّلَ على بطاقة بوجهها تحمل رقم 80 من أوراق المخطوط
المتسلسلة ، وهو بخط ابن الفخار كاتب النسخة نفسها ، وفي موقعها من نسخة ع إشارة المخرج ، الذي =

فاعْتَبِرْ ذلك في نِسْبِ الدُّوَلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَلَا تُتَكَبَّرْ مَا لَيْسَ بِمَعْهُودٍ
عِنْدَكَ وَلَا فِي عَصْرِكَ مِنْ أَمْثَالِهِ، فَتَضَيِّقُ حَوَاضَتَكَ عَنْ مُلْتَقَطِ^(أ) الْمُفَكِّنَاتِ. فَكَثِيرٌ
مِنَ الْخَوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادَرُوا بِالْإِنْكَارِ؛ وَلَيْسَ
ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ؛ فَإِنَّ أَحْوَالَ الْوُجُودِ وَالْعُمُرَانَ مُتَفَاوِتَةً، وَمَنْ أَذْرَكَ مِنْهَا رُتْبَةً سُفْلَى
أَوْ وَسْطَى فَلَا يَخْصُرُ الْمَدَارِكُ كُلَّهَا فِيهَا. وَنَحْنُ إِذَا اعْتَبَرْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي
الْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمَيَّةٍ وَالْعُبَيْدِيِّينَ، قَايَسْنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذَلِكَ وَالَّذِي لَا نَشْكُ فِيهِ، بِالَّذِي
نُشَاهِدُهُ مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي هِيَ أَقْلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا، وَجَدْنَا يَنْتَهَا بُونًا؛ وَهُوَ لَمَّا بَيْنَهَا
مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا وَعُمُرَانِ مَمَالِكِهَا. فَالْآثَارُ كُلُّهَا جَارِيَةٌ عَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ فِي
الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمَاهُ؛ وَلَا يَسْعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا، إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ
الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ، بَلْ فِيهَا مَا يَلْحَقُ^(ب) بِالْمُسْتَفِيزِ وَالْمُتَوَاتِرِ، وَفِيهَا الْمُعَايِنُ وَالْمُشَاهِدُ
مِنَ آثَارِ الْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ. فَخُذْ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُنْقُولَةِ مَرَاتِبَ الدُّوَلِ فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا
وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا نَقَّصُهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُسْتَظْرَفَةِ^(ج)؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ
عَلَى الْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عِيْنَانَ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْيَمَ، رَجُلٌ مِنْ مَشِيخَةِ طَنْجَةَ،
يُغْرِفُ بَابِنَ بَطْلُوطَةَ، كَانَ رَحَلَ مِنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى الْمَشْرِقِ، وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادٍ

(أ) ل: تَلَقَّطَ (ب) كَلِمَةٌ غَيْرُ وَاضِعَةٍ فِي ع (ج) ع: الْمُسْتَظْرَفَةُ.

= أَلْحَقَ بِهَا بِلَا شَكٍّ، ثُمَّ فَقِدَ مُؤَخَّرًا بَعْدَ جِهَادِي الْآخِرَةِ سَنَةَ 1140هـ، تَارِيخُ نَسْخَةِ أَحْمَدَ تِيْمُورَ (355 تَارِيخُ
بِدَارِ الْكُتُبِ الْمَصْرِيَّةِ) حَيْثُ نَجَدَ بِهَا النَّصَّ نَفْسَهُ (الْوَرَقَةُ 98 أ)، عَلِمَا بِأَنَّهَا نَسْخَةٌ مُنْقُولَةٌ عَنْ أَصْلِ عَاطِفٍ
رَقْمُ 1936.

العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دلي حاضرة ملك الهند⁽¹⁾ وهي فيروزجوه،
 واتصل بملكها لذلك العهد⁽²⁾ وهو السلطان محمد شاه، وكان له منه مكان، واستعمله
 في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم / انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان
 أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بمالك الأرض؛ وأكثر
 ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون،
 مثل⁽³⁾ أن ملك الهند^(ب) إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال
 والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه، وأنه عند
 رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد
 ويطوفون به، ويُنصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر يرمى بها شكائر
 الدراهم والدنانير على الناس، إلى أن يدخل إيوانه، وأمثال هذه الحكايات، فتناجي
 الناس في الدولة بتكذيبه. ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس بن
 وذرار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل، لما
 استفاد في الناس من تكذيبه. فقال لي الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا
 من أحوال الدول، بما أنك لم تره، فتكون كالبئير الناشيء بالسجن؛ وذلك أن

(أ) في الأصل ع علامة مخرج بعد كلمتي الهند، والعهد، وفي الطرة جملتان: "وهو السلطان محمد شاه"، وهي فيروزجون، غير
 مقابلتين لعلامة الإخراج، فبادلت النسخ كلها موضع الحاشيتين، وقد أصلح المؤلف بخطه هذا الارتباك في نسخة ل وحدها
 (ب) سقط من ط وحدها .

(1) في الرحلة، أن السلطان أمر بنفقة ستة أشهر لأهل دهلي (دلي) بمناسبة القحط والغلاء والمجاعة التي
 استمرت سبع سنوات، بدءاً من عام 736هـ (تحفة النظار 3: 184، 222-) وفي نص ابن خلدون تفاصيل
 ليست في الرحلة .

وزيرًا اغتقله سلطانه، ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المخبس،
فلما أدرك وعقل، سأل عن اللّخمان التي يَغْتَذِي بها، فإذا قال له أبوه: هذا لحم
الغنم، يقول: وما الغنم؟ فيصِفُها له أبوه بشياتها ونُعوتها؛ فيقول: يا أبت، تُراها مثل
الفأر، فيُنْكِر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر؟ وكذا في لحم البقر والإبل، إذ لم
يُعَايِن في مَخْبَسِه إلّا الفأر، فيخسِبُها⁽¹⁾ كلّها أبناء جنس الفأر. وهذا كثيراً ما يَغْتَرِي
النّاس في الإخبار، كما يَغْتَرِيهِم الوَسْوَاس في الزيادة عند قصد الإغراب كما قدّمناه
أول الكتاب.

فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة
الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته؛ فما دخل في نطاق الإمكان قبله، وما
خرج عنه رَفَضَهُ. وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء، فلا
يُفَرِّض حدّاً بين الواقعات؛ وإنّا مرادنا الإمكان بحسب المادّة التي للشيء؛ فإذا
نظرنا أصل الشيء وجنسه وفضله ومقدار عظمه وقوّته، أجرينا الحكم من نسبة
ذلك على أحواله، وحكّمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه. ﴿وقل رب زدني
علماً﴾ [سورة طه، من الآية 114].

(1) ع: غيبها .

19 • فَصْلٌ ، فِي اسْتِظْهَارِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ عَلَى قَوْمِهِ وَأَهْلِ عَصِيَّتِهِ بِالْمَوَالِي وَالْمُصْطَفَعِينَ

اعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ - كَمَا قُلْنَا - بِقَوْمِهِ ، فَهُمْ عِصَابَتُهُ
وَضَهْرَاؤُهُ عَلَى شَأْنِهِ ، وَبِهِمْ يَقَارِعُ الْخَوَارِجُ عَلَى دَوْلَتِهِ ، وَمِنْهُمْ [مِنْ] ^(١) يُقْلَدُ أَعْمَالَ
5 مَمْلُوكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ وَجِبَايَةَ أَمْوَالِهِ ، لِأَنَّهُمْ أَغْوَانُهُ عَلَى الْغَلَبِ ، وَشِرَكَائُهُ فِي الْأَمْرِ ،
وَمُسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ ؛ هَذَا مَا دَامَ الطُّورُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَا . فَإِذَا جَاءَ
الطُّورُ الثَّانِي وَظَهَرَ اسْتِبْدَادُ عَنْهُمْ وَالْانْفِرَادُ بِالْمَجْدِ ، وَدَافَعْتَهُمْ عَنْهُ بِالزَّحِّ ، صَارُوا
فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ أَغْدَائِهِ ، وَاجْتِاحُ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدُّهُمْ عَنِ
المُشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءِ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَنْظِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ ،
10 فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ ، وَأَخْصَّ بِهِ قُرْبًا وَاضْطِنَاعًا ، وَأُولَى إِشَارًا وَجَاهًا ،
لَمَّا أَنَّهُمْ يَسْتَبِمَتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ ، وَالتَّرْتِبَةُ الَّتِي أَلْفَوْهَا
فِي مُشَارَكَتِهِمْ ؛ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ وَيُخَصُّهُمْ بِمَزِيدِ التَّكْرِمَةِ وَالْإِثَارِ ،
وَيُقْسِمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَيُقْلَدُهُمْ جَلِيلَ الْأَعْمَالِ وَالْوِلَايَاتِ ، مِنَ الْوِزَارَةِ
وَالْقِيَادَةِ وَالْجِبَايَةِ وَمَا يُخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِهِ ، وَيَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنْ أَلْقَابِ
15 الْمَمْلُوكَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ الْأَقْرَبُونَ / وَنُصْحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ . وَذَلِكَ حِينَئِذٍ مُؤَذَّنٌ
بَاهْتِضَامِ الدَّوْلَةِ ، وَعَلَامَةٌ عَلَى الْمَرَضِ الْمُزْمَنِ فِيهَا ؛ لِفَسَادِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءُ
الْغَلَبِ عَلَيْهَا ، وَمَرَضِ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الْاِمْتِهَانِ وَعَدَاوَةِ السُّلْطَانِ ،

(١) سقط من ظ .

فِيضْطَغِنُونِ عَلَيْهِ، وَيَتَرَيِّصُونَ بِهِ الدَّوَّائِرَ، وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ، وَلَا يُطْمَعُ فِي
بَزْمِهَا مِنْ هَذَا الدَّاءِ، لِأَنَّهُ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي الْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ رَسْمُهَا.

واعتُزِرَ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ، كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ
وَوِلَايَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ الْعَرَبِ، مِثْلَ عَمْرٍو بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ
زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ، وَالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، وَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
الْقَسْرِيِّ، وَابْنِ هُبَيْرَةَ، وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ، وَبِلَالِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ،
وَنُصْرَةَ بْنِ سَيَّارٍ، وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالِ الْعَرَبِ. وَكَذَا صَدَرًا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ، كَانَ
الاستظهارُ فِيهَا أَيْضًا بِرِجَالِ الْعَرَبِ؛ فَلَمَّا صَارَتِ الدَّوْلَةُ لِلْإِثْرَادِ بِالْمَخَدِ، وَكَبِخَ
الْعَرَبُ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْوِلَايَاتِ، صَارَتِ الْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ، وَالصَّنَائِعُ مِنَ الْبِرَامِكَةِ، وَبَنِي
سَهْلِ بْنِ نُوَيْجَتٍ، وَبَنِي طَاهِرٍ^(أ)، ثُمَّ بَنِي بُؤَيْنَةَ، وَمَوَالِي التُّرْكِ، مِثْلُ: بُغَا، وَوَصِيفٍ،
وَأَتَامِشٍ، وَيَاكِيَاكٍ^(ب)، وَابْنِ طُولُونَ، وَأَنْثَائِهِمْ^(ج)، وَغَيْرَ هَؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ؛
فَتَقْصِيرُ الدَّوْلَةِ لَغَيْرِ مَنْ مَهَّدَهَا، وَالْعَزُّ لَغَيْرِ مَنْ اجْتَلَبَهَا؛ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

20 • فَصْلٌ فِي أَحْوَالِ الْمَوَالِي وَالْمُضْطَظَّنِّينَ فِي الدُّوَلِ

اعْلَمْ أَنَّ الْمُضْطَظَّنِّينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي
الْإِلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا، وَالسَّبَبِ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْعَصِيَّةِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ
[123 ب] إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ، / لِأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى، وَالتَّخَاذُلِ فِي الْأَجَانِبِ

(أ) سقط من ج ي (ب) كذا في الأصول، وعند الطبري: ياكياك (ج) ي: وأمثالهم.

والبُعْدَاءُ كما قَدَّمناه. والوَلَايَةُ والمُخَالَطَةُ بالِرِّقِّ أو بِالْجِلْفِ يَنْزِلُ مَنْزِلَةً ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَمْرَ النِّسْبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ، وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ الْإِلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُرَافَقَةُ وَطَوْلُ الْمَارَسَةِ، وَالصُّخْبَةُ بِالْمَزَبِيِّ وَالرِّضَاعُ وَسَائِرُ أَخْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ؛ وَإِذَا حَصَلَ الْإِلْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتْ الثُّغْرَةُ وَالتَّنَاصُرُ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ بَيْنَ النَّاسِ.

5 واعتبر مثله في الاضطناع؛ فَإِنَّهُ يُخَدِّثُ بَيْنَ الْمُضْطَنَعِ وَمَنْ اضْطَنَعَهُ نِسْبَةً خَاصَّةً مِنَ الْوُضْلَةِ، تَنْزِلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ وَتُوَكَّدُ اللَّحْمَةُ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَتَمْرَأَتُ النِّسْبِ مَوْجُودَةٌ.

فَإِذَا كَانَتِ الْوَلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمُلْكِ لَهُمْ ، كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ ، وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ ، وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ ، لَوْجْهَيْنِ :

10 أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ أَسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ ، فَلَا يَتَمَيَّزُ النِّسْبُ عَنِ الْوَلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقْلِّ مِنْهُمْ ، فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً ذَوِي قُرْبَاهُمْ وَأَهْلِي أَرْحَامِهِمْ. وَإِذَا اضْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمُلْكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ مُمَيِّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى ، وَلَأَهْلُ الْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْوَلَايَةِ وَالاضْطِنَاعِ؛ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ تَمْيِيزِ الرُّتَبِ وَتَقَاوُثِهَا ، فَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الْأَجَانِبِ ، وَيَكُونُ الْإِلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَوْعَفَ وَالتَّنَاصُرُ لِنَظَرِ الْأَعْيُنِ ، وَذَلِكَ أَنْقَضَ مِنَ الْاضْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الْاضْطِنَاعَ قَبْلَ الْمُلْكِ يُبْعِدُ أَهْلَهُ عَنِ الدَّوْلَةِ بِطَوْلِ الزَّمَنِ ، وَيُخْفِي شَأْنَ تِلْكَ اللَّحْمَةِ ، وَيُظَنُّ بِهَا فِي الْأَكْثَرِ النِّسْبُ فَيَقْوِي حَالَ الْعَصَبِيَّةِ. وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ ، فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ ، فَتَنْتَبِهُنَّ اللَّحْمَةُ وَتَمَيَّزُ عَنِ النِّسْبِ ، فَتَضْعُفُ الْعَصَبِيَّةُ / بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ.

واعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ وَالرَّئَاسَاتِ تَحِذُهُ. فَكُلُّ مَنْ كَانَ اضْطِنَاعُهُ قَبْلَ
حُصُولِ الرَّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُضْطَنَعِهِ تَحِذُهُ أَشَدَّ اتِّحَاماً بِهِ، وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ، وَيَتَنَزَّلُ
مِنْهُ مَنْزِلَةً أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانُهُ وَذَوِي رَحِمِهِ. وَمَنْ كَانَ اضْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ أَوْ
الرَّئَاسَةِ لِمُضْطَنَعِهِ، لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللُّحْمَةِ مَا لِلأَوَّلِينَ. وَهَذَا مَشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ؛
حَتَّى أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي آخِرِ أَمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَاضْطِنَاعِهِمْ، وَلَا يَنْبَغِي 5
لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ الْمُضْطَنَعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ، لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوْلِيَائِهِمْ، وَمُشَارَفَةِ^(١)
الدَّوْلَةِ عَلَى الْإِقْرَاضِ، فَيَكُونُونَ مُنْخَطِّينَ فِي مَهَاوِي الضَّعَةِ. وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبُ
الدَّوْلَةِ عَلَى اضْطِنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ، مَا
يَغْتَرِبُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَقَلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ، وَنَظَرُهُ بِمَا يَنْظُرُهُ
بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ، لِتَاكِدِ اللَّحْمَةِ مُنْذُ الْعُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى، وَالِاتِّصَالِ بِآبَائِهِ 10
وَسَلَفِ قَوْمِهِ، وَالِانْتِظَامِ مَعَ كِبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ؛ فَيَخْضُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِرَازٌ؛
فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ، وَيَغْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ؛ وَيَكُونُ عَهْدُ
اسْتِخْلَاصِهِمْ وَاضْطِنَاعِهِمْ قَرِيباً، فَلَا يَتَلَعَّوْنَ رُتَبَ الْمَجْدِ، وَيَتَّقُونَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ
الْخَارِجِيَّةِ.

وهكذا شأنُ الدُّوَلِ فِي أَوَاخِرِهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاءِ عَلَى 15
الأَوَّلِينَ؛ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُخْدَثُونَ فَحَدَمٌ وَأَعْوَانٌ. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران،
من الآية 68].

(١) فِي حَاشِيَةِ عِ بَحْطِهِ : إِشْرَاف .

21 • فصل، فيما يعرض في الدُول من حَجَرِ السُّلْطَانِ والاستِبدادِ عَلَيْهِ

- [124 ب] إذا اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبَتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ / الْقَائِمِينَ
بِالدَّوْلَةِ، وَانْقَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ، وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ
بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ، فَرُبَّمَا حَدَثَ^(أ) التَّغْلُبُ عَلَى الْمَنْصُوبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ. وَسَبَبُهُ
5 فِي الْأَكْثَرِ لَوَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مَضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْبَتِ، يَتَرَشَّحُ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَ أَبِيهِ، أَوْ
بِتَرَشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ، وَيُؤْتَسُّ مِنْهُ الْعِجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ، فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ
أَبِيهِ أَوْ حَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ، وَيُؤَرِّى بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ؛ حَتَّى يُؤْتَسَّ مِنْهُ الْإِسْتِبدَادُ،
وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ. فَيَخْجِبُ الصَّبِيَّ^(ب) عَنِ النَّاسِ، وَيُعَوِّدُهُ اللَّذَاتِ الَّتِي
يَدْعُوهُ إِلَيْهَا تَرْفُ أَخْوَالَهُ، وَيُسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمَكْنَهُ، وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ
10 السُّلْطَانِيَّةِ، حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ. وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ حِطَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ
جُلُوسُ السَّرِيرِ، وَإِعْطَاءُ الصَّفَقَةِ، وَخِطَابُ التَّمْوِيلِ، وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ،
وَأَنَّ الْحُلَّ وَالْعَقْدَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ الْأَخْوَالِ الْمُلُوكِيَّةِ وَتَقْدُّهَا، مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ
وَالْمَالِ وَالشُّغُورِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ؛ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكَمَ لَهُ صِبْغَةُ الرِّئَاسَةِ
وَالْإِسْتِبدَادِ، وَيَتَحَوَّلُ الْمُلْكُ إِلَيْهِ، وَيُؤَثِّرُ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ. كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُؤْيَةِ،
15 وَالتُّرْكِ، وَكَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ، وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ، وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ.

وقد يَتَفَطَّنُ ذَلِكَ الْمَحْجُورُ الْمَغْلَبُ لَشَأْنِهِ، فَيُحَاوِلُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِيقَةِ
الْحَجَرِ وَالْإِسْتِبدَادِ، وَيَرْجِعُ الْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ، وَيَضْرِبُ عَلَى يَدِ الْمُتَغْلِبِ عَلَيْهِ؛ إِمَّا

(أ) ل: خضل (ب) ع: للصبي .

بَقْلٍ أَوْ بِدَفْعٍ عَنِ الرِّبَّةِ فَقَطْ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي التَّادِيرِ الْأَقْلَ، لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغْلِبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّ لَهَا ذَلِكَ، وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ عَنِ أَحْوَالٍ / التَّرَفِ، وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ [الْمُلْكِ] ⁽¹⁾ مُنْعَمِينَ فِي نَعِيمِهِ، قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرَّجُولَةِ، وَأَلْفَوْا أَخْلَاقَ الدَّايَاتِ وَالْأُطْطَارِ وَرَبُّوا عَلَيْهَا، فَلَا يَتَزَعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ، وَلَا يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغْلِبِ، إِنَّمَا هُمْ فِي الْقُنُوعِ بِالْأَهْجَةِ وَالتَّقَنُّ فِي اللَّذَاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ. 5

وهذا التَّغْلِبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُصْطَنَعِينَ عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَانْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونِهِمْ. وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدَّمَناهُ. وَهَذَانِ مَرَضَانِ لَا بُرَاءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ التَّادِيرِ. وَاللَّهُ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ.

22 • فَصْلٌ فِي أَنَّ الْمُتَغْلِبِينَ عَلَى السُّلْطَانِ لَا يُشَارِكُونَهُ فِي اللَّقَبِ الْخَاصِّ بِالْمُلْكِ

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مُذْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ، بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ 10 وَعَصَبِيَّةِ الَّتِي اسْتَبْتَعَهُمْ ^(ب)، حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ الْمُلْكِ وَالْغَلْبِ؛ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً، وَبِهَا انْحَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا. وَهَذَا الْمُتَغْلِبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمَلِكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ، فَعَصَبِيَّتُهُ مَنْدَرِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمَلِكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا، وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمُلْكِ. وَهُوَ لَا يُحَاوِلُ بِاسْتِبْدَادِهِ انْتِزَاعَ الْمُلْكِ ظَاهِرًا، وَإِنَّمَا يُحَاوِلُ انْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِزْرَامِ وَالنَّقْضِ، يُوهِمُ فِيهَا 15 أَهْلَ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ، مُتَقَدِّدٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ.

(1) فِي ظ: الْمُلُوكِ (ب) مِنْ ظ ع ج ي، وَفِي ل: اسْتَبْتَعْنَهُمْ.

فهو يتجافى عن سيئات الملك وشاراته وألقابه جُفَّده، ويُبعد نفسه عن التَّهمة بذلك وإن حصل له الاستبداد، لأنه مُستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السُّلطان، وأولَّوه على أنفسهم من القَيل مُذْ أَوَّلِ / الدَّولة، ومُغالطاً عنه بالتيابة. [125 ب] ولو تعرَّض لشيء من ذلك لَنَفْسَهُ غَلَبَهُ ^(١) أهلُ العصبية وقيلُ الملك، وحاولوا الاستئثار به دونَه؛ لأنَّه لم تستَحكم له صِبْغَةٌ في ذلك تَحْمِلُهُمْ على التَّسليم له والاعتقاد؛
5 فيهلك لأوَّل وهلة .

وقد وَقَعَ مثلُ هذا لعبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، حين سَمَا إلى مُشاركة هِشام وأهل بيته في لَقَب الخِلافة، ولم يَقنع بما قَنِع أبوه وأخوه من الاستبداد بالحلِّ والعقد والمراسم التَّابعة، فطلب من هِشام خليفته أن يَعْهد له بالخِلافة؛ فَتَمَّ ذلك عليه بنو مَزوان وسائر قُرَيش، وبايعوا لابن عمِّ الخليفة هِشام 10 محمد بن عبد الجبار بن الناصر، وخرجوا عليهم؛ وكان في ذلك خرابُ دولة العامريين وهلاك المؤيد خليفتهم، واستُبدِل منه بسواه من أعياص الدولة إلى آخرها، واختلَّت مراسمُ مُلكهم، والله ﴿خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية 98] .

23 • فَضْلٌ، فِي حَقِيقَةِ الْمُلْكِ وَأَصْنَافِهِ

15 الْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ؛ لَأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمكن حَيَاتُهُمْ ووجودُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وتعاونِهِمْ على تَحْصِيلِ قُوَّتِهِمْ وَضُرُورَاتِهِمْ. وإذا اجْتَمَعُوا دَعَتْ الضَّرُورَةُ إِلَى الْمُعَامَلَةِ وافْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ، وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ

(١) في ل : ولو تعرَّض لشيء من ذلك لَنَفْسِهِ، غَلَبَهُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصْبِيَّةِ .

يَأْخُذُهَا، لَمَّا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُؤَانِعُهُ
الْآخِرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْأَنَفَةِ وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ، فَيَقَعُ التَّنَازُعُ
الْمُقْضِي إِلَى الْمُقَاتَلَةِ، وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى الْهَزَجِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ النَّفُوسِ، الْمُقْضِي
ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ، وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ / بِالْمُحَافَظَةِ، فَاسْتِحَالِ بَقَاؤُهُمْ [126]

فَوُضِيَ دُونَ حَاكِمٍ يَزْعُمُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ؛ وَاحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَاظِعِ، وَهُوَ
الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ. وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنْ
الْعَصِيَّةِ، لَا قَدَمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمَطَالِبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ.

وَهَذَا الْمَلِكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ الطَّلِبَاتُ وَيَحْتَاجُ إِلَى
الْمُدَافَعَاتِ؛ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصِيَّةِ كَمَا مَرَّ، وَالْعَصِيَّةُ مُتَفَاوِتَةٌ، وَكُلُّ
عَصِيَّةٍ فَلَهَا تَحْكُمٌ وَتَغْلِبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرَتِهَا. وَلَيْسَ الْمَلِكُ لِكُلِّ عَصِيَّةٍ،
وَإِنَّمَا الْمَلِكُ عَلَى⁽¹⁾ الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ، وَيَحْجِي الْأَمْوَالَ، وَيَنْعِثُ الْبُعُوثَ،
وَيَحْجِي الثُّغُورَ، وَلَا يَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ. وَهَذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي
الْمَشْهُورِ. فَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا، مِثْلَ حِمَايَةِ الثُّغُورِ، أَوْ جِبَايَةِ الْأَمْوَالَ،
أَوْ بَعَثِ الْبُعُوثِ، فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ؛ كَمَا وَقَعَ لكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرَبْرِ فِي
دَوْلَةِ الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْروَانِ، وَمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدَرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ. وَمَنْ قَصَّرَتْ بِهِ عَصِيَّتُهُ
أَيْضًا عَنْ الِاسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي، وَكَانَ فَوْقَهُ
حُكْمٌ غَيْرُهُ، فَهُوَ أَيْضًا مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ؛ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِي
وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ. وَكَثِيرًا مَا يَوْجَدُ هَذَا فِي الدُّوَلِ الْمُنْتَسِعَةِ

(1) ل: في .

النَّطَاقِ، أَغْنَى يُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي التَّوَاجِي وَالْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ
الَّتِي جَمَعَتْهُمْ؛ مِثْلَ صِنْهَاجَةٍ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ؛ وَزَنَاتَةٍ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً، وَالْعَبِيدِيِّينَ أُخْرَى؛
وَمِثْلَ مُلُوكِ الْعَجَمِ / فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ؛ وَمِثْلَ أَمْرَاءِ الْبَزْرِ وَمُلُوكِهِمْ مَعَ الْإِفْرَنْجَةِ [126ب]
قَبْلَ الْإِسْلَامِ؛ وَمِثْلَ مُلُوكِ الطَّوَاقِفِ مِنَ الْفُرْسِ مَعَ الْإِسْكَانْدَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ؛ وَكَثِيرٌ
5 مِنْ هَؤُلَاءِ. فَاعْتَبِرْهُ نَجْدَهُ. وَاللَّهُ ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ، مِنَ الْآيَةِ 18].

24 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ إِرْهَافَ الْحَدِّ مُضِرٌّ بِالْمَلِكِ وَمُفْسِدٌ لَهُ فِي الْأَكْثَرِ

اعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ، لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ؛ مِنْ حُسْنِ
شَكْلِهِ، أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ، أَوْ عِظَمِ جُثْمَانِهِ، أَوْ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ، أَوْ جَوْدَةِ خَطِّهِ، أَوْ
ثَقُوبِ ذِهْنِهِ، وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ مِنْ
10 الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ، وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ. فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمُ
بَأُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ فَالسُّلْطَانُ مِنْ لَهُ رَعِيَّةٌ؛ وَالرَّعِيَّةُ مِنْ لَهَا سُلْطَانٌ؛ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ
حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَلَكَةُ، وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ
الْمَلَكَةُ وَتَوَابَعُهَا بِمَكَانٍ مِنَ الْجَوْدَةِ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ؛
فَإِنَّمَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ؛ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ
15 ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ وَهَلَاكًا لَهُمْ .

وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرَّفْقِ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا
بِالْعُقُوبَاتِ، مُنْتَقِبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ، شَمِلَهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ؛ وَلَا ذُوَا
مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، فَتَخَلَّقُوا بِهَا، وَفَسَدَتْ بِصَائِرِهِمْ وَأَخْلَاقُهُمْ؛ وَرَبَّمَا

خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الْحَزْبِ وَالْمُدَافَعَاتِ، فَفَسَدَتْ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ؛ وَرَبَّمَا أَجْمَعُوا
 [على⁽¹⁾] قَتْلَهُ لَذَلِكَ، فَتَفْسَدُ الدَّوْلَةُ / وَيَخْرَبُ السِّيَاحُ؛ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهَرُهُ،
 فَسَدَتْ الْعَصِيَّةُ بِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا، فَفَسَدَ السِّيَاحُ مِنْ أَضْلِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ. وَإِذَا
 كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ، وَأَشْرَبُوا مَحَبَّتَهُ، وَاسْتَمَاتُوا
 دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ، وَاسْتَقَامَ^(ب) الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

5

وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلَكَةِ، فَهِيَ النَّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ؛ فَالْمُدَافَعَةُ بِهَا تَمُّ
 حَقِيقَةُ الْمَلِكِ؛ وَأَمَّا النَّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُمْلَةِ الرَّفْقِ بِهِمْ، وَالنَّظَرِ لَهُمْ فِي
 مَعَاشِهِمْ، وَهِيَ أَضَلُّ كَبِيرٌ فِي التَّحَبُّبِ إِلَى الرَّعِيَّةِ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّمَا تَكُونُ مَلَكَةُ الرَّفْقِ فِيمَنْ يَكُونُ يَقْظًا^(ج) شَدِيدَ الذِّكَاءِ مِنَ
 النَّاسِ؛ وَكَثُرَ مَا يُوْجَدُ الرَّفْقُ فِي الْغُفْلِ أَوْ الْمُتَعَقِّلِ. وَأَقْلَمَ مَا فِي الْيَقْظِ^(ج) أَنَّهُ يَكْلِفُ
 الرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَوْقِهِمْ، لِنُفُودِ نَظَرِهِ فِيهَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ
 فِي مَبَادِيهَا بِالْمَعِيَّةِ، فَيَهْلِكُونَ. لَذَلِكَ قَالَ ﷺ⁽¹⁾: "سَيَرُوا عَلَى سَيْرِ أَوْعَفِكُمْ". وَمِنْ
 هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قِلَّةَ الْإِفْرَاطِ فِي الذِّكَاءِ؛ وَمَأْخُذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ
 ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عُمَرُ عَنِ الْعِرَاقِ، وَقَالَ: لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلْعَجْزُ
 أَمْ لِحَيَانَةٍ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَمْ أَغْزِلْكَ لَوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا؛ وَلَكِنْ كَرِهْتُ أَنْ أُحْمَلَ فَضْلَ عَقْلِكَ
 عَلَى النَّاسِ. فَأَخِذْ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرِطَ الذِّكَاءِ وَالْكَيْسِ، مِثْلَ زِيَادِ بْنِ

15

(1) سقط من ط (ب) في ع ل ي ج: فاستقام (ج) كذا بضم الف في ع ل ، والضم والكسر واحد .

(1) حديث موضوع بهذا اللفظ، ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة 247، وعلي القاري في كتاب "المصنوع
 في معرفة الحديث الموضوع"، رقم 158 .

أبي سُفْيَان ، وعَمْرُو بن العاصِ ، لما يَثْبَعُ ذلك من التَّعَسُّفِ وسوء المَلَكَةِ ، وَحُلِ
 الوجود على ما ليس في طَبِيعَتِهِ ، كما يأتي في آخر هذا الكتاب ؛ واللهُ خَيْرُ المالكين .
 وَتَقَرَّرَ [من] ⁽¹⁾ هذا أَنَّ الكَيْسَ والذِّكَاءَ عَيْنَبٌ في / صَاحِبِ السِّيَاسَةِ ، لأنَّه إفراطٌ في
 الفِكرِ ، كما أَنَّ البِلَادَةَ إفراطٌ في الجُمُودِ . والطَّرْفَانِ مَذْمُومان من كُلِّ صِفَةِ إنسانيةٍ ،
 5 والمحمودُ هو التَّوَسُّطُ ؛ كما في الكَرَمِ مع التَّبَذِيرِ والبُخْلِ ؛ وكما في الشَّجَاعَةِ مع الهَوَجِ
 والجُبْنِ ؛ وغير ذلك من الصِّفَاتِ الإنسانيةِ . ولهذا يوصَفُ الشَّدِيدُ الكَيْسِ بصفاتِ
 الشَّيْطَانِ ، فيقالُ : شَيْطَانٌ وَمُتَشَيْطِنٌ ، وأمثال ذلك . ﴿ وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾
 [سورة آل عمران ، من الآية 47] .

25 * فَضْلٌ ، فِي مَعْنَى الْخِلَافَةِ وَالْإِمَامَةِ

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ أَنَّهُ الْاجْتِمَاعُ الضَّرُورِيُّ لِلبَشَرِ ، وَمُقْتَضَاهُ التَّغَلُّبُ
 10 وَالْقَهْرُ اللَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ الْغَضَبِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ ، كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْغَالِبِ جَائِزَةً
 عَنْ الْحَقِّ ، مُجْجِفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ ، لِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ فِي
 الْغَالِبِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهَوَاتِهِ . وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ
 الْمَقَاصِدِ مِنَ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ مِنْهُمْ ، فَتَعَسَّرَ طَاعَتُهُ لَذَلِكَ ، وَتَحَيَّيَ الْعَصِيَّةُ الْمُفْضِيَّةُ
 15 إِلَى الْهَزَجِ وَالْقَتْلِ . فَوَجَبَ أَنْ يُرْجَعَ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوَانِينِ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ ، يُسَلَّمُهَا
 الْكَافَّةُ وَيَنْقَادُونَ إِلَى أَحْكَامِهَا ، كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ .

(1) ظ : في .

وإذا خَلَّتْ الدَّوْلَةُ من مثل هذه السِّيَاسَةِ، لم يَسْتَتِبْ أُمْرُهَا، ولا يَتِمَّ استيلاؤها، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية 38]. فإذا كانت هذه القَوَانِينُ مَفْرُوضَةً من العُقَلَاءِ وأكابر الدَّوْلَةِ وبصائرها، كانت سِيَّاسَةُ عَقْلِيَّةً؛ وإذا كانت مَفْرُوضَةً من الله بشارِعٍ يُقَرِّرُهَا وَيُشَرِّعُهَا كانت سِيَّاسَةً دِينِيَّةً، نَافِعَةً في الحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ. وذلك أَنَّ الخَلْقَ لَيْسَ المقصودُ بهم دُنْيَاهُمْ فقط، فإنَّها 5 كُلُّهَا عِبَثٌ وباطلٌ، إذ غَايَتُهَا / المَوْتُ والفَنَاءُ؛ والله تعالى يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [سورة المؤمنون، من الآية 115]، فالمقصودُ بهم إِنَّمَا هو دِينُهُم المُفْضِي بهم إلى السَّعَادَةِ في آخِرَتِهِمْ: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى، من الآية 53]. فجاءت الشَّرَائِعُ بِحَمْلِهِمْ على ذلك في جَمِيعِ أَحوَالِهِمْ من عِبَادَةٍ وَمُعَامَلَةٍ؛ حَتَّى في المُلْكِ الَّذِي هو طَبِيعِيٌّ للاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيَّ، فَأَجْرَتْهُ على 10 مَنَهِجِ الدِّينِ، لِيَكُونَ الكُلُّ مَحْوَطًا بِنَظَرِ الشَّارِعِ⁽¹⁾.

فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى الْقَهْرِ وَالتَّغْلِبِ وإِهْمَالِ الْقُوَّةِ الْعُضْويَّةِ في مَزْعَاهَا، فَجَوَزَ وَعُدَّوَانًا وَمَذْمُومًا عِنْدَهُ، كَمَا هو في مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ. وَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا [مَنْ غَيْرَ نَظَرِ الشَّارِعِ]^(ب) فَمَذْمُومٌ أَيْضًا، لِأَنَّهُ نَظَرَ بِغَيْرِ نَوْرِ اللَّهِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [سورة النور، من الآية 40]. لِأَنَّ الشَّارِعَ 15 أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْكَافَّةِ فِيمَا هو مُغَيَّبٌ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ؛ وَأَعْمَالُ الْبَشَرِ كُلُّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي مَعَادِهِمْ، مِنْ مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ، قَالَ ﷺ⁽¹⁾: "إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ"؛

(1) مَنْ ظَ، زَع بِحَظِّهِ، وَفِي ل: الشَّرْعُ (ب) مِنْ حَاشِيَةِ ع بِحَظِّهِ، وَسَقَطَتْ مِنْ بَقِيَةِ الْأَصُولِ .

(1) أَخْرَجَهُ الْعَجْلُونِي فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ 1: 251، 2: 70 .

وأحكام السياسة إنما تُطلع^(١) على مَصَالِح الدُّنْيَا فقط: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة الروم، من الآية 7]؛ ومقصود الشارع بالناس صلاح آخِرَتِهِمْ. فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دُنْيَاهُمْ وآخِرَتِهِمْ، وكأنَّ هذا الحكم لأهل الشريعة؛ وهم الأنبياء، ومن قام مقامهم وهم الخلفاء.

5 فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة، وأنَّ الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة؛ والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار؛ والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخرية والدنيوية الرجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها / بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة [خلافة]^(ب) عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. فافهم ذلك واعتبره فيما نورد^(ج) عليك من بعد. والله الحكيم العليم.

26 • فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب^(د) وشروطه

وإذ قد بينّا حقيقة هذا المنصب، وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، ويسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة وإماماً. [وسمّاه 15 المتأخرون سُلطاناً حين فشا التعدُّد فيه، واضطّروا بالتباعد وفقدان شروط المنصب إلى عقد البيعة لكل متغلب]^(هـ). فأما تسميته إماماً، فتشبيهاً بإمام الصلاة

(١) ع: تُطْلَع (ب) سقط من ظ، وكذا وردت في ل ج ي، وفي ع: نيابة (ج) ل: نعدّه (د) عدل المؤلف بقية عنوان الفصل بخطه في ع: ... في حكم الخلافة وشروطها (هـ) زيادة مدرجة في حاشية ع وحدها بخطه .

في اتّباعه والافتداء به؛ ولهذا يُقال الإمامة الكبرى. وأمّا تسميته خليفة فلكونه
يُخلف النبي في أمته، فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله. واختلف في
تسميته خليفة الله؛ فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله
تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة، من الآية 30] وقوله: ﴿جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 165]. ومنع الجمهور منه؛ لأنّ معنى الآية 5
ليس عليه؛ وقد نهى أبو بكر [عنه] ⁽¹⁾ لما دُعي به، وقال: لست خليفة الله، ولكني
خليفة رسول الله؛ ولأنّ الاستخلاف إنّما هو في حقّ الغائب، وأمّا الحاضر فلا .

ثم إنّ نصب الإمام واجبٌ قد عُرف وجوبه من الشرع بإجماع الصحابة
والتابعين؛ لأنّ أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته، بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي
الله عنه، وتسليم النظر إليه في أمورهم. وكذا في كلّ عصرٍ من بعد ذلك. ولم يترك
الناس فوضى في عصرٍ من الأعصار؛ واستقرّ ذلك إجماعاً دالاً على وجوب ^(ب)
نصب الإمام.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن مُدرك وجوبه العقل، وأنّ الإجماع الذي
[129] وَقَعَ فإنّما هو قضاءٌ بحكم العقل فيه. قالوا: وإنّما وجب بالعقل لضرورة / الاجتماع
للنّش وأستحالة حياتهم ووجودهم مُتفرّدين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام
15 الأغراض. فما لم يكن الحاكم الوازع، أفضى ذلك إلى الهزج المؤذن بهلاك النّش
وانقطاعهم؛ مع أنّ حفظ النّوع من مقاصد الشرع الضّرورية. وهذا المعنى بعينه هو
الذي لحظّ الحكماء في وجوب التّبوات في النّش، وقد نبّهنا على فساده، وأنّ

(1) سقط من ط وحدهما (ب) سقط من ل .

إحدى مقدماته أنّ الوازع إنّما يكون بشرع من الله تُسلّم له الكافّة تسليم إيمان واعتقاد، وهو غير مُسلّم؛ لأنّ الوازع قد يكون بسطوة الملك، وقهر أهل الشؤكة، ولو لم يكن شرع، كما في أمم المجوس وغيرهم ممّن لئس له كتاب أو لم تبلغه الدّعوة؛ أو نقول: يكفي في رفع التّنازع معرفة كلّ واحد بتخريم الظلم عليه بحكم العقل. 5 فادّعواهم أنّ ارتفاع النزاع إنّما يكون⁽¹⁾ بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا، غير صحيح؛ بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشؤكة، أو بامتناع الناس عن التّنازع والتّظالم؛ فلا يتنهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدّمة. فدلّ على أن مُدرك وجوبه إنّما هو بالشرع، وهو الإجماع الذي قدّمناه.

وقد شدّ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأساً؛ لا بالعقل ولا بالشرع؛ منهم الأصمّ من المعتزلة، وبعض الخوارج، وغيرهم؛ والواجب عند هؤلاء إنّما هو إمضاء أحكام الشرع؛ فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله، لم يُختج إلى إمام ولا يجب نصبه. وهؤلاء مخرجون بالإجماع. والذي حملهم على هذا المذهب إنّما هو الفراز عن الملك ومذاهبه من الاستيالة / والتغلب والاستيتماع [129ب] بالدنيا، لما رأوا الشريعة مُمثلة بدمّ ذلك والتّعي على أهله، ومُرعبة في رفضه.

واعلم أنّ الشرع لم يذمّ الملك لذاته ولا حطر القيام به، وإنّما ذمّ المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتّمتع بالذات، ولا شكّ في أنّ هذه مفايد محظورة [وهي من توابعه]^(ب). كما أنّي على العدل والتّصفّة، وإقامة مراسم الدين والذب عنه، وأوجب بإزائها الثّواب، وهي كلّها من توابع الملك. فإذا إنّما وقع الذمّ للملك

(1) ي: هو (ب) سقط من ظ وحدها .

على صفةٍ وحالٍ دونٍ أخرى، ولم يذمه لذاته، ولا طلب تزكته، كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين، وليس مراده تركهما بالكليّة لدعاية الضرورة إليهما، وإنّا المراد تضرّفهما على مقتضى الحق. وقد كان لداود وسليمان - صلوات الله عليهما - الملك الذي لم يكن لغيرهما، وهما من أنبياء الله وأكرم الخلق عنده .

5 ثم نقول لهم: إنّ هذا الفرار عن الملك بَعْدَ وجوب هذا المنصب لا يُغنيكم شيئاً، فإنّكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة، وذلك لا يَحْصُلُ إلّا بالعصيّة والشوكة، والعصيّة مُقتضية بطّبعها للملك، فيحصل الملك ولو لم يُنصّب إمامٌ، وهو عَيْنُ ما قرّرت عنه.

وإذا تقرّر أنّ هذا المنصب واجبٌ بالإجماع، فهو من فروض الكفاية، وراجع إلى اختيار أهل الحلّ والعقد، فيتعيّن عليهم نصبه، وتجب على الخلق جميعاً 10 طاعته، لقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء، من الآية 59] .

﴿⁽¹⁾﴾ [ولا يجوز عقد هذا المنصب لاثنين معاً، وعليه جمهور العلماء، وقوفاً مع ظواهر الأحاديث التي دلّت على ذلك وهي في صحيح مسلم⁽¹⁾ في كتاب الإمارة منه. وذَهَبَ آخرون إلى أنّ ذلك إنّما هو في البلد الواحد وفي حال تقاربهما، وأمّا 15 عند التباعد وقصور الإمام عن البلد الشاسع، فيجوز نصب آخر هنالك للقيام بالمصالح.

(1) ما بين النجمين مخرج في حاشية ع، ولم تنقله الأصول الأربعة الموازية .

(1) الجامع الصحيح، كتاب الإمارة 1451/3، وينظر خاصة باب إذا بويع لخليفتين- حديث رقم (61) 1853-

ومن المشاهير الذين نُقِلَ عنهم ذلك، الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني شيخ المتكلمين ، ومال إليه إمام الحرمين⁽¹⁾ في كتاب الإرشاد ؛ وربما يظهر من آراء الأندلسيين والمغاربة الجنوح إلى ذلك . فقد كان العلماء بالأندلس متوافرين ، وبايعوا لبني أمية ، ولقبوا الناصر عبد الرحمن منهم وأبناءه بأمير المؤمنين، وهي سمة 5 الخلافة كما يأتي، وكذا الموحدون بعدهم بالمغرب. وقد ردَّ بعضهم ذاك بالإجماع، وهو غير ظاهر ، إذ كان هناك إجماع لم يخالفه الأستاذ أبو إسحاق ولا إمام الحرمين ، فهم أقعد بمعرفة الإجماع . نعم ، ردَّ على الإمام المازري⁽²⁾ والتووي⁽³⁾ وقوفاً مع ظواهر الأحاديث كما قلناه ، وربما احتج لذلك بعض المتأخرين ، بدليل التمايع الذي في التنزيل ، وهو قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة 10 الأنبياء ، من الآية 22] ، ولا يتهض الاستدلال على ذلك بالآية الكريمة ، لأنَّ دلالتها عقلية ، ثبها الله عليها ليحصل لنا التوحيد الذي أمرنا باعتماده بدليل عقلي ، فيكون أرسخ، ومطلوبنا في باب الإمامة المنع من نصب إمامين وهو شرعي ، فلا يسم الاستدلال بها إلا إن تقرر هنا شرعيته بزيادة مقدمة أخرى، وهي أنَّ التعدد ينشأ عنه الفساد، ونحن ممنوعون مما يحيز إليه، ويصير الاستدلال⁽⁴⁾ بها حينئذٍ 15 شرعياً، والله أعلم [ب].

(أ) كتب المؤلف بدلها : الدليل حينئذ ، ثم غيرها (ب) إلى هنا تنتهي حاشية ع المفردة .

(1) عبد الملك الجويني: الإرشاد إلى قواطع الأدلة 425 .

(2) المعلم بفوائد مسلم 3 : 35 - (883) .

(3) شرح صحيح مسلم 12 : 231 - باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول .

وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم؛ والعدالة؛ والكفاية؛ وسلامة
الحواس والأعضاء، مما يؤثر في الرأي والعقل. واختلف في شرط خامس وهو
النسب القرشي.

[130]

فأما اشتراط العلم فظاهر؛ لأنه إما يكون مُنفذاً / لأحكام الله تعالى⁽¹⁾

إذا كان عالماً بها^(ب)، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها. ولا يكفي من العلم إلا أن
5 يكون مجتهداً، لأن التقليد نقص؛ والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال.

وأما العدالة، فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي
شروط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه. ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه يفسق
الجوارح من ارتكاب المخطورات وأمثالها، وفي انتفاءها بالبدع الاعتقادية خلاف.

10 وأما الكفاية، فهو أن يكون جريئاً على إقامة الحدود، واقتحام الحروب،
بصيراً بها، كفيلاً بحمل الناس عليها، عارفاً بالعصية وأحوال الدماء، قوياً على
مُعانة السياسة؛ ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين، وجهاد العدو،
 وإقامة الأحكام، [وسياسة الدنيا]^(ج)، وتذير المصالح.

وأما سلامة الحواس والأعضاء من النقص والعطلة، كالجنون والعمى
والصمم والخرس، وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل، كفقْد اليدين والرجلين
15 والأنتين، فتشترط السلامة منها كلها، لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل^(د)
إليه. وإن كان إنما يشين في المنظر فقط، كفقْد إحدى هذه الأعضاء، فتشترط

(1) سقط من ع ل ج ي (ب) سقط من ج (ج) من ع وحدها (د) جعل الله إليه.

السَّلامَةُ مِنْهُ شَرْطُ كَمَالٍ. وَيُلْحَقُ بِفِقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ؛ وَهُوَ ضَرْبَانُ:
ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِ فِي اشْتِرَاطِ السَّلامَةِ مِنْهُ شَرْطُ وُجُوبٍ، وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنْ
التَّصَرُّفِ جَمَلَةً، بِالْأَسْرِ وَشِبْهِهِ؛ وَضَرْبٌ لَا يُلْحَقُ بِهِ، وَهُوَ الْحَجْرُ بِاسْتِیْلَاءِ بَغْضِ
أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ⁽¹⁾ مِنْ غَيْرِ عِصْيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ، فَيَنْتَقِلُ النَّظَرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوْلي،

5 فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ / وَحَمِيدِ السِّيَاسَةِ، جَازَ إِفْرَازُهُ، وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ
المُسْلِمُونَ مِنْ يَبْضِ يَدِهِ عَنْ ذَلِكَ وَيَدْفَعُ عِلَّتَهُ، حَتَّى يُتَقَدَّ فِعْلُ الْخَلِيفَةِ .

وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ، فَلِاجْمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَاحْتَجَّتْ
قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هَمُّوا يَوْمئِذٍ بِنَيْعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ^(ب)، وَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ
أَمِيرٌ. وَاحْتَجَّتْ قُرَيْشٌ بِقَوْلِهِ ﷺ⁽¹⁾: "الْأَمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ"، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَانَا
10 بِأَنْ نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ، وَلَوْ كَانَتِ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنِ
الْوَصِيَّةُ بِكُمْ. فَحَجَّجُوا الْأَنْصَارَ، وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، وَعَدَلُوا عَمَّا
كَانُوا هَمُّوا بِهِ مِنْ نَيْعَةِ سَعْدٍ لَذَلِكَ. وَثَبَّتَ أَيْضاً فِي الصَّحِيحِ⁽²⁾: "لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ
فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ"، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ كَثِيرٌ.

15 إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ الثَّرَفِ وَالنَّعِيمِ،
وَمَا^(ج) أَنْفَقَتْهُمْ الدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، عَجَزُوا لِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخِلَافَةِ،

(1) سقط من ل (ب) في ط: سعد بن أبي عبادَةَ، غلطاً (ج) ع: وما .

(1) أخرجه الطيالسي في مسنده (2133)، وأحمد في المسند 3: 29، وابن أبي عاصم في السنَّة (1020)
وأبو نعيم في حلية الأولياء 3: 171، والحاكم في المستدرک 4: 501، والبيهقي في الشُّنن الكبرى 3: 121
من حديث أنس بن مالك .

(2) أخرجه البخاري 9: 78 (7140) ومسلم (1818) من حديث عبد الله بن عمر .

وتعلّبت عليهم الأعاجم، وصار الحلّ والعقد لهم؛ فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشيّة، وعوّلوا على ظواهر في ذلك، مثل قوله ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا، وإن ولي عليكم عبد حبشيّ ذو زبيّة"؛ وهذا لا تقوم به حجة في ذلك، فإنّه خرج مخرج التمثيل والقرض للمبالغة في إيجاب السمع والطاعة؛ ومثل قول عمر: لو كان سالم مؤلىّ أبي حذيفة حيّاً لولّيته، أو: لما داخلني فيه 5 الطنّة؛ وهو أيضاً لا يفيد ذلك، لما علّفت أنّ مذهب الصحابيّ ليس بحجة. وأيضاً، فمؤلىّ القوم منهم، وعصبيّة الولاء حاصلة لسالم من قریش، وهي الفائدة في اشتراط النسب. ولما استعظم عمر أمر الخلافة، ورأى شروطها كأنّها مفقودة في ظنّه، عدل إلى سالم لتوفّر / شروط الخلافة عنده فيه، حتّى من الولاء المفيد [131] للعصبيّة كما نذكر، ولم يبق إلاّ صراحة النسب، فراه غير محتاج إليه، إذ الفائدة في 10 النسب إنّما هي العصبيّة، وهي حاصلة من الولاء. وكان ذلك حرصاً من عمر على النظر للمسلمين، وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة، ولا عليه فيه عهدة.

ومن القائلين بنفي اشتراط القرشيّة، القاضي أبو بكر الباقلانيّ⁽²⁾، لما أدرك ما عليه عصبيّة قریش من التلاشي والاضمحلال، واستبداد ملوك العجم على 15 الخلفاء، فأسقط شرط القرشيّة، وإن كان موافقاً لرأي الخوارج، لما رأى عليه حال

(1) أخرجه البخاريّ في الصلوة من صحيحه 1 : 178 (693) و (696) ، وفي الأحكام 9 : 78 (7142) ، وأحمد 3 : 114 و 171 ، وابن ماجة (2860) .

(2) بل على العكس من ذلك في كتابه التمهيد (181) فقد اشترط أن يكون الإمام قرشياً من الصميم، ويجوز العقد للمفضول وترك الأفضل لخوف الفتنة (184) ولا يجب أن يكون من بني هاشم دون غيرها من قبائل قریش، وإنّما تكون شائعة في سائرهم. ولا يقول بالعصمة .

الخلفاء لعهد. وبقي الجمهور على القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشي، ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين. ويؤيد عليهم سقوط شرط الكفاية التي بها يقوى على أمره؛ لأنه إذا ذهب الشؤكة بذهاب العصية فقد ذهب الكفاية؛ وإذا وقع الإخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضاً إلى العلم والدين، وسقط اعتبار شروط هذا المنصب، وهو خلاف الإجماع. 5

وَلْتَكَلِّمُوا الْآنَ فِي حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصَّوَابُ فِي هَذِهِ الْمَذَاهِبِ، فنقول: إِنَّ الأحكامَ الشرعيةَ كُلَّهَا لا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدٍ وَحِكْمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا، وَتُشَرِّعُ لِأَجْلِهَا. وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنْ الْحِكْمَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرَشِيِّ وَمَقْصِدِ الشَّارِعِ مِنْهُ، لَمْ تَقْتَصِرْ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوُضْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا هُوَ فِي الْمَشْهُورِ، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوُضْعَةُ مَوْجُودَةً وَالتَّبَرُّكُ بِهَا حَاصِلًا؛ لَكِنَّ التَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ، فَلَا بُدَّ إِذَا مِنْ مَصْلَحَةٍ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ هِيَ الْمَقْصُودَةُ فِي مَشْرُوعِيَّتِهِ. وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا / لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اعْتِبَارَ الْعَصِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ، وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفُرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ الْمَنْصِبِ، فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا، وَيُنْتَظَمُ حَبْلُ الْأَلْفَةِ فِيهَا. وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا أَتَفَّ مُضَرٍ وَأَصْلُهُمْ وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ، وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرِ الْعِزَّةُ بِالْكَثَرَةِ وَالْعَصِيَّةِ وَالشَّرَفِ، فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْرِفُونَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَيَسْتَكِينُونَ لْغَلَبِهِمْ. فَلَوْ قَدْ جُعِلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتَوَقَّعَ اقْتِرَاقُ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ، وَعَدَمُ انْقِيَادِهِمْ؛ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قِبَالٍ مُضَرٍ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْكُزْهِ، فَتَفْتَرِقُ الْجَمَاعَةُ وَتَخْتَلِفُ الْكَلِمَةُ. وَالشَّارِعُ مُحَذِّرٌ مِنْ ذَلِكَ، حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ وَرَفْعِ التَّنَازُعِ وَالشَّتَاتِ بَيْنَهُمْ، لِتَحْصُلِ اللَّحْمَةِ

[131ب]

والعصبية وتحسن الحماية. بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش، لأنهم قادرون على سوق الناس بعض الغلب إلى ما يراد منهم، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فُرقة؛ لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها. فاشتراط نسبهم القرشي في هذا المنصب، وهم أهل العصبية القوية، ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الجماعة؛ وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع، فأذعن لهم سائر العرب، وانقادت 5 الأمم سيواهم إلى أحكام الملة، ووطئت جنودهم قاصية البلاد، كما وقع في أيام الفتوحات، واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة، وتلاشت عصبية العرب. ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر، من مارس أخبار العرب وسيرهم، ونظن لذلك من أحوالهم. وقد / ذكر ذلك ابن إسحاق في كتاب السير⁽¹⁾، وغيره.

10

وإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لرفع التنارع بما كان لهم من العصبية والغلب، وعلمنا أن الشارع، لا يخص الأحكام بجبل ولا عصر ولا أمة، علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية، فرددناه إليها وطردنا العلة المشتبهة على المقصود من القرشية، وهي وجود العصبية، فاشتراطنا في القائم بأمر المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية على من معها لعصرها، ليستتبعوا من سيواهم، وتجمع 15 الكلمة على حسن الحماية. ولا يعم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية؛ إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم. وإنما نخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة. وإذا

(1) لا يوجد في القسم المطبوع من الكتاب .

نَظَرَتْ سِرَّ الله فِي الْخِلَافَةِ لَمْ يَغْدُ هَذَا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِباً عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورٍ^(١) عِبَادِهِ لِيُخَمِّلَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيُزَجِّعَهُمْ عَنْ مَضَارِّهِمْ، وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ، وَلَا يُخَاطَبُ بِالْأَمْرِ مِنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ. أَلَا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ^(٢) فِي شَأْنِ النِّسَاءِ، وَأَنَّهُنَّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جُعِلْنَ تَبَعاً لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْخِطَابِ بِالْوَضْعِ، وَإِنَّمَا دَخَلْنَ عِنْدَهُ بِالْقِيَاسِ، وَذَلِكَ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَّامِينَ^(ب) عَلَيْهِنَّ، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ^(ج) فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَخِطَابُهُنَّ فِيهَا بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ. ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِداً بِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ جِيلٍ إِلَّا مِنْ غَلَبِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالِفاً لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[132ب]

10 27 / فصل، في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة

اعْلَمْ أَنَّ الشَّيْعَةَ لُغَةً هِيَ الصَّخْبُ وَالْأَتْبَاعُ، وَيُطْلَقُ فِي عَزْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْخَلْفِ وَالسَّلَفِ عَلَى أَتْبَاعِ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَمَذْهَبُهُمْ جَمِيعاً مُتَّفَقِينَ عَلَيْهِ: أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُقَوِّضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ، وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَغْيِينِهِمْ، بَلْ هِيَ زَكْنُ الدِّينِ وَقَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ، وَلَا يَجُوزُ لِلنَّبِيِّ إِغْفَالُهُ وَلَا تَقْوِيضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْإِمَامِ لَهُمْ، وَيَكُونُ مَعْصُوماً مِنَ الْكِبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ. وَأَنَّ عَلِيّاً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هُوَ الَّذِي عَيَّنَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ

(١) ج: بأمر (ب) ظل: قوامون (ج) ل: واحد.

(٢) هو ابن خطيب الرقي، محمد بن عمر الزاري، فخر الدين. (نريد التعريف به في المعجم)، ومعنى التثقل في مفاتيح الغيب 10: 90-91.

بُصُوص يَنْقُلُونَهَا وَيُؤَوِّلُونَهَا عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ، لَا يَعْرِفُهَا جَمَاهِدَةُ السُّنَّةِ وَلَا ثَقَلَةُ الشَّرِيعَةِ، بَلْ أَكْثَرُهَا مَوْضُوعٌ أَوْ مَطْعُونٌ فِي طَرِيقِهِ، أَوْ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ.

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ التَّصَوُّصُ عِنْدَهُمْ إِلَى جَلِيٍّ وَخَفِيِّ:

فَالْجَلِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ ⁽¹⁾: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ". قَالُوا: وَلَمْ تَطْرُدْ هَذِهِ

- 5 الْوَلَايَةُ إِلَّا فِي عَلِيٍّ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ: أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ ⁽²⁾: "أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ". وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِأُولِي الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتِهِمْ مِنْ اللَّهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء، من الآية 59]، وَالْمُرَادُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ، وَلِهَذَا كَانَ حَكْمًا فِي قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ دُونَ غَيْرِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ ⁽³⁾: "مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى زَوْجِهِ وَهُوَ ⁽¹⁾ وَصِيٌّ وَوَلِيٌّ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِي"، فَلَمْ يُبَايِعْهُ إِلَّا عَلِيٌّ.

وَمِنَ الْخَفِيِّ عِنْدَهُمْ بَعَثُ النَّبِيِّ ﷺ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي الْمَوْسِمِ حِينَ أَنْزَلَتْ؛ فَإِنَّهُ بَعَثَ بِهَا أَوَّلًا أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ أَوْجَى إِلَيْهِ: لِيُبَلِّغَهُ رَجُلًا مِنْكَ أَوْ مِنْ قَوْمِكَ،

(1) ل: فهو .

(1) هذه الجملة من الحديث ذكرت عن عدد من الصحابة، منهم: علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن أرقم، وبريدة بن الحصيب وغيرهم. جمعهم الذهبي في رسالة ساءها: طرق حديث من كنت مولاه فعلي مولاه. حققها السيد عبد العزيز الطباطبائي. وطبعت في طهران سنة 1423 هـ .

(2) هذا ليس من الحديث، إنما هو من قول عمر بن الخطاب، أخرجه ابن سعد في طبقاته 2: 339، والحاكم 3: 305، ونصه: علي أقضانا وأبي أقرؤنا . انظر تاريخ الإسلام 2: 362- .

(3) لم أقف عليه .

/ فَبَعَثَ عَلِيًّا لِيَكُونَ الْقَارِيءَ الْمُبْلَغَ. قالوا: وهذا يدلُّ على تَقديمِ عَلِيٍّ؛ وأيضاً فلم يُعَرَفْ أَنَّهُ قَدَّمَ أَحَدًا عَلَى عَلِيٍّ. وأما أبو بكر وعمر فقد قَدَّمَ عليهما في غزائين، أَسَامةُ ابن زَيْدٍ مَرَّةً، وعُمرو بن العاصِ أُخْرَى .

وهذه كُلُّها أدِلَّةٌ شاهِدَةٌ بتعيينِ عَلِيٍّ للخِلافةِ دونِ غَيْرِهِ. فَمِنْهَا ما هُوَ غَيْرُ معروفٍ، ومنها ما هُوَ بَعِيدٌ عن تَأْوِيلِهِمْ . 5

ثم منهم من يرى أَنَّ هذه النُّصوصَ تَدُلُّ على تَعْيِينِ عَلِيٍّ ^(أ) وتَشْخِصِهِ، وكذلك تَنْتَقِلُ مِنْهُ إلى مَنْ بَعْدَهُ ، وهؤلاء هم الإماميَّةُ ، وَيَتَبَرَّأونَ مِنَ الشَّيْخِينَ حينَ لم يُقَدِّمُوا عَلِيًّا وَيُبايِعُوهُ بِمُقْتَضَى هذه النُّصوصِ ، يَغْمَصُونَ في إِمَامَتِهَا . ولا نَلْتَفِتُ ^(ب) إلى نَقْلِ القَدَحِ فِيهَا مِنْ غُلَاتِهِمْ ، فهو مَزْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ.

ومِنْهُمْ من يَقُولُ إِنَّ هذه الأدِلَّةَ إِنَّمَا اقْتَضَتْ تَعْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوَصْفِ لا بالشَّخْصِ، 10 والنَّاسُ مُقَصِّرُونَ حيثُ لم يَضَعُوا الوَصْفَ مَوْضِعَهُ، وهؤلاء هم الزَّيْدِيَّةُ، ولا يَتَبَرَّأونَ مِنَ الشَّيْخِينَ ولا [يَغْمَصُونَ] ^(ج) في إِمَامَتِهَا، مع قَوْلِهِمْ بَأَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهَا، لَكِنْهُمْ يُجَوِّزُونَ إِمَامَةَ الْمُفْضُولِ مع وُجُودِ الْأَفْضَلِ.

ثم اِخْتَلَفَ هؤلاء الشَّيْعَةُ في مَسَاقِ الخِلافةِ بَعْدَ عَلِيٍّ:

فَمِنْهُمْ من سَاقَهَا في وَلَدِ فَاطِمَةَ بالنِّصِّ عَلَيْهِمْ واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ، على ما نَذَكَرَ 15 بَعْدَ؛ وهؤلاء يُسَمُّونَ الإِمَامِيَّةَ، نِسْبَةً إلى مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ الإِمَامِ وتَعْيِينِهِ في الإِيْمَانِ، وهي أَضَلُّ مَذْهَبِهِمْ.

(أ) ل: تَعْيِينُهُ (ب) ل: يَلْتَفِتُ (ج) ظ: يَغْمَضُونَ .

ومنها من ساقها في وُلد فاطمة، لكن بالاختيار من الشيعة. ويُشترط أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً، ويُخرج داعياً إلى إمامته؛ وهؤلاء هم [133ب] الزيدية، نسبةً إلى صاحب المذهب، وهو زيد / بن علي بن الحسين السبط، وقد كان يُناظر أخاه محمداً الباقر على اشتراط الخروج في الإمام، فيُلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين إماماً لأنه لم يخرج ولا تقرر للخروج. وكان من ذلك 5 يتنعى عليه مذاهب المعتزلة وأخذة إياها عن واصل بن عطاء. ولما ناظر الإمامية زيداً في إمامة الشيخين ورأوه يقول بأمامتهما ولا يتبرأ منهما، رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سُموا رافضة.

ومنها من ساقها بعد عليّ أو ابنه السبطين، على اختلافهم في ذلك، إلى أخيها محمد بن الحنفية، ثم إلى ولده، وهم الكيسانية، نسبةً إلى كيسان موله. 10 وبين هذه الطوائف اختلافات تركناها اختصاراً.

وفيهم طوائف يُسمون الغلاة، تجاوزوا حدود العقل والإيمان في القول بالاهية⁽¹⁾ هؤلاء الأئمة؛ إما على أنه بشر اتصف بصفات الألوهية؛ أو أن الإله حل في ذاته البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذاهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه. ولقد حرق عليّ رضي الله عنه بالنار من ذهب إلى ذلك فيه منهم؛ وسخط 15 محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه، فصرح بلغته والبراءة منه؛ وكذلك فعل جعفر الصادق بمن بلغه مثل هذا عنه.

(1) ل : غُيرت إلى الوهية .

ومنها من يقول إنَّ كمالَ الإمام لا يكونُ لغيره، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال؛ وهو قول بالتناسخ.

ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزُه إلى غيره، بحسب من تعيَّن لذلك عندهم، وهؤلاء هم الواقفية.

5 فبعضهم يقول: هو حيٌّ لم يمُتْ، إلّا أنه غائبٌ عن أعين الناس، ويستشهدون لذلك بقضية الحضر. / قيل مثل ذلك في عليّ رضي الله عنه، وأنه في السحاب، [134] والرعدُ صوته، والبرقُ سوطه. وقالوا مثله في محمد بن الحنفية، وإنه في جبل رضى من أرض الحجاز، قال شاعرهم كثير⁽¹⁾: [من الوافر]

10 أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَاؤُا الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ^(أ)
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ^(ب) وَسِبْطٌ غَيْبُهُ كَرَبْلَاءُ
وَسِبْطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ^(ج) يَقْدُمُهُ اللَّوَاءُ
تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ^(د) زَمَانًا بَرَضَوَى، عِنْدَهُ غَسْلٌ وَمَاءُ

15 وقال مثله غلاة الإمامية، وخصوصاً الاثنا عشرية منهم، يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسكري، ويلقبونه المهدي، دخل في سزداب بدارهم بالحلة، وتغيّب حين اغتقل مع أمّه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر

(أ) رواية الديوان: هم أسباطه والأوصياء (ب) الديوان: وحلم (ج) الديوان: الحيل يقدم (د) الديوان: عنهم.

الزَّمانَ فَمِلاً الْأَرْضَ عَذْلاً؛ يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ⁽¹⁾ فِي الْمَهْدِيِّ؛ وَهُمْ إِلَى الْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ، وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لَذَلِكَ، وَيَقِفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِيَابِ هَذَا السُّرْدَابِ، وَقَدْ قَرَّبُوا مَزَكِباً، فَيَهْتِفُونَ بِاسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلخُرُوجِ، حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ، [ثُمَّ يَنْفُضُونَ]⁽¹⁾ وَيُرْجِئُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ [هَذَا]⁽¹⁾ الْعَهْدِ.

5

وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ الْوَاقِعِيَّةِ يَقُولُ: إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا. وَيَسْتَشْهَدُونَ لَذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، وَقَتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِذَنْجِهَا. وَمِثْلُ ذَلِكَ / مِنْ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ الْمُعْجَزَةِ^(ب)، فَلَا يَصِحُّ الِاسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا. وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ، وَمَنْ شِغْرُهُ فِي ذَلِكَ⁽²⁾ : [مَنْ الْوَافِر]

10

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَدَالٌ وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِطُ بِالْخِضَابِ
فَقَدْ ذَهَبَتْ^(ج) بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى فَقُمَ بِأَصْحَابِ تَبَكٍّ عَلَى الشَّبَابِ
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْإِيَابِ^(د)
إِلَى يَوْمٍ يَوُوبُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَاهُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ

(أ) سقط من ظ وحدها (ب) ل: الإعجاز (ج) الديوان: ولت (د) الديوان: المآب .

(1) ليس في الأحاديث التي أخرجها الترمذي في المهدي هذه الألفاظ، وهي ثلاثة أحاديث (2230) و(2231) و(2232) على أنه ورد من حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود (4285) وفي حديث علي (4283).

(2) ديوانه : 120 .

أَدِينُ بَأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ وما أنا في النُّشُورِ بذِي اِزْتِيَابِ
كَذَاكَ اللَّهُ أَخْبَرَ عَنْ أَنَاسٍ حَيُّوا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي التَّرَابِ

وقد كفانا مَوُونَةً هؤلاء الغُلَاةُ أُمَّةُ الشَّيْعَةِ ، فإنَّهم لا يَقُولُونَ بها ، وَيُطِيلُونَ
اِخْتِجَاجَتِهِمْ عَلَيْهَا .

5 فَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ ، فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِي
هَاشِمٍ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ . ثُمَّ افْتَرَقُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ إِلَى
ابْنِهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ . وَآخَرُونَ زَعَمُوا أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ [الشَّرَاقِ] ^(أ)
مُنْصَرِفًا مِنَ الشَّامِ ، أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَوْصَى مُحَمَّدَ
إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْإِمَامِ ، وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ ،
10 الْمَلَّاقِبَ بِالسَّفَاحِ ، وَأَوْصَى هُوَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَلَّاقِبَ بِالْمُنْصُورِ ،
وَانْتَقَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالنِّصِّ بِالْعَهْدِ ^(ب) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ . وَهَذَا مَذْهَبُ
الْهَاشِمِيَّةِ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ . وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ ، وَأَبُو
سَلَمَةَ الْحَلَّالُ ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ شَيْعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ . وَرَبَّمَا يَتَّعُذُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِي هَذَا
الْأَمْرِ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ ، لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا عِنْدَ الْوَفَاةِ ، وَهُوَ أَوْلَى بِالْوِرَاثَةِ بِعَصْبَةِ
15 الْعُمُومِيَّةِ ^(ج) .

[135] وَأَمَّا الزُّرِّيَّةُ ، / فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِيهَا ، وَأَنَّهَا بِاخْتِيارِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ
لَا بِالنِّصِّ . فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ ابْنِهِ الْحَسَنِ ، ثُمَّ أَخِيهِ الْحُسَيْنَ ، ثُمَّ ابْنَهُ عَلِيَّ بْنَ زَيْنِ

(أ) من ع ، وفي بقية الأصول محملة : السراة (ب) من ظ ، وفي بقية النسخ : والفهد (ج) من ظ ج ع ، وفي ل ي : السومة .

العابدين، ثم ابنه زَيْد بن عليّ، وهو صاحب هذا المذهب. وخرج بالكوفة^(١) داعيًا إلى الإمامة، فقتل وصُلب بالكُناسة .

وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده ، فمضى إلى خراسان ، وقتل بالجوزجان، بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط؛ ويقال له النفس الزكية ؛ فخرج بالحجاز وتلقب بالمهديّ، وجاءته عساكر المنصور فهزم 5 وقتل، وعهد بالأمر إلى أخيه إبراهيم، فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زَيْد بن عليّ، فَرَحَفَ إليهم المنصور في عساكره، أو قَوَّاهُ^(ب)، فهزم، وقتل إبراهيم وعيسى؛ وكان جَعْفَرُ الصّادق قد أخبرهم بذلك كلّهُ، وهي معدودة في كراماته .

وذهب آخرون منهم إلى أنّ الإمامَ بعدَ محمد بن عبد الله النفس الزكية، هو محمد بن القاسم بن عليّ بن عليّ بن عمر، وعُمَرُ هو أخو زَيْد بن عليّ، فخرج محمد 10 ابن القاسم بالطالقان، فقبض عليه وسيق إلى المعتصم، فحبسه، ومات في محبسه.

وقال آخرون من الزيدية: إنّ الإمامَ بعدَ يحيى بن زَيْد هو أخوه عيسى الذي حضرَ مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور، ونقلوا الإمامة في عقبه، وإليه انتسب دعيُّ الرّج، كما نذكره في أخبارهم.

وقال آخرون من الزيدية: إنّ الإمامَ بعدَ محمد بن عبد الله، أخوه إدريس 15 الذي فرَّ إلى المغرب ومات هنالك، وقام بأمره ابنه إدريس بن إدريس، واحتطَّ مدينةً فاس، وكان من بعده عقبه مُلوكةً بالمغرب إلى أن انقرضوا، كما نذكر في أخبارهم.

(١) ظ: إلى الكوفة (ب) كذا ضبطت في ل ع على معنى الشكّ فيمن تولّى الرحف، فتكون فاعيل رحف .

وَبَقِيَ أَمْرُ الزَّيْدِيَّةِ بَعْدَ / ذَلِكَ غَيْرُ مُنْتَظِمٍ. وَكَانَ مِنْهُمْ الدَّاعِي الَّذِي مَلَكَ [135ب]

طَبْرِسْتَان، وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ الْحَسَنِ السَّبْطِ، وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ. ثُمَّ قَامَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ فِي الدَّيْلَمِ النَّاصِرُ الْأَطْرُوشُ مِنْهُمْ، وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ، وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ، وَعُمَرُ أَخُو زَيْدِ ابْنِ عَلِيٍّ، فَكَانَتْ لَبْنِيهِ فِي طَبْرِسْتَانِ دَوْلَةً، وَتَوَصَّلَ الدَّيْلَمُ مِنْ سَبْيِهِمْ إِلَى الْمَلِكِ 5 وَالْإِسْتِنْدَادِ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ، كَمَا نَذَكُرُ فِي أَخْبَارِهِمْ.

وَأَمَّا الْإِمَامِيَّةُ، فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيِّ الْوَصِيِّ ^(أ) إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ بِالْوَصِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ، ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَمِنْ هُنَا افْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ:

فَفِرْقَةٌ سَاقَوْهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَيُعَرِّفُونَهُ بَيْنَهُم بِالْإِمَامِ، وَهُمْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ. 10 وَفِرْقَةٌ سَاقَوْهَا إِلَى ابْنِهِ مُوسَى الْكَاطِمِ، وَهُمْ الْإِسْنَاءُ عَشَرِيَّةُ، لَوْ قُوفُهُمْ عِنْدَ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَيِّمَةِ، وَقَوْلُهُمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، كَمَا مَرَّ.

فَأَمَّا الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ بِالنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ، وَفَائِدَةُ النَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ، وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ، إِنَّمَا هِيَ بَقَاءُ الْأَيِّمَةِ ^(ب) فِي عَقِبِهِ، كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا. 15

قَالُوا: ثُمَّ انْتَقَلَتِ الْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ الْمَكْتُومِ، وَهُوَ أَوَّلُ الْأَيِّمَةِ الْمُسْتَوْرِينَ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا تَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَرُّ، وَيَكُونُ دُعَاةَ

(أ) كَذَا فِي ظ ع ج، وَفِي ل ي: الرَضِيِّ (ب) مِنْ ظ، وَفِي الْأَصُولِ الْأُخْرَى: الْإِمَامَةُ.

ظاهرين ، إقامة للحجة على الخلق ، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته .
 قالوا: وبعد محمد المكنوم ابنه جعفر المصدق؛ وبغده ابنه محمد الحبيب وهو آخر
 المستورين؛ وبغده ابنه عبيد الله المهدي الذي ظهر داعيته / أبو عبد الله الشيعي [i136]
 في كتامة، بايع الناس على دعوته، ثم أخرجته من معتقله بسجلماطة، وملك القيروان
 والمغرب، وملك بنوه من بغده مصر كما هو معروف في أخبارهم.

5

ويسمى هؤلاء الإسماعيلية، نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل ، ويسمّون
 أيضاً الباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام الباطن أي المستور . ويسمّون أيضاً الملحدة
 لما في ضمن مقالاتهم من الإلحاد . ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة ، دعا إليها
 الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة ، وملك حصوناً بالشام والعراق ،
 ولم تزل دعوته [قائمة⁽¹⁾] فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك
 [الظفر]^(ب) بالعراق فانقرضت. ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل
 والنحل للشهرستاني⁽¹⁾ .

10

وأما الاثنا عشرية - وربما خُصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم - فقالوا
 بإمامة موسى الكاظم بن جعفر، لوفاة أخيه الأكبر إسماعيل الإمام في حياة أبيهما
 جعفر، فنص على إمامة موسى هذا، ثم ابنه علي الرضا، الذي عهد إليه المأمون،
 15 ومات قبله فلم يمت له أمر، ثم ابنه محمد التقي، ثم ابنه علي الهادي، ثم ابنه الحسن
 العسكري، ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدّمنا ذكره .

(أ) من ل (ب) من ع ج ل ي، وفي ط: الطرطر، ويزع على الطاء قطتين لضبط النطق .

(1) الملل والنحل 1: 195 .

وفي كل واحد من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير؛ إلا أن هذه أشهر مذهبهم، ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتب الملل والنحل لابن خزم والشهرستاني وغيرهما، ففيها بيان ذلك. والله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النحل، من الآية 93] .

5 28 • فصل، في انقلاب الخلافة إلى الملك

اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصية، ليس وقوعه عنها / باختيار، إنما هو [136ب] بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل، وأن الشرائع والديانات وكل أمر يُحمَلُ عليه الجمهور فلا بُدَّ فيه من العصية، إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدّمناه؛ فالعصية ضرورة للملة، وبوجودها يتم أمر الله منها. وفي الصحيح⁽¹⁾: "ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه". 10

ثم وجدنا الشارع قد⁽¹⁾ ذمَّ العصية ونذَّب إلى اطراحها وتركها، فقال⁽²⁾: "إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، أنتم بنو آدم وآدم من تراب"، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات، من الآية 13]. وَوَجَدْنَاهُ أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ وَأَهْلَهُ، وَنَعَى عَلَى أَهْلِهِ أَخْوَالَهُمْ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالْخُلَاقِ

(1) سقط من ل .

(1) تقدّم ذكره وتخريجه في صفحتي 168، 277.

(2) أخرجه أحمد 2: 361، والترمذي (3956) وهو آخر حديث في كتابه، وأبو داود (5116)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (3458)، والبيهقي في السنن الكبرى 10: 232 وفي شعب الإيمان (5126) و(5127) و(5128) .

والإسراف في غير القصد، والتشكّب عن صراط الله، وإنّما حَصَّ على الألفة في الدين، وحذّر من الخلاف والفرقة .

واعلم أنّ الدنيا وأحوالها كلّها عند الشارع مطيئة للآخرة، ومن فقد المطيئة فقد الوصول. وليس مُرادُه فيما ينهى عنه أو يذمّه من أفعال البشر، أو يندب إلى تركه، إهماله بالكليّة أو اقتلاعه من أصله، وتعطيل القوى التي نشأ عليها بالكليّة ، 5
إنّما قصده تصريفها في أغراض الحقّ جهد الاستطاعة ، حتّى تصير المقاصد كلّها حقّاً وتتحّد الوجهة ، كما قال ﷺ⁽¹⁾ : "من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه". فلم يذمّ الغضب وهو يقصد نزعَه من الإنسان، فإنّه لو زالت منه قوّة الغضب لفقد منه الانتصار للحقّ ، وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله به ؛ وإنّما يذمّ الغضب 10
للسّيطان والأغراض الذميمة ؛ فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً ، وإذا كان الغضب⁽¹⁾ في الله ولله كان ممدوحاً ؛ وهو من شمائله ﷺ . وكذا ذمّ الشهوات / أيضاً^(ب) ، ليس المراد إبطالها بالكليّة؛ فإنّ من بطلت شهوته كان نقصاً في حقّه؛ 137
وإنّما المراد تصريفها فيما أبيع له باشتاله على المصالح؛ ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوعاً أوامر الإلهية. وكذا العصبية حيث ذمّها الشرع، وقال: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ 15
أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ [سورة المتحنة، من الآية 3]، فإنّما مُرادُه حيث تكون العصبية

(1) من ع ج ل ي، وسقط من ظ (ب) سقط من ل .

(1) هو في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب، وبه افتتح البخاريّ صحيحه (1)، وهو في الجهاد عند مسلم (1907) .

على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهليّة، وأن [لا] ^(أ) يكون لأحدٍ فخرٌ بها أو حقٌّ على أحدٍ، لأنّ ذلك مَجَانٌّ من أفعال العقلاء، وغيرُ نافعٍ في الآخرة التي هي دارُ القرار. فأما إذا كانت العصبيّة في الحق وإقامة ^(ب) أمرِ الله، فأمرٌ ^(ج) مطلوبٌ، ولو بطلَ لبطلت الشرائع، إذ لا يَتِمُّ قوامُها إلّا بالعصبيّة كما قلناه من قبل. وكذا الملكُ، لما ذمّه الشارع لم يذمّ منه الغلبُ بالحق وقهر الكافة على الدين، ومُراعاة المصالح؛ وإنّما ذمّه لما فيه من التغلّب بالباطل وتَضْريف الأدميين طَوْعَ الأغراض والشّهوات كما قلناه. فلو كان الملكُ مُخلصاً في غلبه للناس أنّه الله، ويَجْمِلُهُمْ على عبادة الله وجهادِ عَدُوّه لم يكن ذلك مذموماً .

وقد قال سليمانُ صلوات الله عليه : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [سورة ص، من الآية 35]؛ لما علم من نفسه أنّه يَمُغْزِلُ عن الباطل في الثبوة والملك.

ولما لَقِيَ مُعاويةَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عند قُدومه إلى الشَّامِ في أُمِّهِهِ الْمَلِكِ وَزِيرِهِ من العديد والعُدّة، اسْتَنَكَّرَ ذلك، وقال: أَكْسَرِيَّةٌ يَا مُعاويةُ؟! فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّا فِي ثَقَرِ تَجَاةِ الْعَدُوِّ، وَبنا إلى مُبَاهَاتِهِمْ بَزِينَةَ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ؛ فَسَكَتَ وَلَمْ يُخَطِّئْهُ لِمَا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالْدِّينِ. فلو كان الْقَضْدُ رَفَضَ الْمَلِكُ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يُقْنِعْهُ هَذَا الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرِيَّةِ وَاتِّحَالِهَا، بَلْ كَانَ يَحْرِصُ عَلَى خُرُوجِهِ مِنْهَا بِالْجُمْلَةِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكِسْرِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ / فِي مُلْكِهِمْ مِنْ اِزْتِكَابِ [137ب] الْبَاطِلِ وَالتَّغْيِي وَسُلُوكِ سُبُلِهِ، وَالْغَفْلَةِ عَنْ اللَّهِ؛ وَأَجَابَهُ مُعاويةُ بِأَنَّ الْقَضْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِيسْرِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلُهُمْ، وَإِنَّمَا قَضْدُهُ ^(د) بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَسَكَتَ.

(أ) من ل (ب) ي: وأقاموا (ج) ل: فهو أمر (د) ل: قضد .

وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده ، حذراً من التباسها بالباطل .

فلما استخضر رسول الله ﷺ، استخلف أبا بكرٍ على الصلاة، إذ هي أهم أمور الدين، وارتضاه الناس للخلافة، وهي تحمل الكافة على أحكام الشريعة. ولم يجز للملك ذكر، لما أنه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين. فقام 5 بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعا سنن صاحبه، وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الإسلام.

ثم عهد إلى عمر فاتبع أثره، وقاتل الأمم فغلبهم، وأذن للعرب في اثتراع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه، واثرعوه منهم. ثم صارت إلى عثمان، ثم إلى علي؛ والكل متبرئون من الملك منكبون عن طرقة. 10

وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الإسلام وبدَاوة العرب. فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال⁽¹⁾ الدنيا وترفها، لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في التعميم، ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم، وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفیه الذي ألفوه.

فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر، لما كانوا بالحجاز في أرض 15 غير ذات زرع ولا ضرع، وكانوا ممنوعين من الأزياف وحُبوبها، لبُعدها واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن؛ فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها؛ ولقد

(1) ل: زينة .

كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والحنافس، ويفخرون بأكل العلّهر، وهو وَبَرُ الإبل
يَمُوهة بالحجارة في الدّم ويَطْبُخُونَهُ. وقريباً من هذا كانت حالُ قُرَيْشٍ في مطاعِمهم
ومساكنهم .

- [138] حتى إذا اجتمعت / عَصِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ بُيُوتِ
5 مُحَمَّدٍ ﷺ، زَحَفُوا إِلَى أُمَمِ فَارِسٍ وَالرُّومِ، وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَوْعِدِ
الصَّدَقِ؛ فَابْتَزَوْا مُلْكَهُمْ، وَاسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ، فَزَحَرَتْ بِحَارُ الرَّفْهِ لَدَيْهِمْ، حَتَّى كَانَ
الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقَسِّمُ لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ ⁽¹⁾ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوِهَا،
فَاسْتَوَلَوْا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ الْحَضَرُ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى خُشُونَةٍ عَيْنِشَهُمْ؛
فَكَانَ عُمَرُ يُرَقِّعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ: يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ، عُرِّي غَيْرِي. وَكَانَ
10 أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ لِقَلَّتْهَا يَوْمئِذٍ، وَكَانَتْ
الْمَنَاخِلُ ^(ب) مَفْقُودَةً عَنْدهُمْ بِالْجُمْلَةِ، وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ الْحِنْطَةَ بِنُخَالِهَا . وَمَكَاسِبُهُمْ مَعَ هَذَا
أَتَمَّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ .

- قال المسعودي ⁽¹⁾: فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ اقْتَنَى الصَّحَابَةُ الضِّيَاعَ وَالْمَالَ، فَكَانَ لَهُ يَوْمَ
قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ، وَأَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ؛ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي
15 الْقُرَى وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا، مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ، وَخَلْفَ إِبِلًا وَخَيْلًا كَثِيرَةً.
وَبَلَغَ الثَّمَنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَثْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَخَلْفَ
أَلْفِ قَرِيسٍ وَأَلْفِ أَمَةٍ.

(1) فِي الْأَصُولِ كُلُّهَا: ثَلَاثِينَ (ب) مِنْ ظ، وَفِي ع ج ل ي: الْمَنَاخِيلُ .

(1) مَرُوحُ الذَّهَبِ 76/3، 579 - 582 .

وكانت غَلَّةٌ طَلْحَةٌ من العراق ألف دينار كلَّ يوم، ومن ناحية الشَّراة أكثر من ذلك.

وكان على مَرْبُط عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ألف فرس، وله ألف بَعِيرٍ وَعَشْرَةُ آلاف من الغنم، وبلغ الرُّبْعُ من مَتْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا.

5 وخَلَفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ بِالْفُؤُوسِ، غَيْرَ مَا خَلَفَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفٍ دِينَارٍ .

وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ بِالْبَصْرَةِ، وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةَ.

وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ بْنُ دَارَةَ بِالْكُوفَةِ، وَشَيْدُ دَارَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَبَنَاهَا / بِالْجِصِّ [138ب] وَالْأَجْرُ وَالسَّاجِ .

10 وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَتِيقِ، وَرَفَعَ سَمَكَهَا، وَأَوْسَعَ فُضَاءَهَا، وَجَعَلَ عَلَى أَغْلَاهَا شُرُفَاتٍ.

وَبَنَى الْمُقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ، وَجَعَلَهَا مُجَصَّصَةً الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ .

وَخَلَفَ يَغْلَى بْنُ مُنِيَّةٍ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَعِقَارًا وَغَيْرَ ذَلِكَ، مَا قِيمَتُهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ. انْتَهَى كَلَامُ الْمُسْعُودِيِّ .

15 فَكَانَتْ مَكَايِسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنَعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ، إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ حَلَالٌ لِأَنَّهَا غَنَائِمٌ وَ[فُيُوءٌ] ^(١)، وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ، إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي أَخْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَا؛ فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ [فِيهِمْ] ^(ب). وَإِنْ كَانَ الْإِسْتِكْثَارُ مِنْ

(١) فِي ظ وَحْدَهَا: فِيءٌ (ب) سَقَطَ مِنْ ظ .

الدُّنْيَا مَذْمُومًا، فَإِنَّمَا يَرْجَعُ إِلَى مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِشْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ. وَإِذَا كَانَ حَالُهُمْ قَصْدًا وَتَفَقُّهُمُ فِي سُبُلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ، كَانَ ذَلِكَ الْاِسْتِكْثَارَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْحَقِّ وَاِكْتِسَابِ الدَّارِ الْآخِرَةِ . فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الْبَدَاوَةُ وَالْغَضَاضَةُ إِلَى نِهَايَتِهَا، وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ كَمَا قُلْنَا، وَحَصَلَ التَّغْلِبُ 5 وَالْقَهْرُ، كَانَ حُكْمُ ذَلِكَ الْمُلْكِ عِنْدَهُمْ حُكْمَ الرَّفَّةِ وَالْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ؛ فَلَمْ يَصْرِفُوا ذَلِكَ التَّغْلِبَ فِي بَاطِلٍ، وَلَا خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِّ.

وَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ ، وَهِيَ مُقْتَضَى الْعَصِيَّةِ ، كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقُّ وَالْاجْتِهَادَ ، وَلَمْ يَكُونُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ لِمُغَرِّضِ دُنْيَوِيٍّ، أَوْ لِإِثَارِ بَاطِلٍ، أَوْ لَاسْتِشْعَارِ حَقْدٍ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ مُتَوَهِّمٌ^(١)، أَوْ يَنْزِعَ إِلَيْهِ مُلْجِدٌ. وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِّ، وَخَالَفَ كُلُّ وَاحِدٍ نَظَرَ صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِّ، فَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلِيًّا فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَائِمًا فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ؛ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ. وَالْكُلُّ 10 كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ .

ثُمَّ اقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الْاِثْقَارَ / بِالْمَجْدِ وَاسْتِثْنَاءِ الْوَاحِدِ بِهِ. وَلَمْ يَكُنْ 15 لِمُعَاوِيَةَ أَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ سَاقَتْهُ الْعَصِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا، وَاسْتَشْعَرَتْهُ بَنُو أُمَيَّةٍ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي اقْتِضَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، فَاعْصَوْصَبُوا عَلَيْهِ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ . وَلَوْ قَدْ حَمَلَهُمْ مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي الْاِثْقَارِ بِالْأَمْرِ، لَوَقَعَ فِي افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيفُهَا أَهْمٌ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرُ مُخَالَفَةٍ . وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَاسِمَ

(١) سقط من ل .

ابن محمد ابن أبي بكر : لو كان لي من الأمر شيء لوليتُه الخلافة . ولو أراد أن يفهد إليه لفعل ؛ لكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه ؛ فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة .

وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية . فالمملك إذا حصل ، وقرضنا أن الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه ، لم يكن 5 في ذلك تكير عليه . وقد انفرد سليمان ، صلوات الله عليه ، وأبوه داوود بملك بني إسرائيل ، لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به ، وكانوا ما علمت من النبوة والحق . وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة ، بما كان بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر لمن سواهم . فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه ؛ مع أن ظنهم كان به صالحاً ، و⁽¹⁾ لا يرتاب أحد في ذلك ، ولا يظن بمعاوية غيره ؛ فلم 10 يكن ليفهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق ، حاشا لله لمعاوية من ذلك .

وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه ، وإن كانوا ملوكاً ، فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي ؛ إنما كانوا متحريين لمقاصد الحق مجتهدهم / إلا في [139ب] ضرورة تحميلهم على بغضها ، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهمّ لديهم من كل مقصد . يشهد [لذلك] ^(ب) ما كانوا عليه من الاتباع والافتداء ، وما علم السلف من 15 أخوالهم . فقد احتج مالك في الموطأ⁽¹⁾ بعمل عبد الملك ، وأما مروان فكان من

(1) سقط من ل (ب) في ظ وحدها: لك .

(1) احتج بعمله في جملة مسائل ، انظر الموطأ 2: 278 (رقم 2146) و 2: 344 (رقم 2287) ، واحتج بقضائه فيما يجب فيه القتل العمد 2: 444 (رقم 2555) .

الطبقة الأولى من التابعين، وفضله معروف، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه؛ وتوسّطهم عمر بن عبد العزيز، ونزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابه جُهدَه، ولم يُنهَل. ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتداد الحق في مذهبها. فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعو عليهم أفعالهم. 5 وأدالوا بالدعوة العباسية منهم.

وولي رجالها الأمر، فكانوا من العدالة بكان، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذهبه ما استطاعوا؛ حتى جاء بنو الرشيد من بعده، فكان منهم الصالح والطالح، ثم أفضى الأمر إلى بنيهم، فأعطوا الملك والترف حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها، 10 وتبدوا الدين وراءهم ظهرياً، فتأذن الله بحزبهم، واثناع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه. وإن [الله لا يظلم مثقال ذرة] ﴿سورة النساء، من الآية 40﴾.

ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك، واختلافهم في تحري الحق من الباطل، علم صحة ما قلناه. وقد حكى المسعودي⁽¹⁾ مثله في أحوال بني أمية، عن أبي جعفر المنصور، وقد حضر غمومته وذكروا بني أمية، فقال: أما عبد الملك فكان 15 جباراً لا يُبالي بما صنع؛ وأما سليمان فكان همة بطنه وفرجه؛ وأما عمر فكان أغور بين غميان، وكان رجل القوم هشام. قال: ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من / السلطان، يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه، مع تسنيهم معالي الأمور [140] ورفضهم أدانيها، حتى أفضى الأمر إلى أبناءهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات،

(1) مروج الذهب 130/4 (2374-2376).

وركوب اللذات من معاصي الله، جهلاً باستدراجِه وأمثا لِمَكْرِه، مع اطراحهم صيانة
الخِلافة، واستخفافهم بحق الرئاسة، وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العِزَّ،
وألَبَسهم الذُّلَّ، ونَقَى عنهم النِّعمة.

ثم استَحْضَرَ عبدَ الله بنَ مَروانَ، فَقَصَّ عليه خبرَه مع مَلِكِ الثُّوبَةِ ، لما
دخلَ أَرْضَه فارًّا أَمَامَ^(أ) بني العباس، قال: أَقَمْتُ مَلِيًّا^(ب) ثُمَّ أَتَانِي مَلِكُهُمْ، فَقَعَدَ عَلَيَّ
5 الأَرْضِ^(ج) وَقَدْ بُسِطَتْ لِي فُرُشُ ذَاتِ قِيَمَةٍ ، فَقُلْتُ : مَا مَنَعَكَ مِنَ الْقُعُودِ عَلَيَّ
ثِيَابِنَا، فَقَالَ : إِنِّي مَلِكٌ ، وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِعَظَمَةِ اللَّهِ إِذْ رَفَعَهُ اللَّهُ . ثُمَّ
قَالَ لِي : لَمْ تَتَشَرَّبُوا الْخَمْرَ وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ ؟ فَقُلْتُ : اجْتَرَأَ عَلَى ذَلِكَ
عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا، قَالَ : فَلِمَ تَطْوُونَ الزَّرْعَ بِدَوَابِّكُمْ وَالْفَسَادُ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ ؟
10 قُلْتُ : فَعَلَ ذَلِكَ عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا بِجَهْلِهِمْ ، قَالَ : فَلِمَ تَلْبَسُونَ الدِّيَاجَ وَالذَّهَبَ
وَالْحَرِيرَ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ ؟ قُلْتُ : ذَهَبَ مِنَّا الْمُلْكُ وَانْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ
الْعَجَمِ ، دَخَلُوا فِي دِينِنَا فَلَبَسُوا ذَلِكَ عَلَى الْكُرْهِ مِنَّا . فَأَطْرَقَ يَنْكُتٌ بِيَدِهِ فِي
الأَرْضِ ، وَيَقُولُ : عَبِيدُنَا ، وَأَتْبَاعُنَا ، وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا فِي دِينِنَا !! ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ
وَقَالَ : لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ ! بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ اسْتَظَلَّمْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ نُهَيْتُمْ ،
15 وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكَتُمْ ، فَسَلَبَكُمْ اللَّهُ الْعِزَّ وَالْبَسَكُمْ الذُّلَّ بِذُنُوبِكُمْ ؛ وَلِلَّهِ نَقْمَةٌ لَمْ تَبْلُغْ
غَايَتَهَا فِيكُمْ ، وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ^(د) الْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِيَلَدِي فِينَالْنِي مَعَكُمْ ، وَإِنَّمَا
الضِّيَافَةُ ثَلَاثٌ ، / فَتَزَوَّدْ مَا احْتَجَّجْتَ إِلَيْهِ وَارْتَحِلْ عَنْ أَرْضِي^(هـ) . فَتَعَجَّبَ الْمَنْصُورُ
[140ب] وَأَطْرَقَ .

(أ) من ظ ج ع. وفي ل ي: أيام (ب) في المروج: ثلاثا وهو أصوب (ج) ل: التراب (د) ل: عليكم (هـ) سقط من ل.

فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك، وأن الأمر كان في أوله خلافة، ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم، وإن أفضت إلى هلاكهم وخدّهم دون الكافة. فهذا عثمان لما حُصر في الدار، جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه، فأبى، ومنع من سلّ السيف بين المسلمين، مخافة الفرقة، وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة، ولو أدى إلى هلاكه. وهذا عليّ أشار عليه المغيرة لأوّل ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم، حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة، وله بعد ذلك ما شاء من أمره، وكان ذلك من سياسة الملك؛ فأبى، فإرارا من الغش الذي ينافيه الإسلام. وعدّا عليه المغيرة من الغداة فقال: أشرت عليك بالأمس بما أشرت، ثم عدت إلى نظري فعلفت أنه ليس من الحق والتصيحة، وأن الحق فيما رأيته أنت؛ فقال عليّ: لا والله، بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم، ولكن منعتني مما أشرت به ذائد الحق.

وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم. ونَحْنُ⁽¹⁾: [من الطويل]

نُرَقِّع دُنْيَانَا بِنُفْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينَنا يَبْقَى وَلَا ما نُرَقِّعُ

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك، وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجزى على منهاج الحق، ولم يظهر التغيّر إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً. وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد

(1) كان إبراهيم بن أدهم العجلي الزاهد يردّها، انظر البيان والتبيين 1: 260، عيون الأخبار 2: 330، العقد الفريد 3: 176، المحاسن والأضداد 101، ولا يعرف قائلها.

[141] المَلِك، والصَّدْرُ الأوَّل من خُلَفَاء بني العَبَّاس إلى الرَّشِيد وَتَغْضُ وَلَدَهُ. ثم ذَهَبَتْ
 مَعَانِي الخِلَافَةِ / ولم يَبْقَ إِلَّا اسْمُهَا، وصَارَ الأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا، وَجَزَتْ طَبِيعَةُ التَّغْلِبِ
 إِلَى غَايَتِهَا، وَاسْتُعْمِلَتْ فِي أَغْرَاضِهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالتَّحْكَمِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ. وَهَذَا كَمَا
 كَانَ الأَمْرُ لِحَلْفِ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكِ، وَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ الْمُغْتَصِمِ وَالتَّوَكُّلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ؛
 وَاسْمُ الخِلَافَةِ بَاقِيًا فِيهِمْ لِبَقَاءِ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ، وَالخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ فِي الطُّوَرَيْنِ مُلْتَبِسٌ 5
 بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. ثُمَّ ذَهَبَ رَسْمُ الخِلَافَةِ وَأَثَرُهَا بِذَهَابِ عَصِيَّةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جِيلِهِمْ
 وَتَلَاشِي أَسْوَاقِهِمْ، وَبَقِيَ الأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا كَمَا كَانَ الشَّأْنُ فِي مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ،
 يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَبَرُّكًا، وَالْمُلْكُ بِجَمِيعِ أَلْقَابِهِ وَمَنَاحِيهِ لَهُمْ، وَلَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ مِنْهُ
 شَيْءٌ. وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَاقَةِ الْمَغْرِبِ، مِثْلُ صِنْهَاجَةَ مَعَ الْعَبِيدِيِّينَ، وَمَغْرَاوَةَ وَبَنِي
 يَمِينٍ أَيْضًا مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ، وَالْعَبِيدِيِّينَ بِالْقَيْرَوَانِ. 10

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الخِلَافَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمُلْكِ أَوَّلًا، ثُمَّ التَّبَسَّتْ مَعَانِيهَا
 وَاخْتَلَطَتْ، ثُمَّ انْفَرَدَ الْمُلْكُ حَيْثُ افْتَرَقَتْ عَصِيَّتُهُ مِنْ عَصِيَّةِ الخِلَافَةِ. وَاللَّهُ مُقَدِّرُ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

29 • فَضْلٌ، فِي مَعْنَى الْبَيْعَةِ

15 اَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ؛ كَأَنَّ الْمُبَايَعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يَسْلَمُ
 لَهُ التَّنَظَّرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، لَا يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيُطِيعُهُ فِيمَا يَكْلِفُهُ
 بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ. وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ ^(١)، جَعَلُوا

(١) ل: عَهْدَةٌ.

أيديهم في يده توكيداً للعهد؛ فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري؛ فسُمِّيَ بَيْعَةً، مَصْدَرُ
 بَاعٍ؛ وصارت البيعةُ مُصَافِحَةً بالأيدي. هذا مَذْلُولُهَا في عُرْفِ اللِّغَةِ وَمَعْهُدُ الشَّرْعِ؛
 وهو المُرَادُ في الحديث ^(١) في بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ، وَحَيْثُا وَرَدَ
 / هذا اللَّفْظُ. وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ، وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ؛ لِأَنَّ الْخُلَفَاءَ كَانُوا يَسْتَخْلِفُونَ
 5 عَلَى هَذَا الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لَذَلِكَ، فَسُمِّيَ هَذَا الْاِسْتِيعَابُ أَيْمَانَ الْبَيْعَةِ؛
 وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَغْلَبَ. وَلِهَذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ ^(١) رَحِمَهُ (ب) اللَّهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِكْرَاهِ
 أَنْكَرَهَا الْوَلَاةُ عَلَيْهِ، وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ، وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِخْنَةِ الْإِمَامِ
 رَحِمَهُ (ب) اللَّهُ.

وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ، فَهِيَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكُشُورِيَّةِ، مِنْ تَقْبِيلِ
 10 الْأَرْضِ أَوْ الْيَدِ أَوْ الرَّجْلِ أَوْ الذَّيْلِ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَهْدُ عَلَى
 الطَّاعَةِ مَجَازاً، لِمَا كَانَ هَذَا الْخُضُوعُ فِي التَّحِيَّةِ وَالْإِتِمَامِ الْآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ
 وَتَوَابِعِهَا، وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً، وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ مُصَافِحَةِ أَيْدِي
 النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الْأَصْلِ، لَمَّا فِي الْمُصَافِحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالْاِبْتِدَالِ
 الْمَنَافِعِينَ لِلرَّئِاسَةِ وَصُورِ الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِيِّ، إِلَّا فِي الْأَقْلِ مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُّعَ مِنْ
 15 الْمُلُوكِ، فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ.

فَافْهَمْ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ؛ فَإِنَّهُ أَكِيدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتَهُ، لِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ
 حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ، وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عِبْثًا وَمَجَانًا؛ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ
 الْمُلُوكِ. وَاللَّهُ ﴿الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [سورة الشورى، من الآية 19].

(١) ل: بالحديث (ب) ع ج ل ي: رضي الله عنه .

(١) استند مالك في ذلك إلى الحديث الذي أورده في الموطأ 2: 101 رقم (1719) .

30 • فصل، في ولاية العهد

اعلم أنا قد قدّمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لِمَا فيها من المصلحة، وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم، ينظر لهم ذلك في حياته، وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو^(١) يتولّاها، ويتفقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل.

5

وقد عُرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده إذا وقع، فعهد أبو بكر / إلى عمر بمخضّر الصحابة^(ب)، وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عن جميعهم. وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستة^(ج) من بقية العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين، ففوّض ذلك بعضهم إلى بعض، حتى أفضى [إلى]^(د) عبد الرحمن بن عوف، فاجتهد وناظر المسلمين، فوجدهم متفقين على عثمان وعليّ، وآثر عثمان بالبيعة على ذلك، لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كلّ ما يعنّ دون اجتهاده، فاعتقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته. والملا من الصحابة حاضرون للأولى والثانية، ولم يُنكره واحد^(هـ) منهم. فدلّ على أنّهم متفقون على صحة هذا العهد، عارفون بمشروعيتها، والإجماع حجة كما عُرف.

10

ولا يثبت الإمام في هذا الأمر وإن عهد إلى أبيه أو ابنه، لأنّه مأمون على النظر لهم في حياته، فأخرى^(و) ألا يتحمّل فيها تبعه بعد مماته، خلافا لمن قال باتّهامه في الولد والوالد، أو لمن خصّص التهمة في الولد دون الوالد، فإنّه بعيد عن

15

(١) سقط من ل (ب) ل ي: من الصحابة (ج) ل: ستة (د) سقط من ظ (هـ) ل: أحد (و) ل: فأولى.

الظُّنَّةُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، لَا سِيَّامَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَّةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ، مِنْ إِشَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ، فَتَشْتَفِي الظُّنَّةُ عِنْدَ ذَلِكَ رَأْسًا، كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ^(أ) مُعَاوِيَةَ لِابْنِهِ يَزِيدَ. وَإِنْ كَانَ فِعْلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ. وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ إِلَى إِشَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، إِنَّمَا هُوَ مُرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ^(ب)،

5 وَاتِّفَاقِ أَهْوَائِهِمْ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ؛ إِذْ بَنُو أُمَيَّةَ يَوْمَئِذٍ لَا يَرْضَوْنَ سِوَاهُ، وَهُمْ عِصَابَةُ قُرَيْشٍ وَأَهْلُ الْمِلَّةِ أَجْمَعُ وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ، فَآثَرَهُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظَنُّ أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا، وَعَدَلَ عَنِ الْمَفْضُولِ إِلَى الْفَاضِلِ، جِزْصًا عَلَى الْإِتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي شَأْنُهُ أَهْمٌ عِنْدَ الشَّارِعِ. وَلَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هَذَا، فَعَدَالَتُهُ وَصِحَابَتُهُ مَانِعَةٌ مِمَّا سِوَى / ذَلِكَ، وَحُضُورُ أَكْبَرِ الصُّحَابَةِ لَذَلِكَ [142ب]

10 وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرِّيبِ فِيهِ؛ فَلَيْسُوا مِمَّنْ تَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ هَوَادَةٌ، وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ أَجَلٌ مِنْ ذَلِكَ، وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ. وَفِرَارُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ^(ج) عَنْ ذَلِكَ^(ج)، إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ عَنِ الدِّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ، مُبَاحًا كَانَ أَوْ مَحْظُورًا، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ. وَلَمْ يَتَّقَ فِي الْمُخَالَفَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ، إِلَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ؛ وَنُدُورُ الْمُخَالَفِ

15 مَعْرُوفٌ.

ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مُعَاوِيَةَ، مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ، مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، وَالسَّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عُرِفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحُسْنُ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ،

(أ) ل: عَهْد (ب) ل: النَّاسِ عَلَيْهِ (ج) سَقَطَ مِنْ ل .

والتَّظَرُّ لهم؛ ولا يُعَاب عليهم إِيْشَارُ أُنْبَاءِهِمْ وإِخْوَانِهِمْ، وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سَنَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ. فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أَوْلَئِكَ الْخُلَفَاءِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى [حِينَ] ^(١) لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ، وَكَانَ الْوَازِعُ دِينِيًّا، فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ، فَعَهْدُوا إِلَى مَنْ يَرْضِيهِ الدِّينُ فَقَطْ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَوَكَّلُوا كُلُّ أَحَدٍ مِمَّنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ. وَأَمَّا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ، فَكَانَتِ الْعَصِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنْ 5 الْمَلِكِ. وَالْوَازِعُ الدِّينِيُّ قَدْ ضَعُفَ، وَاجْتَبَحَ إِلَى الْوَازِعِ السُّلْطَانِيُّ وَالْعَصْبَانِيُّ. فَلَوْ قَدْ عَهْدَ إِلَى غَيْرٍ مِنْ تَرْضِيهِ الْعِصَابَةُ لَرَدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ وَانْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعًا، وَصَارَتْ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ.

سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا بَالُ النَّاسِ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ، وَلَمْ يَخْتَلَفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟، فَقَالَ: لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالْيَتِيمَ عَلَى مِثْلِي، وَأَنَا الْيَوْمَ وَالِ 10 عَلَى مِثْلِكَ؛ يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ الدِّينِ.

[143] أَفَلَا تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ لَمَّا عَهْدَ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ / مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَسَمَاءِ الرِّضَا، كَيْفَ أَنْكَرْتَ الْعَبَاسِيَّةَ ذَلِكَ وَنَقَضُوا بَيْعَتَهُ، وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّيِّ، وَظَهَرَ مِنَ الْهَزَجِ وَالْخِلَافِ، وَانْقِطَاعِ السُّبُلِ، وَتَعَدُّدِ الثُّوَارِ وَالْخَوَارِجِ، مَا كَادَ أَنْ يَضْطَلِمَ الْأَمْرَ، حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمُعَاهِدِهِ، 15 فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ، فَالْعَصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ، وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِهَا الْمَصَالِحَ، وَلِكُلِّ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ، لُطْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ.

(١) مِنْ ع ل .

وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء ، فليس من المقاصد الدينية⁽¹⁾؛ إذ هو أمر من الله يختص به من يشاء ، فيتبغى أن تحسن النية فيه ما أمكن ، خوفاً من العتب بالمناصب الدينية. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

وعرض هنا أمور تدعو الضرورة إلى بيان الحق فيها:

- 5 فلا أول منها : ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته. فإياك أن تنظر بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد ؛ فإنه أعذل من ذلك وأفضل؛ بل قد كان يعدله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه، وهو أقل من ذلك، وكانت مذاهبهم فيه مختلفة. ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق، اختلف الصحابة يومئذ في شأنه، فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض بيعته من أجل ذلك، كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - ومن اتبعهما في ذلك. ومنهم من أباه، لما فيه من إثارة الفتن وكثرة القتل، مع العجز عن الوفاء به ؛ لأن شوكة يزيد يومئذ هي عصية بني أمية ، وجمهور أهل الحل والعقد من قرينش ، وتستتبع عصية مضر أجمع ، فهي أعظم من كل شوكة، ولا تطاق مقاومتهم؛ فأقصرُوا عن يزيد / بسبب ذلك ، وأقاموا على الدعاء بهدأيته أو الراحة منه؛ وهذا كان شأن [143ب]
- 15 جمهور المسلمين. والكل مجتهدون، ولا تكير على أحد من الفريقين، فقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة. وفقنا الله للاقتداء بهم .

والثاني : هو شأن العهد من النبي ﷺ، وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي رضي الله عنه؛ وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة الثقل. والذي وقع في

(1) ع : الديابة .

الصحيح⁽¹⁾ من طلب الدواء والقرطاس لكتب الوصية، وأن عمر منع من ذلك،
 فدلّل واضح على أنه لم يقع. وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل في
 العهد فقال: إن أعهد فقد عهد من هو خير مني، يعني أبا بكر، وإن أترك فقد ترك
 من هو خير مني، يعني النبي ﷺ. * والصحابة حاضرون موافقون له على أن
 النبي ﷺ لم يعهد.⁽¹⁾

5

وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما، حين دعاه إلى الدخول على
 النبي ﷺ يسأله عن شأنهما في العهد، فأبى علي من ذلك، وقال: إنه إن منعنا
 منها فلا نطمع فيها آخر الدهر؛ وهذا دليل على أن علياً علم أنه لم يوص ولا عهد
 لأحد. وشبهة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الإيمان كما يزعمون،
 وليس كذلك؛ وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق. ولو كانت من
 10 أركان الإيمان لكان شأنها شأن الصلاة، ولكن يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر
 في الصلاة، ولكن يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة. واحتجاج الصحابة على خلافة
 أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا، أفلا ترضاه
 لدنيانا؟! دليل على أن الوصية به لم تقع. ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الإمامة
 15 والعهد بها لم يكن / مهماً كما هو اليوم، وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع
 والافتراق في مجاري العادة، لم يكن يومئذٍ بذلك الاعتبار؛ لأن أمر الدين

[144]

(1) سقط ما بين التجمين من ج .

(1) أخرجه البخاري في المغازي من صحيحه 6 : 11 حديث رقم (4432)، ومسلم في الوصايا (1637) من
 حديث ابن عباس .

والإسلام كان كله بخوارق العادة؛ من تأليف القلوب عليه، واستماتة الناس دونه؛ وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم، وتردد خبر السماء بينهم، وتجدد خطاب الله في كل حادثة يتلى عليهم. فلم يُحتج إلى مراعاة العصبية، لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان، وما يستفترقهم من تتابع هذه المعجزات الخارقة، والأحوال الإلهية الواقعة، والملائكة المترددة التي وجموا لها، 5 ودهشوا من تتابعها. فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجا في ذلك العباب، كما وقع. فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات، ثم بفناء القرون [التي] ⁽¹⁾ شاهدوها، فاستحالت تلك الصبغة قليلا قليلا، وذهبت آثار الخوارق، وصار الحكم للعادة كما كان. فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد، وأصبحت 10 الخلافة والملك والعهد بهما من المهمات الأكيدة كما زعموه، ولم يكن ذلك من قبل.

فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي ﷺ غير مهمة، فلم يعهد فيها. ثم تدرجت الأهمية أزمان الخلفاء بعض الشيء، بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد 15 وشأن الردة والفتوحات، فكانوا بالخيار في الفعل والتترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه. ثم صارت اليوم من أهم الأمور، للألفة على الحماية، والقيام بالمصالح؛ فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوارع عن الفرقة والتخاذل، ومنشأ الاجتماع والتوافق، / الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها.

[144ب]

(1) من ل، وفي بقية الأصول: الذين، وتصح إذا قدم عليها واو العطف [والذين].

والأمر الثالث : شأن^(١) الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين .
 وأعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية، وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة
 الصحيحة والمدارك المعتبرة. والمجتهدون إذا اختلفوا عن الأدلة، فإن قلنا إن الحق في
 المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين، ومن لم يصادفه فهو مخطيء، فإن جهته لا
 تتعين بإجماع، فيبقى الكل على احتمال الإصابة، ولا يتعين المخطيء منهما، والتأثير
 5 مدفوع عن الكل إجماعاً. وإن قلنا إن الكل على^(ب) حق، وإن^(ب) كل مجتهد
 مُصيب، فأخرى بنفي الخطأ والتأثير. وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين
 أنه^(ج) خلاف اجتهادي في مسائل^(د) دينية ظنية، وهذا حكمه .

والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة علي مع معاوية، ومع الزبير،
 10 وطلحة، وعائشة، وواقعة الحسين مع يزيد، وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك .
 فأما واقعة علي، فإن الناس عند مقتل عثمان كانوا مُفترقين في الأمصار،
 فلم يشهدوا بيعة علي؛ والذين شهدوا، فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع
 الناس ويتفقوا على إمام، كسعيد، وسعيد، وابن عمر، وأسامة بن زيد، والمغيرة بن
 شعبة، وعبد الله بن سلام، وقدامة بن مظعون، وأبي سعيد الخدري، وكعب بن
 15 عجرة، وكعب بن مالك، والتيمان بن بشير، وحسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد،
 وفضالة بن عبيد، وأمثالهم من أكابر^(هـ) الصحابة . والذين كانوا في الأمصار عدلوا
 عن بيعته أيضاً إلى الطلب بدم عثمان، وتركوا الأمر فوضى حتى يكون^(و) شورى

(١) في ع وحدها: بشأن. وهذا الأمر الثالث إلى آخر الفصل، إضافة بخطه في نسخة ع، وأدرجتها بقية الأصول في موضعها
 (ب) سقط من ع ل ي (ج) سقط من ل (د) ل: في مسائل اجتهادية دينية (هـ) ل: كبار (و) ع: تكون .

بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَنْ يُوَلُّونَهُ. وَظَنُّوا بِعَلِيِّ هَوَادَّةً فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِيهِ،
 لَا فِي الْمِمْلَاةِ عَلَيْهِ، فَخَاشَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَخَ بِمِلَامَتِهِ / إِنَّمَا [145]
 يُوجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطْ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنْ يَتَّبِعَهُ قَدْ انْعَقَدَتْ، وَلَزِمَتْ مِنْ تَأَخُّرِ
 5 عَنْهَا بِاجْتِمَاعٍ^(أ) مِنْ اجْتِمَاعِ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ، وَأَرْجَأَ الْأَمْرَ
 فِي^(ب) الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ، فَيَتِمَّكَنَ حِينَئِذٍ مِنْ ذَلِكَ.
 وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنْ يَتَّبِعَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ
 بِالْآفَاقِ، وَلَمْ يَحْضُرْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَا تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَلَا
 تَلْزَمُ لِعَقْدِ^(ج) مَنْ تَوَلَّاهَا لغيرِهِمْ^(د) أَوْ مِنَ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى،
 10 فَيُطَالِبُونَ أَوَّلًا بِدَمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ. وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ، وَعَمْرُو بْنُ
 الْعَاصِ، وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَابْنُهُ عَبْدِ اللَّهِ، وَطَلْحَةُ، وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ، وَسَعْدُ،
 وَسَعِيدٌ، وَالتَّمِيمَانُ بْنُ بَشِيرٍ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ حُذَيْفٍ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ
 الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا.

إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمِ اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلِزُومِهَا
 15 لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَتَضْوِيبِ رَأْيِهِ فِيهَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَتَغْيِينِ الْخَطِّ فِي جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ
 كَانَ عَلَى رَأْيِهِ، وَخُصُوصاً طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، لِانْتِقَاضِهَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نَقَلَ،
 مَعَ دَفْعِ التَّائِيهِمْ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، كَالشَّأْنِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ. وَصَارَ ذَلِكَ إِجْمَاعاً
 مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلَيْ أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ.

(أ) ع: بإجماع (ب) سقط من ل (ج) من ط ع ي: وفي ل: بعقد (د) ي: عن غيرهم، وفي ع ج: من غيرهم.

ولقد سُئِلَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ، فَقَالَ: وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَمُوتُنَّ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، يَشِيرُ عَلَى
الْفَرِيقَيْنِ؛ نَقْلَهُ الطَّبْرِيُّ⁽¹⁾ وَغَيْرُهُ. فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدْخٌ
بشئٍ من ذلك، فَهَمَّ مَنْ عَلِمَتْ، / وَأَفْعَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ⁽¹⁾ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنْدَاتِ،
وَعَدَاتُهُمْ مَفْرُوعٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِّلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ 5
أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَلَا عَرَجَ عَلَيْهِ .

وَإِذَا نَظَرْتَ بَعَيْنَ الْإِنْصَافِ^(ب) عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الْاِخْتِلَافِ
فِي عُثْمَانَ ، وَاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِهِ. وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى بِهَا الْأُمَّةَ،
بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَنَزَلُوا الْأُمُصَارَ عَلَى
حُدُودِهِمْ بِالْبُضْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ. وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ الْأُمُصَارَ 10
جُفَاءً لَمْ يَسْتَكْبَرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا هَذَبَتْهُمْ سَيْرُهُ وَآدَابُهُ، وَلَا ارْتَاضُوا
بِخُلُقِهِ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالبُغْدِ عَنْ سَكِينَةِ
الْإِيمَانِ. وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ، قَدْ أَضْبَحُوا فِي مَلَكََةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ،
مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةٍ وَثَقِيفٍ وَهَذِيلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِيمَانِ،
فَاسْتَنَكَفُوا^(ج) مِنْ ذَلِكَ وَغَضُّوا بِهِ لَمَّا يَزُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثَرَتِهِمْ، 15
وَمُصَادِمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ، مِثْلَ قَبَائِلَ بَكْرِ بْنِ وَائِلَ، وَعَبْدِ الْقَيْسِ مِنْ رَبِيعَةَ، وَقَبَائِلَ
كِنْدَةَ وَالْأَزْدَ مِنَ الْيَمَنِ، وَثَمِيمَ وَقَيْسَ مِنْ مُضَرَ، وَأَمْثَالِهِمْ. فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنَ

(أ) كَذَا فِي عَظْمِي، وَفِي لُجْ: وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ (ب) ل: التَّحْقِيقُ (ج) فِي ظ وَحَدَّثَا: وَاسْتَنَكَفُوا .

(1) تاريخ الرسل والملوك 4 : 537 .

قُرَيْشِ وَالْأَنْفَةِ عَلَيْهِمُ، وَالتَّمْرِ يَرْضُ فِي طَاعَتِهِمْ، وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظْلُمِ مِنْهُمْ،
وَالِاسْتِغْدَاءِ عَلَيْهِمُ، وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السَّرِيَّةِ، وَالْعُدُولِ فِي الْقَسَمِ عَنِ
السَّوِيَّةِ^(١)، وَفَشَتْ الْقَالَةُ بِذَلِكَ، وَانْتَهَتْ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَهُمْ مِنْ عَلِمَتْ. فَأَعْظَمُوهُ
وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ، فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ؛ بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ، وَمُحَمَّدَ

- 5 ابنِ مَسْلَمَةَ، وَأَسَامَةَ / بَنِ زَيْدٍ، وَأَمْثَالَهُمْ، فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى الْأَمْراءِ شَيْئاً وَلَا رَأَوْا
عَلَيْهِمْ طَغِئاً، وَأَدَّوْا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ. فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، وَمَا زَالَتْ
الشَّنَاعَاتُ تَكْثُرُ وَالْإِشَاعَاتُ تَنْمُو. وَرُمِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشُرْبِ
الْخَمْرِ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ، وَحَدَّهَ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ. ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِ
الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزَلَ الْعَمَّالِ، وَشَكَّوْا إِلَى عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ وَالزَّيْبِرَ وَطَلْحَةَ. وَعَزَلَ لَهُمْ
10 عُثْمَانُ بَعْضَ الْعَمَّالِ، فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ؛ بَلْ وَقَدْ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَهُوَ عَلَى
الْكُوفَةِ، فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَغْزُولاً. ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافُ بَيْنَ عُثْمَانَ
وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ، وَتَقَمُّوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْقَزْلِ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ
عَنْ جُزْخَةٍ. ثُمَّ نَقَلُوا التَّكْيِيرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِالِاجْتِهَادِ، وَهُمْ
أَيْضاً كَذَلِكَ. ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْعَوْغَاءِ وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ التَّصَفَةِ مِنْ
15 عُثْمَانَ، وَهُمْ يُضْمِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِهِ. وَفِيهِمْ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ، وَقَامَ
مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزَّيْبِرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ، يُحَاوِلُونَ تَسْكِينَ الْأُمُورِ، وَرَجُوعَ
عُثْمَانَ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيهَا. وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلَ مِصْرَ فَانْصَرَفُوا قَلِيلاً، ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَّسُوا
بِكِتَابٍ مُدْلَسٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَقَوْهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ، وَخَلَفَ

(١) ج: السرية .

عُثْمَانُ عَلَى ذَلِكَ؛ فَقَالُوا: مَكَّنَّا مِنْ مَزْوَانِ فَهُوَ كَاتِبُكَ، فَخَلَفَ مَرْوَانُ؛ فَقَالَ عُثْمَانُ:
لَيْسَ فِي الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا. فَحَاصَرُوهُ بِدَارِهِ، ثُمَّ بَنَتُوهُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ
وَقَتَلُوهُ، وَانْفَتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ.

فَلِكُلِّ مِنْ هَؤُلَاءِ عُذْرٌ فِيمَا وَقَعَ ، وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَلَا يُضِيعُونَ
شَيْئًا مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ. ثُمَّ نَظَرُوا / بَعْدَ هَذَا [الْوَقَاعِ] ^(١) وَاجْتَهَدُوا. وَاللَّهُ مَطَّلَعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ 5
وَعَالَمٌ بِهِمْ . وَنَحْنُ لَا نَنْظُرُ بِهِمْ إِلَّا خَيْرًا لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ ، وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ
فِيهِمْ.

وَأَمَّا الْحُسَيْنُ، فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فِسْقُ يَزِيدَ عِنْدَ الْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ ، دَعَتْ
شِيعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ بِالْكَوْفَةِ الْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ. فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ
الخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مُتَعَيِّنٌ مِنْ أَجْلِ فِسْقِهِ ، لَا سِيَّمَا عَلَى مَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ، 10
وَوَظَنَهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ ؛ فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةُ ؛ وَأَمَّا
الشُّوْكَةُ فَغَلَطَ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - فِيهَا ؛ لِأَنَّ عَصِيَّةَ مُضَرَّ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ ، وَعَصِيَّةُ
قُرَيْشٍ فِي عَبْدٍ مَنَافٍ ، وَعَصِيَّةُ عَبْدٍ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ، تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ
قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلَا يُنْكِرُونَهُ. وَإِنَّمَا نُسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لِمَا شَغَلَ النَّاسَ مِنْ
الذُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ وَأَمْرِ الْوَحْيِ، وَتَرَدَّدِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ . فَأَغْفَلُوا أُمُورَ 15
عَوَائِدِهِمْ، وَذَهَبَتْ عَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنُسِيَتْ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَصِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ
فِي الْحِمَايَةِ وَالِدِّفَاعِ ، يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ، وَالدِّينُ فِيهَا مُحَكَّمٌ
وَالْعَادَةُ مَغْرُوزَةٌ.

(١) ظ وحدها: الوقائع .

حَتَّى [إِذَا] ^(١) انْقَطَعَ أَمْرُ الثَّبَوَّةِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهُولَةِ، تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضَ الشَّيْءِ
لِلْعَوَائِدِ؛ فَعَادَتِ الْعَصِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَكُنْ كَانَتْ، وَأَصْبَحَتْ مُضَرًّا أَطْوَعَ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِنْ
سِوَاهُمْ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ [قَبْلَ] ^(ب).

فَتَبَيَّنَ لِذَلِكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ فِي أَمْرٍ دُنْيَاوِيٍّ لَا يَضِيرُهُ الْغَلَطُ فِيهِ.
5 وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَغْلُطْ فِيهِ ، لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ؛ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ .
وَلَقَدْ عَذَّلَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزَّيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيْرُهُ فِي مَسِيرِهِ
إِلَى الْكُوفَةِ ، وَغَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ ^(ج) يَزْجَعْ / عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ ، لِمَا أَرَادَهُ ^(د)
[147] اللَّهُ .

وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْحِجَازِ ، وَمَعَ يَزِيدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ
10 وَمِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ ، فَرَأَوْا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَجُوزُ ، لِمَا يَنْشَأُ ^(هـ)
عَنْهُ مِنَ الْهَزَجِ وَ[سَفْكَ] ^(و) الدَّمَاءِ ، فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَلَمْ يُتَابِعُوا الْحُسَيْنَ ، وَلَا
أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلَا أَثَمَوْهُ ، لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أَسْوَأُ الْمُجْتَهِدِينَ .

وَلَا يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْثِيمِ هَؤُلَاءِ بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ
نَصْرِهِ؛ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ، وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ الْحُسَيْنُ
15 يَسْتَشْهَدُ بِهِمْ وَهُوَ يُقَاتِلُ بِكَزْبَلَاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ، وَيَقُولُ: سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ،
وَأَبَا سَعِيدَ الْخُدْرِيَّ، وَأَنْسَ بْنَ مَالِكٍ، وَسَهْلَ بْنَ سَعْدٍ، وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمٍ، وَأَمْثَالَهُمْ،
وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِمْ قُعُودُهُمْ عَنْ نَصْرِهِ وَلَا تَعَرُّضُ لَذَلِكَ، لِعِلْمِهِ أَنَّهُ عَنْ اجْتِهَادٍ مِنْهُمْ كَمَا
كَانَ فِعْلُهُ هُوَ عَنْ اجْتِهَادٍ مِنْهُ.

(أ) سقط من ظ (ب) من ع ج ل ي (ج) ل: فلم (د) ل: أراد (هـ) ج: نشأ (و) من ل .

وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن كان هو على اجتهاد، ويكون ذلك كما يحدّ الشافعي والمالكي والحنفي⁽¹⁾ على شرب التبيد. واعلم أن الأمر ليس كذلك، وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن اجتهادهم؛ وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه. ولا تقولن إن يزيد وإن كان فاسقاً ولم يجز هؤلاء الخروج عليه، فأفعاله عندهم نافذة صحيحة. واعلم أنه 5 إنما ينفذ من أفعال الفاسق ما كان مشروعاً، وقتال البغاة عندهم^(ب) من شرطه أن يكون مع الإمام العادل، وهو مفقود في مسألتنا، فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد، بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه؛ والحسين فيها شهيدٌ مثناب، وهو على حق واجتهاد، / والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد. [147ب]

وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا، فقال في كتابه المسمى 10 بالقواصم والعواصم⁽¹⁾ ما معناه: أن الحسين قُتل بشرع جدّه؛ وهو غلطٌ حملة عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل في قتال أهل الآراء.

وأما ابن الزبير، فإنه رأى في خروجه ما رآه الحسين، وظنّ كما ظنّ، 15 وغلطه في أمر الشوكة أعظم؛ لأنّ بني أسدٍ لا يقاومون بني أميّة في جاهليّة ولا إسلام. والقول بتعيين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع عليّ لا سبيل

(1) سقط من ج (ب) سقط من ل .

(1) كذا في كل الأصول، واسم الكتاب: القواصم من القواصم، وهذه الإشارة وردت فيه بالمعنى، استناداً من حديث رواه مسلم عن زياد بن جلافة، عن عرفة بن شريح، وهو قوله ﷺ: "إنها ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان" (القواصم من القواصم 338، صحيح مسلم - كتاب الإمارة - حديث رقم 1852).

إليه، لأنَّ الإجماعَ هنالك قضَى لنا به ولم نجدَه ههنا. وأمّا يزيدُ فعَيْنُ خطأه فسقُه. وعبدُ المَلِك، صاحبُ ابن الزَّيْبِر، أعظمُ الناسَ عدالةً، وناهيك في عدالته احتجاجُ مالِك بفعله، وعدولُ ابن عُبَّاس وابن عُمَر إلى تبعته عن ابن الزَّيْبِر وهُم معه بالجِجاز؛ مع أنَّ الكثيرَ من الصَّحابة كانوا يَرَوْنَ أن تبعَةَ ابن الزَّيْبِر لم تتعقِد، لأنَّه لم يَحْضُرْها أهلُ الحِلِّ والعقدِ كَتَبِيعَةَ مَرْوان؛ وابنُ الزَّيْبِر على خلاف ذلك؛ والكلُّ مُجْتَهِدون مَحْمولون على الحقِّ في الظَّاهر؛ وإن لم يتَّعَيَّن في جهةٍ منها. والقَتْلُ الَّذي نَزَلَ به بعدُ تَقْرِير ما قرَّرناه، يَجْري على قواعدِ الفِقه وقَوائمه؛ مع أنَّه شهيدٌ مُثابٌّ باعْتِبار قَضِيهِ وتَحْرِيهِ الحقِّ.

هذا هو الَّذي يُبْغِي أن تُحْمَلَ عليه أفعالُ السَّلَف من الصَّحابة والتَّابعين، فهم خيارُ الأُمَّة، وإذا جَعَلْنَاهُمْ عُزْضَةً لِلْقَدْح، فَمَنْ الَّذي يُخْتَصُّ بِالْعَدَالَةِ؟ والتَّبْيِي 10 ^{عَلَيْهِ السَّلَام} يقول: "خيرُ الناس قُرْبِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، مَرَّتَيْنِ أو ثَلَاثًا، ثُمَّ / يَقْشُو [148] الكَذِب"، فجعل الخَيْرِيَّةَ ^(أ) وهي العَدَالَةُ مُخْتَصَّةً بِالْعَصْرِ الْأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ. فَإِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ نَفْسَكَ أو لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا تَوْسُوسَ قَلْبِكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ؛ وَالتَّمِيسَ لَهُمْ مَذَاهِبَ الْحَقِّ وَطُرُقَهُ مَا اسْتَطَعْتَ، فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ؛ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ بَيِّنَةٍ، وَمَا قَتَلُوا وَقُتِلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أو إِظْهَارِ حَقٍّ، وَاعْتَقِدْ 15 مع ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ، لِيَقْتَدِيَ كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ، وَيَجْعَلُهُ إِمَامَهُ وَهَادِيَهُ وَدَلِيلَهُ ^(ب). فَافْهَمْ ذَلِكَ، وَتَبَيَّنْ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ.

(أ) كذا في ظل، وفي ع: الخير له، وفي ج ي: الخير به (ب) إلى هنا تنتهي الحاشية التي أضافها المؤلف بخطه عن الأمر الثالث، وأدرجتها بقية الأصول في موقعها.

(1) في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود: البخاري في الشهادات 3: 224 (2652)، وفي الفضائل 5: 3 (3651)، وفي الرقاق 8: 113 (6429)، وفي النور 8: 167 (6658)، ومسلم في الفضائل (2533).

31 • فصل، في الحُطْطِ الدِّينِيَّةِ الخِلَافِيَّةِ

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الخِلَافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ
وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا، فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي الْأُمُورِ. أَمَّا فِي الدِّينِ فَبِمُقْتَضَى
التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا؛ وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا
فَبِمُقْتَضَى رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ.

5

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا الْعُمُرَانَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ، وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ،
لَثَلَا يَفْسُدُ إِنْ أَهْمِلْتُ؛ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْمُلْكَ وَسُطُوتَهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هَذِهِ الْمَصَالِحِ.
نَعَمْ، إِنَّهَا تَكُونُ أَكْمَلَ إِذَا كَانَتْ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْمَصَالِحِ. فَقَدْ صَارَ
الْمُلْكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ الخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا. وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ
فِي غَيْرِ الْمِلَّةِ، وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٍ وَوُظَائِفُ تَابِعَةٍ تَتَعَيَّنُ حُطْطًا، وَتَتَوَزَّعُ
عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَوُظَائِفُهَا، فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوُظُوفِهِ⁽¹⁾ / حَسْبِهَا يُعَيِّنُهُ الْمُلْكُ الَّذِي
تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ، فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ، وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ.

[148ب]

10

وَأَمَّا الْمَنْصِبُ الْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ الْمُلْكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ بِهَذَا الْإِغْتِبَارِ الَّذِي
ذَكَرْنَاهُ، فَتَصَرُّفُهُ الدِّينِيُّ يَخْتَصُّ بِحُطْطِ وَمَرَاتِبِ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ.
فَلَنَذْكُرَ الحُطْطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلَافَةِ، وَنَرْجِعُ إِلَى الحُطْطِ الْمُلْكِيَّةِ
السُّلْطَانِيَّةِ.

15

(1) فِي ع.ج: بَوَظُوفِهِ.

فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفنأ والقضاء والجهاد والحسبة، كلها مندرج تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، وكأنها الأم الكبير والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها، لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام⁽¹⁾ الشرع فيها على العموم.

5 أ. فأما إمامة الصلاة، فهي أرفع هذه الخطط كلها، وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة. ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة، في قولهم: ارتضاه رسول الله ﷺ لدينا، أفلا نرضاه لدينا؟! فلو أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس.

10 وإذا ثبت ذلك، فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان: مساجد عظيمة كثيرة الغاشية، معدة للصلوات المشهودة؛ وأخرى دونها، مختصة بقوم أو محلة، وليست للصلوات العامة.

15 فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو إلى من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض، فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدن والخسوفن والاشتسقاء. وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى والاستيخسان، ولئلا تشتت الرعايا عليه بشيء من / النظر في المصالح العامة. وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة، فيكون نصب الإمام لها عنده واجباً.

[149]

(1) سقط من ل.

وأما المساجد المَخْتَصَّة بقوم أو مَحَلَّة فأمرها راجع إلى الجيران، ولا تحتاج إلى نظير خليفة ولا سلطان.

وأحكام هذه الولاية وشروطها والمؤلَّى فيها معروفة في كُتب الفقه، ومبسوطة في كُتب الأحكام السلطانية للماوردي⁽¹⁾ وغيره، فلا نُطَوِّل بذكره. وقد كان الخلفاء الأولون لا يقلّدونها لغيرهم من الناس. وانظر من طعن من الخلفاء في 5 المسجد عند الإيدان بالصلاة وترصدهم بذلك في أوقاتها، يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخلفون فيها⁽²⁾. وكذا كان حال الدولة الأموية من بعدهم، استثناءً بها^(ب) واستغظاماً لرتبتها. يحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه: قد جعلت لك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير؛ والآذن بالصلاة فإنه داع إلى الله؛ والبريد فإن في تأخيره فساد القاصية. فلما جاءت طبيعة الملك 10 وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم وذنائبهم، استثنوا في الصلاة، وكانوا يستأثرون بها في الأخيان وفي الصلوات العامة، كالعيدين والجمعة، إشادة وتثويها. فعَلَ ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم.

ب. وأما الفُتيا، فللخليفة تصفُّح أهل العلم والتدريس، وزدُّ الفُتيا^(ج) إلى من هو أهل لها، وإعانتُهُ على ذلك، ومنع من لئس بأهل لها وزجره؛ لأنها من 15 مصالح المسلمين في أديانهم، فتجب عليه [مراعاتها]^(د)، لئلا يتعرَّض لذلك من لئس له بأهل، فيضل الناس.

(أ) ل: يستخلفون فيها أحداً (ب) ل: لها (ج) ج: الفتوى (د) كذا في الأصول، وفي ظ: رعيتها.

(1) الأحكام السلطانية 276-.

وللمدرّس الانتصاب لتعليم العلم وبثّه، والجلوس لذلك في المساجد؛ / فإن [149ب]
كانت من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في أئمتها كما مرّ، فلا
بدّ من استئذانه في ذلك؛ وإن كانت من مساجد العامة، فلا يتوقّف ذلك على
إذن. على أنّه ينبغي أن يكون لكلّ أحدٍ من المفتين والمدرّسين زاجرٌ من نفسه يمنعُه
5 عن التصدّي لما ليس له بأهل، فيُضِلّ به المُستَهْدِي ويُزِلّ به المُستَرْشِد؛ وفي
الأثر⁽¹⁾: أجروكم على الفتوى أجروكم على جرائم جهنم. فللسلطان فيهم لذلك من
أ نظر ما توجّبهُ المصلحة من إجازة أو ردّ.

ج. وأما القضاء، فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة، لأنّه منصب
الفضل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع؛ إلّا أنّه بالأحكام
10 الشرعيّة المتلقاة من الكتاب والسنة؛ فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في
عمومها. وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء في
شيءٍ إلى سواهم. وأوّل من دفعه إلى غيره وفوّض فيه، عمر رضي الله عنه،
فولّى أبا الزدء معه بالمدينة، وولّى شريحاً بالبصرة، وولّى أبا موسى الأشعري
بالكوفة. وكتب له في ذلك الكتاب⁽²⁾ المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاء،
15 وهي مُستوفاة فيه، يقول فيه:

(1) سنن الدارمي 1: 57، كتر العمال 28961.

(2) نصّ الكتاب في البيان والتبيين 1: 49، عيون الأخبار 1: 66، الكامل 1: 8 العقد الفريد 1: 79،
التذكرة الحنفونية 1: 341، أخبار القضاة 1: 70، مع بعض الفروق والاختلافات اللفظية.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمُوا إِذَا [أُدْلِيَ] ^(أ)
إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَادَ لَهُ. وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ ^(ب)
وَمَجْلِسِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَتَأَسَّ ^(ج) ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ.
الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا
صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا .

5

وَلَا يَمْنَعَنَّكَ ^(د) قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ أَمْسٍ ^(هـ)، فَرَاغَتْ الْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ، وَهُدَيْتَ
فِيهِ لِرُشْدِكَ، / أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ، وَمَرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّهَادِي
فِي الْبَاطِلِ. [150]

الْفَهْمُ فِيمَا تَلَجَّلَجَ فِي صَدْرِكَ تَمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، ثُمَّ اعْرِفِ الْأَمْثَالَ
وَالْأَشْبَاهَ؛ وَقِسِ الْأُمُورَ بِنظَائِرِهَا. وَاجْعَلْ لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي
إِلَيْهِ، فَإِنْ أَخْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَإِلَّا اسْتَخْلَلْتَ الْقَضِيَّةَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَتَقَى
لِلشَّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى.

10

الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، * أَوْ مُجْرِيًا عَلَيْهِ
شَهَادَةُ زُورٍ * ^(و)، أَوْ ظَنِينًا فِي نَسَبٍ أَوْ وِلَاءٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ الْإِيمَانِ،
وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ.

15

وَإِيَّاكَ وَالْقَلْقَ وَالضُّجْرَ وَالتَّأَفُّفَ بِالْخُصُومِ؛ فَإِنَّ اسْتِثْقَارَ الْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ
الْحَقِّ يُعْظِمُ اللَّهَ بِهِ الْأَجْرَ، وَيُحَسِّنُ بِهِ الذِّكْرَ. وَالسَّلَامُ. انْتَهَى كِتَابُ عُمَرَ.

(أ) ظ: أولي (ب) سقط من البيان والتبيين وعميون الأخبار والعقد (ج) في البيان والتبيين: ولا يخاف ضعيف من جورك
(د) ل: يمنعك (هـ) ل: بالأمس (و) سقط ما بين النجمين من ج .

وإنما كانوا يُقَلِّدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يَتَعَلَّقُ بهم، لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها؛ من الجهاد، والفتوحات، وسد الثغور، وحماية البيضة، ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظيم العناية به. فاستحقوا أمر القضاء في الواقعات بين الناس، واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على⁽¹⁾ أنفسهم. وكانوا مع ذلك إنما يُقَلِّدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء، ولا يُقَلِّدونه لمن بُعد عنهم في ذلك.

وأما أحكام هذا المنصب وشروطه، فمعرفة⁽¹⁾ في كتب الفقه، وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية؛ لأن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفضل بين الخصوم فقط؛ ثم دُفِعَ لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك^(ب) بالسياسة الكبرى. واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع

10 الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، بالنظر / في أموال المخجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيتام عند فقد الأولياء على رأي من يراه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية؛ وتصفح الشهود والأمناء والثواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح، ليحصل له الوثوق بهم. وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته.

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المطالب، وهي وظيفة مُفْتَزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء. وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تسمع

(1) ع: عن (ب) سقط من ج.

(1) الأحكام السلطانية 199.

الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاء أو غيرهم عن إفضائه. ويكون نظره في البينات والتعزيز واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستخلاف الشهود؛ وذلك⁽¹⁾ أوسع من نظر القاضي .

- 5 وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهتدي من بني العباس، وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل علي رضي الله عنه مع قاضيه أبي إدريس الخولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكرم، والمعتصم لابن أبي دؤاد. وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف؛ وكان يحيى بن أكرم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم؛ وكذا منذر بن سعيد، قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس. وكانت توليته هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء، أو من يجعلون 10 ذلك له، من وزير مفوض أو سلطان متغلب.

- وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود مختصاً في الدولة العباسية [151] / والأموية بالأندلس والعبيدية^(ب) بمصر والمغرب، راجعاً إلى صاحب الشرطة؛ وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً؛ فيجعل للثمة في الحكم مجالاً، ويفرض العقوبات 15 الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة في مجالها^(ج)، ويحكم في القود والقيصاص، ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته إلى الجريمة.

(أ) سقط من متن نسخة ع ، وبها إشارة مخرج ، ولكن لم نره على المخطوط وأثبت في كل النسخ (ب) ي: الغبيدين (ج) ع : مجالها .

ثم تُنَوِّسِي شَأْنُ هَاتَيْنِ الْوُظَيْفَتَيْنِ فِي الدُّوْلِ الَّتِي تُنَوِّسِي فِيهَا أَمْرُ الْخِلَافَةِ،
فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ، كَانَ لَهُ تَقْوِيضٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ.
وَانْقَسَمَتِ وَظِيفَةُ الشُّرْطَةِ قِسْمَيْنِ، مِنْهَا وَظِيفَةُ التَّهْمِ عَلَى الْجَرَائِمِ، وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا،
وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ؛ وَنُصِبَ لَذَلِكَ فِي هَذِهِ الدُّوْلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا
5 بموجب السِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيُسَمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي، وَتَارَةً
بِاسْمِ الشُّرْطَةِ. وَتَقْيِ قِسْمُ التَّعَازِيرِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرْعًا، فَجُمِعَ لِلْقَاضِي
مَعَ مَا تَقَدَّمَ، وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيفَتِهِ وَوِلَايَتِهِ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى ذَلِكَ.
وَحَرَجَتْ هَذِهِ الْوُظِيفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ النَّوْلَةِ، لِأَنَّ الْأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلَافَةً دِينِيَّةً، وَهَذِهِ
الْحُطَّةُ مِنْ مَرَامِيمِ الدِّينِ، فَكَانُوا لَا يُؤَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ،
10 وَمَوَالِيهِمْ بِالْحِلْفِ أَوْ الرِّقِّ أَوْ بِالِاضْطِنَاعِ، تَمَّ يُوَثِّقُ بِكِفَايَتِهِ أَوْ ⁽¹⁾ غَنَائِهِ فِيمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ.

وَلَمَّا انْقَرَضَ شَأْنُ الْخِلَافَةِ وَظَهَرُهَا، وَصَارَ الْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكًا وَسُلْطَانًا،
صَارَتْ هَذِهِ الْحُطَّةُ الدِّينِيَّةُ بَعِيدَةً عَنْهُ بَغْضُ الشَّيْءِ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَلْقَابِ الْمُلِكِ
وَلَا مَرَامِيمِهِ. ثُمَّ خَرَجَ الْأَمْرُ جُمْلَةً عَنِ الْعَرَبِ وَصَارَ الْمُلِكُ لِسِوَاهُمْ مِنْ أُمَّمِ التُّرْكِ
وَالْبَرْبَرِ، فَازْدَادَتْ هَذِهِ الْحُطَّةُ / الْخِلَافِيَّةُ بُعْدًا عَنْهُمْ بِمَنَحِهَا وَعَصِيَّتِهَا. وَذَلِكَ أَنَّ
[151ب] الْعَرَبَ كَانُوا يَزَوْنُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ، وَأَحْكَامُهُ وَشَرَائِعُهُ نَحْلَتُهُمْ
15 بَيْنَ الْأُمَّمِ وَطَرِيقُهُمْ. وَغَيْرُهُمْ لَا يَزَوْنُ ذَلِكَ، إِنَّمَا يُؤَلُّونَهَا جَانِبًا مِنَ التَّعْظِيمِ لَمَّا دَانُوا بِالْمِلَّةِ
فَقَطُّ. فَصَارُوا يَقْلِدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عِصَابَتِهِمْ تَمَّ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا فِي دَوْلِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ.
وَكَانَ أَوْلَئِكَ الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُمْ تَرْفُ الدُّوْلِ مُنْذُ مِائَتَيْنِ مِنَ السَّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ

(1) ع : وَغَنَائِهِ .

البداءة وخشوتها، والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعيتهم، وقلة الممانعة عن أنفسهم، وصارت هذه الخطط في التول الملوكية من بعد الخلفاء، مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار، ونزل أهلها عن مراتب العز لفقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة، فلجئهم من الاختيار ما يلحق الحضر المنعمسين في الترف والدعة، البعداء عن عصبية الملك، الذين هم عيال على الحامية، وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملة وأخذها بأحكام الشريعة، لما أنهم الحاملون للأحكام، المفتون بها. ولم يكن إيثارهم في الدولة حينئذ إكراماً لدوائهم، وإنما هو لما يثلمح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شيء، وإن حضروه حضور رسمي لا حقيقة وراءه، إذ حقيقة الحل والعقد إنما هو لأهل القدرة عليه، فمن لا قدرة له عليه، فلا حل ولا عقد لديه، اللهم أخذ الأحكام الشرعية عنهم، وتلقي الفتاوى منهم، فنعم. والله الموفق.

وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك، وأن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة عن الشورى مزجوخ، وقد قال عليه السلام (1): "العلماء / ورثة الأنبياء"، فاعلم أن ذلك ليس كما ظنته، وحكم الملك والسلطان إنما يجري على ما تقتضيه طبيعة العمران، وإلا كان بعيداً عن السياسة. وطبيعة العمران في هؤلاء لا تقضي لهم بشيء من ذلك، لأن الشورى والحل والعقد إنما يكون لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك. وأما من لا

(1) طرف من حديث أخرجه أبو داود (3642)، والترمذي (2682)، وأحمد 5: 196، وابن ماجه (223)، وابن حبان (88) من حديث أبي الدرداء.

عَصِيَّةٌ لَهُ وَلَا يَفْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئًا وَلَا مِنْ حِمَايَتِهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ ،
فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي الشُّورَى ، أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى اغْتِيَارِهِ فِيهَا ؟ اللَّهُمَّ شُورَاهُ
فِيهَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فَمَوْجُودٌ فِي الْاسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً . وَأَمَّا شُورَاهُ فِي السِّيَاسَةِ فَهُوَ
بَعِيدٌ عَنْهَا ، لِفَقْدَانِهِ الْعَصِيَّةَ وَالْقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا . وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ
تَبَرُّعَاتِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ ، الشَّاهِدَةُ لَهُمْ بِجَمِيلِ الْإِعْتِقَادِ فِي الدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ^(أ)

إِلَيْهِ ، بِأَيِّ جَهَةِ انْتَسَبَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ " ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْفُقَهَاءَ
فِي الْأَغْلَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَمَا اخْتَفَى بِهِ ، إِنَّمَا حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ أَقْوَالًا فِي كَيْفِيَّةِ الْأَعْمَالِ فِي
الْعِبَادَاتِ ، وَكَيْفِيَّةِ الْقَضَاءِ فِي الْمُعَامَلَاتِ ، يَنْصُونَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ
بِهَا ؛ هَذِهِ غَايَةُ أَكْبَرِهِمْ ؛ وَلَا يَنْصِفُونَ إِلَّا بِالْأَقْلَ مِنْهَا ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ .

وَالسَّلَفُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - وَأَهْلُ الدِّينِ وَالْوَرَعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، حَمَلُوا الشَّرِيعَةَ ،
اتِّصَافًا بِهَا وَتَحَقُّقًا بِمَذَاهِبِهَا . فَمَنْ حَمَلَهَا اتِّصَافًا وَتَحَقُّقًا دُونَ نَقْلِ فَهُوَ مِنَ الْوَارِثِينَ ،
مِثْلُ^(ب) أَهْلِ رِسَالَةِ الْقَشِيرِيِّ . وَمَنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْأُمُرَانِ ، فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ الْوَارِثُ عَلَى
الْحَقِيقَةِ ، مِثْلُ فُقَهَاءِ التَّابِعِينَ وَالسَّلَفِ وَالْأُمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ افْتَنَى [طَرِيقَهُمْ]^(ج) وَجَاءَ

عَلَى إِثْرِهِمْ ، وَإِذَا انْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ الْأُمَّةِ بِأَحَدِ الْأُمُورَيْنِ ، فَالْعَابِدُ / أَحَقُّ بِالْوَرَاثَةِ [152ب]

مِنْ الْفَقِيهِ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ ؛ لِأَنَّ الْعَابِدَ وَرَثَ صِفَةٍ ، وَالْفَقِيهُ الَّذِي لَيْسَ بِعَابِدٍ لَمْ
يَرِثْ شَيْئًا ، إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنْصُهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ الْعَمَلِ ، وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ
فُقَهَاءِ عَصْرِنَا ، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ [سُورَةُ ص، مِنْ

الآيَةِ 24].

(أ) ل: يَنْتَسِبُ (ب) مُخْرَجٌ فِي حَاشِيَةِ ع وَحَدَّثَهَا بِخَطِّ مَتَاخِر: وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ (ج) فِي ط: أَنْتَهُمْ .

د. العَدَالَةُ ، وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَارِدِ تَضْرِيْفِهِ .
وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ ، الْقِيَامُ عَنْ إِذْنِ الْقَاضِي بِالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ،
تَحْمُلًا عِنْدَ الْإِشْهَادِ ، وَأَدَاءً عِنْدَ التَّنَازُعِ ، وَكِتَابًا فِي السَّجَلَّاتِ يَحْفَظُ بِهِ حُقُوقَ
النَّاسِ وَأَمْلَاقَهُمْ وَدِيُونَهُمْ وَسَائِرَ مُعَامَلَاتِهِمْ . [وَأِنَّمَا قُلْنَا عَنْ إِذْنِ الْقَاضِي ، لِأَنَّ النَّاسَ
5 قَدْ اخْتَلَطُوا ، وَخَفِيَ التَّعْدِيلُ وَالْجَرْحُ إِلَّا عَلَى الْقَاضِي ، فَكَأَنَّهُ إِنَّمَا يَأْذُنُ لِمَنْ ثَبَتَتْ
عِنْدَهُ عَدَالَتُهُ لِيَحْفَظَ عَلَى النَّاسِ أُمُورَهُمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ] ⁽¹⁾ .

وَشَرَطُ هَذِهِ الْوِظِيفَةِ الْإِتِّصَافُ بِالْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْجَرْحِ ، ثُمَّ
الْقِيَامُ بِكِتَابِ السَّجَلَّاتِ وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَتِهَا وَانْتِظَامِ فُصُولِهَا ، وَمِنْ جِهَةِ إِحْكَامِ
شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَعُقُودِهَا ، فَيَخْتِاجُ حِينَئِذٍ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْفِقْهِ . وَلَا أَجَلَ
10 هَذِهِ الشَّرُوطِ وَمَا تَحْتَاجُ ^(ب) إِلَيْهِ مِنَ الْمِيزَانِ عَلَى ذَلِكَ وَالْمَارَسَةِ لَهُ ^(ج) ، اخْتَصَّ ذَلِكَ
بِبَعْضِ الْعُدُولِ ، وَصَارَ الصَّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْعَدَالَةِ ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ،
وَإِنَّمَا الْعَدَالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْوِظِيفَةِ .

وَيَجِبُ عَلَى الْقَاضِي تَصَفُّحُ أَخْوَالِهِمُ وَالْكَشْفُ عَنْ سَيْرِهِمْ ، رِعَايَةً
لِشَرَطِ الْعَدَالَةِ فِيهِمْ ، وَالْأَيُّهُمَلْ ذَلِكَ ، لِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مِنْ حِفْظِ حُقُوقِ النَّاسِ ،
15 فَالْعَهْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهُوَ ضَامِنٌ دَرَكُهُ . وَإِذَا تَعَيَّنَ هَؤُلَاءِ لِهَذِهِ الْوِظِيفَةِ
عَمَّتِ الْفَائِدَةُ بِهِمْ فِي تَعْدِيلٍ مِنْ تَخَفِي عَدَالَتِهِ عَلَى الْقُضَاةِ بِسَبَبِ اتِّسَاعِ الْأُمُصَارِ
وَاشْتِيَاهِ الْأَخْوَالِ ، وَاضْطِرَارِ الْقُضَاةِ إِلَى الْفَضْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ بِالْبَيِّنَاتِ الْمُوثِقَةِ ،
فَيَعُولُونَ غَالِبًا فِي / الْوُثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّنْفِ ؛ وَلَهُمْ فِي سَائِرِ الْأُمُصَارِ دَكَكِينَ [i153]

(1) حَاشِيَةٌ مَزَلَّةٌ عَلَى هَذَا الْمَخْرَجِ ، اضْرُدَتْ بِهَا عِ بَخَطُهُ (ب) ع : يَخْتِاجُ (ج) سَقَطَ مِنْ ل .

وَمَصَاطِبُ يَخْتَصُّونَ بِالْجُلُوسِ فِيهَا ، لِيَتَعَاهَدَهُمُ أَصْحَابُ الْمَعَامَلَاتِ لِلْإِشْهَادِ وَتَقْيِيدِهِ
بِالْكِتَابِ .

وَصَارَ مَذْلُولُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَذْلُولُهَا ،
وَبَيْنَ الْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ الْجَرْحِ ، وَقَدْ يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

هـ . الْحَسْبَةُ وَالسَّكَّةُ

5

أَمَّا الْحَسْبَةُ ، فَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ
الْمُنْكَرِ ، الَّذِي هُوَ فَرَضٌ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ؛ يُعَيِّنُ لِنَاكِحٍ مِنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ ،
فَيَتَعَيَّنُ فَرَضُهُ عَلَيْهِ ، وَيَتَّخِذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ ، وَيَتَحَثُّ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَيُعَزِّرُ
وَيُؤَدِّبُ عَلَى قَدَرِهَا ، وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ ؛ مِثْلُ الْمَنْعِ مِنْ
10 الْمُضَايِقَةِ فِي الطَّرِيقَاتِ ؛ وَمَنْعِ الْحَمَّالِينَ وَأَهْلِ الشُّفْنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحَمْلِ ؛ وَالْحُكْمِ
عَلَى أَهْلِ الْمَبَانِي الْمُتَعَيِّنَةِ لِلسُّقُوطِ بِهَذِمِهَا ، وَإِزَالَةِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّابِلَةِ؛
وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُتَعَلِّمِينَ بِالْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاغِ فِي ضَرْبِهِمُ لِلصَّبِيَّانِ
الْمُتَعَلِّمِينَ . وَلَا يَتَوَقَّفُ حُكْمُهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِغْدَاءٍ ، بَلْ لَهُ النَّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا
يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِ مِنْ ذَلِكَ وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ . وَلَيْسَ لَهُ أَيْضًا الْحُكْمُ فِي الدَّعَاوَى مُطْلَقًا ؛ بَلْ
15 فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْغَشِّ وَالتَّدْلِيلِ فِي الْمَعَاشِ وَغَيْرِهَا ، وَفِي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ ، وَلَهُ أَيْضًا
حَمْلُ الْمَاطِلِينَ عَلَى الْإِنْصَافِ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ تَمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ بَيِّنَةٌ وَلَا إِنْفَادُ حُكْمٍ .
وكَأَنَّهَا أَخْكَامٌ يُنَزَّهُ عَنْهَا الْقَضَاءُ لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ أَغْرَاضِهَا ، فَتُذْفَعُ إِلَى صَاحِبِ
هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ لِيَقُومَ بِهَا ؛ فَوْضَعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ .

وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية، مثل العبيديين بمصر والمغرب،
[153ب] والأمويين بالأندلس، داخلة في / عموم ولاية القاضي يُولَّى⁽¹⁾ فيها باختياره. ثم لما
انقرضت وظيفة السلطان عن الخلافة، وصار نظره عاماً في أمور السياسة،
فاندرجت في وظائف الملك وأُفردت^(ب) بالولاية .

وأما السَّكَّةُ فهي النظر في النقود المتعامل بها بين المسلمين ، وحفظها 5
مما يُدخلها من الغش أو النقص إن كانت يُعامل بها عدداً ، وما يتعلّق بذلك
ويُوصِل إليه من جميع الاعتبارات ، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود
بالاستجداء والخلوص ، تُرسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد تُخذ لذلك ،
ونُقش فيه نقوش خاصة به ، * فيوضع على الدينار [أو الدرهم]^(ج) بعد أن يُقدَّر*^(د) ،
ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترتسم فيه تلك النقوش ، وتكون علامة على جودته، 10
بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر
ومذهب الدولة الحاكمة؛ فإنَّ السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية، وإنما
ترجع غايته إلى الاجتهاد؛ فإذا وقف^(هـ) أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص،
وقفوا عندها وسمّوه إماماً وعبّاراً ، يعتبرون به نقودهم ويتقيدونها بمائتيه، فإن نقص
عن ذلك كان زيفاً . 15

والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة ، وهي دينية بهذا الاعتبار ؛
فتندرج تحت الخلافة . ولقد كانت تدخل في عموم ولاية القضاء ، ثم أُفردت لهذا
العهد بالولاية كما وقع في الحسبة.

(1) ل: يُولَّى (ب) ي: وأفردت (ج) من حاشية ع بخطه، ومن ج (د) سقط ما بين النجيين من ي (هـ) في ع ج: انق.

هذا آخر الكلام في الوظائف الخِلافية. وقيمت منها وظائف ذهبت بذهاب ما تنظر فيه، وأخرى صارت سلطانية. فوظيفة الإمارة، والوزارة، والحزب، والخراج، صارت سلطانية، يُتَكَلَّمُ⁽¹⁾ عليها في مكانها بعد. ووظيفة الجهاد بطلت بطلانه إلا في قليل من الدول، يُمارسونه ويُدرجون أحكامه غالباً في السلطانيات. وكذا بقايتُ الأنساب التي يتوصل بها إلى / الخلافة أو الحق في بيت المال، قد بطلت لدثور [154] الخلافة ورُسومها. وبالجملة، فقد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد. والله مُصَرِّفُ الأمور بِحُكْمِهِ^(ب).

32 • فصل، في اللقب بأمير المؤمنين، وأنه من سمات الخلافة

وهو مُحدث منذ عهد الخلفاء، وذلك أنه لما بُويع أبو بكر رضي الله عنه، 10 كان الصحابة وسائر المسلمين يُسمونه خليفة رسول الله ﷺ؛ ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك. فلما بُويع لعمر بعهد إليه، كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله. وكأنهم استنقلوا هذا اللقب لطوله وكثرة إضافته، وأنه يتردد فيما بعد دائماً، إلى أن ينتهي إلى الهُجْنة، ويذهب منه التمييز بتعدد المضافات وكثرتها، فلا يعرف. فكانوا [يعدلون]^(ج) عن هذا اللقب إلى سيواه مما يناسبه ويدعى به مثله. وكانوا يُسمون 15 قَوَادِ البُعوث باسم الأمير، وهو فعيل من الإمارة. وقد كان الجاهلية يدعون النبي ﷺ أمير مكة وأمير الحجاز؛ وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المسلمين لإمارته على جيش القادسية، وهو مُعْظَمُ المسلمين يومئذ.

(1) ل: تتكلم (ب) ي: يحكمه (ج) سقط من ظ.

واتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاسْمِ^(أ) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،
 فَاسْتَحْسَنَهُ النَّاسُ وَاسْتَضَوُّوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ. يُقَالُ أَوَّلُ مَنْ دَعَاهُ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 جَحْشٍ؛ وَقِيلَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ؛ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ
 الْبُعُوثِ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ: أَيْنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَسَمِعَهَا^(ب)
 أَصْحَابُهُ فَاسْتَحْسَنُوهُ، وَقَالُوا أَصَبْتَ وَاللَّهِ اسْمُهُ، إِنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا، فَدَعَوْهُ بِهِ
 وَذَهَبَ لِقَبَالِهِ فِي النَّاسِ. وَتَوَارَثَهُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ
 [154ب] / سَائِرُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ .

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْعَةَ خَصَّوْا عَلِيًّا بِاسْمِ الْإِمَامِ، نَعَتْهُ لَهُ بِالْإِمَامَةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ
 الْخِلَافَةِ، وَتَغْرِضًا بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ الصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ كَمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ
 وَبِدَعْوَتِهِمْ؛ فَخَصَّوْهُ بِهَذَا اللَّقَبِ وَلَمْ يَسُوقُوا إِلَيْهِ مَنْصِبَ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَكَانَ
 10 كُلُّهُمْ يُسَمَّى بِالْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي الْخَفَاءِ؛ حَتَّى إِذَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى الدَّوْلَةِ
 يُحَوِّلُونَ اللَّقَبَ فِيمَنْ بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا فَعَلَهُ شَيْعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ، فَإِنَّهُمْ مَا
 زَالُوا يَدْعُونَ أَيْمَنَهُمْ بِالْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَهَرُوا بِالْدُّعَاءِ لَهُ، وَعَقَدُوا الرِّايَاتِ
 لِلْحَزْبِ عَلَى أَمْرِهِ، فَلَمَّا هَلَكَ، دُعِيَ أَخُوهُ السَّفَّاحُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. وَكَذَا الرَّافِضَةُ
 بِإِفْرِيقِيَّةٍ مَا زَالُوا يَدْعُونَ الْأَيْمَنَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بِالْإِمَامِ، حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ لِعَبْدِ^(ج)
 15 اللَّهِ الْمَهْدِيِّ، وَكَانُوا أَيْضًا يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ، وَلابْنُهُ أَبِي الْقَاسِمِ مِنْ بَعْدِهِ. فَلَمَّا اسْتَوْسَقَ
 لَهُمَا الْأَمْرُ، دَعَوْا مَنْ بَعْدَهُمَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. وَكَذَا الْأَدَارِسَةُ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا يَدْعُونَ
 إِدْرِيسَ بِالْإِمَامِ، وَابْنَهُ إِدْرِيسَ الْأَصْغَرَ كَذَلِكَ، وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ .

(أ) سَفَطَ مِنْ ل، وفيها: بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ب) فِي ل: فَاسْتَحْسَنَهَا أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا ... (ج) مِنْ ط ج ي كَمَا هُوَ عَلَى السَّكَّةِ
 وَالصَّنُوجِ وَفِي كُتُبِهِمْ، وَفِي ع ل: عَبِيدُ كَمَا هُوَ الشَّائِعُ .

وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمر المؤمنين، وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز
والشَّام والعراق، المواطن التي هي ديارُ العرب، ومراكزُ الدولة، وأصلُ المِلَّة والفتح.
وازدادَ لذلك في عُنفوان الدولة وبَدْخِها لقب آخر للخلفاء يَتَمَيَّزُ به بَعْضُهم عن
بَعْض، لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم؛ فاستحدث ذلك بنو العباس حجاباً
5 لأسماهم الأعلام عن امتهاياها في ألسنة الشُّوْقة، وَصَوْنًا^(أ) لها عن الاستبدال، فتلقَّبوا
بالسَّفَّاح، والمنصور، والهادي، والمهدي، والرَّشيد، إلى آخر الدولة. واقتفى أثرهم
في ذلك العبيديون بإفريقية ومصر. وتجاوَى بنو أمية عن ذلك. أمّا بالْمَشْرِق قَبْلَهُم،
فَجَزَيَا مَعَ الغُضاضة والسَّداجة، لأنَّ العُروبيَّة وَمَنازِعَها لم تُعارَق حينئذٍ ولم يَتَحَوَّلْ
عنهم شِعارُ البِداوة إلى شِعار الحضارة. / وأمّا بالأندلس فتقليدًا لسلفهم مع ما علِّمُوهُ
10 من أنفُسِهِم من القُصور عن ذلك بالقُصور * عن الخِلافة التي استأثرت بها بنو
العباس، ثم بالعِجز^(ب) عن مُلك الحِجاز أَصْل العرب والمِلَّة، والبُعد عن دار
الخِلافة التي هي مَزَكُرُ العِصِيَّة، وأنَّهم إِنما مَنَعوا بِأَمارة القاصِيَةِ أنفُسَهُم من مَهالك
بني العباس. حتَّى إذا جاء عبدُ الرَّحمن الآخِرُ منهم، وهو النَّاصِر ابنُ الأمير عبد
الله بن محمد بن عبد الرَّحمن الأوسط، لأوَّلِ المائَةِ الرَّابِعة، واشتَهر ما نال الخِلافة
15 بالْمَشْرِق من الحِجَرِ واستِبداد الموالِي، وعيَّتهم في الخِلفاء بالْعَزْلِ والاستِبدال^(ج)
والقَتْل والسَّمْل، ذَهَب عبدُ الرَّحمن هذا إلى مِثْل مَذاهِب الخِلفاء بالْمَشْرِق
وإفريقيَّة، وتَسَمَّى بِأَمير المؤمنين، وتلقَّب بالناصِر لدين الله، وأُخِذَتْ من بَعْدِهِ
عادةٌ ومَذهبا لِقِن [عنه]^(د) ولم يكن لآبائِهِ وسَلَف قَوْمِهِ .

(أ) ل : وضوئها (ب) سقط من ل (ج) من ع ج ل ي، وفي ظ: الاستبداد (د) ظ : عليه .

واستمرَّ الحالُ على ذلك إلى أن انقضتْ عَصِيَّةُ الْعَرَبِ أَجْمَعُ، وَذَهَبَ رِسْمُ
 الْخِلَافَةِ، وَتَغَلَّبَ الْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ، وَالصَّنَائِعُ عَلَى الْعُبَيْدِيِّينَ
 بِالْقَاهِرَةِ، وَصِنَهَاجَةُ عَلَى أَمْرِ إِفْرِيقِيَّةَ، وَزَنَاتَةُ عَلَى الْمَغْرِبِ، وَمُلُوكُ الطَّوَائِفِ
 بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَافْتَسَمُوهُ، وَافْتَرَقَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ، فَاخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ
 الْمُلُوكِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ فِي الْاِخْتِصَاصِ بِالْأَلْقَابِ، بَعْدَ أَنْ تَسَمَّوْا جَمِيعاً بِاسْمِ
 السُّلْطَانِ.

فَأَمَّا مُلُوكُ الْمَشْرِقِ مِنَ الْعَجَمِ، فَكَانَ الْخُلَفَاءُ يُخَصِّصُونَهم بِالْأَلْقَابِ تَشْرِيفِيَّةَ
 يُسْتَشْعَرُ مِنْهَا اتِّقَادُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ وَحُسْنُ وِلَايَتِهِمْ، مِثْلُ: شَرَفِ الدَّوْلَةِ، وَعِصْدِ
 الدَّوْلَةِ، وَرُكْنِ الدَّوْلَةِ، وَمُعِزِّ الدَّوْلَةِ، وَنَصِيرِ الدَّوْلَةِ، وَنِظَامِ الدَّوْلَةِ، وَنِظَامِ الْمُلْكِ،
 وَبِهَاءِ الْمُلْكِ، وَذَخِيرَةِ الْمُلْكِ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ. وَكَانَ الْعُبَيْدِيُّونَ أَيْضاً يُخَصِّصُونَ بِهَا
 [155ب] أَمْراءَ صِنَهَاجَةَ. فَلَمَّا / اسْتَبَدَّوْا عَلَى الْخُلَفَاءِ قَتَعُوا بِهَذِهِ الْأَلْقَابِ، وَتَجَافَوْا عَنْ
 أَلْقَابِ الْخِلَافَةِ أَدْباً مَعَهَا، وَغَدُولاً عَنْ سِمَاتِهَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا، شَأْنُ الْمُتَغَلِّبِينَ الْمُسْتَبَدِّينَ
 كَمَا قُلْنَا قَبْلَ.

وَنَزَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ أَعَاجِمِ الْمَشْرِقِ، حِينَ قَوِيَ اسْتِيدَادُهُمْ عَلَى الْمُلْكِ،
 15 وَعَلَا كُغْبُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَتَلَاشَتْ عَصِيَّةُ الْخِلَافَةِ وَاضْمَحَلَّتْ بِالْجُمْلَةِ، إِلَى
 انْتِحَالِ الْأَلْقَابِ الْخَاصَّةِ بِالْمُلْكِ، مِثْلُ: النَّاصِرِ، وَالْمَنْصُورِ، زِيَادَةً إِلَى أَلْقَابِ كَانُوا
 يُخْتَصُّونَ بِهَا قَبْلَ هَذَا الْاِنتِحَالِ، مُشْعِرَةً بِالْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الْوَلَاءِ وَالِاضْطِنَاعِ، بِمَا
 أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطْ، فَيَقُولُونَ: صَلَاحُ الدِّينِ، أَسَدُ الدِّينِ، نَوْرُ الدِّينِ.

وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَاقْتَسَمُوا أَلْقَابَ الْخِلَافَةِ ، وَتَوَزَّعُوا لِقُوَّةِ
اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ ⁽¹⁾ قَبِيلِهَا وَعَصِيَّتِهَا ، [فَتَلَقَّبُوا] ^(ب) بِالنَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ
وَالْمُعْتَمِدِ ، وَالْمُظَفَّرِ ، وَأَمْثَالِهَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ ⁽¹⁾ يَنْعَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ : [مِنْ الْبَسِيطِ]

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مَعْتَمِدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلُكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالِهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صُورَةَ الْأَسَدِ

5

وَأَمَّا صِنَهَاجَةٌ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْأَلْقَابِ الَّتِي كَانُ خُلَفَاءُ الْعُبَيْدِيِّينَ يُلَقَّبُونَهَا
لِلتَّنْوِيهِ ، مِثْلَ نَصِيرِ الدَّوْلَةِ ، وَسَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَمُعِزِّ الدَّوْلَةِ . وَاتَّصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا
مِنْ دَعْوَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ . ثُمَّ بَعُدَتِ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا
عَهْدَهَا ، فَنَسُوا هَذِهِ الْأَلْقَابَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى اسْمِ السُّلْطَانِ .

وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مَغْرَاوَةِ الْمَغْرِبِ ، لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ إِلَّا اسْمَ
السُّلْطَانِ ، جَزِيًّا عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ وَالْغَضَاظَةِ .

10

وَلَمَّا مُجِيَ اسْمُ الْخِلَافَةِ / وَتَعَطَّلَ دَسْتُهَا ، وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ قِبَائِلِ الْبَرَبْرِ [156]
يُوسُفُ بْنُ تَاشِيفِينَ مَلِكٌ لَمُتُونَةٍ فَمَلَكَ الْعُدَوِّيَّينَ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْإِقْتِدَاءِ ،
نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَكْمِيلًا لِمَرَامِهِ دِينَهُ ، فَخَاطَبَ الْمُسْتَظْهَرَ
الْعَبَّاسِيَّ ، وَأَوْفَدَ عَلَيْهِ بِنَيْعَتِهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَابْنَهُ الْقَاضِيَّ أَبَا بَكْرٍ ، مِنْ مَشِيخَةِ 15
إِسْبِيلِيَّةٍ ، يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِثَّاهُ عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذَلِكَ ، فَاتَّقَلَّبُوا إِلَيْهِ بِعَهْدِ الْخَلِيفَةِ لَهُ

(1) سقط من ل (ب) سقط من ظ .

(1) تقدّم ذكره وتخريجُه في صفحة 272 .

على المغرب واستشعار زعيم في لبوسه وزايتته، وخاطبه فيه بأمر المسلمين، تشریفاً له واختصاصاً، فاتخذها^(أ) لقباً. ويقال إنه كان دُعي له بأمر المسلمين من قبل، أدباً مع رتبة الخلافة، لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة .

وجاء المهدي على إثرهم داعياً إلى الحق، آخذاً بمذاهب الأشعرية، ناعياً

- 5 على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لطواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك، كما هو معروف من مذهب الأشعرية. وسمى أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك التكبر. وكان يرى رأي^(ب) أهل البيت في الإمام المعصوم، وأنه لا بُدَّ منه في كل زمانٍ يُحفظُ بوجوده نظام^(ج) هذا العالم؛ فسُمي بالإمام أولاً لما قلناه من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم، وأُردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام، وتترزه عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب^(د) المتقدمين من الشيعة، 10 ولما فيها من مشاركة الأغمار والولدان من أغقاب أهل الخلافة يؤمّنون بالمشرق والمغرب .

ثم انتحل عبد المؤمن ولي عهده اللقب بأمر المؤمنين، وجرى عليه من

بغده خلفاء بني عبد المؤمن، وآل أبي حفص من بعدهم، استثنائاً / به عن سيواهم، [156ب]

- 15 لما دعا إليه شيخهم المهدي من ذلك، وأنه صاحب الأمر، وأولياؤه من بعده كذلك دون كل أحد، لانتفاء عصية قريش وتلاشيها؛ فكان ذلك دأبهم.

ولما انتقض الأمر بالمغرب وانتزعه زناتة، ذهب أولوهم مذاهب البداوة

والسذاجة واتباع لمتونة في انتحال اللقب بأمر المسلمين، أدباً مع رتبة الخلافة التي

(أ) كذا في كل الأصول، ويشير بالعائد الموثق، إلى إمارة المسلمين (ب) ع: ما رأى (ج) سقط من ل (د) ل: مذهب .

كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً، ولبني أبي حفص من بعدهم . ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمر المؤمنين، وانتحلوه لهذا العهد، استيلاغا في منازع الملك وتثمياً لمذاهبه وسماته، ﴿والله غالب على أمره﴾ [سورة يوسف، من الآية 21] .

33 • فصل، في شرح اسم البابا⁽¹⁾ والبطرك في الملة النصرانية، واسم

5 الكوهن عند اليهود

اعلم أن الملة لا بُدَّ من قائم بها عند غيبة النبي، يحملهم على أحكامها وشرائعها، ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاءهم به من التكليف. والتوغل الإنساني أيضاً بما تقدم من ضرورة السياسة فيه للاجتماع البشري، لا بُدَّ لهم من شخص يحملهم على مصالحهم، ويزعهم عن مفايدهم بالقهر^(ب)، وهو المستى بالملك .

10 والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة، وحمل الكافة على دين الإسلام طوعاً أو كرهاً، اتحدت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معاً^(ج) .

وأما ما سوى الملة الإسلامية، فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط. فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من / سياسة [157] الملك. وإنما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولأمر غير ديني، وهو ما اقتضته لهم 15 العصبيّة بما فيها من الطلب للملك بالطعن كما قدمناه^(د)، لا [لأنهم]^(هـ) مكلفون بالتغلب على الأمم كما في الملة الإسلامية، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصتهم .

(أ) شدت الباء الثانية في ع ل ي ظ (ب) سقط من ل (ج) ل: جميعاً (د) ل: قلناه (هـ) في ظ وحدها: لا أنهم.

ولذلك بقي بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع - صلوات الله عليهما - نحو
أربعمئة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك ، إنما همهم إقامة دينهم فقط . وكان
القائم به بينهم يسمى الكوهن ، كآته خليفة لموسى - صلوات الله عليه - يقيم لهم أمر
الصلوات والقربان . ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون - صلوات الله عليه -
لأن ذلك كان له ولبنيه^(أ) بالوحي^(ب) . ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر
5 بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتولون أحكامهم العامة . والكوهن أعظم رتبة [منهم]^(ج) في
الدين ، وأبعد عن شغب الأحكام . واتصل ذلك فيهم ، إلى أن استحكمت طبيعته
العصبيّة ، وتمحّضت الشوكة للملك ؛ فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورشهم الله
إياها - بيت المقدس وما جاورها - كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله
10 عليه ، فخارهم أمم الفلستين والكنعانيين والأزمن وأذوم وعمون وموآب ، ورئاستهم
في ذلك راجعة إلى شيوخهم . وأقاموا على ذلك نحواً من أربعمئة سنة ، ولم تكن لهم
صولة الملك . وصحّر بنو إسرائيل من مغالبة الأمم ، فطلبوا على لسان شمويل من
أنبيائهم ، أن يأذن الله لهم في تمليك رجل عليهم ، فملك عليهم طالوث ، وغلب
الأمم وقتل جالوث / ملك الفلستين . ثم ملك بعده داود ثم سليمان - صلوات
[157ب] الله - عليهما واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ، ثم إلى أطراف اليمن ، ثم إلى أطراف
15 بلاد الرّوم . ثم افترق الأسباط من سليمان - صلوات الله عليه - بمقتضى العصبيّة
في الدول - كما قدّمناه - إلى دولتين ، كانت إحداهما بالجزيرة^(د) والموصل^(د) للأسباط

(أ) في ج: ولبنيه من بعده (ب) هذه الجملة المحصورة بين التجميع أضافها المؤلف بخطه في حاشية الأصل ع تمويضا عن نص مشطوب ، وقتلها عنه بقية الأصول عداي التي نقلت قبل التعديل والإلغاء جملة [لأن موسى لم يغتقب] (ج) من ع وحدها ، وفي بقية الأصول : منه (د) كذا في ظ ل ي ج ، وفي ع: بنواحي نابلس .

العشرة، [وَكُرْسِيّ مُلْكِهِمْ فِيهَا صُبُصْطِيَّةٌ] ^(أ)، وَالْأُخْرَى بِالْقُدُسِ وَالشَّامِ لِبَنِي يَهُوذَا وَبَنِي يَامِينَ .

ثُمَّ غَلِبَهُمْ بِخُتْنَصْرٍ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُلْكِ، أَوَّلًا، الْأَسْبَاطُ
العشرة [فِي صُبُصْطِيَّةٍ] ^(ب)، ثُمَّ ثَانِيًا، بَنِي يَهُوذَا بَنِيَتِ الْمَقْدِسَ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ
5 نَحْوَ ^(ج) أَلْفِ سَنَةٍ، وَخَرَّبَ مَسْجِدَهُمْ وَأَحْرَقَ تَوَارِيثَهُمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ، وَنَقَلَهُمْ إِلَى
أَصْبَهَانَ ^(د) وَبِلَادِ الْعِرَاقِ، إِلَى أَنْ رَدَّهُمْ بَعْضُ مَلُوكِ الْكِنْيَةِ مِنَ الْفُرسِ إِلَى بَيْتِ
الْمَقْدِسِ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ خُرُوجِهِمْ، فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرَّسْمِ
الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ ^(هـ) فَقَطْ، وَالْمَلِكُ لِلْفُرسِ. ثُمَّ غَلَبَ الْإِسْكَندَرُ وَبَنُو يُونَانَ عَلَى الْفُرسِ،
وَصَارَ الْيَهُودُ فِي مَلِكَتِهِمْ. ثُمَّ فَشَلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ، فَاعْتَرَى الْيَهُودُ عَلَيْهِمُ بِالْعَصِيَّةِ
10 الطَّبِيعِيَّةِ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ الْإِسْطِيلَاءِ عَلَيْهِمْ، وَقَامَ بِمُلْكِهِمُ الْكَهَنَةُ ^(و) الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ
بَنِي حَشْمَنَائِي، وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ، وَغَلَبَهُمُ الرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ.
ثُمَّ رَحَفُوا ^(ز) إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبِهَا بَنُو هِيرْدُوسَ أَصْهَارُ بَنِي حَشْمَنَائِي، وَبَقِيَّةُ دَوْلَتِهِمْ،
فَخَاصَرُوهُمْ مُدَّةً، ثُمَّ افْتَتَحُوهَا عَنُوةً وَأَفْحَشُوا فِي الْقَتْلِ وَالْهَذْمِ وَالتَّخْرِيقِ، وَخَرَّبُوا
بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةٍ وَمَا وَرَاءَهَا، وَهُوَ الْخَرَابُ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ،
15 تُسَمِّيهِ الْيَهُودُ بِالْجُلُوءِ الْكُبْرَى. / فَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ بَعْدَهَا مُلْكٌ لِفَقْدَانِ الْعَصِيَّةِ مِنْهُمْ، وَبَقُوا
بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلَكَةِ الرُّومِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمُ الرَّئِيسُ عَلَيْهِمُ الْمُسَمَّى
بِالْكُوهَنِ.

[i158]

(أ) حاشية بخطه في ع (ب) من حاشية ع (ج) سقط من ل (د) ل: أصفهان (هـ) ع: للكهنة (و) ع: الكهنة
(ز) كذا في ط ع ل ي، وفي ج: رجعوا .

وكان المسيح - صلوات الله وسلامه عليه - لما جاءهم بما جاء به من الدين والنسخ لبغض أحكام التّوراة، وظهّرت على يديه الخوارق العجيبة، من إبراء المغتوه، وإحياء الموتى، واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به، وأكثرهم الحواريون أصحابه وكانوا اثني عشر، وبعث منهم رُسلًا إلى الآفاق داعين إلى ملته، وذلك أيام أوغشطش^(١)، [أول ملوك القياصرة]، وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع⁵ الملك من بني حشمّتي أضهاره. فحسده اليهود وكذبوه، وكاتب هيردوس^(ب) ملكهم ملك القياصرة أوغشطش^(ج) يُغريه به، فأذن لهم في قتله، ووقع ما تلاه القرآن من أمره. وافترق الحواريون شيعًا، ودخل أكثرهم إلى بلاد الرّوم داعين إلى دين النّصرانيّة. وكان بطرس كبيرهم، فنزل برومة دار ملك القياصرة. ثم كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى - صلوات الله عليه - في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم؛¹⁰ فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانيّة، ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللّسان اللّطيني، وكتب لوقا منهم إنجيله باللّطيني لبغض أكبر الرّوم؛ وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة؛ وكتب بطرس إنجيله باللّطيني ونسبه إلى مرقاس تلميذه. واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل، مع أنّها ليست كلّها وحيًا صرفًا بل مشوبة بكلام عيسى - صلوات الله عليه - وبكلام الحواريين؛ وكلّها^(د) مواعظ وقصص؛¹⁵ والأحكام فيها قليلة جدًا. واجتمع الحواريون الرّسل لذلك العهد برومة، ووضعوا قوانين الملة النّصرانيّة، وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس، وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها.

(١) في ط ج كتب الاسم محلاً بدون نقط (ب) سقط من ي (ج) من ع ل (د) كذا في جميع الأصول، وأبدلها المؤلف بخطه في حاشية ع بكلمة : وغالبها .

فمن شريعة اليهود القديمة التوراة، وهي خمسة أسفار، وكتاب يوشع،

[158ب]

وكتاب القضاة، وكتاب زاعوث، وكتاب يهوذا، وأسفار الملوك / أربعة، وسفر

بنيامين، وكتاب المقايين لابن كريون، ثلاثة، وكتاب عزرا الإمام، وكتاب أوشير،

وقصة هامان، وكتاب أيوب الصديق، ومزامير داود - عليه السلام - وكتب ابنه

5 سليمان - عليه السلام⁽¹⁾ - خمسة، ونبوءات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر، وكتاب

يشوع بن شارح، وزير سليمان عليه السلام.

ومن شريعة عيسى - صلوات الله عليه - المتلقاة من الحواريين، نسخ

الإنجيل الأربعة، وكتب^(ب) القتاليقون^(ج) سبع رسائل، وثامنها الأبركسيس في

قصص الرسل، وكتاب بولس^(ج) أربع عشرة رسالة، وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام،

10 وكتاب أنوغالمسيس^(د) وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي .

واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها، ثم بتركها

أخرى والتسلط عليهم بالقتل والتقي؛ إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها، فاستمروا

عليها.

وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسمه يُسمونه البطررك، وهو رئيس الملة

15 عندهم وخليفة المسيح فيهم، ويبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم

النصرانية، ويُسمونه الأسقف، أي نائب البطررك. ويُسمون الإمام الذي يُقيم

(1) سقط من ل (ب) ط: كتاب (ج) كتب المؤلف بخطه على كتاب القتاليقون، «يوخر»، وعلى كتاب بولس «يخدم».

وأخذت بهذا الترتيب نسخة ج، ولم تبادل نسخة ل الكتابين بل جعلت المؤخر آخر الأسماء، وأسقطت نسخة ي كتاب إقليمنطس

(د) في حاشية ع بخطه: أبوغالمسيس .

الصلوات ويُقيّمهم في الدين بالقسيس. ويُسمّون المُتَقَطَّع الَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي الْخُلُوةِ
لِلْعِبَادَةِ بِالرَّاهِبِ . وَأَكْثَرُ خَلَوَاتِهِمْ فِي الصَّوَامِعِ . وَكَانَ بُطْرُسُ الرَّسُولُ ، رَأْسُ الْحَوَارِيِّينَ
وَكَبِيرُ التَّلَامِيذِ بَرُومَةُ ، يُقِيمُ بِهَا دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ نَيْرُونُ خَامِسُ الْقِيَاصَةِ .
ثُمَّ قَامَ بِخِلَافَتِهِ فِي كُرْسِيِّ رُومَةِ أَرْيُوسُ . وَكَانَ مُرْقَاسُ الْإِنْجِيلِيِّ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَمِصْرَ
وَالْمَغْرِبِ دَاعِيًا سَبْعَ سِنِينَ ؛ فَقَامَ بَعْدَهُ حَنَانِيَا وَتَسَمَّى بِالْبَطْرِكِ ، وَهُوَ أَوَّلُ الْبَطَارِكَةِ 5
فِيهَا . وَجَعَلَ مَعَهُ اثْنَيْ عَشَرَ قِسًّا عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْبَطْرِكُ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنَ الْإِثْنَيْ
عَشَرَ مَكَانَهُ ، وَيُخْتَارُ مِنْ / الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدٌ مَكَانَ ذَلِكَ الثَّانِي عَشَرَ . فَكَانَ أَمْرُ الْبَطَارِكَةِ [159]
إِلَى الْقُسُوسِ . ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قَوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِ ، وَاجْتَمَعُوا بِنِيقِيَّةِ
أَيَّامَ قُسْطَنْطِينِ لِتَحْرِيرِ الْحَقِّ فِي الدِّينِ ، وَاتَّفَقَ ثَلَاثُائَةً وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ
عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي الدِّينِ ، فَكَتَبُوهُ وَسَمَّوْهُ الْأَمَانَةَ ، وَصَيَّرُوهُ ⁽¹⁾ أَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ . 10
وَكَانَ فِيهَا كِتَابُهُ أَنَّ الْبَطْرِكَ الْقَائِمَ بِالَّذِينَ لَا يَرْجِعُ فِي تَعْيِينِهِ إِلَى اجْتِهَادِ الْأَقِسَّةِ كَمَا
قَرَّرَهُ حَنَانِيَا تَلْمِيزُ مُرْقَاسَ ، وَأَبْطَلَ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، وَإِنَّمَا يَقْدَمُ عَنْ مَلَأٍ وَاخْتِيَارٍ مِنْ
أُمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُؤُسَائِهِمْ ؛ فَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي قَوَاعِدِ الدِّينِ ،
وَكَانَتْ لَهُمْ مُجْتَمَعَاتٌ فِي تَقْرِيرِهِ ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ؛ فَبَقِيَ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى
ذَلِكَ . 15

وَاتَّصَلَ فِيهِمْ نِيَابَةُ الْأَسَاقِفَةِ عَنِ الْبَطَارِكَةِ ، وَكَانَ الْأَسَاقِفَةُ يَدْعُونَ الْبَطْرِكَ
بِالْأَبِ تَعْظِيمًا لَهُ ، فَصَارَ الْأَقِسَّةُ يَدْعُونَ الْأَسْقُفَ فِيمَا غَابَ عَنِ الْبَطْرِكِ بِالْأَبِ أَيْضًا
تَعْظِيمًا لَهُ ، فَاشْتَبَهَ الْأَسْمُ فِي أَغْصَارِ مُتَطَاوِلَةٍ ، يُقَالُ آخِرُهَا بَطْرِكِيَّةٌ هِرْقُلُ

(1) اقرئت حاشية ع بإلغاء الكلمة وإبدالها بفعل : « وجعلوه » ، مكتوبة بخطه .

بإسكندرية؛ فأرادوا أن يميّزوا البطرّك عن الأسقف في التّعظيم فدعّوه البابّا، ومعناه أبو الآباء. وظهر هذا الاسمُ أوّل ظهوره بمصرَ على ما زعم جرجس بن العميد في تاريخه⁽¹⁾. ثُمَّ نَقَلُوهُ إلى صَاحِبِ الكُرْسِيِّ الأعظم عندهم وهو كرسيُّ رُومَة، لأنّه كرسيُّ بطرّس الرّسول كما قدّمناه. فلم يزل سِمَةً عليه إلى الآن.

5 ثم اختلف النّصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يَعتقدونه في المسيح، وصاروا طوائفَ وِفرقاً، واستظهروا بملوك النّصرانيّة كلّ على صاحبه. فاختلفت الحال في العصور في ظهور فِرْقَةٍ دون فِرْقَةٍ، إلى أن استقرّت لهم ثلاث طوائف، هي فِرْقُهُم ولا يَلْتَفَتُونَ إلى غَيْرِهَا، / وهم: المَلِكِيَّة، واليَغُوبِيَّة، والنّسْطُورِيَّة.

[159ب]

10 ولم تر أن نُسَخِّم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كُفْرِهِمْ، فهي على الجُمْلَةِ مَعْرُوفَةٌ، وكلُّهَا كُفْرٌ كما صرّح به القرآن الكريم، ولم يَتَّقِ تَيْنُنَا وبينهم في ذلك جِدَالٌ ولا اسْتِدْلَالٌ، إنما هو الإِسْلَامُ أو الجِزْيَةُ أو القَتْلُ.

ثم اِخْتَصَّتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرِكٍ؛ فَبَطْرِكُ رُومَة اليوم المسمّى⁽¹⁾ بالبابّا على رَأْيِ المَلِكِيَّة، ورُومَة للإفرنجية، ومُلْكُهُمْ قائمٌ بتلك النّاحية. وبَطْرِكُ المَعَاهِدِينَ بِمِصْرَ

(1) ل: هو المسمّى.

(1) لم يتمكن من الاطلاع عليه، وهذه الإفادة أوردها القلقشندي - وابن العميد أحد مصادره- فذكر عن هذا اللقب أنه "أول ما وضع عندهم على بطرك الإسكندرية صاحب كرسي مرقص الإنجيلي، ثم رأوا أن بطرك رومية أحق بهذا اللقب، لأنه صاحب كرسي بطرس كبير الحوارين ورسول المسيح إلى رومية". (صبح الأعشى 5 : 472-) وكرر البيان نفسه في الجزء 13 : 274، وأورده المقرئ في المواعظ والاعتبار 4 : 975. ويشير المحقق د. أيمن فؤاد سيّد أن أصل هذه البيانات سعيد بن البطريق في كتابه : المجموع على التحقيق والتصديق 96.

على رأي اليعاقبيّة، وهو ساكن بين ظهرائهم؛ والحبشة يدينون بدينهم؛ ولبطرك
مِصرَ فيهم أساقفة يتوبون عنه في إقامة دينهم هنالك. واختص اسم البابا ببطرك
روميّة لهذا العهد. ولا تُسمّى اليعاقبة بطرّكهم بهذا الاسم.

وضبطُ هذه اللفظة بباءين موحدتين من أسفل، والتطّوق بها مفخّمة والثانية

مُشدّدة . 5

ومن مذاهب البابا عند الإفرنجيّة أنّه يحضّم على الاتقياد لملك واحد
يزجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم، تحرّجاً من افتراق الكلمة، ويتحرّى به
العصبية التي لا فوقها منهم، لتكون يده عالية على جميعهم، ويسمّونه الإنبرطور؛
وحزفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين؛ ويأشّره بوضع التاج على رأسه للتبرّك،
فيُسمّى المتّوج؛ ولعلّه معنى لفظة الإنبرطور . 10

هذا ملخّص ما أوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا
والكوهن؛ والله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [سورة النحل، من الآية 93].

34 • فصلٌ، في مراتب الملك والسُّلطان وألقابها

اعلم أنّ السُّلطان في نفسه ضعيفٌ يحملُ أمراً ثقيلاً، فلا بدّ له من

15 [i160] الاستعانة بأبناء جنسه. وإذا كان يستعين بهم في / ضرورة معاشه وسائر مؤنّه، فما

ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاؤه الله من خلقه وعباده. وهو محتاجٌ إلى حماية
الكافة من عدوّهم بالمداغة عنهم، وإلى كفّ عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم

بإمضاء الأحكام الوازنة فيهم، وكَفَّ الغُدوانَ عليهم في أموالهم حتى بإصلاح
 سابلتهم، وإلى حملهم على مصالحهم، وما⁽¹⁾ تَعْمُهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم،
 من تَقُّد المعاش والمكايل والموازين حَذراً من التَّطْفِيفِ ، وإلى النَّظَر في السِّكَّةِ
 لحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش، وإلى سياستهم بما يُريده منهم من الانقياد
 5 له والرضا بمقاصده فيهم ، وانفراده بالمجد دونهم . فَيَتَحَمَّلُ من ذلك فوق الغاية من
 مُعَانَةِ القلوب . قال بعض الأشراف من الحكماء : لَمُعَانَةُ نَقْلِ الجبال من أماكنها
 أهونُ عليَّ من مُعَانَةِ قلوب الرجال .

ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو
 الاضطناع القديم للدولة كانت أكمل، لما يقع في ذلك من مُجَانَسَةِ خُلُقِهِم [خُلُقُهُ] (ب)،
 10 في الاستعانة . قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، أَشَدُّ بِهِ
 أَزْرِي، وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي﴾ [سورة طه، الآيات 29-32].

وهو إما أن يستعين في ذلك بسيفه ، أو بقلمه ، أو برأيه ومعارفه ، أو
 بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه، فيشغلوه عن النظر في مهماتهم. أو يدفع النظر
 في الملك كله إليه، ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه له . فلذلك قد توجد
 15 لرجل واحد وقد تفرق في أشخاص؛ وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة،
 كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات، وقلم الصكوك والإقطاعات، وإلى قلم
 المُحَاسَبَةِ ، وهو صاحب الجباية والعطاء / وديوان الجيش ؛ وكالسيف يتفرع إلى
 صاحب الحزب ، وصاحب الشرطة، وصاحب البريد، وولاية الثغور .

(1) ظ : أو ما (ب) سقط من ظ .

ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مُندرجة تحت الخلافة ، لاشتغال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدّمناه . فالأحكام الشرعية متعلّقة بجميعها وموجودة لكلّ واحدة منها في سائر وجوهها ، لعموم تعلّق الحكم الشرعيّ بجميع أفعال العباد. فالفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تعلّيدها استنباداً على الخلافة ، وهو معنى السلطان ، أو تفويضاً منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي، وفي حدود نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو مُقيّداً، وفي موجبات العزل إن عرّضت ، وغير ذلك من معاني الملك والسلطان . وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان ، من وزارة أو جباية أو ولاية، لا بدّ للفقيه من النظر في جميع ذلك، لما قدّمناه من انبساط حكم الخلافة الشرعية في الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان . إلّا أن كلامنا في [وظائف]^(أ) 10 الملك والسلطان ورُتبته إنّما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر، لا بما يخصّها من أحكام [الشرع]^(ب) ، فليس من غرض كتابنا كما علّمت، فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية؛ مع أنّها مُستوفاة في كُتب الأحكام السلطانية، مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماورديّ وغيره من أعلام الفقهاء؛ فإن أردت استيعابها فعليك بمطالعتها هنالك. وإنّا تكلمنا في الوظائف الخِلافية وأفردناها، لنميّز بينها وبين الوظائف 15 السلطانية فقط، لا لنحقّق أحكامها الشرعيّة، فليس من غرض كتابنا؛ فإنّا إنّما نتكلّم في ذلك بما / نقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني، والله الموفق. [161]

(أ) من ع ج ل ي، وفي ظ: رتبة (ب) سقط من ظ .

أ. الوزارة

وهي أُمُّ الحُطَطِ السُّلْطَانِيَةِ وَالرَّتَبِ المُلُوكِيَّةِ ، لَأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الإِعَانَةِ ؛ فَإِنَّ الوِزَارَةَ مَأْخُوذَةٌ إِمَّا مِنْ المُؤَاوَزَةِ وَهِيَ المُعَاوَنَةُ ، أَوْ مِنَ الوِزْرِ وَهُوَ الثَّقُلُ ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مُفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى المُعَاوَنَةِ المُطْلَقَةِ .

5 وقد كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةَ أَنْحَاءٍ ، لِأَنَّهَا :

إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ الكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا ، مِنْ النَّظَرِ فِي الجُنْدِ وَالسَّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ الحِمَايَةِ وَالمُطَالَبَةِ ؛ وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الوَزِيرُ المُتَعَارَفُ فِي الدُّوَلِ القَدِيمَةِ بِالمَشْرِقِ وَلِهَذَا العَهْدِ بِالمَغْرِبِ .

10 وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعْدَ عَنْهُ فِي المَكَانِ أَوْ فِي الزَّمَانِ ، وَتَنْفِيزِهِ الأَوَامِرَ فِيمَنْ هُوَ مَخْجُوبٌ عَنْهُ ، وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ الكَاتِبُ .

وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ [جِبَايَتِهِ لِلْمَالِ] ⁽¹⁾ وَإِثْقَاقِهِ ، وَضَبْطِ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْيَعَةٍ ، وَصَاحِبُ هَذَا هُوَ صَاحِبُ المَالِ وَالجِبَايَةِ ، وَهُوَ المَسْمُومُ بِالْوَزِيرِ لِهَذَا العَهْدِ بِالمَشْرِقِ .

15 وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مُدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِي الحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَجِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنْ مُهِمَّتِهِ ، وَهَذَا رَاجِعٌ لِصَاحِبِ البَابِ الَّذِي يَخْجُبُهُ .

(1) فِي ظ : جِبَايَةِ المَالِ .

فلا تغدو أحواله هذه الأربعة بوجه ، وكلُّ خُطّةٍ أو رُتبةٍ من رُتبِ الملك
والسلطان فإنها تزجج . إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامّةً فيما تحت يد
السلطان من ذلك الصنف ؛ إذ هو يقتضي مُباشرةَ السلطان دائماً ومُشاركته في كلِّ
صنف من أحوال مُلكه . وأمّا ما كان خاصّاً ببغض الناس ، أو ببغض الجهات ،
فيكون دون الرتبة الأخرى ، كقيادة ثغر ، أو ولايةٍ جبايةٍ خاصّة ، أو النظر في أمر
خاص كحسبة^(١) الطعام ، أو النظر في السكّة ؛ فإن هذه كلّها نظرت في أحوال
خاصّة ، فيكون صاحبها تبعاً / لأهل النظر العام ، وتكون رُتبته مرؤوسةً لأولئك . [161ب]

وما زال الأمر في الدّول قبل الإسلام [هذا]^(ب) ، حتّى إذا جاء الإسلام
وصار الأمر خلافةً فذهبت هذه الخُطط كلّها بذهاب رسم الملك ، إلا ما هو
طبيعيٌّ من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه ، فلم يُمكن زواله إذ هو أمرٌ لا بُدَّ منه .
فكان ﷺ يُشاوِرُ أصحابه ويُفاوضهم في مهمّاته العامّة والخاصّة ، ويختصُّ مع ذلك أبا
بكر بخصوصيات أُخرى ؛ حتّى كان العربُ الذين عرّفوا الدّول وأحوالها في كسرى
وقيصر والتّجاشي يُسمّون أبا بكر وزيره . ولم يكن لفظُ الوزير يُعرف بين
المُسلمين ، لذهاب رُتبِ الملك بسداجه الإسلام . وكذا عُمرُ مع أبي بكر ، وعليّ
وعُثمان مع عمر . وأمّا حال الجباية والإنفاق والحُسبان ، فلم يكن عندهم برُتبة ؛ لأنّ
القوم كانوا عرباً أمّيين لا يُحسنون الكتاب ولا الحساب . فكانوا يستعملون في
الحُسبان أهل الكتاب ، أو أفراداً من موالي العجم ممّن يُجيده ، وكان قليلاً فيهم . وأمّا
أشرافهم فلم يكونوا يُجيدونه ؛ لأنّ الأميّة كانت صفتهم التي امتازوا بها . وكذا حال

(١) ي : كالنظر في الطعام (ب) سقط من ظ .

المخاطبات وتنفيد الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة، للأمة التي فيهم، والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته، ولم تُحج السياسة إلى اختياره، لأن الخلافة إنما هي دين وليست من السياسة الملكية في شيء. وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاذ للخليفة أحسنها؛ لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات. ولم يتق إلا الخط، فكان الخليفة يستنيب في كتابه، متى عن له، من يحسنه. وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشرعة، فلم يفعلوه.

[162] فلما انقلبت / الخلافة إلى الملك، وجاءت رسوم السلطان وألقابه، كان أول شيء بُدئ به في الدولة شأن الباب وسدّه دون الجمهور، لما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلي، ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات. فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسمّوه الحاجب. وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجته قال له: ولينك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله؛ وصاحب البريد فأمر ما جاء به؛ وصاحب الطعام لئلا يفسد.

ثم استفحل الملك بعد ذلك، فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستثلافهم؛ وأطلق عليه اسم الوزير. وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين؛ واتخذ للسجلات كاتب مخصوص خوّطة على أسرار السلطان أن تشتهر فتفسد سياسته مع قومه؛ ولم يكن بمشابة الوزير، لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام؛ إذ اللسان لذلك العهد على خاله لم يفسد؛ فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ. هذا سائر دولة بني أمية؛ فكان

النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامًّا فِي أَحْوَالِ التَّفْوِيزِ وَالْمُقَاوَضَاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْجَبَايَاتِ⁽¹⁾ وَالْمَطَالِبَاتِ، وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي دِيْوَانِ الْجُنْدِ وَقَرْضِ الْعَطَاءِ بِالْأَهْلَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَاسْتَفْخَلَ الْمَلِكُ وَعَظُمَتْ مَرَاتِبُهُ وَارْتَفَعَتْ، عَظُمَ شَأْنُ الْوَزِيرِ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ التِّيَابَةُ فِي إِنْفَازِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ، وَتَعَيَّنَتْ مَرْتَبَتُهُ فِي 5 الدَّوْلَةِ، وَعَنْتْ لَهَا الْوُجُوهُ وَخَضَعَتِ الرِّقَابُ، وَجُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي دِيْوَانِ الْحُسْبَانِ لَمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خُطُّهُ مِنْ قَسَمِ الْأَعْطِيَاتِ فِي الْجُنْدِ، فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِي جَمْعِهِ وَتَفْرِيقِهِ /، وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ، ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِي الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لَصُّونِ 10 أَشْرَارِ السُّلْطَانِ وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ، لَمَّا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسِجَلَاتِ السُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الدِّيَاعِ وَالشِّيَاعِ، وَدُفِعَ إِلَيْهِ. فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِحُطَيِّ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ، وَسَائِرِ مَعَانِي الْوِزَارَةِ وَالْمُعَاوَنَةِ. حَتَّى لَقِيَ دُعَى جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ، إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ. وَلَمْ يَخْرُجَ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا الْحِجَابَةُ الَّتِي هِيَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ، فَلَمْ تَكُنْ لَهُ، لِاسْتِنْكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ .

ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الاسْتِئْذَانِ عَلَى السُّلْطَانِ^(ب)، وَتَعَاوَرَ فِيهَا 15 اسْتِئْذَانُ الْوُزَرَاءِ مَرَّةً وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى. وَصَارَ الْوَزِيرُ إِذَا اسْتَبَدَّ مُحْتَاجًا إِلَى اسْتِئْذَانِ الْخَلِيفَةِ إِتْيَاهُ لَذَلِكَ، لِتَصَحِّحِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَتَجْرِي عَلَى حَالِهَا، كَمَا تَقَدَّمَ. فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وَزَارَةٍ تُنْفِذُ، وَهِيَ حَالٌ مَا يَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ،

(1) ل ي : الجبايات، وكانت هكذا في ع ، ثم غُدِّلَتْ إِلَى الْجَبَايَاتِ (ب) ع : الخلفاء .

والوزير كالوكيل في تنفيذ أحكامه^(١)، وإلى وزارة تفويض، وهي حال ما يكون
 الوزير مستبداً عليه. [وقد فوّض إليه الخليفة جميع أمور خلافته وجعلها لتظريه
 واجتهاده. وجرى حينئذ الخلاف في العقد لوزيرين معاً بوزارة التفويض، مثلاً جرى
 في العقد لإمامين معاً، وقد تقدّم في أحكام الخلافة^(ب). ثم استمر الاستبداد وصار
 5 الأمر لملوك العجم. وتعطل رسم الخلافة، ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا
 ألقاب الخلافة، واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لأنهم حوّل لهم، فتسموا
 بالإمارة والسُلطان. وكان المستبد على الدولة يُسمى أمير الأمراء أو بالسُلطان،
 إلى^(ج) ما يحلّيه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم، وتركوا اسم الوزارة إلى من
 يتولّاها للخليفة في خاصته. ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم؛ وفسد
 10 اللسان خلال ذلك كله، وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس، فامتدّت، وترفع^[163]
 الوزراء عنها لذلك، ولأنهم عجم وليس تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم، فتخبر
 لها من سائر الطبقات واختصّت به، وصارت خادمة للوزير. واختص اسم الأمير
 بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها، ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب، وأمره
 نافذ في الكلّ، إمّا نيابة أو استبداداً؛ واستمر الأمر على هذا.

15 ثم جاءت دولة الترك آخرًا بمصر، فرأوا الوزارة قد ابتدلت بترفع أولئك
 عنها، ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المخجور، ونظره مع ذلك معقّب بنظر الأمير،
 فصارت مرووسة ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم
 الوزارة. وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يُسمى عندهم بالنائب لهذا العهد.
 واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية.

(١) مستدرک بخطه انقردت به لسخنا ع ج (ب) مُخرج من حاشيتي ع ج بخطه ، وسقط من بقية النسخ (ج) ل : أو .

وأما دَوْلَةُ بني أُمَيَّة بالأندلس، فأبقوا اسمَ الوَزيز في مَذلوله أَوَّل الدَّوَلَة ، ثم قَسَمُوا حُطَّتَه أَصْنَافاً، وأَفَرَدُوا لِكُلِّ صِنْفٍ وَزيراً، فَجَعَلُوا لِحُسْبَانِ المَالِ وَزيراً، وَلِلرَّشْلِ وَزيراً، وَلِلنَّظَرِ فِي حَوَائِجِ الْمُتَظَلِّمِينَ وَزيراً، وَلِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ الشَّغُورِ وَزيراً. وَجَعَلَ لَهُم بَيْتٌ يَجْلِسُونَ فِيهِ عَلَى فُرْشٍ مُنْصَدَّةٍ لَهُمْ، وَيُنْقَدُونَ أَمْرَ السُّلْطَانِ هُنَاكَ، كُلٌّ فِيمَا جُعِلَ لَهُ. وَأَفَرَدَ لِلتَّرْدُدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِ الْخَلِيفَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ارْتَقَعَ عَنْهُمْ 5 مُبَاشَرَةَ السُّلْطَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ فَارْتَقَعَ مَجْلِسُهُ عَنْ مَجَالِسِهِمْ وَخَصَّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ؛ وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ هَذَا إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ. فَارْتَقَعَتْ حُطَّةُ الْحَاجِبِ وَمَرَّتْهُ عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ، حَتَّى صَارَ مَلُوكُ الطَّوَائِفِ يَنْتَحِلُونَ لِقَبَّهَا، فَأكْبَرَهُمْ / يَوْمئِذٍ يُسَمَّى الْحَاجِبُ كَمَا نَذَكِرُهُ. [163ب]

ثم جاءت دَوْلَةُ الشَّيْعَةِ بِإِفْرِيقِيَّةٍ وَالْقَيْرَوَانِ، وَكَانَ لِلْقَائِمِينَ بِهَا رُسُوحٌ فِي الْبِدَاوَةِ، فَأَغْفَلُوا أَمْرَ هَذِهِ الْخُطَطِ أَوَّلًا وَتَتَقَيَّحُ أَسْمَاءُهَا، حَتَّى أَذْرَكَتْ دَوْلَتُهُمُ الْحَضَارَةَ، 10 فَصَارُوا إِلَى تَقْلِيدِ الدَّوْلَتَيْنِ قَبْلَهُمْ فِي وَضْعِ أَسْمَاءِهَا كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ.

ولَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، أَغْفَلَتْ الْأَمْرَ، أَوَّلًا لِلْبِدَاوَةِ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى انْتِحَالِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ؛ وَكَانَ اسْمُ الْوَزِيرِ فِي مَذلوله. ثُمَّ اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الْأُمَوِيِّينَ وَقَلَّدُوها فِي مَذَاهِبِ السُّلْطَانِ، وَأَصَارُوا اسْمَ الْوَزِيرِ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ فِي مَجْلِسِهِ، وَيَقِفُ بِالْوُفُودِ وَالْإِخْلَاقِ عَلَى السُّلْطَانِ عِنْدَ الْحُدُودِ؛ فِي تَحِيَّهِمْ 15 وَخِطَابِهِمْ وَالْآدَابِ الَّتِي تَلْزَمُ فِي الْكُؤُنِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَرَفَعُوا حُطَّةَ الْحِجَابَةِ عَنْهُ مَا شَاءُوا، وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ.

وأما فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ ، فَيُسَمُّونَ هَذَا الَّذِي يَقِفُ بِالنَّاسِ عَلَى حُدُودِ الْآدَابِ فِي اللَّقَاءِ وَالتَّحِيَّةِ فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ، وَالتَّقَدُّمُ بِالْوُفُودِ بَيْنَ يَدَيْهِ ،

يُسَمُّونَهُ الدَّوَادَارَ، وَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ اسْتِثْبَاعَ كَاتِبِ السِّرِّ، وَأَصْحَابِ الْبُرْدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي حَاجَاتِ السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَفِي الْحَضَرَةِ، وَحَالَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَاللَّهُ مُتَوَلِّي الْأُمُورِ.

ب. الْحِجَابَةُ

5 قد قَدَّمْنَا أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ كَانَ مَخْصُوصاً فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْعَامَّةِ، وَيَعْلُقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهُمْ عَلَى قَدَرِهِ وَفِي مَوَاقِيتِهِ. وَكَانَتْ هَذِهِ مَثْنَزَلَةً يَوْمئِذٍ عَنِ الْخُطَطِ مَرْوُوسَةً لَهَا؛ إِذِ الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ فِيهَا بِمَا يَرَاهُ. وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرُ أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ؛ فَهِيَ بِمَضَرِ مَرْوُوسَةٍ لِسَاحِبِ الْخُطَّةِ الْعُلْيَا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ.

10 / وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ، فَكَانَتْ الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ [164] عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَيَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ. فَكَانَتْ فِي دَوْلَتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فِي أَخْبَارِهِمْ؛ كَابْنِ حُدَيْرٍ وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَّابِهِمْ. ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْإِسْتِئْدَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ، اخْتَصَّ الْمُسْتَبِدُّ بِاسْمِ الْحِجَابَةِ لَشَرَفِهَا؛ فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنَاهُ كَذَلِكَ. وَلَمَّا بَدَأُوا فِي مَظَاهِيرِ الْمُلْكِ وَأَطْوَارِهِ، جَاءَ مَنْ بَغَدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فَلَمْ يَتْرَكُوا لَقَبَهَا، وَكَانُوا يَعْدُونَهَا شَرَفًا لَهُمْ. وَكَانَ أَغْظَمُهُمْ مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ أَلْقَابِ الْمُلْكِ 15 وَأَسْمَاءَهُ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِي الْوِزَارَتَيْنِ، يَغْنُونُ بِهِ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ، وَيُدْلُونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَبِذِي الْوِزَارَتَيْنِ عَلَى جَمْعِهِ الْخُطَّتِي السَّيْفَ وَالْقَلَمَ.

ثُمَّ لم يكن في دُول المغرب وإفريقيّة ذكرٌ لهذا الاسم ، للبداوة التي كانت فيهم . ورُبّما يُوجد في دَوَلة العُبَيْدِيِّين بِمِصر عند اسْتِغْلاظِها وحَضارتها ، إلّا أنّه قليلٌ .

ولما جاءت دولة الموحّدين ، لم تستمكّن فيها الحضارة الداعية إلى اتّحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء ، إلّا آخرًا . فلم يكن عندهم من الرّتب إلّا 5 الوَزيز ، فكانوا أوّلًا يُخصّصون بهذا الاسم الكاتب المتصرّف المُشارك للسُّلطان في خاصّ أمره ، كأمين عطية ، وعبد السلام الكومي . وكان له مع ذلك النظر في الحُساب والأشغال الماليّة . ثم صار بعد ذلك اسم الوَزيز لأهل نسب الدولة من الموحّدين ، كأمين جامع وغيره . ولم يكن اسم الحاجب معروفًا في دولتهم يومئذٍ .

10 وأما بنو أبي حفص بإفريقيّة ، فكانت الرئاسة في دولتهم أوّلًا ، والتّقدّم لوزير الرّأي والمشورة ؛ وكان يُخصّص باسم شيخ الموحّدين ، وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب . واختصّ / الحُساب والديوان برتبة أخرى يُسمّى [164ب] مُتولّيها بصاحب الأشغال ، ينظر فيها النظر المطلق في الدّخل والخرج ، ويحاسب ويستخلص الأموال ، ويُعاقب على التّفريط ، وكان من شرطه أن يكون من الموحّدين .

15 واختصّ عندهم القلم أيضًا بمن يُجيد التّرسيل ويُؤتمن على الأسرار ؛ لأنّ الكتابة لم تكن من مُنتحل القوم ولا التّرسيل بلسانهم ؛ فلم يُشترط فيه النسب .

واحتاج السُّلطان لاتّساع مُلكه وكثرة المُرتزقين في داره ، إلى قهَرمان خاصّ بداره في أخواله يُجرّيها على قدرها وترتيبها ، من رِزقٍ وعطاءٍ وكِسوةٍ ونفقةٍ في

المطابخ والاضطرابات وغيرها، وحضر للخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية. فخصوه باسم الحاجب، ورُبما أضافوا له⁽¹⁾ كتاب العلامة على السجلات إذا اتفق أن يُحسن صناعة الكتابة، ورُبما جعلوه لغيره. واستمر الأمر على ذلك، وحجب السلطان نفسه عن الناس، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم. ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب، ثم الرأي والمشورة، فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط.

ثم جاء الاستبداد والحقير مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم، ثم استبد بعد ذلك حافده السلطان أبو العباس على نفسه، وأذهب آثار الحجير والاستبداد بإذهاب خطة الجباية التي كانت سلماً إليه، وبأشْر أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد، والأمر في ذلك لهذا العهد.

وأما دول زناته بالمغرب، وأعظمها دولة بني مرين، فلا أثر لاسم الحاجب عندهم. وأما رئاسة الحزب والعساكر فهي للوزير، ورُبته القلم في الحُساب والرسائل راجعة إلى من يُحسنها من أهلها، وإن / اختصت ببعض البيوت من المضطنعين في دولتهم. وقد تجتمع عندهم وقد تفرق. وأما باب السلطان وحجبه عن العامة، فهي رتبة عندهم يُسمى صاحبها بالمزوار^(ب)، ومعناه المقدم على الجنادرية، المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره، وتصريف عقوباته وإنزال سطوته، وحفظ المعتقلين في سجونهم. والعريف عليهم في ذلك، فالباب له، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامة راجع إليه، فكانها وزارة صغرى.

(1) في ل : إليه (ب) ظ : المزاور .

وأما دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ، فَلَا أَثَرَ عَنْدهُمْ لشيءٍ من هذه الألقاب ولا تمييزِ
الخطَط، لِبداوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا. وَإِنَّمَا يُخَصَّصُونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ
مُنْقَذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ، كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ. وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ
الْحُسْبَانَ وَالسَّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا؛ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي بَيْعَتِهَا^(١)
وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُذْ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ.

5

وأما أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ، فَالْمَخْصُوصُ عَنْدهُمْ بِالْحُسْبَانِ وَتَنْفِيذِ خَالِ
السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَةِ يُسَمَّوْنَهُ بِالْوَكِيلِ، وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ
يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ. وَالسُّلْطَانُ عَنْدهُمْ يَضَعُ خَطَّةً عَلَى السَّجَلَاتِ كُلِّهَا، فَلَيْسَ هُنَاكَ
خُطَّةٌ لِلْعَلَامَةِ كَمَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الدُّوَلِ.

- 10 وأما دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ، فَاسْمُ الْحَاجِبِ عَنْدهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشُّوْكَةِ،
وَهُمُ التُّرْكُ، يُنْقَذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ، وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ. وَهَذِهِ الْوُظُفَةُ
عَنْدهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.
وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَّةُ وَالْعَزْلُ فِي بَعْضِ الْوُظَائِفِ عَلَى الْأَخْيَانِ، وَيُقْطَعُ الْقَلِيلُ مِنَ الْأَزْزَاقِ،
وَيُثَبَّتُهَا، وَتُنْفَذُ أَوَامِرُهُ وَمَرَاسِمُهُ كَمَا تُنْفَذُ الْمَرَاسِمُ / السُّلْطَانِيَّةُ، وَكَأَنَّ لَهُ النِّيَابَةَ الْمُطْلَقَةَ [165ب]
15 عَنْ السُّلْطَانِ. وَلِلْحُجَّابِ الْحُكْمُ فَقَطْ فِي طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ،
وَإِجْبَازٍ مِنْ لَا يَنْتَقَادُ لِلْحُكْمِ؛ وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ.

وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ
أَصْنَافِهَا، مِنْ خَرَجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ، ثُمَّ [فِي] ^(ب) تَصْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ

(١) ي : تبعها (ب) سقط من ظ .

أو الجزايات المقدرة، وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية، والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أوضاعهم. ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط، القائمين على ديوان الحسبان والجباية، لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة. وقد يؤلفها السلطان بعض الأعيان لأهل الشوكة من رجال الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك. والله مدبر الأمور ومصرفها 5 بحكمته، لا إله إلا هو .

ج. ديوان الأعمال والجبايات

هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم، وصرف أعطياتهم في إitanاتهم. والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يريتها قومة تلك الأعمال، وقهارة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج، مبني على جزء كبير من الحسبان، لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال؛ ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال والمباشرين لها. ويقال إن أصل هذه التسمية، أن كسرى نظر يوماً إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون / مع أنفسهم كأنهم يحدثون، فقال: ديوانه، أي مجانيين بلغة 15 الفرس، فسُمي موضعهم بذلك، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقل: ديوان، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسابات. وقيل إنه اسم للشياطين بالفارسية؛ وسمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الأمور ووقوفهم على الجلي منها والحقي، وجمعهم لما شذ وتفرق؛ ثم نقل إلى مكان جلوسهم

لتلك الأعمال. وعلى هذا فَيَتَنَاوَلُ اسمُ الدِّيوانِ كُتَّابَ الرِّسَائِلِ ومكانَ جُلُوسِهِمْ بِيَابِ السُّلْطَانِ على ما يَأْتِي بَعْدُ. وقد تُفَرَّدُ هذه الوَظيفَةُ بناظِرٍ، كما يُفَرَّدُ في بعض الدُّوَلِ النَّظَرُ في العساکِرِ وإِقطاعاتِهِمْ وحُسابِ أعْطياتِهِمْ أو غير ذلك، على حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدَّوْلَةِ وما قَرَّرَهُ أُولُوها.

واعْلَمْ أَنَّ هذه الوَظيفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ في الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الغَلَبِ والاستيلاء 5 والنَّظَرِ في أعْطافِ المُلْكِ وفُنُونِ التَّنْهِيدِ .

وأوَّلُ من وَضَعَ الدِّيوانَ في الدَّوْلَةِ الإسلاميَّةِ عُمَرُ رضي الله عنه، يُقَالُ بسببِ مالٍ أَتَى به أَبُو هُرَيْرَةَ مِنَ البَحْرَيْنِ، اسْتَكْثَرُوهُ وَتَعَبَوْا في قَسْمِهِ، فَسَمَوْا إلى إِيصَاءِ الأَمْوَالِ وَضَبْطِ العَطَاءِ والحُقُوقِ؛ فَأشارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بالدِّيوانِ، وقال: رَأَيْتُ مَلُوكَ الشَّامِ يُدَوِّنُونَ؛ فَقبِلَ مِنْهُ عُمَرُ. وقيل بَلْ أَشارَ عَلَيْهِ به الهُرُمَزَانُ لما رآه 10 يَتَعَثُّ البَعُوثَ بِغَيْرِ دِيوانٍ؛ فقال له: وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبَةٍ مِنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ؟ فَإِنَّ مِنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ أَخْلَ بِمَكَانِهِ، وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ؛ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيواناً. وسَأَلَ عُمَرُ عَنِ اسْمِ الدِّيوانِ، فَفُسِّرَ لَهُ. ولما أَجَمَعَ على ذَلِكَ أَمَرَ عَقِيلَ بْنَ / أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ [166ب] ابْنَ تَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ، وَكانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ، فَكُتِبُوا دِيوانَ العساکِرِ الإسلاميَّةِ على تَرْتِيبِ الأنْسابِ، مُبْتَدِئاً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وما بَعْدَها، الأَقْرَبُ 15 فالأَقْرَبُ. هَكَذَا كانَ ابْتِداءُ دِيوانِ الجَيْشِ. وَروى الزُّهْرِيُّ عَنِ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، أَنَّ ذَلِكَ كانَ في المَحَرَّمِ سَنَةِ عِشْرِينَ.

وأما دِيوانُ الخِراجِ والجباياتِ، فَبَقِيَ بَعْدَ الإسلامِ على ما كانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ؛ دِيوانُ العِراقِ بالفارسيَّةِ؛ ودِيوانُ الشَّامِ بالرُّومِيَّةِ. وَكِتابُ الدَّواوينِ مِنْ أَهْلِ

العهد من الفريقين . فلما جاء عبد الملك بن مروان ، واستحال الأمر ملكاً ، وانتقل القوم من غضاصة البداوة إلى روثق الحضارة ، ومن سداجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان ، فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الأردن لعهد ، أن ينقل ديوان الشام إلى العربية ، فأكمله 5 لسنة من يوم ابتدأه ، ووقف عليه سرجون⁽¹⁾ كاتب عبد الملك ، فقال [لكتاب] (ب) الروم: اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة ، فقد قطعها الله عنكم .

وأما ديوان العراق ، فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن ، وكان يكتب بالعربية والفارسية ، ولقن ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله ، ولما قتل زاذان في حزب عبد الرحمن بن الأشعث ، استخلف الحجاج صالحاً هذا مكانه ، وأمر أن ينقل الديوان من العربية إلى الفارسية ، ففعل ، ورغم لذلك كتاب الفرس ؛ وكان عبد الحميد بن يحيى يقول: لله ذر صالح ، ما أعظم مثته على الكتاب . 10

ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة إلى ما كان له النظر فيه ، كما كان شأن بني برمك ، وبني سهل بن نوبخت ، وغيرهم من وزراء تلك الدولة.

فأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من / الأحكام الشرعية ، مما يختص بالجيش أو 15 بيت المال في الدخل والخرج ، أو تمييز النواحي بالصُلح والعنوة ، وفي تشييد هذه الوظيفة ممن يكون ، وشروط التأخر فيها والكاتب ، وقوانين الحسابات ، فأمر

(أ) كذا في الأصول بالحاء المهملة ، وعند الطبري بالجيم (التاريخ 5: 330 ، 6: 150) ، وهو سرجون بن منصور الزوي مولى معاوية (ب) ط : لكتاب .

راجع إلى كُتُب الأحكام السُلْطانيَّة، وهي مَسْطُورَةٌ هنالك وليست من غرض كتابنا. وإنما نَتَكَلَّم فيها من حيث طَبِيعَةُ الْمَلِكِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلَامِ فِيهِ.

وهذه الوظيفة جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمَلِكِ، بل هي ثَالِثَةُ أَرْكَانِهِ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ، فَاحْتِاجُ صَاحِبِ الْمَلِكِ إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السَّيْفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَالِ، فَيَتَفَرَّدُ صَاحِبُهَا لِذَلِكَ بِجُزْءٍ مِنْ رِئَاسَةِ الْمَلِكِ. 5 وكذلك كان الأمر في دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِفِ بَعْدَهُمْ.

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ، فَكَانَ صَاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مُسْتَقِلًّا بِالنَّظَرِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا، وَتَعَقُّبِ نَظَرِ الْوَلَاةِ وَالْعُمَالِ فِيهَا، ثُمَّ تَنْفِذِهَا عَلَى قَدَرِهَا وَفِي مَوَاقِيتِهَا. وَكَانَ يُعْرِفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ، وَكَانَ رُبَّمَا يَلِيهَا فِي الْجِهَاتِ غَيْرِ الْمُوَحِّدِينَ مِمَّنْ يُحْسِنُهَا.

10

ولما استبدَّ بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِإِفْرِيقِيَّةٍ، وَكَانَ شَأْنُ الْجَالِيَةِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، فَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ، وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ بِالْأَنْدَلُسِ، مِثْلُ بَنِي [سعيد] ^(١) أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ جَوَارِ غَرْنَاطَةِ، الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِي أَبِي الْحُسَيْنِ، فَاسْتَكْفَوْا بِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَجَعَلُوا لَهُمُ النَّظَرَ فِي الْأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمُ بِالْأَنْدَلُسِ، وَدَالُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ. ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِهَا أَهْلُ الْحُسْبَانِ وَالْكِتَابِ، وَخَرَجَتْ عَنِ الْمُوَحِّدِينَ. 15 ثُمَّ لَمَّا اسْتَغْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ وَنَقَذَ أَمْرُهُ فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُئُونِ الدَّوْلَةِ، تَعَطَّلَ هَذَا الرَّسْمُ، وَصَارَ صَاحِبُهُ / مَرْؤُوسًا لِلْحَاجِبِ، وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجَبَاةِ، وَذَهَبَتْ تِلْكَ الرِّئَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُ فِي الدَّوْلَةِ.

[167ب]

(١) من : ج ل ي ، وفي ع : ابنا سعيد ، وفي ط : بني سعيد .

وأما في دولة بني مَرين لهذا العهد، فَحُسبان العطاء والخراج مَجْمُوعٌ لواحدٍ؛ وصاحبُ هذه الرتبة هو الذي يُصَحَّحُ الحُسبانَاتُ كُلُّها، ويرجعُ إلى ديوانه ونظره معقَّبٌ بنظر السلطان أو الوزير؛ وخَطُّه مُعْتَبَرٌ في صِحَّةِ الحُسبان في الخراج والعطاء.

هذه أصولُ الرُتَبِ والخطط السلطانيَّةِ، وهي الرُتَبُ العالية التي هي عامَّةُ النظر ومباشرةٌ للسلطان. 5

وأما هذه الرتبة في دولة التُّرك فَمُتَنَوِّعةٌ ، وصاحبُ ديوان العطاء يُعرفُ بناظر الجيش، وصاحبُ المال مَخْصُوصٌ باسم الوزير، وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة، وهو أعلى رُتَبٍ^(أ) الناظرين في الأموال؛ لأنَّ النَّظَرَ في الأموال عندهم يَنْتَوِعُ إلى رُتَبٍ كثيرة، لانْفِصَاحِ دَوْلَتِهِمْ، وعِظَمِ سُلْطَانِهِمْ، واتِّسَاعِ الأموال والجبايات عن أن يَسْتَقِلَّ بِضَبْطِهَا الواحدُ من الرُّجال، ولو بَلَغَ في الكفاية مبالغةً، فتعيَّنَ للنظر العامُّ منها هذا المَخْصُوصُ باسم الوزير، وهو مع ذلك رَدِيفٌ لمولى من موالى السلطان وأهل عَصَبِيَّتِهِ وأربابِ السِّيُوفِ في الدولة، يَرْجِعُ نظرُ الوزير إلى نظره، ويَجْتَهِدُ جُهْدَهُ في مُتَابَعَتِهِ، ويُسَمَّى عندهم^(ب) أستاذ الدار؛ وهو أَحَدُ الأمراء الأكابر في الدولة من الجُندِ وأربابِ السِّيُوفِ. وتَتَبَّعُ هذه الحُطَّةُ عندهم حُطَطًا أُخْرَى كُلُّها راجعةٌ إلى الأموال والحُسبان، مقصورةُ النَّظَرِ على أمورٍ خاصَّةٍ، مثل ناظر الخاص، وهو المباشر 15 لأموال السلطان الخاصَّةِ به من إقطاعه أو سَهْمَانِهِ من أموال الخراج وبلاد الجباية، ممَّا ليس من أموال المسلمين العامة [التي لنظره]^(ج). وهو^(د) تحت يَدِ الأمير أستاذ

(أ) ل : مراتب (ب) سقط من ل (ج) من حاشية ع بخطه، وليست في بقية الأصول التي نقلت الحاشية المطولة وأغفلتها (د) ي : وكلهم.

الدار. وإن كان الوزير من الجنود فلا يكون لأستاذ الدار نظراً عليه. وناظر الخاص
[i168] أيضاً تحت يد الخازن / لأموال السلطان من ممالكه المسمى خازن دار، لاختصاص
وظائفها⁽¹⁾ بمال السلطان الخاص به.

هذا بيان^(ب) هذه الخطة في دولة الترك بالشرق ، بقد ما قدّمنا من أمرها
بالمغرب. والله مُصَرِّفُ الأمور لا رُبَّ غيره .

5

د. ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك بطبيعته، لاستغناء كثير من الدول
عنها رأساً، كما في الدول العربية في البدو التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا
استحكام الصنائع. وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية، شأن اللسان العربي
والبلاغة في العبارة عن المقاصد. فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة
10 اللسانية في الأكثر. وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله، كما
كان للخلفاء وأمرء الصحابة بالشام والعراق، لعظيم أمانتهم وخلوص أشرارهم. فلما
فسد اللسان وصار صناعة ، اختص بمن يحسنه، وكانت بتي العباس ربيعة،
وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقاً ويكتب في آخرها اسمه، ويختتم عليها بخاتم
15 السلطان ، وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يُغمس في طين أحمر
مذاف بالماء، ويسمى طين الحتم ، ويُطبع به على طرفي السجل عند طيه وإصاقه.

(1) من ع ي ، وفي ط ج ل: وظيفته (ب) كنا في كل الأصول، رشطبت في ع وفوقها بخطه : مُسَمَّى

ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان، ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً، على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها. ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة، أو استناد وزير عليه، فتصير علامة هذا الكاتب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه،

- 5 يستبدل بها فيكتب صورة علامته المفهومة، / والحكم لعلامة ذلك الرئيس، كما وقع [168ب]
- آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الجبابة، وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستناد، صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة، اتباعاً لما سلف من أمرها. فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابته ذلك بخط⁽¹⁾ يضعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء، فيأتمر الكاتب له، ويضع العلامة المعتادة. وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك، إذا كان مستنبداً بأمره قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته.
- 10

ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المزفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه؛ فإما أن تصدر كذلك؛ وإما أن يخذو الكاتب^(ب) على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة. ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه. وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويؤرم بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البُلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار. وهكذا كان شأن الدول.

(1) ج : بخطه (ب) ل ع : الكتاب .

واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بُدَّ وأن يُتَخَيَّرَ من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والجسمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة؛ فإنه مُعَرَّضٌ للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاعد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب، والتخلُّق بالفَضائل، ومع ما يضطرُّ إليه في التَّرسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة / وأسرارها.

[169]

5

وقد تكونُ الرُّتبةُ في بعض الدُّول مُسندةً إلى أرباب السُّيوف، لما يقتضيه طبعُ الدولة من البُعد عن مُعانة العلوم لأجل سداجة العصبية، فيختصُّ السُّلطانُ أهلَ عصبِيته بِخُطط دَوْلته وسائر رُتبه؛ فيقلِّدُ المالَ والسَّيفَ والكتابةَ منهم. فأما رُتَبُ السَّيفِ فتستغني عن مُعانة العلم؛ وأما المالُ والكتابةُ فيضطرُّ [إلى ذلك] ⁽¹⁾ للبلاغة في هذه، والحُسابان في الأخرى؛ فيختارون لها من هذه الطَّبقة لما دَعَتْ إليه الضَّرورةُ ويُقلِّدونه، إلَّا أنَّه تكون يدُ آخر من أهل العصبية غالباً ^(ب) على يده، ويكون نظره مُتَصَرِّفاً عن نظره، كما هو في دَوْلَة التُّرك لهذا العهد بالشرق؛ فإنَّ رئاسة الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء، إلَّا أنَّه تحت يدِ أميرٍ من أهل عصبية السُّلطان يُعرف بالدُّويدار، تعويلُ السُّلطان ووُثوقه به، واستينامته في غالب أحواله إليه؛ وتعويله على الآخر في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد [وكثبان الأسرار] ^(ج) وغير ذلك من تَوابعها.

15

وأما الشُّروط المُعتبرة في صاحب هذه الرُّتبة التي يلاحظها السُّلطان في اختياره واثنيائه من أصناف الناس، فهي كثيرةٌ، وأحسنُ من استوعبها عبدُ الحميد الكاتبُ في رسالته إلى الكتاب ⁽¹⁾، وهي هذه:

(1) سقط من ط (ب) ع : عالية (ج) من ي وحدها وترك لها بياض في ع .

(1) نص الرسالة مع فروق عند الجهشيارى، الوزراء والكتاب، 73 ؛ القلقشندي، صبح الأعشى، 1 : 85 .

أما بَعْدُ ، حَفِظْكُمْ اللهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطْكُمْ وَوَقِّكُمْ وَأَرْشِدْكُمْ ،
فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ - بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ،
وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرَمِينَ - أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ
الصَّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْمُحَاوَلَاتِ ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَايِشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ ؛ فَجَعَلَكُمْ

- 5 مَعَشَرَ الْكِتَابِ / فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ ، أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَةِ ، وَالْعِلْمِ الرَّوَايَةِ . بَكُمْ [169ب]
تَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مُحَاسِنُهَا وَتُسْتَقِيمُ أُمُورُهَا ، وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ لِلخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ
وَيَعْمُرُ بُلْدَانَهُمْ . لَا يَسْتَغْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ ، وَلَا يَوْجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ ؛ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ
الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمُ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ ، وَأَبْصَارِهِمُ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ ، وَاللِّسَنَتِهِمُ
الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ ، وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ . فَأَمْتَعَكُمْ اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ
10 صِنَاعَتِكُمْ ، وَلَا تَزَعْ عَنْكُمْ مَا [أَضْفَاهُ] ^(أ) مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
الصَّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجُ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمُخْمُودَةِ ، وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ
الْمَغْدُودَةِ ، مِنْكُمْ .

- أَيُّهَا الْكِتَابُ ، إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ ، فَإِنَّ الْكَاتِبَ
يَحْتَاجُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ ، أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا
15 فِي مَوْضِعِ الْجِلْمِ ، فَهَيِّمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ ، وَمُقْدَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ ، وَمُخْجِمًا فِي
مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ ، مُؤْتِرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، كَتُومًا لِلْأَسْرَارِ ، وَفِيئًا عِنْدَ
الشَّدَائِدِ ، عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ التَّوَارِثِ ، يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا ، وَالطَّوَارِقَ أَمَاكِنَهَا ، قَدْ
نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعُلُومِ ^(ب) فَأَخْرَجَهُ ، وَإِنْ لَمْ يُخْرِجْهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا

(أ) ظ : أَضْفَاهُ (ب) ل : الْعِلْمُ .

يَكْتَفِي بِهِ، يَعْرِفُ بَغْرِيزَةَ عَقْلِهِ وَحُسْنَ أَدَبِهِ وَفَضْلَ تَجَرُّبَتِهِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ،
وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ، فَيُعِيدُ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ وَعَتَادَهُ، وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ
هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ.

فَتَنَاقَسُوا يَا مَعْشَرَ الْكُتَّابِ فِي صُنُوفِ الْأَدَابِ، وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَابْتَدَأُوا
بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْفَرَائِضِ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّهَا يَتَقَا فُ السِّنِّتِمْ، ثُمَّ أَجِيدُوا
الْحِطَّ فَإِنَّهُ جَلِيَّةٌ كُتُبِكُمْ، وَارْزُقُوا الْأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا، وَمَعَانِيَهَا، وَأَيَّامَ الْعَرَبِ
وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ / مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ، وَلَا [170]
تُضِيعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ، فَإِنَّهُ قِوَامُ كِتَابِ الْخَرَجِ .

وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيَّهَا وَدَنِيَّهَا، وَسَفْسَافِ الْأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا،
فَإِنَّهَا مُذِلَّةٌ لِلرَّقَابِ، مُفْسِدَةٌ لِلْكِتَابِ. وَتَزْهَوُ صِنَاعَتُكُمْ عَنِ الدَّنَاءَاتِ. وَارْزُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ
عَنِ السَّعَايَةِ وَالتَّمِيمَةِ، وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرِ وَالسُّخْفِ وَالْعِظْمَةِ،
فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ. وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ، وَتَوَاصَوْا
عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالتَّوْبَلِ مِنْ سَلَفِكُمْ. وَإِنْ تَبَا الزَّمَانُ بِرَجُلٍ
مِنْكُمْ، فَاعْطِفُوا عَلَيْهِ وَوَأَسُوهُ، حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ، وَيَشُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ. وَإِنْ أَقْعَدَ
أَحَدُكُمْ الْكِبَرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ ، فَرُوزُوهُ وَعَظَّمُوهُ وَشَاوِرُوهُ ، وَاسْتَظْهِرُوا
بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ ، وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اضْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ
لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ ، أَخُو طَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ. فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَخْمَدَةٌ فَلَا
يُضِفْهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ ، وَإِنْ عَرَضَتْ مَذْمَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ . وَلْيَحْذَرِ
السَّفْطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْكُتَّابِ أَسْرَعُ

منه إلى القراء ، وهو لكم أفسدُ منه لها . فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبته من
يَبْدُلُ له من نفسه ما يجبُ له عليه من حَقِّه ، فواجبٌ عليه أن يَعْتَقِدَ له من وفائِهِ
وشُكْرِهِ واختِيارِهِ وصَبْرِهِ ، ونَصِيحَتِهِ ، وكتمانِ سِرِّهِ ، وتَدْيِيرِ أَمْرِهِ ، ما هو جزاءُ
لِحَقِّهِ ، ويَصْدُقُ ذلكُ بفعاله عند الحاجةِ إليه ، والاضطرارِ إلى ما لَدَيْهِ ، فاستشعروا
ذلك . وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرِّخاءِ والشَّدَّةِ والحِزْمَانِ ، والمُواساةِ 5
والإحسانِ ، والسَّراءِ والضَّراءِ . فَنِعِمَتِ الشَّيْئَةُ هذه لمن وُسِّمَ بها من أهل هذه
الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ .

/ وإذا وَلِيَ الرَّجُلُ منكم أو صَيَّرَ إليه من أَمْرٍ خَلَقَ اللهُ وِعيالَهُ أَمْرًا ، [170ب]
فليراقِبْ رِئْه عَزَّ وَجَلَّ ، وليؤَثِّرْ طاعَتَهُ ، وليَكُنْ على الضَّعِيفِ رَفِيقًا ، وللمُظْلُومِ
مُنْصِفًا؛ فَإِنَّ الخَلْقَ عِيَالُ اللهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْقَقُهُمْ بِعيالِهِ . 10

ثم لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا ، وللأَشْرَافِ مُكْرِمًا ، وللْفُقَرَاءِ مُوَفِّرًا ، وللبلادِ عَامِرًا ،
وللرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفًا ، وعن أذاهم مُتَخَلِّفًا ، وليَكُنْ في مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا ، وفي سِجَلَاتِ
خُرَاجِهِ وَاسْتِقْصَاءِ⁽¹⁾ حُقُوقِهِ رَفِيقًا^(ب) .

وإذا صَحِبَ أَحَدُكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتَرِ خَلِيقَهُ ، فإذا عَرَفَ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا أَعَانَهُ
15 على ما يُوَافِقُهُ مِنَ الْحَسَنِ ، وَاحْتَالَ لَصَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقَبِيحِ ، بِاللَّطْفِ حِيلَةً
وَأَجَلَ وَسِيلَةً . وقد عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهْمَةِ إِذَا كَانَ بَصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا ، التَّمَسَّ مَعْرِفَةَ
أَخْلَاقِهَا ، فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا لَمْ يَهْجُهَا إِذَا رَكِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا انْتَقَاهَا مِنْ قِبَلِ
يَدِّيْهَا ؛ وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شُرُودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا ؛ وَإِنْ كَانَتْ حَرُونَ قَمَعَ بَرْقِي

(1) كذا في ظ ج ، وفي بقية الأصول : استقصاء (ب) ع : رقيقًا .

هَوَاهَا فِي طَرَقِهَا، فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيرًا فَيَسْلُسْ لَهُ قِيَادُهَا. وَفِي هَذَا الْوَصْفِ
مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَالٌ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ وَخَدَمَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ.

وَالكَاتِبُ بِفَضْلِ آدَبِهِ، وَشَرِيفِ صُنْعَتِهِ، وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ، وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ
يُحَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ، وَيَقْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطَوَتَهُ، أُولَى بِالرَّفْقِ لِمُصَاحِبِهِ
وَمُدَارَاتِهِ، وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِ، مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تَحِيرُ جَوَابًا، وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا، وَلَا
تَقْهَمُ خَطَابًا، إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّكْبُ عَلَيْهَا. أَلَا فَارْزُقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي
النَّظَرِ، وَاعْمَلُوا فِيهِ مَا أَمَكَنَّكُمْ مِنَ الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ، تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ
النَّبُوَّةَ وَالْإِسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ، وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى الْمُوَافَقَةِ، وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمُوَاخَاةِ
وَالشَّفَقَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

[171] وَلَا يُجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ / مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ
وَمَشْرَبِهِ وَبَنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فُنُونِ أَمْرِهِ قَدْرَ حَقِّهِ ؛ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ
اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صُنْعَتِكُمْ ، خَدَمَةً لَا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى التَّخْصِيرِ ، وَحَفَظَةً
لَا تُحْمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّيْذِيرِ . وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا
ذَكَرْتُهُ لَكُمْ ، وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ . وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ، فَإِنَّهُمَا
يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ ، وَيَذِلَّانِ الرَّقَابَ ، وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا ، وَلَا سِيَّيَا الْكِتَابِ وَأَرْبَابِ
الْآدَابِ .

وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهٌ، وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ، فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ بِمَا
سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرِبَتُكُمْ. ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّذْيِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةٌ، وَأَصْدَقَهَا
حُجَّةٌ، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّذْيِيرِ آفَةً مُثْلِفَةً وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّائِغِلُ لِمُصَاحِبِهِ

عن إِنْفَازِ عِلْمِهِ وَرَوَيْتِهِ . فليَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ؛
 وليُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ، وليَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ،
 وَمَذْفَعَةٌ لِلشَّاعُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ. وليَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْديدهِ،
 مَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ. فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ
 5 قَائِلًا إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ
 تَذْيِيرِهِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بَطْنُهُ أَوْ مَقَالَتُهُ إِلَى أَنْ يَكَلِّهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، فيصيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ
 كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرٌ خَافٍ. وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ، وَأَحْمَلُ
 لِعِبَاءِ التَّذْيِيرِ، مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ؛ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ
 عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ، مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَرَأَى أَنَّ صَاحِبَهُ ^(١) أَعْقَلُ مِنْهُ،
 10 وَأَخَذَ فِي طَرِيقَتِهِ. وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعْمَةٍ ^(ب) اللَّهُ جَلَّ
 ثَنَاؤُهُ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ، / وَلَا تَكَاثُرٍ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ، [١٧١ب]
 وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ. وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُّعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّذَلُّلِ
 لِعِزَّتِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ، مَنْ تُلْزِمُهُ النَّصِيحَةُ يُلْزِمُهُ الْعَمَلُ.
 15 وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ
 آخِرَهُ، وَتَمَمُّتُهُ بِهِ.

تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ، بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي
 إِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ بَيْدُهُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

(١) ي : أصحابه (ب) من ظ ، وفي الأصول الأخرى : نعم .

هـ. الشُّرْطَةُ

ويُسَمَّى صاحبُها لهذا العهد بِإِفْرِيقِيَّةِ الحَاكِمِ؛ وفي دَوْلَةِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ صاحبُ المَدِينَةِ؛ وفي دَوْلَةِ التُّرْكِ الوَالِي .

وهي وَظِيفَةٌ مَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ فِي الدَّوْلَةِ، وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا بَعْضُ الأَخْيَانِ. وَكَانَ أَصْلُ^(أ) وَضْعُهَا فِي الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الجَرَائِمِ فِي 5 حَالِ اسْتِثْنَائِهَا أَوَّلًا ، ثُمَّ الحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا . فَإِنَّ التُّهَمَ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا ، وَلِلسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِي [اسْتِثْنَاءِ]^(ب) مَوْجِبَاتِهَا، بِإِقْرَارِ يَكْرَهُهُ عَلَيْهِ الحَاكِمُ إِذَا اخْتَفَتْ بِهِ الْقَرَائِنُ ، لِمَا تَوَجَّبَهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي ذَلِكَ. فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الاسْتِثْنَاءِ، وَبِاسْتِيفَاءِ الحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِي، يُسَمَّى صَاحِبَ الشُّرْطَةِ. وَرَبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي الحُدُودِ وَالدِّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ، 10 وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي، وَنَوَّهُوا بِهَذِهِ الرُّبُوبَةِ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ القُوَادِ وَعِظَمَاءَ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ. وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيزِ فِي طَبَقَاتِ النَّاسِ، إِنَّمَا [كَانَ]^(ج) حُكْمُهُ عَلَى الدِّهْمَاءِ وَأَهْلِ الرِّيبِ، وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِي الدُّعَارِ وَالْفَجَرَةِ .

ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْأَنْدَلُسِ، وَتَوَعَّثَتْ إِلَى شُرْطَةِ كُبْرَى 15 وَشُرْطَةِ صُغْرَى. وَجُعِلَ حُكْمُ الكُبْرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَالدِّهْمَاءِ. وَجُعِلَ لَهُ / الْحُكْمُ عَلَى ذَوِي الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الظُّلَامَاتِ، وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمِنْ إِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ؛ وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّغْرَى مَخْصُوصًا بِالْعَامَّةِ. وَنُصِبَ

(أ) كَذَا فِي ظ ج ل ع ، وَفِي ي : وَكَانَ أَصْلُهَا (ب) ظ : اسْتِيفَاءُ (ج) سَقَطَ مِنْ ظ .

لصاحب الكُبرى كُرسيّ باب دار السُلطان، وَرَجُلٌ يَتَبَوَّأُونَ المقاعدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فلا يَبْرَحُونَ عنها إِلَّا في تَضَرُّفِهِ. وَكَانَتْ وِلايَتُهَا لِلأكابرِ من رجالات الدَّولة، حتَّى كَانَتْ تُرَشِّحُهَا لِلوزارة والحِجَابَةِ.

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ المُوَحَّدِينَ بالمَغْرِبِ، فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوهَا 5 عَامَّةً، وَكَانَ لَا يَلِيهَا إِلَّا رِجَالُ المُوَحَّدِينَ وَكِبَرَاؤُهُمْ؛ وَإِنْ^(أ) لَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحَكُّمُ عَلَى أَهْلِ المَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ. ثُمَّ فَتَدَ اليَوْمَ مَنَصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ وِلايَةِ رِجَالِ المُوَحَّدِينَ، وَصَارَتْ وِلايَتُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ المُضْطَنِّعِينَ.

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرِينٍ لِهَذَا العَهْدِ بالمَغْرِبِ، فَوِلايَتُهَا فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ اضْطِنَاعِهِمْ؛ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِي رِجَالَاتِ التُّرْكِ، أَوْ أَغْصَابِ أَهْلِ الدَّولةِ 10 قَبْلَهُمْ مِنَ الكُرْدِ، يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِي القُطْرَيْنِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّلَابَةِ وَالْمَضَاءِ فِي الْأَحْكَامِ، لِقَطْعِ مَوَادِّ الفَسَادِ، وَحَسْمِ أَشْبَابِ الدَّعَاةِ، وَتَخْرِيبِ مَوَاطِنِ الفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ، مَعَ إِقَامَةِ الحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، كَمَا تُقْتَضِيهِ رِعَايَةُ المَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي المَدِينَةِ. وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

و. قِيَادَةُ الْأَسَاطِيلِ

وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّولةِ وَخُطَطِهَا فِي مُلْكِ المَغْرِبِ وَإِفْرِيقِيَّةِ، وَمَزُوسَةٌ 15 لِصَاحِبِ السَّيْفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي عَرَفِهِمُ المَلْنَدِ، بِتَفْخِيمِ اللَّامِ، مَتَقُولًا مِنْ لُغَةِ الْإِفْرَنْجَةِ، [فَإِنَّهُ]^(ب) اسْمُهَا فِي اضْطِلَاحِ لُقَنَتِهِم.

(أ) مِنْ ل (ب) ظ: فَإِنَّهَا .

وإنما اختصت هذه الرتبة بملك إفريقية والمغرب، لأنها جميعاً على ضفة البحر
الرومي من جهة الجنوب، وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم، من سبته إلى
إسكندرية إلى الشام، وعلى عدوته الشمالية / بلاد الأندلس والإفرنجية والصقالبة [172ب]
والروم إلى بلاد الشام أيضاً؛ ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي، نسبة إلى أهل
عدوته. والساكينون بسيف هذا البحر وسواحه من عدوته يعانون من أحواله ما لا
5 ثعابه أمة من أمم البحار. فقد كانت الروم والإفرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من
هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه
والحزب في أساطيله. ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية، مثل
الروم إلى إفريقية، والقوط إلى المغرب، أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على
البربر بها، واثرعوا من أيديهم أمرها، وكان لهم بها المدن الحافلة، مثل قرطاجنة
10 وسينطة وجلولاء ومزناق وشرشال وطنجة. وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم
يُحارب صاحب رومة، ويتعش الأساطيل يحربه مشحونة بالعساكر والعدد. فكانت⁽¹⁾
هذه عادة لأهل هذا البحر الساكين جفاقيه، معروفة في القديم والحديث.

ولما ملك المسلمون مصر، كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، أن
صِف لي البحر، فكتب إليه: إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق ضعيف، دود على
15 غود. فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه؛ ولم يركبه أحد من العرب إلا من
افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بعزجة⁽¹⁾ بن هرثمة الأزدي،

(1) ل: وكانت .

(1) في الطبري : تاريخ الرسل والملوك 3 : 462 إشارة موجزة للموضوع .

سَيِّدَ بَحِيلَةٍ، لما أَغْزَاهُ عُمَانُ ، فَبَلَغَهُ فَأَنْكَرَ⁽¹⁾ عَلَيْهِ وَعَنْقَهُ أَنَّهُ⁽¹⁾ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلغَزْوِ. ولم يَزَلْ الشَّأْنُ ذَلِكَ ، حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي زُكُوبِهِ وَالْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْعَرَبَ لَبَدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا أَوَّلَ الْأَمْرِ مَهْرَةً فِي ثَقَافَتِهِ وَزُكُوبِهِ، وَالرُّومُ وَالْفَرَنْجَةُ لِمُتَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاتِهِمْ فِي التَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ، / مَرِنُوا [i173]

5 عَلَيْهِ وَأَحْكَمُوا الدُّرَيْتَةَ بِثِقَافَتِهِ .

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ، وَصَارَتْ أُمَمٌ^(ب) الْعَجَمَ خَوَلَاءَ لَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ، وَاسْتَخْدَمُوا مِنَ النَّوَائِثَةِ فِي حَاجَاتِهِمُ الْبَحْرِيَّةِ أَمَمًا، وَتَكَرَّرَتْ مُتَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَافَتِهِ، اسْتَخْدَثُوا بَصَرًا بِهَا، فَشَرَّهَوْا إِلَى الْجِهَادِ فِيهِ، وَأَنْشَأُوا السُّفُنَ وَالشُّوَانِي، وَشَخَّنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ، 10 وَأَمْطَوْهَا الْعَسَاكِرَ وَالْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ الْكُفْرِ، وَاخْتَصَّصُوا بِذَلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَتُغُورِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى هَذَا الْبَحْرِ، وَعَلَى ضِيقَتِهِ، مِثْلَ الشَّامِ وَإِفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ. وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ عَامِلِ إِفْرِيقِيَّةِ بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةِ بَثُونَسَ لِإِنْشَاءِ الْآلَاتِ الْبَحْرِيَّةِ، حِرْصًا عَلَى مَرَامِ الْجِهَادِ. وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقْلِيَّةِ أَيَّامَ زِيَادَةَ اللَّهِ الْأَوَّلِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَغْلَبِ، عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ 15 الْفُرَاتِ شَيْخِ الْفُتَيَا، وَفَتْحُ قَوْصَرَةِ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ⁽¹⁾ أَغْزَى صِقْلِيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمْ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ، وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ

(1) على هذه الجملة في نسخة ل إشارة للتأخير والتقديم لتصح: فبلغه أنه ركب البحر للغزو، فأنكر عليه وعنقه (ب) سقط من ل.

(1) ورد في أكثر المصادر بالخاء المعجمة مُصَغَّرًا. انظر ابن عبد البر: الاستيعاب 3: 386، ابن الأثير: أسد الغابة 4: 383، ابن ناجي: معالم الإيمان 1: 140 . (الحاشية).

ابن الأغلِب وفائده أسد بن الفرات. وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية والأندلس في دولة العبّيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنه ، فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب . وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مَرَكَب أو نحوها ، وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه. وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن زماحس ، ومزفوها للخط والإقلاع بجانة والمريّة. وكانت 5 أساطيلها مُجتمعة من سائر الممالك ، من كلّ بلد تتخذ فيه السفن أسطولاً / يَرجع نظره إلى قائد من التواتية ، يُدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورأيس يُدبر أمر جزيته بالريح أو بالمجادف ، وأمر إرسائه في مرفئه. فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو مُحْتَلٍّ^(١) أو غرض سُلطاني مُهمّ ، عسكرت بمزفوها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه ، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته ، 10 يَرجعون كلّهم إليه ، ثم يُسرّحهم لوجههم^(ب) ، وينتظر إياهم بالفتح والغنمة .

وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم في شيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المغمومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميوزقة 15 ومَنورقة^(ج) ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والفرنج. وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة ، فتتقلب بالظفر والغنمة. وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من

(١) ج: محمل (ب) ل: لوجههم (ج) كذا كتبت في ج ي ، وفي ع ل: منقة .

ملوك الطوائف، جزيرة سرديانية في أساطيل سنة خمس وأربعائة، وارتجعا النصارى لوقتها. والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الأكثر من لجة * هذا البحر *^(١)،

وسارت أساطيلهم فيه جائية وذهبية، والعساكر الإسلامية تحير البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية، فتوقع بملوك

5 الفرج وتشنخ في ممالكهم؛ كما وقع في أيام بني أبي الحسين ملوك صقلية، / القائمين [174]

فيها بدعوة العبيديين. ونحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي

الشرقي منه من سواحل الإفرنجية والصقلية وجزائر الرومانية لا يغدونها. وأساطيل

المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد بقرية، وقد ملأت الأكثر من بسيط

هذا البحر عدة وعديداً، واختلفت في طرقه سلماً وحزباً، فلم تشب^(ب) للنصرانية

10 فيه ألواح.

حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن، وطرقها الاغتيال،

مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية، مثل صقلية وأفريطش ومالطة

فملكوها، ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة، وملكوا طرابلس وعسقلان

وضور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس،

15 وبنوا عليها كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم. وغلبوا بني خزرون على طرابلس،

ثم على قابس وصفاقس، ووضعوا عليهم الجزى، ثم ملكوا المهديّة مقرّ ملك

العبيديين من يد أعتاب بلكين بن زيري، وكانت لهم في المائة الخامسة الكثرة بهذا

البحر.

(١) سقط من ي (ب) في حاشية ع وفي ي : تظهر .

وَضَعُفُ شَأْنِ الْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ إِلَى أَنْ انْقَطَعَ، وَلَمْ يَغْنُوا
بَشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا الْعَهْدِ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ الْعُبَيْدِيَّةِ عَنَاءٌ تَجَاوَزَتْ
الْحَدَّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ. فَبَطُلَ رَسْمُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ هُنَاكَ؛ وَبَقِيََتْ بِإِفْرِيقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا.

- 5 وكان الجانبُ الغربيُّ من هذا البحرِ لذلك العهدِ مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ، ثَابِتٌ
الْقُوَّةُ، لَمْ يَنْخَفِفهْ عَدُوٌّ، وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ. فَكَانَ قَائِدُ الْأُسْطُولِ بِهِ لِعَهْدٍ لَمَثُونَةٍ،
بَنُو مَيْمُونٍ رُؤَسَاءُ جَزِيرَةِ قَادِسَ، وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِنَسْلِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ،
[174ب] وَانْتَهَى عَدَدُ أُسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ / مِنْ بِلَادِ الْعُدُوتَيْنِ جَمِيعاً.

- ولما اسْتَفْخَلَتْ دَوْلَةُ الْمُؤَحِّدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ، وَمَلَكَوا الْعُدُوتَيْنِ، أَقَامُوا
10 خُطَّةَ هَذَا الْأُسْطُولِ عَلَى أَتَمِّ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمَ مَا عُمِدَ. وَكَانَ قَائِدُ أُسَاطِيلِهِمْ أَحْمَدُ
الصَّقِيلِيُّ، أَصْلُهُ مِنْ صَدْعِيَّانِ الْمُوْطَنِينَ بِجَزِيرَةِ جَزْزِيَّةٍ مِنْ سِنْدُونِكُشَ، أَسْرَهُ النَّصَارَى
مِنْ سَوَاحِلِهَا وَرَبَّى عَنْدهُمْ، وَاسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقْلِيَّةٍ وَاسْتَكْفَاهُ، ثُمَّ هَلَكَ، وَوَلِيَ
ابْنُهُ، فَأَسْخَطَهُ بَيْعُ الزَّرْعَاتِ، وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ فَلَجَّ بِتُونُسَ، وَنَزَلَ عَلَى السَّيِّدِ
بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ؛ وَأَجَازَ إِلَى مَرَاكُشَ، فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يَوْسُفُ الْعَشْرِيَّ ابْنَ عَبْدِ
15 الْمُؤْمِنِ بِالْمَبَرَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَأَجَزَلَ لَهُ الصَّلَةَ، وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أُسَاطِيلِهِ، فَجَلَّى فِي جِهَادِ أَمَمِ
النَّصْرَانِيَّةِ، وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُؤَحِّدِينَ. وَانْتَهَتْ أُسَاطِيلُ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالِاسْتِجَادَةِ مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ فِيمَا عَهْدُنَاهُ.

ولما قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ، مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ، بَاسْتِرْجَاعِ
تُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ الْأَمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ رِجْسِ الْكُفْرِ وَبِنَائِهِ،

تتابعت^(١) أساطيلهم الكُفْريّة بالمَدَد لتلك الثُّغور من كلّ ناحية ، قُرْبَة لبنت
 المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه ، فأمدّوهم بالعُدَد والأقوات ، ولم يُقاومهم
 أساطيلُ الإسكندريّة لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقيّ من البحر ،
 وتعدّد أساطيلهم فيه ، وضُغف المسلمين مُنذ زمانٍ طويلٍ عن مُمانعتهم هنالك كما
 5 [أشْرنا]^(ب) إليه قَبْلُ . فأوْفَد صلاح الدين على يعقوب المنصور ، سلطان المغرب
 لعَهده من الموحّدين ، رسوله عبد الكريم بن مُنقذ ، من بنت بتي مُنقذ مُلوك
 شِيزر ، وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دَوْلته ، فَبَعَثَ عبد الكريم هذا منهم
 إلى ملك المغرب طالبا مَدَدَ الأساطيل لتحوّل في البحر بين أساطيل الكُفْرة وبين
 مُرادهم من / إمداد التّضارّية من ثُغور^(ج) الشّام ، وأصَحَبَهُ كتابه إليه في ذلك ، من
 10 إنشاء الفاضل البينسائي ، يقول في افتتاحه: فَتَحَ اللهُ لِحَضْرَةِ سَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ
 وَالْمَيَامِينِ؛ حَسْبَمَا نَقَلَهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ^(١) . فَتَقَمَّ عَلَيْهِمُ
 الْمَنْصُورُ تَحَايِيَهُمْ عَنْ خِطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاجِحِ الْبِرِّ
 وَالْكَرَامَةِ ، وَرَدَّهُمْ إِلَى مُزِيلِهِمْ ، وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ .

(١) ي : تواترت (ب) سقط من ظ (ج) ل ع : بنور .

(1) لا توجد هذه الرسالة أو ما يتصل بأحداثها في كتاب الفيح القسّي في الفتح القدسي . وذكر أبو شامة في
 الروضتين (2: 170-174) أنّه بحث عن حقيقة الرسالة التي أرسلها السلطان إلى يعقوب المنصور لما
 اشتدّ أمر الفرنج على عكا ، لأنّ القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني لم يتعرضا لذلك في كتبهما؛ حتى
 أطلعه بعض الثقات على نسخة نقلت من خطّ القاضي الفاضل فأوردها . ومستهلّها مختلف عن
 المستهلّ الذي ذكره ابن خلدون؛ والرسول الموقد بالرسالة كما في مثنى هو أبو الحزم عبد الرحمن بن
 منقذ ، وليس عبد الكريم . وأورد القلشندي (صبح الأعشى 6: 527) الرسالة المشار إليها بمستهلّها
 المذكور ، وفيها يلقّب يعقوب المنصور بأمر المؤمنين! وانظر التعريف بابن خلدون ، 346 (نشرتنا).

وفي هذا اختصاصُ ملك المغرب بالأساطيل؛ وما حصل للتصراية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستيالة، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده، بشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدول.

ولما هلك يعقوب المنصور، واعتلت دولة الموحدين، واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس، وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر، وملكوا الجزائر 5 التي بالجانب الغربي من البحر الرومي، قويت ربحهم في بسيط هذا البحر، واشتدت شوكتهم، وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناته بالمغرب، فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد في مثل عدة التصراية وعديدهم .

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل، لضعف الدولة، ونسيان 10 عوائد البحر، بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية. ورجع النصاري فيه إلى دينهم المعروف، من الذرية فيه، والمران عليه، والبصر بأخواله، وغلب الأمم في لجه⁽¹⁾ وعلى أغواده. وصار المسلمون فيه كالأجانب، إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية، لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار والأعوان، أو قوة من الدول تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلماً. / وبقيت الرتبة 15 لهذا العهد في الدول المغربية محفوظة، والرسم في معانة الأساطيل بالإنشاء والزكوب مفعوداً، لما عساه تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية. والمسلمون يستهبون الرياح على الكفر وأهليه. فمن المشتهرين أهل المغرب

(1) كذا في ظ ل ي ج ، وفي ع : لجه .

عن كتب الحدّاث، أنّه لا بُدّ للمُسلمين من الكثرة على التّضارّية، وافتتاح ما وراء
البحر من بلاد الإفرنجية، وأن ذلك يَكُونُ في الأساطيل. والله وليّ المؤمنين.

35 • فصل، في التّفاوت بين مراتب السّيف والقلم في الدّول

اعلم أنّ السّيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدّولة يَشْتَغِنُ بها على أمره. إلّا
5 أنّ الحاجة إلى السّيف في أوّل الدّولة، ما دام أهلها في تمهيد أمرهم، أشدّ من
الحاجة إلى القلم؛ إذ القلم في تلك الحال خادمٌ فقط مُتَقَدِّدٌ للحُكم السُّلْطانيّ؛ والسّيف
شريك في المعونة. وكذلك في آخر الدّولة حيث تُضَعِفُ عَصِيَّتُهَا كما ذكّرناه، ويقلّ
أهلها بما يتألّم من الهَرَم الذي قدّمناه، فتحتاج الدّولة إلى الاستِظهار بأزباب
السّيوف، وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدّولة والمدافعة عنها، كما كان الشّأن أوّل
10 الأمر في تمهيدها. فتكون للسّيف مزيّة في الحالتين على القلم، ويكون أرباب
السّيف حينئذٍ أوسع جاهاً وأكثر نعمةً وأسنَى إقطاعاً. وأمّا في وسط الدّولة
فيسْتَغْنِي صاحبها بعض الشّيء عن السّيف، لأنّه قد تمهّد أمره، ولم يَتَقِ هَمُّهُ إلّا
في تحصيل ثمرات الملك⁽¹⁾ من الجباية والضّبط، ومباهاة الدّول وتنفيذ الأحكام؛
والقلم هو المعين له في ذلك؛ فتعظّم الحاجة إلى تَصْرِيفِهِ، وتكون السّيوف مُهْمَلَةً
15 في مضاجع غمودها، إلّا إذا نابت نائية أو دُعِيَتْ إلى سدّ فُرجة، وما سوى ذلك
فلا حاجة إليها. فيكون أزباب الأقلام في هذه الحالة أوسع جاهاً، وأعلى رُتبةً،
وأعظم نعمةً وثروةً، / وأقرب من السُّلْطان مَجْلِساً، وأكثر إليه تَرَدُّداً، وفي خلواته

[176]

(1) ل : المال .

نَجِيًّا ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ آتَاهُ الَّتِي بِهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ ، وَالتَّظَرُّ فِي
أَعْطَافِهِ، وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ، وَالْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ ؛ وَيَكُونُ الْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ السُّيُوفِ
مُسْتَعْتَقِينَ عَنْهُمْ، مُبْعَدِينَ عَنِ بَاطِنِ السُّلْطَانِ، حَذِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ.

وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ، مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ⁽¹⁾ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ: أَمَّا
بَعْدُ، فَإِنَّهُ تَمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا الْفُرْسِ : أَخَوْفُ مَا يَكُونُ الْوُزَرَاءُ إِذَا سَكَنَتْ
الْدَّهْمَاءُ . سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

36 • فَصْلٌ ، فِي شَارَاتِ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ الْخَاصَّةِ بِهِ

اعْلَمْ أَنَّ لِلْسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالَ تَقْتَضِيهَا الْأُيُوهُ وَالْبَدَخُ ، فَيَخْتَصُّ بِهَا
وَيَتَمَيَّزُ بِانْتِحَالِهَا عَنِ الرَّعِيَّةِ وَالْبَطَانَةِ وَسَائِرِ الرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ . فَلْتَذَكَّرْ مَا هُوَ مُشْتَهَرٌ
مِنْهَا بِمَنْبَلِ الْمَعْرِفَةِ ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76].

أ. الْآلَةُ

فَمِنْ شَارَاتِ الْمُلْكِ، اتِّخَاذُ الْآلَةِ، مِنْ نَشْرِ الْأَلْوِيَّةِ وَالرَّايَاتِ، وَقَرَعِ الطَّبُولِ،
والتَّفَخُّ فِي الْأَنْبَاقِ وَالْقُرُونِ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَرِسْطُو فِي الْكِتَابِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي السِّيَاسَةِ⁽²⁾ ، أَنَّ السَّرَّ فِي
ذَلِكَ إِزْهَابُ الْعَدُوِّ فِي الْحَرْبِ؛ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي النُّفُوسِ بِالرَّوْعَةِ.

(1) ابن تقي بردي : النجوم الزاهرة 1: 333 .

(2) السياسة العامة 194 .

ولَعَنري إته أَمَرَّ وِجدانيّ في مَواطِن الحُرُوب يَجِدُه كُلُّ أَحَدٍ من نَفْسِه.
وهذا السَّبَبُ الَّذي ذَكَرَه أَرِسْطو، إن كان ذَكَرَه، فهو صَحِيحٌ بِبَغْضِ الاِغْتِيارات.
وأَمّا الحَقُّ في ذلك، فهو أَنَّ التَّنَفَّسَ عِندَ سَماعِ النِّعَمِ *^(أ) والأَصْوات يُذَكِّرُها الفَرَحُ
والطَّلَبُ بلا شَكٍّ، فيَصِيبُ مِزاجَ الرُّوحِ نَشوَةٌ يَسْتَسْهِلُ بِها الصَّعْبُ، وَيَسْتَمِيتُ في
5 ذلك الوَجْهَ الَّذي هُوَ فيه. وهذا مَوجودٌ حَتّى في الحِواناتِ العُجْمِ، فَانْفِعالُ الإِبِلِ
[بالْحِذاءِ]^(ب)، والحَيْلُ بالصِّفِيرِ والصَّرِيحِ كما عَلِمْتَ؛ وَيَزيدُ ذلك تَأْكِيداً إذا كَانَتْ
الأَصْواتُ مُتَناسِبةً كما في الغناء، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما يَحْدُثُ لِسامِعِه / من مِثْلِ هذا المَعْنى. [176ب]
ولأَجْلِ ذلك تَتَخَذُ العَجَمُ في مَواطِن حُرُوبِهِم الآلاتِ المَوسِيقارِيَّةَ، لا طَبْلًا ولا بوقًا؛
فيُخَدِّقُ المَغْتَنونَ بالسُّلطانِ في مَوَكِبِهِم بِالأَتَمِ وَيُغْتَنونَ، فيُحَرِّكونَ نُفُوسَ الشَّجْعانِ
10 بَضْرِبِهِم إلى الاستِقامَةِ.

ولَقَدْ رَأينا في حُرُوبِ العَرَبِ من يَتَغَنّى أَمامَ المَوَكِبِ بالشَّغْرِ وَيُطَرِّبُ،
فَتَجيشُ هِمَمُ الأَبْطالِ بِما فيها، وَيُسارِعونَ^(ج) إلى مَجالِ الحَرْبِ، وَيَتَبِعُ كُلُّ قِرْنٍ إلى
قِرْنِه. وكَذَلِكَ رِناثَةٌ من أُمَمِ المَغربِ، يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِندَهُم أَمامَ الصُّفوفِ وَيَتَغَنّى،
فيَحَرِّكُ بِغِنائِهِ الجِبالَ الرُّواسِيَّ، وَيَتَّبِعُ على الاستِقامَةِ من لا يُظَلُّ بِها، وَيُسَمَّونَ
15 ذلكَ الغناءَ تارْضُوكائِتَ^(د). وأَصْلُهُ كَلَّةٌ فَزَحٌّ يَحْدُثُ في التَّنَفَّسِ فَتَتَّبِعُ عَنْه
الشَّجَاعَةُ، كما تَتَّبِعُ عن نَشوَةِ الحَنَفِ بِما حَدَّثَ عَنْها مِنَ الفَرَحِ. وَاللَّهُ أَعلَمُ.

(أ) سقط ما بين التَّخمينِ من صَورةِ نَسْخَةٍ ع ، أو رَما أَن التَّكَلُّمَ كانَ في ورَقَةٍ طَيَّارةٍ تَقَلُّها بَقِيَّةُ الأَصُولِ ثُمَّ اخْتَفَتْ (ب) ظ: بالْحَذو (ج) ل: يَسارِعونَ (د) كذا في ظ، وفي ج: تارْضُوكائِتَ بِإِهْمالِ الحُرُوفِ الَّذي قَبْلَ التَّاءِ الأَخيرةِ، وفي ي: تارْضُوكائِتَ، وما قَبْلَ الأَخيرِ مَهمَلٌ ، وفي ل، وهي الأَتَمُ : تارْضُوكائِتَ بِرِسمِ زَيْنِ داخِلِ الصَّادِ على طَريقَةِ المَؤَلَّفِ في ضَبطِ الإِشْهامِ كما يَكُتَبُ اسمُ صَنِي (زَكِي) .

وأما تكثير الرايات [وتلوينها]^(١) وإطالتها، فالفُضد به التَّهْوِيل لا أَكْثَر؛ وربَّما
يَحْدُثُ في النَّفُوسِ من التَّهْوِيلِ زيادةٌ في الإقدام؛ وأحوالُ النَّفُوسِ وتَلَوُّناتها غريبةٌ.
واللهُ الخلاقُ العليمُ .

ثم إنَّ الملوكَ والدُّولَ يَخْتَلِفُونَ في اتِّخَاذِ هذه الشَّاراتِ، فمن مُكْثَرٍ وَمُقَلَّلٍ
بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ وَعِظَمِهَا.

فأما الرِّايَاتُ فإنَّها شِعَارُ الحُرُوبِ مُذْ عَهْدِ الخَلِيقَةِ؛ ولم تَزَلْ الأُمَّمُ تعقدها
في مَوَاطِنِ الحُرُوبِ والغزواتِ، ولعَهدِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْ بَعْدَهُ من الخلفاء.

وأما قِرْعُ الطُّبُولِ والنَّفْعُ في الأبواقِ، فكان المسلمون لأوَّلِ المِلَّةِ مُتَّجافين
عَنهُ، تَرَهُأَ عن غِلْظَةِ المُلِكِ وَرَفْضاً لأُخْوالِهِ، واحتقاراً لأُيُوتِهِ الَّتِي لَيْسَتْ من الحَقِّ
في شَيْءٍ. حتَّى إِذَا انْقَلَبَتِ الخِلاَفَةُ مُلْكاً وَتَجَبَّحُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا ونعيمِها، ولا بَسَهمَ
الموالي من الفُرسِ والرُّومِ وأهلِ الدُّولِ السَّالِفَةِ، وأزَوْهم ما كان أولئك يَنْتَحِلُونَهُ من
مَذاهِبِ البَذَخِ والتَّرفِ، فكان مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذُ الآلَةِ فاتَّخَذُوهَا، وأذِنُوا لِعَمَّالِهِمْ في
اتِّخَاذِهَا تَتَوِيماً بِالْمُلِكِ وَأَهْلِهِ. / فكثيراً ما كان العامِلُ ^(ب) صَاحِبُ الشَّغَرِ أو قَائِدُ
الجَيْشِ يَفْقِدُ لَهُ الخَلِيفَةُ من العَبَّاسِيِّينَ أو العُبَيْدِيِّينَ لَوَاءَهُ، وَيَخْرُجُ إلى بَعْثِهِ أو عَمَلِهِ
من دار الخَلِيفَةِ أو دارِهِ، في مَوْكَبٍ من أَصْحَابِ الرِّايَاتِ والآلَةِ، فلا تُمَيِّزُ بَيْنَ مَوْكَبِ
العامِلِ والخَلِيفَةِ إِلَّا بَكَثْرَةِ الأَلْوِيَةِ أو قِلَّتِهَا، أو بِمَا اخْتَصَّ بِهِ الخَلِيفَةُ مِنَ الأَلْوَانِ
لرَايَتِهِ، كالسَّوَادِ في رَايَاتِ بَنِي العَبَّاسِ، فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُوداً حُزْناً على شُهَدَائِهِمْ
من بَنِي هَاشِمٍ، وَنَعِيّاً على بَنِي أُمَيَّةٍ في قَتْلِهِمْ، وَلِذلِكَ سُمُّوا الْمُسَوَّدَةَ.

(١) من: ل ج ي ، وفي ظ : تطويلها (ب) إلى هنا ينتهي سقط الصفحة التي لم تصوّر من نسخة ع .

ولما افترق أمر الهاشميين، وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر، ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك، فاتخذوا الرايات بيضا، وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين، ومن خرج من الطالبيين [في ذلك]^(أ) العهد بالمشرق، كالذاعي بطبرستان، وداعي صعدة، أو^(ب) من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم 5 كالقرامطة .

ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته، عدل إلى لون الحضرة، فجعل راياته خضرا .

وأما الاستيثار منها فلا ينتهي إلى حد، وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز نزار إلى فتح الشام، خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبواق .

10 وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرهم، فلم يختصوا بلون واحد، بل وشعوا بالذهب، واتخذوها من الحرير الخالص ملونة، واستمروا على الإذن فيها لعماهم. حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناته، فقصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان، وحظروها على سواه من عماله، وجعلوها موكبا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره، يسمى الساقة. وهم فيه بين مكثر ومقلل، 15 باختلاف مذاهب الدول في ذلك؛ فمنهم من يقتصر على سبع في العدد تبركا

بالسبعة، كما هو في دولة الموحدين وتي الأخر بالأندلس؛ ومنهم / من يبلغ العشرة [177ب] والعشرين، كما هو عند زناته. وقد بلغت أيام السلطان أبي الحسن فيما أذكرناه مائة من الطبول ومائة من البنود، ملونة بالحرير ومنسوجة بالذهب، ما بين كبير وصغير.

(أ) ظ : لذلك (ب) ل : ومن .

ويأذنون للولاء والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء،
وطبيل صغير أيام الحرب، لا يتجاوزون ذلك.

وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق، فيتخذون أولاً راية واحدة عظيمة،
وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر ويسمونها الشالش^(أ) والجتر^(ب) وهي [مع العسكر على
عمومه، ثم على رأس السلطان راية أخرى تسمى العصاة والشطفة]^(ج) وهي شعار 5
السلطان عندهم، ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق، واحدتها سنجق، وهو الراية
بلسانهم. وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات، ويبيحون لكل
أمير أو قائد عسكر أن يتخذ من ذلك ما شاء؛ إلا الجتر^(د)، فإنه خاص بالسلطان.

وأما الجلالقة لهذا العهد من أمم الإفرنجية بالأندلس، فأكثر شأنهم اتخاذ
الألوية القليلة ذاهبة في الجوّ صعداً، ومعها قزع الأوتار من الطناير، ونفخ الغنطاط، 10
يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم. هكذا يبلغنا عنهم وعن
وراءهم من ملوك العجم. وفي خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم
آيات للعالمين^(هـ).

ب. السريز

وأما السريز، والمنبر، والتخت، والكرسي، وهو أعود منصوبة أو أرائك 15
منصدة لجلوس السلطان عليها، مرفوعة عن أهل مجلسه أن يساوهم في الصعيد. ولم

(أ) كذا في ظ، وفي ج ل: الشاليش، وفي ي: الساليس، وفي ع: الجاليش (ب) جاءت الكلمة مكسورة الجيم في ع، ومفتوحة
في ل (ج) حاشية بخطه انفردت بها ع، ولم تُقل عنها في الأصول الأخرى (د) كذا في الأصول الخمسة، وفي نسخة ع أليت،
واستبدلت في الحاشية بخطه بكلمة: العصاة (هـ) تضمن من الآية الكريمة رقم 22 من سورة الزوم.

يَزَلْ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمَلِكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فِي دُولِ الْعَجَمِ، وَقَدْ كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى أَسِرَّةِ الذَّهَبِ؛ وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، سَرِيرٌ مِنْ عَاجٍ مُغَشًى بِالذَّهَبِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا⁽¹⁾ تَأْخُذُ بِهِ الدُّوْلُ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِفْحَالِ وَالتَّرَفِّ، شَأْنُ الْأُيُوهِ كُلِّهَا كَمَا قُلْنَا. / وَأَمَّا فِي أَوَّلِ الدُّوْلَةِ عِنْدَ الْبِدَاوَةِ فَلَا يَتَشَوَّفُونَ إِلَيْهِ.

[178]

5 وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهُ فِي الْإِسْلَامِ مُعَاوِيَةُ، وَاسْتَأْذَنَ النَّاسَ فِيهِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ بَدُنْتُ؛ فَأَذِنُوا لَهُ؛ فَاتَّخَذَهُ، وَاتَّبَعَهُ الْمُلُوكُ الْإِسْلَامِيُّونَ فِيهِ، وَصَارَ مِنْ مَنَازِعِ الْأُيُوهِ. وَلَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِمَصْرَ يَجْلِسُ فِي قَصْرِهِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ الْعَرَبِ، وَيَأْتِيهِ الْمُتَوَقِّسُ إِلَى قَصْرِهِ وَمَعَهُ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ مَحْمُولٌ عَلَى الْأَيْدِي لَجُلُوسِهِ، شَأْنُ الْمُلُوكِ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُمْ أَمَامَهُ، وَلَا يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِ، وَفَاءً لَهُ بِمَا اعْتَقَدَ مَعَهُمْ مِنَ الذُّمَّةِ، وَاطْرَاحًا لِأُيُوهِ الْمَلِكِ. ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ، وَالْعُبَيْدِيِّينَ، وَسَائِرِ 10 مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرْقًا وَغَرْبًا، مِنَ الْأَسِرَّةِ وَالْمَنَابِرِ وَالتُّخُوتِ مَا عَفَى عَلَى الْأَكْاسِرَةِ وَالْقِيَاصِرَةِ. وَاللَّهُ مُقَلِّبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

ج. السَّكَّةُ⁽¹⁾

وهي^(ب) الْحَتْمُ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالْدِّرَاهِمِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ بِطَابَعِ حَدِيدٍ، 15 تُنْقَشُ فِيهِ صُورٌ أَوْ كَلِمَاتٌ مَقْلُوبَةٌ، وَيُضْرَبُ بِهَا عَلَى الدِّينَارِ أَوْ الدِّرْهَمِ، فَتَخْرُجَ رِسْمُ تِلْكَ النُّقُوشِ عَلَيْهَا ظَاهِرَةً مُسْتَقِيمَةً، بَعْدَ أَنْ يُعْتَبَرَ عِيَارُ النُّقْدِ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ فِي

(أ) ي: لم (ب) ظ: وهو.

(1) تقدم الحديث عن السكة في الخطط الدينية الخلافية 31 هـ (ص 392) من حيث الحسبة عليها.

خُلوصه بالسَّيْنِك مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَبَعْدَ تَقْدِيرِ أَشْخَاصِ الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ بِوَزْنٍ مُعَيَّنٍ يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا عَدْدًا، وَإِنْ لَمْ تَقْدَرِ أَشْخَاصُهَا يَكُونُ التَّعَامُلُ بِهَا وَزْنًا.

وَلَفْظُ السَّكَّةِ كَانَ اسْمًا لِلطَّابَعِ، وَهِيَ الْحَدِيدَةُ الْمَتَّخَذَةُ لَذَلِكَ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَى أَثَرِهَا، وَهُوَ النُّقُوشُ الْمَائِلَةُ عَلَى الذَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّنْظِيرِ فِي اسْتِيفَاءِ حَاجَاتِهِ وَشُرُوطِهِ، وَهِيَ الْوُظُفَةُ، فَصَارَ عَلَمًا عَلَيْهَا فِي عُرْفِ الدُّوَلِ. 5

وَهِيَ وَظِيفَةٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمَلِكِ، إِذْ بِهَا يَتَمَيَّزُ الْخَالِصُ مِنَ الْبَهْرَجِ بَيْنَ النَّاسِ فِي النُّقُودِ عِنْدَ الْمُعَامَلَاتِ، وَيَتَّقُونَ فِي سَلَامَتِهَا مِنَ الْغِشِّ، بِخَتَمِ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا بِتِلْكَ [178ب] النُّقُوشِ / الْمَعْرُوفَةِ.

وَكَانَ مُلُوكُ الْعَجَمِ يَتَّخِذُونَهَا وَيَنْقُشُونَ فِيهَا تَمَاثِيلَ تَكُونُ مَخْصُوصَةً بِهَا، مِثْلَ تِمَثَالِ السُّلْطَانِ لَعَهْدِهَا، أَوْ تِمَثَالِ حِصْنٍ أَوْ حَيَوَانٍ أَوْ مَصْنُوعٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَزَلْ 10 هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَ الْعَجَمِ إِلَى آخِرِ أَمْرِهِمْ.

وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، أُغْفِلَ ذَلِكَ لِسَدَاجَةِ الدِّينِ وَبَدَاوَةِ الْعَرَبِ. وَكَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَزْنًا؛ وَكَانَتْ ذَّنَانِيرُ الْفُرْسِ وَدَرَاهِمُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَرُدُّونَهَا فِي مُعَامَلَتِهِمْ إِلَى الْوَزْنِ، وَيَتَصَارَفُونَ بِهَا بَيْنَهُمْ؛ إِلَى أَنْ تَفَاحَشَ الْغِشُّ فِي الذَّنَانِيرِ وَالذَّرَاهِمِ لَغَفْلَةِ الدَّوْلَةِ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ⁽¹⁾ عَبْدُ الْمَلِكِ الْحَجَّاجُ، عَلَى مَا نَقَلَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ 15 وَأَبُو الزِّنَادِ، فَضَرَبَ الدَّرَاهِمَ وَتَمَيَّزَ الْمُغَشُّوشُ مِنَ الْخَالِصِ، وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ؛ وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ: سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْبِهَا فِي سَائِرِ النَّوَاحِي سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [سُورَةُ الْإِخْلَاصِ، مِنَ الْآيَةِ 1، وَالْآيَةِ 2].

(1) نَقَلَ هَذِهِ الْبَيَانَاتُ عَنِ السَّكَّةِ مِنَ الْمَوَارِدِيِّ: الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ 406 - .

ثم وَلِي ابنُ هُبَيْرَةَ الْعِرَاقَ أَيَّامَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَجَوَّدَ السَّكَّةَ؛ ثُمَّ بِالْعِ خَالِدُ الْقُسَيْرِيِّ فِي تَجْوِيدِهَا، ثُمَّ يَوْسُفُ بْنُ عُمَرَ بَعْدَهُ. وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّنَانِيرَ وَالْدَّرَاهِمَ، مُضْعَبُ بْنُ الزَّيْتَرِ بِالْعِرَاقِ سَنَةَ سَبْعِينَ، بِأَمْرِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَلِيَ بِالْحِجَازِ^(أ)، وَكُتِبَ عَلَيْهَا فِي أَحَدِ الْوُجْهَيْنِ: بَرَكَه، وَفِي الْآخَرِ: اسْمُ اللَّهِ؛ ثُمَّ غَيَّرَهَا الْحَجَّاجُ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةٍ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا بِاسْمِ اللَّهِ، الْحَجَّاجُ. وَقَدَرُوا وَزْنَهَا عَلَى مَا كَانَتْ اسْتَقَرَّتْ أَيَّامَ [عُمَرَ]^(ب)، وَذَلِكَ أَنَّ الدَّرْهَمَ كَانَ وَزْنُهُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ سِتَّةَ دَوَانِقٍ^(ج)، وَالْمِثْقَالُ وَزْنُهُ دَرَاهِمٌ وَثَلَاثَةُ أَسْبَاعِ الدَّرْهَمِ، فَيَكُونُ عَشْرَةُ دَرَاهِمٍ بِسَبْعَةِ مِثْقَالٍ.

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ أَوْزَانَ الدَّرْهَمِ^(د) أَيَّامَ الْفُرْسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً، وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ الْمِثْقَالِ عِشْرُونَ قِيرَاطًا، وَمِنْهَا اثْنَا عَشَرَ، وَمِنْهَا عَشْرَةٌ. فَلَمَّا اخْتَبِجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي الزَّكَاةِ، أَخَذَ الْوَسْطُ مِنَ الثَّلَاثَةِ، وَذَلِكَ أَرْبَعَةُ عَشَرَ / قِيرَاطًا،^[i179] فَكَانَ الْمِثْقَالُ دِرْهَمًا وَثَلَاثَةَ أَسْبَاعِ دِرْهَمٍ. وَقِيلَ [إِنَّ الدَّرَاهِمَ]^(هـ) كَانَ مِنْهَا الْبَغْلِيُّ بِثَمَانِيَةِ دَوَانِقٍ، وَالطَّبْرِيُّ أَرْبَعَةَ دَوَانِقٍ، وَالْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَةَ^(و) دَوَانِقٍ؛ وَالْيَمَنِيُّ دَانِقٌ^(ز)، فَأَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُنْظَرَ الْأَغْلَبُ فِي التَّعَامُلِ، فَكَانَ الْبَغْلِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَهُمَا اثْنَا عَشَرَ دَانِقًا، وَكَانَ الدَّرْهَمُ سِتَّةَ دَوَانِقٍ، فَإِنْ زِدْتَ ثَلَاثَةَ أَسْبَاعِهِ كَانَ مِثْقَالًا، وَإِنْ أَنْقَضْتَ^(ح) ثَلَاثَةَ أَعْشَارِ الْمِثْقَالِ كَانَ دَرْهَمًا.

فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ اتِّخَاذَ السَّكَّةِ لِصِيَانَةِ التَّقْدِيرِ الْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْغِشِّ، فَعَيَّنَ مِقْدَارَهَا عَلَى هَذَا الَّذِي اسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ

(أ) ل: الحجاز (ب) سقط من ظ (ج) كذا جاء جمع الدنانير في جميع الأصول، ويرد بعده فيها جميعها على جمع دنانير (د) ل: الدرهم (هـ) من حاشية ع بخطه، لم نقلها عنها بقية الأصول (و) كذا في ظي ل، وفي ج ع: ثلاثة (ز) كذا في كل الأصول (ح) ظ، وفي الأصول الأخرى: وإذا نُقِصَتْ .

عنه، واتخذ طابع الحديد، ونقش فيه كلمات لا صوراً، لأنّ العرب كان الكلام
والبلاغة أقرب مناحيم وأظهرها، مع أنّ الشرع ينهى عن الصّور. فلما فعل ذلك
استمرّ بين الناس في أيام الملة كلّها.

وكان الدينار والدرهم على شكلين مُدَوَّرَيْن، والكتابة عليهما في دوائر مُتوازنة^(أ)
يُكتب في^(ب) أحد الوجهين أسماء الله تَهْلِيلًا وتَحْمِيدًا، وصلاة على النَّبِيِّ وآله، وفي
5 الوجه الثاني: التاريخ، واسمُ الخليفة. هكذا أيام العباسيين والغُبَينديين والأمويين.
وأما صِنهاجَةُ، فلم يَتَّخذوا سِكَّةً إلا آخِرَ الأمر، اتَّخذها المنصورُ صاحبُ
بجاية، ذكر ذلك ابنُ [حمادو]^(ج) في تاريخه^(د).

ولما جاءت ذُولةُ الموحِّدين، كان ممَّا سَنَّ لهم المَهْدِيُّ اتِّخَاذَ سِكَّةِ الدِّراهم^(د)
مُرَبَّع الشكل، وأن يُرسم في دائرة الدينار شكلٌ مُرَبَّعٌ في وَسْطِهِ، ويُمَلَأُ من أحدِ
10 الجانبين تَهْلِيلًا وتَحْمِيدًا، ومن الجانب الآخر كُتِبَا في السُّطور باسمه واسم الخلفاء من
بَعْدِهِ. ففعلَ ذلك الموحِّدون، وكان سِكَّتُهُمْ على هذا الشكل لهذا العهد. وقد كان
المَهْدِيُّ، فيما نُقِلَ، يُنَعَّثُ^(هـ) [قَبْلَ ظُهوره]^(و) بصاحب الدِّرهم المُرَبَّع، نَعْتَهُ بذلك
المُتَكَلِّمون بالحدِّثان من قَبْلِهِ، المُخْبِرون في مَلاحِهم عن دَوْلَتِهِ.

(أ) من ظ، وفي النسخ الأخرى: متوازية (ب) من ظ، وفي ع ل ج ي: فيها من أحد (ج) من ل، وفي ط ج: ابن حماد، غير
مضبوطة بالشكل، وفي ع: حماد، وفي ي ضبط الميم مشددة (د) كذا في كل الأصول (هـ) ي: يستى (و) سقط من ط ج

(1) محمد بن علي بن حمادو الصنهاجي، قاضٍ أصله من قرية بجمزة (بو حمزة) من حوز قلعة بني حماد.
والإشارة على الأغلب لكتابه المفقود: النبد المحتاجة في أخبار صنهاجة، وقد أفاد منه ابن خلدون في تكملة
أخبار بني خزرون. انظر عنه ابن الأبار: تحفة القادم 193، الغبريني: عنوان الدراية 212، الصفدي:
الوافي 4: 157، ومقدمة M. VONDERHEYDEN لكتاب ابن حماد: أخبار ملوك بني غُبَيد وسيرتهم.

وأما أهل المشرق لهذا العهد، فسكتهم غير مُقدَّرة، وإنما يتعاملون بالدنانير والدرهم وزنًا بالصنجات المُقدَّرة بعدة منها، ويطبعون عليها بالسَّكَّة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة / واسم السلطان كما يفعلُه أهل المغرب. ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [سورة يس، من الآية 38].

• تنبيه⁽¹⁾

5

ولنختم الكلام في السَّكَّة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان مقدارهما.

وذلك أنَّ الدرهم والدينار مُختلفا السَّكَّة في المقادير والموازين بالآفاق والأمنصار وسائر الأعمال. والشرع قد تعرَّض لذكرهما وعلَّق كثيرًا من الأحكام بهما، في الزَّكَاة والأَنْكَحَة والحدود وغيرها. فلا بُدَّ لهما عنده من حقيقة ومقدار تتعين في تقديره وإرادته، وتجري عليها أحكامه دون غير الشرعيَّ منها. فاعلم أنَّ الإجماع مُنْعَقِد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين، أنَّ الدرهم الشرعي هو الذي تَرَنُّ العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعين درهماً، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار. ووزن المِثْقَال من الذهب ثلثان وسبعون حبة من الشعير الوسط. فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره، خمسون حبة وخمسة حبة؛ وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع. فإنَّ الدرهم الجاهلي كان ينهم على أنواع أجودها الطبري، وهو

(1) ما بين النجمين من نص هذا التنبيه كله، مشار إليه بعلامة المخرج في نسخة ع الأم، حيث كان مكتوباً في بطاقة مستقلة خارج كراسات الكتاب، ونقلته عنها نسخة ج وحدها قبل أن يُفقد.

ثمانية دَوَانِق، والبَغْلِيُّ وهو أربعة دَوَانِق، فجعلوا الشَّرْعِيَّ منها ستة دَوَانِق. وكانوا
يوجبون الزَّكَاةَ في مائة دِرْهَمٍ بَغْلِيَّةً ومائة طَبْرِيَّةَ خمسة دَرَاهِمٍ وَسَطًا.

وقد اختلفَ النَّاسُ، هل كان ذلك من وَضْعِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وإجماعِ النَّاسِ
بَعْدَهُ عليه، كما نَقَلْنَاهُ، ذكرَ ذلك الحِطَّابِيُّ في كتابِ مَعَالِمِ السَّنَنِ⁽¹⁾، والمأوَزْدِيُّ في
كتابِ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ⁽²⁾، وأنكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، لما يُلْزَمُ منه أن يكون
5 الدَّرْهَمُ والدينارُ الشَّرْعِيَّانِ مَجْهُولَيْنِ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، مع تَعَلُّقِ الْحُقُوقِ
الشَّرْعِيَّةِ بهما في الزَّكَاةِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كما ذَكَرْنَاهُ. والحقُّ أَنَّهَا كَانَا مَعْلُومَيْنِ
المِقْدَارِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، بِحَجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ يَوْمئِذٍ بما يَتَعَلَّقُ بهما من الْحُقُوقِ. وكان
مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُتَشَخِّصٍ فِي الْخَارِجِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارَفًا بَيْنَهُمَا بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ الْمُتَّفَرِّدِ فِي
10 مِقْدَارِهِمَا وَوزْنِهِمَا؛ حَتَّى اسْتَفْضَلَتِ الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَعَظُمَتِ أَمْوَالُهَا، ودَعَى الْحَالُ
إِلَى تَشْخِصِهَا فِي الْمِقْدَارِ وَالْوَزْنِ كما هو عِنْدَ الشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كُلْفَةِ التَّقْدِيرِ.
وقَارَنَ ذَلِكَ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيْنَهُمَا فِي الْخَارِجِ كما هُمَا فِي الذَّهْنِ،
ونَقَشَ عَلَيْهَا السِّكَّةَ بِاسْمِهِ وَتَارِيخِهِ إِثْرَ الشَّهَادَتَيْنِ الْإِيمَانِيَّتَيْنِ، وطَرَحَ النُّقُودَ الْجَاهِلِيَّةَ
رَأْسًا حَتَّى خُلِصَتْ وَنُقِشَتْ عَلَيْهَا سِكَّتُهُ وَتَلَاشَى وَجُودُهَا؛ وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا
مَحِيدَ عَنْهُ.

15

ثم بَعْدَ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السِّكَّةِ فِي الدَّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمِقْدَارِ الشَّرْعِيِّ
فِي الدِّينَارِ وَالذَّرْهَمِ، واخْتَلَفَتْ فِي ذَلِكَ الْأَقْطَارُ وَالْآفَاقُ، وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ

(1) معالم السنن 3: 55 .

(2) الأحكام السلطانية 405 .

مقاديرها الشرعية ذهناً كما كان في الصذر الأول، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سيكتهم بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية.

وأما وزن الدينار بشنئين وسبعين حبة من الشعير الوسيط، فهو الذي نقله المحققون، وعليه الإجماع، إلا أن ابن حزم⁽¹⁾ خالف ذلك، وزعم أنه أربعة وثمانون حبة، نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق، وردّه المحققون وعدّوه وهماً أو غلطاً، وهو الصحيح. والله يحق الحق بكلماته.

وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس، لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار، والشرعية متحدة ذهناً لا اختلاف فيها. والله ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾⁽¹⁾ [سورة الفرقان، من الآية 2].

د. * الخاتم (ب)

10

وأما الخاتم فهو من الحطط [السلطانية]^(ج) والوظائف الملوكية. والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وتغده. وقد ثبت في الصحيحين⁽²⁾

(أ) إل هنا ينتهي نص التنبيه (ب) جدد المؤلف ما كتبه في سياق أصله "ع"، فالنص الموجز الذي حرره عن الخاتم، وأضاف بخطه ورقة ملاً صفحتها بخط دقيق، استزعب فيها الحديث عن الخاتم مفصلاً وعن الطراز. ونقلتها منها بقية النسخ الأربع (ج) سقط من ظ.

(1) جاء في المحلى بالآثار (4 : 53) قوله: "وبحثت أنا غاية البحث عند كل من وهت بتفميذه، فكل اتفاق لي على أن دينار الذهب بمكة وزنه اثنان وثمانون حبة وثلاثة أعشار حبة، بالحب من الشعير المطلق"، وهو غير ما أشار إليه ابن خلدون.

(2) البخاري في العلم 1: 25 (65)، وفي الجهاد 4: 54 (2938)، وفي اللباس 7: 203 (5875)، وفي الأحكام 9: 83 (7162)، ومسلم في اللباس (2092).

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا؛ فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، وَنَقَشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: جَعَلَ الثَّلَاثَ كَلِمَاتٍ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ، وَقَالَ: لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ. قَالَ: وَخَتَمَ بِهِ أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بئرِ أَرَيْسَ⁽¹⁾، وَكَانَتْ كَثِيرَةُ الْمَاءِ فَلَمْ يُدْرِكْ قَعْرَهَا بَعْدَ، وَاعْتَمَ لَذَلِكَ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ، وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثَالِهِ. 5

وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ ذَلِكَ الْخَاتَمِ وَالْخَتَمِ بِهِ وَجُوهٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْآلَةِ الَّتِي تُجْعَلُ فِي الْإِصْبَعِ، وَمِنْهُ تَخْتَمُ، إِذَا لَبَسَهُ. وَيُطْلَقُ عَلَى النِّهَايَةِ وَالنِّتَامِ، وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ بَلَغْتُ آخِرَهُ، وَخَتَمْتُ الْقُرْآنَ، كَذَلِكَ، وَمِنْهُ خَاتَمُ التَّبَيِّنِ وَخَاتَمَةُ الْأَمْرِ. وَيُطْلَقُ عَلَى السَّدَادِ الَّذِي تُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي وَالْأَنْبَاءُ، وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [سُورَةُ الْمُطَفِّينَ، مِنْ الْآيَةِ 26]. وَقَدْ غَلَطَ مَنْ فَسَّرَ هَذَا بِالنِّهَايَةِ وَالنِّتَامِ، قَالَ: لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي [شَرَاهِيمَ]⁽¹⁾ رِيحُ الْمِسْكِ؛ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخِتَامِ الَّذِي هُوَ^(ب) السَّدَادُ، لِأَنَّ الْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي الدُّنِّ سِدَادُ الطِّينِ أَوِ الْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيُطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا، فَيُؤَلِّغُ فِي وَصْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِأَنَّ سِدَادَهَا مِنَ الْمِسْكِ، وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفًا وَذَوْقًا مِنَ الطِّينِ وَالْقَارِ الْمَغْهُودَيْنِ فِي الدُّنْيَا. 10 15

فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كُلِّهَا، صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا النَّاشِيءِ عَنْهَا. وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نُقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مُدَافٍ مِنْ طِينٍ

(1) تَدَاخَلَتِ الْكَلِمَةُ فِي الْأَصْلِ عَ، فَنَقَلَهَا كَاتِبُ نَسْخَةِ طَ: شَأْنُهُمْ، وَجَاءَتْ فِي ج ع ي صَحِيحَةً (ب) لَ: هُوَ مِنَ السَّدَادِ.

(1) الطَّبْرِي: تَارِيخُ الرِّسَالِ وَالْمُلُوكِ 4: 281 - .

أو مداد، ووضع على صفح القِرطاس بقي أثر الكلمات في ذلك الصفح، وكذلك إذا طُبع به على جسم لَيِّن كالشَّمع، فإنه يَبْقَى نَقْشُ ذلك المكتوب مُرْتَسِمًا فيه. وإذا كانت / كلماتٌ وازتُسمتْ فقد تُقرأ من الجهة اليسرى، إن كان النّقش على [180] الاستقامة من اليمنى، وقد تُقرأ من الجهة اليمنى، إن كان النّقش من الجهة اليسرى، لأنّ الختم يَقلبُ جهة الخطّ في الصفح عما كان في النّقش من يمين أو يسار. فيَحتمَلُ أن يكونَ الختمُ بهذا الخاتمِ بغمسه في المداد و الطّين، ووضعِه على الصفح فتَنقَشُ الكلمات فيه، ويكونُ هذا من مَعْنَى النّهاية والتّمام، بِمَعْنَى صِحّة ذلك المكتوب ونُفوذِه، كأنّ الكتاب إنّما يَتِمُّ العَقْلُ به بهذه العلامة، وهو من دونها مُلغَى ليس بتامّ. وقد يكونُ هذا الختمُ بالخطّ آخر الكتاب أو أوله بكلمات مُنظمة من تحميدٍ أو تشبيح، أو باسم السّلطان أو الأمير، أو صاحب الكتاب مَنْ كان، أو شيء من نُعوتِه، يكونُ ذلك الخطّ علامةً على صِحّة الكتاب ونُفوذِه، ويُسمّى ذلك في المتعارف علامةً، ويُسمّى خاتماً تشبيهاً له بأثر الخاتم الإصبعي في النّقش؛ ومن هذا خاتم القاضي الذي يَبْعَثُ به للخصوم، أي علامته وخطّه الذي تنفدُ بها أحكامه؛ ومنه خاتم السّلطان أو الخليفة، أي علامته. قال الرّشيدُ ليخى بن خالد لما أراد أن يَسْتَوِزَرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ به من الفضل أخيه، فقال لأبيهما يَحْيَى: يا أبت، إنّي أردتُ أن أحولَ الخاتمَ من يميني إلى شمالي، فكُنّي له بالخاتم عن الوزارة، لما كانت العلامة على الرّسائل والصّكوك من وظائف الوزارة لعهدهم. ويشهد بصحّة هذا الإطلاق، ما نقله الطّبري أنّ مُعاوية أُرْسِلَ إلى الحسَن عند مُراوَضَتِه إياه في الصّلح، صحيفَةً بيضاء ختمَ على أسفلها، وكتبَ إليه أن اشترطَ في هذه الصّحيفة

التي ختمت أسفلها ما شئت، فهو لك. ومعنى الحتم هنا، علامة في آخر الصحيفة بخط أو غيره. ويحتمل أن يحتم به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه، ويجعل على موضع الحزم من الكتاب إذا خُزِمَ وعلى المودعات، وهو من السداد كما مر. / وهي [180ب] في الوجهين آثار للخاتم، فيطلق عليه خاتم.

5 وأول من أحدث الحتم على الكتب، أي العلامة، معاوية؛ لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف، ففتح الكتاب وصيرت المائة مائتين، ورفع زياد حسابه فأنكرها معاوية، وطلب بها عمرا وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله. واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم، ذكره الطبري⁽¹⁾، وقال آخره: وخزم الكتب ولم تكن تخزم، أي جعل لها السداد. وديوان الخاتم عبارة عن 10 الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والحتم عليها، إما بالعلامة أو بالحزم. وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال.

والخزام للكتب يكون إما بدس الورق كما في عزف كتاب المغرب، وإما بلصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عزف أهل المشرق. وقد يجعل على مكان الدسر أو اللصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه. فأهل المغرب يجعلون على الدسر قطعة من الشمع يختمون عليها بخاتم نقشت 15 فيه علامة لذلك، فيرتسم النقش في الشمع. وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غُمس في مذاف من الطين معد لذلك،

(1) تاريخ الرسل والملوك 5 : 330 .

صَبَغَهُ أَحْمَرَ، فَيُرْتَسَمُ ذَلِكَ النَّقْشُ عَلَيْهِ. وَكَانَ هَذَا الطَّيْنُ مَعْرُوفًا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
بَطَيْنِ الْحَتَمِ، وَكَانَ يُجَلَّبُ مِنْ سِيرَافٍ، فَيُظْهِرُ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا.

فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة، أو النقش للسداد، والختم للكتب،
خاص بديوان الرسائل؛ وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية. ثم اختلفت العُرف
5 وصار لمن إليه الترسل وديوان الكتاب في الدول. ثم صاروا في دول المغرب يُعدُّون
من علامات الملك وشاراته الخاتم للإضبع، فيستجيدون صوغه من الذهب،
ويُزْصَعُونَهُ بِالْقُصُوصِ مِنَ الْيَاقُوتِ وَالْفَيْرُوزِ وَالزُّمُرِّدِ، / وَيَلْبَسُهُ السُّلْطَانُ شَارَةً فِي
[i181] عَزْفِهِمْ، كَمَا كَانَتْ الْبُرْدَةُ وَالْقَضِيبُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَالْمِظَلَّةُ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبْسِيَّةِ.
وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ بِحِكْمَتِهِ.

هـ. الطَّرَازُ

10

وَمِنْ أَهْمَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَمَذَاهِبِ الدُّوَلِ، أَنْ تُرْسَمَ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ
عَلَامَاتُ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طَرَزٍ^(أ) أَثَوَابِهِمُ الْمُعَدَّةُ لِيَابِسِهِمْ، مِنَ الْحَرِيرِ أَوِ الدِّيَبَاجِ أَوْ
الْإِبْرِيسَمِ، تُعْتَبَرُ كِتَابَةُ خَطِّهَا فِي نَسْجِ الثَّوْبِ إِلْحَامًا وَسَدَوًا بِخِيطِ الذَّهَبِ، أَوْ مَا
يُخَالِفُ لَوْنَ الثَّوْبِ مِنْ^(ب) الْخِيُوطِ الْمُلَوَّنَةِ مِنْ غَيْرِ الذَّهَبِ، عَلَى مَا يُحْكِمُهُ الصُّنَاعُ
15 فِي تَشْدِيرِ ذَلِكَ وَوَضْعِهِ فِي صِنَاعَةِ نَسْجِهِمْ. فَتَصِيرُ الثِّيَابُ الْمُلُوكِيَّةُ مُعْلَمَةً بِذَلِكَ
الطَّرَازِ، قَصْدًا لِلتَّنْوِيهِ بِلَابِسِهَا مِنَ السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ، أَوْ التَّنْوِيهِ بِمَنْ يُخْتَصُّهُ
السُّلْطَانُ بِمَلْبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ تَشْرِيقَهُ بِذَلِكَ، أَوْ وِلَايَتَهُ لَوْظِيْفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِ.

(أ) ل : طراز (ب) ي : عن .

وكان ملوك العجم من قَبْل الإسلام يَجْعَلون ذلك الطَّرَازَ بَصُورَ الملوك وأشكالهم ، أو أشكالِ وُصُورِ مُعَيَّنَةٍ لذلك . ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتِّب أسمائهم مع كلماتٍ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَى القَالِ أو السُّبُحات . وكان ذلك في الدَّولَتَيْنِ من أُنْبَه الأمور وأَفْخَم الأحوال . وكانت الدُّور المَعْدَّة لِنَسْج أثوابهم في قُصورهم تُسَمَّى دور الطَّرَاز لذلك ، وكان القائمُ على النظر فيها يُسَمَّى صاحب الطَّرَاز، يَنْظُرُ في أمر الصُّنَاع والآلة و[الحاكة]⁽¹⁾ فيها، وإجراء أَرْزاقهم وتَسْهِيل آلائهم ومُشارَفة أَعْمالهم. وكانوا يُقَلِّدون ذلك لِحَواصِ دَوْلَتهم وثِقَات مَوالِيهم . وكذلك كان الحالُ في دَوْلَة بَنِي أُمَيَّة بِالْأَنْدَلُس والطَّوائِف من بَعْدهم، وفي دَوْلَة العُبَيْدِيِّينَ بِمِصْر، ومن كان على عَهْدهم من مُلوك العَجَم بِالمَشْرِق. ثُمَّ لما ضاق بِطاقِ الدُّولِ عن التَّرَف والتَّفَنُّن فيه بضيقِ بِطاقِها في الاستيلاء، وتعدَّدت الدُّول، بَطُلَت هذه [18ب] الوَظيفَة والولاية / عليها من أَكْثَر الدُّول بِالْجُمْلَة.

ولما جاءت دَوْلَة المُوحِّدين بِالمَغْرِب بَعْد بَنِي أُمَيَّة أَوَّل المائَة السَّادِسَة، فَلَمْ يَأْخُذوا بِذلك أَوَّل دَوْلَتهم، لما كانوا عليه من مَنَازِع الدِّيَانَة والسَّدَاجَة الَّتِي لَقِنُوها عن إِمَامِهِم مُحَمَّد بن ثَوَمَرْت المَهْدِيّ، وكانوا يَتَوَرَّعون عن لُبْس الحرير والذَّهَب، فَسَقَطَت هذه الوَظيفَة من دَوْلَتهم، واستَدْرَكَ منها أَعْقَابُهم آخِر الدَّولَة طَرَفًا لَمْ يَكُن بِتِلْكَ النِّبَاهَة. وَأَمَّا لِهَذَا العَهْد، فَأَدْرَكْنَا بِالمَغْرِب في الدَّولَة المَرْيُنيَّة لِعُنفوانِها وشُمُوخِها، رَسْمًا جَلِيلًا لِقُنُوه من دَوْلَة ابن الأَحْمَر مُعاصِرهم بِالْأَنْدَلُس، وَاتَّبَعَ هُوَ في ذلك دُولَ الطَّوائِف، فَأَتَى مِنْهُ بِلَمْحَةٍ شَاهِدَةٍ بِالْأَثَرِ .

(1) ظ : الحياكة .

وأما دَوْلَةُ التَّركَ بِمِصرَ والشَّامَ لهذا العَهْدِ، ففيه من الطُّرُزِ بَحْرٌ زَاخِرٌ عَلَى
مِقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمُرَانِ بِلَادِهِمْ. إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُضَنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ، وَلَيْسَتْ
مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِمْ، وَإِنَّمَا يُنْسَجُ مَا تَطْلُبُهُ الدَّوْلَةُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ صُنَائِعِهِ، مِنَ الْحَرِيرِ
وَمِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ، وَيُسَمَّوْنَهُ الرَّزْكَشَ، لَفِظَةً أُعْجِمِيَّةً، وَيُرْسَمُ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْ
5 الأَمِيرِ عَلَيْهِ، وَيُعَدُّهُ الصَّنَاعُ لَهُمْ فِيمَا يُعَدُّوْنَهُ لِلدَّوْلَةِ مِنْ طُرْفِ الصَّنَاعَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا.
وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ.

و. الفَسَاطِيطُ وَالسِّيَاجُ

اعْلَمْ أَنَّ^(١) مِنْ شَارَاتِ [الْمَلِكِ]^(ب) وَتَرْفِهِ، اتِّخَاذُ الْأَخْيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ
وَالْفَازَاتِ، مِنْ ثِيَابِ الْكِتَانِ وَالصُّوفِ وَالْقُطْنِ بِجُدْلِ الْكِتَانِ وَالْقُطْنِ، يُنَاهَى^(ج) بِهَا
10 فِي الْأَسْفَارِ، وَتَتَوَعَّعُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ، عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ فِي الثَّرْوَةِ
وَالْيَسَارِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ فِي بُيُوتِهِمُ الَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِاتِّخَاذِهَا قَبْلَ
الْمَلِكِ.

وَكَانَ الْعَرَبُ لِعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ^(د) بَنِي أُمَيَّةٍ، إِنَّمَا يَسْكُنُونَ بُيُوتَهُمُ الَّتِي
كَانَتْ / لَهُمْ خِيَامًا مِنَ الْقَوَيرِ وَالصُّوفِ. وَلَمْ تَزَلْ الْعَرَبُ لذلِكَ الْعَهْدِ بَادِينَ إِلَّا الْأَقْلَّ
15 مِنْهُمْ؛ فَكَانَتْ أَسْفَارُهُمْ لِعَزَوَاتِهِمْ وَخُرُوبِهِمْ بِطُغُونِهِمْ وَسَائِرِ حِلَلِهِمْ وَأَخْيَانِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ
وَالْوَلَدِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ. فَكَانَتْ عَسَاكِرُهُمْ لذلِكَ كَثِيرَةُ الْجِلَلِ، بَعِيدَةٌ
مَا بَيْنَ الْمَنَارِلِ، مُتَفَرِّقَةُ الْأَخْيَاءِ، يَغِيبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ نَظَرِ صَاحِبِهِ مِنَ الْأُخْرَى،

(١) ي : انْ هذا (ب) سقط من ظ (ج) ل : فَيُنَاهَى (د) ي : فِي

كشأن العرب. ولذلك ما كان عبدُ الملكَ يحتاجُ إلى ساقيةٍ تَحْشُرُ^(١) النَّاسَ على أثره أن يُقيموا إذا ظَنُّوا. ونُقِلَ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ في ذلك الحِجَّاجَ حينَ أشارَ به رُوحُ ابن زُبَّاعٍ؛ وقَصَّتْهُ في إِخْرَاقِ فِساطِيطِ رُوحٍ وخيامِهِ لأوَّلِ ولايَتِهِ حينَ وَجَدَهُم مُقِيمِينَ في يَومِ رَحِيلِ عَبدِ المَلِكِ، قِصَّةٌ مَشْهُورَةٌ. ومن هَذهِ الولايةِ تُعَرَّفُ رُبَّةُ الحِجَّاجِ بَيْنَ العَرَبِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى إِرَادَتَهُمْ على الظَّنِّ إِلَّا من يَأْمَنُ بوَادِرِ السُّفْهَاءِ من 5 أَخْيَائِهِمْ، بما لَهُ من العَصِيَّةِ الحائِلَةِ دونَ ذَلِكَ، ولهذا اخْتَصَّه عبدُ الملكِ بِمَثَلِ هَذهِ الرُّبَّةِ، يَقَّةٌ بَعْنائِهِ فيها بَعْصِيَّتُهُ وَصَرَامَتُهُ .

فلما تَقَنَّنَتِ الدَّوْلَةُ العَرَبِيَّةُ في مَذاهِبِ الحَضَارَةِ والبَذَخِ، وَنَزَلُوا المَدَنَ والأَمْصَارَ، وَانْتَقَلُوا من سُكْنَى الخِيَامِ إلى سُكْنَى القُصورِ، ومن ظَهَرِ الحُفِّ إلى ظَهْرِ الحَافِرِ، اتَّخَذُوا لِلسُّكْنَى في أَسْفَارِهِم ثِيَابَ الكِتَانِ، يَسْتَعْبِلُونَ مِنْهَا بُيُوتًا مُخْتَلِفَةً 10 الأشْكالِ، مُقَدَّرَةً الأَمْثَالِ، من القُوراءِ والمُسْتَطِيلَةِ والمَرَبَّعةِ، وَيَحْتَفِلُونَ فيها بِأَبْلَغِ مَذاهِبِ الاختِفَالِ والزَّينةِ، وَيُدِيرُ الأَمِيرُ أو القَائِدُ للعَسَاكِرِ على فِساطِيطِهِ وَقَارَاتِهِ من بَيْنِهِم سِياجًا من الكِتَانِ، يُسَمَّى في المَغْرِبِ باللِّسانِ البَرَبَرِيِّ الَّذِي هُوَ لِسَانُ أَهْلِهِ: ءَآفَرَاك^(ب)، بالكافِ الَّتِي بَيْنَ الكافِ والقافِ؛ وَيَخْتَصُّ بِهِ السُّلْطَانُ بِذَلِكَ القُطْرِ لَا يَكُونُ لغيرِهِ .

15

وَأَمَّا في المَشْرِقِ، فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ / وَإِنْ كَانَ دونَ السُّلْطَانِ. ثُمَّ جَنَحَتْ الدَّعَةُ بالنِّسَاءِ والوِلْدَانِ إلى المَقَامِ بِقُصورِهِم وَمَنَازِلِهِم، فَحَفَّ لذلِكَ ظَهْرُهُم وَتَقَارَبَتِ السَّاحُ بَيْنَ مَنَازِلِ العَسْكَرِ، واجْتَمَعَ الجَيْشُ والسُّلْطَانُ في مُعَسْكَرٍ وَاحِدٍ، يَحْصُرُهُ

[182ب]

(١) من ط ج ، وفي ع ل ي : لَحْشُر (ب) رَسَمَتْ في الأَصُولِ بِنقطة تحت الكاف لتحديد النطق بها .

البَصْرُ فِي بَسِيطِهِ زَهْرًا أُنَيْقًا لاختلاف ألوانه. واستمرَّ الحالُ على ذلك في مذاهب
الدُّول في بذخها وترَفها.

وكذا كانت دُولُ المُوَحِّدين وِرْنَاتُهُ الَّتِي أَظْلَلْنَاهَا. كان سَفَرُهُمْ أَوَّلَ أَمْرِهِمْ فِي
بُيُوتِ سُكَّانِهِمْ قَبْلَ الْمَلِكِ، مِنْ الْحِيَامِ وَالْقِيَّاطِينَ. حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ
التَّرَفِ وَسُكْنَى الْقُصُورِ، عَادُوا إِلَى اتِّخَاذِ الْأَخْبِيَةِ وَالْفَسَاطِيطِ، وَبَلَّغُوا مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ 5
مَا أَرَادُوهُ، وَهُوَ مِنَ التَّرَفِ بِمَكَانٍ. إِلَّا أَنَّ الْعَسَاكِرَ بِهِ تُصِيرُ عُرْضَةً لِلْبَيْتَاتِ، لِاجْتِمَاعِهِمْ فِي
مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ فِيهِ الصَّنِيعَةُ، وَلِحِفَّتِهِمْ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ الَّذِينَ تَكُونُ الْإِسْتِمَاتَةُ
دُونَهُمْ، فَيُحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَحْفُظٍ آخَرَ كَمَا نَذَكِرُهُ. وَاللَّهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.

ز. المقصورة للصلاة، والدعاء في المخطبة

وهما من الأمور الخلافية، ومن شارات الملك الإسلامي، ولم تُعرَف في 10
غير دُولِ الإسلام.

فَأَمَّا الْبَيْتُ الْمَقْصُورَةُ لَصَلَاةِ السُّلْطَانِ، تَتَّخِذُ سِيَّاحًا عَلَى الْمِخْرَابِ فَتَحْوِزُهُ
وَمَا يَلِيهِ، فَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ طَعَنَهُ الْخَارِجِيُّ، وَالْقِصَّةُ
مَعْرُوفَةٌ. وَقِيلَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ حِينَ طَعَنَهُ الْيَمَانِيُّ؛ ثُمَّ اتَّخَذَهَا 15
الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصَارَتْ سُنَّةً فِي تَمَيُّزِ السُّلْطَانِ عَنِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ. وَهِيَ
إِنَّمَا تَخْدُثُ⁽¹⁾ عِنْدَ حُصُولِ التَّرَفِ فِي الدُّوَلِ وَالِاسْتِفْحَالِ، شَأْنُ أَخْوَالِ الْأُيُوهِ كُلِّهَا،
وَمَا زَالَ الشَّأْنُ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا؛ وَعِنْدَ افْتِرَاقِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَعَدُّدِ

(1) ع: اتَّخَذَتْ.

الدول بالمشرق، وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية، وتعدّد ملوك الطوائف.

[183] وأما المغرب فكان / بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان، ثم الخلفاء العبيديون، ثم ولايتهم

على المغرب من صنهاجة : بنو باديس بالقيروان، وبنو حماد بالقلعة .

ثم ملك الموحّدون سائر المغرب والأندلس؛ ومحووا ذلك الرسم على

طريقة البداوة التي كانت شعارهم. ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظّها من 5

الترف، وجاء يعقوب المنصور ثالث ملوكهم، فاتخذ هذه المقصورة، وبقيت من بعده

سنة لملوك المغرب والأندلس. وهكذا الشأن في سائر الدول، سنة الله في عباده.

وأما الدعاء على المنابر في الخطبة، فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية

الصلاة بأنفسهم. فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي ﷺ والرضا عن أصحابه.

10 * وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص، لما بتى جامعته بمصر؛ وكتب إليه عمر: أما

بعد، فقد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أما يكفيك أن

تقوم قائماً والمسلمون تحت عقيقتك؟! فعزمت عليك لما كسرتة* (أ). فلما حدثت

الأبهة، وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة، واستنابوا فيها؛ فكان الخطيب

يُشيدُ بذكر الخليفة على المنبر، تنويهاً باسمه، ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم

15 فيه، ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة، ولما ثبتت عن السلف في قولهم: من كانت له

دعوة صالحة فليضعها في السلطان. * وأول من دعا للخليفة في الخطبة ابن عباس،

دعا لعلي رضي الله عنه في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها، فقال: اللهم انصر

علياً الحق. واتصل العمل على ذلك فيما بعد* (ب)، وكان الخليفة يُفرد بذلك .

(أ) ما بين النجمين حاشية كتبها المؤلف بخطه في جانب النص ع ، ونقلتها بقية الأصول عدا "ي" (ب) ما بين النجمين حاشية

من نسخة ع بخط المؤلف ، ونقلتها الأصول في هذا الموقع ، عدا "ي" التي أوردتها بعد جملة "الرضا عن أصحابه" المتقدمة.

فلما جاء الحُجْر والاسْتِبدادُ، صار المُتَغَلِّبون على الدَّوْل كثيرًا ما يُشاركون
الْخليفة في ذلك، ويُشادُ بِأَسْمِهِمْ عَقِبَ اسْمِهِ، وَذهبَ ذلك بِذهابِ تِلْكَ الدَّوْل،
وصارَ الأَمْرُ إلى / اختِصاصِ السُّلطان بالدَّعاء لَهُ على المُنْبَرِ دونَ مَنْ سِوَاهُ، وَحُظِرَ [183ب]
أَنْ يُشارَكَهُ فِيهِ أَحَدٌ وَيَسْمُو إِلَيْهِ .

5 وكثيراً ما يُغْفَلُ المَاهِدُونَ مِنْ أَهْلِ الدَّوْل هذا الرُّسْمُ ، عندما تكونُ الدَّوْلَةُ
في أَسْلُوبِ الغَضاضَةِ وَمَنَاحِي البَدَاوَةِ فِي التَّغافلِ وَالْحُشُونَةِ ، وَيَقْنَعُونَ بالدَّعاءِ على
الإِهْمالِ والإِجْمالِ لِمَنْ وَلِيَ أُمُورَ المُسْلِمِينَ . وَيُسَمُّونَ مِثْلَ هذهِ الخطبةِ إِذَا كَانَتْ على
هذا المَنْحَى عَبَّاسِيَّةً ، يَغْنُون بِذلك أَنَّ الدَّعاءَ على الإِجْمالِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ العَبَّاسِيَّ
تَقْلِيدًا فِي ذلكِ لِمَا سَلَفَ مِنَ الأَمْرِ ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِمَا وَرَاءَ ذلكِ مِنْ تَعْيِينِهِ وَالتَّصْرِيحِ
10 بِاسْمِهِ .

يُحْكِي أَنَّ يَغْمَرَأْسِينَ بْنَ زَيَّانَ، مَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ الوَادِ، لَمَّا غَلَبَهُ الأَمِيرُ
أَبُو زَكَرِيَاءَ يَحْيَى بْنَ أَبِي حَفْصٍ عَلَى تِلْغَمَسَانَ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فِي إِعَادَةِ الأَمْرِ إِلَيْهِ عَلَى
شُرُوطِ شَرْطِهَا، كَانَ فِيهَا ذِكْرُ اسْمِهِ عَلَى مَنَابِرِ عَمَلِهِ، فَقَالَ يَغْمَرَأْسِينُ : تِلْكَ أَغْوَادُهُمْ
يَذْكُرُونَ عَلَيْهَا مَنْ شَاؤُوا. وَكَذلكِ يَغْفُوبُ بْنُ عَبْدِ الحَقِّ مَاهِدَ دَوْلَةِ بَنِي مَرْينَ،
15 حَضَرَهُ رَسولُ المُسْتَنْصِرِ الخليفةِ بَتُونِسَ مِنْ بَنِي أَبِي حَفْصٍ، وَثَالِثُ مُلُوكِهِمْ، وَتَخَلَّفَ
بَعْضُ أَيَّامِهِ عَنْ شُهُودِ الجُمُعَةِ، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَحْضُرْ هَذَا الرَّسولُ لِحُلُوقِ الخُطْبَةِ مِنْ ذِكْرِ
سُلْطَانِهِ؛ فَأَذِنَ فِي الدَّعاءِ لَهُ، وَكَانَ ذلكِ سَبَبًا لِأَخْذِهِمْ بِدَعْوَتِهِ. وَهَكَذَا شَأْنُ الدَّوْلِ
فِي بَدَائِئِهَا وَتَمَكُّنِهَا فِي الغَضاضَةِ وَالبَدَاوَةِ . فَإِذَا انْتَبَهَتْ عَيُونُ سِيَاسَتِهِمْ، وَنَظَرُوا فِي
أَعْطَافِ مُلُوكِهِمْ، وَاسْتَنْتَمُوا شِيَتَاتِ الحَضَارَةِ وَمَعَانِي البَذْخِ وَالْأَهْمَةِ، انْتَحَلُوا جَمِيعَ هذهِ

السَّمَاتِ وَتَقْنَتُوا فِيهَا، [وَتَجَاوَزُوا] ^(أ) إِلَى غَايَتِهَا، وَأَنْفُوا مِنَ الْمُشَارَكَةِ فِيهَا، وَجَزَعُوا مِنْ
اِفْتِقَادِهَا وَخُلُوِّ دَوْلِهِمْ ^(ب) مِنْ آثَارِهَا؛ وَالْعَالَمُ بُسْتَانٌ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ .

37 • فَضْلٌ ، فِي الْحُرُوبِ وَمَذَاهِبِ الْأُمَمِ ^(ج) فِي تَرْتِيبِهَا

اعْلَمْ أَنَّ الْحُرُوبَ وَأَنْوَاعَ الْمُقَاتَلَةِ لَمْ تَزَلْ وَاقِعَةً فِي الْخَلِيقَةِ مُنْذُ بَرَأَهَا اللَّهُ .
[184] / وَأَضْلَمَهَا إِرَادَةُ الْإِنْتِقَامِ ^(د) بَعْضُ الْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ ، وَيَتَعَصَّبُ لِكُلِّ مِنْهَا أَهْلٌ عَصِيَّتُهُ . 5
فَإِذَا تَدَامَرُوا لِلذَّكَاءِ وَتَوَاقَفَتِ الطَّائِفَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا تَطْلُبُ الْإِنْتِقَامَ ، وَالْأُخْرَى تُدَافِعُ ،
كَانَتِ الْحَرْبُ . وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ ، لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ .

وَسَبَبُ هَذَا الْإِنْتِقَامِ فِي الْأَكْثَرِ ، إِمَّا غِيْرَةٌ وَمُنَافَسَةٌ؛ وَإِمَّا عُذْوَانٌ؛ وَإِمَّا
غَضَبٌ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ؛ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلْمُلْكِ وَسَعْيٌ فِي تَمْهِيدِهِ . فَالْأَوَّلُ ، أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ
الْقَبَائِلِ الْمُتَجَاوِزَةِ وَالْعَشَائِرِ الْمُتَنَاطِرَةِ؛ وَالثَّانِي ، وَهُوَ الْعُدْوَانُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأُمَمِ 10
الْوَحْشِيَّةِ السَّاكِنِينَ بِالْقَفْرِ ، كَالْعَرَبِ وَالتُّرْكَ وَالتُّرْكَمَانَ وَالْأَكْرَادَ وَأَشْبَاهِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا
أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاجِهِمْ ، وَمَعَاشَهُمْ فِيمَا بَأْيَدِي غَيْرِهِمْ ، وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ آذَنُوهُ
بِالْحَرْبِ ، وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ رُبَّةٍ وَلَا مُلْكِ ، وَإِنَّمَا هُمُومُهُمْ وَنُصْبُ أَغْنِيَتِهِمْ
غَلَبُ النَّاسِ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ؛ وَالثَّلَاثُ ، هُوَ الْمُسْتَمَى فِي الشَّرِيعَةِ بِالْجِهَادِ؛ وَالتَّرَايُعُ
15 هِيَ حُرُوبُ الدَّوَلِ مَعَ الْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَالْمَانِعِينَ لَطَاعَتِهَا .

(أ) مِنْ ع ل ج ي ، وَفِي ظ: وَتَجَاوَزُوا (ب) ل : دَوْلَتِهِمْ (ج) ل : النَّاسِ (د) كُنَّا فِي ع ي ل ظ ، وَفِي ج: إِرَادَةُ الْإِنْتِقَامِ مِنْ بَعْضٍ .

فهذه أربعة أصناف من الحروب؛ الصنفان الأولان منها، حروب بُغْي وفِتْنَةٍ؛ والصنفان الآخران، حروب جهادٍ وعدل .

وصفُّ الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم، على نوعين، نوع بالزحف صفوفاً؛ ونوع بالكر والفر. فأما الذي بالزحف، فهو قتال العجم كلهم 5 على تعاقب أجيالهم . وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب .

وقِتال الزحف أوثق وأشدُّ من قتال الكر والفر. وذلك أن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القِداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدماً. فذلك أثبت عند المصاع، وأصدق في القتال، وأزهد للعدو ؛ لأنه كالحائط الممتد / والقصر المشيد ، لا يُطمع في إزالته. وفي التَّنزيل : [184ب]

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف، الآية 4]. أي يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَات. وفي الحديث⁽¹⁾: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا". ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التَّوَلَّى في الزحف؛ فإنَّ المقصود بالصَّف في القتال حفظُ النِّظام كما قلناه ، فمن وَلَّى العدو 15 ظَهْرَهُ فقد أَحْلَّ بالمصاف، وباءَ بإثم الهزيمة، كأنه جرَّها على المسلمين وأمكنَ منهم عدوُّهم؛ فعَظُم الذَّنْبُ لعموم المفسدة، وتعدَّيها إلى الدين بخزق سياجه؛ فعُدَّ من الكبائر. ويظهر من هذه الأدلَّة أن قتال الزحف أثر عند الشارع .

(1) هو في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري. البخاري في الصلاة 1: 129 (481) ، وفي المظالم 3: 169 (2446)، وفي الأدب 8: 14 (6026)، ومسلم في الأدب (2585) .

وأما قتال الكرّ والقرّ، فليس فيه من الشدّة والأمن من الهزيمة ما في قتال الرّحف. إلاّ أنّهم قد يتّخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكرّ والقرّ، ويقوم لهم مقام قتال الرّحف، كما نذكره بعد .

ثم إنّ الدّول القديمة ، الكثيرة الجنود ، المتسعة الممالك ، كانوا يُقسّمون الجيوش والعساكر أقساماً ، لأنّه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة ، وحشروا من قاصية النّواحي ، استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب، واعتوروا مع عدوّهم الطّغى والضّرب، فيخشى من توافعهم فيما بينهم لأجل التّكرار والجهل بعضهم ببعض. فلذلك كانوا يُقسّمون العساكر جموعاً جموعاً، ويضمّون المتعارفين بعضهم إلى بعض، ويرتبونها قريباً من التّرتيب الطّبيعيّ في الجهات الأربع، ورئيس العساكر كلّها من سلطان أو قائد في القلب؛ ويسمّون هذا التّرتيب التّعبئة، وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدّولتين صدر الإسلام . فيجعلون بين يدي الملك عسكراً منفرداً بصفوفه، متميّزاً بقائده ورايته، يُسمّونه المقدّمة ؛ ثمّ / عسكراً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك يُسمّونه الميّمنة؛ ثمّ عسكراً آخر من ناحية الشّمال يُسمّونه الميسرة ؛ ثمّ آخر من وراء العساكر يُسمّونه السّاقة؛ ويقيم الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الأربع ، ويسمّون موقفه القلب. فإذا تمّ لهم هذا التّرتيب المُخكم ، إمّا في مدى واحد للبصر، أو على مسافة بعيدة ، أكثرها اليوم واليومان بين كلّ عسكرين منها، أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلّة والكثرة، فينشدّ يكون الرّحف من بعد هذه التّعبئة.

وانظر ذلك في أخبار الفتوحات وأخبار الدّولتين، وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلّف عن رحيله لبعد المدى في التّعبئة، فاخترج إلى من يسوقها

من خَلْفِهِ، وَعَيْنَ لَدُنْكَ الْحِجَابُ بْنُ يَوْسُفَ كَمَا أَشْرَنَّا إِلَيْهِ، وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي
أَخْبَارِهِ. وَكَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْهُ، وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا، لِأَنَّا
إِنَّمَا أَذْرَكْنَا دَوْلًا قَلِيلَةً الْعَسَاكِرَ لَا تَنْتَهِي فِي مَجَالِ الْحَزْبِ إِلَى التَّنَاكُرِ، بَلْ أَكْثَرُ
الْجُيُوشِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ مَعًا تَجْمَعُهُمْ لَدَيْنَا جِلَّةٌ أَوْ مَدِينَةٌ، وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِزْنَهِ،
5 وَيُنَادِيهِ فِي حَوْمَةِ الْحَزْبِ بِاسْمِهِ وَلَقَبِهِ، فَاسْتُغْنِيَ عَنْ تِلْكَ التَّعْبِئَةِ .

1. فَضْلٌ:

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ الْكُرِّ وَالْقَرِّ فِي الْحُرُوبِ، ضَرْبُ الْمَصَافِّ وَرَاءَ
عَسَاكِرِهِمْ مِنَ الْجِمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ، فَيَتَّخِذُونَهَا مَلْجَأً لِلْخِيَالَةِ فِي كَرِّهِمْ
وَقَرِّهِمْ، يَطْلُبُونَ بِهِ ثَبَاتَ الْمُقَابَلَةِ⁽¹⁾ لِيَكُونَ أَذْوَمَ لِلْحَزْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْقَلْبِ. وَقَدْ
10 يَفْعَلُهُ أَهْلُ الزُّخْفِ أَيْضًا لِيَزِيدَهُمْ ثَبَاتًا وَشِدَّةً .

فَقَدْ كَانَ الْفُزْسُ، وَهُمْ أَهْلُ الزُّخْفِ، يَتَّخِذُونَ الْفَيْلَةَ فِي الْحُرُوبِ،
وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أَبْرَاجًا مِنَ الْحَشَبِ أَمْثَالَ الصُّرُوحِ، مَشْحُونَةً بِالْمُقَاتِلَةِ وَالسَّلَاحِ
وَالزَّيَّاتِ، وَيَصُفُّونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَزْبِ كَأَنَّهَا حُصُونٌ، فَتَقْوَى بِذَلِكَ نَفْسُهُمْ
وَيَزْدَادُ وَثُوقُهُمْ. وَانْظُرْ / مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَادِسيَّةِ، وَأَنَّ فَارِسَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ [185ب]
15 اشْتَدَّوْا بِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى اشْتَدَّتْ رِجَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ فَخَالَطُوهَا وَنَفَّحُوهَا
بِالسُّيُوفِ عَلَى خَرَاطِيمِهَا^(ب)، فَتَقَرَّتْ وَنَكَصَتْ عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى مَرَابِطِهَا بِالْمَدَائِنِ،
فَخَفَّ مُعَسْكَرُ فَارِسَ لَدُنْكَ، وَانْهَزَمُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ .

(1) كَذَا فِي ظ ، وَفِي ل ع : الْمَقَاتِلَةُ ، وَكَبِتَ مَعْمَلَةٌ فِي ي ج (ب) ل : خَرَاطِيمُهَا وَهُوَ الْأَصَحُّ .

وأما الرُّوم ومُلوك القُوط بالأندلس ، بَلْ وَأَكْثَرُ الْعَجَم ، فَكَانُوا يَتَّخِذُونَ
لِذَلِكَ الْأَسِيرَةَ ، يَنْصَبُونَ لِلْمَلِكِ سَرِيرَهُ فِي حُومَةِ الْحَرْبِ ، وَيَحْفَ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ
وَحَاشِيَتَيْهِ وَجُنُودِهِ مِنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالْاِسْتِمَاتَةِ دُونَهُ ، وَتُرْفَعُ الرَّايَاتُ فِي أَزْكَانِ السَّرِيرِ ،
وَيُخَدِّقُ بِهِ سِيَاحُ آخَرٍ مِنَ الرُّمَةِ وَالرَّجَالَةِ ، فَيَغْظُمُ هَيْكَلُ السَّرِيرِ ، وَيَصِيرُ فِئَةً
لِلْمُقَاتِلَةِ ، وَمَلْجَأٌ لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ . وَقَعَلَ ذَلِكَ الْقُرْشُ أَيَّامَ الْقَادِسِيَّةِ ، وَكَانَ رُسْتُمُ جَالِساً 5
فِيهَا عَلَى سَرِيرٍ نَصَبَهُ لِحُلُوسِهِ ، حَتَّى اخْتَلَتْ صَفُوفُ فَارَسَ وَخَالَطَهُ الْعَرَبُ فِي
سَرِيرِهِ ذَلِكَ ، فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى الْفَرَاتِ ، وَقُتِلَ .

وأما أهلُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَكْثَرُ الْأُمَمِ الْبَدَوِيَّةِ الرَّحَّالَةِ ، فَيُصَفُّونَ
لِذَلِكَ إِبِلَهُمُ وَالظُّهْرَ الَّذِي يَحْمِلُ ظِلْعَاتِيهِمْ ، فَيَكُونُ فِئَةً لَهُمْ ، وَيُسَمُّونَهُ الْمَجْبُودَةَ .
وَلَيْسَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَهِيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي حُرُوبِهَا ، وَتَرَاهُ أَوْثَقَ [مِنْ] ^(١)
الْجَوْلَةِ ، وَآمَنَ مِنَ الْغِرَّةِ وَالْهَزِيمَةِ . وَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ .

وَقَدْ أَغْفَلَتُهُ التَّوَلُّ لِعَهْدِنَا بِالْجُمْلَةِ ، وَاعْتَاضُوا عَنْهُ بِالظُّهْرِ الْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ
وَالْفَسَاطِيطِ ، يَجْعَلُونَهَا سَاقَةً مِنْ خَلْفِهِمْ ؛ وَلَا تُغْنِي عَنْهَا الْفَيْتِلَةُ وَالْإِبِلُ ، فَصَارَتْ
الْعَسَاكِرُ بِذَلِكَ غَرَضَةً لِلْهَزَائِمِ ، مُسْتَشْعِرَةً لِلْفِرَارِ فِي الْمَوَاقِفِ .

وَكَانَ الْحَرْبُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ كُلِّهِ رَخْفًا . وَإِنْ كَانَ الْعَرَبُ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ الْكَرَّ 15
وَالْفَرَّ ؛ لَكِنْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ أَمْرَانِ : أَحَدُهُمَا ، أَنَّ عَدُوَّهُمْ كَانُوا يَقَاتِلُونَ
رَخْفًا ، فَيُضْطَرُّونَ إِلَى مُقَابَلَتِهِمْ بِمِثْلِ قِتَالِهِمْ ؛ الثَّانِي ، / أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَمِيتِينَ فِي جِهَادِهِمْ [186]
لِمَا رَغَبُوا فِيهِ مِنَ الصَّبْرِ ، وَلَمَّا رَسَخَ فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ ؛ وَالتَّخَفُّفُ إِلَى الْاِسْتِمَاتَةِ أَقْرَبُ .

(١) ظ : فِي .

وأول من أبطل الصف في الحزب وصار إلى التعبئة كرايس، مزوان بن الحكم، في قتال الضحاك الخارجي والخبيري بعده . قال الطبري⁽¹⁾ لما ذكر قتل الخبيري : فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري، ويلقب أبا الذلقاء؛ وقتلهم مزوان بعد ذلك بالكرايس ، وأبطل الصف من يومئذ . انتهى . فتوسى 5 قتال الزحف بإبطال الصف ، ثم توسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف، وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الحيام، كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء؛ فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحوضر، وتركوا شأن البادية والقفار، نسوا لذلك عهد الإبل والطعائن، وضعب عليهم اتخاذها، فحلفوا النساء في الأسفار، وحملهم الملك والترف 10 على اتخاذ الفساطيط والأخبية، فاقترضوا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية، وكان ذلك صفهم في الحزب، ولا يغني كل الغناء، لأنه لا يدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال؛ فيخف الصبر من أجل ذلك، وتفرقهم الهيئات وتخرم صفوفهم .

2. فصل :

ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العسكر، وتأكيده في قتال الكر 15 والفر، صار ملوك المغرب يستخدمون طوائف من الفرنج في جندهم، واختصوا بذلك، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر. والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردة للمقاتلة أمامه، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم

(1) تاريخ الرسل والملوك 7 : 347 .

مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي الرَّخْفِ ، وَإِلَّا أَجْفَلُوا عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ ، فَانْهَزِمَ
 [186ب] / السُّلْطَانُ وَالْعَسْكَرُ بِأَنْجْفَالِهِمْ؛ فَاجْتَاحَ الْمُلُوكُ بِالْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا^(أ) مِنْ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ الْمُعَوَّدَةِ الثَّبَاتِ فِي الرَّخْفِ، وَهُمْ الْإِفْرَنْجُ، وَيُرْتَبُونَ مَصَافَّهُمْ الْمُخَدَّقَ بِهِمْ مِنْهَا؛
 هَذَا عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِسْتِيعَانَةِ بِأَهْلِ الْكُفْرِ؛ وَإِنَّا اسْتَحَقَّقْنَا^(ب) ذَلِكَ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي
 أَرَيْنَاكَهَا مِنْ تَخَوُّفِ الْأَنْجِفَالِ عَلَى مَصَافِّ السُّلْطَانِ. وَالْفِرَنْجُ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الثَّبَاتِ 5
 فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ عَادَتَهُمْ فِي الْقِتَالِ الرَّخْفُ، فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ. مَعَ أَنَّ الْمُلُوكَ
 فِي الْمَغْرِبِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَزْبِ^(ج) مَعَ أُمَمِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ وَقِتَالِهِمْ عَلَى
 الطَّاعَةِ؛ وَأَمَّا فِي الْجِهَادِ، فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ، حَذَرًا^(د) مِنْ مُهَالَمَتِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.
 هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ؛ وَقَدْ أَبَدَيْنَا سَبَبَهُ. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
 [سورة البقرة ، من الآية 282] .

10

3. فَضْلٌ^(هـ) :

وَيَبْلُغُنَا عَنْ أُمَمِ التُّرْكِ لِهَذَا الْعَهْدِ قِتَالَهُمْ مُنَاضِلَةً بِالسَّهَامِ، وَ^(و) أَنَّ تَغِيْثَةَ
 الْحَزْبِ عِنْدَهُمْ بِالْمَصَافِّ، وَأَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ عَسْكَرَهُمْ ثَلَاثَةَ صُفُوفٍ ، يَضْرِبُونَ صَفًّا وَرَاءَ
 صَفٍّ، وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خِيُولِهِمْ ، وَيُفْرَغُونَ^(ز) سِهَامِهِمْ^(ز) بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَتَنَاضِلُونَ

(أ) سقط من ل (ب) ل : استخفوا (ج) من هنا إلى ثلثي "فصل في اقسام التوبة الواحدة بذولتين" سقط من أضل
 نسخة ع، ومقداره نحو كراسة واستكمل بخط دقيق نسخي متأخر، ونشير إلى نهاية هذا التوقيع في مكانه من الفصل المذكور .
 وهذا الجزء المستكمل كثير الخطأ والتحريف لذلك توقفنا عن اعتماده في المقابلة ، للجهل بالمصدر الذي نقل عنه . وبآخر الورقة التي
 يبدأ بعدها الشق المستكمل فيها بعد، كتب مالك النسخة "من ها هنا قصت كراسة، فترجو من الله أن يعيدها بعينها" ويسى
 أفندي مرحومك خط (د) في ي ل : خفية (هـ) سقط نص هذا الفصل من ي (و) سقط حرف العطف من ل (ز) كذا
 في ل ظ، وفي ج: ويتكون كتابهم .

جُلوساً، وكلُّ صَفٍّ رِذْءٌ لِلَّذِي أَمَامَهُ أَنْ يَكْبِسَهُمُ الْعَدُوُّ، إِلَى أَنْ يَهَيَّأَ التَّصَرُّ لِحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى ؛ وَهِيَ تَعْبِئَةٌ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ .

4. فَضْلٌ :

- وكان من مذاهب الأول في حروبهم، حفر الخنادق على معسكرهم عندما
5 يتقاربون للزحف ، حذراً من معرة البيات والهجوم على المعسكر بالليل ، لما في
ظلمته ووخشته من مضاعفة الخوف، فتلوذ الجيوش بالفرار، وتجد النفوس في
الظلمة سترًا من عاره، فإذا تساؤوا في ذلك أزعج المعسكر ووقعت الهزيمة.
فكانوا لذلك يخفون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضرَبوا أبنيتهم، ويُديرون
/ الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم ، حِصْناً أَنْ يُخَالِطَهُمُ الْعَدُوُّ بِالْبَيَاتِ فَيَتَخَذَلُوا. [187]
10 وكانت للدول في أمثال هذا قوَّةٌ وعليه اقتدارٌ، باختِشاد الرِّجْلِ وَجَمْعُ الْأَيْدِي عَلَيْهِ
في كلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ، بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وَفُورِ الْعُمْرَانِ وَضَخَامَةِ الْمُلْكِ . فَلَمَّا
خَرِبَ الْعُمْرَانُ وَتَبَعَهُ ضَعْفُ الدَّوْلِ وَقَلَّةُ الْجُنُودِ وَعَدَمُ الْفَعْلَةِ، نُسِيَ هَذَا الشَّأْنُ جُمْلَةً
كَأَنَّهُ ⁽¹⁾ لَمْ يَكُنْ. وَاللَّهُ خَيْرُ الْقَادِرِينَ .

- وانظر في وصية عليّ، رضي الله عنه، وتحريضه لأصحابه يَوْمَ صِفِّينَ، تجذ
15 كثيراً من علم الحزب، ولم يكن أحدٌ أبصرَ بها منه.

قال في كلام له: فسوّوا صفوفكم كالبنيان المزصوص، وقَدِّمُوا الدَّارِعَ
وأخروا الحاسِرَ، وعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ؛ فَإِنَّهُ أَثْبَأُ لِلسَّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَالتَّأَوُّا فِي

(1) ل ي : كان

أَطْرَافَ الرِّمَاحِ؛ فَإِنَّهُ أَضْوَنُ لِلْأَسِنَّةِ. وَغَضُّوا الْأَبْصَارَ؛ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ. وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْقَشَلِ وَأَوَّلَى بِالْوَقَا. وَرَايَاتُكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُزِيلُوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ. وَاسْتَعِينُوا بِالصَّدَقِ وَالصَّبْرِ؛ فَإِنَّهُ بِقَدْرِ الصَّبْرِ يَنْزِلُ النَّصْرُ.

5 وقال الأشتر يَوْمَئِذٍ يُحَرِّضُ الْأَزْدَ : عَضُّوا عَلَى التَّوَاخُذِ مِنَ الْأَضْرَاسِ ،
وَاسْتَقْبِلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ، وَشُدُّوا شِدَّةَ قَوْمِ مَوْتُورِينَ، يَثَارُونَ بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا
عَلَى عَدُوِّهِمْ؛ وَ⁽¹⁾ قَدْ وَطَّنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ كَيْلًا يُسَبِّقُوا بِوِثْرِ، وَلَا يَلْحَقَهُمْ فِي
الدُّنْيَا عَارٌ .

وقد أشار إلى كثيرٍ من ذلك أبو بكر الصِّيرَفِيُّ⁽¹⁾، شاعرٌ لَمْتُونَةٌ وأهلُ
10 الأَنْدَلُسِ ، في كلمةٍ يَمْدَحُ فيها تَاشِفِينَ بنَ عَلِيٍّ بنَ يَوْسُفَ ، وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَزْبِ
شَهِدِهَا، وَيُذَكِّرُهُ بِأُمُورِ الْحَزْبِ فِي وَصَايَا وَتَحْذِيرَاتٍ تُنَبِّهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ
سِيَّاسَةِ الْحَزْبِ، يَقُولُ فِيهَا: [من الكامل]

[187ب] / يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَّقَنُ
مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْهَامُ الْأَزُوعُ
وَمَنْ الَّذِي غَدَرَ الْعَدُوَّ بِهِ دُجَى
فَانْفَضَّ كُلُّ وَهُوَ لَا يَتَضَعُّعُ^(ب)
15 تَقْضِي الْفَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا عَنْهُ، وَيُذْمِرُهَا^(ج) الْوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ^(د) صُبْحٌ عَلَى هَامِ الْجِيُوشِ^(هـ) مُلَمَّعٌ

(أ) سقط حرف العطف من ل (ب) الإحاطة: يترعرع (ج) الإحاطة: يزجرها (د) الإحاطة: والطَّنَا (هـ) الإحاطة: .. على هَامِ الْكَلَامَةِ مَمْتَعٌ .

(1) يحيى بن محمد الأنصاري ، شاعر مؤرِّخ، غرناطي . ترجمته والتقصيدة بكاملها في الإحاطة للسان الدين ابن الخطيب 4 : 407 - 415 .

أَنَّى فَرَعْتُمْ^(١) يَا بَنِي صِنْهَاجَةٍ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّهُ
إِنْسَانٌ عَيْنٍ لَمْ يَصْنُهُ^(د) مِنْكُمْ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةٍ^(هـ)
يَا تَاشِفِينَ أَقِمْ لَجِيْشِكَ عُذْرَهُ
وَاللَّيْلُ^(ح) وَالْقَدَرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ
وَالْيَوْمُ فِي الرُّوْعِ كَانَ الْمَقْرَعُ
لِعِقَابِهِ لَوْ شَاءَ [فِيكُمْ]^(ب) مَوْضِعُ^(ج)
جَفْنٍ ، وَقَلْبٌ أَسْلَمَتْهُ الْأَضْلَعُ
كُلُّ بَكْلٍ^(د) كَرِهَتْهُ مُسْتَطْلِعُ^(ز)
بِاللَّيْلِ^(ح) وَالْقَدَرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ

5

ومنها في سياسة الحزب :

أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ^(ط)
لَا أَنَّنِي أَذْرِي [بِهَا]^(ي) ، لَكِنَّهَا
الْبَسُ مِنَ الْحَلْقِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي
وَالْهَيْدُوَانِي الرَّقِيقَ فَإِنَّهُ
وَارَكَبَ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عِدَّةً
خَنْدِيقَ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً
وَالْوَادَ لَا تَغْبِرُهُ وَانْزِلْ عِنْدَهُ
وَاجْعَلْ مُنَاجَزَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً
كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ قَبْلَكَ تُوَلِّعُ
ذَكَرَى تَحْضُ^(ك) الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَصَّى بِهَا صَنَعَ الصَّنَائِعِ^(ل) تَبْعُ^(١)
أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدَّلَاصِ وَأَقْطَعُ
حِصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مَدْفَعُ^(٢)
سَيِّانٍ تَتَّبِعُ ظَافِرًا أَوْ تَتَّبِعُ
بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَشْطَعُ^(ن)
وَوَرَاءَكَ الصَّدْفُ الَّذِي هُوَ أَمْنَعُ

10

(١) الإحاطة: قرعتم (ب) ظ: منكم (ج) سقط البيت من الإحاطة (د) الإحاطة: يصنعه (هـ) الإحاطة: حفيّة (و) الإحاطة: لكل (ز) ج ي: مستطلع (ح) الإحاطة: فالليل (ط) الإحاطة: أهديك من أدب الوعى حكماً بها (ي) سقط من ظ (ك) ل ي: تحض (ل) الإحاطة: السوابق (م) سقط البيت من الإحاطة (ن) سقط البيت من الإحاطة. وفي ل: مقطع .

(1) ينظر إلى قول أبي ذؤيب الهذلي (الديوان 172، المجالس والمسائرات 160، المعاني الكبير 1039):

وعليها مسرودتان قضاها داود أو صنع السوابق تبّع

وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجِيُوشُ ^(أ) بِمَعْرِكٍ ضَنْكِ ، فَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ تُوسِّعُ
وَاصْطَدْمُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ ^(ب) لَا تَكْثُرُ ^(ج) شَيْئًا فإِظْهَارُ التَّكْوَلِ ^(د) يَضْغُضُ
وَاجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ الصَّدُوقُ فِيهِمْ شِسْمَةٌ لَا تَخْدَعُ ^(هـ)
لَا تَسْمَعِ الْكَذَّابَ جَاءَكَ مُزْجِفًا ^(و) لَا رَأْيَ لِلْمَكْذُوبِ ^(ز) فِيمَا يَصْنَعُ

[i188]

5 / وقوله: واصْطَدْمُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْثُرُ، البَيِّنَةُ، مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ
فِي أَمْرِ الْحَزْبِ؛ فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ التَّقْفِي لَمَّا وَلَّاهُ حَزْبَ فَارِسَ
وَالْعِرَاقِ، فَقَالَ لَهُ ⁽¹⁾: اسْمَعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَا تُجِيبَنَّ
مُسْرَعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ، فَإِنَّهَا الْحَزْبُ، وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ الَّذِي يَعْرِفُ
الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ. وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى: إِنَّهُ لَمْ يَتَمَنَّيْ أَنْ أُوَمِّرَ سَلِيطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي
10 الْحَزْبِ. وَفِي التَّسْرُّعِ فِي الْحَزْبِ - إِلَّا عَنْ بَيَانٍ - ضَيَاعٌ، وَاللَّهُ لَوْ لَا ذَلِكَ لَأَمَرْتُهُ. لَكِنِ
الْحَزْبُ لَا يُضْلِحُهَا إِلَّا الْمَكِيثُ. هَذَا كَلَامُ عُمَرَ؛ وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ التَّنَاقُلَ فِي الْحَزْبِ
أَوَّلَى مِنَ الْخُفُوفِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَزْبِ. وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَ الصَّيْرَفِيُّ؛ إِلَّا
أَنْ يُرِيدَ أَنَّ الصَّدَمَ بَعْدَ الْبَيَانِ، فَلَهُ وَجْهٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

5. فَضْلٌ :

15 وَلَا وَثُوقَ فِي الْحَزْبِ بِالظَّفَرِ، وَإِنْ حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعُدَّةِ وَالْعَدِيدِ؛
وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالْغَلَبُ مِنْ قَبِيلِ الْبَحْثِ وَالِاتِّفَاقِ ؛ وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ أَسْبَابَ

(أ) الإحاطة: وإذا تكاثفت الرجال (ب) ل: مرة (ج) الإحاطة: لا تردغ (د) الإحاطة: بعد التقدم فالتكول (هـ) سقط البيت من الإحاطة (و) الإحاطة: وتوق من كذب الطلائع (ز) كذا في الأصل، وفي المتن: ليس لمكذوب رأي (اللسان).

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 3 : 445 .

الغلب في الأكثر مُجتمعة من أمور ظاهرة، وهي: الجيوش ووُفورها، وكمال الأسلحة واستِجاداتِها، وكثرة الشجعان، وترتبُ المصاف، وصدق القتال، وما جرى مَجرى ذلك ومن أمور خفية، وهي: إمّا من حيل البشر وخدعهم في الإزجاف والتشايخ التي⁽¹⁾ يقع بها التخذيل، وفي التقدّم إلى الأماكن المُرْتقعة، ليكون الحرب من علي، فَيَتَوَهَّمُ المُنْخَفِضُ لذلك وَيَتَخَاذَلُ، وفي الكُمون في الغياض ومُطْلَمَتِ الأَرْض، والتّواري بالكُدَى عن العَدُوِّ حتّى تَبْدُو لهم العساكِرُ دَفْعَةً وقد تَوَرَّطُوا، فَيَتَلَفَّتُونَ إلى التّجاة، وأمثال ذلك .

وإمّا أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية، / لا قُدْرَةَ للبشر على اكتسابها، تُلقَى في القلوب، فَيَسْتَوْلِي الرّهْبُ عليهم من أجلها، فتختلّ مراكزهم وتقع الهزيمة. وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية، لكثرة ما يغتمل كلّ واحد من الفريقين فيها حرصاً على الغلب، فلا بُدّ من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة. ولذلك قال ﷺ⁽¹⁾: "الحرب خدعة". ومن أمثال العرب⁽²⁾: رَبُّ حِيلَةٍ أَنْفَعُ مِنْ قَبِيلَةٍ.

فقد تبيّن أنّ وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة، ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية وهو معنى البُخْت كما تَقَرَّر في موضعه. فاعْتَبِرْهُ، وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور السّماوية - كما شَرَحْنَاهُ - معنى

(أ) ي ل ج : الذي .

(1) البخاريّ 4: 77 حديث (3028)، مسلم (1739) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ. ثروى خدعة بضم الخاء وفتحها، والفتح أفصح .

(2) الحسن اليوسي: زهر الأم 3: 73 .

قوله ﷺ⁽¹⁾: "نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ". وما وقع من غَلْبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ، وَغَلَبِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ بَعْدَهُ كَذَلِكَ فِي الْفُتُوحَاتِ . فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكْفُلُ لِنَبِيِّهِ بِالْقَاءِ الرُّغْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، حَتَّى يَسْتَوِي عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزِمُوا، مَعْجَزَةً لِرَسُولِهِ ﷺ؛ فَكَانَ الرُّغْبُ فِي الْقُلُوبِ سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا؛ إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعُيُونِ .

5

وقد ذكر⁽¹⁾ الطُّرْطُوشِيُّ⁽²⁾ : أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْغَلَبِ فِي الْحُرُوبِ، أَنْ تَفْضُلَ عِدَّةُ الْفُزْزَانِ الْمَشَاهِيرِ مِنَ الشَّجْعَانِ فِي أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ؛ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْجَانِبَيْنِ فِيهِ عَشْرَةٌ أَوْ عِشْرُونَ مِنَ الشَّجْعَانِ الْمَشَاهِيرِ، وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ ثَمَانِيَّةٌ أَوْ سِتَّةٌ عَشَرَ، فَالْجَانِبُ الزَّائِدُ وَلَوْ بِوَاحِدٍ يَكُونُ لَهُ الْغَلَبُ؛ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَى؛ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا؛ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ .

وإِنَّمَا الصَّحِيحُ الْمُغْتَبَرُ فِي الْغَلَبِ، حَالُ الْعَصِيَّةِ أَنْ يَكُونَ فِي إِحْدَى الْجَانِبَيْنِ عَصِيَّةٌ

[189] / وَاحِدَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّهِمْ، وَفِي الْجَانِبِ الْآخَرِ عَصَائِبُ مُتَعَدَّةٌ، وَالْجَانِبَانِ مَعًا مُتَقَارِبَانِ فِي الْعِدَّةِ ، فَإِنَّ الْجَانِبَ الَّذِي عَصِيَّتُهُ وَاحِدَةٌ أَقْوَى وَأَغْلَبُ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي هُوَ عَصَائِبُ مُتَعَدَّةٌ ، لِأَنَّ الْعَصَائِبَ إِذَا كَانَتْ مُتَعَدَّةً يَقَعُ بَيْنَهَا مِنَ التَّخَاذُلِ مَا يَقَعُ فِي الْوُحْدَانِ الْمُفْتَرِقِينَ الْفَاقِدِينَ لِلْعَصِيَّةِ، إِذْ تَنْزِلُ كُلُّ عِصَابَةٍ مِنْهُمْ مَنَزَلَةَ الْوَاحِدِ، وَيَكُونُ

10

15

(1) فِي ظ وَحْدَهَا : وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ، فَاسْقَطْتُهَا لِتَحْقِيقِ الرِّبْطِ .

(1) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ فِي الصَّحِيحِينَ، مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ 1: 91

حَدِيثُ (335)، 1: 119 حَدِيثُ (438)، 4: 104 حَدِيثُ (3132). وَمُسْلِمُ (521) .

(2) سِرَاجُ الْمُلُوكِ 2: 685 - .

الجانب الذي عصايته مُتعددة لا يُقاوم الجانب الذي عصيته واحدة لأجل ذلك،
 ففقهه. واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي؛ ولم يَحْمِلْهُ على ذلك
 إلا نسيانُ شأنِ العصية في جيله وتلده. وأنهم إنما يَرْتَوْنَ الدِّفاعَ والحماية والمطالبة
 إلى الوُجْدان، والجماعة الناشئة عنهم لا يَتَعَبَّرُونَ في ذلك عَصِيَّةً ولا نُسْبًا. وقد يَتَنَا
 5 ذلك أَوَّلَ الكِتَابِ، مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة،
 مثل اتفاق الجنشين في العدة، وصدق القتال، وكثرة الأسلحة، وما أشبهها؛ فكيف
 نجعل ذلك سببًا كفيلاً بالغلب؟ ونحن قد قررنا الآن أن شيئًا منها لا يعارض
 الأسباب الخفية من الحيل والخدع، ولا الأمور السماوية من الرغب والخذلان
 الإلهي. فاعلمه وتفهم أحوال الكون. والله مُقَدِّرُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ .

6. فَضْلٌ :

10

ويتلحق بمغنى الغلب في الحروب، وأن أسبابه خفية وغير طبيعية، حال
 الشهرة والصيت؛ فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس، من الملوك
 أو العلماء أو الصالحين، أو المنتحلين للفضائل على العموم. فكثير ممن اشتهر بالشر
 وهو بخلافه، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها / وأهلها. وقد تصادف [189ب]
 15 موضعها وتكون طبقاً على صاحبها . والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هي
 بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها التعصب
 والتشيع، ويدخلها الأوهام، ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال، لحفائها
 بالتلبيس والتضنع، أو لجهل الناقل؛ ويدخلها التقرب لأصحاب التجارة والمراتب

الدُّنْيَوِيَّةُ بِالنَّشَاءِ وَالْمَذْحِ ، وَتَحْسِينِ الْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذَلِكَ . وَالتَّنْفُوسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ
النَّشَاءِ ، وَالنَّاسُ مُتَطَاوِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ ، وَلَيْسُوا فِي الْأَكْثَرِ
بِرَاغِبِينَ فِي الْفَضَائِلِ وَلَا مُنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا ؛ وَأَيْنَ مُطَابَقَةُ الْحَقِّ مَعَ هَذِهِ كُلِّهَا ؟
فَتَحْصِلُ الشَّهْرَةُ عَنْ أَسْبَابٍ حَقِيقَةٍ مِنْ هَذِهِ ، وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ . وَكُلُّ مَا حَصَلَ
بِسَبَبِ خَفِيِّ فَهُوَ الَّذِي يُعْبَرُ عَنْهُ بِالْبَخْتِ كَمَا تَقَرَّرُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

5

38 • فَضْلٌ ، فِي الْجَبَايَةِ وَسَبَبِ نَقْصِهَا ⁽¹⁾ وَوُقُورِهَا

اعْلَمْ أَنَّ الْجَبَايَةَ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةً الْوَزَائِعُ كَثِيرَةً الْجُمْلَةُ ، وَآخِرَ الدَّوْلَةِ
تَكُونُ كَثِيرَةً الْوَزَائِعُ قَلِيلَةً الْجُمْلَةُ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى
سَنَنِ الدِّينِ ، فَلَيْسَ إِلَّا الْمَغَارِمُ الشَّرْعِيَّةُ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْخَرَاجِ وَالْجُزْيَةِ ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ
الْوَزَائِعُ ، لِأَنَّ مِقْدَارَ الزَّكَاةِ مِنَ الْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ ، وَكَذَا زَكَاةُ الْحُبُوبِ وَالْمَالِشِيَّةِ ،
وَكَذَا الْجُزْيُ وَالْخَرَاجُ وَجَمِيعُ الْمَغَارِمِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَهِيَ حُدُودٌ لَا تَتَعَدَّى . وَإِنْ كَانَتْ
عَلَى سَنَنِ الْعَصَبِيَّةِ وَالتَّغْلَبِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَالْبِدَاوَةُ
تَقْضِي الْمُسَامَحَةَ وَالْمُكَازَمَةَ ، وَخَفَضَ الْجَنَاحَ ، وَالتَّجَافِيَّ عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ ، وَالْغَفْلَةَ
عَنْ تَحْصِيلِ ذَلِكَ إِلَّا فِي النَّادِرِ ، فَيَقُلُّ لِنَدْرٍ لِمِقْدَارِ الْوُظَيْفَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَالْوَزِيْعَةِ الَّتِي
تَجْتَمِعُ الْأَمْوَالُ مِنْ مَجْمُوعِهَا . وَإِذَا قَلَّتِ الْوَزَائِعُ وَالْوُظَائِفُ عَلَى الرِّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ
وَرَغِبُوا / فِيهِ ، فَيَكْثُرُ الْإِعْتِمَارُ ، وَيَتَزَايَدُ لِحُصُولِ الْإِغْتِيَاظِ بِقِلَّةِ الْمَغْرَمِ ، وَإِذَا كَثُرَ
الْإِعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ الْوُظَائِفِ وَالْوَزَائِعِ ، فَكَثُرَتِ الْجَبَايَةُ الَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا . فَإِذَا

10

15

[190]

(1) ي : قَلَّتْهَا وَكَثُرَتْهَا ، وَفِي ل ، الْمَنْوَانُ نَفْسَهُ ، وَالَّتِي وَعَدْتُ فِي الْحَاشِيَةِ بِحِطِّ الْمَوْلَفِ عَلَى صِيغَتِهِ الْمُبْتَدَأَةِ .

استقرت الدولة واتصلت، وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد، واتصفوا بالكيس،
 وذهب سرُّ البداوة والسذاجة وخلقها من الإغضاء والتجافي، وجاء الملك
 العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس، وتخلق أهل الدولة حينئذٍ بخلق التخلُّق،
 وتكثرت عوائدهم وحاجاتهم بسبب ما انغمسوا فيه من التعميم والتَّرف، فيكثرون
 5 الوظائف والوزائع حينئذٍ على الرعايا والآكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم، ويزيدون
 في كل وظيفة ووزيعة مقداراً عظيماً لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على
 البياعات وفي أبواب^(١) المدينة كما نذكر بعد، ثم تتدرَّج الزيادات فيها مقداراً^(ب) بعد
 مقدار، لتتدرَّج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل
 المغارم على الرعايا وتبعضهم وتصير عادةً مفروضةً، لأن الزيادة تدرَّجت قليلاً قليلاً،
 10 ولم يشعر أحدٌ من زادها على التَّعيين، ولا من هو واضعها، إنما [ثبتت]^(ج) على
 الرعايا كأنها عادةً مفروضة، ثم تزيد إلى الخروج عن حدِّ الاعتدال، فتذهب غبطة
 الرعايا في الاعتمار لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع فيه، إذا قابل بين نفعه
 ومغارمه، وبين ثمرته وفائدته، فتتنقِص^(د) كثير من الأيدي عن الاعتمار جملةً،
 فتتنقِص جملة الجباية حينئذٍ بنقصان بعض تلك الوزائع منها. وربما يزيدون في مقدار
 15 الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونَه جبراً لما نقص، حتى تنتهي كلُّ
 وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة، لكثرة الإنفاق حينئذٍ في
 الاعتمار،/ وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المزجوة به. فلا تزال الجملة في نقص،
 ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة، لما يعتقدونه من جبر الجملة بها، إلى أن ينتقص

[190ب]

(١) في ي ل : الأبواب (ب) ل ي : بمقدار (ج) ط : ثبتت (د) ل : فيتنقِص .

العُمرانُ بذهاب الآمال من الاعتجار، ويعودُ وبأل ذلك على الدولة، لأنَّ فائدة الاعتجار عائدة إليها .

وإذا فهمت ذلك، علّفت أن أقوى الأسباب في الاعتجار، تقليلُ مقدار الوظائف على المعتمدين ما أمكن؛ فبذلك تنشط النفوس إليه ليقينها بإذراك المنفعة فيه. والله مالك الأمور.

5

39 • فصل، في ضربِ المكوسِ وأواخرِ الدول

اعلم أن الدول تكون في أولها بدويّة كما قلنا، فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً، فيكون في الجباية حينئذ وفاءً بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتها. ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة والترف وعوائدها، وتجري على نهج الدول السالفة قبلها، فيكثر لذلك خرج أهل الدولة، ويكثر خرج السلطان خصوصاً كثرة بالغة يتفقته في خاصّته، وكثرة عطائه؛ ولا تفي بذلك الجباية. فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية، لما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من التّقّة؛ فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولاً كما قلناه، ثم يريد الخرج والحاجات بالتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية، ويترك الدولة الهرم، وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصيّة، فتقل الجباية وتكثر العوائد، وتكثر بكثرتها أزراق الجند وعطاؤهم. فيستخذت صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضرها على البياعات، ويفرض لها قدرًا معلومًا على الأثمان في الأسواق، وعلى أغنيان السّلع في أبواب المدينة. وهو مع هذا مضطرّ

15

لذلك، بما دَعاه إليه/ تَرَفُّ النَّاسِ مِنْ كَثْرَةِ الْعَطَاءِ، مع زيادة الجيوش والحامية. وَرُبَّمَا [191] يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدَّوَلِ زِيَادَةً بِالِغَةِ، فَتَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ لِفَسَادِ الْأَمَالِ، وَيُؤْذِنُ ذَلِكَ بِاخْتِلَالِ الْعُمْرَانِ، وَيَعُودُ عَلَى الدَّوَلَةِ؛ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ.

وقد كان وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ الْمَشْرِقِ فِي أَخْرِيَاتِ الدَّوَلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْعُبَيْدِيَّةِ 5 كَثِيرٌ، وَفُرِضَتْ الْمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى الْحَاجِّ فِي الْمَوْسِمِ، وَأَسْقَطَ صِلَاحُ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ تِلْكَ الرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاضَهَا ^(١) بِآثَارِ الْخَيْرِ. وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِعَهْدِ الطَّوَانِفِ، حَتَّى مَحَا رَسْمَهُ يَوْسُفُ بْنُ تَاشِيفِينَ أَمِيرُ الْمُرَابِطِينَ. وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ الْجَرِيدِ بِإِفْرِيقِيَّةٍ لِهَذَا الْعَهْدِ حِينَ اسْتَبَدَّ بِهَا رُؤُوسَاؤُهَا. وَ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [سورة الشورى، من الآية 19].

40 • فَصْلٌ ، فِي أَنَّ التَّجَامِرَةَ مِنَ السُّلْطَانِ مُضِرَّةٌ بِالرَّعَايَا ، مُفْسِدَةٌ لِلجِبَايَةِ

10 اَعْلَمْ أَنَّ الدَّوَلَةَ إِذَا ضَاقَتْ جِبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمَاهُ مِنَ التَّرَفِّ وَكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ وَالتَّفَقَّاتِ، وَقَصَّرَ الْحَاصِلُ مِنْ جِبَايَتِهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا، وَاحْتَاجَتْ إِلَى مَزِيدِ الْمَالِ وَالْجِبَايَةِ، فَتَارَةً يَوْضَعُ الْمَكُوسَ، عَلَى بِيَاعَاتِ الرِّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ، وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ فِي أَلْقَابِ الْمَكُوسِ، إِنْ كَانَتْ قَدْ اسْتُخْدِثَتْ مِنْ قَبْلُ، وَتَارَةً بِمَقَاشِحَةِ الْعُمَّالِ وَالْجُبَاةِ وَامْتِكَالِ عِظَامِهِمْ، لَمَّا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ 15 الْجِبَايَةِ لَا يُظْهِرُهُ الْحُسْبَانُ، وَتَارَةً بِاسْتِخْدَاتِ التَّجَارَةِ وَالْقُلُوحِ لِلسُّلْطَانِ، حِرْصًا عَلَى تَنْمِيَةِ الْجِبَايَةِ، لَمَّا يَرَوْنَ التَّجَارَ وَالْفَلَاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى الْفَوَائِدِ وَالْعَلَّاتِ مَعَ يَسَارَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَأَنَّ الْأَزْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ. فَيَأْخُذُونَ فِي اكْتِسَابِ الْحَيَوَانِ

(١) ط ج ي ، وفي ل : وأعاض عنها بالخير .

والنبات لاستغلاله، وفي شراء البضائع والتعرض بها لحالة الأسواق، يحسبون ذلك من إضرار الجباية وتكثير القوائد، وهو غلط عظيم، وإدخال للضرر على الرعايا من وجوه متعددة .

[191ب] / فأولاً، مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع، وتيسير

أسباب ذلك ؛ فإن الرعايا متكافئون في اليسار أو متقاربون ، ومزاحمة بعضهم بعضاً 5 تنتهي إلى غاية موجودهم أو [تقرب]⁽¹⁾، وإذا رافقتهم السلطان في ذلك، وماله أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على عرضه في شيء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد .

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك، إذا تعرض له غضباً أو بأيسر 10 ثمن، أو لا يجد من ينافسه [في شرائه]^(ب) فينحس ثمنه على بائعه .

ثم إذا حصلت فوائد الفلاحة ومغلتها كله من زرع أو حريز أو عسل أو 15 سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع، فلا ينتظرون به حوالة الأسواق ولا تقاق البياعات، لما تدعوهم إليه تكاليف الدولة، فيكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع، ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناص أموالهم ، وتبقى تلك البضائع 15 بأيديهم غروصاً جامدة، ويمكثون عطلاً من الإدارة التي فيها كسبهم ومعاشهم . وربما تدعوهم الضرورة إلى شيء من المال، فيبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخس ثمن. وربما يتكرر ذلك على التاجر أو الفلاح منهم بما يذهب

(1) ط : تقيهم (ب) من ل ي .

برأس ماله، فيَقْعُدُ عن سوقه، وَيَتَعَدَّدُ ذلك وَيَتَكَرَّرُ، ويدخل به على الرعايا من العنتِ والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعي في ذلك جملة، ويؤدي إلى فساد الجباية؛ فإنَّ مُعْظَمَ الجباية إنما هي من الفلاحين والتجار، لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها؛ فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة، وقعد التجار عن التجارة، ذهبت الجباية جملة أو دخلها التقص المتفاحش.

5 / وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه ^(أ) الأرباح القليلة، وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل. ثم إنه ولو كان مفيداً فيذهب له بحظّ عظيم من الجباية فيما يعاينه من شراء وبيع؛ فإنه من البعيد أن يؤخذ منه فيه المكس. ولو كان غيره في تلك الصفقات كان مكسها كلها حاصلًا من جملة الجباية. ثم فيه التعرّض لفساد عمرانه، واختلال التولية بفساده ونقصه؛ فإنَّ الرعايا إذا قعدوا عن تجميع أموالهم بالفلاحة والتجارة، نقصت وتلاشت بالتفقات، وكان فيها تلافٍ أحوالهم، فافهم ذلك.

10 ولقد كان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل، وأن لا يتخذ ضيعة فيضر بجيرانه، وأن ^(ب) لا يتاجر ^(ج) فيحب غلاء الأسعار في البضائع، ولا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة.

15 واعلم أنَّ السلطان لا يتمُّ ماله ولا يدُرُّ موجوده إلا الجباية؛ وإدراؤها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال والتظير لهم؛ فبذلك تنشط ^(د) آمالهم، وتشرح

(أ) ل: وبين ما يحصل له من الأرباح القليلة (ب) من ظ وحدها (ج) ل: يتجر (د) كذا في ظ ج، وفي ل ي: تنبسط.

صدورهم للأخذ في تثير الأموال وتثمينها؛ فتعظم منها جباية السلطان. وأما غير ذلك للسلطان⁽¹⁾ من تجارة أو فلاح فإنها هو مضرّة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة. ولقد ينتهي الحال بهؤلاء المنتحلين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلّين في البلدان، أنهم يتعرّضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين إلى بلادهم ، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم 5 من الرعايا بما يفرضونه من الثمن. وهذه أشد من الأولى، وأقرب إلى فساد الرعيّة [192ب] واختلال أخوالهم . وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الأصناف، أغني التجار والفلاحين بما هي صناعته التي نشأ عليها ، فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً ، سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مفرم ولا مكس ، فإنها أجدر بنمو المال^(ب)، وأسرع في 10 تثيرها؛ ولا يفهم مع ذلك ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته؛ فيتنبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء، ويعرض عن سعاتهم المضرّة بجبايته وسلطانه. والله يلهمنا رشد أنفسنا، وينفعنا بصلاح أعمالنا، لا رب غيره .

41 • فصل ، في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك ، أن الجباية في أول الدولة توزع على القبيل وأهل 15 العصبية بمقدار غنائمهم وعصبيتهم ، ولأن الحاجة إليهم في تهديد الدولة كما قلناه من قبل . فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون إليه من الجباية ، مغتاض عن ذلك

(1) من ط ج وسقط من ل ي (ب) من ط ، وفي بقية الأصول : الأموال .

بما هو يروم من الاستبداد عليهم، فلهم⁽¹⁾ عليه عزة وله إليهم حاجة. فلا يطير في
سهمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء
والكتاب والموالي مُملّقين في الغالب، وجاههم مُتقلص لأنه من جاء مخدمهم،
ونطاقه قد ضاق بمن يراجحه فيه من أهل عصبته.

5 فإذا استفحلت طبيعة الملك، وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على
قومه، قبض أيديهم عن الجبايات، إلا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم، ونقل
حظوظهم إذ ذاك لقلّة غنائمهم في الدولة بما / انكبح من أعنتهم، وصار الموالي [193]
والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الأمر؛ فيتفرّد صاحب الدولة حينئذ
بالجباية أو مُعظمها، ويحتوي على الأموال ويحتجها للتفقة في مهمات الأحوال،
10 فتكثر ثروته، وتمتلئ خزائنه، ويتسع نطاق جاهه، ويعتز على سائر قومه، فيعظم
حال حاشيته وذويه، من وزير وكتّاب وحاجب ومولى وشرطي، ويتسع جاههم،
ويقتنون الأموال ويتأثّلونها.

15 ثم إذا أخذت الدولة في الهزم، بتلاشي العصبية وفناء القليل الماهدين
للدولة، احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار، لكثرة الخوارج والمنازعين
والشوّار؛ وتوهم الانتقاض، فصار خراجه لظهورائه وأغوائه، وهم أرباب السيوف وأهل
العصبيات، وأثق خزائنه وحاصله في مهمات جبر الدولة، وقلت مع ذلك الجباية لما
قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقل الخراج، وتشتد حاجة الدولة إلى المال،
فيتقلص ظلّ النعمة والترّف عن الخواص والحجّاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم،

(1) ط ج ، وفي ل ي : فله عليهم عزة .

وضيق نطاقه على صاحب الدولة. ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال، ويتفق أبناء البطانة والحاشية ما نأكل آباؤهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة، ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم^(أ)، فيضطلمها ويتزعمها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحداً بعد واحد، على نسبة رتبهم، وتتكرر الدولة لهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجاليتها وأهل الثروة والتعنة من بطانتها، ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد / بعد أن يدغمه أهله ويرفعوه^(ب). [193ب]

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة، وبني برمك، وبني سهل، وبني طاهر، وأمثالهم. ثم في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيام الطوائف، في بني شهيد، وبني أبي عبدة، وبني حذيفة، وبني بزد، وأمثالهم؛ وكذا في الدول التي أدركناها لعهدنا؛ سنة الله ﷻ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴿ [سورة الأحزاب، من الآية 62].

1. فصل :

ولما يتوقعه أهل الدول من أمثال هذه المعاطب، صار الكثير منهم يتزعجون إلى الفرار عن الرتب، والتخلص عن رتبة السلطان بما حصل بأيديهم من مال الدولة إلى فطر آخر، ويؤمن أنه هنا لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته؛ وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم.

(أ) في ج ل ي : وجاهه (ب) ي : يزعمونه .

واغْلَمَ أَنَّ الْخِلَاصَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْحُصُولِ فِيهِ، عَسِيرٌ مُفْتَنِّعٌ؛ فَإِنْ صَاحِبُ
 هَذَا الْغَرَضِ إِنْ كَانَ هُوَ الْمَلِكُ بِنَفْسِهِ، فَلَا تُمَكِّنُهُ الرَّعِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ طَرْفَةً عَيْنٍ، وَلَا
 أَهْلُ الْعَصِيَّةِ الْمَزَاجِمُونَ لَهُ، بَلْ فِي ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَدْمٌ مُلْكِهِ وَتَلَاُفٌ نَفْسِهِ، لِمَجَارِي
 الْعَادَةِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ رِيقَةَ الْمَلِكِ يَغْسُرُ الْخِلَاصُ مِنْهَا، سَيِّئًا عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ
 5 وَضِيقِ نِطَاقِهَا، وَمَا يَغْرِضُ فِيهَا مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الْمَجْدِ وَالْخِلَالِ وَالتَّخَلُّقِ بِالشَّرِّ. وَأَمَّا
 إِنْ كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْغَرَضِ مِنْ بَطَانَةِ السُّلْطَانِ وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ الرُّتَبِ فِي دَوْلَتِهِ،
 فَقَلَّ أَنْ يُحَلِّيَ بَيْنَهُ وَيَتَيْنَ ذَلِكَ.

أَمَّا أَوَّلًا، فَلَمَّا يَرَاهُ الْمَلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتَهُمْ، بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مِمَّا لِيكُ
 لَهُمْ، مُطَّلِعُونَ عَلَى ذَاتِ صُدُورِهِمْ، فَلَا يَسْمَحُونَ بِحَلِّ رِيقَتِهِ مِنَ الْخِدْمَةِ، ضَمَانَةً
 10 بِأَسْرَارِهِمْ وَأَخْوَالِهِمْ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهَا أَحَدٌ، وَغَيْرُهُ مِنْ خِدْمَتِهِ لِيَسَوَاهُمْ.

وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهْلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ السَّفَرِ لِقَرِيضَةِ
 الْحَجِّ، لَمَّا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وَقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ؛ فَلَمْ يَحْجَّ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحَدٌ مِنْ
 أَهْلِ دَوْلَتِهِمْ، وَمَا أُبَيِّحَ / الْحَجَّ لِأَهْلِ الدَّوْلِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ الْأُمَوِيَّةِ
 [1194] وَرُجُوعِهَا إِلَى الطَّوَائِفِ.

15 وَأَمَّا ثَانِيًا، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِيقَتِهِ هُوَ، فَلَا يَسْمَحُونَ بِالتَّجَافِي عَنْ
 ذَلِكَ الْمَالِ، لَمَّا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا كَانَ رِيَّةُ جُزْءًا مِنْ دَوْلَتِهِمْ، إِذْ لَمْ يَكْتَسِبْ
 إِلَّا بِهَا وَفِي ظِلِّ جَاهِهَا؛ فَتَحُومُ نَفُوسُهُمْ عَلَى اثْتِرَاعِ ذَلِكَ الْمَالِ، أَوْ إِبْقَائِهِ كَمَا هُوَ جُزْءًا
 مِنَ الدَّوْلَةِ، يَنْتَفِعُونَ بِهِ .

ثم إذا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خَلَصَ بِذَلِكَ الْمَالُ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ؛ وَهُوَ فِي التَّادِرِ الْأَقْلَى،
فَتَمَثَّلَ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الْمُلُوكِ بِذَلِكَ الْقُطْرِ، وَيَتَزَعَوْنَهُ ^(أ) بِالْإِزْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ تَغْرِضًا، أَوْ
بِالْقَهْرِ ظَاهِرًا، لَمَّا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ الْجَبَايَةِ وَالذُّوَلِ، وَأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْإِنْفَاقِ فِي الْمَصَالِحِ.
وَإِذَا كَانَتْ عُيُونُهُمْ تَمَثَّلُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ الْمَكْتَسِبِينَ مِنْ وُجُوهِ الْمَعَاشِ، كَمَا
ذَكَرْنَاهُ، فَأَخْرَجَ بِهَا أَنْ تَمَثَّلَ إِلَى مَالٍ ^(ب) الْجَبَايَةِ وَالذُّوَلِ الَّتِي تَجِدُ السَّبِيلَ إِلَيْهِ 5
بِالشَّرْعِ وَالْعَادَةِ. وَانْظُرْ مَا وَقَعَ لِقَاضِي جَبَلَةَ، النَّائِبُ بِهَا عَلَى ابْنِ عَمَّارٍ صَاحِبِ
طَرَابُلُسَ، لَمَّا غَلَبَهُ الْفَرَنْجُ عَلَيْهَا وَنَجَا إِلَى دِمَشْقَ، ثُمَّ إِلَى بَغْدَادَ، وَبِهَا السُّلْطَانُ
بَرْكِيَارِقُ بْنُ مَلِكْشَاهُ، وَذَلِكَ آخِرُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ، فَجَاءَهُ وَزِيرُ السُّلْطَانِ وَاسْتَقْرَضَ
مِنْهُ غَالِبَ مَالِهِ، ثُمَّ اسْتَضَفُوهُ جَمِيعًا، وَكَانَ لَا يُعْبَرُ عَنْهُ كَثْرَةُ .

10 وَلَقَدْ حَاوَلَ السُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَاءُ بْنُ أَحْمَدَ اللَّخْيَانِيَّ، تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ
مُلُوكِ الْحَفْصِيِّينَ بِإِفْرِيقِيَّةَ، الْخُرُوجَ عَنْ عَهْدَةِ الْمُلِكِ وَاللَّهَاقِ بِمِصْرَ، فِرَازًا مِنْ طَلَبِ
صَاحِبِ الشُّغُورِ الْغَزْبِيَّةِ لَمَّا اسْتَجْمَعَ لَغَزْوِ تُونِسَ، فَاسْتَعْمَلَ اللَّخْيَانِيَّ الرَّحْلَةَ إِلَى ثَغْرِ
طَرَابُلُسَ يُؤَرِّي بِتَمْهِيدِهِ، وَرَكِبَ السَّفِينَ مِنْ هُنَاكَ، وَخَلَصَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، بَعْدَ
أَنْ حَمَلَ جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بَيْنَتِ الْمَالِ مِنَ الصَّامِتِ وَالذَّخِيرَةِ، وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَائِنِهِمْ
15 مِنَ الْمَتَاعِ وَالْعَقَارِ وَالْجَوْهَرِ، حَتَّى الْكُتُبِ، وَاحْتَمَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى مِصْرَ، وَنَزَلَ عَلَى
[194ب] الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَاوُونَ سَنَةَ / تِسْعَ عَشْرَةَ مِنَ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ، فَأَكْرَمَ نَزْلَهُ
وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِالتَّغْرِيطِ، إِلَى أَنْ حَصَلَ
عَلَيْهَا، وَلَمْ يَبْقَ مَعَاشُ ابْنِ اللَّخْيَانِيَّ إِلَّا فِي جِرَائِيَّتِهِ الَّتِي فَرَضَ لَهُ؛ إِلَى أَنْ هَلَكَ فِي
سَنَةِ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ، حَسَبًا نَذَرَهُ فِي أَخْبَارِهِ.

(أ) فِي بَقِيَةِ الْأَصُولِ : وَيَتَزَعَوْنَهُ (ب) ل ي : أُمُوال .

فهذا وأمثاله من جُملة الوَسْوَاس الذي يَغْتَرِي أَهْل الدَّوْل، لما يَتَوَقَّعونه من مُلوَكهم من المِغَاطِب، وإنَّما يَخْلُصون إن اتَّق لهم الخِلاصُ بأنْفُسِهم؛ وما يَتَوَقَّعونه من الحَاجَة فغَلَطَ وَوَهَّم. والذي حَصَلَ لهم من الشَّهْرَة بِخِدمَة⁽¹⁾ الدَّوْل، كافٍ في وَجْدان المِعاش لهم بِالجِرايات السُّلْطانيَّة، أو الجِاه في انْتِحال طُرُق الكَسْب من التَّجارة والفِلاحة. والدَّوْلُ أنْساب؛ لكن: [من الكامل]

النَّفْس رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ⁽¹⁾

والله ﴿الرَّازِقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِين﴾ [سورة الدَّارِيات، من الآية 58].

42 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ نَقْصَ الْعَطَاءِ مِنَ السُّلْطَانِ نَقْصٌ فِي الْمَجْبَايَةِ

والسَّبَبُ في ذلك، أَنَّ الدَّوْلَة والسُّلْطَانَ هِيَ السَّوْقُ الْأَعْظَمُ لِلْعَالَمِ، ومنه
 10 مَادَّةُ الْعُفْران. فإذا اخْتَجَنَ السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ والجِبايات، أو فَقِدَتْ فلم يَضَرْفُها في مَصَارِفِها، قَلَّ حينئِذٍ ما بِأَيْدِي الحَاشِيَةِ، وانْقَطَعَ أَيْضاً ما كان يَصِلُ مِنْهُم لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ، وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً، وَهُمْ مُعْظَمُ السَّوَادِ، وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةٍ لِلأَسْوَاقِ مِنْ سِوَاهُمْ؛ فَيَقَعُ الكَسَادُ حينئِذٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَتَضَعُفُ الْأَرْبَاحُ فِي المِتاَجِرِ لِقَلَّةِ الْأَمْوَالِ، فيَقِلَّ الخِراجُ لذلك، لأنَّ الخِراجَ والجِبايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الاِغْتِمَارِ والمِعامَلاتِ، وَنِفاقِ
 15 الْأَسْوَاقِ، وَطَلَبِ النَّاسِ لِلْفَوَائِدِ والأَرْبَاحِ. وَوَبَّالُ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَى التَّوَلَّى بِالنَّقْصِ

(i) ل : لخدمة .

(1) البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، الديوان 145 ، وشرح أشعار الهذليين 1 : 3 من قصيدة :

أَمِنَ المَنونِ وَرَئِها تَوَجَّعٌ وَالذَّهْرَ لَيْسَ بِمُغْتَبٍ مِنْ يَجْزَعُ

لِقَلَّةِ أَمْوَالِ السُّلْطَانِ حِينَئِذٍ بِقِلَّةِ الْخَرَجِ . فَإِنَّ الدَّوْلَةَ - كَمَا قُلْنَا - هِيَ السُّوقُ
 الْأَعْظَمُ، أُمُّ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا، وَأَضْلَاهَا وَمَادَّتُهَا فِي الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ؛ فَإِذَا كَسَدَتْ وَقَلَّتْ
 مَصَارِفُهَا، فَأَجْدَرُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ أَنْ / يُلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ. وَأَيْضاً،
 [195] فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ وَالسُّلْطَانِ ، مِنْهُمْ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا حَبَسَهُ
 السُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتِ الرَّعِيَّةُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

5

43 • فَصْلٌ، فِي أَنَّ الظُّلْمَ مُؤَذِّنٌ بِخَرَابِ الْعُمَرَانِ

اعْلَمْ أَنَّ الْعُدُونَ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ، ذَاهِبٌ بِأَمْوَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا
 وَاكْتِسَابِهَا، لَمَّا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا اثْنَاهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ. وَإِذَا ذَهَبَتْ
 أَمْوَالُهُمْ فِي اكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا انْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ السَّغْيِ فِي ذَلِكَ. وَعَلَى قَدْرِ
 10 الْاِغْتِدَاءِ وَنِسْبَتِهِ يَكُونُ انْقِبَاضُ الرِّعَايَا عَنِ السَّغْيِ فِي الْاِكْتِسَابِ . فَإِنْ كَانَ
 الْاِغْتِدَاءُ كَثِيراً وَعَامّاً فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْمَعَاشِ، كَانَ الْقُعُودُ عَنِ الْكَسْبِ كَذَلِكَ،
 لَذَهَابِهِ بِالْأَمْوَالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا؛ وَإِنْ كَانَ الْاِغْتِدَاءُ يَسِيراً، كَانَ
 الْاِنْقِبَاضُ عَنِ الْكَسْبِ عَلَى نِسْبَتِهِ. وَالْعُمَرَانُ وَوُفُورُهُ وَنَقَاقُ أَسْوَاقِهِ، إِنَّمَا هُوَ
 بِالْأَعْمَالِ وَسَغْيِ النَّاسِ فِي الْمَصَالِحِ وَالْمَكَايِيبِ ذَاهِبِينَ وَجَائِينَ. فَإِذَا قَعَدَ النَّاسُ عَنِ
 15 الْمَعَاشِ، وَانْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْمَكَايِيبِ، كَسَدَتْ أَسْوَاقُ الْعُمَرَانِ، وَانْتَقَصَتْ
 الْأَحْوَالُ، وَابْتَدَعَرَ النَّاسُ فِي الْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ تِلْكَ الْإِيَالَةِ، وَفِي طَلَبِ الرِّزْقِ فِيمَا خَرَجَ
 عَنْ نِطَاقِهَا. فَخَفَّ سَاكِنُ الْقُطْرِ، وَخَلَّتْ دِيَارُهُ، وَخَرِبَتْ أَمْصَارُهُ، وَاخْتَلَّ بِاخْتِلَالِهِ
 حَالُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ؛ لِمَا أَنَّهَا صُورَةٌ لِلْعُمَرَانِ تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَادَّتِهَا ضَرُورَةً.

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي⁽¹⁾ في أخبار الفرس عن الموبدان،
صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام، وما عرّض به للملك في إنكار ما كان
عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة، بضرب المثل في ذلك على لسان
البوم، حين سمع الملك أصواتها، وسأله / عن فهم كلامها، فقال: إنَّ بومًا ذكرا يروم
5 يكاح بوم أنثى، وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام لتسوخ⁽¹⁾
فيها، فقيل شرطها، وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية، وهذا
أسهل مرام. فتنبّه الملك من غفلته وخلا بالموبدان وسأله عن مراده، فقال له:
أيها الملك، إنَّ الملك لا ييم عِزُّه إلا بالشرعة والقيام لله بطاعته، والتّصرف تحت
أمره ونهيه؛ ولا قِوام للشرعة إلا بالملك، ولا عِزٌّ للملك إلا بالرجال، ولا قِوام للرجال
10 إلا بالمال؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة؛ ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل. والعدل
الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب، وجعل له قِيَمًا، وهو الملك. وإتاك أيها
الملك عمدت إلى الضياع، فاثترغت من أزيابها وعمارها؛ وهم أزياب الخراج ومن
تؤخذ منهم الأموال، وأقطعتنا الحاشية والخدم وأزياب البطالة، فتركوا العمارة،
والنظر في العواقب وما يصلاح الضياع، وسومحوا في الخراج لقُرْبهم من الملك. ووقع
15 الحيف على من بقي من أزياب الخراج وعمار الضياع؛ فانجلوا عن ضياعهم، وخلّوا
ديارهم، وآووا إلى ما بعد أو تعذر^(ب) من الضياع فسكنوها، فقالت العمارة، وخربت
الضياع، وقلت الأموال، وهلك الجنود والرعية، وطمع في ملك فارس من

(1) سقط من ي (ب) سقط من ل .

(1) مروج الذهب 1: 292 - (595 - 599) .

جاورهم من الملوك، لعلهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها. فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه، وانزعجت الضياع من أيدي الخاصة وزدّت على أربابها، وحملوا على رؤسهم السالفّة، وأخذوا بالعمارة، وقوي من ضعف منهم، / فعمرت الأرض، وأخصبت البلاد، وكثرت الأموال عند جباة الخراج، وقويت الجنود، وقطعت موادّ الأعداء، وشجنت الثغور، وأقبل الملك على 5 مباشرة أموره بنفسه، فحسنت أيامه، وانتظم ملكه.

فَفَتَفَهُمْ⁽¹⁾ من هذه الحكاية أنّ الظلم مخرب للعُمران، وأنّ عابدة الخراب في العُمران على الدولة بالفساد والانتقاص .

ولا تنظر في ذلك إلى أنّ الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها، ولم يقع فيها خراب، واعلم أنّ ذلك إنّما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء 10 وأحوال أهل [المضر]^(ب) . فلما كان المضر كبيراً، وعمرانه كثيراً، وأحواله متسعة بما لا ينحصر، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً؛ إذ النقص إنّما يقع بالتدريج؛ فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المضر لم يظهر أثره إلا بعد حين. وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المضر، وتحيى الدولة الأخرى، فتزقعه بجذتها، وينجبر النقص الذي كان خفياً فيه، فلا يكاد يشعر به، 15 إلا أنّ ذلك في الأقل .

والمراد من هذا، أنّ حصول النقص في العُمران عن الظلم والعُدوان، أمر واقع لا بد منه، لما قدّمناه، وبإله عائذ على الدول .

(1) ج ل : فتفهم (ب) في ط : مصر .

ولا تُحَسِبَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا هُوَ أَخْذُ الْمَالِ أَوْ الْمِلْكِ مِنْ يَدِ مَا لَيْكِهِ مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ
 وَلَا سَبَبٍ، كَمَا هُوَ فِي ^(أ) الْمَشْهُورِ، بَلِ الظُّلْمُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ. وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مِلْكَ أَحَدٍ،
 أَوْ غَضَبَهُ فِي عَمَلِهِ، أَوْ طَالَتْهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَفْرِضْهُ الشَّرْعُ، فَقَدْ
 ظَلَمَهُ. فَجَبَاةُ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظَلَمَةٌ، وَالْمُعْتَدُونَ عَلَيْهَا ظَلَمَةٌ، وَالْمُنْتَهَبُونَ لَهَا ظَلَمَةٌ،
 5 وَالْمَانِعُونَ لِحُقُوقِ النَّاسِ ظَلَمَةٌ، / وَعُصَابُ الْأَمْلَاكِ عَلَى الْعُمُومِ ظَلَمَةٌ؛ وَوَبَالَ ذَلِكَ [196ب]
 كُلُّهُ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِخَرَابِ الْعُمْرَانِ الَّذِي هُوَ مَادَّتُهَا، لَذَهَابِ الْأَمَالِ [مِنْ
 أَهْلِهِ] ^(ب).

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ الْمَقْصُودَةُ لِلشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، وَهُوَ مَا يَنْشَأُ
 عَنْهُ مِنْ فُسَادِ الْعُمْرَانِ وَخَرَابِهِ، وَذَلِكَ مُؤِذِنٌ بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ؛ وَهِيَ الْحِكْمَةُ
 10 الْعَامَّةُ الْمُرَاعَاةُ لِلشَّرْعِ فِي جَمِيعِ مَقَاصِدِهِ الضَّرُورِيَّةِ الْخَمْسَةِ، مِنْ حِفْظِ الدِّينِ، وَالنَّفْسِ،
 وَالْعَقْلِ، وَالنَّسْلِ، وَالْمَالِ. فَلَمَّا كَانَ الظُّلْمُ، كَمَا رَأَيْتَ، مُؤِذِنًا بِانْقِطَاعِ النَّوْعِ لِمَا أَدَّى
 إِلَيْهِ مِنْ تَخْرِيبِ الْعُمْرَانِ، كَانَتْ حِكْمَةُ الْحَظَرِ فِيهِ مَوْجُودَةً، فَكَانَ تَحْرِيمُهُ مُهِمًّا. وَأَدِلَّتْهُ
 مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا قَانُونُ الضَّبْطِ أَوْ الْحَضَرِ.

وَلَوْ كَانَ كُلُّ أَحَدٍ قَادِرًا عَلَيْهِ، لَوُضِعَ بِإِزَائِهِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةِ، مَا وُضِعَ
 15 بِإِزَاءِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ لِلنَّوْعِ الَّتِي يَقْدِرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى اقْتِرَافِهَا، مِنَ الزِّنَا وَالْقَتْلِ
 وَالسُّكْرِ، إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقَعُ مِنْ أَهْلِ
 الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ. فَبُولَغُ فِي ذَمِّهِ وَ[تَكْثِيرُ] ^(ج) الْوَعِيدِ فِيهِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْوَازِعُ فِيهِ
 لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت، من الآية 46].

(أ) سقط من ي (ب) من ل ج ي ، وسقط من ظ (ج) من ج ل ي ، وفي ظ : تكرير .

ولا تقولنَّ إنَّ العقوبة قد وُضِعَتْ بإِزاء الجِراة في الشَّرْع، وهي من ظُلم
القادر؛ لأنَّ المحارِبَ زَمَنَ جِراة قَادرٍ؛ فإنَّ الجوابَ عن ذلك من طَريقَين:

أحدهما، أن تقول: العُقوبة ^(١) التي وُضِعَتْ في ذلك، إنَّما هي بإِزاء ^(٢) ما
يُتَرَفَّه من الجَنائيات في نَفْسٍ أو مالٍ على ما ذَهَبَ إليه كَثِيرٌ، وذلك إنَّما يكونُ بَعْدَ
القُدرة عليه والمُطالبَةِ بِجِنايَتِهِ، وأمَّا نَفْسُ الجِراة فهي خَلُوه من العُقوبة.

5

الطَّرِيقُ الثَّانِي، أن تقول: المحارِبُ لا يوصَفُ بالقُدرة؛ لأنَّما إنَّما نَعْنِي بِقُدرة
الظَّالِم، اليَدُ المَبسُوطَةُ الَّتِي لا تُعارِضُها قُدرة؛/ فهي المؤذنة بالخراب؛ وأمَّا قُدرة
المُحارِبِ فإنَّما هي إِخافةٌ يَجْعَلُها ذَرِيعَةً لِأَخْذِ الأَمْوالِ؛ والمدافعةُ عنها بِيَدِ الكُلِّ
موجودةٌ شَرْعًا وَسِياسَةً؛ فَلَيْسَتْ مِنَ القُدَرِ المؤذنة بالخراب. والله قَادرٌ على ما
يَشَاءُ.

10

1. فَضْلٌ :

ومن أَشَدِّ الظُّلُماتِ وأَعْظَمِها إِفسادًا للعُمران، تَكْلِيفُ الأَعْمالِ وتَسْخِيرُ
الرِّعايا بِغَيرِ حَقٍّ. وذلك أَنَّ الأَعْمالَ من قَبيلِ المَتَمَوَّلاتِ، لِمَا سَنَبَّيْنُ في بابِ الرِّزْقِ؛
أَنَّ الرِّزْقَ والكَسْبَ إنَّما هو قِيمُ أَعْمالِ أَهلِ العُمران. فإذا مَساعِهم وأَعْمالُهم كُلُّها
مَتَمَوَّلاتٌ ومَكاسِبُ لهم، بَلْ [لا] ^(ب) مَكاسِبُ لهم سِواها؛ فإنَّ الرِّعيَّةَ المُتَمَلِّينَ في
العِجارة إنَّما مَعاشُهم ومَكاسِبُهم من اِعْتِمادِهم ذلك. فإذا كَلَّفوا العَمَلَ في غَيرِ شَأْنِهِمْ،
والتَّخَذُوا سُخْرِيًّا في غَيرِ مَعاشِهِمْ، بَطَلَ كَسْبُهم واِعْتَصَبُوا قِيمَةَ عَمَلِهِمْ ذلك، وهو

15

(١) سقط ما بين النجمين من ي (ب) سقط من ظ .

مُتَمَوِّلُهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّرُّ، وَذَهَبَ لَهُمْ حِطٌّ كَبِيرٌ مِنْ مَعَاشِهِمْ، بَلْ هُوَ مَعَاشُهُمْ بِالْجُمْلَةِ. وَإِنْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَفْسَدَ أَمَالَهُمْ فِي الْعِمَارَةِ، وَقَعَدُوا عَنِ السَّعْيِ فِيهَا جُمْلَةً، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى انْتِقَاضِ الْعُمْرَانِ وَتَخْرِيهِ، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة البقرة ، من الآية 212] .

2. فَضْلٌ :

5

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِي الظُّلْمِ وَأَفْسَدُ لِلْعُمْرَانِ وَالذُّوْلَةِ، التَّسَلُّطُ عَلَى [أَمْوَالِ] ⁽¹⁾ النَّاسِ، فِي شِرَاءِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِأَنْجَسِ الْأَثْمَانِ، ثُمَّ فَرَضَ الْبَضَائِعَ عَلَيْهِمْ بِأَزْفَعِ الْأَثْمَانِ، عَلَى وَجْهِ الْغَضَبِ وَالْإِكْرَاهِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ. وَرَبَّمَا تُفَرِّضُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ الْأَثْمَانُ عَلَى التَّرَاخِي وَالتَّأْجِيلِ، فَيَتَعَلَّلُونَ فِي الْخَسَارَةِ الَّتِي تُلْحَقُهُمْ، بِمَا تُحَدِّثُهُمْ بِهِ الْمَطَامِعُ مِنْ جَبْرِ ذَلِكَ بِحَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِي تِلْكَ الْبَضَائِعِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ بِالْغَلَاءِ، ^(ب) ثُمَّ يَطَالِبُونَ بِتِلْكَ الْأَثْمَانِ مَعْجَلَةً فَيُضْطَرُّونَ ^(ب) إِلَى بَيْعِهَا بِأَنْجَسِ الثَّمَنِ، وَتَعُودُ خَسَارَةٌ مَا بَيْنَ الصَّفَقَتَيْنِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ. وَقَدْ يَعْمُ ذَلِكَ أَصْنَافُ / التَّجَارِ [197ب]

الْمُقِيمِينَ بِالْمَدِينَةِ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْآفَاقِ فِي الْبَضَائِعِ، وَسَائِرِ السُّوقَةِ وَأَهْلَ الدَّكَائِنِ فِي الْمَأْكَلِ وَالْفَوَاكِهِ، وَأَهْلَ الصَّنَائِعِ فِيمَا يُتَّخَذُ مِنَ الْأَلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ، فَتَشْمَلُ الْخَسَارَةُ سَائِرَ الْأَصْنَافِ وَالطَّبَقَاتِ، وَتَتَوَالَى عَلَى السَّاعَاتِ، وَتُجْحِفُ بِرُؤُوسِ الْأَمْوَالِ، وَلَا يَجْدُونَ عَنْهَا وَلِيَجَةً إِلَّا الْقُعُودَ عَنِ الْأَسْوَاقِ، لَذَهَابِ رُؤُوسِ الْأَمْوَالِ فِي جَبْرِهَا بِالْأَزْبَاحِ، وَيَتَنَاقَلُ الْوَارِدُونَ مِنَ الْآفَاقِ لِشِرَاءِ الْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا مِنْ أَجْلِ ^(ج) ذَلِكَ ، فَتَكْسُدُ

15

(1) سقط من ظ (ب) ما بين النجمين من ي (ج) ل : بسبب .

الأسواق وَيَبْطُلُ⁽¹⁾ معاش الرعايا، لأنَّ عامَّةً من البيع والشراء. وإذا كانت الأسواق عُظْلًا منها بطل معاشهم، وتَنقُصُ جباية السلطان أو تُفسد، لأنَّ مُعْظَمَهَا من أواسط الدولة، وما بعدها إنما هو من المكوس على البياعات كما قدَّمناه. ويؤوُلُ ذلك إلى تلاشي الدولة وفساد عمران المدينة. ويتطَرَّقُ هذا الخلل على التدرج، ولا يُشعر به.

هذا في ما كان بأمثال هذه الذرائع والأسباب إلى أخذ الأموال؛ وأمَّا 5
أخذها مجاناً، والعُدوانُ على الناس في أموالهم وحُرْمَتهم وأبشارهم وأغراضهم، فهو يُفْضي إلى الخلل والفساد دَفْعَةً، وتَنقُصُ الدولة سريعاً لما يَنشأُ عنه من الهزج المُفْضي إلى الانْتِقاض.

ومن أجل هذه المفاسد حَظَرَ الشرع ذلك كله، وشرع المكايسة في البيع 10
والشراء، وحَظَرَ أَكْلَ أموال الناس بالباطل، سدّاً لأبواب المفاسد المُفْضية إلى انْتِقاض العمران بالهزج أو بطلان المعاش.

واعلم أنَّ الداعي لذلك كله، إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار 15
من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم ويُعْظَمُ الخَرْجُ ولا يفي به الدَّخْلُ على القوانين المعتادة، فيستَحْدِثون ألقاباً ووجوهاً / يُوسعون بها الجباية
ليني لهم الدَّخْلُ بالخَرْج. ثم لا يزال الترف يزيد، والخَرْجُ بسببه يكثر، والحاجة إلى 15
أموال الناس تَشْتَدُّ، ونطاق الدولة بذلك يَضِيقُ، إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رُسْمُها ويغلبها طالعها. والله مُقَدِّرُ الأمور، لا ربَّ غيره.

(1) ل : يفسد .

44 • فَضْلٌ ، فِي الْحِجَابِ كَيْفَ يَقَعُ فِي الدُّوَلِ ، وَأَنَّهُ يَعْظُمُ عِنْدَ الْهَرَمِ

اعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ كَمَا قَدَّمَنا ،
لأنَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ اسْتِلاؤُهَا ؛ وَالبَدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ
الْعَصِيَّةِ .

5 وَالْدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِالْدِّينِ ، فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ ؛ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا
بِعِزِّ الْغَلَبِ فَقَطْ ، فَالْبَدَاوَةُ الَّتِي بِهَا يَحْصُلُ الْغَلَبُ بَعِيدَةٌ أَيْضاً عَنْ مَنَازِعِ الْمَلِكِ
وَمَذَاهِبِهِ ، فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا بَدَوِيَّةً ، كَانَ صَاحِبُهَا عَلَى حَالِ الْغَضَاضَةِ
وَالْبَدَاوَةِ وَالْقُرْبِ مِنَ النَّاسِ وَسُهولةِ الْإِذْنِ .

فَإِذَا رَسَخَ عِزُّهُ وَصَارَ إِلَى الْإِثْقَادِ بِالْمَجْدِ ، وَاجْتَنَحَ إِلَى الْإِثْقَادِ بِنَفْسِهِ
10 عَنْ النَّاسِ لِلْحَدِيثِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ فِي خَوَاصِّ شُؤْنِهِ ، لَمَّا يَكْثُرُ حِينَئِذٍ مِنْ غَاشِيَتِهِ ،
فَيَطْلُبُ الْإِثْقَادَ مِنَ الْعَامَّةِ مَا اسْتَطَاعَ ، وَيَتَّخِذُ الْإِذْنَ بِبَابِهِ عَلَى مَنْ لَا بُدَّ مِنْهُ
مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ دَوْلَتِهِ ، فَيَكُونُ ⁽¹⁾ حَاجِباً لَهُ عَنِ النَّاسِ ، وَيَقِيمُهُ بِبَابِهِ لِهَذِهِ
الْوُظَيْفَةِ .

ثُمَّ إِذَا اسْتَفْحَلَ الْمَلِكُ وَجَاءَتْ مَذَاهِبُهُ وَمَنَازِعُهُ ، اسْتَحَالَتْ خُلُقُ صَاحِبِ
15 الدَّوْلَةِ إِلَى خُلُقِ الْمَلِكِ ، وَهِيَ خُلُقٌ غَرِيبَةٌ مَخْصُوصَةٌ ، يَخْتِاجُ مُبَاشَرَتَهَا عَلَى مُدَارَاتِهَا
وَمُعَامَلَتِهَا بِمَا يَجِبُ لَهَا ، وَرَبَّمَا جَهِلَ تِلْكَ الْخُلُقَ مِنْهُمْ بَعْضٌ مِنْ يُبَاشِرُهُمْ فَوْقَ فِيمَا لَا

(1) مِنْ طَح ، وَفِي ل ي : وَتَقْضَى .

[198ب] يُرْضِيهِمْ، فَسَخِطُوهُ وَصَارُوا إِلَى حَالَةِ الْإِثْتِقَامِ مِنْهُ. فَانْفَرَدَ بِمَغْرِفَةٍ / هَذِهِ الْآدَابُ مَعَهُمْ

الْخَوَاصُّ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ ، وَحَجَبُوا غَيْرَ أَوْلَئِكَ الْخَاصَّةِ عَنْ لِقَائِهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ، حِفْظًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُعَايِنَةِ مَا يَسَخِطُهُمْ، وَعَلَى النَّاسِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِعِقَابِهِمْ .

فَصَارَ لَهُمْ حِجَابٌ آخَرُ أَخَصَّ مِنَ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ، يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ خَوَاصُّهُمْ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ وَيُحْجِبُ دُونَهُ مَنْ سِوَاهُمْ. وَالْحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إِلَى مَجَالِسِ الْأَوْلِيَاءِ، 5 وَيُحْجِبُ دُونَهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ.

فَالْحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، كَمَا حَدَّثَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ الْمَلِكِ وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ، وَكَانَ الْقَائِمُ عَلَى ذَلِكَ الْحِجَابِ يُسَمَّى عِنْدَهُمُ الْحَاجِبُ، جَزْيًا عَلَى مَذْهَبِ الْإِسْتِيقَاقِ الصَّحِيحِ .

10 ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَحَدَّثَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ التَّرَفِّ وَالْعِزِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَكَمَلَتْ خُلُقُ الْمُلِكِ عَلَى مَا يَجِبُ فِيهَا، فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِجَابِ الثَّانِي، وَصَارَ اسْمُ الْحَاجِبِ أَخَصَّ بِهِ، وَصَارَ بِيَابِ الْخُلَفَاءِ دَارَانٍ لِلْغَاشِيَةِ: دَارٌ لِلْخَاصَّةِ؛ وَدَارٌ لِلْعَامَّةِ، كَمَا هُوَ مَنْسُطُورٌ فِي أَخْبَارِهِمْ .

15 ثُمَّ حَدَّثَ فِي الدَّوْلِ حِجَابٌ ثَالِثٌ أَخَصَّ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ، وَهُوَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ الْحَجَرِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الدَّوْلَةِ وَخَوَاصَّ الْمُلِكِ إِذَا نَصَبُوا الْأَنْبَاءَ مِنَ الْأَعْقَابِ، وَحَاوَلُوا الْإِسْتِنْدَادَ عَلَيْهِمْ، فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِهِ ذَلِكَ الْمُسْتَبِدُّ أَنْ يُحْجِبَ عَنْهُ بِطَانَةِ أَبِيهِ وَخَوَاصَّ أَوْلِيَائِهِ، يُؤْهِمُهُ أَنَّ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ إِيَّاهُ خَرَقَ حِجَابَ الْهَيْئَةِ، وَفَسَادَ قَانُونِ الْأَدَبِ، لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ عَنْهُ لِقَاءَ الْغَيْرِ، وَيَعُودَهُ مُلَابَسَةُ أَخْلَاقِهِ هُوَ،

حتى لا يتبدل به سواه، إلى أن يستخكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه.

وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدول كما قدّمناه في الحجر، ويكون دليلاً على هزم الدولة وفقد قوتها. وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم؛ لأنّ 5 القائمين بالدولة / يحاولون ذلك بطباعهم عند هزم الدولة، وذهاب الاستيئاد من أعقاب [199] ملوكها، لما زكّب في النفوس من محبة الاستيئاد بالملك، وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه. ﴿والله غالب على أمره﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

45 • فصل، في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أنّ أول ما يقع من آثار الهزم في الدولة انقسامها. وذلك أنّ الملك 10 عندما يستفحل وتبلغ أحوال الترف والتعيم إلى غايتها، ويستبد صاحب الدولة بالمجد ويتفرد به، يأنف حينئذ عن المشاركة، ويصير إلى قطع أسباها ما استطاع، بإهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين لمنصبه. فربما ازتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم، ونزعوا إلى القاصية، واجتمع إليهم من يلحق بهم في مثل حالهم من الاعتزاز والاسترابة. ويكون نطاق الدولة قد أخذ في التضائق ورجع عن 15 القاصية. فيستبد ذلك التازع من القرابة فيها. ولا يزال أمره يعظم بتراجع نطاق الدولة، حتى يقاسم الدولة أو يكاد.

وانظر ذلك في الدولة الإسلامية القريبة، حين كان أمرها عزيزاً مجتمعاً، ونطاقها ممتداً في الاتساع، وعصية بني عبد مناف واحدة غالباً على سائر مضر،

فلم يَنْبُضْ عِزْقٌ مِنَ الْخِلَافِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ؛ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ نَزْعَةِ الْخَوَارِجِ الْمُسْتَمِيتِينَ
فِي شَأْنِ بِدْعَتِهِمْ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِنَزْعَةِ مُلْكٍ وَلَا رِئَاسَةٍ، وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُمْ لِمُزَاحَمَتِهِمْ
الْعَصِيَّةَ الْقَوِيَّةَ .

ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَاسْتَقَلَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بِالْأَمْرِ ، وَكَانَتْ
الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ بَلَغَتْ الْغَايَةَ مِنَ الْغَلَبِ وَالْتَّرَفِ، وَآذَنْتْ بِالتَّقَلُّصِ عَنِ الْقَاصِيَةِ،
نَزَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، قَاصِيَةَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ، فَاسْتَحْدَثَ بِهَا مُلْكًا،
[199ب] / وَاقْتَطَعَهَا عَنْ دَعْوَتِهِمْ، وَصَيَّرَ الدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ.

ثُمَّ نَزَعَ إِدْرِيسُ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَخَرَجَ بِهِ وَقَامَ بِأَمْرِهِ . وَأَمْرُ ابْنَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ
الْبَرَابِرَةُ مِنْ أَوْزَةِ وَمَغِيلَةَ وَزَنَاتَةَ، وَاسْتَوَلَى عَلَى نَاحِيَةِ الْمَغْرِبَيْنِ. ثُمَّ أَزْدَادَتِ الدَّوْلَةُ
تَقَلُّصًا، فَاضْطَرَبَ الْأَغَالِيَةُ فِي الْاِمْتِنَاعِ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ خَرَجَ الشَّيْعَةُ وَقَامَ بِأَمْرِهِمْ كِتَامَةُ وَصِنَهَاجَةَ، وَاسْتَوَلَوْا عَلَى إِفْرِيقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ، ثُمَّ مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ، وَغَلَبُوا عَلَى الْأَدَارِسَةِ، وَقَسَمُوا الدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ
أُخْرَيْنِ، وَصَارَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ ثَلَاثَ دُولٍ : دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِمَرْكَزِ [العرب] ⁽¹⁾ ،
وَأَصْلُهُمْ وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ؛ وَدَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةِ الْمُجَدِّدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ مُلْكُهُمُ الْقَدِيمَ وَخِلَافَتُهُمْ
بِالْمَشْرِقِ؛ وَدَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِإِفْرِيقِيَّةِ وَمِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ. وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الدُّوَلُ إِلَى
15 أَنْ كَانَ انْقِرَاضُهَا مُتَقَارِبًا أَوْ جَمِيعًا.

وَكَذَلِكَ انْقَسَمَتِ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِدُولٍ أُخْرَى: فَكَانَ بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ
بَنُو جَمْدَانَ، وَبَنُو عَقِيلِ بَغْدَهْمَ، وَبِمِصْرَ وَالشَّامِ بَنُو طُولُونَ وَبَنُو طُغْجِ بَغْدَهْمَ، وَكَانَ

(1) ظ : المغرب .

بالقاصية بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان؛ والعلوية في الديلم وطبرستان؛ وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على فارس والعراقين وعلى بغداد والخلفاء. ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك؛ ثم انقسمت دولتهم أيضا بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم.

5 وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية، لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور، خرج عليه عمه حماد، واقتطع ممالك المغرب^(أ) لنفسه، ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية،^(ب) واخبط القلعة بجبل كياته^(ج) حيال المسيلة، ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطري، واستحدث ملكا آخر قسيما لملك آل باديس، وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها، ولم يزل ذلك إلى أن انقرض / أمرهما جميعا. 10

[200]

وكذلك دولة الموحدين، لما تقلص ظلها، تار بإفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها، واستحدثوا ملكا لأغقابهم بنواحيها. ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية، خرج بالممالك الغزية من أغقابهم الأمير أبو زكرياء يحيى ابن السلطان أبي إسحاق إبراهيم، رابع خلفائهم، واستحدث ملكا ببجاية وقسنطينة وما إليها، 15 أورثه بنيه، وقسموا به الدولة قسمين، ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس، ثم انقسم الملك ما بين أغقابهم، ثم عاد الاستيلاء فيهم.

(أ) في ل ي : الغرب (ب) إلى هنا ينتهي سقط الكراسة الضائعة من نسخة ع. ومنها نستأنف اعتماد المقابلة (ج) كذا في ع ل، وفي ظ ي بإهمال الياء وإعجام التاء ، وفي ج بإهمال الحرفين

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة، في غير أغياص الملك من قومه، كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس، وملوك العجم بالمشرق، وفي ملك صنهاجة بإفريقية؛ فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثائر مستقيل بأمره كما تذكره⁽¹⁾. وكذا حال الجريد والزاب من إفريقية قبيل هذا العهد كما تذكره أيضاً.

5

وهكذا شأن كل دولة، لا بد وأن يغرض فيها عوارض الهزم، بالتزرف والدعة وتقلص ظل الغلب، فيقتسم أغياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر، وتتعدد فيها الدول. والله وارث الأرض ومن عليها.

46 • فصل، في أن الهزم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

- 10 قد قدّمنا ذكر عوارض المؤذنة بالهزم وأسبابه واحداً بعد واحد، وبيّنا أنها تحدث للدولة بالطبع، وأنها كلها أمور طبيعية لها. وإذا كان الهزم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية، كما يحدث الهزم في المزاج الحيواني. والهزم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها؛ لما أنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تبدل. وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في [200ب] السياسة، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهزم وأسبابه ويحسبه ممكناً الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن^(ب) ذلك الهزم، ويظن أنه

15

(1) في ي: تقدم ذكره (ب) ل: من .

لَحِقَهَا بِتَقْصِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ أَوْ غَفَلَتِهِمْ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ
لِلدَّوْلَةِ، وَالْعَوَائِدُ هِيَ الْمَانِعَةُ لَهُ ^(أ) مِنْ تَلَاْفِيهَا. وَالْعَوَائِدُ تَنْزَلُ مَنْزِلَةَ طَبِيعِيَّةٍ أُخْرَى؛
فَإِنَّ مِنْ أَذْرِكٍ مَثَلًا أَبَاهُ وَكُبْرَاءَ أَهْلِ بَيْتِهِ يَلْبَسُونَ الْحَرِيرَ وَالذِّيْبَاجَ، وَيَتَحَلَّلُونَ
بِالذَّهَبِ فِي السَّلَاحِ وَالْمَرَائِبِ، وَيَحْتَجِبُونَ عَنِ النَّاسِ فِي الْمَجَالِسِ وَالصَّلَوَاتِ، فَلَا
5 تُمْكِنُهُ مُخَالَفَةُ سَلَفِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْخُشُونَةِ فِي اللَّبَاسِ وَالزِّيِّ وَالِاخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ؛ إِذِ
الْعَوَائِدُ حِينَئِذٍ تَمْنَعُهُ وَتَقْبَحُ عَلَيْهِ مُرْتَكَبُهُ. وَلَوْ فَعَلَهُ لُرِمِيَ بِالْجُنُونِ وَالْوَسْوَاسِ فِي
الْخُرُوجِ عَنِ الْعَوَائِدِ دَفْعَةً، وَخُشِيَ عَلَيْهِ عَائِدَةُ ذَلِكَ وَعَاقِبَتُهُ فِي سُلْطَانِهِ. وَانْظُرْ
شَأْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي إِنْكَارِ الْعَوَائِدِ وَمُخَالَفَتِهَا، لَوْلَا التَّائِيدُ الْإِلَهِيُّ وَالتَّصَرُّ السَّمَاوِيُّ. وَرُبَّمَا
تَكُونُ الْعَصِيَّةُ قَدْ ذَهَبَتْ فَتَكُونُ الْأُيُتَةُ تَعَوُّضٌ عَنْ مَوْقِعِهَا فِي ^(ب) التَّفْسُوسِ. فَإِذَا
10 أُزِيلَتْ تِلْكَ الْأُيُتَةُ مَعَ ضَعْفِ الْعَصِيَّةِ تَجَاسَرَتْ الرِّعَايَا عَلَى الدَّوْلَةِ بِدَوَامِ ^(ج) أَوْهَامِ
الْأُيُتَةِ. فَتَتَدَرَّعُ الدَّوْلَةُ بِتِلْكَ الْأُيُتَةِ مَا أَمَكْنَهَا حَتَّى يَنْقُضِيَ الْأَمْرُ.

وَرُبَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ آخِرِ الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ تَوْهَمُ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ اِزْتَفَعَ عَنْهَا، وَيَوْمِضُ
دُبَالُهَا إِيْمَاضَةً [الْحُمُودُ، كَمَا يَقَعُ فِي الدُّبَالِ الْمُشْتَعِلِ، فَإِنَّهُ عِنْدَ مُقَارَبَةِ انْطِفَائِهِ يَوْمِضُ
إِيْمَاضَةً] ^(د) تَوْهَمُ أَنَّهَا اشْتَعَلَتْ، وَهِيَ انْطِفَاءٌ. فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ، وَلَا تَغْفُلْ سِرَّ اللَّهِ وَحِكْمَتَهُ
15 فِي أَطْرَادِ وُجُودِهِ عَلَى مَا قُدِّرَ فِيهِ. [و] ^(هـ) ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [سُورَةُ الرَّعْدِ،
مِنْ الْآيَةِ 38].

(أ) ظ : لها (ب) ل ع ي ج : من (ج) ل ي : يذهب (د) من : ع ل ج ي ، وسقط من ظ (هـ) من ي ل ، وفي
ظ ع ج : فلكل .

47 • فصل، في كيفية طُروق الخلل للدول

اغْلَمْ أَنَّ مَبْنَى الْمُلْكِ عَلَى أُسَاسَيْنِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا. فَالْأَوَّلُ، الشُّوْكَةُ وَالْعَصِيَّةُ،
[201] وَهُوَ الْمُعْتَبَرُ عَنْهُ بِالْجُنْدِ. / وَالثَّانِي، الْمَالُ الَّذِي هُوَ قِوَامُ أَوْلَئِكَ الْجُنْدِ وَإِقَامَةُ مَا يَخْتِاجُ
إِلَيْهِ الْمُلْكُ مِنَ الْأَحْوَالِ.

5 وَالْخَلَلُ إِذَا طَرَقَ الدَّوْلَةُ طَرَقَهَا فِي هَذَيْنِ الْأَسَاسَيْنِ. فَلْتَذْكُرْ أَوَّلًا طُرُوقَ
الْخَلَلِ فِي الشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةِ؛ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى طُرُوقِهِ فِي الْمَالِ وَالْجَبَايَةِ.

1- وَاعْلَمْ أَنَّ تَمْهِيدَ الدَّوْلَةِ وَتَأْسِيسَهَا، كَمَا قُلْنَا، إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ، وَأَنَّهُ
لَا بُدَّ مِنْ عَصِيَّةٍ كُبْرَى جَامِعَةٍ لِلْعَصَائِبِ، مُسْتَتَبِعَةٌ لَهَا، وَهِيَ عَصِيَّةُ صَاحِبِ
الدَّوْلَةِ الْخَاصَّةُ بِهِ مِنْ عَشِيرِهِ وَقَبِيلِهِ. فَإِذَا جَاءَتْ الدَّوْلَةُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ مِنَ التَّرَفِّ
10 وَجَذَعِ أَنْوَفِ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ، كَانَ أَوَّلُ مَا يَجْدَعُ أَنْوَفَ عَشِيرِهِ وَذَوِي قُرْبَاهِ الْمُقَاسِمِينَ
لَهُ فِي اسْمِ الْمُلْكِ. فَيَسْتَشْدُّ فِي جَذَعِ أَنْوَفِهِمْ بِأَبْلَغٍ مِنْ سِوَاهُمْ. وَيَأْخُذُهُمُ التَّرَفُّ أَيْضًا
أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهُمْ، لِمَكَانِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ وَالْعِزِّ وَالْعَلْبِ. فَيُحِيطُ بِهِمْ هَادِمَانِ، وَهُمَا:
التَّرَفُّ وَالْقَهْرُ. ثُمَّ يَصِيرُ الْقَهْرُ آخِرًا إِلَى الْقَتْلِ، لَمَّا يَحْصُلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ
رُسُوحِ الْمُلْكِ لِمُصَاحِبِ الْأَمْرِ، فَتَنْقَلِبُ غَيْرَتُهُ مِنْهُمْ إِلَى الْخَوْفِ عَلَى مُلْكِهِ، فَيَأْخُذُهُمْ
15 بِالْقَتْلِ وَالْإِهَانَةِ وَسَلْبِ النِّعْمَةِ وَالتَّرَفِّ الَّذِي تَعَوَّدُوا الْكَثِيرَ مِنْهُ، فَيَهْلِكُونَ وَيَقْلُونَ
وَتَقْسُدُ عَصِيَّةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ مِنْهُمْ، وَهِيَ الْعَصِيَّةُ الْكُبْرَى الَّتِي كَانَ يَجْمَعُ بِهَا
الْعَصَائِبَ وَيَسْتَتَبِعُهَا، فَتَنْحَلُّ عُزْوَتُهَا، وَتَضَعُفُ شَكِيمَتُهَا، وَيَسْتَبْدِلُ مِنْهَا بِالْبِطَانَةِ
مِنْ مَوَالِي النِّعْمَةِ وَصَنَائِعِ الْإِحْسَانِ، وَيَتَّخِذُ مِنْهُمْ عَصِيَّةً. إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ مِثْلَ تِلْكَ

في شِدَّة الشَّكْمَةِ ، لِفَقْدَانِ الرَّجْمِ [وَالْقَرَابَةِ مِنْهَا] ^(١) . وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا ، أَنَّ شَأْنَ
 الْعَصِيَّةِ وَقُوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِالْقَرَابَةِ وَالرَّجْمِ ، لَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ . فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ
 الدَّوْلَةِ عَنِ الْعَشِيرِ وَالْأَنْصَارِ أَهْلِ ^(ب) الثَّغْرِ ^(ب) الطَّبِيعِيَّةِ ، وَيَحْسُ بِذَلِكَ أَهْلُ
 الْعَصَائِبِ الْآخَرَى ، فَيَتَجَاسَرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بَطَانَتِهِ تَجَاسُرًا طَبِيعِيًّا ، فَيُهْلِكُهُمْ صَاحِبُ
 5 الدَّوْلَةِ ، وَيَتَّبَعُهُمْ بِالْقَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ . وَيُقَلَّدُ الْآخِرُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ / فِي ذَلِكَ [201ب]
 الْأَوَّلُ ؛ مَعَ مَا يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مَهْلَكَةِ التَّرَفِ الَّذِي قَدَّمْنَا . فَيَسْتَوِلِي عَلَيْهِمُ
 الْهَلَاكُ بِالتَّرَفِ وَالْقَتْلِ ، حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِبْغَةِ تِلْكَ الْعَصِيَّةِ ، وَيَنْسُوا نُفْرَتَهَا
 وَسَوْرَتَهَا وَيَصِيرُوا أَجْرَاءَ عَلَى الْحِمَايَةِ ، وَيَقْلُونَ لَذَلِكَ ، فَتَقِلُّ الْحَامِيَّةُ الَّتِي تَنْزِلُ
 بِالْأَطْرَافِ وَالثُّغُورِ ؛ فَيَتَجَاسَرُ الرِّعَايَا عَلَى نَقْضِ الدَّعْوَةِ فِي الْأَطْرَافِ ، وَتَبَادِرُ الْخَوَارِجُ
 10 عَلَى الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَغْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى تِلْكَ الْأَطْرَافِ ، لَمَا يَرْجُونَ حِينَئِذٍ مِنْ حُصُولِ
 غَرْضِهِمْ بِمُتَابَعَةِ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ لَهُمْ ، وَأَمْنِهِمْ مِنْ وُصُولِ الْحَامِيَةِ إِلَيْهِمْ . وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ
 يَتَدَرَّجُ ، وَنِطَاقُ الدَّوْلَةِ يَتَضَايِقُ ، حَتَّى تَصِيرَ الْخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ الْأَمَاكِنِ إِلَى مَرْكَزِ
 الدَّوْلَةِ . وَرُبَّمَا انْقَسَمَتِ الدَّوْلَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدَرِ قُوَّتِهَا فِي الْأَضْلَ
 كَمَا قُلْنَا ، وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْلِ عَصِيَّتِهَا ، لَكِنْ إِذْعَانًا لِأَهْلِ عَصِيَّتِهَا وَلِغَلَبِهِمْ
 15 الْمَغْهُودِ .

وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي دَوْلَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ ، انْتَهَتْ أَوَّلًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَالْهِنْدِ
 وَالصِّينِ . وَكَانَ أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ نَافِذًا فِي جَمِيعِ الْعَرَبِ بِعَصِيَّةِ عَبْدِ مَنَافٍ ، حَتَّى لَقِيَ
 أَمْرَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ دِمَشْقَ بِقَتْلِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ بِقَرْطَبَةِ ،

(١) سَطَطَ مِنْ ظ (ب) سَطَطَ مِنْ ي .

فَقُتِلَ ولم يَرِدْ أمره. ثم تلاشت عَصِيَّةُ بَنِي أُمَيَّةَ بما أصابهم من الترف، فانقرضوا. وجاء بنو العباس فغَضُّوا من أَعْتَةِ بَنِي هَاشِمٍ، وقتلوا الطَّالِبِيْنَ وشرَدوهم، فانحَلَّتْ عَصِيَّةُ عَبْد⁽¹⁾ مَنَافٍ وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم، فاستبدَّ عليهم أهلُ القاصِيَةِ، مثلُ بَنِي الأَغْلَبِ بإفريقيَّة، وأهلُ الأَنْدَلُسِ، وغيرهم، وانقسمت الدَّوْلَةُ. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب، وقام البربرُ بأمرهم إذعانا للعصِيَّةِ الَّتِي لهم، وأمنا أن تصلهم مُقاتِلَةٌ 5 أو حاميةٌ للدَّوْلَةِ.

فإذا خرج الدَّعَاةُ آخَرًا فَيَتَغَلَّبُونَ على الأطراف والقاصِيَةِ، ويحصل لهم هُنَالِكَ / دعوةٌ ومُلْكٌ تنقسم به الدَّوْلَةُ. ورُبَّما يزيدُ ذلك متى زادتِ الدَّوْلَةُ تَقَلُّصًا، [i202] إلى أن تنتهي إلى المركز، وتضعُفُ البطانةُ بعد ذلك بما أخذ منها الترف، فتَهْلِكُ وتضمحلُّ، وتضعُفُ الدَّوْلَةُ المنقسِمةُ كُلُّهَا. 10

وربَّما طالَ أمدها بعد ذلك، فتستغني عن العَصِيَّةِ بما حصل لها من الصُّبْغَةِ في نفوس أهلِ إِيالَتِها، وهي صِبْغَةُ الانقياد والتَّسليم مُنذ السنين الطَّوِيلَةِ الَّتِي لا يغفل أحدٌ من الأجيال مبدأها ولا أوليَّتها، فلا يغفلون إلَّا التَّسليم لصاحبِ الدَّوْلَةِ، فيستغني بذلك عن قُوَّةِ العَصَائِبِ، ويكفي صاحبها في تمهيد أمرها الأجراء على الحِماية من جُنْدِيٍّ ومُرْتزِقٍ، ويعضدُ ذلك ما وقر في النفوس عامَّةٌ من عَقيدة 15 التَّسليم؛ فلا يكادُ أحدٌ أن يتصوَّرَ عِصْيَانًا أو خُرُوجًا إلَّا والجُمهورُ مُنكرون عليه مُخالفون له؛ فلا يقدرُ على التَّصَدِّي لذلك ولو جمَّه جُهدُه. ورُبَّما كانت الدَّوْلَةُ في هذا الحال أسلمَ من الخوارج والمنازعة لاستحكام صِبْغَةِ التَّسليم والانقياد لهم. فلا

(i) ل : بني عبد مناف .

تكادُ القفوسُ تحدّثُ سرّها بمخالفة، ولا يَخْتَلِجُ في ضميرها انحرافٌ عن الطاعة، فيكونُ أسلمُ من الهزج والانتقاض الذي يحدّثُ بالعصائب والعشائر. ثم لا يزالُ أمرُ الدّولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها، شأنُ الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء، إلى أن تنتهي إلى وقتها [المقدور]⁽¹⁾. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [سورة الرعد، من الآية 38] ؛ ولكلّ دّولة أمد. والله مُقدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .

2- وأما الخللُ الذي يطرقُ من جهة المال، فاغْلَمْ أَنَّ الدّولةَ في أولها تكون بدويّةً كما مرّ، فيكونُ لها خُلُقُ الرّفق بالرعايا، والقصدُ في النفقات، والتعقّف عن الأموال، فتتجافى عن الإمعان في الجباية والتحدّق والكيس في جمع المال وحُسبان القُتال، ولا داعية حينئذٍ إلى الإسراف في النفقة، فلا تحتاجُ الدّولةُ إلى كثير المال. ثم يحصلُ الاستيلاء ويَعْظُم، وَيَسْتَفْجِلُ / المُلْكُ فيدعو إلى التّرف، ويكثرُ الإنفاق [202ب] بسببه، فتعْظُمُ نفقاتُ السُّلطانِ وأهلِ الدّولة على العموم، بل يتعدّى ذلك إلى أهلِ المِصر، ويدعو ذلك إلى الزيادة في أعطيات الجُند وأزراق أهلِ الدّولة. [ثم يَعْظُمُ التّرف]^(ب) فيكثرُ الإسراف في النفقات، ويتنَشِرُ ذلك في الرّعيّة، لأنّ الناس على دينِ الدّولة وعوائدها. ويحتاجُ السُّلطانُ إلى صُزبِ المكوس على أثان البياعات في الأسواق لإضرار الجباية، لما يراه من ترفِ المدينة الشّاهد عليهم بالرّفه، ولما يحتاج هو إليه من نفقات سُلطانه وأزراق جُنده. ثم تزيّدُ عوائدُ التّرف فلا تقي بها المكوس، وتكونُ الدّولةُ قد استنفَخت في الاستِطالة والقهر لمن تحثُ يديها من الرعايا ، فتمتدُّ أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا ، من مكس أو تجارة أو تعدّد

(1) سقط من ظ (ب) من : ل ي .

في بَغْضِ الْأَحْوَالِ بِشُبْهَةٍ أَوْ بَغَيْرِ شُبْهَةٍ. وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذَلِكَ الطَّوَرِ قَدْ تَجَاسَرُوا
 عَلَى الدَّوْلَةِ، بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفَشْلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصِيَّةِ، فَيَتَوَقَّعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَيُدَاوِي
 تَسْكِينَهُ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ، وَلَا يَجِدُ عَنْ ذَلِكَ وَلِيَجَّةً. وَيَكُونُ جُبَاةَ
 الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ قَدْ عَظُمَتْ ثَرَوَتُهُمْ فِي هَذَا الطَّوَرِ بِكَثْرَةِ الْجُبَايَةِ، وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ،
 وَمَا اتَّسَعَ لَذَلِكَ مِنْ جَاهِهِمْ، فَتَتَوَجَّهَ التَّهْمُ إِلَيْهِمْ بِاخْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجُبَايَةِ، وَتُقْشَوُ
 السَّعَايَةُ فِيهِمْ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ^(أ)، فَتُعْمَتُّهُمُ النَّكَبَاتُ وَالْمُضَادَرَاتُ
 وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنْ تَذْهَبَ ثَرَوَتُهُمْ، وَتَتَلَاشَى أَحْوَالُهُمْ، وَيُقَفَّدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنْ
 الْأَيَّامَةِ وَالْجَمَالِ بِهِمْ. وَإِذَا اضْطَلِمَتْ بَعْمُهُمْ^(ب)، تَجَاوَزَتْهُمُ الدَّوْلَةُ إِلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنْ
 الرِّعَايَا سِوَاهُمْ. وَيَكُونُ الْوَهْنُ فِي هَذَا الطَّوَرِ قَدْ لَحِقَ الشُّوْكَةَ وَضَعُفَتْ عَنْ
 [203] الْإِسْطِطَالَةِ وَالْقَهْرِ، فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ / حِينَئِذٍ إِلَى مُدَارَاةِ^(ج) الْأُمُورِ
 بِتَذُلِّ الْمَالِ، وَيَرَاهُ أَنْفَعُ مِنَ السَّيْفِ لِقَلَّةِ غَنَائِهِ؛ فَتُعْظَمُ حَاجَتُهُ إِلَى الْأَمْوَالِ، زِيَادَةً
 عَلَى التَّفَقَّاتِ وَأَزْزَاقِ الْجُنْدِ، وَلَا تُغْنِي فِيهَا يَرِيدٌ، وَيُعْظَمُ الْهَرَمُ بِالدَّوْلَةِ، وَيَتَجَاسَرُ
 عَلَيْهَا أَهْلُ التَّوَاخِي، وَالِدُّوْلُ تَنْحَلَّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوَرٍ مِنْ هَذِهِ، إِلَى أَنْ تُقْضِيَ إِلَى
 الْهَلَاكِ، وَتَتَعَرَّضَ لَاسْتِيلَاءِ الطُّلَّابِ. فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ انْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْقَائِمِينَ
 بِهَا، وَالْأَبْقِيَتْ وَهِيَ تَتَلَاشَى إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السَّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زِينَتُهُ
 وَطُفِيَءَ. وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ^(د).

(أ) ي: الحقد (ب) ج: نعمتهم (ج): مُدَاوَاة (د) سقط من نسخة ي بعد هذا، الفصلان التاليان: 48 - فصل في
 حدوث الدول وتجددها كيف يقع، و 49 - فصل في أن الدولة المستجدة إنما تشتوي على الدولة المستقرة بالمطابقة لا بالمناخزة.
 وارتبط آخر هذا النص مباشرة بفصل: وفور العمران أواخر الدول، وما تقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات.

48 • فصلٌ، في حدوثِ الدُّولِ وتجدُّدها كيفَ يقعُ

اعْلَمْ أَنَّ نَشْأَةَ [الدُّولِ] ^(أ) وبدايتها إذا أخذت الدولةُ المُستَقِرَّةُ في الهَرَمِ
والانْتِقاظِ، يكون على نوعين :

- إمَّا بَأَن يَسْتَبْدَّ وُلَاةُ الْأَعْمَالِ فِي الدَّوْلَةِ بِالْقَاصِيَةِ عِنْدَمَا يَتَقَلَّصُ ظِلُّهَا عَنْهُمْ،
5 فيكون لكل واحدٍ منهم دَوْلَةٌ يَسْتَجِدُّهَا لِقَوْمِهِ وَمُلْكٌ يَسْتَقِرُّ فِي نِصَابِهِ، وَيَرِثُهُ عَنْهُ
أَبْنَاؤُهُ أَوْ مَوَالِيهِ، وَيَسْتَفْحِلُ ^(ب) لَهُمُ الْمُلْكُ بِالتَّدرِجِ، وَرَبَّمَا يَزْدَحِمُونَ عَلَى ذَلِكَ الْمُلْكِ
وَيَتَنَازَعُونَ عَلَيْهِ، وَيَتَنَازَعُونَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ بِهِ، وَيَغْلِبُ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ فَضْلُ قُوَّةٍ
عَلَى صَاحِبِهِ، [وَيَتَنَزَعُ] ^(ج) مَا فِي يَدِهِ؛ كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ حِينَ أَخَذَتْ
دَوْلَتُهُمْ ^(د) فِي الْهَرَمِ، وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ الْقَاصِيِ، فَاسْتَبَدَّ بَنُو سَامَانَ بِمَا وَرَاءَ النَّهْرِ،
10 وَبَنُو خَمْدَانَ بِالْمَوْصِلِ وَالشَّامِ، وَبَنُو طُولُونَ بِمِصْرَ. وَكَمَا وَقَعَ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ
بِالْأَنْدَلُسِ، وَافْتَرَقَ مُلْكُهَا فِي الطَّوَائِفِ الَّذِينَ كَانُوا وُلَاتِهَا فِي الْأَعْمَالِ، وَانْقَسَمَتْ ^(هـ)
دَوْلًا وَمُلُوكًا أَوْرَثُوهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِمْ أَوْ ^(و) مَوَالِيهِمْ. وَهَذَا التَّنَوُّعُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ حَزْبٌ، لِأَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ فِي رِئَاسَتِهِمْ [وَمُلْكِهِمْ] ^(ز)، * وَلَا
يَظْمَعُونَ فِي الْاِسْتِيلَاءِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ؛ / وَإِنَّمَا الدَّوْلَةُ أَذْرَكَهَا الْهَرَمُ فَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا
15 عَنِ الْقَاصِيَةِ، وَعَجَزَتْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا * ^(ح).

(أ) ظ: الدولة (ب) ل: ويحدث (ج) ظ: وينزع (د) سقط من ل (هـ) ل: صارت (و) ل: و (ز) من ل، ويقعده:
"وإنما الدولة المستقرة عجزت عنهم وتقلص ظلها". وهذا المعنى مكرر في النص، فلم تثبت في المتن (ح) سقط ما بين التجميع
من ل.

والنوع الثاني ، بأن يخرج على الدولة المستقرة^(ا) خارج ممن يجاورها من الأمم والقبائل^(ب) ، إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه ، أو بأن يكون صاحب^(ج) شوكة وعصبية ، كبيراً في قومه ، قد^(د) استفحل^(هـ) أمره فيهم فيسئموهم إلى الملك^(و) ، وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاغترار على الدولة المستقرة ، وما نزل بها من الهرم؛ فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ، ويأرسلونها 5 بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويرثون أمرها كما تبين بعد. [كما وقع للسلاجوقية مع بني سبكتكين ، ولبنى مرين بالمغرب مع الموحدين؛ والله غالب على أمره]^(ز).

49 • فصل ، في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطالبة لا بالمناجزة

وقد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة^(ح) نوعان:

نوع من ولاية^(ط) الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها ، وهؤلاء لا تقع منهم^(ي) مطالبة للدولة في الأكثر كما^(ك) قدمناه^(ل) ، لأن قصاراهم القنوع بما في أيديهم ، وهو^(ل) نهاية قوتهم .

(ا) سقط من ع (ب) سقط من ل (ج) في ل: "كبير قوم أولي شوكة وعصبية، يستفحل أمره فيهم". والمعنى موجود في النص المنبث في المتن، وهو نص ط ع ج (د) سقط من ل (هـ) ل: يستفحل (و) توجد هنا زيادة في نسخة ل، خُزرت في ع ج ط بأسلوب أوضح، ويبدو أن ناسخها نقلها من نسخة أخرى غير ع، والزيادة هي: [عندما يرى هزم الدولة المستقرة، ويتمين هو أو قومه للاستيلاء عليها]. وبه ينتهي الفصل (ز) إلى هنا ينتهي هذا الفصل في نسختي ط ع ، وقد خُرج المؤلف بخطه في نسخة ع مُخرجاً شطب فيه جملة [كما تبين بعد] وذكر ما أثبتناه بعدها محصوراً. وقد أدرجته نسخة ج في مثبها (ح) سقط من ل (ط) ل: عمال (ي) ل: لهم (ك) سقط من ل (ل) ل: وهي .

والتنوع الثاني ، نوع الدعاة والخوارج على الدولة ، وهؤلاء لا بد لهم من
 * (١) المطالبة ، لأن (ب) قوتهم وافية بها ، (ج) فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له
 من (١) العصبية والاعتزاز ما هو كفاء ذلك وواف به (ج) . فتقع بينهم وبين الدولة
 المستقرة حروب سجال ، تتكرر وتتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر (د)
 5 بالمطاولة غالباً (هـ) . ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة . والسبب في ذلك أن
 الظفر في الحروب إنما يقع في (و) الأكثر (و) كما قدمناه بأمر نفسانية وهمية ، وإن
 كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلاً به ، لكنه قاصر مع تلك الأمور الوهمية كما
 مر ؛ ولذلك كان الجداغ من أنفع ما يستعمل في الحزب ، وأكثر ما يقع الظفر به ؛
 وفي الحديث : " الحرب خدعة " (١) .

10 والدولة المستقرة قد / صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورية واجبة ، كما
 تقدم في غير موضع ، فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ، ويكسر من
 هم أتباعه وأهل شوكره ؛ وإن كان الأقربون (ز) من بطائنه على بصيرة في طاعته
 ومؤازرته ، إلا أن الآخرين أكثر (ح) ، وقد داخلهم الفشل والكسل بتلك العقائد * في
 التسليم للدولة المستقرة (ط) ، فيحصل بعض الفتور منهم (ط) ، ولا يكاد صاحب
 15 الدولة المستجدة لذلك يقاوم صاحب (ط) الدولة المستقرة . فيرجع إلى الصبر

(١) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ل : و (ج) سقط ما بين النجمين من ل (د) سقط من ل (هـ) سقط من ج ع
 (و) ج : غالباً (ز) ل : أهل بطائنه (ح) ع : وهم الأكثر ، قد (ط) سقط من ل .

(١) تقدم تخريجه في صفحة 476 .

والمطاولة، حتى يتضح^(ا) هزم الدولة المستقرة، فتضمحل^(ب) عقائد التسليم لها^(ب) من قومه، وتنبعث^(ج) منهم الهمم لصديق^(ج) المطالبة معه، فيقع الظفر والاستيلاء^(د).

وأيضاً، فالدولة المستقرة كثيرة الترف بما استحكّم لهم من الملك، [وتسوغه]^(هـ) [من النعم واللذات، واخضعوا به دون غيرهم من أموال الجباية]^(و)،⁵ فيكثر عندهم ارتباط الخيول، واستجادة الأسلحة، وتعظم^(ز) فيهم الأبهة الملكية، ويفيض^(ح) العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراراً، فيزهبون بذلك كله غدوهم*^(ط). وأهل الدولة المستجدة بمغزل عن ذلك؛ لما هم فيه من البداوة وأحوال^(ي) الفقر والخصاصة [التي يفقد معها الاستعداد من ذلك]^(ك)، فتسبى إلى قلوبهم أوهام الرغب بما يبلغهم عن^(ل) أحوال الدولة المستقرة^(م) [وكثرة استعدادها]^(ن)،¹⁰ ويجمعون عن قتالهم من أجل ذلك، فيضطّر^(س) أميرهم^(س) إلى المطاولة حتى تأخذ الدولة المستقرة مأخذها من الهرم، ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية، فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة. سنة الله في عباده.

(ا) ل: يتبين (ب) ل: تلك العقائد (ج) ل: وشقوى همهم على صدق المطالبة (د) سقط من ل (هـ) من ع ج ، وفي ظ: وتسوغه (و) من ع ج ، وسقط من ظ ل (ز) ل: وعظم الأبهة (ح) ل: وفيض (ط) سقط ما بين النجمن من ل (ي) البداوة الكثيلة بالفقر (ك) من ع ج ، وسقط من ظ ل (ل) ل: من (م) تصوغ نسخة ل بقية هذه الفقرة منفردة بذلك، على النحو التالي: [ويلحق همهم الفشل من أجل ذلك، فيفعل صاحب الدولة المستجدة عن المناجزة ، ويضطّر إلى المطاولة ، حتى يأخذ الهرم مأخذاً من الدولة المستقرة ، ويحيط الخلل بها من جميع جوانبها ، فيقع الاستيلاء عليها . سنة الله في خلقه وعباده] (ن) من ع ج ، وسقط من ظ ل (س) سقط من ل .

وأيضاً^(أ)، فأهل الدولة المستجدة كلهم مُباينون لأهل الدولة المستقرة
بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم، ثم منافرون لهم ومُنايدون بما وقع من هذه
المطالبة، وبطمعهم في / الاستيلاء عليهم، فتتمكّن المباعدة بين أهل الدولتين سراً
وتجسراً، ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبرٌ عن أهل الدولة المستقرة يُصيبون
منه غيرة^(ب) باطنياً ولا ظاهراً، لا تقطع المداخلة [والمواصلّة]^(ج) بين الدولتين،
فيقيمون على المطالبة وهم [معها]^(د) في إحجام ونكولٍ عن المناجزة، حتّى إذا تأذن
الله بزوال الدولة المستقرة، ونفاد عمرها، ووفور الخلل في جميع جهاتها، واتّضح
لأهل الدولة المستجدة مع الأيام ما كان يخفى عنهم من هزمها وتلاشيها، وقد
عظمت قوّتهم بما افتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها، فتنبعث همهم يداً
واحدةً للمناجزة، ويذهب ما كان يفتّ في عزائمهم من التوهّمات، وتنتهي المطاولة
إلى حدّها، ويتّبع الاستيلاء آخرها بالمناجزة .

واغتبر ذلك في دولة بني العباس عند ظهورها [وبدايتها]^(هـ)، كيف أقام
الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة، واجتماعهم على المطالبة عشر سنين أو تزيد^(و).
وحينئذ تمّ لهم الظفر واستولوا^(ز) على الدولة الأموية.

(أ) جاءت هذه الفقرة في "ل" مغايرة في سياقها لبقية النسخ، حسبما يلي: [وأيضاً فإن هذه الدولة المستجدة كلهم مُباينون لأهل
الدولة المستقرة بجميع أحوالهم وعوائدهم وأنسابهم ومساير اغتباراتهم، ثم منافرون لهم بحدوث هذه المطالبة ومُنايدون، فلا يطلعون
من أهل هذه الدولة على شيء، ولا يصل إليهم خبرٌ من أخبارها يُصيبون به غيرةٌ منها، لا تقطع أسباب المداخلة بينها، فيمكنون
السنين الغديّة في مطالبتها وهم في إحجام ونكولٍ عنها سائر أوقاتهم، حتّى يتأذن الله بزوال الدولة المستقرة ونفاد عمرها، فيظهر ما
كان مستورا عن أهل الدولة المستجدة من هزمها وتلاشيها، وتنبعث همهم جميعاً للمناجزة، ويذهب ما كان يفتّ في عزائمهم من
التوهّمات ويقع الاستيلاء [ل / 204 أ] . وهذا النصّ وبعض ما يردّ من بقية هذا الفصل، يظهر أن ابن خلدون حرّره مجملاً على
الصورة التي حفظت في نسخة "ل" وحدها، ثم أعاد النظر فيه وعدّل جملة ومدّدها وحذف بعض عباراته. (ب) ع : غيرة فيهم
(ج) من ع ج (د) سقط من ظ (هـ) من ع مقحمة بخطه (و) ل : أزيد (ز) ل : وحصل الاستيلاء .

وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم، كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية. ثم لما انقضى أمر العلوية وسما الديلم إلى ملك فارس والعراقيين، فكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا أصفهان وفارس، ثم استولوا على الخليفة ببغداد.

- 5 وكذا الغنيديون، أقام داعيتهم بالمغرب أبو عبد الله الشيعي بين كرامة من قبائل البربر عشر سنين وتزيد، يطاول بتي الأغلب بإفريقية حتى ظفر بهم، واستولوا على المغرب كله. وسموا إلى ملك مصر؛ فكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها، يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت، ويحيي المدد لمداقتهم برا وبحرا من بغداد والشام؛ وملكوا الإسكندرية والقيوم والصعيد، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز، وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم / جوهز الكاتب بعساكره مدينة مصر 10 واستولى عليها، واقتلع دولة بتي طنج من أصولها، واختط القاهرة، فجاء خليفته معذ، المعز لدين الله، فنزلها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية. وكذا السلجوقية ملوك الترك، لما استولوا على بتي سامان وأجازوا من وراء النهر، مكثوا نحوًا من ثلاثين سنة يطاولون ابن سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته؛ ثم رحفوا إلى بغداد، فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر. 15 وكذا الظطر من بعدهم، خرجوا من المفازة أعوام سبع عشرة وستمائة، فلم يتم لهم الاستيلاء [على العراقيين إلا بعد حين من الدهر في ثلاثين سنة أو نحوها، وما استولوا على بغداد⁽¹⁾ إلا بعد أربعين سنة .

(1) من ل وحدها، وفي الأصول الأخرى: فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة .

وكذا أهل المغرب، خَرَجَ به المرابطون من لَمْتُونَة على مُلوكه من مَغْرَاوَة،
فَطَاوَلُوهم سِنين حَتَّى اسْتَوَلُوا عَلَیْهم. ثُمَّ خَرَجَ المُوَحِّدون بِدَعْوَتِهِم على لَمْتُونَة فَمَكثُوا
نَحْوًا من ثَلَاثين ^(أ) سَنَة يُحَارِبُونَهُمْ ^(ب) حَتَّى اسْتَوَلُوا على كُرْسِيِّهِم بِمَرَاكُش.

وكذا بنو مَرين من زَنَاتَة، خَرَجُوا على المُوَحِّدين، فَمَكثُوا يُطَاوِلُونَهُمْ ^(ج) نَحْوًا
5 من ثَلَاثين سَنَة، واسْتَوَلُوا على فَاس واقتطعوها وأَغْمَالَهَا من مُلْكِهِم؛ ثُمَّ أَقَامُوا في
مُحَارِبَتِهِم ثَلَاثين أُخْرَى حَتَّى اسْتَوَلُوا على كُرْسِيِّهِم بِمَرَاكُش. حَسْبَمَا ذَلِكَ كُلُّهُ
مَذْكُورٌ في تَوَارِيخِ هَذِهِ الدُّوَل.

فَهَكَذَا حَالُ الدُّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ الْمُسْتَقَرَّةِ في الْمَطَالِبَةِ وَالْمُطَاوَلَةِ. سُنَّةُ اللَّهِ في
عِبَادَتِهِ؛ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب ، من الآية 62] .

10 وَلَا يُعْتَرَضُ ^(د) ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ مِنَ الْفُتُوحَاتِ في الدَّوْلَةِ ^(هـ) الْإِسْلَامِيَّةِ، وَكَيْفَ
كَانَ الْاسْتِيلَاءُ على فَارِسَ وَالرُّومَ لثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ [مِنْ غَيْرِ
مُطَاوَلَةٍ] ^(و)؛ وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجَزَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا ﷺ؛ سِرُّهَا
اسْتِمَاتَةُ الْمُسْلِمِينَ في جِهَادِ عَدُوِّهِمْ اسْتِبْصَارًا بِالْإِيمَانِ، وَمَا أَوْقَعَ اللَّهُ في قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ
[كِفَاءَ ذَلِكَ] ^(ح) مِنَ الرُّعْبِ وَالتَّخَاذُلِ / فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ خَارِقًا لِلْعَادَةِ [الْمَعْلُومَةِ] ^(ط) في
15 مُطَاوَلَةِ الدُّوَلِ الْمُسْتَجِدَّةِ لِلْمُسْتَقَرَّةِ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ خَارِقًا فَهُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا،

(أ) ل : عشرين (ب) ل : يطاولونهم (ج) ل : في مطاولتهم ثلاثين سنة أو نحوها حتى استولوا (د) ط ج ، وفي ع : "ولا
تعترض"، وفي ل : "ولا يقع في نظرك اعتراض". ومن هنا إلى بقية الفصل يوجد تباين في الصياغة وإيجاز افردت بها نسخة "ل"
(هـ) ط ، وسقطت من ج ، وشطب من ع (و) من ع ج (ز) ع ج ل : صلوات الله عليه (ح) ع ج ، وفي ط : كفي
(ط) ع ج ، وفي ط : المستقرة .

صلواتُ الله عليه وسلامُه، المتعارفُ ظهورُها في المِلَّةِ الإسلاميَّة. والمعجزاتُ لا تُقاسُ عليها الأمورُ العادية، ولا يُعترضُ بها⁽¹⁾.

50 • فصلٌ، في وفورِ العمرانِ وأخيرِ الدُّولِ، وما يقعُ فيها من كثرةِ الموتانِ والمجاعاتِ

إنَّه قد تقررَ لك فيما سلفَ أنَّ الدُّولَ في أوَّلِ أمرها لا بُدَّ من الرِّفقِ في 5
مَلَكَتِها والاعتِدالِ في إِيالَتِها، إمَّا من الدِّينِ إنْ كانتِ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً، أو من المكارمةِ
والمحاسنةِ الَّتِي تَقْتَضِيها البداوَةُ الطَّبيعيَّةُ للدُّولِ. وإذا كانتِ المَلَكَةُ رَفيقَةً مُحسِنَةً
انْبَسَطَتْ آمالُ الرِّعايا، وانتشَطوا للعُمُرانِ وأسبابه، فتوفَّرَ وكثُرَ التَّناسُلُ. وإذا كان
ذلك كُلُّه بالتدريجِ، فإنَّما يَظْهَرُ أثرُه بعدَ جيلٍ أو جيلَينِ في الأقلِّ. وفي انقضاءِ
الجيلَينِ تُشرفُ الدُّولَةُ على نِهايةِ عُمُرِها الطَّبيعيِّ، فيكونُ حينئذٍ العُمُرانُ في غايَةِ 10
الوفورِ والنِّماءِ.

ولا تَقولَنَّ إنَّه قد مرَّ لك أنَّ أواخرَ الدُّولِ يكونُ فيها الإجحافُ بالرِّعايا
وسوءُ المَلَكَةِ، فذلكَ صَحِيحٌ، ولا يُعارضُ ما قلناه؛ لأنَّ الإجحافَ وإنْ حَدَثَ
حينئذٍ وَقَلَّتِ الجباياتُ، فإنَّما يَظْهَرُ أثرُه في تناقصِ العُمُرانِ بَعْدَ حينٍ، من أَجْلِ
التدريجِ في الأمورِ الطَّبيعيَّةِ. ثمَّ إنَّ المجاعاتِ والموتانِ تَكثرُ عندَ ذلكَ في أواخرِ 15
الدُّولِ؛ والسَّبَبُ فيه:

(1) إلى هنا ينتهي النقص الذي أشرنا إليه في نسخة "ي" انظر صفحة 509.

أَمَّا الْمَجَاعَاتُ^(أ)، فَلْيَقْبِضِ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْفَلَحِ فِي الْأَكْثَرِ، بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي أَوَاخِرِ الدُّوَلِ مِنَ الْغُدْوَانِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْجَبَايَاتِ، [وَفِي الْبَيَاعَاتِ وَالْمَكُوسِ]^(ب)، أَوْ الْفِتَنِ الْوَاقِعَةِ مِنْ^(ج) انْتِقَاضِ الرَّعَايَا وَكَثْرَةِ الْحَوَارِجِ لَهُرَمِ الدَّوْلَةِ، فَيَقْلُ اخْتِكَارُ الزَّرْعِ غَالِبًا؛ وَلَيْسَ صِلَاحُ الزَّرْعِ وَثَرْتُهُ بِمُسْتَمِرِّ الْوُجُودِ، وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَطَبِيعَةُ الْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ [الْأَمْطَارِ]^(د) وَقِلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ، وَالْمَطَرُ يَتَقَوَّى وَيَضْعُفُ، / وَيَقِلُّ [206] وَيَكْثُرُ، وَالزَّرْعُ وَالشَّارُ وَالضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ وَابِقُونَ فِي أَقْوَاتِهِمْ بِالْاِخْتِكَارِ؛ فَإِذَا قُفِدَ الْاِخْتِكَارُ عَظُمَ تَوَقُّعُ النَّاسِ لِلْمَجَاعَاتِ، فَغَلَا الزَّرْعُ، وَعَجَزَ عَنْهُ أُولَوُا الْخِصَاصَةِ فَهَلَكُوا، أَوْ كَانَ بَعْضُ السَّنَوَاتِ، وَالْاِخْتِكَارُ مَفْقُودًا، فَشَمِلَ النَّاسَ الْجُوعُ.

وَأَمَّا كَثْرَةُ الْمَوْتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ الْمَجَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، أَوْ كَثْرَةِ الْفِتَنِ 10 لَاخْتِلَالِ الدُّوَلِ فَيَكْثُرُ الْهَرَجُ وَالْقَتْلُ؛ أَوْ وَقُوعُ الْوَبَاءِ، وَسَبَبُهُ فِي الْغَالِبِ فِسَادُ الْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ الْعُفْرِانِ، لَكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ الْعَفْنِ وَالرُّطُوبَاتِ الْفَاسِدَةِ. وَإِذَا فَسَدَ الْهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَمُلَابِسُهُ دَائِمًا، فَيَتَسَرَّى الْفَسَادُ إِلَى مِرَاجِهِ. فَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ الْمَرَضُ فِي الرِّثَّةِ، وَهَذِهِ هِيَ الطَّوَاعِينُ، وَأَمْرَاضُهَا مَخْصُوصَةٌ 15 بِالرِّثَّةِ. وَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ دُونَ الْقَوِيِّ وَالْكَثِيرِ، فَيَكْثُرُ الْعَفْنُ بِهِ وَيَتَضَاعَفُ، فَتَكْثُرُ الْحُمَمَاتُ فِي الْأَمْزِجَةِ وَتَقْرَضُ الْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ.

وَسَبَبُ كَثْرَةِ الْعَفْنِ وَالرُّطُوبَاتِ الْفَاسِدَةِ^(هـ) فِي هَذَا كُلِّهِ، كَثْرَةُ الْعُفْرِانِ وَوُفُورُهُ آخِرَ الدُّوَلِ، لَمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ الْمَلَكَةِ وَرِفْقِهَا وَعِظَمِ الْحِمَايَةِ

(أ) ي : والموتان (ب) حاشية من ع بخطه (ج) ع : بانتقاض، ي: في انتقاض (د) سقط من ظ (هـ) سقط من ل .

وَقَلَّةُ الْمَغْرَمِ، وهو ظاهرٌ. ولهذا تَبَيَّنَ في مَوْضِعِهِ في الْحِكْمَةِ، أَنَّ تَحُلُّلَ الْخَلَاءِ وَالْقَفْرِ
بَيْنَ الْعُمْرَانِ ضَرُورِيٌّ، لِيَكُونَ تَمَوُّجُ الْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصُلُ فِي الْهَوَاءِ مِنَ الْفَسَادِ
وَالْعَقْنِ بِمُخَالَطَةِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَيَأْتِي بِالْهَوَاءِ الصَّحِيحِ .

ولهذا أيضاً فَإِنَّ الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمَدُنِ الْمُؤَفَّورَةِ الْعُمْرَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا
بكثيرٍ، كِمَضَرٍ بِالْمَشْرِقِ وَفَاسٍ بِالْمَغْرِبِ. وَاللَّهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ . 5

51 • فُضِّلَ ، فِي أَنَّ الْعُمْرَانَ الْبَشَرِيَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ سِيَاسَةٍ يَتَنَظَّمُ بِهَا أَمْرُهُ

إِنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْجَمَاعَةَ لِلْبَشَرِ ضَرُورِيٌّ، وَهُوَ / مَعْنَى
الْعُمْرَانِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي الْجَمَاعَةِ مِنْ وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَرْجِعُونَ
إِلَيْهِ؛ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ تَارَةً يَكُونُ مُسْتَنَدًا إِلَى شَرْعٍ مُنْزَلٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، يَوْجِبُ انْقِيَادَهُمْ
إِلَيْهِ إِيْمَانُهُمْ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَيْهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلَّغُهُ؛ وَتَارَةً إِلَى سِيَاسَةٍ عَقْلِيَّةٍ 10
يَوْجِبُ انْقِيَادَهُمْ إِلَيْهَا مَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ ثَوَابٍ ذَلِكَ الْحَاكِمِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِمَصَالِحِهِمْ .

فَالأَوَّلَى يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِعِلْمِ الشَّارِعِ بِالْمَصَالِحِ فِي الْعَاقِبَةِ،
وَلِمُرَاعَاتِهِ نَجَاةَ الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ؛ وَالثَّانِيَةُ إِنَّمَا يَحْصُلُ نَفْعُهَا فِي الدُّنْيَا فَقَطَّ.

وَمَا تَسْمَعُهُ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمَدْنِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ عِنْدَ
الْحُكَمَاءِ، مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْجَمْعِ فِي نَفْسِهِ وَخُلُقِهِ، 15
حَتَّى يَسْتَعْنُوا عَنِ الْحُكَّامِ رَأْسًا؛ وَيُسَمُّونَ الْجَمْعَ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ مَا يَنْبَغِي مِنْ
ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ؛ وَالتَّوَانِينَ الْمُرَاعَاةَ فِي ذَلِكَ بِالسِّيَاسَةِ الْمَدْنِيَّةِ. وَلَيْسَ مُرَادُهُمْ

السِّيَاسَةُ الَّتِي يُحْمَلُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْاجْتِمَاعِ بِالْأَحْكَامِ لِلْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ. وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ الْفَاضِلَةُ عِنْدَهُمْ نَادِرَةٌ أَوْ بَعِيدَةُ الْوُقُوعِ، وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا عَلَى جِهَةِ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ .

ثُمَّ إِنَّ السِّيَاسَةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا تَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ :

5 أحدهما، تُرَاعَى فِيهَا الْمَصَالِحُ عَلَى الْعُمُومِ، وَمَصَالِحُ السُّلْطَانِ فِي اسْتِقَامَةِ مُلْكِهِ عَلَى الْخُصُوصِ. وَهَذِهِ كَانَتْ سِيَاسَةَ الْفُرْسِ، وَهِيَ عَلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ. وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ عَنْهَا فِي الْمِلَّةِ وَلَعَهْدِ الْخِلَافَةِ، لِأَنَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ مُغْنِيَةٌ عَنْهَا فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَالْآدَابِ؛ وَأَحْكَامُ الْمُلْكِ مُنْذَرِجَةٌ فِيهَا .

الْوَجْهُ الثَّانِي، أَنْ تُرَاعَى فِيهَا مَصْلَحَةُ السُّلْطَانِ، وَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمُلْكُ مَعَ

10 الْقَهْرُ وَالْإِسْطِطَالَةُ، وَتَكُونُ الْمَصَالِحُ / الْعَامَّةُ فِي هَذِهِ تَبَعًا. وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ هِيَ [207]

الَّتِي لِسَائِرِ الْمُلُوكِ فِي الْعَالَمِ مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ؛ إِلَّا أَنَّ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ يَجْرُونَ مِنْهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِحَسَبِ جُحْدِهِمْ؛ فَقَوَائِنُهَا إِذَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أَحْكَامِ [شَرْعِيَّةٍ] ⁽¹⁾، وَآدَابِ خُلُقِيَّةٍ، وَقَوَائِنِ فِي الْاجْتِمَاعِ طَبِيعِيَّةٍ، وَأَشْيَاءَ مِنْ مُرَاعَاةِ الشُّوْكَةِ وَالْعَصِيَّةِ ضَرُورِيَّةٍ. وَالْاِقْتِدَاءُ فِيهَا بِالْشَّرْعِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِالْحُكْمَاءِ فِي آدَابِهِمْ، 15 وَالْمُلُوكِ فِي سَيْرِهِمْ.

وَمِنْ أَحْسَنِ ^(ب) مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ وَأَوْعَيْهِ، كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ، قَائِدِ الْمَأْمُونِ، لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ، لَمَّا وَلَّاهُ الْمَأْمُونُ الرِّقَّةَ وَمِصْرَ ⁽¹⁾ وَمَا يَتَنَبَّهَانِ؛ فَكُتِبَ

(1) ظ : شريعة (ب) ع : ومن الحسنين .

(1) عِنْدَ ابْنِ طَافُورٍ: مِصْرُ (بَغْدَادُ 25-26)، وَدِيَارُ مِصْرَ مَا كَانَ فِي السَّهْلِ بِقَرَبٍ مِنْ شَرْقِ الْفَرَاتِ نَحْوَ خَزَانَ وَالرَّقَّةِ (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ 2: 494)

إليه أبوه طاهر كتابه المشهور، عهد إليه فيه، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته
وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية، والسياسات الشرعية والملوكية، وحثه على
مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة. ونص الكتاب
منقولاً من كتاب الطبري⁽¹⁾ :

بسم الله الرحمن الرحيم

5

أما بعد ، فعليك بتقوى الله وخذه لا شريك له، وخشيته، ومراقبته عز
وجل، ومزايلة سُخطه. واحفظ^(أ) رعيتك في الليل والنهار. والزم ما ألبسك الله من
العافية، بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه، ومسؤول عنه،
والعمل في ذلك كله بما يغصمك الله عز وجل، ويُنجيك يوم القيامة^(ب) من عقابه
وألم عذابه ؛ فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب عليك^(ج) الرأفة بمن
استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل فيهم^(د) ، والقيام بحقه وحدوده
عليهم^(هـ) ، والذب عنهم، والدفع عن حريمهم ويتضتهم، والحقن لدمائهم ، والأمن
[لسبلهم]^(د) ، وإذخال الراحة عليهم^(ز) . ومواخذك / بما فرض عليك، ومواقفك^(ح)
عليه، ومسايلك^(ط) عنه، ومثيبك عليه بما قدّمت وأخزت. ففرغ لذلك فهّمك^(ي)

(أ) ج ع : حفظ (ب) بغداد: لقائه (ج) سقط من ي (د) بغداد : عليهم (هـ) بغداد : فيهم (و) من ل، وفي بغداد وبقية
الأصول: لسبلهم. والطبري: لسبلهم. (ز) بغداد : عليهم في معانيهم (ح) من ط، وفي بقية الأصول والطبري وبغداد: وموقفك
(ط) بغداد: ومائلك (ي) بغداد : فكرك .

(1) تاريخ الرسل والملوك 8: 582-591، الكامل لابن الأثير 6: 364، وأوردها قبلها ابن طينفور: بغداد 19-
28، وبينها جميعها اختلافات قليلة .

وَعَقْلُكَ وَبَصْرُكَ^(١)، وَلَا يَشْغَلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ^(ب)، [فَإِنَّهُ^(ج) رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلَاكُ شَأْنِكَ، وَأَوَّلُ مَا يُؤَقِّقُكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ لِرُشْدِكَ^(د)].

وَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ، وَتُنْسِبُ إِلَيْهِ فِعْلَكَ، الْمَوَاطَبَةُ عَلَى مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قَبْلَكَ، وَتَوَاقِعُهَا^(هـ) عَلَى سُنَنِهَا، فِي إِسْبَاغِ النُّضُوءِ لَهَا^(و)، وَافْتِتَاحِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا، وَثُرْتُلٍ فِي قِرَاءَتِكَ، وَتَمَكُّنٍ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهَدِكَ، وَلْتَضُدِّقْ فِيهَا لِرَبِّكَ^(ز) نِيَّتَكَ، وَاخْضُضْ عَلَيْهَا جَمَاعَةً مِنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ، وَادْأَبْ عَلَيْهَا، فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿تَنْتَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية 45] .

ثُمَّ اتَّبِعْ ذَلِكَ بِالْأَخْذِ بِسُنَنِ^(ح) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمُتَابَعَةِ عَلَى خَلَائِقِهِ، وَافْتِئَاءِ آثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ. 10

وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِزْ عَلَيْهِ بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَقْوَاهُ، وَبَلُزُومِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَاتِّمَامِ^(ط) مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِمَا يَحِقُّ لِلَّهِ عَلَيْكَ. وَلَا تَمِيلَنَّ عَنِ الْعَدْلِ فِيهَا أُخْبِنْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعِيدٍ.

وَآثِرِ الْفِقْهَ وَأَهْلَهُ ، وَالدِّينَ وَحَمَلَتَهُ ، وَكِتَابَ اللَّهِ وَالْعَامِلِينَ بِهِ ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا تَزَيَّنَّ بِهِ الْمَرْءُ ، الْفِقْهُ فِي دِينِ^(ي) اللَّهِ ، وَالطَّلَبُ لَهُ ، وَالْحَثُّ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْرِفَةُ 15

(١) بغداد والطبري: وبصرك ورؤيتك، الكامل: عقلك ونظرك (ب) بغداد: ولا يذهلك عنه ذاهل (ج) في ظ: فإنك (د) سقط من ي (هـ) كذا في ظ ج ي، وفي ع: وتوقعها، وسقطت من ل، وفي الطبري: في مواقيتها (و) سقط من ل (ز) ي: فيه رأيك (ح) ي: لسنن (ط) بغداد: واتمان (ي) ي: في الدين .

بما يُتَقَرَّبُ به ^(أ) إلى الله ، فإنه الدَّلِيلُ على الخَيْرِ كُلِّهِ ، والقائِدُ إليه ^(ب) والآمِرُ به ،
والنَّاهِي عن المعاصي والموبقات كُلِّها ، وبها ، مع تَوْفِيقِ الله عَزَّ وَجَلَّ ، يَزْدَادُ
العَبْدُ مَعْرِفَةً له وإجلالاً له ، ودَرْكاً للدرجات العُلَى في المَعَاد ، مع ما في
ظُهوره للنَّاس من التَّوْفِيقِ لأَمْرِكَ ، والهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ ، والأَنْسَةِ بِكَ ، والثِّقَةِ
/ [i208] بِعَدْلِكَ.

5

وعليك بالافتِّصاد ^(ج) في الأمور كُلِّها ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَثْبَنَ نَفْعاً ، وَلَا أَخْضَرَ
أَمْنًا ، وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا ، مِنْهُ ^(د) . والقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرُّشْدِ ، والرُّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى
التَّوْفِيقِ ، والتَّوْفِيقُ قَائِدٌ ^(هـ) إِلَى السَّعَادَةِ . وَقَوَامُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الْهَادِيَةِ بِالْاِفْتِصَادِ ،
فَآثِرُهُ ^(و) فِي دُنْيَاكَ كُلِّها .

- 10 وَلَا تَقْصُرْ ^(ز) فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ [وَالْآخِرُ] ^(ح) وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَالسُّنَنِ
الْمَعْرُوفَةِ ، وَمَعَالِمِ الرُّشْدِ ، وَلَا غَايَةَ ^(ط) لِلْاِسْتِكْثَارِ فِي ^(ي) الْبِرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ إِذَا كَانَ
يُطَلَّبُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتُهُ ، وَمُرَافَقَةُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ . أَمَا تَعْلَمُ ^(ك)
أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ ^(ل) الدُّنْيَا يورثُ الْعِزَّ وَيُحْصِنُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَأَنَّكَ لَنْ تَحُوطَ
نَفْسَكَ وَمَرْتَبَتَكَ ^(م) وَلَا تَسْتَصْلِحَ أُمُورَكَ بِأَفْضَلِ مِنْهُ ، فَأَتَيْهِ وَاهْتَدِ بِهِ تَمَّ أُمُورُكَ
15 وَتَزِيدَ مَقْدَرُكَ ، وَتَصْلِحَ خَاصَّتُكَ وَعَامَّتُكَ . وَأَحْسِنِ ظَنَّنَا بِاللَّهِ تَعَالَى تَسْتَقِمَ لَكَ
رَعِيَّتُكَ ، وَالتَّمَسَّ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّها تَسْتَدِيمَ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ .

(أ) ل : منه (ب) بغداد: له (ج) ي: الاقتصاد (د) بغداد : من القصد (هـ) بغداد: منقاد (و) ج: وآثره (ز) ج: تقتصر
(ح) من ي والطبري ، وسقط من الأصول الأخرى ، وترك مكانها في ع (ط) كذا في ظ ع ج ل ، وفي ي: الرشد والإعانة ،
والاستكثار في البر ... (ي) بغداد : من (ك) ظ ي ، وفي حاشية ع وفي ل ج والطبري : واعلم (ل) ستنط من ل (م) ي :
من بابل ولا تستصلح .

ولا تَهْمَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تُؤَلِّيهِ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ أَمْرَهُ؛ فَإِنَّ
 إِيْقَاعَ التَّهْمِ بِالْبِرِّاءِ، وَالظَّنُّونَ السَّيِّئَةَ بِهِمْ، مَأْتَمٌّ؛ فَاجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حُسْنَ الظَّنِّ
 بِأَصْحَابِكَ، وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ، وَارْفُضْهُ فِيهِمْ، يُعْنِكَ ذَلِكَ عَلَى اضْطِنَاعِهِمْ^(أ)
 وَرِيَاضَتِهِمْ. وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانُ فِي أَمْرِكَ مَغْمَرًا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنْ
 5 وَهْنِكَ، فَيَدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ فِي^(ب) سُوءِ الظَّنِّ مَا يُتَغَصُّ لَذَاذَةِ عَيْشِكَ. وَاعْلَمْ
 أَنَّكَ تَجِدُ بِحُسْنِ الظَّنِّ قُوَّةَ وَرَاحَةٍ. وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ، وَتَدْعُو
 بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا^(ج). وَلَا يَمْتَنِعُكَ حُسْنُ الظَّنِّ
 بِأَصْحَابِكَ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ، أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْأَلَةَ وَالبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ، / وَالْمُبَاشَرَةَ
 لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالتَّنَظَّرَ فِي * مَا يُقِيمُهَا وَيُضْلِحُهَا، بَلْ لَتَكُنْ الْمُبَاشَرَةُ
 10 لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ فِي النَّظَرِ فِي *^(د) حَوَائِجِهِمْ، وَخَمَلِ مَوْؤَنَاتِهِمْ، آثَرُ^(هـ)
 عِنْدَكَ^(و) مِمَّا سِوَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ وَأَخْيَى لِلسُّنَّةِ .

وَأَخْلِصْ نِيَّتَكَ فِي جَمِيعِ هَذَا، وَتَقَرَّذْ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ تَقَرَّذْ مِنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ
 عَمَّا [صَنَعَ]^(ز)، وَمُجْزَى بِمَا أَحْسَنَ، وَمَأْخُودٌ بِمَا [أَسَاءَ]^(ح). فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ
 الدِّينَ جِزْرًا [وَعِزًّا]^(ط)، وَرَفَعَ مِنْ أَتْبَعِهِ وَعَزَّزَهُ؛ فَاسْلُكْ بِمَنْ تَسُوسُهُ وَتَرْعَاهُ نَهْجَ
 15 الدِّينِ وَطَرِيقَهُ الْأَهْدَى^(ي).

وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ وَمَا اسْتَحَقُّوهُ، وَلَا
 تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَاوُنْ فِيهِ^(ك)، وَلَا تُؤَخِّرْ عُقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ مِنْ^(ل) تَقْرِيطِكَ

(أ) ي : استطاعته (ب) سقط من ي (ج) بغداد : لك (د) سقط ما بين التجمين من ي (هـ) ي : أيسر (و) بغداد :
 وأوجب (ز) ط : يصنع (ح) ط : أسي (ط) في ط : وعدلاً، وما أثبتناه من بقية الأصول والطبري (ي) كذا في ط ج ي
 وحاشية ع، وفي ل والطبري وبغداد : وطريقه الهدى (ك) ي والطبري : به (ل) ع ل : في .

في ذلك ما يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ ظَنِّكَ. واعزم^(أ) على أَمْرِكَ في ذلك بالسُّنَنِ
المَعْرُوفَةِ، وَجَانِبِ الْبِدْعِ وَالشُّبُهَاتِ يَسْلُمُ لَكَ دِينُكَ وَتَقُمَ لَكَ مُرُوءَتُكَ .

وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَفِ^(ب) بِهِ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ فَأَنْجِزْهُ، وَأَقْبِلِ الْحَسَنَةَ
وَادْفَعْ^(ج) بِهَا، وَاغْمُضْ عَنْ غَيْبِ كُلِّ ذِي غَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ، وَاشْدُدْ^(د) لِسَانَكَ عَنْ
قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ، وَابْغُضْ^(هـ) أَهْلَ النَّمِيَةِ؛ فَإِنَّ [أَوَّلَ]^(و) فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا 5
وَآجِلِهَا، تَقْرِيبُ الْكَذُوبِ، وَالْجَرَاءَةُ عَلَى الْكَذِبِ؛ لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَأْثَمِ، وَالزُّورَ
وَالنَّمِيَةَ خَاتِمَتُهَا، لِأَنَّ النَّمِيَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا، وَقَابِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا
يَسْتَقِيمُ لَطِيعُهَا أَمْرٌ.

وَأَحِبِّ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالصِّدْقِ، وَأَعِنِ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ، وَوَاصِلِ^(ز) الضَّعْفَاءِ،
وَصِلِ الرَّجِمَ؛ وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ، وَالتَّمَسَّ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ. 10
وَاجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجَوْرِ، وَاصْرِفْ عَنْهَا زَأْيَكَ، وَاطْهَرِ بَرَاءَتَكَ مِنْ ذَلِكَ
لِرَعِيَّتِكَ. وَأَنْعِمِ بِالْعَدْلِ سِيَاسَتَهُمْ، وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ، وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى
سَبِيلِ الْهُدَى. وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَآثِرِ الْوَقَارَ وَالْجَلَمَ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ
وَالطَّيِّشَ وَالْغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ.

وإِيَّاكَ / أَنْ تَقُولَ أَنَا مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ فَيْكَ^(ح) إِلَى 15
نَقْصِ الرَّأْيِ، وَقِلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ^(ط). وَاخْلُصْ لِلَّهِ [وَحْدَهُ]^(ي)
النِّيَّةَ فِيهِ وَالْيَقِينَ بِهِ^(ك).

(أ) ي : اعزم (ب) من ظ ، والطبري وحاشية ع بخطه ، وفي مثبها مُلغى ، وفي ي ج ل : فأؤف به ، وفي بغداد فوق به
(ج) بغداد: وانتفع (د) في ظ مملعة: واسدد (هـ) بغداد: أهله وأقصى (و) من ع ي والطبري، وسقط من ظ ل ج (ز) بغداد
: ووأيس (ح) سقط من ي (ط) سقط ما بين النجمين من ي (ي) من ي (ك) سقط من ي .

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مَنْ يَشَاءُ . وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرًا^(أ)
 النِّعْمَةَ وَحُلُولَ النِّعْمَةِ إِلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى جَهْلَةِ النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ
 وَالْمُبْسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ ، إِذَا كَفَرُوا بِنِعَمِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَطَالُوا بِمَا آتَاهُمْ^(ب)
 اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .

5 وَدَغَ عَنْكَ شَرَّهَ نَفْسِكَ ، وَلِتَكُنْ ذَخَائِرُكَ وَكُنُوزُكَ الَّتِي تَذْخِرُ وَتَكْنِزُ^(ج) الْبِرَّ
 وَالتَّقْوَى وَالْعَدْلَ ، وَاسْتِصْلَاحَ الرِّعْيَةِ ، وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ ، وَالتَّقَفُّدَ لَأُمُورِهِمْ ، وَالْحِفْظَ
 لِدُنْيَاهُمْ^(د) ، وَالْإِغَاثَةَ لِلْمُهَوِّفِهِمْ .

10 وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا كُنِزَتْ^(هـ) وَذُخِرَتْ فِي الْخَزَائِنِ لَا تُنْفَى^(و) ، وَإِذَا
 كَانَتْ فِي صَلَاحِ الرِّعْيَةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ الْمَوْتَةِ عَنْهُمْ ، نَمَتْ وَزَكَتْ^(ز) ،
 وَصَلَحَتْ^(ح) بِهَ الْعَامَّةُ ، وَتَزَيَّنَتْ بِهَ الْوَلَاةُ^(ط) ، وَطَابَ بِهَ الزَّمَانُ ، وَاعْتَقِدَ^(ي) فِيهِ الْعُزُّ
 وَالْمَنْعَةُ . فَلْيَكُنْ كَنْزُ^(ك) خَزَائِنِكَ تَقْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ ، وَفَرَقَ^(ل)
 مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حُقُوقَهُمْ ، وَأَوْفِ رِعْيَتَكَ* مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ ،
 وَتَعَهَّدْ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ*^(م) قَرَّرْتَ النِّعْمَةَ
 عَلَيْكَ^(ن) ، وَاسْتَوْجَبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَاجِكَ

(أ) فِي ج ي : تَغْيَر (ب) ي : أَعْطَاهُمْ (ج) ج : تَكْنَز (د) ي : لَدَانِهِمْ ، وَفِي ع ج ل وَالطَّبْرِي وَبَغْدَاد : لَدَهَانِهِمْ (هـ) ي ،
 ل ، الطَّبْرِي ، وَبَغْدَاد : كُنِزَتْ (و) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْحَمْسَةِ ، وَفِي حَاشِيَتِي ع ل بِحَظِّ ابْنِ خَلْدُونِ بِدَلْهَا : لَا تُنْخَر . وَمِثْلُهَا عِنْدَ ابْنِ
 طَيْفُور (ز) فِي حَاشِيَةِ ع بِحَظِّهِ بِدَلْأِ عَنْهَا : وَزَيَّنَتْ (ح) كَذَا فِي ط ع ج ل ، وَفِي ي وَالطَّبْرِي : صَلَحَتْ بِهَ (ط) كَذَا فِي ظ
 ج ل ، وَفِي ع ي : الْوَلَايَةُ (ي) بِغْدَاد : وَأَعْقَبَ (ك) بِغْدَاد : أَكْثَرَ (ل) ي وَالطَّبْرِي وَبَغْدَاد : وَوَقَّرَ (م) سَقَطَ مِنْ ي
 (ن) ي : لَكَ .

وَجَمَعَ أَمْوَالَ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلَكَ أَقْدَرَ، وَكَانَ الْجَمِيعُ ^(أ) لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَذْلِكَ وَإِحْسَانِكَ
أَسْكَنَ ^(ب) لَطَاعَتِكَ، وَأَطْيَبَ نَفْسًا بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ، فَأَجْمَدَ نَفْسَكَ فِيهَا حَدَدْتُ لَكَ
فِي هَذَا الْبَابِ، وَلَتَعْظُمَ خَشْيَتُكَ ^(ج) فِيهِ، وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أُثْقِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
[وَفِي سَبِيلِ حَقِّهِ] ^(د). وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ شُكْرَهُمْ ^(هـ) وَأَشْيَهُمْ عَلَيْهِ.

- 5 وإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيكَ الدُّنْيَا وَغُرُوزَهَا هَوًى الْآخِرَةَ، فَتَتَهَاوُونَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ، فَإِنَّ
[209ب] التَّهَافُونَ / يورثُ التَّفْرِيطَ، وَالتَّفْرِيطُ يورثُ البَوَارَ. وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ وَفِيهِ، وَارْجُ
الثَّوَابَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَأَظْهَرَ لَدَيْكَ ^(و) فَضْلَهُ،
فَاعْتَصِمَ بِالشُّكْرِ وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ، يَزِدُّكَ اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ
يُثِيبُ ^(ز) بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ وَسِيرَةِ الْمُحْسِنِينَ، * وَقُضِيَ الْحَقُّ فِيهَا حَمَلٌ ^(ح) مِنْ
النِّعَمِ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْكِرَامَةِ * ^(ط).

10

- وَلَا تُحَقِّرَنَّ ذَنْبًا، وَلَا تُمَالِئَنَّ حَاسِدًا، وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا،
وَلَا تُدَاهِنَنَّ عَدُوًّا، وَلَا تُصَدِّقَنَّ تَمَامًا، وَلَا تُؤْمِنَنَّ عَدَاوًا، وَلَا تُوَالِيَنَّ فَاسِقًا، وَلَا تُتَبِعَنَّ
غَاوِيًا، وَلَا تُحَمَّدَنَّ مُرَائِيًا، وَلَا تُحَقِّرَنَّ ^(ي) إِنْسَانًا، وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا، وَلَا تُحَسِّنَنَّ
بَاطِلًا، وَلَا تُلَاحِظَنَّ مُضْجِكًا، وَلَا تُخْلِفَنَّ مَوْعِدًا، وَلَا تَرْهَبَنَّ [فُجْرًا] ^(ك)، وَلَا تُظْهِرَنَّ
غَضَبًا، وَلَا تَأْتِينَ بِذَخَا ^(ل)، وَلَا تَمْشِينَ مَرَحًا، وَلَا تُزَكِّينَ ^(م) سَفَهًا ^(ن)، وَلَا تُفَرِّطَنَّ فِي

15

(أ) ي: الجمع (ب) الطبري، ي، ل ومتن ع: أسلس، وغيرها المؤلف في الحاشية بخطه (ج) في ي ج ل ومتن ع قبل التعديل
المنبث في الحاشية: وليعظم حَقُّكَ (د) سقط من ط وجزء منه من ل (هـ) ي: شأنهم (و) ي وبغداد: عليك (ز) ي:
يكتب (ح) ل: مُجَل، ضبطت مخففة، ولعلها الأصوب، ففي بغداد: واقض الحق فيما حمل من النعم (ط) سقط من ي، وفي
بغداد: والبس من العافية والكرامة (ي) بغداد: تحفون (ك) الطبري، وفي الأصول وبغداد: فخرًا (ل) ي: رخاء (م) الطبري
وبغداد: ولا تركبن (ن) ل ي: سفهاً .

طَلَبِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَدْفَعِ الْأَنَامَ عَتَابًا^(١)، وَلَا تُعْمِضَنَّ عَنْ ظَالِمٍ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مُحَابَاةً،
وَلَا تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالدُّنْيَا.

وَأَكْثَرُ مُشَاوَرَةِ الْفُقَهَاءِ، وَاسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ بِالْجِلْمِ، وَخُذْ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ
وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ. وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ [الرِّقَّةِ]^(ب) وَالنَّحْلِ^(ج)،
5 وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا، فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِمْ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِيهِ أَمْرَ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّحِّ. وَاعْلَمْ
أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرَ الْأَخْذِ، قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِيمْ
لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا، فَإِنَّ رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ، وَتَرْكِ
الْجَوْرِ عَلَيْهِمْ، وَيَدُومُ صَفَاءُ أَوْلِيَائِكَ لَكَ^(د) بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحُسْنِ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ،
10 فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خِزْيٍ،
وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر،
من الآية 9]. / فَسَهِّلْ طَرِيقَ [الْجُودِ]^(هـ) بِالْحَقِّ^(و)، وَاجْعَلْ لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ فِتْيِكَ
[210] حَظًّا [وَنَصِيبًا]^(ز)، وَأَيُّقِنَنَّ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَاعْذُذْهُ لِنَفْسِكَ
خُلُقًا^(ح)، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا. وَتَقَقَّدْ^(ط) الْجُنْدَ فِي دَوَابِهِمْ وَمَكَاتِهِمْ، وَأَدِرَّ عَلَيْهِمْ
15 أَرْزَاقَهُمْ، وَوَسِّغْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَائِشِهِمْ، لِيُذْهَبَ اللَّهُ بِذَلِكَ فَاقَتَهُمْ، فَيَقْوَى لَكَ أَمْرُهُمْ،

(١) كَذَا جَاءَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي ظ ع ل ي ج، وَتَقَرَّرَ الْأَيَّامُ وَالْأَنَامُ، وَهِيَ غَيْرُ وَاضِحَةٍ، وَفِي الطَّبْرِيِّ: وَلَا تَدْفَعِ الْأَيَّامَ عِيَانًا، وَفِي
بَغْدَادٍ: وَلَا تَدْفَعِ الْأَيَّامَ عِبَاسًا. وَكَلَّمَهُ بِحَرْفِ (ب) مِنْ حَاشِيَةِ ع، وَفِي بَقِيَةِ الْأَصُولِ: الزَّفَةُ، وَفِي بَغْدَادٍ: الدَّقَّةُ (ج) كَذَا فِي ظ،
وَفِي بَقِيَةِ الْأَصُولِ وَبَغْدَادٍ: النَّحْلُ. وَلَعَلَّ الْأَقْرَبَ رَوَايَةَ ابْنِ الْأَثِيرِ: أَهْلُ الذِّمَّةِ وَالنَّحْلُ (د) ي ع: وَوَالٍ مِنْ صَفَا لِكَ مِنْ أَوْلِيَائِكَ.
وَعَذَّلْتُ فِي حَاشِيَةِ ع إِلَى مَا أَخَذْتُ بِهِ ل ج ظ (هـ) مِنَ الْمَصَادِرِ الْخَارِجَةِ لِلرِّسَالَةِ، وَفِي الْأَصُولِ: الْجَوْرُ وَلَا مَعْنَى لَهُ (و) أَقَمَ
الْمُؤَلِّفُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ بِحُطَّةٍ فِي الْأَصْلِ ع، وَأَدْرَجْتُهَا فِي الْمَتْنِ تُسَخِّ: ظ ج ل ي (ز) سَقَطَ مِنْ ظ (ح) كَرَّرْتُ كُلَّ الْأَصُولِ هَذَا جُمْلَةً:
وَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجَوْرِ بِالْحَقِّ. وَلَا مَعْنَى لَهُ، كَمَا هُوَ فِي الْأَصُولِ الرَّائِيَةِ لِلرِّسَالَةِ (ط) فِي الْمَصَادِرِ الْخَارِجَةِ: وَتَقَقَّدْ أُمُورَ الْجُنْدِ.

ويزيدُ به قلوبهم في طاعتك وأمرِك خلوصًا وإنشراحًا. وحسبُ ذي سلطان من السَّعادة، أن يكونَ على جُنده ورَعِيَّتِهِ رَحْمَةٌ في غذاه وجِطَتِهِ وإنصافِهِ وعِنايَتِهِ وشَفَقَتِهِ وبرّه وتوسُّعته. فزایل مَكْرُوهةٍ إحدَى البائِینِ باستِشعارِ فَضِيلَةِ البابِ الآخرِ، ولزومِ العَمَلِ به، تَلَقُّ إن شاء الله نَجَاحًا وَصَلاحًا وفَلاحًا.

- 5 واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور. لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض. وبإقامة الفضل^(أ) والعدل في القضاء [والعمل]^(ب)، تَصْلُحُ أحوال الرِّعِيَّةِ، وتَأْمَنُ السَّبِيلُ، ويتَنَصِّفُ المَظْلُومَ، ويأخُذُ الناسَ حقوقَهم، وتُحْصَنُ^(ج) المعيشةُ، ويؤدَّى حقُّ الطَّاعةِ، ويرزُقُ الله العافيةَ والسَّلامَةَ، ويقوم الدينُ، وتجري السُّننُ والشرائعُ، وعلى مجاريها، * يَنْتَهِزُ الحَقُّ والعدل في القضاء *^(د). واشتدَّ في أمر الله عز وجل، وتورَّع عن التَّطَفِّ، وامض 10 لإقامة الحدود، واقلل العجلة، وابعُد عن الضَّجَرِ والقلق، واقنع بالقسم، ولتسكن ريحك ويقر جدك، وانتفع بتجربتك، وانثب من صمتك، واشدد^(هـ) في منطقك، وانصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا تأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة^(و) ولا لومة لائم، وتثبت، وتأن، وراقب، وانظر، وثقز، وتدبر، واعتبر، / وتواضع لربك، وازفق^(ز) بجميع الرعية، وسلط الحق على 15 نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم - فإن الدماء من الله تعالى بمكان عظيم - انتهاكًا لها بغير حقها.

(أ) سقط من ل ي وبنجد الطبري والكامل (ب) من حاشية ع، ومن ل ج (ج) كذا في ط ع ل ج، وفي ي وبنجد الطبري والكامل: وتحسن (د) سقط ما بين النجمين من ي والكامل (هـ) ي والمصادر: واشدد (و) المصادر: محاماة (ز) في المصادر: وراقب.

وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله توسعة ومنعة؛ ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاھدتيهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه. ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا 5 عن أحد من خاصيتك ولا حاشيتك، ولا تأخذن منه فوق الاختمال^(أ)، ولا تكلفن امرأ فيه^(ب) شططاً، واحمل الناس كلهم على مر^(ج) الحق، فإن ذلك أجمع لألفتهم وألزم لرضا العامة.

واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً. وإنما سمي أهل عملك رعييتك لأنك راعهم وقيمتهم، فخذ^(د) منهم ما أعطوك من عفوهم^(هـ)، ونقذه^(و) في قوام أمرهم وصلاتهم، وتقويم أودهم. واستعمل عليهم^(ز) ذوي الرأي والتدبير والتجربة 10 [والخبرة]^(ح) والعلم والعمل بالسياسة والعفاف. ووسع عليهم في الرزق؛ فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك، ولا^(ط) يشغلتك عنه شاغل، ولا يضر فئتك عنه صارف. فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأخذوة في عملك، واحترزت^(ي) به المحبة من رعييتك، وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العمار بناحييتك، وظهر 15 الخصب في كورك، وكثر خراجك وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على إرضاء^(ك) جندك، وإرضاء^(ل) العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك، وكنت محمود السياسة

(أ) المصادر: الاحتمال له (ب) المصادر: ولا تكلفن امرأ فيه شطط (ج) ي: أمر (د) من ط، وفي بقية الأصول: تأخذ (هـ) المصادر: عفوهم ومقدرتهم (و) المصادر: وثقته (ز) المصادر: عليهم في كور عملك (ح) ط: الخبر (ط) ي: فلا يشغلك .. ولا يصرفك (ي) بندان والطبري: واحترزت النصيحة من ... (ك) من ط ج وحاشيتي ع ل، وفي متنها: إرضاء، وفي ي: ارتباط (ل) ي: وأرض.

[i211] / مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ، وَكَتَبْتُ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ
وَعُدَّةٍ. فَتَنَافَسَ فِي هَذَا^(أ) وَلَا تَقْدَمُ عَلَيْهِ شَيْئًا، تَحْمَدُ مَغَبَّةَ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يَخْبِرُ^(ب) أَخْبَارَ عُمَّالِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ
بِسِيرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ؛ حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمُورِهِ كُلِّهَا. وَإِنْ^(ج)
أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمْرٍ فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ
فِيهِ وَالْعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حُسْنَ الدِّفَاعِ وَالنُّصْحَ وَالصُّنْعَ فَأْمُضِهِ، وَإِلَّا، فَتَوَقَّفْ
عَنْهُ، وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ بِهِ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ رَبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرٍ
مِنْ أَمْرِهِ^(د) وَقَدْ أَتَاهُ^(هـ) عَلَى مَا يَهْوَى، فَأَغْوَاهُ^(و) ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ؛ فَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي
عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ وَنَقَضَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ. فَاسْتَغْمِلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ، وَبَاشِرْهُ بَعْدَ
عَوْنِ اللَّهِ بِالْقُوَّةِ؛ وَأَكْثِرْ مِنْ اسْتِخَارَةِ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ .

وَافْرَغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلَا تُؤَخِّرْهُ^(ز)، وَأَكْثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفْسِكَ، فَإِنْ لَغِدَ
أُمُورًا وَحَوَادِثٌ تُلْهِمُكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ الَّذِي أَخَّرْتَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا
فِيهِ. فَإِذَا أَخَّرْتَ عَمَلَهُ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ عَمَلُ^(ح) يَوْمَيْنِ فَيُثْقِلُكَ^(ط) ذَلِكَ حَتَّى تَمْرَضَ
مِنْهُ^(ي)؛ وَإِذَا أَمْضَيْتَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحْتَ بَدَنَكَ وَنَفْسَكَ، وَأَخْكَمْتَ أُمُورَ سُلْطَانِكَ.

وَانْظُرْ أَخْرَارَ النَّاسِ وَذَوِي السِّنِّ مِنْهُمْ، فَمَنْ تَسْتَيْقِنُ صَفَاءَ طَوِيلِهِمْ،
وَشَهِدْتَ^(ك) مَوَدَّتَهُمْ لَكَ، وَمُظَاهَرَتَهُمْ بِالنُّصْحِ وَالْمُخَالَصَةِ^(ل) عَلَى أَمْرِكَ،
فَاسْتَخْلِصْهُمْ^(م) وَاحْسِنْ إِلَيْهِمْ.

(أ) ي: فيها (ب) ي وبغداد: يخبرك خبر (ج) ل: وإذا (د) ي: أمر أبرزه (هـ) بغداد والطبري: واناؤه (و) بغداد والطبري:
فقواه (ز) المصادر: تؤخره لغدك (ح) ج: أفر (ط) المصادر: فيثقلك (ي) المصادر: تعرض عنه (ك) المصادر: وهذيب
(ل) ي ج: المخالطة (م) بغداد: فاستصلحهم .

وتعاهد أهل البيوتات، ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتل مؤوتهم، وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلتهم مسأ. وأفرذ نفسك للنظر^(أ) في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته^(ب) إليك، والمختقر الذي لا علم له بطلب حقه، فسئل عنه/ أخفى مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومزهم

[211ب]

5 برفع حوائجهم وحالاتهم إليك، لتتظر فيها بما يصلح الله به أمرهم. وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أزواقاً من بيت المال، اقتداءً بأمر المؤمنين، أعزّه الله، في العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويزدقك به بركة وزيادة. وأجر للأضراء من بيت المال، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم. وانصب لمزى المسلمين دوراً تؤويهم، وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال.

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانهم لم يرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم، طمعاً في ثيل الزيادة، وفصل الرفق منهم. وربما يترم المتصفح لأمر الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل ذهنه وفكره منها مما يناله به مؤونة ومشقة. وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره 15 في العاجل، وفصل ثواب الآجل، كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله، ويلتمس رحمته. فأكثر الإذن للناس عليك، وأرهم^(ج) وجهك، وسكن^(د) لهم خراسك، واخفص لهم جناحك، وأظهر لهم بشرك، وإن لهم في المسألة والنطق، واغطف

(أ) ي: بالنظر (ب) ج: مظلمة (ج) حاشية ع، بغداد والطبري: فأبرز لهم (د) سقط من ي.

عليهم بجلودك وفضلك. وإذا أُعْطِيتَ، فَأَعْطِ بِسَاحَةِ وَطِيبِ نَفْسٍ، وَالتَّامِسِ^(أ)
لِلصَّنِيعَةِ وَالْأَخْرِ، مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ وَلَا امْتِنَانٍ^(ب)؛ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تَجَارَةٌ مُرِيحَةٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضي من قبلك من أهل السلطان
[212] والرئاسة في / القرون الخالية والأُمم البائدة . 5

ثم اعتصم في أخوالك كلها بأمر الله تعالى^(ب)، والوقوف عند محبته،
والعمل بشريعته وسنته^(ج)، وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه،
ودعا إلى سخط الله .

واعرف ما يجمع عمالك من الأموال ويُنفقون منها . ولا تجمع حراما ، ولا
تُنْفِقُ إِسْرَافًا . 10

وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم . وليكن هواك اتباع السنن
 وإقامتها، وإيثار مكارم الأخلاق^(د) ومعاليها. وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك
من إذا رأى غيباً فيك فلا تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر^(هـ)، وإعلامك
ما فيه من النقص؛ فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك.

وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتائبك، فوقت لكل رجلٍ منهم في كل يوم 15
وقتاً، يَدْخُلُ عَلَيْكَ^(و) فيه بكُتُبِهِ ومُؤامراته وما عنده من خواجج عمالك وأُمور كُورك

(أ) كذا وردت الجملة في متن ع وعوضها في الحاشية بخطه: "والتبس الصنعة والأخر غير مكدر [مكيد] ولا منان"؛ ونقلتها نسخة
ج. وهو نص ابن طيفور في بغداد (ب) ع ل ج ي: سبطانه وتعالى (ج) ي: وبسنته (د) ظ وحدها، وفي بقية الأصول:
الأُمور (هـ) ي: في ستر (و) سقط من ي .

وَرَعِيَّتِكَ. ثُمَّ فَرَّغَ لَمَّا يُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ، وَكَرَّرَ
النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدَبُّرَ لَهُ، فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالْحَزْمِ فَأَمْضَاهُ، وَاسْتَشْجَرَ اللَّهَ فِيهِ، وَمَا
كَانَ مُخَالِفًا لِذَلِكَ فَاضْرَفَهُ إِلَى التَّثَبُّتِ فِيهِ وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ.

وَلَا تَمْنُنْ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلَا عَلَى غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفٍ تَأْتِيهِ إِلَيْهِمْ. وَلَا تَقْبَلْ مِنْ
5 أَحَدٍ^(أ) إِلَّا الْوَفَاءَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْعَوْنَ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَضَعَنَّ^(ب) الْمَعْرُوفَ إِلَّا
عَلَى ذَلِكَ.

وَتَقَهَّمْ كِتَابِي إِلَيْكَ وَأَكْثِرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالْعَمَلَ بِهِ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ عَلَى جَمِيعِ
أُمُورِكَ، وَاسْتَخِزْهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَ الصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ. وَلْيَكُنْ أَكْثَرُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ
رَغْبَتِكَ مَا كَانَ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ رِضًا، وَلِدِينِهِ نِظَامًا، وَلِأَهْلِهِ عِزًّا وَتَمَكِينًا، [وَلِلْمِلَّةِ]^(ج)
10 وَالذِّمَّةَ عِزًّا وَصَلَاحًا.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ / وَتَوْفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكَلَاءَتَكَ⁽¹⁾؛ [212ب]
وَالسَّلَامَ.

وَحَدَّثَ الْأَخْبَارِيُّونَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ، لَمَّا ظَهَرَ وَشَاعَ أَمْرُهُ، أُعْجِبَ بِهِ
النَّاسُ، وَاتَّصَلَ بِالْمَأْمُونِ، وَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ قَالَ: مَا أَبْقَى أَبُو الطَّيِّبِ، يَعْنِي طَاهِرًا،

(أ) المصادر: من أحد منهم (ب) بغداد: تصنع (ج) المصادر، وع ل.

(1) في رواية ابن طيفور: (بغداد 28) يستمر طاهر بن الحسين في الدعاء لابنه، وَيَكْمِلُ الرِّسَالَةَ بِمَا يَلِي:
[وَأَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكَ فَضْلُهُ وَرَحْمَتُهُ بِتَمَامِ فَضْلِهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ لَكَ، حَتَّى يَجْعَلَكَ أَفْضَلَ أَمْثَالِكَ نَصِيبًا،
وَأَوْفَرَهُمْ حِطًّا، وَأَسْنَاهُمْ ذِكْرًا وَأَمْرًا، وَأَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكَ وَمَنْ نَاوَأَكَ وَبَغَى عَلَيْكَ. وَيَزُرُقَكَ مِنْ رَعِيَّتِكَ
الْعَافِيَةِ، وَيَحْجِزَ الشَّيْطَانَ عَنْكَ وَوَسَاوِسَهُ، حَتَّى يَسْتَغْلِي أَمْرُكَ بِالْعِزِّ وَالْقُوَّةِ وَالتَّوْفِيقِ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مَحِيْبٌ].

شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة، وإصلاح الملك والرعية،
وحفظ السلطان، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة، إلا وقد أحكمه وأوصى به.

ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه.

هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة ؛ والله يلهم من يشاء من

عباده.

5

52 • فصل ، في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه ، وكشف الغطاء

عن ذلك

اغلم أن من المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأغصار، أنه لا
بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل،
ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية ، ويسمى بالمهدي.

10

ويكون خروج الدجال وما بعده من أشرار الساعة، الثابتة في الصحيح،
على أثره؛ وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على
قتله، ويأتى بالمهدي في صلاته.

ويحتجّون في هذا الباب بأحاديث خرجها الأئمة، وتكلم فيها المنكرون

15

لذلك، وربما عارضوها ببعض الأخبار.

وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى، ونوع من

الاستدلال ؛ وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم .

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الباب⁽¹⁾ ، وما للمُتَكِرِينَ فيها من المطاعين، وما لهم في إنكارهم من المستند، ثم ننبِّهه بذكر كلام المتصوفة / وآرائهم، لِيَتَيَّنَ لك الصَّحِيحُ من ذلك إن شاء الله، فنقول:

[1213]

إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأُئِمَّةِ⁽¹⁾ خَرَجُوا أَحَادِيثَ الْمَهْدِيِّ، مِنْهُمْ التِّرْمِذِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ،
وَالْبَزَّازُ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَالْحَاكِمُ، وَالطَّبْرَانِيُّ، وَأَبُو يَعْلَى الْمُؤَصِّلِيُّ، وَأَسْنَدُوهَا إِلَى جَمَاعَةٍ 5
مِنَ الصَّحَابَةِ، مِثْلُ: عَلِيٍّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَطَلْحَةَ، وَابْنَ مَسْعُودٍ، وَأَبِي
هُرَيْرَةَ، وَأَنَسَ، وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأُمِّ حَبِيبَةَ، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَثَوْبَانَ، وَقُرَّةَ بِنِ
إِيَّاسَ، وَعَلِيَّ الْهَلَالِيِّ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ، بِأَسَانِيدَ زُبَيَّا تَعَرَّضَ لَهَا
الْمُتَكِرُونَ كَمَا نَذَرَهُ الْآنَ. لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى
التَّغْدِيلِ؛ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْنًا فِي بَعْضِ رِجَالِ الْإِسْنَادِ بِغَفْلَةٍ، أَوْ سُوءِ حِفْظٍ، أَوْ 10
قِلَّةٍ^(ب) ضَبْطٍ^(ب)، أَوْ ضَعْفٍ، أَوْ سُوءِ رَأْيٍ، تَطَرَّقَ ذَلِكَ إِلَى [صِحَّةِ] ^(ج) الْحَدِيثِ
وَأَوْهَنَ مِنْهُ. وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ زُبَيَّا يَتَطَرَّقُ إِلَى رِجَالِ الصَّحِيحَيْنِ؛ فَإِنَّ
الْإِجْمَاعَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهَا، كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَالْإِجْمَاعُ أَيْضًا
قَدْ اتَّصَلَ فِي الْأُمَّةِ عَلَى تَلَقُّيْهَا بِالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا؛ وَفِي الْإِجْمَاعِ أَعْظَمُ جِمَايَةِ
وَأَخْسَنُ دَفْعٍ. وَلَيْسَ غَيْرُ الصَّحِيحَيْنِ بِمَثَابَتِهِمَا فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ نَجَدُ مَجَالًا لِلْكَلَامِ فِي 15
أَسَانِيدِهِمَا بِمَا نُقِلَ عَنْ أُئِمَّةِ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ.

(1) ي: الشان (ب) سقط من: ج ي (ج) من: ع ج ل ي، وفي ظ: سوء .

(1) انظر أيضاً أبا نعيم الأصبهاني: الأربعون حديثاً في المهدي (تحقيق علي باقر، تراثا، طهران - محرم

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة، على ما نقل السهيلي عنه، في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي، فقال: ومن أغربها إسناداً، ما ذكره أبو بكر الإسكاف في فوائد الأخبار، مُسنّداً إلى مالك بن أنس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال، قال رسول الله ﷺ⁽¹⁾: "من كذب بالمهدي فقد كفر، ومن كذب بالدخان فقد كذب". وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك، فيما أحسب. 5
[213ب] وحسبك بهذا غلوّاً. والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك / بن أنس؛ على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع.

وأما الترمذي، فخرج هو⁽²⁾ وأبو داود⁽³⁾ بسندهما إلى ابن مسعود، من طريق عاصم بن أبي النجود، أحد القراء السبعة، عن زید بن حُبَيْش، عن عبد الله ابن مسعود⁽⁴⁾، عن النبي ﷺ: "لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ قال زائدة: لطول 10
الله ذلك اليوم، حتى يبعث فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يُواطىء اسمه اسمي، واسمُ أبيه اسمُ أبي". هذا لفظ أبي داود وسكت عليه. وقال في رسالته المشهورة: إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح. ولفظ الترمذي: "ولا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجلٌ من أهل بيتي يُواطىء اسمه اسمي". وفي لفظ آخر⁽⁴⁾: "حتى

(أ) ي: ابن عباس .

(1) كنا في الأصول المعتمدة للكتاب، ونظر الحاروي في الفتاوي للسيوطي 2: 161 وفيه: ومن كذب بالدجال فقد كذب .

(2) الجامع الكبير (2230) .

(3) السنن (4282) .

(4) الجامع الكبير (2231) .

يَلِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي"، وَقَالَ فِي كُلِّهِمَا: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَرَوَاهُ أَيْضاً⁽¹⁾ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمٍ مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ. وَقَالَ الْحَاكِمُ⁽²⁾: رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ. قَالَ: وَطَرَّقَ عَاصِمٌ عَنْ زَيْدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ كُلُّهَا صَحِيحَةً عَلَى مَا أَصْلَتْهُ مِنَ الْاِخْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ عَاصِمٍ، إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

5 انتهى .

إِلَّا أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ⁽³⁾: كَانَ رَجُلًا صَالِحًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثَقَّةً، وَالْأَعْمَشُ أَحْفَظُ مِنْهُ؛ وَكَانَ شُعْبَةُ يَخْتَارُ الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيتِ الْحَدِيثِ .
وَقَالَ الْعِجْلِيُّ⁽⁴⁾: كَانَ يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ فِي زَيْدٍ وَأَبِي وَائِلٍ؛ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رِوَايَتِهِ عَنْهَا .

10 وقال محمد بن سَعْدٍ⁽⁵⁾: كَانَ ثَقَّةً، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ .

وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ⁽⁶⁾: فِي حَدِيثِهِ اضْطِرَابٌ .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ⁽⁷⁾: قُلْتُ لِأَبِي، إِنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ: عَاصِمٌ ثَقَّةٌ؛ فَقَالَ: لَيْسَ مَحَلَّهُ هَذَا . وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ عُيَيْنَةَ ، فَقَالَ: كُلُّ مَنْ اسْمُهُ عَاصِمٌ

(1) الجامع الكبير (2231) .

(2) المستدرک 4 : 442 .

(3) العلل 1 : 137 ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم 6 : 340 الترجمة 1887 .

(4) معرفة الثقات 2 : 6 .

(5) الطبقات 6 : 351 .

(6) تهذيب الكمال 13 : 477 .

(7) الجرح والتعديل 6 : 341 الترجمة 1887 .

سَيِّءُ الْحِفْظِ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ الصَّدَقِ، صَالِحُ الْحَدِيثِ، وَلَمْ يَكُنْ
بِذَلِكَ الْحَافِظِ. وَاخْتَلَفَ فِيهِ / قَوْلُ النَّسَائِيِّ. [214]

وَقَالَ ابْنُ خِرَاشٍ⁽¹⁾: فِي حَدِيثِهِ ثُكْرَةٌ .

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْعُقَيْلِيُّ⁽²⁾: لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُوءُ الْحِفْظِ .

وَقَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ⁽³⁾: فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ . 5

وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ⁽⁴⁾: مَا وَجَدْتُ رَجُلًا اسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ الْحِفْظِ.

وَقَالَ أَيْضًا⁽⁵⁾: سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ: حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي النَّجُودِ فِي النَّفْسِ مَا فِيهَا.

وَقَالَ الدَّهْهِيُّ⁽⁶⁾: ثَبَتَ فِي الْقِرَاءَةِ، وَهُوَ فِي الْحَدِيثِ دُونَ الثَّبَتِ، صَدُوقٌ

بِهِمْ؛ وَهُوَ حَسَنُ الْحَدِيثِ. وَإِنْ اخْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ، فَإِنَّمَا أَخْرَجَا لَهُ
مَقْرُونًا بغيره لَا أَضْلًا؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . 10

وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ⁽⁷⁾ فِي الْبَابِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ [رَوَايَةٍ]⁽¹⁾ فِطَرَ

ابْنُ خَلِيفَةَ، بِالْفَاءِ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بَرَّةَ، عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ

(1) سَقَطَ مِنْ ظ .

(1) نَقَلَهُ مِنْ تَهْذِيبِ الْكَمَالِ 13 : 478 .

(2) كَذَلِكَ، وَأَصْلُ الْخَبَرِ عَنِ الْعُقَيْلِيِّ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ (ص 22، جُزْءُ عَاصِمٍ)، وَهُوَ لَيْسَ فِي الْمَطْبُوعِ مِنْ
كِتَابِهِ الضَّعْفَاءِ 3 : 336 .

(3) سَوَآلَاتُ الْبَرْقَانِيِّ لِلدَّارِقُطْنِيِّ رَقْمُ 338 .

(4) مِنْ تَارِيخِ دِمَشْقَ ص 22 (جُزْءُ عَاصِمٍ) .

(5) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ .

(6) مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ 2 : 357 .

(7) السَّنَنُ (4283) .

ﷺ، قال: "لو لم يَتَّقَ من الدَّهْرِ إِلَّا يَوْمَ لَبِثَ اللهُ رَجُلًا من أَهْلِ بَيْتِي يَمْلُؤُهَا عَذْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا".

وفُطِرَ بن خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى بن الْقَطَّانِ وَابْنُ مَعِينٍ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ، إِلَّا أَنَّ الْعِجْلِيَّ قَالَ: حَسَنُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشْيِيعٌ قَلِيلٌ. وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ مَرَّةً: 5 ثِقَّةٌ شِيعِيٌّ. وَقَالَ أَحْمَدُ بن عَبْدِ اللَّهِ بن يُونُسَ: كُنَّا نَمُرُّ عَلَى فِطْرٍ، وَهُوَ مَطْرُوحٌ لَا نَكْتُوبُ عَنْهُ. وَقَالَ مَرَّةً: كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدْعُهُ مِثْلَ الْكَلْبِ. وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ: لَا يَحْتَجُّ بِهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بن عَيَّاشَ: مَا تَرَكْتُ الرَّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذْهَبِهِ. وَقَالَ الْجَوْزْجَانِيُّ: زَائِعٌ غَيْرُ ثِقَّةٍ⁽¹⁾. انْتَهَى.

وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ⁽²⁾ أَيْضًا بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ هَارُونَ بن 10 الْمُغِيرَةِ، عَنْ عَمْرِو بن أَبِي قَيْسٍ، عَنْ شُعَيْبِ بن خَالِدٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ، قَالَ، قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ فَقَالَ: إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشَبِّهُهُ فِي الْخَلْقِ وَلَا يُشَبِّهُهُ فِي الْخَلْقِ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَذْلًا. وَقَالَ هَارُونَ: حَدَّثَنَا عَمْرِو بن أَبِي قَيْسٍ، 15 عَنْ مُطَرِّفٍ / بن طَرِيفٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ، عَنْ هِلَالِ بن عَمْرٍو، سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ يُقَالُ لَهُ الْحَارِثُ [بن حَرَاثٍ]⁽¹⁾، عَلَى مُقَدَّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ، يُوْطِيءُ أَوْ يُمَكِّنُ لَأَلِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنْتُ قُرَيْشَ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَجَبَّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ، أَوْ قَالَ: إِبْجَابُهُ؛ سَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ.

(1) من: ع ج ي .

(1) هذه الأقوال جميعها في تهذيب الكمال 23: 314-316 وانظر التعليق عليه .

(2) السنن (4290) .

وقال في موضع آخر في هارون ⁽¹⁾ : هو من الشيعة . وقال السليمانى ⁽²⁾ :
فيه نظر . وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس ⁽³⁾ : لا بأس به ، في حديثه خطأ .

وقال الذهبي ⁽⁴⁾ : صدوق له أوهام . وأمّا أبو إسحاق الشيباني ⁽¹⁾ ، وإن خُرح
عنه في الصحيحين ، فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره ، وروايته عن عليّ منقطعة .
وكذا رواية أبي داود عن هارون بن المغيرة ⁽⁵⁾ . وأمّا السند الثاني ، فأبو الحسن فيه 5
وهلال بن عمرو مجهولان ؛ ولم يُعرف أبو الحسن إلا من رواية مُطَرِّف بن طريف
عنه . انتهى .

وخرّج أبو داود أيضًا ⁽⁶⁾ عن أمّ سلمة ، وكذا ابن ماجه ⁽⁷⁾ ، والحاكم في
المستدرک ⁽⁸⁾ ، من طريق عليّ بن نقيل ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أمّ سلمة ،
قالت ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : "المهديّ من عِترتي ، من وُلِدَ فاطمة" . لفظُ 10
الحاكم : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يذكُر المَهدِيّ فقال : "نعم ، هو حقّ ، وهو من بتي
فاطمة" .

(1) كذا في ظ ل ي ، وفي ع ج : الشيعي .

(1) تهذيب الكمال 30 : 111 .

(2) تهذيب التهذيب 11 : 13 .

(3) تهذيب الكمال 22 : 205 .

(4) ميزان الاعتدال 3 : 285 الترجمة 6429 .

(5) ودليل ذلك أنه قال : حدّث عن هارون بن المغيرة .

(6) السنن (4284) .

(7) سنن ابن ماجه (4086) .

(8) المستدرک 4 : 557 .

ولم يتكلم عليه بتصحیح ولا غیره. وقد ضعفه أبو جعفر العقیلی⁽¹⁾ وقال: لا ینابع علی بن نفیل علیه، ولا یعرف إلا به.

وخرج أبو داود أيضًا⁽²⁾، عن أم سلمة، من رواية صالح، أبي الخليل⁽³⁾، عن صاحب له، عن أم سلمة، عن النبي ﷺ، قال: "يكون اختلاف عند موت خليفة،

5 فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من الشام، فيخسف بهم باليناء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام، وعصائب أهل

العراق / فيبايعونه. ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب، فيبعث إليهم بعثًا فيظهرون [215]

عليهم، وذلك بعث كلب. والخبية لمن لم⁽⁴⁾ يشهد غنمة كلب، فيقسم المال، ويعمل في

الناس بسنة نبهم، ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض، فيلبث سبع سنين. ثم يتوفى 10

ويصلي عليه المسلمون. قال أبو داود: قال بعضهم عن هشام: سبع سنين، وقال بعضهم:

سبع سنين. ثم رواه أبو داود⁽⁴⁾ من رواية أبي الخليل، عن عبد الله بن الحارث،

عن أم سلمة، فتبين بذلك المبهمة في الإسناد الأول. ورجال الصالحين لا

مطعن فيهم ولا معمر⁽⁵⁾.

(أ) سقط من ي .

(1) الضعفاء الكبير 3 : 253 .

(2) السنن (4286) .

(3) هو صالح ابن أبي مريم الضبي، أبو الخليل البصري .

(4) السنن (4288) .

(5) الرواية التي سمي بها المبهمة هي رواية أبي العوام عن قتادة عن أبي الخليل، وأبو

العوام هذا هو عمران بن ذاور القطان الذي سيتكلم فيه تضيفاً، فكان المؤلف ما عرف أن أبا العوام

هو عمران القطان! ودليل ذلك قوله: "ورجاله رجال الصالحين لا مطعن فيهم ولا معمر" وعمران

القطان ليس من رجال الصالحين، وإنما أخرج له البخاري وخذه استشهاداً .

وقد يُقال: إنّه من رواية قتادة، عن أبي الخليل؛ وقتادة مُدَلِّسٌ، وقد عَنَعَنه، والمُدَلِّس لا يُقبل من حديثه إلا ما صَرَّح فيه بالسَّماع؛ مع أنّ الحديث ليس فيه تصريحٌ بذكر المهديّ. نعم، ذكره أبو داود في أبوابه.

وخرّج أبو داود⁽¹⁾ أيضاً وتابعه الحاكم⁽²⁾، عن أبي سعيد الخدريّ، من طريق عمران القطان، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدريّ، قال، 5 قال رسول الله ﷺ: "المهديّ مني، أجلى الجبهة، أفتى الأنف، يَمْلَأُ الأرض قِسْطًا وَعَدْلًا كما مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا، يملك سبع سنين". هذا لفظُ أبي داود، وسكت عليه. ولفظُ الحاكم: "المهديّ منّا أهل البيت، أَشَمُّ الأنف، أَفْتَى أَجْلَى، يَمْلَأُ الأرض قِسْطًا وَعَدْلًا، كما مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يعيش هكذا؛ وَبَسَطَ يَسَارَهُ وإِضْبَعَيْنِ من يَمِينِهِ، السَّبَابَةُ والإِبْهَامَ، وعقد ثلاثة. قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط 10 مُسلم⁽³⁾؛ ولم يُخرّجاه. انتهى.

وعمران القطان مُخْتَلَفٌ في الاحتجاج به، وإنّا أخرج له البخاريّ استِشْهادًا لا أَصْلًا. وكان يحيى القطان لا يُحدِّث عنه. وقال يحيى بن معين: ليس بالقويّ؛ وقال مرة: ليس بشيء. وقال أحمد بن حنبل: / أزجو أن يكون صالح [215ب] الحديث. وقال يزيد بن زريع: كان حُرُورِيًّا، وكان يَزِي السَّيْفَ على أهل القِبْلة. 15 وقال النسائيّ: ضَعِيفٌ. وقال أبو عُبَيْدٍ الأَجْرِيّ: سألتُ أبا داود عنه فقال: من

(1) السنن (4285).

(2) المستدرک 4: 557.

(3) هكذا قال الحاكم، وهو غلط، فإن عمران القطان لم يخرّج له مسلم شيئاً.

أصحاب الحسن، وما سمعت إلا خيراً. وسمعتُ ذكره مرّةً أُخرى، فقال: ضعيف؛
أفتى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بقتوى شديدة، فيها سفك الدماء⁽¹⁾.
وخرّج الترمذي⁽²⁾ وابن ماجه⁽³⁾ والحاكم⁽⁴⁾ عن أبي سعيد الخدري من
طريق زيد العمي، عن أبي الصديق التاجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: خَشِينَا
5 أَنْ يَكُونَ بَعْدَ نَبِيِّنَا حَدَثٌ، فَسَأَلْنَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَقَالَ: "إِنَّ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيَّ، يَخْرُجُ،
يَعِيشُ خَمْسًا أَوْ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا؛ زَيْدُ الشَّاكُّ؛ قَالَ، قُلْنَا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: "سَنِينَ"
قَالَ: "فِيحْيَى إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيَّ أَعْطِنِي". قَالَ: "فَيَخْشَوْهُ لَه فِي ثَوْبِهِ مَا
اسْتَطَاع أَنْ يَحْمِلَهُ". لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهِ
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَلَفْظُ ابْنِ مَاجَةَ وَالْحَاكِمِ: يَكُونُ فِي أُمَّتِي
10 الْمَهْدِيُّ، إِنْ قُصِرَ فَسَبْعٌ، وَإِلَّا فَتِسْعٌ، فَتَنْعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَسْمَعُوا⁽¹⁾ مِثْلَهَا قَطُّ،
تُؤْتِي الْأَرْضَ أَكْلَهَا وَلَا تَدَّخِرُ مِنْهُمْ شَيْئًا؛ وَالْمَالُ يَوْمئِذٍ كُدُوسٌ، فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ:
يَا مَهْدِيَّ أَعْطِنِي! فَيَقُولُ: خُذْ". انْتَهَى.

وزيد العمي وإن قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين: إنه
صالح، وزاد أحمد: إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى، إلا أنه قال فيه أبو حاتم:
15 ضعيف، يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال يحيى بن معين في رواية أخرى: لا شيء.

(1) كذا في الأصول وعند ابن ماجه والحاكم: لم يسموا .

(1) هذه الأقوال كلها في تهذيب الكمال 22: 329 - 330 .

(2) الجامع الكبير (2232) .

(3) السنن (4083) .

(4) المستدرک 4: 558 .

وقال مرة: يَكْتَبُ حَدِيثُهُ، وهو ضَعِيفٌ. وقال الجَوْزْجَانِيُّ: مُتَمَسِّكٌ. وقال أبو زُرْعَةَ: لَيْسَ بِقَوِيٍّ، وَاهِي الْحَدِيثِ ضَعِيفٌ. [وقال أبو دَاوُدَ⁽¹⁾: لَيْسَ بِذَاكَ، وقد حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ. وقال النَّسَائِيُّ: ضَعِيفٌ^(ب)]. وقال ابن عَدِي: عَامَّةٌ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يَرْوِي عَنْهُمْ ضُعَفَاءٌ؛ عَلَى أَنَّ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ، وَلَعَلَّ شُعْبَةَ لَمْ يَرْوِ عَنْ أَضْعَفَ مِنْهُ⁽¹⁾.

وقد يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ التِّرْمِذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيرًا لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ⁽²⁾ مِنْ 5
[216] حَدِيثِ جَابِرٍ، قَالَ: / قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْتِ الْمَالُ حَثِيًّا [لَا يَعُدُّهُ عَدًّا". وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ⁽³⁾ قَالَ: "مَنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْتِ الْمَالُ حَثِيًّا". وَمِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْهَا، قَالَ⁽⁴⁾: "يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ وَلَا يَعُدُّهُ". انْتَهَى. وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقَعْ فِيهَا ذِكْرُ الْمَهْدِيِّ، وَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ بِهَا.

10

ورواه الحاكم أيضًا⁽⁵⁾ مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ، عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُمْلَأَ الْأَرْضُ طُلْمًا وَجَوْرًا وَعُدْوَانًا، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مَنْ يَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مَلِئْتُ طُلْمًا وَعُدْوَانًا".

(أ) ي: أبو حاتم (ب) سقط من ظ .

(1) هذه الأقوال كلها في تهذيب الكمال 10: 58 - 59 .

(2) صحيح مسلم (2913) (67) .

(3) المصدر نفسه (2914) (68) .

(4) المصدر نفسه (2913) (2914) (69) .

(5) المستدرک 4 : 557 .

وقال فيه الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يُخرجاهُ.

ورواه الحاكم⁽¹⁾ أيضًا من طريق سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِيِّ،
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يُخْرِجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيَّ،
يَسْقِيهِ اللَّهُ الْغَيْثَ، وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا. وَيُعْطِي الْمَالَ صِحَاحًا، وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ،
وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ؛ يَعِيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا"؛ يعني حَجَجًا. وقال فيه: حديثٌ صحيحٌ 5
الإِسْنَادُ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ. مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عُبَيْدٍ لَمْ يُخْرِجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السَّنَةِ. لَكِنْ ذَكَرَهُ
ابْنُ حِبَّانَ فِي الثَّقَاتِ⁽²⁾. وَلَمْ نَرِ أَحَدًا تَكَلَّمَ فِيهِ.

ثُمَّ رَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا⁽³⁾ مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ
مَطَرِ الْوَرَّاقِ، وَأَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ، عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
[الْخُدْرِيِّ]⁽⁴⁾ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "ثُمَّ لَا الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا، فَيُخْرِجُ رَجُلٌ مِنْ
عَثَرَتِي فَيَمْلِكُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا". 10

وقال الحاكمُ فيه: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مُسْلِمٍ.

وإِنَّمَا جَعَلَهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، وَعَنْ شَيْخِهِ
مَطَرِ الْوَرَّاقِ. وَأَمَّا شَيْخُهُ الْآخَرُ، وَهُوَ أَبُو هَارُونَ الْعَبْدِيُّ، فَلَمْ يُخْرِجْ لَهُ؛ وَهُوَ
ضَعِيفٌ جَدًّا، مُتَّهَمٌ بِالْكَذِبِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ الْأُئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ. 15

(1) من ل .

(1) المستدرک 2 : 557 - 558 .

(2) الثقات 6 : 392 .

(3) المستدرک 2 : 558 .

وأما الراوي له عن حماد بن سلمة، وهو أسد بن موسى، / يُلقَّب أسد
السُّنَّة، وإن قال البخاري: مشهور الحديث، واستشهد به في صحيحه، واحتج به
أبو داود والنسائي، إلا أنه قال مرّة أخرى: ثقة، لو لم يُصنّف كان خيراً له. وقال فيه
أبو محمد ابن حزم: مُتَكَرِّر الحديث⁽¹⁾.

5 ورواه الطبراني في مُعْجَمِهِ الْأَوْسَط⁽²⁾، من رواية أبي الواصل عند الحميد
ابن واصل، عن أبي الصديق التاجي، عن الحسن بن يزيد السعدي، أحد بني
بهذلة، عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "يُخْرَجُ رَجُلٌ
من أُمِّي يقول بُسْتِي، يُزَلُّ اللهُ له القَطَرُ من السماء، وتُخْرَجُ لَهُ الأرضُ من
بَرَكَهَا، تُثَلِّأُ الأرضُ منه قِسْطًا وَعَدْلًا كما مِلْتُ جَوْرًا وظُلْمًا، يَعْمَلُ على هذه
10 الأُمَّة سَبْعَ سِنِينَ، وَيُنْزَلُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ".

وقال فيه الطبراني: رواه جماعة عن أبي الصديق، ولم يُدْخِلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْتَهُ
وَيُتَيْنُ أَبِي سَعِيدٌ أَحَدًا إِلَّا أَبُو الْوَاصِلِ، فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي
سَعِيدٍ. انْتَهَى.

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم، ولم يُعْرِفْهُ بِأَكْثَرِ مِمَّا فِي هَذَا
15 الإِسْنَادِ مِنْ رَوَايَتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَرِوَايَةِ أَبِي الصَّدِّيقِ عَنْهُ. وَقَالَ الدَّهْبِيُّ فِي

(1) الكلام في أبي هارون العبدي لا معنى له، لأنه مقرون بغيره، وهو مطر الوراق، ولو نقده ابن خلدون
لوجده، وإن روى له مسلم، ضعيفاً، فقد ضعفه يحيى القطان، وأحمد بن حنبل، وابن معين، والنسائي،
وابن سعد، وأبو داود، والعقيلي، والدارقطني، وابن عدي، وإنما روى له مسلم مُتَابِعَةً. انظره مفصلاً في
تحرير التقریب 3: 384.

(2) المعجم الأوسط (1079).

الميزان⁽¹⁾: إِنَّهُ مَجْهُولٌ. لَكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ⁽²⁾ فِي الثَّقَاتِ. وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ فَلَمْ يَخْرُجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السُّنَنِ. وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ⁽³⁾ فِي الثَّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ، وَقَالَ فِيهِ: يَزُوي عَنْ أَنَسٍ، وَرَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَّابُ بْنُ بَشِيرٍ.

وخرَّج ابن ماجه في كتاب السنن⁽⁴⁾ له عن عبد الله بن مسعود، من

طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: بينما نحن

عند رسول الله ﷺ، إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رآهم النبي ﷺ،

اغْرُورَقَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ؛ قَالَ: فَقُلْتُ: مَا نَزَالَ تَرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئًا تَكْرَهُهُ،

فَقَالَ: "إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَإِنَّ أَهْلَ بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ

بَعْدِي / بَلَاءٌ وَتَشْرِيدًا وَتَطْرِيدًا، حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ رَايَاتٌ سَوْدٌ،

فَيَسْأَلُونَ الْخَيْرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ، فَيَقَاتِلُونَ فَيُنْصَرُونَ، فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلَا يَقْبَلُونَهُ،

حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَيَمْلُؤُهَا قِسْطًا كَمَا مَلَأُوهَا جَوْرًا؛ فَمَنْ أَدْرَكَ

ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ". انتهى.

وهذا الحديث يُعرف عند المُحدِّثين بِحَدِيثِ الرَّايَاتِ. وَيَزِيدُ ابْنُ أَبِي زِيَادٍ

زَاوِيَهُ، قَالَ فِيهِ شُعْبَةُ: كَانَ رَفَاعًا؛ يَعْنِي يَزْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً. وَقَالَ

مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ: كَانَ مِنْ كِبَارِ أُمَّةِ الشَّيْعَةِ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ؛

وَقَالَ مَرَّةً: حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذَلِكَ. وَقَالَ يُحْيَى بْنُ مَعِينٍ: ضَعِيفٌ. وَقَالَ الْعِجْلِيُّ: جَائِزٌ

(1) ميزان الاعتدال 1: 527 الترجمة 1966 .

(2) الثقات 4: 124 .

(3) لم نهند إليه في الثقات .

(4) السنن (4082) .

الحديث، وكان بأخرة يُلقَّن. وقال أبو زرعة: لَيْنٌ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ. وقال أبو حاتم: لَيْسَ بِالْقَوِي. وقال الجوزجاني: سَمِعْتُهُمْ يُضَعِّفُونَ حَدِيثَهُ. وقال أبو داود: لَا أَعْلَمُ أَحَدًا تَرَكَ حَدِيثَهُ، وَغَيَّرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ. وقال ابنُ عَدِي⁽¹⁾: هُوَ مِنْ شِيعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَمَعَ ضَعْفِهِ يَكْتُبُ حَدِيثَهُ. وَرَوَى لَهُ مُسْلِمٌ لَكِنْ مَقْرُونًا بغيره⁽²⁾.
وبالجملة فالأكثرُونَ عَلَى ضَعْفِهِ. وَقَدْ صَرَّحَ الْأَيْمَةُ بِتَضْعِيفِ هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ 5
عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، وَهُوَ حَدِيثُ الرَّايَاتِ. فَقَالَ وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِيهِ: لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. وَقَالَ أَبُو قُدَّامَةَ: سَمِعْتُ أَبَا أُسَامَةَ يَقُولُ فِي حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي الرَّايَاتِ، لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِينًا قَسَامَةً مَا صَدَّقْتُهُ، أَهَذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ؟ أَهَذَا مَذْهَبُ عَلْقَمَةَ؟ أَهَذَا مَذْهَبُ عَبْدِ اللَّهِ. وَأُورِدَ الْعُقَيْلِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي الضُّعْفَاءِ. وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: لَيْسَ بِصَحِيحٍ⁽³⁾. 10
وخرَّج ابنُ ماجه⁽⁴⁾ عَنْ عَلِيٍّ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ الْعِجْلِيِّ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنِ الْحَقِيقَةِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْمَهْدِيُّ مِمَّا أَهْلُ الْبَيْتِ، يُضْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ".

[217ب] / وَيَاسِينَ الْعِجْلِيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ابْنُ مَعِينٍ: لَيْسَ بِهِ بِأَسَ، فَقَدْ قَالَ الْبُخَارِيُّ⁽⁵⁾: فِيهِ نَظَرٌ. وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ فِي اصْطِلَاحِهِ قَوِيَّةٌ فِي التَّضْعِيفِ جِدًّا. وَأُورِدَ لَهُ 15

(1) التَّكْمِلُ فِي ضَعْفِ الرِّجَالِ 7 : 2130 .

(2) كُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْ تَهْذِيبِ الْكَمَالِ 32 : 140-137 .

(3) بَلْ قَالَ فِي مُخْتَصَرِ الْمُسْتَدْرَكِ : مُوَضَّعٌ .

(4) السَّنَنُ (4085) .

(5) التَّارِيخُ الْكَبِيرُ 1 : 317 التَّرْجَمَةُ 994 ، قَالَ : فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ .

ابن عَدِيٍّ⁽¹⁾ في الكامل، والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له، وقال هو معروف به⁽²⁾.

وخرَج الطَّبْرَانِيُّ في مُعْجَمه الأَوْسَط⁽³⁾، عن عَلِيٍّ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَمِنَّا الْمَهْدِيِّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: "بَلْ مَنَّا، بِنَا يَخْتَمُ اللَّهُ كَمَا بِنَا فَتَحَ، وَبِنَا يُسْتَنْقَذُونَ مِنَ الشُّرْكِ، وَبِنَا يُؤَلَّفُ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةٍ بَيِّنَةٍ، كَمَا بِنَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةِ الشُّرْكِ". قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَمُومِنُونَ أَمْ كَافِرُونَ؟ قَالَ: "مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ". انتهى.

وفيه عبدُ الله بن لَهَيْعَةَ وهو ضَعِيفٌ مَعْرُوفٌ الحال. وفيه عُمَرُو بن جَابِر الحَضْرَمِيُّ، وهو أَضْعَفُ منه. قَالَ أَحْمَدُ بن حَنْبَلٍ: رَوَى عَنْ جَابِرٍ مَنَاقِبَ، وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُ. وَقَالَ النَّسَائِيُّ: لَيْسَ بِثِقَةٍ؛ وَقَالَ: ابْنُ لَهَيْعَةَ كَانَ شَيْخًا أَحْمَقَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ، وَكَانَ يَقُولُ: عَلِيٌّ فِي السَّحَابِ. وَيَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبْصِرُ سَحَابَةً فيقول: هَذَا عَلِيٌّ قَدْ مَرَّ فِي السَّحَابِ.

وخرَج الطَّبْرَانِيُّ أَيْضًا⁽⁴⁾ عن عَلِيٍّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فِتْنَةٌ يُحْصَلُ النَّاسُ فِيهَا كَمَا يُحْصَلُ الذَّهَبُ فِي الْمَعْدِنِ. فَلَا تُسَبِّوْا أَهْلَ الشَّامِ وَلَكِنْ سُبُّوْا أَشْرَارَهُمْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْأَبْدَالَ؛ يَوْشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ سَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَفْرُقَ جَمَاعَتَهُمْ، حَتَّى لَوْ قَاتَلْتَهُمُ الشَّعَالُ غَلَبَتْهُمْ؛ فَعِنْدَ

(1) الكامل في ضعفاء الرجال 7: 2643.

(2) تهذيب الكمال 31: 181، ميزان الاعتدال 4: 359 الترجمة 9444.

(3) المعجم الأوسط (157).

(4) المصدر نفسه (3917).

ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات، الكثير يقول هم خمسة عشر ألفاً، والمقلل يقول هم اثنا عشر ألفاً، أمازتهم أمث أمث، يلقون سبع رايات، تحت كل راية منها رجل يطلب الملك، فيقتلهم الله جميعاً، ويرد الله إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيهم ودانيهم . [218]

5 وفيه عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف معروف الحال .

ورواه الحاكم في مستدركه⁽¹⁾ فقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وفي روايته: "ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى ألفتهم..." إلخ، وليس في طريقه ابن لهيعة؛ وهو إسناد صحيح كما ذكر⁽²⁾.

وخرج الحاكم في المستدرك⁽³⁾ عن علي رضي الله عنه، من رواية أبي الطفيل، عن محمد بن الحنفية، قال: كنا عند علي، فسأله رجل عن المهدي، فقال 10 علي: هيات؛ ثم عقد بيده سبعاً، فقال: ذاك يخرج في آخر الزمان، إذا قال الرجل: الله الله قتل. فيجمع الله قوماً قرعاً كقرع السحاب، يؤلف الله بين قلوبهم لا يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون بأحد دخل فيهم، على عدة أصحاب بدر، لم يسبقهم الأولون، ولا يذركهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر. قال أبو الطفيل، قال ابن الحنفية: أتريده؟ قلت: نعم، قال: فإنه يخرج 15

(1) المستدرك 4 : 553 .

(2) المؤلف بهذا يصحح الحديث إذ لم يجد في إسناد الحاكم علة، ويرى الدكتور بشار عواد أن علته هو تابعة عبد الله بن زريق راويه عن علي رضي الله عنه، فإنه لم يرو له البخاري ومسلم شيئاً، بل ليس له في السنن سوى حديث واحد عن علي، في الحرير والذهب وأنها حرام، ولم يوثقه سوى العجلي وابن سعد، وهما رخوان في التوثيق. (تهذيب الكمال بتعليقه 14 : 518) .

(3) المستدرك 4 : 556 .

من بين [هذين] ⁽¹⁾ الأخشبتين. قلت: لا جرم والله، لا أريهما حتى أموت، فمات
بها، يعني مكة.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . انتهى .

وإنما هو على شرط مسلم فقط، فإن فيه عماراً الذهني ويونس بن أبي
إسحاق، ولم يخرج لهما البخاري؛ وفيه عمرو بن محمد العنقري، ولم يخرج له البخاري 5
احتجاجاً بل استشهاده، مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهني؛ وهو وإن
وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي وغيرهم، فقد قال علي بن المديني عن
سفيان: إن بشر بن مزوان قطع عزوبيته، قلت: في أي شيء؟ قال: في التشيع.

وخرج ابن ماجه ⁽¹⁾ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، من رواية سعد بن
عبد الحميد بن جعفر، [عن] ^(ب) علي بن زياد التيمي، عن عكرمة بن عمار، عن 10
إسحاق بن عبد الله، / عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نحن ولد
عبد المطلب سادة أهل الجنة، أنا وحزرة وعلي وجعفر والحسن والحسين
والمهدي". انتهى .

وعكرمة بن عمار ⁽²⁾، وإن أخرج له مسلم، فإنما أخرج له متابعة. وقد ضعفه
بعض وثقه آخرون. وقال أبو حاتم الرازي: هو مدلس ⁽³⁾. فلا يقبل، إلا أن 15

(1) في الأصول: هذه (ب) ط: بن .

(1) السنن (4087) .

(2) تهذيب الكمال 20 : 264-258 .

(3) هكذا قال ، والذي في الجرح والتعديل 7 : 10 الترجمة 41 وتهذيب الكمال 20 : 261 : "وربما دلس"؛
وفرق بين العبارتين .

يُصَرِّحُ بِالسَّمَاعِ. وَعَلِيُّ بْنُ زِيَادٍ، قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ⁽¹⁾: لَا يُدْرَى مَنْ هُوَ؛ ثُمَّ قَالَ: الصَّوَابُ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ⁽²⁾. وَسَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ⁽³⁾ وَإِنْ وَثَّقَهُ يَعْقُوبُ ابْنُ شَيْبَةَ، وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ، فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الثَّوْرِيُّ، قَالُوا: لِأَنَّهُ [رَأَاهُ]⁽⁴⁾ يُفْتِي فِي مَسَائِلَ وَيُخْطِئُ فِيهَا. وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ⁽⁴⁾: كَانَ مِمَّنْ فَحَشَ خَطْوُهُ فَلَا يُحْتَجُّ بِهِ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: سَعْدُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ يَدَّعِي أَنَّهُ سَمِعَ 5 عَزْرَ كُثْبٍ مَالِكٍ، وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَهُوَ هَهُنَا يَبْغِدَادَ لَمْ يَحْجْ، فَكَيْفَ سَمِعَهَا؟! وَجَعَلَهُ الذَّهَبِيُّ مِمَّنْ لَمْ يَقْدَحْ فِيهِ كَلَامٌ مِنْ تَكَلَّمَ فِيهِ⁽⁵⁾.

وَحَرَّجَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ⁽⁶⁾ مِنْ رَوَايَةِ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ، قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْ أَنَّكَ مِثْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ؛ قَالَ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ: فَإِنَّهُ فِي سِتْرِ لَا أَذْكُرُهُ لِمَنْ تَكَرَّرَ! قَالَ، 10 فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِمَّا أَهْلُ الْبَيْتِ أَرْبَعَةٌ؛ مِمَّا السَّفَاحُ، وَمِمَّا الْمُنْذِرُ، وَمِمَّا الْمَنْصُورُ، وَمِمَّا الْمَهْدِيُّ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ مُجَاهِدٌ: فَبَيْنَ لِي هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ، فَقَالَ: أَمَّا السَّفَاحُ فَرُبَّمَا قَتَلَ أَنْصَارَهُ وَعَقَّا عَنْ عَدُوِّهِ؛ وَأَمَّا الْمُنْذِرُ، أَرَاهُ قَالَ: فَإِنَّهُ يُعْطِي الْمَالَ الْكَثِيرَ، لَا

(1) سقط من ظ .

(1) ميزان الاعتدال 3 : 127 الترجمة 5843 .

(2) وعبد الله بن زياد اليامي قال فيه البخاري : منكر الحديث (التاريخ الكبير 5 : 95 الترجمة 269) ، وإنما يشير إلى حديثه هذا .

(3) تهذيب الكمال 10 : 287 .

(4) المجروحين 1 : 357 .

(5) يشير المؤلف إلى رسالة الذهبي ، من تكلم فيه وهو موثق .

(6) المستدرک 4 : 514 .

يتعاضم في نفسه، ويُمسك القليل من حقه؛ وأما المنصور فإنه يُعطى النَّصر على
 عدوه الشُّطرَ مما كان يُعطى رسولُ الله ﷺ، يُزَعَبُ منه عدوه على مسيرة
 شهرين، والمنصور يُزَعَبُ منه عدوه على مسيرة شهر؛ وأما المهدي الذي يَمْلَأُ
 الأرض / عدلاً كما مُلِئت جوراً، وتأمُنُ البهائم السباع، وتلقي الأرض أفلاذ كبدها، [219ب]
 5 قال، قلت: وما أفلاذ كبدها؟ قال: أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة .

وقال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ الإسناد، ولم يُخرجاه، وهو من رواية
 إسماعيل بن إبراهيم بن مُهاجر، عن أبيه؛ وإسماعيلُ ضعيفٌ؛ وأبوه إبراهيم وإن
 خَرَجَ له مُسلم، فالأكثرُون على تَضَعِيفِهِ.

وخرَجَ ابنُ ماجه⁽¹⁾ عن ثوبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "يُقتلُ عند
 10 كنزكم ثلاثة كلهم ابنُ خليفة، ثم لا تصير إلى واحدٍ منهم، ثم تطلع الزايات السود من
 قِبَلِ المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يُقتله قومٌ". ثم ذكر شيئاً لا أحفظه، فقال: "فإذا
 رأيتُموه فبايعوه ولو خَبَؤا على الثلج، فإنه خليفةُ الله المهدي". انتهى .

ورجاله رجالُ الصحيح؛ إلا أن فيه أبا قلابَةَ الجُرمي، وذكر الذهبي وغيره
 أنه مُدَلِّس؛ وفيه سُفيان الثوري، وهو مشهور بالتدليس⁽²⁾؛ وكل واحدٍ منهما
 15 عنعن ولم يصرح بالسماع، فلا يُقبل؛ وفيه عبدُ الرزاق بن همام، وكان مشهوراً

(1) السنن (4084) رجاله ثقات لكنه منكر، رواه عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن خالد الحذاء عن أبي
 قلابة عن أبي أسماء الرخبي عن ثوبان. وقد خولف فيه سفيان. فرواه الحاكم 4: 463 والبيهقي في دلائل
 النبوة 6: 516 من طريق عبد الوهاب بن عطاء عن خالد الحذاء به موقوفاً .

(2) أقصى ما قيل فيه: ربّما دَلَّس .

بالتَّشْيِيعِ، وَعَمِيَ فِي آخِرِ عُمرِهِ فحَلَطَ؛ قال ابن عَدِيٍّ⁽¹⁾: حَدَّثَ بِأَحَادِيثٍ فِي
الْفَضَائِلِ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، وَنَسَبُوهُ إِلَى التَّشْيِيعِ . انْتَهَى.

وخرَّجَ ابنُ مَاجَةَ⁽²⁾ عن عبد الله بن الحارث بن جَزْءِ الزُّيَّديِّ، من طَرِيقِ
ابن لَهِيْعَةَ، عن أَبِي رُزْعَةَ عَمْرُو بن جابر الحَضْرَمِيِّ، عن عبد الله بن الحارث بن جَزْءِ،
قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: "يُخْرَجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوطَّئُونَ لِلْمَهْدِيِّ"، يَغْنِي سُلْطَانَهُ. 5
قال الطَّبْرَانِيُّ: تَقَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهِيْعَةَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ الَّذِي خَرَّجَهُ
الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ، أَنَّ ابْنَ لَهِيْعَةَ ضَعِيفٌ، وَأَنَّ شَيْخَهُ عَمْرُو بن جَابِرٍ
أَضْعَفُ مِنْهُ.

[219ب]

وخرَّجَ البَرَّازُ / فِي مُسْنَدِهِ⁽³⁾، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ⁽⁴⁾، وَاللَّفْظُ
لِلطَّبْرَانِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "يَكُونُ فِي أُمَّتِي 10
الْمَهْدِيُّ، إِنْ قَصَرَ فَسَبْعٌ، وَإِلَّا فَثَمَانٌ، وَإِلَّا فَتِسْعٌ، تَنْعَمُ أُمَّتِي فِيهَا نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا
بِمِثْلِهَا؛ تُرْسَلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا؛ وَلَا تَذْخُرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ الثَّبَاتِ؛ وَالْمَالُ
كُدُوسٌ، يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ: يَا مَهْدِيَّ اعْطِنِي، فَيَقُولُ خُذْ".

قال الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَرَّازُ: تَقَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بن مَرْوَانَ الْعَجَلِيَّ. زَادَ الْبَرَّازُ: وَلَا يُعْلَمُ
تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حِبَّانٍ أَيْضًا بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثَّقَاتِ، 15
وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بن مَعِينٍ: صَالِحٌ، وَقَالَ مَرَّةً: لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ، فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ. وَقَالَ

(1) الكامل 5: 1952 .

(2) التَّنِين (4088) .

(3) كَشَفُ الْأَسْتَار (3326) .

(4) الْمُعْجَمُ الْأَوْسَط (5402) .

أبو زُرْعَة: ليس عندي بذلك ؛ وقال عبدُ الله بن أحمد بن حنبل: رأيتُ محمد بن مَرْوانَ العُقَيْليَّ وحَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وأنا شاهدٌ لم أَكْثِبْها، تركُها على عَمْدٍ. وكتب بعض أصحابنا عنه؛ كَأَنَّهُ ضَعْفَهُ⁽¹⁾.

وخرَجَ أبو يَعْلَى المَوْصِلِيُّ في مُسْنَدِهِ⁽²⁾، عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: حَدَّثَنِي حَلِيلِي أبو القاسم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْهِم رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَيَضْرِبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ". قال، قلتُ: وَمَنْ يَمْلِكُ؟ قال: "خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ". قال، قلتُ: وما خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ؟ قال: "لا أَذْري". انتهى.

وهذا السند، وإن كان فيه بَشِير بن نَهْيَك، وقال فيه أبو حاتم: لا يُحْتَجُّ به، فقد احتجَّ به الشَّيْخَان، وَوَثَّقَهُ النَّاسُ، ولم يَلْتَفِتُوا إلى قول أبي حاتم: لا يُحْتَجُّ به. إلا أنَّ فيه مُرْجِي بن رَجَاءَ اليَشْكُريَّ، وهو مُخْتَلَفٌ فيه. قال أبو زُرْعَة: ثَقَّةٌ؛ وقال يَحْيَى بن مَعِين: ضَعِيفٌ؛ وقال أبو داود: ضَعِيفٌ؛ وقال مَرَّةٌ: صَالِحٌ. وَعَلَّقَ له البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ جُذْمًا وَاحِدًا⁽³⁾.

وخرَجَ أبو بَكْر البَرَّار في مُسْنَدِهِ⁽⁴⁾ / والطَّبْرانيُّ في مُعْجَمِهِ الكَبِيرِ⁽⁵⁾ [220] والأَوْسَطِ⁽⁶⁾، عن قُرَّة بن إِيَّاس، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: "لَتُمْلَأَنَّ الْأَرْضُ

(1) هذه الأقوال مقتبسة من تهذيب الكمال 26 : 390-389.

(2) مسند أبي يعلى (6665) وعنه الهيثمي في مجمع الزوائد 7 : 433 حديث (12401) وإسناده ضعيف.

(3) هو في العيدين من صحيحه 2 : 21 عقيب حديث رقم (953)، وهذا الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد 7 : 433 حديث رقم 12401 وعزاه لأبي يعلى، وأعله بما أعلاه المؤلف.

(4) كشف الأستار (3325).

(5) المعجم الكبير 19 : 32.

(6) المعجم الأوسط (8321).

جَوْزًا وَظُلَمًا، فَإِذَا مُلِئَتْ جَوْزًا وَظُلَمًا بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنِّي اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي، يَمْلَأُهَا عَذْلًا وَقَسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْزًا وَظُلَمًا؛ فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ شَيْئًا مِنْ قَطْرِهَا، وَلَا الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا. يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا أَوْ تِسْعًا؛ يَغْنِي سِنِينَ. انْتَهَى.

5 وفيه داود بن المخبر بن قحذم، عن أبيه، وهما ضعيفان جدًا⁽¹⁾.

*وخرَج الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ⁽²⁾، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يُخْرِجُ نَاسٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ يُرِيدُونَ رَجُلًا عِنْدَ الْبَيْتِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بَبْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ، فَيَلْحَقُ بِهِمْ مَنْ تَخَلَّفَ فَيُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَهُمْ؛ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَمْنُكَ أَنْ أُخْرَجَ مُسْتَكْرَهًا؟ قَالَ: يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ كُلَّ امْرِئٍ عَلَى نَبِيَّتِهِ". انْتَهَى.

10

وفيه سلمة بن الأبرش⁽³⁾، وهو ضعيف؛ وفيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وقد غنَّعَ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا أَنْ يُصَرَّحَ بِالسَّمَاعِ⁽⁴⁾.

وخرَج الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ⁽⁴⁾ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَقْرِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ، وَالْعَبَّاسُ عَنْ

(1) سقط ما بين النجمين من ي .

(1) بهذه العلة أعلاه الهيثمي في مجمع الزوائد 7 : 432 حديث 12396 .

(2) المعجم الأوسط (4042) وهو في مجمع الزوائد 7 : 434 حديث 12403 .

(3) هو سلمة بن الفضل ، الأبرش .

(4) المعجم الأوسط (4142) .

يَمِينِهِ، إِذْ تَلَاخَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ الْعَبَّاسِ وَبَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: "سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى⁽¹⁾ يَمْلَأُ الْأَرْضَ جُورًا وَظُلْمًا، وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هَذَا حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا. فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِالْفَتَى التَّمِيمِيِّ، فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ الْمَهْدِيِّ". انْتَهَى .

5 وفيه عبدُ الله بن عُمَرُ الْعُمَرِيُّ وعبدُ الله بن لَهِيْعَة، وهما ضَعِيفَانِ. انْتَهَى .

/ وَخَرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ⁽²⁾، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ [220ب] النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَهْدَأُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا جَاشَ مِنْهَا جَانِبٌ، حَتَّى يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: إِنَّ أَمِيرَكُمْ فُلَانٌ". انْتَهَى .

10 وفيه الْمُثَنَّى بن الصَّبَّاحِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا. وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِيِّ، وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجَمْتِهِ اسْتِثْنَاءً .

هَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ الَّتِي خَرَّجَهَا الْأُئِمَّةُ فِي شَأْنِ الْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ الزَّمَانِ. وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ، وَلَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا عَلَى التَّقْدِ إِلَّا الْقَلِيلُ، أَوْ الْأَقْلُ مِنْهُ .

وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ الْمُتَكِبُّونَ لِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ الْجَنْدِيِّ، عَنْ أَبَانَ بْنِ صَالِحِ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ، عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ"⁽³⁾ . 15

(1) هَكَذَا فِي الْأَصُولِ وَفِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ ، وَفِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ 7 : 436 : فَتَى .

(2) الْمَعْجَمُ الْأَوْسَطُ (4663) .

(3) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (4039) وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ 9 : 161 وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ 4 :

441 وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ 1 : 155 وَالْخَطِيبُ فِي تَارِيخِ مَدِينَةِ السَّلَامِ 5 : 361 وَابْنُ

الْجَوْزِيِّ فِي الْعِلَلِ الْمُنْتَاهِيَةِ، فِي الْأَحَادِيثِ الْوَاهِمَةِ (1447) وَالشُّوْكَانِيُّ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ 195 وَالْمَرْزِيُّ

فِي تَهْذِيبِ الْكَمَالِ 25 : 148 .

وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي: إنه ثقة. وقال البيهقي: تفرد به محمد بن خالد. وقال الحاكم فيه: إنه رجل مجهول. واختلف عليه في إسناده، فمرة يزورونه كما تقدم، ونُسب ذلك إلى محمد بن إدريس الشافعي؛ ومرة يروى عن محمد بن خالد، عن أبان، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً. قال البيهقي: فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهول، عن أبان ابن أبي عيَّاش وهو متروك، عن الحسن عن النبي ﷺ، وهو منقطع. وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب⁽¹⁾. وقد قيل إن معنى "لا مهدي إلا عيسى"؛ أي لا يتكلم في المهدي إلا عيسى؛ يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به، أو الجمع بينه وبين الأحاديث، وهو مدفوع بحديث جزيج ومثله من الحوارق.

- 10 وأما المتصوفة، فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجه والأحوال. وكان كلام الإمامية⁽¹⁾ والرافضة من الشيعة في تفضيل / علي رضي الله عنه، والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي ﷺ، والتبري من الشيخين كما ذكرناه في مذهبهم^(ب). ثم حدث فيهم من بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وكثرت التآليف في مذاهبهم. وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع الحلول؛ وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ أو الحقيقة^(ج)؛ وآخرون ينتظرون

(أ) ل: الإباضية (ب) في ع ل ج ي: مذاهبهم (ج) سقط من ي .

(1) هذه الأقوال كلها مقبسة باختصار من تهذيب الكمال 25 : 148 - 150 .

مَجِيءٍ مِنْ يُقْطَعُ بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ؛ وَآخَرُونَ يَنْتَظِرُونَ عَوْدَ الْأَمْرِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ،
مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ وَغَيْرِهَا .

ثُمَّ حَدَّثَ أَيْضًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْكَلَامَ فِي الْكَشْفِ وَفِيَا وَرَاءَ
حِجَابِ الْحَسَنِ . وَظَهَرَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْحُلُولِ وَالْوَحْدَةِ، فَشَارَكُوا
5 فِيهَا الْإِمَامِيَّةَ وَالرَّافِضِيَّةَ ، لِقَوْلِهِمْ بِالْوَهِيَّةِ الْأَيُّمَةِ أَوْ حُلُولِ الْإِلَهِ فِيهِمْ . وَظَهَرَ مِنْهُمْ أَيْضًا
الْقَوْلُ بِالْقُطْبِ وَالْأَبْدَالِ، وَكَأَنَّهُ يُحَاكِي مَذْهَبَ الرَّافِضَةِ فِي الْإِمَامِ وَالْتِقَاءِ . وَأَشْرَبُوا
أَقْوَالَ الشَّيْعَةِ، وَتَوَغَّلُوا فِي الدِّينَةِ بِمَذَاهِبِهِمْ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلُوا مُسْتَنَدَ طَرِيقَتِهِمْ فِي
لِبَاسِ الْخِزْمَةِ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ * أَلْبَسَهَا الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ^(أ)، وَأَخَذَ عَلَيْهِ
الْعَهْدَ بِالْإِتِمَامِ الطَّرِيقَةِ؛ وَاتَّصَلَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِالْجُنَيْدِ مِنْ شُيُوخِهِمْ . وَلَا يُعْلَمُ هَذَا عَنْ
10 عَلِيٍّ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ . وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ خَاصَّةً بِعَلِيٍّ [كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ]^(ب)؛ بَلْ
الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أَسْوَةٌ فِي طُرُقِ الدِّينِ^(ج)؛ وَفِي تَخْصِيصِ هَذَا بِعَلِيٍّ دُونَهُمْ رَاحَةٌ مِنْ
النَّشِيعِ قَوِيَّةٍ ، يُفْهَمُ مِنْهَا وَمِنْ غَيْرِهَا تَمَّا تَقَدَّمَ دُخُولُهُمْ فِي النَّشِيعِ وَانْخِرَاطُهُمْ فِي
سَبِيلِهِ .

فَامْتَلَأَتْ كُتُبُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنَ الرَّافِضَةِ، وَكُتُبُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ،
15 بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الْفَاطِمِيَّةِ الْمُنْتَظَرِ . وَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ يُقْلِبُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَلْقَنُهُ بَعْضٌ عَنْ
بَعْضٍ، / وَكُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصُولٍ وَاهِيَةٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ . وَرُبَّمَا يَسْتَنِدُ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ
إِلَى كَلَامِ الْمُتَنَجِّمِينَ فِي الْقِرَآنَاتِ، وَهُوَ مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ فِي الْمَلَا حِمٍّ؛ وَيَأْتِي الْكَلَامُ
عَلَيْهَا فِي الْبَابِ الَّذِي يَلِي هَذَا .

(أ) سقط من ي (ب) سقط من ظ (ج) ع: الهدى .

وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي، ابن
العربي⁽¹⁾ الحائمي في كتاب عَنَقَاءُ مُغْرِب⁽¹⁾، وابن قسي في كتاب خَلْع التَّغْلِينَ⁽²⁾،
وعبد الحق بن سبعين، وابن أبي واطيل⁽³⁾ من تلميذه، في شرحه لكتاب خَلْع
التَّغْلِينَ. وأكثر كلماتهم في شأنه الغارز وأمثال، وربما يُصرِّحون في الأقل، أو يُصرِّح
مُفسِّرو كلامهم.

5

وحاصل مذهبهم فيه، على ما ذكر ابن أبي واطيل: أن النبوة بها ظهر
الحق والهدى بعد الضلال والعمى؛ وأنها تعقبها الخلافة؛ ثم يعقب الخلافة الملك؛
ثم يعود [الملك]^(ب) تجبراً وتكبراً وباطلاً. قالوا: ولما كان [في]^(ج) المذهب من سنة
الله رجوع الأمور إلى ما كانت، وجب أن يجيء أمر النبوة والحق بالولاية؛ ثم
بخلافتها؛ ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط؛ ثم يعود الكفر بحاله كما كان قبل
10 النبوة. يُشيرون بهذا إلى ما وقع بعد النبوة من الخلافة، ثم بعدها الملك، وهي
ثلاث مراتب. فكذاك أيضاً الولاية التي لهذا الفاطمي الذي يُجني أمر النبوة
والحق، ثم خلافة أمره بعده، ثم الدجل بعدها، وهو الباطل الذي كُتّي عنه بخروج

(أ) كذا في جميع الأصول المعتمدة للنص معروفاً، والمشهور فيه أنه مُعرّف بالتكثير (ب) من ل (ج) سقط من ظ .

(1) ... في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب، 92، 93 (تحقيق بهنساوي الشريف- القاهرة 1998) .
(2) ... واقتباس الثور من موضع القدمين. لأحمد بن قسي، حققه الدكتور محمد الأمrani. (آسفي- المغرب)،
وأصل ابن قسي من المولدين أمراء تطيلة، أسلم جدّه عند فتح الأندلس، وأورد ابن حزم نسبهم في
الجمهرة 499، 502- ترجمه الذهبي: تاريخ الإسلام 12: 188، الصفدي: الوافي 7: 297، المراكشي:
المعجب 281 .

(3) لم تقف على ترجمته ولا على شرحه لكتاب ابن قسي .

الدَّجَال. فهي ثلاثُ مَرَاتِبٍ على نِسْبَةِ الثَّلاثِ مَرَاتِبِ الْأُولَى، ثُمَّ يَعُودُ الْكُفْرُ كَمَا
كَانَ قَبْلَ النَّبُوءَةِ . قَالُوا : وَلِمَا كَانَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ لِقُرَيْشٍ حُكْمًا شَرْعِيًّا بِالْإِجْمَاعِ الَّذِي
لَا يُوهِنُهُ إِنْكَارُ مَنْ لَمْ يُزَاوِلْ عِلْمَهُ، وَجَبَ أَنْ تَكُونَ الْإِمَامَةُ فِيمَنْ هُوَ أَحْصَى مِنْ
قُرَيْشٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، أَمَّا ظَاهِرًا فَكَتَبَنِي عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَأَمَّا بَاطِنًا فَمِمَّنْ كَانَ مِنْ
حَقِيقَةِ الْآلِ، وَالْآلِ: هُمْ مَنْ إِذَا حَضَرَ لَمْ / يَغِبْ مِنْ هُوَ آلُهُ.

[222]

وابن العربي الحاتمي سَمَاهُ فِي كِتَابِ عَنَقَاءِ مُغْرِبٍ مِنْ تَأْلِيفِهِ: خَاتَمُ
* الْأَوْلِيَاءِ؛ وَيَكْنِي عَنْهُ بِلَبَنَةِ الْفِضَّةِ ⁽¹⁾، إِشَارَةً إِلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ ⁽²⁾ فِي بَابِ
خَاتَمِ * ⁽¹⁾ النَّبِيِّينَ؛ قَالَ ﷺ: "مَثَلِي فِيمَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا
وَأَكْمَلَهُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتَّقَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ، فَأَنَا تِلْكَ اللَّبَنَةُ". فَيُفَسَّرُونَ خَاتَمَ
النَّبِيِّينَ بِاللَّبَنَةِ الَّتِي أَكْمَلَتِ الْبُنْيَانَ، وَمَعْنَاهُ النَّبِيُّ الَّذِي حَصَلَتْ لَهُ النَّبُوءَةُ الْكَامِلَةُ.
وَيُمَثِّلُونَ الْوِلَايَةَ فِي تَفَاوُتِ مَرَاتِبِهَا بِالنَّبُوءَةِ ، وَيَجْعَلُونَ صَاحِبَ الْكَمَالِ فِيهَا خَاتِمًا
لِلْأَوْلِيَاءِ، [أَي] ^(ب) حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ الْوِلَايَةِ ، كَمَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ
حَائِزًا لِلْمَرْتَبَةِ الَّتِي فِيهَا خَاتِمَةُ النَّبُوءَةِ. وَلَمَّا كُنِيَ الشَّارِعُ عَنْ تِلْكَ الرَّتَبَةِ الْخَاتِمَةَ بِلَبَنَةِ
الْبَيْتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ، وَهِيَ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهِمَا ^(ج)، فَهِيَ لَبَنَةٌ وَاحِدَةٌ فِي
التَّمْثِيلِ ؛ فِي النَّبُوءَةِ لَبَنَةٌ ذَهَبٌ؛ وَفِي الْوِلَايَةِ لَبَنَةٌ فِضَّةٌ ؛ لِلتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمُرْتَبَتَيْنِ ،

(1) سقط ما بين النجمين من ي (ب) سقط من ظ (ج) ظ : بها .

(1) يذكر ابن العربي في عنقاء مغرب: "ختم الأولياء"، ولم يذكر لبنة الفضة، وإثباتا جاءت الإشارة إلى ذلك
وإلى حديث البخاري في الفتوحات المكية 2: 94 - وفي شرح عبد الرزاق القاشاني لفصوص الحكم
42، 43 (الجلي، القاهرة 1966) .

(2) الجامع الصحيح 4 : 226 حديث (3535) .

كما بين الذهب والفضة . فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي ﷺ ؛ ولبنة
الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر ؛ وذلك خاتم الأنبياء ، وهذا خاتم
الأولياء .

وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه : وهذا الإمام المنتظر هو
من أهل البيت ، من ولد فاطمة . وظهوره يكون بعد مضيّ خ ف ج من الهجرة ،
5 ورسم حروفاً ثلاثة يُريدُ عدّها بحساب الجمل ، وهو الحاء المعجمة بوحدة من
فوق ، بستمئة ؛ والفاء أخت القاف ، بثمانين ؛ والجيم المعجمة بوحدة من أسفل ،
بثلاثة ؛ وذلك ستمئة وثلاث وثمانون سنة ، وهو في آخر القرن السابع . ولما
انصرم هذا العصر ولم يظهر ، حمل ذلك بعض المقلّدين لهم على أن المراد بتلك المدة
مؤلّده ، وعبر بظهوره عن مؤلّده ، وأنّ خروجه يكون عند العشر والسبعمئة ،
10 وأنّه الإمام الناجم من ناحية المغرب . / قال : وإذا كان مؤلّده كما زعم ابن العربي
سنة ثلاث وثمانين وستمئة ، فيكون عمره يوم خروجه ستاً وعشرين سنة .

قال: وزعموا أنّ خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة من
اليوم المحمّديّ. وابتداء اليوم المحمّديّ عندهم من يوم وفاة النبي ﷺ إلى تمام ألف
15 سنة.

وقال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع الثقلين: الولي المنتظر القائم بأمر
الله المشار إليه بمحمّد المهديّ⁽¹⁾ وخاتم الأولياء، ليس هو بنبي، وإنّا هو وليّ ابتعته

(1) سقط من ج .

رُوحَهُ وَحَبِيبُهُ. قَالَ ﷺ⁽¹⁾: "العَالِمُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ". وَقَالَ⁽²⁾: "عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ". وَلَمْ تَزَلْ الْبُشْرَى تَتَابَعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ الْمُحَمَّدِيِّ إِلَى قُبَيْلِ الْخُمْسِائَةِ نِصْفِ الْيَوْمِ. وَتَأَكَّدَتْ وَتَضَاعَفَتْ بِتَبَاشِيرِ الْمَشَائِخِ بِتَقْرِيبِ وَقْتِهِ، وَازْدِلَافِ زَمَانِهِ مُنْذُ انْقَضَتْ، إِلَى هَلَمَّ جَرًّا .

5 قال: وذكر الكِنْدِيُّ أَنَّ هَذَا الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي بِالنَّاسِ صَلَاةَ الظُّهْرِ، وَيُجَدِّدُ الْإِسْلَامَ، وَيُظْهِرُ الْعَدْلَ، وَيَفْتَحُ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ، وَيَصِلُ إِلَى رُومَةٍ فَيَفْتَحُهَا، وَيَسِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَيَفْتَحُهَا، وَيَفْتَحُ قُسْطَنْطِينَةَ، وَيَصِيرُ لَهُ مُلْكُ الْأَرْضِ، فَيَتَّقَوِي الْمُسْلِمُونَ وَيَغْلُو الْإِسْلَامُ، وَيُظْهِرُ دِينَ الْحَنِيفِيَّةِ، فَإِنَّ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ وَقْتُ صَلَاةٍ؛ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ⁽³⁾: "مَا بَيْنَ هَذَيْنِ وَقْتُ".

10 وقال الكِنْدِيُّ أَيْضًا: الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ غَيْرُ الْمُعْجَمَةِ، يَعْنِي الْمَفْتُوحَ بِهَا سُورَ الْقُرْآنِ، جُمْلَةُ عَدَدِهَا بِحِسَابِ⁽¹⁾ الْجُمْلِ⁽¹⁾، سَبْعُمِائَةٌ وَثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ، وَسَبْعَةُ دَجَالِيَّةٍ. ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيُصْلِحُ الدُّنْيَا، وَتَمْشِي الشَّاةُ مَعَ الذَّنْبِ. ثُمَّ مَبْلَغُ مُلْكِ الْعَجَمِ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ مَعَ عِيسَى مِائَةٌ وَسِتِّينَ عَامًا، عَدَدُ الْحُرُوفِ الْمُعْجَمَةِ وَهِيَ: ق ي ن، دَوْلَةُ الْعَدْلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ عَامًا.

(1) سقط من ي .

(1) لم نقف عليه بهذا اللفظ .

(2) موضوع لا أصل له ، ذكره القاري في كتاب المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ، رقم (196) .

(3) قطعة من حديث يزيد بن الحُصَيْنِبِ الْأَسْلَمِيِّ، أخرجه أحمد في مسنده 5 : 349، ومسلم في صحيحه، حديث رقم (176)، والترمذي في الجامع الكبير (152)، وابن ماجه في السنن (667)، والنسائي في المجتبى 1: 258 .

قال ابن أبي واطيل :/ وما وَرَدَ من قَوْلِهِ "لا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى". فَمَعْنَاهُ لا مَهْدِيَّ تُساوِي هِدَايَتَهُ، وَقِيلَ: لا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى. وَهَذَا مَذْفُوعٌ بِحَدِيثِ جَرِيحٍ وَغَيْرِهِ.

وقد جاء في الصحيح⁽¹⁾ أَنَّهُ قَالَ: "لا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ قائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ يَكُونَ عَلَيْهِمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً"، يَعْنِي قُرَيْشًا. وَقَدْ أُعْطِيَ الْوُجُودُ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ 5 فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَيَكُونُ فِي آخِرِهِ. وَقَالَ: "الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ أَوْ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ"⁽²⁾. وَاقْتِضَاؤُهَا فِي خِلَافَةِ الْحَسَنِ، وَأَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ، فَيَكُونُ أَوَّلُ أَمْرِ مُعَاوِيَةَ خِلَافَةً أَخَذًا بِأَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ، فَهُوَ سَادِسُ الْخُلَفَاءِ، وَأَمَّا سَابِعُ الْخُلَفَاءِ فَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ثُمَّ الْبَاقُونَ خَمْسَةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَّةِ عَلِيٍّ، يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: "إِنَّكَ لَدُو قُرَيْشِيهَا"، يُرِيدُ الْأَمَّةَ، أَيْ إِنَّكَ خَلِيفَةٌ فِي أَوَّلِهَا، وَذَرِيَّتُكَ 10 فِي آخِرِهَا.

وَرُبَّمَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْقَائِلُونَ بِالرَّجْعَةِ. فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَهُمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا. وَقَدْ قَالَ ﷺ: "إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كَنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"⁽³⁾.

(1) فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (1822) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ .

(2) الْمَحْفُوظُ : "الْخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ عَامًا" حَسَبَ، مِنْ حَدِيثِ سَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ 220/5، وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (4647) ، وَالتَّسَائِي فِي سُنَنِهِ الْكَبْرَى (8155)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (6943)، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِحْدَى وَثَلَاثُونَ أَوْ سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ .

(3) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ 8 : 160 حَدِيثَ رَقْمٍ (6630) وَمُسْلِمٌ (2918) وَهُوَ عِنْدَهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ (2919) .

وقد أُنْفِقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَنُوزَ كِسْرَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَالَّذِي يُهْلِكُ قَيْصَرَ وَيُنْفِقُ كَنُوزَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ هَذَا الْمُنْتَظَرُ حِينَ يَفْتَحُ الشُّسْطُنُطِيَّةُ، "فَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ"⁽¹⁾، كَذَا قَالَ ﷺ. وَمُدَّةُ حُكْمِهِ بِضْعٌ، وَالْبِضْعُ مِنْ ثَلَاثٍ إِلَى تِسْعٍ، وَقِيلَ إِلَى عَشْرٍ. وَجَاءَ ذِكْرُ أَرْبَعِينَ؛ وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ سَبْعِينَ. وَأَمَّا الْأَرْبَعُونَ فَإِنَّهَا مُدَّتُهُ وَمُدَّةُ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ الْبَاقِينَ مِنْ أَهْلِهِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ، 5 عَلَى جَمِيعِهِمُ السَّلَامُ.

قال، وذكر أصحاب النجوم والقرانات: أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عامًا، فيكون الأمر على هذا جاريًا على الخلافة والعدل أربعين / أو سبعين، ثم تختلف الأحوال فتكون ملكًا. انتهى كلام ابن أبي واطيل. [223ب]

10 وقال في موضع آخر: نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه.

قال: وذكر الكندي، يعقوب بن إسحاق، في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرائات: أنه إذا وصل القرآن إلى الثور على رأس ضح⁽²⁾، بحرفين⁽¹⁾، الضاد المعجمة، والحاء المهملة، يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة⁽²⁾، ينزل المسيح 15 فيخكم في الأرض ما شاء الله. قال، وقد ورد في الحديث⁽³⁾: أن عيسى ينزل عند

(أ) ع: بحرفي.

(1) لا يصح في هذا حديث عن النبي.

(2) بحساب الجمل على طريقة المغاربة تساوي 98 وعند المشاركة 808، فلا وجه لما ذكره.

(3) صحيح مسلم (2137).

الْمَنَارَةُ الْبَيْضَاءُ شَرْقِي دِمَشْقَ، يَنْزِلُ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، يَعْنِي حُلَّتَيْنِ مُزَعَفَرَتَيْنِ
صَفْرَاوَتَيْنِ مُمَصَّرَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفِّهِ عَلَى أَجْنِحَةِ الْمَلَكَيْنِ، لَهُ لِمَّةٌ، كَأَنَّمَا أُخْرِجَ مِنْ
دِيْمَاسٍ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، كَثِيرٌ خَيْلَانِ
الْوَجْهِ. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: مَرْبُوعُ الْخَلْقِ وَإِلَى الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ. وَفِي آخَرَ: أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ
فِي الْغَرْبِ. وَالْغَرْبُ دِلُّو الْبَادِيَةِ؛ يُرِيدُ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ مِنْهَا وَتَلِدُ زَوْجَتَهُ، وَذَكَرَ وَفَاتَهُ بَعْدَ
أَرْبَعِينَ عَامًا. وَجَاءَ: أَنَّ عِيسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ * وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ *^(أ). وَجَاءَ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يُحْشَرَانِ مِنْ بَيْنِ نَبِيِّينَ^(ب).

قَالَ ابْنُ أَبِي وَاطِلِيلٍ: وَالشَّيْعَةُ تَقُولُ [إِنَّهُ] ^(ج) هُوَ الْمَسِيحُ، مَسِيحُ الْمَسَائِحِ
مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ؛ وَعَلَيْهِ حَمَلُ بَعْضُهُمْ حَدِيثَ "لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى"، أَيْ لَا يَكُونُ
مَهْدِيٌّ إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي يُنسَبُّهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ يُنسَبُّهُ عِيسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ
الْمُوسَوِيَّةِ فِي الْإِتِّبَاعِ وَعَدَمِ النَّسْخِ.

إِلَى كَلَامٍ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا كَثِيرٍ، يُعَيِّنُونَ فِيهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلَ وَالْمَكَانَ،
فَيَنْقُضِي الزَّمَانُ وَلَا أَثَرَ لَشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيٍ آخَرَ، مُنْتَحِلٍ
- كَمَا تَرَاهُ - مِنْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءٍ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ نُجُومِيَّةٍ. فِي هَذَا انْقَضَتْ
أَعْمَارُ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَالْآخِرِ.

وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ / الَّذِينَ عَاصَرْنَا هُمْ، فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظُهُورِ رَجُلٍ مُجَدِّدٍ
لِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَمَرَاثِمِ الْحَقِّ، وَيَتَحَيَّنُونَ ظُهُورَهُ لِيَأْخُذَ قُرْبَ مِنْ عَصْرِنَا. فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ

[224]

(أ) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ع : نبئين (ج) سقط من ظ .

من وَلَدِ فاطمة، وبعضهم يُطلقُ القولَ فيه، سَمِعناه⁽¹⁾ عن جماعة، أكبرهم أبو يعقوب
البادسي كبيرُ الأولياء بالمغرب، كان في أول هذه المائة الثامنة، وأخبرني بذلك عنه
حافده صاحبنا أبو زكرياء يحيى، عن أبيه أبي مُحَمَّد عبد الله، عن أبيه الولي أبي
يعقوب المذكور .



5 هذا آخر ما اطلعنا عليه، أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة ، وما أوردَهُ
أهل الحديث من أخبار المهديّ، قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا .

والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك، أنه لا تتم دعوة من الدين أو الملك إلا
بوجود شوكة وعصية تظهره وتدافع عنه من يدفعه⁽¹⁾ ، حتى يتم أمر الله فيه . وقد
قررنا ذلك من قبل بالبراهين الطبيعية التي أرتيناها هنالك . وعصية الفاطميين
10 والطالبيين بل وقريش أجمع، قد تلاشت من جميع الآفاق، ووُجِدَ أَمَمٌ آخرون
[استقلت]^(ب) عصيتهم على عصية قريش، إلا ما بقي بالحجاز في مكة واليمن
والمدينة^(ج) ، من الطالبيين بني حسن وبني حسين وبني جعفر، منتشرون في تلك
البلاد وغالبون عليها. وهم عصابُ بدوية مفترقون في موطنهم وإمارتهم وآرائهم،
يتلغون الآلاف من الكثرة. فإن صحَّ ظهورُ هذا المهديّ، فلا وجه لظهور دعوته إلا
15 بأن يكون منهم ، ويؤلف الله بين قلوبهم في أتباعه حتى تتم له شوكة وعصية وإفية

(1) ل : ينافه (ب) ظ : استقلت (ج) ي : بالمدينة .

(1) انظره في التعريف بابن خلدون 387 (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القيروان للنشر- تونس 2006 م).

بإظهارِ كَلِمَتِهِ وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهَا . وأما على غَيْرِ هذا الْوَجْهِ ، مثل أن يَدْعُو النَّاسَ فاطمِيَّ منهم إلى مثل ذلك الأمر في أفقٍ من آفاقِ الْأَرْضِ من غَيْرِ عَصِيَّةٍ ولا شَوْكَةٍ ، إِلَّا مجرَّدَ نِسْبَةٍ في أَهْلِ الْبَيْتِ ، فلا يَمَّ ذلك ولا يُمكنُ ، لما أَسْلَفْنَا من البراهين الصَّحِيحَةِ .

[224ب]

- 5 / فأما ما تَدْعِيهِ الْعَامَّةُ وَالْأَعْمَارُ من الدَّهْماءِ ، مَن لا يَرْجِعُ في ذلك إلى عَقْلِ يَهْدِيهِ ولا عِلْمٍ يُقَيِّدُهُ ، فَيَتَحَيَّنُونَ ذلك على غَيْرِ نِسْبَةٍ وفي غَيْرِ مَكَانٍ ، تَقْلِيدًا لما اشتهر من ظُهور رَجُلٍ فاطمِيٍّ ، ولا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ فيه كما بَيَّنَّاهُ . وأكثر ما يَتَحَيَّنُونَهُ في الْقَاصِيَةِ من الْمَمَالِكِ وَأَطْرَافِ الْعُفْرَانِ ، مثل الزَّابِ بِإِفْرِيقِيَّةٍ ، والسُّوسِ من الْمَغْرِبِ . وَتَجِدُ الْكَثِيرَ من ضُعَفَاءِ الْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رِبَاطًا بِمَاسَةٍ من أَرْضِ السُّوسِ ، يَتَحَيَّنُونَ هُنَالِكَ لِقَاءَهُ ، زَعَمًا مِنْهُمْ أَنَّهُ يَظْهَرُ بِذلك الرِّبَاطِ ، وَأَنَّهُ يُبَايِعُ هُنَالِكَ . وَلَمَّا كَانَ ذلك الرِّبَاطُ بِالْقُرْبِ من الْمَلَكُوتِ من كُدَالَةٍ^(أ) ، وَاعْتَقَادَهُمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ أو قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ ، مَزْعَمًا لا مُسْتَنَدَ لَهُ ، إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ الْأُمَمِ وَبُعْدُهُمْ عن يَقِينِ الْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا من كَثَرَةٍ أو قِلَّةٍ أو ضَعْفٍ أو قُوَّةٍ ، وَلِبُعْدِ الْقَاصِيَةِ عن مَنَالِ الدُّوَلِ^(ب) وَخُرُوجِهَا عن نِطاقِهَا ؛ فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ الْأَوْهَامُ في ظُهُورِهِ هُنَالِكَ لَخُرُوجِهِ عن رِقَبَةِ الدُّوَلِ وَمَنَالِ الْأَحْكَامِ وَالْقَهَرِ ؛ وَلا مَحْصُولَ لَدَيْهِمْ في ذلك إِلَّا هَذَا . وَلَقَدْ 15 يَقْصِدُ ذلك الْمَوْضِعَ كَثِيرٌ من ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةِ تُمْنِيَةِ النَّفْسِ تَمَامَهَا ، وَسُوَاسًا وَحُمَقًا . وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ .

(أ) الكاف في ع ل مضمومة ومنقوطة من تحت لضبط التطق (ب) ع ي: الدولة .

أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي ، قال : خَرَجَ بِرِبَاطٍ مَاسَةٍ لَأَوَّلِ
 الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَعَصْرَ السُّلْطَانِ يَوْسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ ، رَجُلًا مِنْ مُتَحَلِّي التَّصَوُّفِ ،
 يُعْرَفُ بِالشَّوَيْزَرِيِّ - نَسَبُهُ إِلَى تُوَزَّرَ مُصَغَّرًا - وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ ، وَاتَّبَعَهُ
 الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ الشُّوسِ مِنْ صِنَاكِهِ ^(١) وَكَزُولِهِ ^(١) ، وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَكَادَ يَسْتَفْجِلُ ،
 5 وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ الْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ ، فَدَسَّ عَلَيْهِ السَّكْسِيُّوِيَّ مِنْ قَتْلِهِ بَيَاتًا ، وَانْحَلَّ
 أَمْرُهُ.

وكذلك ظَهَرَ فِي غُمَارَةٍ فِي آخِرِ الْمِائَةِ / السَّابِعَةِ وَلِعَشَرَ التَّسْعِينَ مِنْهَا ، رَجُلٌ
 يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ ، وَاتَّبَعَهُ الدَّهْمَاءُ مِنْ غُمَارَةٍ ، وَدَخَلَ مَدِينَةَ بَادِسَ
 عَنُوةً وَحَرَّقَ أَشْوَاقَهَا ، وَارْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ الْمَرْمَةِ فَقُتِلَ بِهَا غِيلَةً ، وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ. وَكَثِيرٌ مِنْ
 10 هَذَا التَّمَطِّ.

وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا الْمَذْكُورَ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ صَحِبَ فِي حَجَّةٍ مِنْ
 رِبَاطِ الْعُبَادِ ، وَهُوَ مَذْفَنُ الشَّيْخِ أَبِي مَدَيْنَ فِي جَبَلِ تِلْمَسَانَ الْمُطِلِّ عَلَيْهَا ، رَجُلًا مِنْ
 أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ ، كَانَ مَثْبُوعًا مُعَظَّمًا كَثِيرَ التَّلْمِيزِ وَالْحَادِمِ؛ قَالَ: وَكَانَ
 الرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِالتَّفَقَّاتِ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ؛ قَالَ: وَتَاكَدَّتِ الصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي
 15 تِلْكَ الطَّرِيقِ ، فَانْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ ، وَأَنْتَهَمُ إِنَّمَا جَاؤُوا مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لَطَلَبِ هَذَا
 الْأَمْرِ ، وَانْتَحَالَ دَعْوَةُ الْفَاطِمِيِّ بِالْمَغْرِبِ؛ فَلَمَّا عَلَيْنَ دَوْلَةَ بَنِي مَرِينِ ، وَيُوسُفُ بْنُ
 يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلٌ لِتِلْمَسَانَ ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: ارْجِعُوا بَنَاءَ ، فَقَدْ أَرَزَى بَنَاءُ الْغَلَطِ ،
 وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقْتُنَا.

(١) فِي لِ رَسْمَتِ زَايٍ دَاخِلِ الصَّادِ ، وَتُحِطُّ كَافُ كَرْوَلَةٍ مِنْ نَحْتِ ، لَضَبُطِ التَّلَاقِ عَلَى قَاعَدَتِهِ .

وَيَدَّلْ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ، عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا
 بِالْعَصِيَّةِ الْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ الْوَقْتِ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطْنِ ^(١) وَلَا شَوْكَةَ
 لَهُ ، وَأَنَّ عَصِيَّةَ بَنِي مَرَيْنَ لَذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يَقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ ، اسْتَكَانَ
 وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَقْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ ؛ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصِيَّةَ الْفَوَاطِمِ
 وَقُرَيْشٍ أَجْمَعٍ قَدْ ذَهَبَتْ ، لَا سِيَّمَا فِي الْمَغْرِبِ . إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ لَشَأْنِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهَذَا 5
 الْقَوْلُ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية 216].

وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة ^(ب) ، وفي العرب من سُكَّانِهِ ^(ب) ،
 نَزْعَةٌ مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ ، لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ ،
 وَإِنَّمَا يَتَزَعُّ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْوَاحِدُ فَالْوَاحِدُ / إِلَى إِقَامَةِ السُّنَّةِ وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ ، [225ب]
 وَيَعْنَى بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ ؛ وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَوْنَ بِإِصْلَاحِ السَّابِلَةِ لَمَّا أَنْ كَثُرَ ^(ج) فَسَادُ 10
 الْأَغْرَابِ فِيهَا ، لَمَّا قَدَّمْنَا مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ ، فَيَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ
 بِإِصْلَاحِ السَّابِلَةِ مَا اسْتَطَاعُوا . إِلَّا أَنَّ الصَّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَا تَسْتَحْكِمُ ، لَمَّا أَنَّ تَوْبَةَ
 الْعَرَبِ وَرُجُوعَهُمْ إِلَى الدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا الْإِقْصَارَ عَنِ الْغَاوَةِ وَالنَّهْبِ ؛ لَا يَعْقِلُونَ
 فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى مَنَاجِي الدِّينَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهَا [الْمَعْصِيَةُ] ^(د) الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا
 قَبْلَ التَّوْبَةِ ، وَمِنْهَا تَوْبَتُهُمْ . فَتَجَدُّ تَابِعَ ذَلِكَ الْمُتَحِيلِ لِلدَّعْوَةِ وَالْقَائِمِ بِرَعْمِهِ بِالسُّنَّةِ ، 15
 غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي فُرُوعِ الْإِقْتِدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ ، إِنَّمَا دِينُهُمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ النَّهْبِ وَالتَّبَغْيِ
 وَإِفْسَادِ السَّابِلَةِ ، ثُمَّ الْإِقْبَالُ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا وَالْمَعَاشِ بِأَفْصَى جُحْدِهِمْ . وَشَتَانُ بَيْنِ
 طَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ صِلَاحِ الْخُلُقِ ، وَبَيْنِ طَلَبِ الدُّنْيَا ، فَاتَّفَاقُهُمَا مُمْتَنِعٌ ، فَلَا

(١) ج: الموطن (ب) سقط من ي (ج) ع ج : أكثر (د) ظ : العصية .

تَسْتَحْكِمُ لَهُمْ صِبْغَةً فِي الدِّينِ ، وَلَا يَكْمُلُ لَهُمْ نُزُوعٌ عَنِ الْبَاطِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ ، وَلَا يَكْثُرُونَ .

وَتَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ مِنْهُمْ فِي اسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوِلَايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ؛ فَإِذَا هَلَكَ انْحَلَّ أَمْرُهُمْ وَتَلَاشَتْ عَصِيَّتُهُمْ .

5 وقد وَقَعَ ذَلِكَ بِإِفْرِيقَةِ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي كَغَبٍ مِنْ سُلَيْمٍ، يُسَمَّى قَاسِمَ بْنِ مَرَا بْنِ أَحْمَدَ، فِي الْمِائَةِ السَّابِعَةِ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَّاحٍ، مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسْلِمٍ، وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةَ، وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ الْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَتِبْ أَمْرَ تَابِعِهِ لَمَّا ذَكَرْنَاهُ، حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ سُلَيْمٍ وَرِيَّاحٍ .

10 وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَيُلَبَّسُونَ فِيهِ ، وَيَتَنَحَّلُونَ اسْمَ السُّنَّةِ ، وَلَيْسُوا عَلَيْهَا إِلَّا الْأَقْلَ ، فَلَا يَتَمُّ لَهُمْ وَلَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . / سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

[226]

53 * فَضْلٌ ، فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ ، وَفِيهِ الْكَلَامُ عَلَى الْمَلَا حِدِ وَالْكَشْفُ عَنْ مُسَمَّى الْجَفْرِ

15 اَعْلَمْ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ التَّشَوُّفُ إِلَى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ ، وَعِلْمُ مَا سَيَحْدُثُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ أَوْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، سَبِيًّا الْحَوَادِثِ الْعَامَّةِ ، كَمَغْرَفَةِ^(١) مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا ، أَوْ مَغْرَفَةِ مُدَدِ الدُّوَلِ وَبَقَائِهَا؛ فَالْتَّطَلُّعُ إِلَى هَذَا طَبِيعَةٌ لِلْبَشَرِ

(١) ل: كَيْلَم .

مَجْبُولُونَ عَلَيْهَا، وَلِذَلِكَ نَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ. وَالْأَخْبَارُ عَنِ الْكُهَّانِ فِي قَصْدِهِمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ .

والقد^(١) نجد في المَدُن صِنْفًا مِنَ النَّاسِ يَنْتَحِلُونَ الْمَعَاشَ مِنْ ذَلِكَ لِإِعْلَامِهِمْ بِحِرْصِ النَّاسِ عَلَيْهِ، فَيَنْتَصِبُونَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْدَّكَاكِينِ، يَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ يُسَائِلُهُمْ عَنْهُ، فَيَعُدُّو عَلَيْهِمْ وَيَرُوحُ نِسْوَانُ الْمَدِينَةِ وَصِبْيَانُهَا بَلْ وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ، 5 يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي الْكَسْبِ وَالْجَاهِ وَالْعِشْرَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ؛ مَا بَيْنَ خَطِّ فِي الرَّمْلِ، وَيُسَمَّوْنَهُ الْمُنْجَمَ، وَطَرِيقِ بِالْخَصِيِّ وَالْحُبُوبِ، وَيُسَمَّوْنَهُ الْحَاسِبَ، وَنَظَرِ فِي الْمَرَايَا وَالْمِيَاهِ، وَيُسَمَّوْنَهُ ضَارِبَ الْمَثَلِ؛ وَهُوَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ الْفَاشِيَةِ فِي الْأُمُصَارِ، لَمَّا تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْبَشَرَ مَحْجُوبُونَ عَنِ الْغَيْبِ إِلَّا مَنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ بَوَلَايَةٍ . 10

وَأَكْثَرُ مَا يُغْنَى بِذَلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ، الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ فِي آمَادِ دَوْلِهِمْ^(ب) . وَلِذَلِكَ انْصَرَفَتِ الْعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ. وَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ يَوْجَدُ لَهُمُ الْكَلَامُ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنْجِمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، مِنْ مُلْكٍ يَزَيِّقُوهَ، أَوْ دَوْلَةٍ يُحَدِّثُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا، وَمَا سَيَخْذُثُ لَهُمْ مَعَ الْأُمَمِ مِنَ الْحُرُوبِ وَالْمَلَاجِمِ، وَمُدَّةَ بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَعَدَدِ الْمُلُوكِ فِيهَا، وَالتَّعَرُّضَ لِأَسْمَائِهِمْ، وَيُسَمَّى مِثْلُ هَذَا الْحَدَثَانِ. 15

[226ب] وكان في الغرب / الكُهَّانُ والعَرَّافُونَ، يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ؛ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلْعَرَبِ مِنَ الْمُلْكِ وَالْدَّوْلَةِ، كَمَا وَقَعَ لِشَقِّ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ

(١) ظ : وقد (ب) في ل ي ج ع : دَوْلَتِهِمْ .

نَصْر من مُلوك اليَمَن، أَخْبَرهم بِمَلِكِ الحَبَشَةِ بِلادَهُمْ ثُمَّ رُجِعَها إِلَيْهم، ثُمَّ ظَهَرَ المِلَّةُ والدَّوْلَةُ لِلْعَرَبِ من بَعْدِ ذلك. وكذا تَأْوِيلُ سَطِيحِ لِرُؤْيَا المُوْتَدَّانِ، بَعَثَ إِلَيْهَ بِها كَيْسَرى مع عَبْدِ المَسِيحِ وَأَخْبَرَهُ بِظُهُورِ الدَّوْلَةِ لِلْعَرَبِ. وكذا كان في جِيلِ البَرَبْرِ كُتَّانٍ، وكان من أَشْهَرهم موسى بن صالح، من بَنِي يَثْرَنْ، وَيُقَالُ من غَمَّرَتْ، وله 5 كَلِمَاتٌ حَدَّثَانِيَّةٌ على طَرِيقَةِ الشُّعْرِ بِرِطائِنهم وفيها حَدَّثَانِ كَثِيرٌ، وَمُغْطَمُه فيما يكون لِرِزْناتَةٍ من المُلُوكِ والدَّوْلَةِ بِالْمَغْرِبِ، وهي مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ ^(أ) أَهْلِ الجِيلِ. وهم يَزْعَمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيٌّ، وتَارَةً أَنَّهُ كاهِنٌ، *وقد يَزْعَمُونَ في بَعْضِ مَزاعمهم أَنَّهُ كان نَبِيًّا، لأنَّ تَارِيخَه عِنْدَهم قَبْلَ الهِجْرة بِكَثِيرٍ* (ب).

وقد يَسْتَنْدُ الجِيلُ في ذلك إلى خَبَرِ الأنبياءِ إِنْ كانوا لِعَهْدِهِمْ، كما وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَإِنَّ أنبياءَهُم المُتَعاقِبِينَ فيهِم كانوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا يَتَغَنَّتُونَ في السُّؤْالِ 10 عَنْهُ.

وَأَمَّا في الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ، فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فيما يَزْجَعُ إلى بقاءِ الدُّنْيَا ومُدَّتِها على العُمومِ، وفيما يَزْجَعُ إلى الدَّوْلِ وأَعْمَارِها على الخُصوصِ. وكان المُعْتَمَدُ في ذلك صَدْرُ الإِسْلامِ آثَارَ مَنقُولَةٍ عَنِ الصَّحابةِ، وَخُصوصاً مُسْلِمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مثل: 15 كَعْبُ الأَخْبارِ، وَوَهْبُ بنِ مُنَبِّهٍ، وَأَمْثالُهُما. [وَرُبَّما] (ج) اقْتَبَسُوا بَعْضُ ذَلِكَ من ظَوَاهِرِ مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُخْتَمَلَةٍ.

وَوَقَعَ لَجَعْفَرِ الصَّادِقِ وَأَمْثالِهِ من أَهْلِ البَيْتِ كَثِيرٌ من ذَلِكَ، مُسْتَنْدُهُمْ فِيهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، الكَشْفُ بما كانوا عَلَيْهِ مِنَ الوِلايَةِ؛ وَإِذَا كان مِثْلُهُ لا يُنْكَرُ من غَيْرِهِم من

(أ) ج : من (ب) سقط ما بين النجمين من ع (ج) ع ج ل ي ، وسقط من ظ .

[1227] الأولياء في ذوبهم وأغقابهم، وقد قال ﷺ⁽¹⁾: "إِنَّ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ". فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِمِثْلِ هَذِهِ / الرُّتْبِ الشَّرِيفَةِ وَالْكَرَامَاتِ الْمُؤَهَّبَةِ. وَأَمَّا بَعْدُ صُدْرَ الْمِلَّةِ، وَحِينَ عَكَفَ النَّاسُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ، وَتُرْجِمَتْ كُتُبُ الْحُكَمَاءِ إِلَى اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَأَكْثَرُ مُعْتَمِدِهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ الْمُتَجَمِّينَ؛ فِي الْمُلْكِ وَالِدَوْلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ؛ مِنْ الْقِرَانَاتِ، وَفِي الْمَوَالِيدِ وَالْمَسَائِلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ؛ مِنْ الطَّوَالِعِ لَهَا، وَهِيَ 5 شَكْلُ الْفَلَكَ عِنْدَ حُدُوثِهَا.

فَلَنَذْكُرَ الْآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ الْأَثَرِ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ الْمُتَجَمِّينَ :

أَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ، فَلَهُمْ فِي مُدَّةِ الْمِلَّةِ وَبَقَاءِ الدُّنْيَا [مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ السُّهَيْلِيِّ، فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ الطَّبْرِيِّ مَا يَتَضَعِي أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ الدُّنْيَا مُنْذُ الْمِلَّةِ]⁽¹⁾ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ⁽²⁾. وَنُقِصَ ذَلِكَ بِظُهُورِ كَذِبِهِ. وَمُسْتَنَدُ الطَّبْرِيِّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ⁽³⁾، أَنَّ 10 الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جَمْعِ الْآخِرَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ لِنَا ذَلِكَ دَلِيلًا. وَسِرُّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، تَقْدِيرُ الدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهِيَ سَبْعَةٌ، ثُمَّ الْيَوْمُ بِأَلْفِ سَنَةٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج، من الآية 47]. قَالَ: وَقَدْ

(1) مسقط من ظ .

(1) نص الحديث في صحيح مسلم (2398) وغيره من حديث عائشة: "قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون، إن يكن في أمتي منهم أحد"، فإن عمر بن الخطاب منهم". ويُنظر مُسْنَدُ الْحَمِيدِيِّ (253)، وَمُسْنَدُ أَحَدٍ 6: 55، وَجَامِعُ التِّرْمِذِيِّ (3693) وَتَعْلِيقُ الْحَقِّقِ عَلَيْهِ.

(2) الروض الأنف 2: 405 .

(3) المصدر نفسه ، وتاريخ الرُّسُلِ والملوك 1: 16 .

ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ⁽¹⁾ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: "أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ". وَقَالَ ⁽²⁾: "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ"، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ عِنْدَ صَيُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْنِ، يَكُونُ عَلَى التَّقْرِيبِ نِصْفَ سُبْعٍ؛ وَكَذَلِكَ فَضَلَ الْوُسْطَى عَلَى السَّبَّابَةِ؛ فَتَكُونُ هَذِهِ الْمُدَّةُ نِصْفَ سُبْعِ الْجُمُعَةِ كُلِّهَا، وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ. وَيُؤَيِّدُهُ 5 قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ⁽³⁾: "لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةُ نِصْفَ يَوْمٍ"، فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا قَبْلَ الْمِلَّةِ خَمْسَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَخَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ. وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُتَبَّهِ أَنَّهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَسِتُّمِائَةٍ، أَغْنَى الْمَاضِي. وَعَنْ كَعْبٍ وَوَهْبٍ أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا كُلِّهَا سِتَّةُ 10 آلَافٍ سَنَةٍ.

ثُمَّ قَالَ السُّهَيْلِيُّ ⁽⁴⁾: وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثَيْنِ مَا يَشْهَدُ لَشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وَقُوعِ الْوُجُودِ بِخِلَافِهِ . فَأَمَّا قَوْلُهُ : / "لَنْ يَعْجِزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةُ نِصْفَ يَوْمٍ" ، [227ب] فَلَا يَقْتَضِي نَقْيَ الزِّيَادَةِ عَلَى التَّصْفِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ" ، فَإِنَّمَا فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْبِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاعَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ ، وَلَا شَرْعٌ غَيْرُ شَرْعِهِ .

(1) هَكَذَا قَالَ ، وَقَدْ تَفَرَّدَ الْبُخَارِيُّ بِإِخْرَاجِهِ دُونَ مُسْلِمٍ ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ :

146 ، وَ 3 : 177 ، وَ 4 : 207 ، وَ 6 : 235 ، وَ 9 : 169 وَ 191 .

(2) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الرَّقَاقِ مِنْ صَحِيحِهِ 8 : 131 حَدِيثَ رَقْمٍ (6504) وَمُسْلِمٌ فِي الْفَيْتَنِ مِنْ صَحِيحِهِ (2951) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ .

(3) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُسَنِيِّ ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ 4 : 193 ، وَأَبُو دَاوُدَ (4349) ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ 4 : 424 ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِي 11 : 351 وَقَالَ : رَوَاهُ ثَقَاتٌ وَلَكِنْ رَجَّحَ الْبُخَارِيُّ وَقَفَّه .

(4) الرُّوضُ الْأَنْفُ 2 : 405 .

ثم رجع السهيلي إلى تعيين أمد الملة من مُدْرِكٍ آخر، لو ساعده التحقيق، وهو أن جمع الحروف المقطعة في [أوائل السور]⁽¹⁾ بعد حذف المتكرر، قال: وهي أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: "ألم ينسطع نص حق كرة". فأخذ عددها بحساب الجمل⁽¹⁾ فكان تسعمائة وثلاثة، تُضاف إلى المنقضي من الألف الآخرة قبل بعثته، فهذه هي مدة الملة. قال: ولا ينبغي أن يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها.

قلت: وكونه لا ينبغي، لا يقتضي ظهوره ولا التغويل عليه.

والذي حمل السهيلي على ذلك، إنما هو ما وقع في كتاب السير لابن إسحاق في حديث ابني أخطب⁽²⁾ من أخبار اليهود، وهو أبو ياسر وأخوه حبي، حين سمعا "ألم" من هذه الحروف المقطعة، وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب، فبلغت إحدى وسبعين، فاستقرتا المدة. وجاء حبي إلى النبي ﷺ يسأله: هل مع هذا غيره؟ فقال: "المص"، ثم استزاد فقال: أله، ثم استزاد فقال: أله، فكانت إحدى وسبعين ومائتين، فاستطال المدة. وقال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً، ثم ذهبوا عنه. وقال لهم أبو ياسر: ما يُدْرِيكم، لعله أُعْطِيَ عددها كلها بسبعمائة وأربع سنين. قال ابن إسحاق: فنزل قوله تعالى: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 7]. انتهى.

(أ) سقط من ظ.

(1) عند السهيلي (2 : 405) : أبي جاد (أي : أبجد).

(2) سيرة ابن هشام 2 : 170 - .

ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد⁽¹⁾، لأن دلالة هذه

الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية. وإنما هي بالتواضع والاضطلاح

الذي يسمونه حساب الجمل. نعم، إنه قديم/ مشهور، وقدم الاضطلاح لا يصيره

[1228]

حجة، وليس أبو ياسر وأخوه حيي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً، ولا بين علماء

اليهود، لأنهم كانوا بادية بالحجاز، غفلاً من الصنائع والعلوم، حتى من علم شريعتهم

وفقه كتابهم وملتهم، وإنما يتلقفون أمثال هذا الحساب كما يتلقفه العوام في كل ملة.

فلا ينهض للشهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك.

ووقع في الملة في حدثان دولها على الخصوص، مستند من الأثر إجمالي،

في حديث خرجه أبو داود⁽²⁾ عن حذيفة بن اليمان، من طريق شيخه محمد بن

يحيى الذهلي، عن سعيد بن أبي مزيم، عن عبد الله بن قروخ، عن أسامة بن زيد

الليثي، عن ابن لقيصة بن ذؤيب، عن أبيه، قال، قال حذيفة بن اليمان: والله ما

أدري أنسي أصحابي أم تناسوا، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فشة إلى أن

تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم

قبيلته. وسكت عليه أبو داود، وقد تقدم أنه قال في رسالته: ما سكت عليه في

15 كتابي فهو صالح.

(1) هذه القصة رواها ابن إسحاق عن محمد بن السائب الكلبي - وهو متهم بالكذب كما في التقريب - عن

أبي صالح باذان (أو باذام) وهو ضعيف، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب. وقد ذكرها

الطبري من طريق ابن إسحاق في تفسير سورة آل عمران 6: 177، 179.

(2) السنن، في الفتن (4243).

وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو مُجْمَلٌ، وَيُتَقَرَّرُ في بَيان إجماله وتعيين مُبْهَماته إلى آثارٍ أُخْرَى تَجُودُ أَساسِئُهَا. وقد وَقَعَ هذا الحديثُ في غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ على غَيْرِ هذا الْوَجْهِ. فَوَقَعَ في الصَّحِيحَيْنِ⁽¹⁾ من حَدِيثِ حُذَيْفَةَ أَيضاً، قال : قام فينا رسولُ اللَّهِ ﷺ خطيباً، فما تَرَكَ شيئاً يَكُونُ في مَقامِهِ ذَلِكَ إلى قِيامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَهُ، حَفِظَهُ من حَفِظَهُ ونَسِيَهُ من نَسِيَهُ، قد عَلِمَهُ أَصْحَابُهُ هَؤُلَاءِ. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ: 5 ما تَرَكَ شيئاً إلى قِيامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ.

وفي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ⁽²⁾ من حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قال : صَلَّى بنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يوماً صَلَاةَ الْعَصْرِ نَهَاراً ، ثُمَّ قامَ خُطيباً ، فلم يَدْعُ شيئاً يَكُونُ إلى قِيامِ السَّاعَةِ إِلَّا/ أَخْبَرْنَا بِهِ، حَفِظَهُ من حَفِظَهُ ونَسِيَهُ من نَسِيَهُ . انْتَهَى . [228ب]

وهذه الأحاديثُ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ على ما ثَبَتَ في [الصَّحِيحَيْنِ]⁽¹⁾ من أَحاديثِ الْفِتَنِ والأَشْرَاطِ لا غَيْرَ ، لِأَنَّهُ الْمَعْهُودُ^(ب) من الشَّارِعِ صَلَواتِ اللَّهِ عَلَيْهِ في أُمُثَالِ هذه الْعُمُومَاتِ . وهذه الزِّيَادَةُ الَّتِي انْقَرَدَ بِهَا أَبُو داودَ في هذا الطَّرِيقِ شاذَّةٌ مُنْكَرَةٌ، مع أَنَّ الْأُمَّةَ اخْتَلَفُوا في رِجَالِهِ؛ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ⁽³⁾ في ابْنِ فَرْوُخٍ^(ج): أَحاديثُهُ مَنَّاكِرٌ؛ وَقَالَ الْبُخَارِيُّ⁽⁴⁾: تَعْرِفُ مِنْهُ وَتُشْكِرُ؛ وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ⁽⁵⁾: أَحاديثُهُ غَيْرُ

(1) من ي، وفي الأصول الأخرى: الصحيح (ب) ل: المفهوم (ج) ط: ابن أبي فروخ .

(1) حديث حذيفة أخرجه البخاري في القدر من صحيحه 8: 154 (6604) ، ومسلم في الفتن (2891) .

(2) الجامع الكبير (2191) .

(3) رواه الجوزجاني ، عنه ، في كتابه أحوال الرجال ، الترجمة 276 .

(4) التاريخ الكبير 5 : 169 الترجمة 537 .

(5) الكامل في ضعفاء الحديثين 4 : 1517 .

مَحْفُوظَةٌ. وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خُرِّجَ لَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَوَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ، فَإِنَّمَا خُرِّجَ لَهُ الْبُخَارِيُّ اسْتِشْهَادًا⁽¹⁾، وَضَعْفُهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ⁽²⁾ وَأَخَذُ بْنُ حَنْبَلٍ⁽³⁾، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ⁽⁴⁾: يَكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ. وَابْنُ قَبِيصَةَ بْنُ ذُوَيْبٍ مَجْهُولٌ⁽⁵⁾. فَتَضَعُفُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ، مَعَ شُدُودِهَا كَمَا مَرَّ.

5 وقد يَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ الْجُفَرِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمٌ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ طَرِيقِ الْآثَارِ أَوْ النُّجُومِ، لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذَلِكَ وَلَا مُسْتَنَدَهُ.

10 واعْلَمْ أَنَّ كِتَابَ الْجُفَرِ كَانَ أَضْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدٍ الْعِجْلِيُّ، وَهُوَ رَأْسُ الزَّيْدِيَّةِ، كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَفِيهِ عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى الْعُمُومِ، وَلِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ، وَقَعَ ذَلِكَ لَجَعْفَرٍ وَنُظَرَائِهِ مِنْ رِجَالِهِمْ عَلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ صَغِيرٍ، فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونُ الْعِجْلِيُّ وَكَتَبَهُ، وَسَمَّاهُ الْجُفَرِ، بِاسْمِ الْجِلْدِ الَّذِي كَتَبَ مِنْهُ، لِأَنَّ الْجُفَرَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الصَّغِيرُ، وَصَارَ هَذَا الْاسْمُ عَلَمًا عَلَى هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَهُمْ. وَكَانَ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْمَعَانِي غَرَائِبُ / مَرْوِيَّةٌ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ. 15

[1229]

(1) وروى له مسلم في الشواهد حسب ، كما في تحرير التريب 1: 111 .

(2) كما في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم 2: 285 الترجمة 1032 .

(3) المصدر نفسه .

(4) المصدر نفسه .

(5) إن لم يكن هو إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب - وهو صدوق - فهو أخ له ، وهو عندئذ مجهول ، كما في تهذيب الكمال 34: 468 .

وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه، وإنما تطير منه⁽¹⁾ شواذ^(ب) من الكلمات لا يضحها دليل. ولو صحَّ السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نغم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات؛ وقد صحَّ عنه أنه كان يُحذَر^(ج) بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول. وقد حذر يحيى ابن عمه زَيْد من مضره وعصاه، فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف. وإذا كانت الكرامات 5 تقع لغيرهم، فما ظنك بهم علماً وديناً وأثارة من النبوة، وعناية من الله بالأصل الكريم، تشهد لفروعه الطيبة. وقد يُنقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام، غير منسوب إلى الجفر؛ وفي أخبار دولة العبّيديين كثير منه.

وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع أبيه^(د) محمد الحبيب، وما حدّثاه به، وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم 10 باليمن، فأمره بالخروج إلى المغرب وبث الدعوة فيه، عن علم لقنه⁽¹⁾، أن دولتهم تتم هنالك؛ وأنَّ عبّيد الله لما بئى المهديّة بعد استيفاح دولتهم بإفريقية قال⁽²⁾: بئيتها ليغتصم بها الفواطم ساعة من نهار؛ وأراهم موقّف صاحب الجمار بساحتها، وبلغ هذا الخبر حافده إسماعيل المنصور، فلما حاصره صاحب الجمار أبو يزيد

(1) في ع ج: عنه (ب) ل: شوارد (ج) ل: يحدث (د) من ط ع ل ، وجاءت في ج ي ماملة .

(1) أصل هذا في دعوة الحلواني وأبي سفيان اللذين هتيا الأمر لصاحب التدر كما سميها. انظر القاضي النعمان ابن محمد: افتتاح الدعوة 28- .

(2) كان المهدي إذا نظر إلى جصنها وأبوابها وإعجاب الناس بذلك، يقول: هذا كله عُدّة لساعة من نهار. (افتتاح الدعوة 328 وهو نصّ معاصر للمهدي)، وقال لما أكملها وأدار أسوارها: اليوم أمنت على الفاطميات. (ابن الأثير: الكامل 8 : 95) .

بالمهديّة، كان يُسائل عن مُنتهى مَوْقِفِهِ، حتّى جاءه الخبرُ ببلوغه إلى المكان الذي
عَيَّنَ جُده عُبيدُ الله، فأيقن بالظفر، وبَرَزَ من البلد، فهَزَمَهُ وَاتَّبَعَهُ إلى ناحية الزَّابِ
فظفر به وقتله. ومثُلُ هذه الأخبار عنهم كثيرة .

- وأما المنجمون، فَيَسْتَنِدُونَ^(١) في حَدَثَانِ الدُّوَلِ إلى الأَحْكَامِ النَّجُومِيَّةِ؛ أَمَّا
5 في الأمور العامة مثل الملك والدُّوَلِ، فَمِنْ الْقِرَانَاتِ، وَخُصُوصًا بَيْنَ الْعُلُويِّينَ. وَذَلِكَ
أَنَّ الْعُلُويِّينَ / رُحَلَ وَالْمُسْتَرِي يَقْتَرِنَانِ فِي كُلِّ عِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً، ثُمَّ يَعُودُ الْقِرَانُ إِلَى
بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ الْمُثْلَةِ مِنَ التَّثْلِيثِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرٍ كَذَلِكَ، إِلَى أَنْ
يَتَكَرَّرَ فِي الْمُثْلَةِ الْوَاحِدَةِ ثَلَاثِي عَشْرَةَ مَرَّةً، يَسْتَوْفِي بُرُوجَهَا الثَّلَاثَةَ [فِي سِتِّينَ
سَنَةٍ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوْفِيهَا فِي سِتِّينَ أُخْرَى، ثُمَّ يَعُودُ ثَالِثَةً، ثُمَّ رَابِعَةً، فَيَسْتَوْفِي
10 الْمُثْلَةَ] ^(ب) بِنَتْنِي عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَأَرْبَعَ عَوْدَاتٍ فِي مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَيَكُونُ اثْتِقَالُهُ
مِنْ كُلِّ بُرْجٍ عَلَى التَّثْلِيثِ الْأَيْمَنِ، وَيَنْتَقِلُ مِنَ الْمُثْلَةِ إِلَى الْمُثْلَةِ الَّتِي تَلِيهَا، أَغْنِيَ إِلَى
الْبُرْجِ الَّذِي يَلِي الْبُرْجَ الْأَخِيرَ مِنَ الْقِرَانِ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْمُثْلَةِ. وَهَذَا الْقِرَانُ الَّذِي هُوَ
قِرَانُ الْعُلُويِّينَ، يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسْطٍ: فَالْكَبِيرُ هُوَ اجْتِمَاعُ الْعُلُويِّينَ فِي
دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفَلَكَ، إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً.
15 وَالْوَسْطُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُويِّينَ فِي كُلِّ مُثْلَةٍ ثَلَاثِي عَشْرَةَ مَرَّةً، وَبَعْدَ مَائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ
سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثْلَةٍ أُخْرَى. وَالصَّغِيرُ هُوَ اقْتِرَانُ الْعُلُويِّينَ فِي بُرْجٍ، وَبَعْدَ عِشْرِينَ
سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ آخَرَ عَلَى تَثْلِيثِهِ الْأَيْمَنِ وَفِي مِثْلِ دَرَجَةٍ أَوْ دَقَائِقِهِ .

(١) ي : فَيَسْتَنِدُونَ (ب) سقط من ظ .

مثال ذلك، وقع القرآن أول دقيقة من الحمل، وبعد عشرين⁽¹⁾ سنة يكون أول دقيقة من القوس، وبعد عشرين في الأسد، وهذه كلها نارية، وهذا كله قرآن صغير. ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة، ويسمى دور القرآن، وعود القرآن، وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الثرائية، لأنها بعدها، وهذا قرآن وسط. ثم ينتقل إلى الهوائية، ثم المائية؛ ثم يرجع إلى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة، وهو الكبير. 5

والقرآن الكبير يدل على عظام الأمور، مثل تغيير الملك والدول، وانتقال الملك^(ب) من قوم إلى قوم. والوسط على ظهور المتغلبين والطلالين للملك. والصغير على ظهور الخوارج والدعاة، وخراب المدن أو عمرانها. ويقع أثناء هذه القرات / قرآن التحسين في برج السرطان، في كل ثلاثين سنة مرة، ويسمى الرابع. وبرز [230] السرطان هو طالع العالم، وفيه وبال زحل وهبوط المريح، فتعظم دلالة هذا القرآن 10 في الفتن والحروب، وسفك الدماء، وظهور الخوارج، وحركة العساكر وعصيان الجند، والوباء والقحط؛ ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر السعادة والتحوسة في وقت قراتها وعلى قدر تفسير الدليل فيه.

قال جرّاش⁽¹⁾ بن أحمد الحاسب، في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك: 15 ورجوع المريح في العقب له أثر عظيم في الملة الإسلامية، لأنه كان دليلاً، فإن

(أ) من ظ ، وسقط من الأصول الأخرى (ب) ع : الملة

(1) هكذا في الأصول ولعله مصحف، فقد ذكرت كتب المشتهة جراش وخرّاش وخرّاس ، وليس بينها الجيم. وورد مرة في نسخة ع : خراش . ولم تق له على ترجمة . ويبدو أنه كان منجماً للحسن بن علي الطوسي، نظام الملك (408 - 485 هـ / 1018 - 1092 م) أثناء وزارته للسلطان إلب أرسلان أو لابنه ملك شاه

المؤلف النبوي كان عند قران العلويين ببحر العقب؛ فكلما رجع هنالك حدث تشويش [في] ⁽¹⁾ الخلفاء، وكثر المرض في أهل العلم والدين ونقصت أحوالهم، وربما انهدم بعض بيوت العبادة. ولقد يقال إنه كان عند قتل علي رضي الله عنه، ومزوان من بني أمية، والمتوكل من بني العباس. فإذا روعيَتْ هذه الأحكام مع 5 أحكام القِرانات كانت في غاية الإحكام .

وذكر شاذان البلخي: أن الملة تنتهي إلى ثلاثمائة وعشر سنين. وقد ظهر كذبُ هذا القول. وقال أبو مَعشَر: يظهرُ بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير؛ ولم يصح ذلك.

وقال جَرَّاش: رأيتُ في كُتب القدماء، أن المتجمين أخبروا كسرى عن 10 ملك العرب وظهور النبوة فيهم، وأن دليلهم الزهرة، وكانت في شرفها، فيبقى الملك فيهم أربعين سنة .

وقال أبو مَعشَر في كتاب القِرانات: إن القِسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحوت وفيها شرف الزهرة؛ ووقع القِران مع ذلك ببحر العقب، وهو دليل العرب؛ ظهرت حينئذ دولة العرب، وكان منهم / نبي، وتكون قوة ملكه 15 ومُدته على قدر ما بقي من درجات شرف الزهرة، وهي إحدى عشرة درجاً بتقريب من بحر الحوت، ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين. وكان ظهور أبي مُسلم عند انتقال الزهرة، ووقع القِسمة أول الحمل، وصاحب الحد المشتري .

(1) من ظ، وفي ع ل ي: على .

وقال يعقوب بن إسحاق الكندي: إن مدة الملة تنتهي إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة، قال: لأن الزهرة كانت عند قران الملة، في ثمان وعشرين درجة وست وأربعين دقيقة من الحوت. فالباقي إحدى عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة، ودقائقها ستون، فيكون ستمائة وثلاثاً وتسعين سنة. قال: وهذا مدة الملة باتفاق الحكماء، وتعضد الحروف الواقعة في أوائل السور، بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل. 5 قلت: وهذا هو الذي ذكره السهيلي⁽¹⁾، والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلنا عنه.

قال جرّاش⁽¹⁾: وسئل هزمزد إفرید^(ب) الحكيم عن مدة أزدشير وولده ملوك الساسانية، فقال: دليل ملكه المشتري، وكان في شرفه، فيعطى أطول السنين وأجودها، أربع مائة وسبعاً وعشرين سنة، ثم تدبر^(ج) الزهرة وتكون في شرفها، وهي 10 دليل أن العرب يملكون، لأن طاليع القران الميزان، وصاحبه الزهرة، وكانت عند القران في شرفها، فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة.

وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب، فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته، ويملك المشرق والمغرب، والمشتري يفوّض التدبير إلى الزهرة، وينتقل القران من الهوائية 15 إلى العُرب، وهو مائي، وهو دليل العرب. فهذه الأدلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة.

(1) في ل: خراش (ب) ع ي: إفرید (ج) في ع: تدبر، وربما الصواب: تدبر.

(1) الروض الأنف 2: 405 - 406.

وسأل كسرى أبزوز أليوس الحكيم عن ذلك، فقال مثل قول بُرزجمهر.

[231]

وقال نوفيل الرومي المنجم أيام بني أمية: إِنَّ / دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ تَبْقَى مُدَّةَ الْقِرَانِ الْكَبِيرِ
تِسْعَمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً ، فَإِذَا [عاد]⁽¹⁾ الْقِرَانُ إِلَى بَرْجِ الْعَقْرَبِ كَمَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْمِلَّةِ ،
وَتَغْيَرُ وَضْعُ الْكَوَاكِبِ عَنْ هَيْئَتِهَا فِي قِرَانِ الْمِلَّةِ ، فَحِينَئِذٍ إِمَّا يَفْتَرُ الْعَمَلُ بِهِ ، وَإِمَّا
5 يَتَجَدَّدُ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يُوْجِبُ خِلَافَ الظَّنِّ.

قال جراش: واتفقوا أن خراب العالم، يكون باستيلاء الماء والنار حتى
تهلك سائر المكونات، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة؛ الذي
هو حدّ المريخ، وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة .

وذكر جراش: أن ملك زابلستان^(ب) وهي^(ج) غزنة^(ج)، بعث إلى المأمون
10 بحكيمه ذوبان، أتحفه به في هدية، وأنه تصرف للمأمون في الاختيارات^(د) ليحروب
أخيه، ولعقد اللواء لطاهر، وأن المأمون أعظم حكمته، فسأله عن مدة ملكهم،
فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله في ولد أخيه، وأن العجم يتغلبون على
الخلافة، الدليل أولاً في دولة حسنة، خمسين سنة، ثم تسوء حالهم ، حتى يظهر
الترك من [شمال]^(هـ) الشرق فيملكون إلى الشام والفرات، ويفتحون بلاد الروم، ثم
15 يكون ما يريد الله؛ فقال له المأمون: من أين لك ذلك ؟ قال : من كتب الحكماء،
ومن أحكام صصة بن داهر^(و) الهندي الذي وضع الشطرنج .

(أ) في ظ : عاين (ب) كذا ضبطها ياقوت بالحرف (البلدان 125/3) ، وضبطت بالحركات في ع ل : زابلستان (ج) سقط
من ي، وجاءت مستدركة في حاشية ع بخطه (د) كذا وردت في ع ل بالياء المشاة التحية ، وجاءت في بقية الأصول بمسلة
(هـ) سقط من ظ (و) ج : داهم .

قلت : والتَّرك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الدَّيْلَم هُم السُّلْجُوقِيَّة ، وقد انْقَضَتْ دَوْلَتُهُمْ أَوَّلَ الْقَرْنِ السَّابِع .

قال جِراشُ : وانتَقَلَ الْقِرَانُ إِلَى الْمِثْلَةِ الْمَائِيَّةِ فِي بَرْجِ الْحَوْتِ ، يَكُونُ سَنَةً ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِيَةَ لِيَزْدَجِرْدَ ، وَبَعْدَهَا إِلَى بَرْجِ الْعَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ الْمِلَّةِ سَنَةً ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ . قال : وَالَّذِي فِي الْحَوْتِ هُوَ أَوَّلُ الْإِنْتِقَالِ ، وَالَّذِي فِي الْعَقْرَبِ 5 تُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ الْمِلَّةِ . قال : وَتَحْوِيلُ السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِرَانِ الْأَوَّلِ فِي الْمِثْلَتَاتِ الْمَائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَمَانِيَةَ ، وَلَمْ يَسْتَوْفِ⁽¹⁾ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ .

[231ب]

وَأَمَّا مُسْتَنَدُ الْمُتَجَمِّينَ فِي دَوْلَةِ دَوْلَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ ، / فَمِنَ الْقِرَانِ الْأَوْسَطِ ، وَهَيْئَةُ الْفَلَكَ عِنْدَ وَقُوعِهِ ، لِأَنَّ لَهُ دِلَالَةً عِنْدَهُمْ عَلَى خُذُوثِ الدُّوَلِ ، وَجِهَاتِهَا مِنَ الْعُمُرَانِ ، وَالْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ الْأَمَمِ ، وَعَدَدِ مُلُوكِهِمْ ، وَأَسْمَائِهِمْ ، وَأَعْمَارِهِمْ ، 10 وَنَحْلِهِمْ ، وَأَذْيَانِهِمْ ، وَعَوَائِدِهِمْ ، وَخُرُوبِهِمْ ، كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِهِ فِي الْقِرَانَاتِ . وَقَدْ تُؤْخَذُ هَذِهِ الدَّلَالَةُ مِنَ الْقِرَانِ الْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ الْأَوْسَطُ دَالًّا عَلَيْهِ ، فَمِنْ هَذَا يُؤْخَذُ الْكَلَامُ فِي الدُّوَلِ .

وقد كان يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيِّ مِنْجَمَ الرَّشِيدِ وَالْمَأْمُونِ ، وَضَعَ فِي الْقِرَانَاتِ الْكَائِنَةِ فِي الْمِلَّةِ كِتَابًا سَمَّاهُ الشَّيْعَةَ بِالْجَفْرِ ، بِاسْمِ كِتَابِهِمُ الْمَنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرِ 15 الصَّادِقِ ، وَذَكَرَ فِيهِ - فِيمَا يُقَالُ - حَدَّثَنَا دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَأَنْهَاةَ نِهَائِيَّتِهِ ، وَأَشَارَ إِلَى اقْتِرَاضِهَا ، وَالْحَادِثَةِ عَلَى بَغْدَادَ أَنَّهُ يَقَعُ فِي مُنْتَصَفِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ ؛ وَأَنَّ اقْتِرَاضَهَا يَكُونُ بِاقْتِرَاضِ الْمِلَّةِ .

(1) ع : يستوفي .

ولم يَقِفْ على شَيْءٍ من خَبَرِ هذا الكتاب ، ولا رَأَيْنَا من وَقَفَ عليه؛ وَلَعَلَّهُ غَرِقَ في كُتُبِهِم الَّتِي طَرَحَهَا هَوَاكَو مَلِكُ الظُّظَرِ^(١) في دِجْلَةَ عند اسْتِيلَائِهِمْ على بَغْدَادَ، وَقَتْلِ الْمُسْتَعَصِمِ آخِرِ الْخُلَفَاءِ. وقد وَقَعَ بِالْمَغْرِبِ جُزْءٌ مَنُسوبٌ إلى هذا الْكِتَابِ، يُسَمُّونَهُ الْجَفَرُ الصَّغِيرَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وُضِعَ لِبْنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، لِذِكْرِ الْأَوَّلِينَ 5 من مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ فِيهِ على التَّفْصِيلِ، وَمُطَابَقَةً ما تَقَدَّمَ عن ذَلِكَ من حَدَثَانِهِ وَكَذِبَ ما بَعْدَهُ .

وكان في دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ من بعد الْكِنْدِيِّ مُنْجَمُونَ وَكُتُبٌ في الْحَدَثَانِ؛ وَاَنْظُرْ ما نَقَلَهُ الطُّبْرِيُّ^(١) في أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ عن أَبِي بُدَيْلٍ من صَنَائِعِ الدَّوْلَةِ، قال: بَعَثَ إِلَيَّ الرِّبِيعُ وَالْحَسَنُ في غَزَاتِهِمَا مع الرَّشِيدِ أَيَّامَ أَبِيهِ ، فَخِشْتُهُمَا جَوْفَ اللَّيْلِ، فَإِذَا عِنْدَهُمَا كِتَابٌ من كُتُبِ الدَّوْلَةِ، يَغْنِي الْحَدَثَانِ، وَإِذَا مُدَّةُ الْمَهْدِيِّ فِيهِ عَشْرُ سِنِينَ؛ فَقُلْتُ: هَذَا الْكِتَابُ لَا يَخْفَى عَنِ الْمَهْدِيِّ، وقد مَضَى من دَوْلَتِهِ ما مَضَى، فَإِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قد نَعَيْتُمْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ؛ قالَا: فَمَا الْحِيلَةُ؟ فَاسْتَدْعَيْتُ عَنبَسَةَ الْوَرَّاقِ، مَوْلى آلِ بُدَيْلٍ، وَقُلْتُ لَهُ: انْسخْ لي هَذِهِ الْوَرْقَةَ؛ / وَاكْتُبْ مَكَانَ عَشْرَةِ أَرْبَعِينَ، فَفَعَلَ . [٢32] فَوَاللَّهِ لَوْ لَا أَنِّي رَأَيْتُ الْعَشْرَةَ فِي تِلْكَ الْوَرْقَةِ، وَالْأَرْبَعِينَ فِي هَذِهِ، ما كُنْتُ شَكَكْتُ 15 أَنَّهُا هِيَ .

ثم كَتَبَ النَّاسُ من بَعْدِ ذَلِكَ في حَدَثَانِ الدَّوْلِ مَنْظُومًا وَمَنْثُورًا وَرَجَزًا ما شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ؛ وبِأَيْدِي النَّاسِ مُفْتَرَقٌ كَثِيرٌ مِنْهَا ، وَتُسَمَّى الْمَلاحِمُ؛ وَبَعْضُهَا

(١) بِنَقَطَتَيْنِ على الظاء المهملة ، لتحديد النطق بها على الطريقة التي ضبطها بأن تكون بين الظاء والذال .

(١) تاريخ الرسل والملوك 8: 146 .

في حَدَثَانِ المِلَّةِ على العُوم، وبعضُها في دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ على الخُصوص؛ وكلُّها [مُنسُوبٌ] ⁽¹⁾ إلى مَشَاهِيرَ من أَهْلِ الخَلِيقَةِ، وَلَيْسَ مِنْهَا أَصْلٌ يُعْتَمَدُ على رِوَايَتِهِ عن وَاضِعِهِ المُنسُوبِ إِلَيْهِ .

فَإِنَّ هَذِهِ المَلَايِمَ بِالمَغْرِبِ، قَصِيدَةُ ابنِ مُرَّانَةَ ⁽¹⁾، من بَحْرِ الطَّوِيلِ، على رِوَايَةِ الرِّاءِ مَطْلَعُهَا: ^(ب)، وَهِيَ مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ. وَيَحْسِبُ العامَّةُ أَنَّهَا من الحَدَثَانِ العامِ، 5
فَيُطَبِّقُونَ كَثِيرًا مِنْهَا على الحَاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ. وَالَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِدَوْلَةِ لَمْتُونَةِ، لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ قَبِيلَ دَوْلَتِهِمْ، وَذَكَرَ فِيهَا اسْتِيلَاءَهُمْ على سَبْتِهِ مِنْ أَيْدِي مَوَالِي بَنِي حَمُودَ، وَمُلْكِهِمْ لَعْدُوَةِ الأَنْدَلُسِ .

وَمِنَ المَلَايِمِ بِأَيْدِي أَهْلِ المَغْرِبِ أَيْضًا، قَصِيدَةٌ تُسَمَّى التُّبَعِيَّةَ، أَوَّلُهَا: [مِنَ المَقَارِبِ]

10 طَرِبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرِبُ وَقَدْ يَطْرِبُ الطَّائِرُ المَغْتَصِبُ
وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلَّهِوِ أَرَاهُ وَلَكِنْ لِيَتَذَكَّرَ ^(ج) بَعْضُ السَّبَبِ

قَرِيبًا مِنْ خَفْسِمَاتِهِ يَنْتِ، أَوْ أَلْفٍ فِيهَا يُقَالُ؛ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيرًا مِنْ دَوْلَةِ المُوَحِّدِينَ، وَأَشَارَ إِلَى الفَاطِمِيِّ وَغَيْرِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ .

وَمِنَ المَلَايِمِ بِالمَغْرِبِ أَيْضًا، مَلْعَبَةٌ مِنَ الشُّعْرِ الرَّجَلِيِّ مَنسُوبَةٌ لِبَغْضِ

(1) من ع ل ج ي ، وفي ظ : منسوبة (ب) مكان الطالع بعدها في ع ج والتمورية، ياض، وفي حاشية ل: كذا (ج) ل ج: لقد كان

(1) سَبْتِي، عَالَمٌ بِالحِسَابِ والفَرَائِضِ والهِندِسةِ والفِقْهِ، لَهُ تَرْجَمَةٌ قَصِيرَةٌ فِي مَعْجَمِ البُلْدَانِ 3 : 183 ، وَأَشَارَ المَقْرِي إِلَى قَصِيدَةٍ لَهُ فِي الكَوَائِنِ وَالْحَوَادِثِ (أَزْهَارُ الرِّيَاضِ 1 : 37 ، وَأَبْدَلَ التَّائِشَ التَّوْنُ فِي اسْمِهِ تَاءً ، خَطَأً) .

اليهود، ذكر فيها أحكام القِرانات لعَصْرِهِ، العُلُوِّيَّين والنَّحْسِيَّين وَغَيْرَهُمَا، وَذَكَرَ مِيتَتَهُ قَتِيلًا بِقَاسٍ. وَكَانَ كَذَلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ. وَأَوَّلُهُ^(١) :

5 / شَاشِيَّةَ زَرْقَا بَدَلِ الْعِمَامَا وَطَاشِرَا اَزَّرَقَ بَدَلِ الْغِفَارَا^(ج) [232ب]
فِي صِبْغِ ذَا الْأَزَّرَقِ لِشْ فِيهِ خِيَارَا فَأَفْهَمُوا يَا قَوْمَ هَذِي الْإِشَارَا
نَجْمَ رُحْلٍ أَحْبَزَ [بَذِي]^(ب) الْعَلَامَا وَبَدَّلَ الشَّكْلَا وَهِيَ سَلَامَا

يقول في آخره:

قد تَمَّ ذَا التَّجْنِيسِ لِلْإِنْسَانِ يَهُودِي يُضَلِّبُ عَلَى وَادٍ قَاشٍ فِي يَوْمِ عِيدِ
حَتَّى تَجِيَهُ النَّاسُ مِنَ الْبَوَادِي وَقَتْلُ يَا قَوْمَ عَلَى الْغَزَارَا^(د)
وأبياته نحو الخنفساء، وهي في أحكام القِرانات التي دلت على دَوَلَةِ الْمُوَحِّدِينَ .
10 ومن مَلاحِمِ الْمَغْرِبِ أَيْضًا، قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ الْمُتَقَارِبِ، عَلَى رَوِيِّ الْبَاءِ،
فِي حَدَّثَانِ دَوَلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ بَثُونِسٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، مَنْسُوبَةٌ لِابْنِ الْأَبَّارِ. وَقَالَ لِي
قَاضِي قُسْطَنْطِينَةَ، الْخَطِيبُ الْكَبِيرُ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ بَادِيسٍ ، وَكَانَ بَصِيرًا بِمَا يَقُولُ ، وَلَهُ
قَدَمٌ فِي عِلْمِ النُّجُومِ ، فَقَالَ لِي : إِنَّ هَذَا ابْنُ الْأَبَّارِ لَيْسَ هُوَ الْحَافِظُ الْكَاتِبُ
مَقْتُولَ الْمُسْتَنْصِرِ، وَإِنَّا هَذَا رَجُلٌ حَيَّاطٌ مِنْ أَهْلِ تُونِسَ، تَوَاطَأَتْ شُهْرَتُهُ مَعَ شُهْرَةِ
15 الْحَافِظِ. وَكَانَ وَالِدِي رَجَمَهُ اللَّهُ يُنْشِدُنِي الْأَبْيَاتَ مِنْ هَذِهِ الْمُلْحَمَةِ ، وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي
حِفْظِي ، مَطْلَعُهَا : [مِنْ الْمُتَقَارِبِ]

(أ) اعتمدنا في ضبط بعض الكلمات ما ورد خاصة في نسختي ع ل ، وقد سجل ابن خلدون الأبيات التالية في نسخة ع بخطه

(ب) ظ : بهادي (ج) كذا في ل ج ، وفي ع : الغفارا (د) في ي : الغزارا، وفي ج : الغراز .

عَذِيرِي مِنْ زَمَنِ قَلْبٍ يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الْأَشْنَبِ

ومنها في ذِكْرِ اللَّحْيَانِي تاسعُ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ :

فَيَبْعُثُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِدًا وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبٍ
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ فَيُقْبَلُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ مِنْ عَدْلِهِ سِيرَةً وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجْلِبِ

5

ومنها في ذِكْرِ أَحْوَالِ تُونِسَ عَلَى الْعُمُومِ :

فَإِمَّا رَأَيْتَ الرُّسُومَ امَّحَتْ وَلَمْ يُرَعْ حَقٌّ لَدِي مَنْصِبٍ
فَخُذْ فِي التَّرَحُّلِ عَنْ تُونِسِ وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَا وَادْهَبِ
فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةً تُضِيفُ الْبَرِيءَ إِلَى الْمَذْنِبِ

وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ / هَوْلَاءِ بَتُونِسَ،

[233]

فِيهَا بَعْدَ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّهِيرِ، عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ، ذِكْرُ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ؛ يَقُولُ فِيهِ:

وَبَعْدُ ، أَبُو عَبْدِ الْإِلَهِ شَقِيقُهُ وَيُعْرِفُ بِالْوَثَابِ فِي نُسْخَةِ الْأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْ بَعْدَ أَخِيهِ، وَكَانَ يُمَيِّ بِذَلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ.

وَمِنْ مَلَاحِمِ الْمَغْرِبِ أَيْضًا، الْمَلْعَبَةُ الْمَنْسُوتَةُ إِلَى الْهَوْشَنِيِّ، عَلَى لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي

عَرُوضِ الْبَلَدِ ، أَوَّلُهَا:

15

دعني يا دَمْعِي الهَتَّان فترت الأمطار ولم تفتُر
 واشتقت كلها الويدان واتني ثَمَلًا وتغدّر
 البلدان كلها تروى فاوقاتا مثل ما تدري
 وانئين الصيف والشَّوَا والفاكا والزَّبيع تجري
 قال حين صحت الدَّعْوَا دَعْنِي نَبْكِ وَمِنْ عُدْرِي
 أيًا دبّر في ذي الأُزْمَان ذا القرن اشتد وتقرمز

5

وهي طويلة ومَحْفُوظَةٌ بين ^(١) عامّة [أهل] ^(ب) المغرب الأقصى ؛ والغالب عليها الوضع ، لأنه لم يصح منها قولٌ إلا على تأويلٍ يُحرِّفه ^(ج) العامّة ، أو يجازف فيه من يُلْتَحِلُّها من الخاصّة .

وَوَقَّضْتُ بِالْمَشْرِقِ عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لابن العربي ^(د) الحاتمي في كلام طويلٍ شبه الأغاز ، لا يَعْلَمُ تأويله إلا الله ، تَحَلَّلَهُ أَوْفَاقٌ عَدَدِيَّةٌ ، وَرُمُوزٌ مَلْغُوزَةٌ ، وَأَشْكَالُ حَيَوَانَاتٍ تَامَّةٍ ، وَرُؤُوسٌ مُقْتَطَعَةٌ ، وَمَتَائِلٌ ، مِنْ حَيَوَانَيْنِ غَرِيبَةٍ . وفي آخرها قصيدة على رُؤْي اللّام ، والغالب أنها كلّها غير صحيحة . لأنها لم تَبْنِ على أَضْل عِلْمِيٍّ مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا .

10

ومن غريب ما سمعتُ بعض الخواصّ يَتَنَاقَلُونَهُ بِمِصْرَ عَنْ مَلْحَمَةِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَعَلَّهَا غَيْرُ هَذِهِ ، أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَى [طالع] ^(هـ) بِنَاءِ الْقَاهِرَةِ ، وَأَنَّهُ جَعَلَ مُدَّةَ

15

(١) ل: في (ب) زيادة مقحمة بخطه في ع (ج) سقط من ل (د) يذكره دائماً معروفاً ، والمشهور فيه التكثير (هـ) ظ: طوالع.

[233ب] عُمرانها / أربعمائة وستين سنة، من دلالات ذلك [الطالع]⁽¹⁾ النجومية؛ وينتهي ذلك إلى حدود الثلاثين بعد الثمانمائة. لأنّا إذا حملنا على الأربعمائة والستين حساب القمرى لأنها شمسية، فنزيد عليها بحساب ثلاثة، لكل مائة أربع عشرة سنة، فتكون أربعمائة وأربعاً وسبعين سنة، يحملها على ثلاثمائة وثمان وخمسين من الهجرة، تاريخ بنائها، يكون ثمانمائة سنة واثنين وثلاثين سنة. هذا إن صحّ كلام ابن العربي،⁵ وصدقّت الدلائل النجومية*^(ب).

أودكر لي من أثق بمعرفته من أهل مضر، عن ملحمة ابن العربي ذلك في العشرين بعد الثلاثمائة، وقيل في..... في الثلاثة عشر، وقيل في..... والله أعلم بذلك كله [ج].

10 وسيفت أيضاً أن هناك ملاحم أخرى منسوبة لابن سينا وابن [أبي] عَقَب⁽¹⁾، وليس في شيء منها دليل على الصحة، لأن ذلك إنّما يؤخذ من القرانات. [على أن ملاحم ابن أبي العَقَب مدخولة؛ وقد نقل ابن خلكان⁽²⁾ عن كتاب الأغاني⁽³⁾ في ترجمة ابن القريّة⁽⁴⁾ أنّ ابن أبي العَقَب، وهو محمد⁽⁵⁾ بن عبد

(1) ظ: الطوالع (ب) ما بين النجمين مثبت في حاشية ع بخطه ونقلته عنه ط ج ل وسقط من ي (ج) هذه الفقرة امتداد للفقرة السابقة، ألحقها المؤلف بها في حاشية ع بخط متعجل، وتوقفت عن نقلها من الحاشية كلّ الأصول الأخرى لغموض كتابها، وصعوبة قراءتها، فأثبتناها على علّاتها.

(1) هكذا ضبطها المؤلف بخطه، وفي كتاب الأغاني بكسر القاف؛ وبعض ملاحمه في افتتاح الدعوة 66-

(2) وفيات الأعيان 1 : 254 .

(3) الأغاني 2 : 9 .

(4) ابن خلكان : المصدر نفسه 1 : 250 وهو أيوب بن زيد الهلالي ، والقريّة جدّه .

(5) في وفيات الأعيان : يحيى .

الله بن أبي العقب، من الأمور التي اشتهرت ولا وجود لها في الخارج، مثل مجنون
لئلى وابن القرية، والله أعلم بذلك⁽¹⁾.

ووقفت بالمشرق أيضاً على ملحمة في حدثان دولة الترك، منسوبة
إلى رجل من الصوفية يسمى الباجزقي⁽¹⁾، وكلها أَلغاز بالحروف، أولها: [من

البسيط] 5

إِنْ شِئْتَ تَكْشِفُ سِرَّ الْجَفْرِ يَا سَكْنِي مِنْ عِلْمٍ خَيْرٌ وَصِيٍّ وَالِدِ الْحَسَنِ
فَافْهَمْ وَكُنْ وَاعِيًا حَرْفًا وَجُمْلَةً وَالتَّوَصَّفَ فافْعَلْ كِفْعَلِ الْحَازِقِ الْقَطَنِ
أَمَّا الَّذِي قَبْلَ عَضْرِي لَسْتُ أَذْكَرُهُ لَكِنِّي أَذْكَرُ الْآتِي مِنَ الزَّمَنِ
بَيَّزْسُ يُسْقَى بِحَاءٍ بَعْدَ خَمْسَتِهَا وَحَاءٍ مِيمٍ بِطَيْشٍ نَامَ فِي الْكِتَنِ
ومنها:

10

شَيْنٌ لَهُ أَثَرٌ مِنْ تَحْتِ سُرَّتِهِ لَهُ الْقَضَاءُ قَضَاءٌ أَيُّ ذِي الْمَنَنِ
فَمَضْرُ وَالشَّامُ مَعَ أَرْضِ الْعِرَاقِ لَهُ وَأَذْرِيْجَانُ مِنْ مُلْكٍ إِلَى الْيَمَنِ
ومنها:

وَأَلْ نَوَّارِ لَمَّا نَالَ ظَاهِرُهُمْ الْفَاتِكُ الْبَاتِكُ الْمَغْنِيُّ بِالشَّجَنِ

ومنها:

15

(1) حاشية انفردت بها نسخة ع ولم تنقلها النسخ الأخرى لصعوبة قراءتها في الأصل .

(1) ضبطها المؤلف بخطه في نسخة ع مفتوحة الجيم، وكذلك وردت في ل، والصواب الضم، منسوب إلى
باجزقي: من قرى بين النهرين (ياقوت: معجم البلدان 1: 313) وأشار ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة
9: 724 إلى أنه صاحب الملحمة الباجزقية، وله غيرها عدة تصانيف أخر .

اخْلَعْ سَعِيدًا ضَعِيفَ السِّنِّ سَيْنَ أَتَى لا لا وقاف ونون لَزَّ في قَرْنِ
قَرْمٌ شَجَاعٌ لَهُ عَقْلٌ وَمَشُورَةٌ يُسْقَى بِحَاءٍ وَابْنٌ بَعْدُ ذُو شَجَنِ
ومنها:

[1234] من بَعْدَ بَاءٍ مِنَ الْأَعْوَامِ قَتَلَتْهُ / هذا هو الْأَعْرَجُ الْكَلْبِيُّ فاعنَ به
يَأْتِي مِنَ الشَّرْقِ جَيْشُ التُّرْكِ يَقْدِمُهُمْ غَارِ عَنْ الْقَافِ قَافٌ جُرٌّ^(أ) بِالْفِتَنِ
فَقَبِلَ ذَاكَ فَوَيْلَ الشَّامِ أَجْمَعِهَا فاندب بشجوٍ على الأهلين والوطنِ
إِذَا^(ب) زُلْزِلَتْ يَا وَيْحَ مِصْرَ مِنَ الزَّرِّ لَزَالٍ مَا زَالَ عَامًا غَيْرَ مُقْتَطَنِ
طَاءٍ وَطَاءٍ^(ب) وَغَيْنٌ^(ج) كُلَّهُمْ حُبِسُوا هَلَكَى وَيُنْفِقُ أَمْوَالًا بِلَا ثَمَنِ
يُسَيِّرُ الْقَافَ قَافًا نَحْوَ أَحْمَدِهِمْ هَوْنٌ بِهِ إِنَّ ذَاكَ الْحِصْنَ فِي مِكَنِ
ومنها:

وَيَنْصَبُونَ أَخَاهُ وَهُوَ صَالِحُهُمْ لَامٌ أَلْفٌ [شَيْنٌ لَذَاكَ تَنِي^(د)]
ومنها:

تَمَّتْ وَلَا يَتُّهُمْ بِالْحَاءِ لَا أَحَدٌ مِنَ الْبَنِينَ يُدَانِي الْمَلِكَ فِي الزَّمَنِ
[ومنها]^(هـ) ، وَيُقَالُ إِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ [برقوق]^(و) وَقُدُومُ أَبِيهِ عَلَيْهِ
بِمِصْرَ:

(أ) ع: خَرَّ (ب) كذا مكررة في جميع الأصول (ج) كذا في ظ ع، وأهملت العين في بقية الأصول (د) جاء هذا الفجر مختلفاً في جميع الأصول ، ووضعنا حاصرتين لما يمكن استكمالهما ليستقيم الوزن ، مثل [وكذا] (هـ) سقط من ظ (و) من ع بخطه.

يَأْتِي إِلَيْهِ أَبُوهُ بَعْدَ هِجْرَتِهِ وَطَوِيلِ غَيْبَتِهِ وَالشُّطْفِ وَاللَّزَنِ
وَأَبْيَاطُهَا كَثِيرَةٌ ، وَالْغَالِبُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ ، وَمِثْلُ صَنْعَتِهَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ كَثِيراً
وَمَعْرُوفَ الْإِتِّحَالِ .

حَكَى الْمُؤَرِّخُونَ ⁽¹⁾ لِأَخْبَارِ بَغْدَادَ ، أَنَّهُ كَانَ بِهَا أَيَّامَ الْمُقْتَدِرِ وَرَاقٌّ ذِكِّيٌّ يُعْرِفُ
بِالدَّانِيَّاتِ ، يُبْلِي الْأُورَاقَ وَيَكْتُبُ فِيهَا بِخَطِّ عَتِيقٍ ، يَزْمُرُ فِيهِ بِحُرُوفٍ مِنْ أَسْمَاءِ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، وَيُشِيرُ بِهَا إِلَى مَا يَعْرِفُ مَبْلَغَهُ مِنْ أَسْمَاءِ الرِّفْعَةِ وَالْجَاءِ ، كَأَنَّهَا
مَلَا حِمٌّ ، وَيَخْصُلُ بِذَلِكَ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا . وَأَنَّهُ وَضَعَ ⁽²⁾ فِي بَعْضِ دَفَاتِرِهِ
مِمْ مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُفْلِحِ مَوْلَى الْمُقْتَدِرِ ، * وَكَانَ عَظِيماً فِي
الدَّوْلَةِ * ⁽¹⁾ ، فَقَالَ لَهُ : هَذَا كِنَايَةٌ عَنْكَ ، وَهُوَ مُفْلِحُ مَوْلَى مُقْتَدِرٍ ، مِمْ مِنْ كُلِّ
وَاحِدَةٍ ، وَذَكَرَ عِنْدَهَا ^(ب) مَا يَعْلَمُ فِيهِ رِضَاؤُهُ تَمَّا يَنَالُهُ مِنَ الْمَلِكِ ^(ج) وَالسَّلْطَانِ ، وَنَصَبَ
لَهُ عَلَامَاتٍ لِدَلَالَةِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ ^(د) الْمُتَعَارِفَةِ ^(د) مَوَّهَ بِهَا عَلَيْهِ ، فَبَدَّلَ لَهُ مَا أَغْنَاهُ بِهِ .

ثُمَّ وَضَعَهُ [لِلْوَزِيرِ] ^(هـ) / الْحَسَنِ ⁽³⁾ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ وَهْبٍ عَلَى مُفْلِحِ هَذَا ،
وَكَانَ مَغْرُولاً ، فَجَاءَهُ بِأُورَاقٍ مِثْلَهَا ، وَذَكَرَ اسْمَ الْوَزِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ ، وَبِعَلَامَاتٍ

(1) سقط ما بين النجمين من ي (ب) كذا في ظ ج ل ، وفي ع : عنه ، وفي ي : عنه ما أرضاه (ج) ي : النولة (د) موقعها في
ع بياض (هـ) من ع بخطه وفي بقية الأصول : الوزير .

(1) أورد هذا الخبر ابن الأثير : الكامل 8 : 230 - .
(2) جعل ابن خلدون الفعل مبنياً للنائب كما فعل ابن الأثير .
(3) كذا في جميع الأصول ، وصوابه الحسين بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب ، ولأه الخليفة
المقتدر العباسي الوزارة سنة 318 هـ وبقي فيها سبعة أشهر . (ابن الأثير : الكامل 8 : 232 ، 238) .

ذكرها، وأنه يلي الوزارة للثامن عشر من الخلفاء، وتستقيم الأمور على يديه،
ويشهر الأعداء، وتغمر الدنيا في أيامه. ووقف مُفْلِحًا على الأوراق، وذكر فيها
كوائِن^(١) أخرى وملاحِم من هذا النوع، بما وَقَعَ وما لم يَقَعْ، ونَسَب جميعه إلى دانيال.
فأعجب به مُفْلِح، ووقف عليه المُقْتَدِر، فاهتدى من تلك الرُّموز والعلامات إلى ابن
وَهَب لظهورها، وكان ذلك سببًا لوزارته، بمثل هذه الحِيل^(ب) العريضة في الكذب 5
والجهل، بمثل هذه الألغاز.

والظاهر أن هذه المَلْحَمَة التي يُنسبونها إلى الباجرتي من هذا النوع.

ولقد سألت الشيخ أكل الدين - رحمه الله^(ج) - شيخ الحنفية من العجم
بالديار المصرية عن هذه المَلْحَمَة، وعن هذا الرجل الذي تُنسب له من الصوفية،
وهو الباجرتي، وكان عارفًا بطرائقهم، فقال: كان من المعروفين بالقرندلية المبتدعين 10
في خلق اللُحْيَة، وكان يتحدّث عَمَّن يكون من الملوك لعصره بطريق الكشف،
ويؤمّي إلى رجال مُعَيَّنِينَ عنده، ويلغز عنهم بحروف يَعَيِّنها في ضميره لمن يراه منهم.
وربما نظم ذلك في أبيات قليلة كان يتعاهد [إنشادها]^(د)، فتنوقلت عنه، وولع
الناس بها وجعلوها مَلْحَمَة مَرْمُوزَة. وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل
عصر، وشغل العامة بفك رموزها، وهو أمر مُمْتَنِعٌ؛ إذ الرُّمُز إنما يهتدي إلى كشفه 15
قانون يُعرف قبله، أو يوضع له؛ / وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها
[235] مخصوصة بهذا الناظم [لا يتجاوزها]^(هـ).

(١) ج: كوا من (ب) ي: الحيلة (ج) سقط من ع ج ل ي وذكرت في ظ (د) من حاشية ع وحدها بخطه وفي بقية
الأصول: يتعاهدها (هـ) من ي.

فَرَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ شِفَاءً لِمَا كَانَ فِي النَّفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾⁽¹⁾ [سورة الأعراف، من الآية 43].

كَمُلَ التَّصْفِ الْأَوَّلُ مِنَ الْمَقْدَمَةِ، وَبِكَامَالِهِ كَمُلَ السَّفَرُ الْأَوَّلُ مِنْ كِتَابِ الظَّاهِرِيِّ فِي الْعِبَرِ، بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَزِيرِ، يَتْلُوهُ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي الْفَصْلُ

(1) بعد نهاية هذا الفصل في حدثان التول والأم، والكلام على الملاحم، والكشف عن مسمى الجفر، وهو آخر الفصل الثالث من الكتاب الأول، سَجَّلَ ابن خلدون بخطه في مسودته وأصله "ع" نقلًا عن تاريخ ابن كثير، اطلع عليه في دمشق أثناء حضوره مع الركب السلطاني صحبة الملك التاصر فرج بن الظاهر برقوق سنة 803 هـ، ولم يرِدْ في الأصول الأخرى: ظ ل ج ي، التي كتبت قبل نهاية القرن الثامن الهجري. والنص في البداية والنهاية 115/13، ونظم الجفر على عروض النون غير موجود في المطبوع منه، يقول:

[ثُمَّ وَقَفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَا بِدِمَشْقَ، عِنْدَ خُلُولِي مَعَ الرِّكَابِ السُّلْطَانِيِّ بِهَا، عَلَى قَضَاءِ الْمَالِكِيَّةِ بِمَضَرَ، فَوَقَفْتُ عَلَى تَارِيخِ ابْنِ كَثِيرٍ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، فِي تَرْجُمَةِ التَّعْرِيفِ بِهَذَا الرَّجُلِ، فَقَالَ: شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْبَاجُزِي تَقِي الَّذِي نُسِبَ إِلَيْهِ الْفِرْقَةُ الصَّالَّةُ الْبَاجُزِيَّةُ، وَالْمَشْهُورُ عَنْهُمْ إِنْكَارُ الصَّانِعِ، وَكَانَ وَالِدُهُ إِجْمَالُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ عُمَرَ الْمُؤَصِّلِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ، وَدَرَسَ فِي مَدَارِسِ بِدِمَشْقَ وَلَسْنَا ابْنَهُ هَذَا بَيْنَ الْفُقَهَاءِ، فَاشْتَغَلَ قَلِيلًا ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى السُّلُوكِ، وَلاَزَمَهُ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ هُوَ عَلَى طَرِيقَتِهِ، ثُمَّ حَكَّمَ الْقَاضِي الْمَالِكِيُّ بِإِرَاقَةِ دَمِهِ، وَهَرَبَ إِلَى الْمَشْرِقِ، ثُمَّ أَقَامَ الْبَيْتَةَ بِالْعِدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ شَهِدَ عَلَيْهِ، وَحَكَّمَ الْحُسَيْنِيُّ بِخَقْنِ دَمِهِ، وَأَقَامَ بِالْقَابُونِ مُدَّةً سَنِينَ، وَتَوُفِّيَ [لَيْلَةَ] الْأَرْبَعَاءِ سَادِسَ عَشَرَ رَبِيعَ الْآخِرِ سَنَةِ [724هـ]⁽¹⁾.

وقال ابن كثير: ومن شيعر الباجزيتي في نظم الجفر [من البسيط]

فاسمع وكن واعياً خرقاً وجُمْلَةً والوصف فافهم بفهم الحادق النطن

(1) مكانه بياض في ع، وتاريخ الوفاة من ابن كثير.

الرَّابِعُ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ : فِي الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ وَسَائِرِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ، إِلَى
آخِرِ الْمَقْدَمَةِ . وَاللَّهُ وَلِيُّ الْإِمْدَادِ وَالْعَوْنِ .

فِي قَضْدِ مِضْرٍ وَمَا بِالشَّامِ يُحْدِثُهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ مِنْ [خَيْرٍ] وَمَنْ مِخَرِ
يَبْرِشُ يُسْقَى بِكَأْسٍ بَعْدَ خَمْسَتِهَا وَهَاءُ مِيمٍ بِطَيْنَشٍ^(١) نَامٌ فِي اللَّبَنِ
[يَا] وَيُحْ جَلَّقَ مَاذَا خَلَّ سَاحَتَهَا وَأَخْرَبُوا جَامِعًا لِلَّهِ كَيْفَ بُنِيَ
[يَا] وَيَلَهَا كَمْ عَدَا فِي الدِّينِ، كَمْ قَتَلُوا وَكَمْ دِمٍ سَفَكُوا مِنْ عَالِمٍ وَدَنِي
وَكَمْ سَمَاعٍ وَكَمْ سَنِي وَكَمْ نَهَبُوا وَخَرَقُوا ثُمَّ مِنْ شَابٍ وَمَنْ يَقِنِ
وَالْكُونِ مُغْتَمٌ وَالْأَرْجَاءُ مُظْلِمَةٌ حَتَّى حَمَائِمُهَا نَاحَتْ عَلَى الْفَنَنِ
يَا لِلْبَرَايَا أَمَا لِلدِّينِ مُنْتَصِرٌ قَوْمُوا إِلَى الشَّامِ مِنْ سَهْلٍ وَمَنْ حَزَنِ
غَزْبُ الْعِرَاقِ وَمِضْرَ وَالصَّعِيدِ أَتُوا وَمَوْتَ الْكُفْرِ فِيهَا عَزْمٌ [...] مَرِنِ [

(١) كَذَا ، وَقَدْ تَقَرَأَ : بِطَيْنَرِ .

المحنوى

• أهرزنا في هذا الفهرس بعض الموضوعات المهمة داخل الفصول، بعناوين مطابقة لمحتواها ، ووضعناها داخل حاصرتين، مع أرقام الصفحات التي وردت فيها، تيسيراً للبحث، وميزناها داخل نص المقدمة بخط مغاير.

وكذلك فعلنا بكلمة "فصل" التي أوردتها المؤلف هكذا مجردة داخل فصوله المطولة ، فأثبتنا موضوعها أمامها .

المحتوى

الصفحة

3 - * 90 *

مُهَيَّنْد - إبراهيم شَبُوح

1

الاستهلال

[الدِّبَاجَةُ فِي فَنِّ التَّارِيخِ، وَتَرْتِيبُ الْكِتَابِ، وَتَسْمِيَتُهُ، وَإِهْدَاؤُهُ]

11

المقدِّمة

فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ، وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ، وَإِلْإِمَاعِ بِمَا
يُعْرِضُ لِلْمُؤَرِّخِينَ مِنَ الْمَغَالِطِ وَالْأَوْهَامِ، وَذِكْرِ شَيْءٍ
مِنْ أَسْبَابِهَا

20

1 • فصل، [في أوْهَامٍ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْحَفَاطِ،
وَبَعْضِ الْحِكَايَاتِ الْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ الَّتِي لَقْنَهَا عَنْهُمْ ضَعْفَةٌ
التَّظَرُّ، وَالْعَقْلَةُ عَنِ الْقِيَاسِ]

20

• [في تَفْسِيرِ إِدْرِمْ ذَاتِ الْعِمَادِ]

22

• [في سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبِرَامِكَةِ]

29

• [حَالِ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونِ]

32

• [في الْعَبِيدِيِّينَ وَالطَّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ]

37

• [الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ]

41 • [القَدْخُ في الإمام المَهديّ صاحب دولة الموحّدين]

44 • [فنّ التاريخ وما يحتاج إليه صاحب هذا الفنّ]

46 • [ما ينقله المؤرّخون من أحوال الحجاج]

52 • [مقدّمة في كَيْفِيَّة وَضْع الحُرُوف الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ
العَرَب]

55 الكتابُ الأوّل:

في طَبِيعَةِ العُمران في الخَلِيقَةِ، وما يَغْرِضُ فِيهَا مِنَ البَدْوِ
والْحَضَرِ، والتَّغْلُبِ، والكَسْبِ، والمَعاشِ، والعُلُومِ، والصَّناعاتِ،
وتَحْوِهَا، وما لَدُنْكَ مِنَ العِلَلِ والأسبابِ

69 الفصلُ الأوّل من الكتاب الأوّل:

في العُمران البَشَرِيّ على الجُمْلَةِ، وفيه مقدّمات:

69 [المقدّمة] الأوّلَى:

[في أنّ الاجتماع للإنسان ضروريّ]

73 المقدّمة الثّانية:

في قِسْطِ العُمران مِنَ الأرضِ، والإشارة إلى
بَعْضِ ما فِيهِ مِنَ البَحارِ والأنهارِ والأقاليمِ

في أن الربع الشمالي من الأرض، أكثر عُمرًا من
الربع الجنوبي، وذكر السبب في ذلك

87 - 86

صورة الجغرافيا

88

[بيان الخريطة]

89

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

93

1. فصل، [في تقسيم الجغرافيتين لكل من الأقاليم
السبعة إلى عشرة أجزاء متساوية]

94

• الإقليم الأول

101

• الإقليم الثاني

104

• الإقليم الثالث

115

• الإقليم الرابع

127

• الإقليم الخامس

136

• الإقليم السادس

142

• الإقليم السابع

147

المقدمة الثالثة:

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف، وتأثير
الهواء في ألوان البشر، والكثير من أخوالهم

153 المقدمة الرابعة:

في أثر الهواء في أخلاق البشر

157 المقدمة الخامسة:

في اختلاف أحوال الغمران في الخضب
والجوع، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في
أبدان البشر وأخلاقهم

165 المقدمة السادسة:

في أصناف المذركين للغيب من البشر
بالفطرة أو بالرياضة، ويتقدمه الكلام في
الوحي والرؤيا:

172 • [تفسير حقيقة النبوة]

179 • [الكهانة]

183 • [الرؤيا]

187 1 • فصل، [في ما يزعم من ذكر أسماء عند النوم
تكون عنها الرؤيا]

188 2 • فصل، [في أن أشخاصاً يُخبرون بالكائنات قبل
وقوعها]

197 3 • فصل، [في أن من المتصوفة قوم أشبه بالمجانين
من العقلاء، وما يقع لهم من عجائب
الإخبار بالمعيات]

198 4 • فصلّ، [في زَعْمِ بعض النَّاسِ أَنَّ هُنَاكَ مَدَارِكُ
لِلْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ]

199 • [خط التّزلّ]

205 5 • فصلّ، [في أَنَّ طَوَائِفَ يَضْعُونَ قَوَانِينَ لِاسْتِخْرَاجِ
الْغَيْبِ ، لَيْسَتْ مِنْ مَدَارِكِ النَّفْسِ
الْروْحَانِيَّةِ ، وَلَا مِنْ الْحَدْسِ الْمُنْتَبِيِّ عَلَى
تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ]

205 • [حساب النّيم]

208 • [زائِرَةُ الْعَالَمِ]

215 الفصل الثّاني من الكتاب الأوّل:

في العُمران البدويّ، والأُمَم الوُخْشيّة
والقبائل، وما يَغْرُضُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأُخْوَالِ،
وفيه أصولٌ وتَمْهيدات:

215 1 • فصلّ، في أَنَّ أَجْيَالَ الْبَنُو وَالْحَضَرَ طَبِيعِيَّةٌ

217 2 • فصلّ، في أَنَّ جِيلَ الْعَرَبِ فِي الْخَلِيقَةِ طَبِيعِيٌّ

218 3 • فصلّ، في أَنَّ الْبَنُو أَقْدَمُ مِنَ الْحَضَرِ وَسَابِقٌ
عَلَيْهِ. وَأَنَّ الْبَادِيَّةَ أَصْلُ الْعُمَرَانِ وَالْأَمْصَارِ وَمَدَدٌ لَهَا

220 4 • فصلّ، في أَنَّ أَهْلَ الْبَنُو أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ
أَهْلِ الْحَضَرِ

- 223 5 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الشُّجَاعَةِ
مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ
- 224 6 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ مُعَانَاةَ أَهْلِ الْحَضَرِ لِلْأَحْكَامِ،
مُفْسِدَةٌ لِلْبَأْسِ فِيهِمْ، ذَاهِبَةٌ بِالْمَنْعَةِ مِنْهُمْ
- 227 7 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ سُكْنَى الْبَدْوِ لَا يَكُونُ إِلَّا
لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ
- 229 8 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْعَصِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْإِلْتِحَامِ
بِالنُّسَبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهِ
- 230 9 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الصَّرِيحَ مِنَ النُّسَبِ إِنَّمَا يَوْجَدُ
لِلْمُتَوَحِّشِينَ فِي الْقَفْرِ، مِنَ الْعَرَبِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ
- 232 10 • فَضْلٌ، فِي اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ كَيْفَ يَقَعُ
- 233 11 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الرِّئَاسَةَ عَلَى أَهْلِ الْعَصِيَّةِ لَا
تَكُونُ فِي غَيْرِ نَسَبِهِمْ
- 236 12 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشُّرْفَ بِالأَصَالَةِ
وَالْحَقِيقَةِ لِأَهْلِ الْعَصِيَّةِ، وَيَكُونُ لغيرِهِمْ بِالْمَجَازِ
وَالشَّبَهِ
- 238 13 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشُّرْفَ لِلْعَوَالِي وَأَهْلِ
الاضْطِنَاعِ، إِنَّمَا هُوَ بِمَوَالِيهِمْ لَا بِأَنْسَابِهِمْ
- 240 14 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ نِهَآيَةَ الْحَسَبِ فِي الْعَقَبِ الْوَاحِدِ
أَرْبَعَةُ آبَاءَ

- 243 15 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْأُمَمَ الْوَحْشِيَّةَ أَقْدَرُ عَلَى
التَّغْلِبِ مِنْ سِوَاهَا
- 244 16 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْغَايَةَ الَّتِي تَجْرِي إِلَيْهَا الْقَصِيَّةُ
هِيَ الْمُلْكُ
- 246 17 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ ، حُصُولَ
التَّرَفِ وَانْتِمَاسِ الْقَبِيلِ فِي التَّعِيمِ
- 247 18 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ ، حُصُولَ
الْمَذَلَّةِ لِلْقَبِيلِ ، وَالْإِثْقَادَ لِسِوَاهُمْ
- 250 19 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ مِنْ عِلَامَاتِ الْمُلْكِ ، التَّنَافُسُ
فِي الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ ، [وَبِالْعَكْسِ]
- 253 20 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأُمَّةُ وَحْشِيَّةً كَانَ
مُلْكُهَا أَوْسَعَ
- 255 21 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْمُلْكَ إِذَا ذَهَبَ عَنْ بَغْضِ
الشُّعُوبِ مِنْ أَمَةٍ ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَوْدِهِ إِلَى
شَغْبٍ آخَرَ مِنْهَا ، مَا دَامَتْ لَهُمُ الْعَصَبِيَّةُ
- 257 22 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْمَغْلُوبَ مَوْلَعٌ أَبَدًا بِالْإِفْتِدَاءِ
بِالْغَالِبِ ، فِي شِعَارِهِ ، وَرِيَّةِ ، وَنَحْلَتِهِ ، وَسَائِرِ
أَحْوَالِهِ وَعَوَائِدِهِ
- 258 23 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا غُلِبَتْ وَصَارَتْ فِي
مَلَكَهَ غَيْرِهَا ، أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْفَنَاءُ

260 24 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْعَرَبَ لَا يَتَغَلَّبُونَ إِلَّا عَلَى
الْبَسَائِطِ

260 25 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا تَغَلَّبُوا عَلَى الْأَوْطَانِ
أَسْرَعَ إِلَيْهَا الْحَرَابُ

263 26 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْعَرَبَ لَا يَحْضُلُ لَهُمُ الْمُلْكُ إِلَّا
بِصَنْغَةٍ دِينِيَّةٍ مِنْ بُيُوتٍ أَوْ وِلَايَةٍ أَوْ أَثَرٍ عَظِيمٍ
مِنَ الدِّينِ عَلَى الْجُمْلَةِ

264 27 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ الْأُمَمِ عَنْ سِيَاسَةِ
الْمُلْكِ

266 28 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْبَوَادِيَّ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ
[مُتَغَلَّبُونَ] لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ

269 الفصل الثالث من الكتاب الأول :

فِي الدُّوَلِ ، وَالْمُلْكِ ، وَالْخِلَافَةِ ، وَالْمَرَاتِبِ
السُّلْطَانِيَّةِ ، وَمَا يَغْرِضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ
الْأَخْوَالِ ، وَفِيهِ قَوَاعِدٌ وَمُتَمِّمَاتٌ :

269 1 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْمُلْكَ وَالْدُّوْلَ الْعَامَّةَ إِنَّمَا
تَحْضُلُ بِالْقَبِيلِ وَالْعَصِيَّةِ

270 2 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ الدُّوْلَةُ وَتَمَهَّدَتْ ،
فَقَدْ يُسْتَفْتَى عَنِ الْعَصِيَّةِ

- 274 3. فَضْلٌ ، فِي أَنَّهُ قَدْ يَخْذُ لِبَعْضِ أَهْلِ
النِّصَابِ الْمُلْكِي دَوْلَةً تَسْتَعْنِي عَنِ الْعَصِيَّةِ
- 275 4. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الدَّوْلَ الْعَامَّةَ الْإِسْتِيلَاءَ ،
الْعَظِيمَةَ الْمُلْكُ ، أَضْلَاهَا الدِّينَ ، إِمَّا مِنْ
نُبُوَّةٍ أَوْ دَعْوَةٍ حَقٍّ
- 276 5. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الدَّعْوَةَ الدِّينِيَّةَ ، تَزِيدُ الدَّوْلَةَ
فِي أَضْلَاهَا قُوَّةً عَلَى قُوَّةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ
لَهَا مِنْ عَدَدِهَا
- 277 6. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الدَّعْوَةَ الدِّينِيَّةَ مِنْ [غَيْرِ]
عَصِيَّةٍ لَا تَتِمُّ
- 282 7. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ كُلَّ دَوْلَةٍ لَهَا حِصَّةٌ مِنَ الْمَمَالِكِ
وَالْأَوْطَانِ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا
- 284 8. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ عِظَمَ الدَّوْلَةِ وَاتِّسَاعَ نِطَاقِهَا
وَطَوْلَ أَمْدِهَا ، عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي
الْقِلَّةِ وَالكَثْرَةِ
- 286 9. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْأَوْطَانَ الْكَثِيرَةَ الْقَبَائِلِ
وَالْعَصَائِبِ ، قَلٌّ أَنْ تَسْتَخْكِمَ فِيهَا دَوْلَةً
- 290 10. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْمُلْكِ الْإِنْفِرَادَ
بِالْمَجْدِ
- 291 11. فَضْلٌ ، فِي أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْمُلْكِ التَّشَرُّفَ

- 292 12• فَضْلٌ ، في أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الْمُلْكِ الدَّعَةُ
وَالشُّكُونُ
- 293 13• فَضْلٌ ، في أَنَّهُ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ
مِنَ الْإِسْتِغْرَادِ بِالْمَجْدِ وَحُصُولِ التَّرَفِّ وَالِدَّعَةِ،
أَقْبَلَتِ الدَّوْلَةُ عَلَى الْهَرَمِ
- 297 14• فَضْلٌ ، في أَنَّ الدَّوْلَ لَهَا أَعْمَارٌ طَبِيعِيَّةٌ كَمَا
لِلْأَشْخَاصِ
- 300 15• فَضْلٌ، في انْتِقَالِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبَدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ
- 304 16• فَضْلٌ، في أَنَّ التَّرَفَّ يَزِيدُ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا
قُوَّةً إِلَى قُوَّتِهَا
- 306 17• فَضْلٌ، في أَطْوَارِ الدَّوْلَةِ وَاخْتِلَافِ أَخْوَالِهَا
وَبَدَاوَةِ أَهْلِهَا بِاخْتِلَافِ الْأَطْوَارِ
- 308 18• فَضْلٌ، في أَنَّ آثَارَ الدَّوْلَةِ كُلِّهَا عَلَى نِسْبَةِ
قُوَّتِهَا فِي أَصْلِهَا
- 312 • [عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ إِلَى نَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادِ أَيَّامِ
الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ التَّوَّاحِي]
- 317 • [مَا اسْتَصَفَاهُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قِلَافُونَ
مِنْ ذَخِيرَةِ سَلَار]
- 322 19• فَضْلٌ، في اسْتِظْهَارِ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ عَلَى
قَوْمِهِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ بِالْمَوَالِي وَالْمُضْطَنِّعِينَ

- 323 • 20 فضل، في أحوال الموالى والمُضْطَّعِينَ في
الدُّوَل
- 326 • 21 فضل، فيما يَغْرِضُ في الدُّوَل من حَجَر
السُّلْطَان والاستِبدادِ عَلَيْهِ
- 327 • 22 فضل، في أَنَّ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى السُّلْطَان لَا
يُشَارِكُونَهُ فِي اللَّقَبِ الْخَاصِّ بِالْمُلْكِ
- 328 • 23 فضل، في حَقِيقَةِ الْمُلْكِ وَأَصْنَافِهِ
- 330 • 24 فضل، في أَنَّ إِزْهَافَ الْحَدِّ مُضِرٌّ بِالْمُلْكِ
وَمُقْسِدٌ لَهُ فِي الْأَكْثَرِ
- 332 • 25 فضل، في مَعْنَى الْخِلَافَةِ وَالْإِمَامَةِ
- 334 • 26 فضل، في اخْتِلَافِ الْأُمَّةِ فِي حُكْمِ هَذَا
الْمَنْصِبِ وَشُرُوطِهِ
- 344 • 27 فضل، في مَذَاهِبِ الشَّيْعَةِ فِي حُكْمِ الْإِمَامَةِ:
- 347 • [الْغُلَاة]
- 348 • [غُلَاةُ الْإِمَامِيَّةِ]
- 349 • [الْوَاقِفِيَّةِ]
- 350 • [الْكَيْسَانِيَّةِ]
- 350 • [الزَيْدِيَّةِ]
- 352 • [الْإِمَامِيَّةِ]

- 353 • [الإسماعيلية]
- 353 • [الإثنا عشرية]
- 354 28• فصل، في انقلاب الخلافة إلى الملك
- 365 29• فصل، في معنى البيعة
- 367 30• فصل، في ولاية العهد
- 381 31• فصل، في الخطط الدينية للخلافة :
- 382 • [أ- إمامة الصلاة]
- 383 • [ب- الفتيا]
- 384 • [ج- القضاء]
- 391 • [د- العدالة]
- 392 • [هـ- الحسبة والسكة]
- 394 32• فصل، في اللقب بأمير المؤمنين، وأنه من
سيمات الخلافة
- 400 33• فصل، في شرح اسم البابا والبطريرك في الملة
التنصيرية، واسم الكوهن عند اليهود
- 407 34• فصل، في مراتب الملك والسلطان وألقابها:
- 410 • [أ- الوزارة]
- 416 • [ب- الحجابة]

- 420 • [ج - ديوانُ الأعمال والجبايات]
- 425 • [د - ديوانُ الرسائل والكتابة]
- 433 • [هـ - الشرطة]
- 434 • [و - قيادةُ الأساطيل]
- 442 35 • فضلٌ، في التفاوت بين مراتب السيف
والقلم في الدول
- 443 36 • فضلٌ، في شاراتِ الملك والسلطان الخاصة
به :
- 443 • [أ - الآلة]
- 447 • [ب - السرير]
- 448 • [ج - السكة]
- 452 - تنبيهٌ [في ذكر حقيقة الدرهم والدينار
الشرعيتين]
- 454 • [د - الخاتم]
- 458 • [هـ - الطراز]
- 460 • [و - القساطيطُ والسجاج]
- 462 • [ز - المقصورة للصلاة، والدعاء في
الخطبة]
- 465 37 • فضلٌ، في الحروب ومناهب الأمم في
ترتيبها

- 468 1 • فصل، [من مذاهب أهل الكرّ والقرّ
في الحروب]
- 470 2 • فصل، [في ضرب المصاف وراء
العسكر]
- 471 3 • فصل، [في أنّ القتال عند أمم التّرك
يكون مناضلة بالسّهام، وتقيّة الحرب
عندهم بالمصاف]
- 472 4 • فصل، [في حفر الخنادق على
المعسكر خدراً من معرة البيات]
- 475 5 • فصل، [في الظفر والغلب إنّما يحصل
بأسباب مُجمّعة من أمور ظاهرة
وأخرى خفيّة]
- 478 6 • فصل، [في أنّ كلّ ما يحصل بسبب
خفيّ فهو الذي يُعبر عنه بالبتخت]
- 479 38 • فصل، في الجباية وسبب نقصها ووقورها
- 481 39 • فصل، في ضرب المكوس وأخير الدّول
- 482 40 • فصل، في أنّ التجارة من السّلطان مُضرة
بالرعايا، مُفسدة للجباية
- 485 41 • فصل، في أنّ نزوة السّلطان وحاشيته، إنّما
تكون في وسط الدولة

- 487 1 • فصل، [في النزوع إلى الفرار عن
الرتب، لما يُتوقع من المعاطب]
- 490 42 • فصل، في أن نقص العطاء من السلطان
نقص في الجباية
- 491 43 • فصل، في أن الظلم مؤذِن بخراب العمران
- 495 1 • فصل، [في أن من أشدّ الظلمات
وأعظمها إفساداً للعمران، تكليف
الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق]
- 496 2 • فصل، [في أن التسلط على أموال
الناس من أعظم الظلم]
- 498 44 • فصل، في الحجاب كيف يقع في الدول،
وأنه يعظم عند الهرم
- 500 45 • فصل، في انقسام الدولة الواحدة بدولتين
- 503 46 • فصل، في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع
- 505 47 • فصل، في كيفية طروق الحلل للدول
- 510 48 • فصل، في حدوث الدول وتجديدها كيف
يقع
- 511 49 • فصل، في أن الدولة المستجدة إنما تستولي
على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

- 517 50 • قَضَلْ، فِي وَفُورِ الْعُفْرَانِ أَوَاخِرِ الدُّوَلِ ، وَمَا
يَقَعُ فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْمَوْتَانِ وَالْمَجَاعَاتِ
- 519 51 • قَضَلْ، فِي أَنَّ الْعُفْرَانَ الْبَشَرِيَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
سِيَاسَةٍ يَنْتَظِمُ بِهَا أَمْرُهُ
- 521 • [كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ، قَائِدِ
الْمَأْمُونِ، لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ]
- 535 52 • قَضَلْ، فِي أَمْرِ الْفَاطِمِيِّ وَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ
النَّاسُ فِي شَأْنِهِ، وَكَشَفِ الْغَطَاءِ عَنْ ذَلِكَ
- 536 • [مِنْ خَرَجِ أَحَادِيثِ الْمُهَدِّيِّ مِنْ
الْأُمَّةِ]
- 559 • [الْمُتَصَوِّفَةُ]
- 561 • [الْمُتَصَوِّفَةُ وَحَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ]
- 568 • [رَأْيُ ابْنِ خَلْدُونِ]
- 572 53 • قَضَلْ، فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ، وَفِيهِ الْكَلَامُ
عَلَى الْمَلَاحِمِ وَالْكَشْفِ عَنْ مُسَمَّى الْجَفْرِ
- 575 • [مَا وَقَعَ لِأَهْلِ الْأَثَرِ فِي ذَلِكَ]
- 582 • [اسْتِنَادُ الْمُنْجَمِينَ إِلَى الْأَحْكَامِ
النَّجُومِيَّةِ]
- 588 • [الْمَلَاحِمِ]

2006 - 6 - 2000 - 1

Kitāb al-‘Ibar wa Dīwān al-Mubtada’ wa-l-Khabar

fī Ayyām al-‘Arab wa-l-‘Ajam wa-l-Barbar wa man
‘Āṣarahum min Dhawī al-Sultān al-Akbar

By

Walī al-Dīn ‘Abd al-Raḥmān b. Muḥammad
IBN KHALDŪN

BOOK ONE: THE PROLEGOMENA

*Collated with the autograph manuscripts
and prepared with glossaries and indexes by*

Ibrahim Chabbouh & Ihsan Abbas

Tunis 2006

